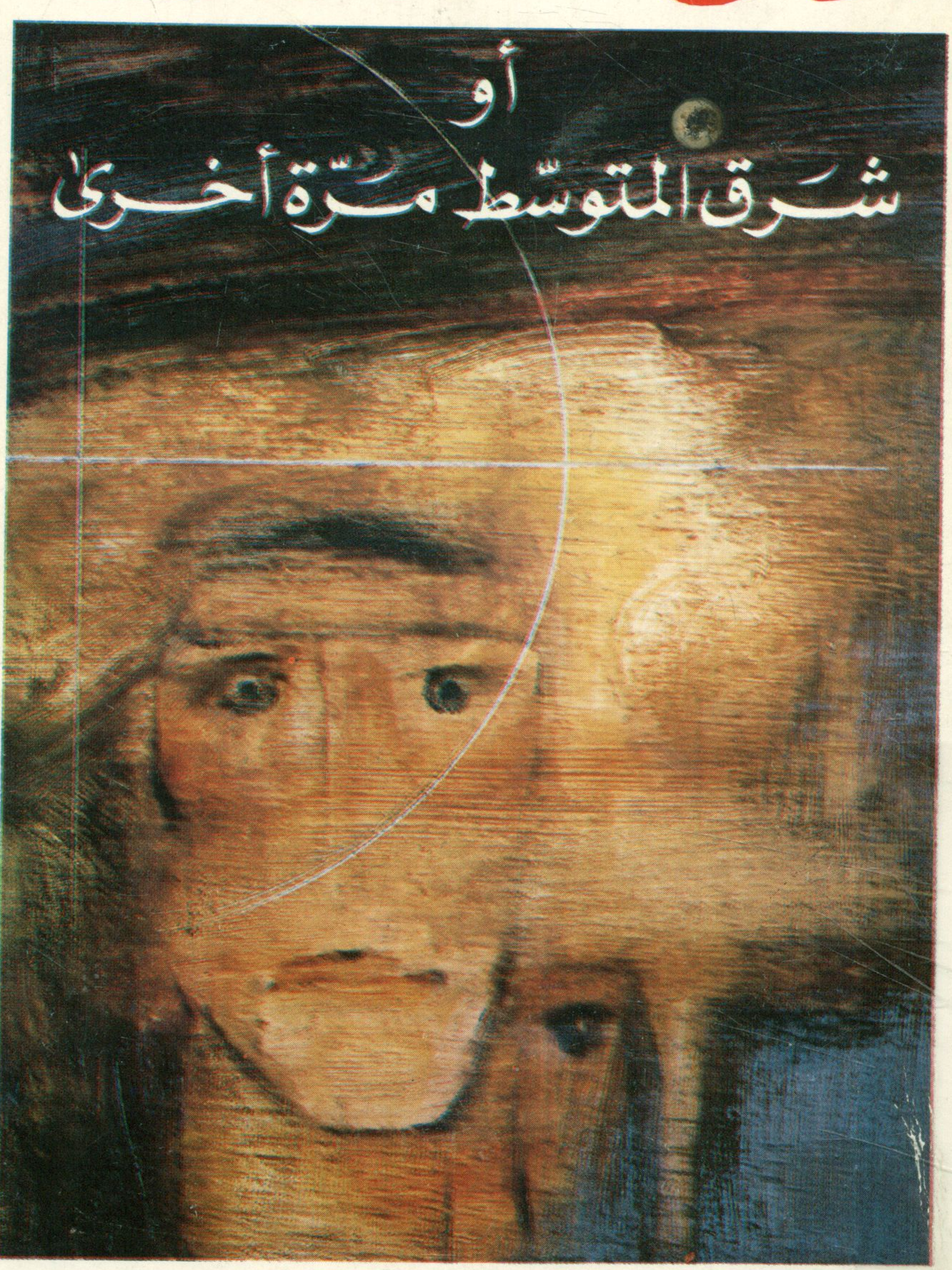
عبد الرحمن منيف

الآن... هُنا



المؤسسة العربية للدراسات والنشر

الآن... هُنا

أو

شرق المتوسط مرّة أخرى

المؤسسة العربية
للدراسات والنشر

المركز الرئيسي:

بيروت، ساقية الجنزير، بناية
برج الكارلتون، ص.ب: ٥٤٦٠-١١
العنوان البرقي: موكيالي، هـ ٨٠٧٩٠٠/٨
تلكس: LE/DIRKAY ٤٠٠٦٧

التوزيع في الأردن:

دار الفارس للنشر والتوزيع، عمان
ص.ب: ٩١٥٧، هاتف: ٦٠٥٤٣٢، فاكس
٦٨٥٥٠١ - تلكس ٢١٤٩٧

الطبعة الأولى
١٩٩١

عبد الرحمن منيف

الآن... هُنا

أو
شرق المتوسط مرّة أخرى

المؤسسة العربية للدراسات والنشر

* جاء في كتاب «حياة الحيوان الكبرى» للاستاذ العلامة والقدوة الفهامة الشيخ كمال الدين الدميري، في باب الذئب، «وروى ابن عدي عن عمرو بن حنيف عن ابن عباس رضي الله عنهما ان النبي ﷺ قال: ادخلت الجنة فرأيت فيها ذئباً فقلت أذئب في الجنة فقال أكلت ابن شرطي فقال ابن عباس هذا وانما أكل ابنه فلو أكله رفع في عليين».

حياة الحيوان
صفحة ٣٦١، الجزء الأول
الناشر: المكتبة الاسلامية
لصاحبها الحاج رياض الشيخ
دون ذكر لسنة الطبع

* روى عن سفيان الثوري: «إذا رأيتم شرطياً نائماً عن صلاة فلا توقظوه لها فانه يقوم يؤذي الناس».

طبقات الشعراني
عن المستطرف الجديد ـ هادي العلوي
صفحة ٧٧ ـ طبعة ثانية موسعة
مركز الأبحاث والدراسات الاشتراكية في
العالم العربي ١٩٨٦

* «أفضل ما يفعله الانسان ان يحيل اوسع تجربة ممكنة الى وعي»

بطل رواية الامل
مالرو

الدهليز

حين بدا موتي وشيكاً . . اطلقوا سراحي!

لم يكونوا راغبين ان اموت عندهم، رغم أنهم لم يكفوا عن التأكيد، خاصة خلال الفترة الاولى من الاعتقال، اني لن أخرج من هنا الا الى القبر! الان، وقد تحقق لهم احتمال موتي، من خلال تقارير الاطباء، ومن اصراري العنيد البارد برفض تناول الادوية، وبعد الدعوة الى الاضراب العام عن الطعام، وقد تسربت معلومات ان الاضراب سيعلن اذا لم تستجب السلطات وتنقل المرضى للعلاج . . .
افرجوا عني وعن اثنين آخرين.
وهكذا اصبحت حراً!

الاسبوع الذي قضيته في البيت، وقد زارني خلاله بعض الاطباء، واجريت لي عدة فحوص، وتم فيه التشاور والسؤال عما اذا كان بالامكان معالجتي في عمورية او نقلي الى الخارج، ومدى احتمالي للسفر، ثم النتائج المتوخاة، وقد بلغت تلك الحالة من الانهيار. . . هذا الاسبوع الذي لم تهدأ فيه الحركة، لا اتذكره الا دوياً مكتوماً اقرب ما يكون الى سقوط أجسام ثقيلة على ارض رخوة، يعقبه صمت هش مخنوق، تماماً مثل حالة الغرق. أما وجوه الاهل والاصدقاء التي كانت تتعاقب فلا اتذكرها الا على شكل اطياف متداخلة متشابهة.

في نهاية الاسبوع، وبعد اجراءات عديدة، من ضمنها التعهد بالعودة حالما ينتهي العلاج، سافرت، او بالاحرى سُفّرت الى براغ.

كانت الساعات الاخيرة، قبل السفر، حافلة، اذ اضافة الى حالة الصحو المفاجئة، وكأن شيئاً في داخلي أُستنفر وتيقظ، تماماً كما كان يحصل لي في جلسات التحقيق بعد كل حفلة من حفلات التعذيب. . . فان نظرات المودعين في البيت ثم

في المطار، وكلمات التشجيع الكثيرة، والمليئة بالمبالغة، أكدت لي أني لن أرى عمورية مرة اخرى، ولن أرى أياً من الذين يتزاحمون حولي الآن. كنت أحاول الابتسام، ولا أعرف الى أي حد نجحت، وكنت أتملى الوجوه حولي والاماكن، لعلها تثبت في ذاكرتي وترافقني حتى اللحظة الاخيرة. أما وأنا اعتدل في الفراش، ثم وانا أحاول موازنة جلستي على الكرسي المتحرك في المطار، بعد ان عجزت عن السير، وبعد أن رفضت أن يحملني بعض الأهل، وكانوا شديدي الانفعال والحزن، فقد كنت املأ رئتي الى الحد الأقصى بالهواء وروائح الاشياء والاجساد، لأني على يقين أن هذه الفرصة الأخيرة، المرة الأخيرة، التي يقدر لي أن أرى وأسمع وأشم ما تبقى من الاصدقاء والاهل والوطن.

في اللحظات الاخيرة بذلت جهداً استثنائياً لكي ابقى قوياً ومتماسكاً، رغم التوتر وتزايد ضربات القلب؛ كنت أرد على النظرات المتسائلة المكسورة، وتلك التي تحاول الاكتشاف، بابتسامات حمّلتها أقصى ما استطيع من الشجاعة. وشددت على الايدي التي كانت تمتد لمصافحتي بقوة، لكن، في لحظة ما، ولا أعرف متى او كيف جاءت تلك اللحظة، استبد بي اليأس وقهرني التخاذل فلم استطع حبس دموعي، بكيت، وفعل ذلك عدد من المودعين. أما آخرون فقد فضلوا الابتعاد، ابتعدوا وغرقوا في الصمت والحزن، أما حين اقترب الفراق، ودُفع الكرسي شاقاً طريقه في الممر الخاص بالمعوقين، فكدت اصرخ وأتوقف طالباً العودة والموت هنا، لكني كنت مبدداً الى درجة التلاشي، كنت حزيناً الى الحد الذي تساوت لدي جميع الاشياء: ان أموت هنا أو في أي مكان آخر، أن أبقى أو أن أغادر، فاستسلمت الى الدفعات التي تسارعت باتجاه الطائرة!

نظرات المضيفات وتصرفاتهن كانت مليئة بالود ورغبة المساعدة، ومع ذلك امتلأت يقيناً أني لن أصل الى نهاية الرحلة، سأموت في الطائرة وقبل الوصول الى براغ. نعم ان ذلك سيحصل، وسيخلف موتي حالة من الارتباك ثم الشؤم، ولا بد أن يتكدر الركاب وطاقم الطائرة. ولقد تأكد الامر أكثر وأنا أتبادل النظرات مع المسافرين الذين اخذوا يتدفقون بسرعة. كانوا وهم يرونني ملفوفاً بالبطانيات، ومسنوداً بالوسائد، يرتبكون، وكانوا بسرعة يسحبون نظراتهم بعيداً. وكان اخرون، وبعد ان يتملوا من منظري، تسرع خطواتهم وتضطرب، مندفعين الى داخل الطائرة. عرفت، ربما، بعض المسافرين، لكن اياً منهم لم يعرفني، او هكذا

تظاهروا ! انه الزمن ، فإذا اضيف اليه الغياب ، فعندئذ يجب ألا نطالب الآخرين بتذكر ما بذلوا جهداً من أجل نسيانه !

واذا كنت اول الذين صعدوا الى الطائرة فقد كنت آخر الذين انزلوا منها. كان المسافرون، وهم يتدافعون بصخب وسرعة، يريدون المغادرة، ينظرون الى الجهة التي انا فيها، كانوا يفعلون ذلك ليتأكدوا انني لا زلت حياً، وبدافع الفضول والشفقة ايضاً، فاذا تـأكدوا واقنعتهم حـركتي، وكنت ارقب النـافـذة لاجنبهم ان تلتقي نظراتنا، فلا بد ان يحسوا بخيبة امل، لانه لن يتاح لهم مفاجئة مستقبليهم وإدهاشهم، وهم يروون لهم كيف مات احد الركاب على الطائرة! ومع ذلك لن تفوت الكثيرين الاشارة الى ذلك المريض ـ الميت، وقد يضيف بعضهم بسخرية «هؤلاء العرب لا يعرفون الـطبيب او العلاج الا حـين يدق المـوت ابوابهم. . . ليس ذلـك فقط، يتصورون اننا قادرون على اعادة الحياة للموتى. . . ما أشد حماقتهم!».

في براغ لم يردوا عني الموت، اوقفوا زحفه فقط. بذلوا كل جهدهم، وبكثير من الدأب والجهد وباعمال الخيال ايضاً، توصلوا، وبعد فترة من الانتظار، الى ترميم جسدي المتداعي، خاصة بعد ان عرفوا لماذا أصبحت هكذا! وكان بعض الاطباء لا يكف عن الحديث عن المستقبل!

قضيت شهـوراً طويلة في مستشفى كـارلوف . أجـريت لي خـلالها عـدة عمليات ، بدأت بعدها اتحسن ، ثم بدأت اميل الى الشفـاء ، لكن ضمن نسق جديد : « لم تعد شاباً ، سوف تتحسن بالتدريـج ، لكن عليك ان تتقبـل وضع المرض ، وان تتعايش معه » .

وهكذا بدأت ادخل مرحلة جديدة اقرب ما تكون الى الكهولة، مع مجموعة من الامراض التي تقوى وتشتد، وبعض الاحيان تغفو، وبدأت استعـد لاستقبال الحياة الجديدة ضمن هذه المواصفات. كنت اعد نفسي لاحتمال ذلك، لتقبله، وأيضاً لنسيان الماضي. لكن حصل شيء غير المسار من جديد، وهذا التغير لم يكن نتيجة المرض بشكل مباشر، ولم يكن نتيجة الرغبة، لقد كان لسبب لم يخطر لي ببال!

ففي براغ، حيث توقف الموت، او تأجل، بدأ موتي الآخر!

في المستشفى تعرفت، ويجب ان لا تتسرعوا او تذهب بكم الظنون بعيداً،

فتفترضون مثلاً اني تعلقت بامرأة، وهي التي تسببت بموتي او بقتلي، اذ بعد ان همت بها تخلت عني، قد تتصورون مثل هذا الاحتمال، وكنت اتمناه، وقد يجنح بكم الخيال الى تصور تلك المرأة. قد تفترضون انها طبيبة او ممرضة، كما يحصل عادة في الافلام والروايات! وقد تكون مريضة في فترة النقاهة، وخلال التمشي في الحديقة، ومن النظر الى الابتسام، ثم الحديث، وقعنا في الغرام، وأصبحنا مرضى من نوع آخر! او ربما تكون زائرة لاحدى المريضات، ولسبب ما وقعنا في ذلك الداء الذي يصيب جميع البشر: العشق، وهكذا دخلت المستشفى بسبب، ولم اخرج منه لسبب آخر!

لا لم يحصل شيء من هذا، وان تمنيته طويلاً وكثيراً، لكنه لم يتح لي.

ان الذي غير حياتي ووضعني على حافة الموت هو اني تعرفت على طالع العريفي!

وطالع العريفي مريض مثلي، جاء من موران للعلاج. وكما يحصل بين اثنين يتعارفان على ظهر باخرة او في سجن تعارفنا.

حصلت الامور بالصدفة، كما تحصل في الحياة خارج المستشفى وخارج السجن، اذ ما كادت تنقضي ايام على وجودي في المستشفى حتى جاء لزيارتي.

جاء بين العصر والغروب، في تلك الساعة الشجية، والتي غالباً ما يحصل في مثلها ان تبدأ علاقة او ان تنتهي. كان في ثياب المرضى، وفوق الثياب روب نبيذي كامد، ربما كان لواحد غيره اضخم منه حجماً، او ربما اشتراه في اللحظة الاخيرة دون تدقيق، لان الروب كبير فضفاض بحيث يتسع لواحد آخر معه!

كان طالع نحيفاً الى درجة لافتة للنظر، وهذا ما يجعله يبدو طويلاً، رغم انه مربوع او اميل الى القصر. اسمر، وتتضح سمرته أكثر نتيجة بياض الاسنان وانتظامها، عدا السن الوسطى، عيناه واسعتان حزينتان، خاصة حين يصمت او وهو يتأمل. وما يزيد في حزن العينين أكثر: الهالات، وكأنها اثار كدمات قوية او كحل قديم!

بدون ارتباك، وبكلمات قليلة، قدم نفسه على انه احد نزلاء المستشفى، وانه يعرف التشيكيه، ويمكن ان يكون مفيداً لي اذا احتجت الى مساعدته، وقبل ان اجيب على عرضه، تابع وهو يدور حول السرير:

ـ ولدي بعض الكتب والمجلات يمكن ان اضعها تحت تصرفك.

ابتسمت وهززت رأسي. كنت متعباً، نتيجة الفحوص الكثيرة التي اجريت لي خلال الأيام الأخيرة. وكنت احس بالحرج نتيجة بقاء ناجي، الصديق الذي رافقني في هذه الرحلة، فترة طويلة اضافية الى جانبي، ولذلك كنت مصمماً ان أواجه الموقف وحدي في اقرب فرصة ممكنة، اعتماداً على لغتي الفرنسية، او بمساعدة احد من العرب المقيمين. ولذلك، ورغم الحذر الغريزي الموروث من السجن، فقد اعتبرت العرض الذي يقدم الي الان سخياً وغير متوقع، مما جعل رد فعلي موازياً لهذا السخاء، اذ رحبت بالزيارة، وبدر مني ما يشي بموقف ودي مبالغ فيه. انتعش طالع، وكأنه لم يتوقع، فقال بانفعال:

ـ قلت لنفسي: العرق دساس والدم ابداً ما يصير ماي!

وبعد قليل، وكأنه يحدث نفسه:

ـ ان الغريب للغريب نسيب، وانت تدري ان النسيب احسن من ابن العم في بعض الأحيان!

وضحك، اضفت وأنا أترنم:

ـ ان الغريب للغريب نسيب وقريب وحبيب!

هكذا تعارفنا. وخلال ايام أصبحنا أصدقاء. ومثلما للسجن لغته، فان المرضى يستطيعون التفاهم فيما بينهم بيسر وسرعة، فاذا اضيف الى المرض الغربة، فعندئذ تولد لغة شفافة شديدة الحساسية والنفاذ، ويمكن لاقل الكلمات، وبعض الاحيان دون كلمات، ان تخلق حالة من التفاهم، كما ان العلاقة بين البشر المحصورين في مثل هذا المكان، ويواجهون نفس الآلام، تختلف من حيث المتانة والمدة التي تتطلبها عن علاقات العالم الخارجي.

ما كادت اسابيع تمضي حتى أصبح اي منا يعرف الآخر وعن الآخر ما لا تستطيع سنوات من الحياة العادية المشتركة ان تخلقه، خاصة بعد ان اكتشف كل واحد منا ان الاخر كان سجيناً، وربما لاسباب واحدة او متقاربة. لقد احسسنا، ونحن نكتشف هذه الحقيقة، بفرح اقرب الى النشوة. أكثر من ذلك تصافحنا بحرارة وبمودة زائدة، وكأننا نتعارف من جديد، او أصدقاء يلتقون بعد غياب طويل! كما اصبحنا قادرين

على ان نخوض في عدد غير محدود من المواضيع، بما في ذلك الامور الصغيرة او الشخصية!

ان الانسان وهو يعثر على نفسه في الآخرين، ويحدد ما هو قوي ومشترك بينه وبينهم، يتحول الى طفل كبير: حمل اليّ طالع عدداً من الكتب التي كانت لديه، مع اني لم أكن قادراً على القراءة في تلك الفترة. ولما وجد ان هذه المتعة لم تدخل الغبطة الى قلبي بالمقدار الكافي، حمل اليّ مجموعة من المجلات المصورة واوراق اللعب، اضافة الى صندوق من التمر الجيد، لا بد انه ادخره لوقت لاحق، ليوم خروجه من المستشفى لكي يقدمه للطبيب تعبيراً عن الامتنان والشكر؛ ثم اخذ «يسرق» لي وردة يومياً من مكان ما اذا لم يزرنا احد، او لم يحمل لنا الزائر زهوراً!

لا استطيع ان احدد مقدار التأثير الذي ولدته الحالة الجديدة، لكن يبدو ان تحسناً واضحاً وسريعاً بدأ يظهر علينا نحن الاثنين، ولقد لاحظه الأطباء، وابدى احدهم استغرابه! أكثر من ذلك لم يُعترض على نزول طالع مرة او مرتين الى براغ خلال تلك الفترة، او بكلمات ادق تظاهرت الممرضة المشرفة انها لم تعرف ولم تلاحظ، أما الطبيب المعالج فقد اعتبر الامر جزءاً من العلاج!

لم استطع ان اقدر الدوافع الحقيقية لنزول طالع الى المدينة، لكن تبين لي في وقت متأخر انه اشترى كمية من الاوراق والدفاتر، وايضاً بعض الكتب، ويبدو ان احاديثنا حول مواضيع وأفكار كثيرة، واستعادة الذكريات، وغالباً ما كنا نرويها بمرح، حرضته وجعلته يفكر بالكتابة. ولقد اتضح لي ذلك من التساؤلات حول جدوى وأهمية الكلمة، ثم من حالة الكآبة التي اخذت تتسلل الى وجهه، خاصة الى عينيه، اذ كان يبدو بعيداً غارقاً في التفكير، وفي المرات التي حاولت معرفة ما وراء هذه الحالة كان يرد انها لاسباب طارئة، ولا بد ان تزول بسرعة!

في احدى الامسيات، وبدون تمهيد قال لي بانفعال:

- يبدو انني لن أشفى...

وحين فتحت عيني باستغراب، تابع وهو يهز رأسه بحزن:

- ولا اشعر اطلاقاً أنني اصبحت حراً!

قدرت انه يعاني. لم اشأ ان افرض عليه تفاؤلي الهش باستعمال الكلمات التي

يتداولها الناس عادة في مثل هذه الحالات. صمت. نظر اليّ، لكن بدا لي انه لا يراني، وبعد فترة صمت طويلة:

ـ احمل السجن معي اينما ذهبت، ويبدو انني لن استطيع التخلي عنه ابداً!

ـ تحمل السجن معك؟

ـ نعم، وهذا اخطر ما في المشكلة. لقد اصبح السجن، بالنسبة لي، حالة لا تغادرني، تماماً كالعلامة الفارقة!

قلت استفزه، لعلي اخرجه من هذا الجو:

ـ نحن العرب عباقرة في توهم الاحزان ثم في الاستسلام لها!

ـ يمكن ان تقول اي شيء، ولكني اؤكد لك ان السجن ليس فقط الجدران الاربعة، وليس الجلاد فقط او التعذيب، انه، بالدرجة الاولى: خوف الانسان ورعبه، حتى قبل ان يدخل السجن، وهذا بالضبط ما يريده الجلاد، وما يجعل الانسان سجيناً دائماً.

ـ لم أفهم ما قلته.

ـ لا اريد ان استعمل كلمات كبيرة او خاطئة، ولكن قناعتي اننا نحن الذين خلقنا الجلادين، ونحن الذين سمحنا باستمرار السجون. لقد فعلنا ذلك من خلال تساهلنا وتنازلنا عن حقوقنا، ومن خلال استسلامنا لمجموعة من الاوهام والاصنام، ثم لما اصبحنا الضحايا لم نعد نعرف كيف نتعامل مع هذه الحالة.

ـ لا حاجة لان نجلد انفسنا مرة اخرى، يكفي ما تلقيناه من عذاب.

ـ ولكن العذاب الحقيقي، يا صاحبي، هو ان نعيش في الوهم. نفترض، بعض الاحيان، اننا ما دمنا خارج السجن فنحن احرار، ونظل في هذا الوهم الى ان يطبق الفخ على اقدامنا، وعندها نندم لاننا لم نفعل شيئاً، ليس فقط لئلا ندخل السجن، وانما لأننا لم نفعل ما يجب علينا لكي لا يكون السجن اصلاً.

قلت بيأس:

ـ سيبقى السجن، يا طالع، وسيبقى السجان، ما دام هناك ظلم واستغلال.

ـ اعرف ذلك، لكن ما افكر فيه السجن الداخلي، وهو ان يرضى جميع الناس بالبقاء في هذا السجن، عدا مجموعة صغيرة للحراسة، وهذه المجموعة ذاتها دائمة الخوف لانها لا تعرف متى ستلتحق بالاخرين وتدخل السجن ايضاً. لو كان شعور الناس بالحرية حقيقياً لتقلص السجن الى حدوده الجغرافية، وربما انتهى، لكن ما دام الناس هكذا فان السجن لن يبقي احداً خارجه!

ـ لا اعرف ماذا تعني بالضبط، ولكني متأكد من امر اساسي: لا يمكن ان نهدم السجون الا اذا الغينا حالة الخوف وعقل الخوف، وهذا، برأيي لا يكون الا بالفضح، بالتحدي، وايضاً بالشجاعة، وان يكون الانسان مثلاً. والخطوة الاولى، في هذا السبيل، ان نقول الحقيقة، وأن نؤمن بالحرية لأنفسنا وللآخرين.

حتى تلك اللحظة كان جالساً على طرف السرير ونحن نتحدث، نهض واتجه الى النافذة، بعد فترة من التأمل والصمت، سأل:

ـ وهل تعتقد ان الكلمة يمكن ان تواجه الرصاصة؟ وهل تستطيع الاوراق الهشة ان تحرر سجيناً واحداً او ان تفتح كوة في اصغر سجن من هذه السجون العربية؟

وقبل ان اجيب التفت اليّ، وكشف عن صدره، وتابع بانفعال:

ـ وهذه الاثار كيف تزول، ومن سيدفع ثمنها؟ وحياتنا، بعد هذه السنين، هل لها معنى او فائدة؟ ولمن؟

تحركت في سريري، ارتفعت بصلابة، وقلت بهدوء لكي امتص غضبه:

ـ اسمع يا طالع: لقد فعلنا كل ما فعلناه من أجل قناعاتنا، وكنا نعرف ان هذا الطريق ليس طويلاً وشاقاً فقط، كنا نعرف اننا قد ندفع حياتنا من أجله، وأعتقد اننا لسنا آسفين او نادمين على ذلك، ولا بد انك تشاركني الرأي.

ـ لنفترض اننا على اتفاق، ولكن، وكما قلت لك، اشعر الان انني في السجن أكثر مما كنت هناك، وهذا الشعور نتيجة العجز عن تغيير شيء، عن تحرير انسان.

ـ ولكن السجناء سيتحررون ذات يوم يا طالع.

قال وهو يقترب وينظر اليّ بتحديد:

ـ اخشى، يا عادل، ان يحصل العكس، لان الامور، كما اراها الان، تأخذ مساراً مختلفاً عن السابق. .

وبعد قليل وكأنه يحدث نفسه:

ـ المشكلة ليست في الصعوبات، فلكل مرحلة صعوباتها وتعقيداتها، وأيضاً ضحاياها، ولكن المشكلة كما ارى، هي في انعدام اليقين، في الهزيمة الداخلية التي نعيشها، مما يجعل الكثيرين حائرين ثم يائسين، وهذا ما يريده الجلاد: ان نأكل انفسنا، وان يأكلنا الندم حتى ننتهي تماماً.

ساد بيننا صمت ثقيل، ربما كانت هذه هي احدى المرات القليلة التي نقول فيها الاشياء بوضوح. كنا في مناقشاتناالسابقة،حين نقترب من المشكلات الحارقة، نقول كلمات متلعثمة او مواربة، مع زفرات وهزات من الرأس، على أمل أن تجد هذه المشكلات لنفسها حلاً. هذه المرة لا اعرف لماذا فجر طالع الاحزان كلها، قلت في محاولة لان اخلق جواً جديداً:

ـ سألتني قبل قليل ما اذا كانت الكلمة تستطيع مواجهة الطلقة او قادرة على تحرير سجين، وأنا أقول لـك، ومتأكد مما أقول، ان الكلمة الصادقة قد لا تظهر نتائجها بسرعة، ولكن حين تنفذ الى عقول الناس وقلوبهم وتستقر هناك، فلا بد ان تتحول الى قوة، وتكون قادرة على فعل الكثير.

سأل بسخرية:

ـ ان تواجه الطلقة وتخرسها؟

ـ لا اريد المقارنة، ولكن أنت تعرف ان العالم لم تغيره الا الافكار، اي الكلمات، وقد حصل هذا منذ اقدم العصور وحتى الان. وبالمقابل فان ملايين الرصاصات التي ملأت الدنيا صخباً ودوياً انتهت الى الصمت المطبق، الى الموت، دون ان تستطيع تغيير شيء.

ـ اريد ان اصدق هذا الوهم!

هكذا كانت تجري المناقشات بيننا في احيان كثيرة، ربما نتيجة الهواجس والذكريات التي تملأ ليالي المرضى، تماماً كما كان الحال في السجن، فالليل والصمت، ويضاف هنا الالم، ثم ذلك الحنين الى شيء ما، وغالباً ما يكون غائماً او

مختلطاً، يدفع مجموعة كبيرة من الاسئلة والافكار، بحيث لا يستطيع الانسان ان يقطع برأي او يكون متأكداً ما لم يناقشها مع صديق، وهذا ما يجعله متطرفاً فيدفع الامور الى نهاياتها، لعله يجد في الحوار جواباً او ما يشبه الجواب.

كانت حواراتنا تطول وتتشعب، وكانت تمتد في بعض الاحيان. والاخت جوليا مسؤولة ممرضات الليل، الحازمة، المسنة، وهي تمر على الغرف لتتأكد ان كل مريض في سريره، وأن كل شيء يسير بشكل طبيعي، كثيراً ما وجدت طالع في غرفتي، ولذلك اصبحت تبتسم وتردد نفس الجملة:

- وانت، مرة اخرى، هنا؟

وتهز رأسها بلوم أقرب الى الاشفاق، وتضيف، وهي تستدير، تريد الخروج، ولكي تمنع طالع من رؤية ابتسامتها الصغيرة.

- سأعود بعد قليل لكي اراك في فراشك!

وغالباً لا تعود، او تتعمد ان تتأخر في العودة. وطالع رجل من النوع الصعب، لا يمكن ان يقتنع بسرعة او بسهولة، فاذا الحت عليه فكرة يظل تحت تأثيرها ليلة، يوماً بكامله، الى ان يصل الى جواب!

في بعض الليالي، حين أكون متعباً، او لا املك اجابة عن سؤال يطرحه، اقول له بمداعبة:

- لقد تعلمت، يا طالع دروساً كثيرة في السجن، ولعل اهم هذه الدروس الا تترك المعتقل يستريح حتى تنتزع منه اعترافاً كاملاً!

حين يسمع مثل هذه الكلمات، او حين تطل كبيرة الممرضات، جوليا، في المرة الثانية، ينتزع نفسه من الكرسي وينهض. يسير ببطء وتثاقل، وبعد ان يفتح الباب يستدير من جديد، ويقول واحدة من عبارتين:

- «سأعود... بعد قليل لاراك نائماً» او «حضـر نفسك لترى نجوم النهار». واذا كانت عبارة جوليا تدل على انه اقرب الى الاقتناع، وقد وصل الى الاجابات التي كان يبحث عنها، فإن العبارة الثانية، وهي للشهيري، المحقق الذي أذاق طالع الموت مرات عديدة اثناء التحقيق، فهي تعني ان جولة اخرى من النقاش تنتظرنا غداً، وحول نفس الموضوع!

كنا، في بعض الاحيان، ربما نتيجة الضيق، او لاختبار قوة فكرة من الافكار، نحتد في المناقشة ونعاند، فاذا اطلت علينا احدى الممرضات، وغالباً ما تكتفي بالابتسام، اشارة الى اننا تجاوزنا الحد، ويفترض ان نكون نائمين في مثل هذه الساعة، فان جوليا ترفع يدها اليمين، وتزم ابهام وسبابة اليد اليسرى وتقربهما من فمها مخرجة صوتاً اقرب الى الصفير، طالبة منا ان نتوقف فوراً. وحين نصمت، تقترب وتقول لطالع بهمس، وكأنها تعلمه درساً اضافياً في طريقة الحوار:

ـ يجب ان تعرف، ايها السيد، ان ذوي الاصوات العالية ليسوا دائماً على حق!

ـ وليسوا دائماً على خطأ!

هكذا يرد بانفعال، وبصوت، وان بدا اقل ارتفاعا، الا ان نبرة الحدة لا تزال تميزه، فتجيبه جوليا همساً:

ـ بداية الخسارة في الحب والسياسة: الغضب!

ينظر اليها ملياً. تنفرج الشفتان وتظهر ابتسامة صغيرة. يهز رأسه ويقول كأنه يتحدث لنفسه، لكنه يتحدث اليها اولاً، ثم يترجم لي ما قاله:

ـ تستغربين اذا قلت لكِ ايتها السيدة المحترمة انني كنت اتمنى اللحظة التي يغضب فيها المحقق، كان يترجم غضبه الى عذاب، ولكني كنت احس انه خسر الجولة تماماً، انه فقد أهم اسلحته، وهذا يجعلني أقوى وأكثر قدرة على تحمل العذاب الاضافي. ويجعله ايضاً مهزوماً، او يكاد، بالنسبة لي!

وبعد ان يخيم الصمت، وكانت جوليا تشاركنا تلك اللحظات، ولأن جواب طالع اقنعه، وربما ارضاه، يضيف، وقد فارقت عيناه هالات الحزن:

ـ اعرف هذا الجانب نتيجة التجربة، اما الامر الاخر، الحب، والذي يمكن خسارته نتيجة الغضب، فانا بحاجة لان اجربه.

تبتسم جوليا، وتسأل بهمس وهي تستعد للمغادرة:

ـ اتريد ان تجرب الحب ام الغضب؟

ـ الاثنين معاً؟

فاذا كان في الوقت متسع، ولا تزال سماحة جوليا تمنحنا مزيداً من الوقت، فعندئذ تتراجع الى الخلف، ترفع يدها، مع حركة صغيرة، وصفير بالابهام والسبابة، كي نواصل ما نحن فيه، لكن بهدوء هذه المرة. أما اذا حان وقت النوم فتردد عبارتها ذاتها:

ـ سأعود بعد قليل لكي اراك في فراشك!

ورغم ان هذا المشهد المرح تكرر عدة مرات الا ان جوليا كانت شديدة الاستغراب من طريقتنا في المناقشة. قالت لطالع ذات مرة:

ـ اتمنى ان اراك وقد احببت امرأة، لاعرف كيف تتصرف معها، وايضاً لارى كيف تخاطبها.

يجيب طالع وهو يضحك:

ـ اعتقد ان المرأة ليست بحاجة الى كلمات كثيرة، تكفيها كلمات القلب ولغة العيون!

تهز جوليا رأسها هزات حكيمة وتقول بمكر بريء:

ـ اذن يجب ان تشفى بسرعة لارى لغة القلب والعيون!

حين تنسحب ونعود الى الحديث، يقول بصوت مخدوش:

ـ يمكن ان يستغربوا اصواتنا، طريقتنا في المناقشة، لانهم لا يعرفون كم من الصدأ غلف السنتنا وحلوقنا. كما لا يعرفون دوافعنا لتحدي تلك الحكمة الازلية في بلادنا: اذا تكلمت في النهار فالتفت، واذا تكلمت في الليل فاخفت...

شابت وجهه مرارة وهو يضيف:

ـ وقد تستغرب انت اذا قلت لك: انني في احيان كثيرة اقبض على نفسي اكلم نفسي بصوت عالٍ، لقد كنت افعل ذلك وانا في المنفردة، لكي لا أجن، أما هنا فافعله لكي اقنع نفسي انني اصبحت خارج السجن، وانت تعرف ان بداية شعور الانسان بالحرية ان يكون قادراً على الشعور بالحرية والكلام دون خوف، وان يرفع صوته اذا اقتضى الأمر!

ومن المواضيع العامة نتسلل الى الموضوعات الشخصية.

في وقت ما، وبعد ان تعبنا من مناقشة قضايا العالم عرجنا الى الامور الخاصة، ولقد بدا لي ان طالع لا يزال حائراً متردداً، ففكرة مواصلة الدراسة تراوده لكن دون حماسة كبيرة، ودون تحديد للموضوع، كما تراوده رغبةالعودة،لكن متسللاً هذه المرة، لان موران بعد ان تعبت منه اعتبرته من رعاياالدواحس وابعدته. وقرار بالعودة لا يتم، ولا يمكن ان يتخذه دون موافقة المسؤولين في الداخل، ويبدو ان علاقته بالتنظيم لا تزال ضعيفة او غير محددة بدقة، ولقد بدا لي ذلك ثم تأكدت من تلك اللهفة التي يبديها اثناء زيارة بعض الاصدقاء، ثم حالة الاحباط التي تسيطر عليه، لان الزيارة اقتصرت على احاديث عامة وبعض الكتب والمجلات، ولم تحمل اليه الجواب الذي كان ينتظره! وايضاً من ذلك السؤال الذي لا يتعب من تكراره مستفسراً ما اذا وصلته رسائل ام لا!

كنت، وانا ارقب توزيع الرسائل، وليس بينها رسالة له، اقول بدعابة، وفي محاولة لان اخفف عنه:

ـ ليس امامنا الا ان يكتب الواحد منا للاخر، وبهذه الطريقة نتلقى رسائل أكثر من جميع المرضى!

فاذا لم يجب اضيف مازحاً:

ـ ويمكني ان اتخفى وراء اسم امرأة وأكتب اليك رسائل عشق اذا اردت!

يزفر بحزن، يعتم وجهه، ويخرج صوته، كما تريده جوليا، همساً:

ـ انتهى الامر: لقد اتخذت قراراً بالنسبة للمرأة والزواج!

ولكي لا اعود لمثل هذه الدعابة مرة اخرى يضيف بنبرة جديدة:

ـ من الخطأ ان يفكر مرضى السل بالزواج والاولاد، لان هذا المرض يمكن ان يختفي، ولكنه لا ينتهي، فاذا قدر علينا ان نصاب بهذا المرض، فيجب الا ننقله للآخرين. . .

ورغم اني فوجئت باصابته بهذا المرض، فقد حاولت، اعتماداً على معلوماتي العامة، ان أؤكد له خطأ تصوراته وتقديره، لان السل لم يعد مرضاً خطيراً للاخرين، لكن طالع، باصرار اقرب الى عناد الاطفال، يرفض ان يصدق او ان يقتنع. والمرات

التي حاولت معه ان نحتكم الى الطبيب كان يقابلها برفض اقرب الى السخرية، كان يقول:

- المرضى يعرفونه أكثر من الاطباء!

ويدق على صدره لتأكيد هذه الفكرة، فارد عليه:

- ولكنهم لا يعرفون احسن منهم!

وحين يهز كتفيه دلالة عدم الاهتمام احتد:

- اذا لم يكن الامر كذلك فلماذا نحن هنا، وكيف نكون علميين في ناحية، ونؤمن بالخرافات في الناحية الثانية؟

ولم نصل الى اية نتيجة لان طالع لم يكن مستعداً لذلك.

في فترة لاحقة، وبأساليب لا تخلو من مكر، حاولت ان اعرف ما وراء هذا الموقف، الى ان افترضت ان طبيعة حياته لا تسمح له بالزواج، ولذلك، وما دام الامر مؤجلاً، فالافضل عدم التفكير فيه. وفي فترة اخرى اعتبرت الامر نتيجة صدمة او تجربة فاشلة، وهذا ما يجعله غير راغب في تجربة جديدة. وقدرت ايضاً ان المصابين بالسل تنتابهم هواجس في بعض الحالات تجعلهم، رغم الشفاء، اقرب الى السوداوية والتشاؤم، بحيث يصبحون غير ميالين لعلاقة من هذا النوع.

ظلت هذه الافكار تظهر او تغيب تبعاً لمزاج كل منا وحالته الصحية او النفسية.

وفي احد الايام المتأخرة من ايار، وكانت الطبيعة تتفتح بنزق يشبه الجنون، وهي تستعرض مفاتنها، وتضفي على الوجوه والاجساد، وحتى الحركات، ألقاً وعربدة، وتعطي للحياة مذاقاً مختلفاً عن ايام الشتاء الباردة والكامدة... في ذلك اليوم، وقد سبق الاحداث باسبوع واحد، كان لدى طالع ما يريد ان يقوله:

- تذكر مناقشتنا قبل اسابيع حول الزواج؟

- لا اذكر غيرها!

وافلتت مني ضحكة صغيرة، فقد احسست ان الطبيعة، هذه الطاقة التي لا تتوقف لحظة واحدة، لم تغفل عن طالع ولم توفره. فها هي الان تستفز اعماقه

النائمة، تحركها، لكي تنهض وتلاقي النور والدفء اللذين يتفجران من كل الانحاء ومن كل الاشياء، وها هو طالع يستجيب للنداء فيعود من جديد الى ما اعتبره منتهياً، يعود الى المرأة.

هز رأسه وابتسم بحزن. قلت لازيل الحرج، ولئلا يتردد في مواصلة الموضوع:

ـ نعم... اتذكر تلك المناقشات جيداً.

ـ قبل ايام، وبعد فحص كامل، أكد لي الدكتور ميلان انني في حالة صحية جيدة، ولن احتاج لاكثر من اسبوعين الى ثلاثة اسابيع لكي اغادر المستشفى الى الجبال، وانني سأكون قادراً حتى على الزواج...

نظر الي بطريقة اختبارية يريد قياس رد فعلي، وهل عليه ان يواصل في نفس الاتجاه ام ان يختار طريقاً اخر. لما وجدني عيونا صاغية، وقد فارقني المكر، تابع بنبرة دعابة:

ـ بعد ان طمأنني الدكتور ميلان تماماً سألته ما اذا كان مرضي القديم يمنعني فعلاً من الزواج ام لا، فشرح لي الحالة بدقة وبالتفصيل، وقال: تزوج وعلى مسؤوليتي!

ـ ولذلك فانت مقتنع ولا بد ان تنفذ توصيات الطبيب؟!

ـ لا بد ان افكر!

وبعد قليل وهو يتمطى:

ـ لا تزال امامنا اسابيع وشهور، وسوف نصل الى القرار المناسب!

ـ وخلال هذه الفترة.. ماذا يجب ان تفعل؟

ـ ماذا يجب ان افعل؟

ـ نعم هذا هو السؤال، كما يقولون.

ـ بم تنصح ايها المعلم؟

رددت وانا لا اقوى على منع نفسي من القهقهة:

ـ يجب ان تحب، ان تعشق عشقاً حقيقياً، لكي يعرفك التاريخ ليس فقط كسجين قديم بل وكعاشق كبير.

شاركني الابتسام، لكن غمامة حزينة ارتسمت فوقنا فجأة. قال وقد تغير تماماً:

ـ اتمنى لو استطيع العشق بعد تلك المرأة. . .

وخيم الصمت، كان صمتاً قاسياً شعرت معه ان اي تدخل من جانبي سوف يسبب لطالع حزناً قد لا يكون مبرراً او ضرورياً. في وقت ما عاد للكلام، ولكن بدا لي ان شخصاً اخر هو الذي يتكلم:

ـ حبنا كان كبيراً، كالجبال، كالصخور، كالانهار، وكان قوياً ايضاً ومجنوناً. وبعد انتظار وعذاب، وبعد ممانعة الاهل والتهديد، والحرمان من الميراث، اتفقنا على الزواج، واتفقنا على كل شيء، لكن قبل اسبوع من هذا الموعد تم اعتقالي، ولم ارها بعد ذلك ابداً!

ولم يترك استغرابي يطول، اضاف، وخرج صوته متلجلجاً:

ـ قالوا لي انها ماتت بعد شهر واحد من اعتقالي، نتيجة مضايقة الاهل، والكلمات التي سمعتها من العائلة. وقيل ان السل هو الذي قتلها قبل ان تموت فعلاً. وقالوا انها ماتت حسرة وكمداً نتيجة سجني وحصار الاهل. المهم اني لم ارها بعد ان اعتقلت.

حاول، بوجهه وتعابيره، ان يوضح، ان يقول شيئاً لكن ظهر ان تلك الحركات لم تكن كافية، قال بحدة:

ـ ومنذ ذلك الوقت انتهى بالنسبة لي موضوع الحب!

احسست بالجرح الغائر في اعماقه والذي يرجع الى ذكريات بعيدة منذ سنين طويلة، وفي محاولة لان اواسيه، وأجعله يتقدم خطوة للامام، قلت:

ـ اتذكر كلمة قالها ناظم حكمت: «ان الموتى لا يشغلون اناس القرن العشرين أكثر من سنة». ولذلك يجب ان نتجاوز احزاننا، وان نبدأ من جديد، لان استمرار الحزن على الذين مضوا لن يفيدهم، وسيضرنا بكل تأكيد.

- ليس المنطق وحده ما يقرر عواطف الانسان، فهناك مجموعة من الدوافع والاسباب، وربما قوى اخرى، تلعب ادواراً اساسية في سلوكه وتفكيره وردود فعله، وربما لا يدركها هو نفسه بوضوح، او قد ينساها لفترة. والموت على رأس هذه الدوافع، ولذلك فانا ضعيف تجاه الموت.

قلت في محاولة اخيرة للخروج من الحزن والذكرى، وكنت اتطلع الى البعيد:

- في شؤون الموت والحب يتكلم القلب، ولذلك علينا ان نترك له قيادتنا، والافضل ان يقرر نيابة عنا!

اتذكر تلك الساعة عند الغروب. في احد الايام المبكرة من ايام الربيع: كان ضيق الصدر اقرب الى النزق، كان لديه ما يقوله، لكن شيئاً في داخله يمنعه، ولان السجن قد علمنا الا نستعجل الاشياء، لاننا لو فعلنا فلا بد ان ندفع ثمناً غالياً وقبل الاوان، خاصة وان السجين لا يعرف عدوه اغلب الاحيان، اذ يهجم على من يواجهه، من يتحداه، ولذلك لم استعجله لان يتكلم، لان يقول، خاصة وان الانسان حين يكون محصوراً في مكان ضيق، ومع اناس محددين، فانه بمقدار شعوره بالقرابة والتضامن مع هؤلاء الناس، فانه يصبح ضيق الصدر سريع الغضب، ويمكن لاي تصرف خاطىء ان يخلق عداوات لا تزول، ولذلك من الافضل ان تترك لكل انسان فسحة من «الحرية» لكي يناجي نفسه، لكي يتأمل، دون تدخل الاخرين. وحتى دون الاحساس بوجودهم. وهذا ما جعلني اتغاضى في الاسابيع الاخيرة لانقطاع طالع في بعض الليالي، او لزياراته القصيرة. كان، في بعض الاحيان، يعتذر لانشغاله بقراءة كتاب، وفي احيان اخرى لا يجد نفسه بحاجة لاي اعتذار! اما تساؤلات جوليا، او حتى اجاباتها، وهي تفتح الباب لتتأكد، فقد كانت ملتبسة، اذ بعد ان تذكر اسم طالع تحرك اصابعها باشارة دلالة انه يكتب، وافهم ولا افهم!

في هذا المساء الربيعي، وبنوع من الزهو، اعترف:

- بعد مناقشاتنا حول السجن، ولكي نخلق ذاكرة اضافية لدى الناس، قررت ان اكتب عن هذه التجربة، وكتبت!

ابتسم وهز رأسه ثم اضاف:

- لا ازعم انها تجربة خارقة، ولكنها قد تكون مفيدة لاستعادة وقائع الفترة الماضية كلها، واذا كان من حقي او من واجبي ان اسجل هذه التجربة بكل صدق وجرأة فان مسالة نشرها، ان كانت تستحق النشر، مرهونة بالظروف المناسبة.

- المهم كتابتها، اما توقيت نشرها فانه يخضع لاعتبارات كثيرة، وهذا ما ينساه الكثيرون، فالذاكرة مهما كانت قوية، فانها اشبه بالغربال، والظروف مثل الفصول تتقلب وتتفاوت كثيراً، ولذلك لا يستطيع الانسان التوفيق بين ما يريده وما يقدر عليه، وهنا يقع الخطأ الكبير، اذ يتصور الكثيرون ان الوقت المناسب سيأتي، ان عاجلاً او آجلاً، وعندها سوف يدلون بشهاداتهم الكاملة دون خوف، وأظن ان اغلب هؤلاء لن يعيشوا لكي يدلوا بهذه للشهادات.. سيذهبون وتذهب معهم وقائع كثيرة وهامة كان يفترض ان تبقى، وهذا بسبب خوفهم، او لأن توقيتهم سيىء كما هو الحظ السيّىء!

وحين صمت، وربما كان بعيداً عما قلته، اضفت في محاولة للتحريض:

- الا تعتقد ان الجبن يكتسي كل يوم وجهاً جديداً، قناعاً جديداً، والا كيف نفسر هذا الفرق الهائل بين ما يقع كل يوم، وعلى مرأى من الالاف، ولا نجد ما يوازيه من وقائع مكتوبة؟ ولماذا يكتفي الناس في بلادنا بهذه الذاكرة الشفوية وحدها طريقة للتعلم والتواصل ثم التاريخ؟

- اللغة السرية في بلادنا وحدها اللغة المتداولة، وهي نتيجة السجن الطويل، سجن الاباء والاديان والاقوياء، ولا احد يعرف متى يمكن ان تترجم هذه اللغة الى كلمات فوقائع يقرأها جميع الناس ويعرفون في اي مستنقع يعيشون!

- اذا ترجمت فغالباً ما يتولاها المترجمون السيئون!

- وهذا ما يجعلنا ندفع الثمن مضاعفاً!

وبانفعال ومرح قام، وبصوت كهنوتي لفت نظر الذين حولنا في الحديقة، واخذ يردد:

- «وقال ارميا في الاصحاح الخامس: اسمع هذا ايها الشعب الجاهل والعديم الفهم الذين لهم اعين ولا يبصرون، لهم آذان ولا يسمعون، اياي لا تخشون يقول الرب او لا ترتعدون من وجهي انا الذي وضعت الرمل تخوماً للبحر

فريضة ابدية لا يتعداها فتتلاطم ولا تستطيع ، وتعج امواجه ولا تتجاوزها . وصار لهذا الشعب قلب عاصٍ متمرد ، عصوا ومضوا » .

وفي هذا الجو الملتبس، وكان مزيجاً من الانفعال والمرح والجو الصوفي الساخر، تطرقنا الى أفكار كثيرة، ورغم تحفظات طالع، فقد كنت مسروراً انه كتب، صحيح انه اعتبر كتابته بداية لا تناسب ما وقع، ولكنها، مع ذلك «مسامير للذاكرة» كما قال، وانها لنفسه، ولا يفكر بنشرها، ولن يقرر شيئاً الا بعد الاستشارة والتمحيص، لان «الكتابة كالسنارة، اذا علقت يصعب التخلص منها».

قضينا ذلك المساء في ظل افكار واحلام كثيرة، واتذكر انه ردد، وبنفس الطريقة الكهنوتية، وهو يودعني :

- «وخطاياكم منعت الخير عنكم. لانه وجد في شعبي اشرار يرصدون كمنحنٍ من القانصين ينصبون اشراكاً يمسكون الناس، مثل قفص ملآن طيوراً هكذا بيوتهم ملآنة مكراً. من أجل ذلك عظموا واستغنوا، سمنوا لمعوا. ايضاً تجاوزوا في امور الشر. لم يقضوا في الدعوى، دعوى اليتم. وقد نجحوا. وبحق المساكين لم يقضوا. أفلاجل هذه لا اعاقب، يقول الرب، اولا تنتقم نفسي من امة كهذه؟»
تنحنح ، مسح حول شفتيه، غير صورته وتابع :

- لا اريد ان اصدع رأسك باقوال الانبياء، لكن اريدك ان تسمع ما قاله ارميا في الاصحاح السادس، سأتلوه على مسامعك وامضي ، يقول : «اهكذا قال الرب؟ قفوا على الطرق وانظروا واسألوا عن السبل القديمة اين هو الطريق الصالح وسيروا فيه فتجدوا راحة لنفوسكم، ولكنهم قالوا: لا نسير فيه. واقمت عليكم الرقباء قائلين: اصغوا لصوت البوق، فقالوا: لا نصغي : لذلك اسمعوا يا ايها الشعوب واعرفي ايتها الجماعة ما هو بينهم. اسمعي ايتها الارض، ها انذا جالب شراً على هذا الشعب، ثمر افكارهم لانهم لم يصغوا لكلامي ، وشريعتي رفضوها»
آمين!

كانت جدتي تقول «لا تغسلوا الثياب يوم الأربعاء، وكانت امي تحاول منع ابي من السفر، اذا اراد ان يسافر يوم الأربعاء، أما عمتي سليمة فكانت تخاطب نفسها، ولكن تريد لمن حولها ان يسمع، اذا جرى الحديث بتفجع عن احد معارفنا المرضى: «اذا جاز هذي الأربعاء وصار القمر بدراً تراه يعيش» تصمت قليلاً، وتتابع بصوت اكثر انخفاضاً، لا تريد لمن كان بعيداً عنها ان يسمعها: «والا اخذ الله وديعته».

في يوم الأربعاء ذاك، الأربعاء الكامد، الأربعاء الملعون بكل اللغات، وايضاً اربعاء الرماد، كما يقول احد الشعراء، بدأ النهار عاصفاً مجنوناً. كانت السماء تسودّ، وتزداد سواداً لحظة بعد اخرى، وكانت الرياح تسوق الغيوم من اماكن بعيدة، وبعد البرق والرعد انفتحت ابواب السماء وسقط المطر. مطر لم ار مثله من قبل.

هذه الطبيعة كم فيها من القوى الكامنة، والغادرة في بعض الأحيان، وكيف تتغير وتتقلب بين يوم واخر، وكم تفاجىء وتدهش وتجعل الانسان دائم التساؤل والترقب.

فبعد ايام ربيعية شديدة الزهـو وصلت درجة التحدي، وقد بلغت ذروتها يوم الأحد، يوم الزيارة الاسبوعية، بدأ التحول.

لا.. ان التحول بدأ في اليوم التالي او الذي يليه، لكننا نحن الذين نعيش في البادية او على تخومها، نشبه الحيوانات الصحراوية، فقد احسسنا بهذا التحول قبل ان يقع، بدأ يتسلل الينا عند الواحدة، موعد الزيارة الاسبوعية. اذ ما كدنا ننتهي من تناول الطعام، حتى غادر كل واحد منا غرفته، ولا ابالغ اذا قلت انني التقيت

وطالع في منتصف الطريق، وكأننا كنا على موعد بالغ الدقة!

كان طالع في واحدة من حالاته النموذجية : حليقاً، متأنقاً ، بادي الفرح. حتى روبه النبيذي بدا اكثر ملاءمة له في هذا اليوم، ربما لأنه امتلأ قليلاً، او لأنه اخذ يشد قامته وهو يمشي ، بناء لتوصية الطبيب ، لكي يسحب اكبر قدر من الهـواء النقي ، مما يساعد في تحسن صحته .

هكذا بدا طالع، لكن في لحظة ما، بعد ان التقينا واخذنا نتجول في الحديقة، شعرت ان حزناً من نوع غير عادي يستبد به، ولقد تأكد لدي هذا الشعور من طريقته في الحديث ثم التفاتاته المتكررة، وبعض الأحيان المفاجئة. حاولت ان اتذكر كيف كان حديثه وتصرفه خلال ايام الزيارات السابقة. قلت في نفسي «لقد تأخرت تلك الرسالة اللعينة»، وتذكرت قصة الجنرال، لكن لم اشأ ان ارويها له الآن. قلت في نفسي : «في احيان كثيرة الكلمة تحيي وتميت، واغلب الناس لا يدركون ذلك».

انني الوم نفسي كثيراً، لكن لا فائدة من اللوم او الندم بعد فوات الأوان! ربما كنت بعد ظهر ذلك اليوم في حالة نفسية غير مواتية، اذ لم اعد قادراً على استعادة تلك اللحظات . شردت اكثر من مرة اثناء الحديث. سافرت بعيداً وعدت. تأملت، سراً، مريضاً وصديقته وكيف كانا يتبادلان النظرات الملهوفة ويشدان عـلى ايدي بعضهما، ثم كيف يرفع كل واحد منهما يد الآخر ويقبلها من الباطن قبلاً طويلة مليئة بالحنان. وتأملت مريضة يضع لها زوجها المسن قرطاً في اذنها، وهي فرحة كطفلة.

في وقت ما، بين العصر والغروب، وصل زائرونا: اثنان من موران وواحد من عموريه: كان احد اللذين جاءا من موران يأتي لأول مرة. قدّرت انه يحمل رسالة طالع التي طالما انتظرها! تبادلنا احاديث عامة، ثم في لحظة، وبطريقة لا تخلو من فجاجة، طلب هذا الزائر الجديد ان ينفرد بطالع دقيقة او اثنتين. وافقنا بحماس.

جلسا على كرسي طويل غير بعيد عنا. تعمدت ان اقرأ على وجه طالع الرسالة التي سيبّلغ بها قبل ان ينقلها اليّ في وقت لاحق. يبدو ان الرسالة لم تبلغ فوراً، اذ سبقتها اسئلة، ربما عن الصحة والأهل والوطن. في لحظة ما، ويبدو ان المساء كله هبط في تلك اللحظة، رأيت كيف يشعر الانسان بالاهانة، وكيف يصبـح وحيداً تماماً.

هل دامت هذه الحالة دهراً؟ لحظة؟ لا يمكن ان تقاس بمقياس الزمن المألوف، لأن الصمت الذي اعقبها كان ثقيلاً موجعاً. واللغة الوحيدة التي تحدت الصمت، لكن لم تخدشه، كانت هزات رأس طالع، كانت بطيئة، لكن مستمرة. كانت متعبة، لكن قوية. وقالت كل شيء.

قدرت ان الرسالة جاءت على غير ما يحب، او ينتظر. قلت لنفسي «الذين يعيشون وسط الغابة يرون عدداً محدوداً من اشجارها فقط، ولا يرون الغابة كلها، وكذلك حال الذين يعيشون هناك، انهم يغرقون في همومهم الصغيرة اليومية، ولا يحسون بآلام الآخرين، خاصة البعيدين، ولذلك ستبقى الفجوة قائمة بين الداخل والخارج وستكبر، وسوف تزداد اتساعاً فترة بعد اخرى الى ان تختم بالقطيعة».

بعد ان ودعنا زوارنا، وكان وداعاً حزيناً، اذ اقتصر على كلمات مجاملة عامة وسريعة، قال لي طالع ونحن في الممر الطويل، وكان صوته عميقاً مثقلاً:

- اتعرف من سيزور براغ غداً؟

هززت رأسي بالنفي، تابع بتهكم:

- وزير نفط موران!

- وزير نفط موران؟

- نعم يا سيدي: وزير نفط موران!

للحظات ساد صمت ثقيل، اذ لا بد لكمية كبيرة من اللعاب لتكون قادرة على ان تلوك هذه الكلمة، ولتساعد في فهمها وترجمتها. زفر طالع واضاف بتهكم وحزن معاً:

- لو اقتصر الأمر على الزيارة لهان. لقد طُلب من شبابنا ان يستعدوا هذه الليلة لمغادرة براغ، وان يقضوا اسبوعاً في الجبال البعيدة، بضيافة الحكومة وعلى حسابها وتحت رقابتها ايضاً! ومعنى ذلك اننا لا زلنا نتمتع بميزة اضافية قياساً لحكومة موران، لأن ضيافتنا اطول من ضيافة وزير النفط بيومين، يوم قبل زيارته ويوم بعدها!

كان حزيناً لدرجة القهر، وكان ساخراً كحد السكين، واذا كنت الوم نفسي على اخطاء كثيرة وقعت فيها سابقاً، فلا اعرف كيف تبلدت ذاكرتي تلك الليلة، او

تحولت الى غربال مثقوب، بحيث تداخلت الوقائع والكلمات واختلطت الى درجة لا اقوى معها الا على نقل صورة معتمة مخدشة مليئة بالفراغات.

في تلك الليلة، وقد طالت سهرتنا اكثر من المعتاد، حتى اننا لم نفطن او لم نأبه لمرور الأخت جوليا في المرة الأولى، في تلك الليلة تكلم طالع كما لم يفعل من قبل:

ـ الحكومات كالبغايا، فالبغي تذهب مع من يدفع، ولا تسأل ابداً عن الأنساب او مصدر الأموال، ولا تهتم ايضاً بعواطف صديق الليل او الى اين سيذهب بعد ان يتركها، اكثر من ذلك تكون مغفلة اذا لم تحاول ابتزازه حتى اخر لحظة.

واتذكر انه ضحك بشكل هستيري وضرب حافة السرير، واستمر:

ـ والبغي حين تفعل ذلك فلكي تعيش.. اما الحكومات..

ساد الصمت حتى ظننت انه لم يبق لطالع شيء يقوله، او لم تعد لديه الرغبة لمواصلة الحديث. واذا كانت عادتي في اكثر المناقشات السابقة ان اتدخل بكلمة مرة، بمزحة مرة اخرى، في محاولة تخفيف حدة المناقشة او لاعطائها مساراً آخر، فلا اعرف لماذا كنت سلبياً هكذا في تلك الليلة!

في وقت ما واصل الكلام:

ـ ... من خلال اجهزتهم كانوا يقدمون لنا بين فترة واخرى كماً هائلاً من المعلومات والصور، في محاولة لترسيخ اقتناعنا ان نظاماً من نوع نظام موران لا يحتاج الا الى الدفن، وان من الحماقة ان يفكر، ولو للحظة واحدة، بامكانية تطويره او التعايش معه..

توقف، ابتسم بحزن، وبعد قليل:

ـ لم نكن نحتاج الى معلوماتهم، فأهل مكة ادرى بشعابها، ولم نكن نحتاج الى تحريضهم، لأن من يأكل العصي ليس كمن يعدها، والآن يبيعوننا بثلاثين من الفضة؟

صمت، ثم بعد قليل:

ـ يمكن ان تكون لهم اعتباراتهم، مصالحهم، فالنفط اسال حتى لعاب الآلهة، ولكن ان نتحول نحن الى الثمن، ان يطّوح بنا الى اقاصي الجبال، ان نجمع كالخيول المسنة الجرباء، ونحشر في قطار الليل، لكي لا تفسد رائحتنا هواء براغ وتؤذي وزير نفط موران، فهذا ما لم نتوقعه ولم ننتظره.

واتذكر انني قلت كلاماً فجاً، اذ وضعت احتمال دورة خاصة صدف توقيتها مع وصول هذا الزائر؛ او ربما لعدم كشف هؤلاء الشباب ومعرفة موران بوجودهم! وربما ذكرت شيئاً اخر. اقول ذلك لأن رد فعل طالع كان حاداً وساخراً:

ـ اعرف ان الحكومات تختلف كثيراً عن الأفراد، حتى الذين يكونونها، لأنها لا تؤمن بالعلاقات الأبدية، ولا تعرف شيئاً يسمى الوفاء، ولا تقيم وزناً للكلمات والعواطف، وان ما يحركها ليس المبادىء وانما المصالح، لكن، مع ذلك، هناك ما يسمى اللياقة، والمجاملات، وهذا ما تدعيه الحكومات دائماً وتحرص عليه في علاقاتها مع الحكومات الأخرى، وحتى مع الجماعات والأفراد. . . اعرف هذا كله، ولكن ان تبلغ الأمور هذا الحد فلا بد ان خللاً كبيراً موجود في مكان ما، في الأفراد والأفكار والعلاقات، ولذلك يجب ان ندفع الثمن، وغالباً ما يدفع الثمن الفقراء والضعفاء!

وبطريقة نشنجية، اقرب ما تكون الى رقصة المتصوفة وقف واخذ يدور على قدمين اول الأمر، ثم على قدم واحدة، وهو يردد بصوت مبحوح:

ـ انا مديت للدنيا حبال تجرها لكن الدنيا جرتني بغير حبال

اي نعم . . بغير حبال، بغير حبال، بغير حبال. . . وانا اللي يستاهل كل اللي يجري لي، دنق دي، دنق دي، دنق دي

وأنا، كالمأخوذ، بين الحزن والفرح والاندهاش لا اعرف ماذا اقول او كيف اتصرف، لأن الزبد الذي اخذ يظهر على زاويتي فم طالع، وذلك الانفعال الحاد الذي بدأ يلفه، وقد ظهر اوضح ما يكون في عينيه، جعلني حائراً وقد سيطرت علي حالة من الخوف.

ربما صرخت، او كانت الضجة الصادرة عنا اكثر مما يحتمل او غير مسموح بها، لأن الممرضة التي فتحت الباب اغلقته بسرعة، وبعد قليل جاءت جوليا تهرول. كأن طالع يدور وصوته: «دنق دي، استاهل اللي يجري لي، يتردد بانتظام، وما كادت تنظر اليه بحزم وبكثير من اللوم حتى خفت حركته ثم ارتمى على السرير».

لا اعرف ماذا قالت له، لكنها كانت تتكلم بانفعال، ونظرت اليّ بعتاب، اما وهي ترفعه، وتنظر الى وجهه بامعان، فان هزات رأسها لم تكن تتوقف، وكانت

تتمتم ايضاً! وفي لحظة معينة استعاد طالع نفسه. نهض. شد روبه النبيذي على جسده. جال بنظراته في انحاء الغرفة، وحين التقت عيناه بعيني الأخت جوليا ابتسم ابتسامة صغيرة اقرب للاعتراف انه اخطأ، وانه يعتذر. ثم سار، وهي وراءه. حين بلغ الباب توقف قبل ان يفتحه، وقال، وخرجت الكلمات من بين اسنانه:

ـ ما حك جلدك مثل ظفرك. . .

وبعد ان فتح الباب، وقف لحظة في اطاره، وبطريقة عسكرية حازمة، قال:

ـ تصبح على خير!

ولم يأت هذا الخير ابداً، جاءت المصائب جميعها وتبعتها كل الأحزان!

ففي اليوم التالي، وكان من عادة طالع ان يخرج بعد الأفطار مباشـرة الى الحديقة، ويقضي فيها وقتاً يزيد يوماً بعد اخر مع تقدم الربيع وتزايد الدفء. . في اليوم التالي، وحين فتح الباب يريد الخروج، منع من ذلك! لم يمنعه الدكتور ميلان، ولم تمنعه الأخت رادميلا، ديكتاتورة البر والبحر، كما كان يسميها الكثيرون، ولم يمنعه اي من العاملين في المستشفى، وانما كان هناك شرطي، ولديه ورقة صغيرة بحجم راحة اليد مكتوب فيها: «يحظر على المريض رقم غرفته ٢١٧، واسمه العريفي طالع، مغادرة الغرفة، لأسباب امنية، ابتداء من يوم الاثنين السابع عشر من مايس وحتى اشعار اخر».

لم يصدق احد. الأطباء، الممرضات، المرضى، كوبكا، المسؤول عن الحديقة في المستشفى، وقد لاحظ تأخر طالع، وكان يتظاهر انه لا يراه وهو يقطف وردتين كل يوم. . لم يصدق اي من هؤلاء، واضيف لهم في وقت لاحق المنظفون والمنظفات، والعاملون في المختبر. حتى حارس البوابة الذي سمع، لم يصدق. الوحيد الذي اعتبر الأمر عادياً، ونقل عن لسانه انه قال: «اجراء طبيعي وضروري» هو طالع!

لقد حصلت ضجة كبيرة، لكنها مخنوقة، في المستشفى. ولا يمكن لأحد ان يعرف ما وقع بالضبط، لأن الكثير من التصرفات النزقة، والحدة في المناقشات، اضافة الى التجمعات الصغيرة في الزوايا او عند التقاطعات، كانت تتناول هذا الموضوع بشكل او بآخر.

قيل ان مغادرة الدكتور ميلان للمستشفى عند الساعة الحادية عشرة كانت

بمثابة احتجاج واضح، وقال لي مريض في الغرفة ٢١٦ ، وأيده زميله، انه سمع نقاشاً اقرب الى الملاسنة بين الدكتور ميلان والشرطي، انهاه الدكتور ميلان بالتهديد انه سيذهب الى وزير الصحة للاحتجاج على هذا التصرف. وفسّر ذلك المريض ان مغادرة الدكتور كانت بهذا الهدف. أما الأخت رادميلا فكانت اكثر من في المستشفى وضوحاً وصراحة. فجاري الذي سألها عن الأمر اجابته بنزق، وكانت ترفع يديها وتهز رأسها باحتجاج واحتقار: «اذا كان الأمر كذلك فيجب ان تتولى الشرطة الطبابة والتمريض ومسح الخراء ايضاً».

لم يسمح لي بمقابلة طالع الا في الليل، بعد العشاء. فالشرطي الذي استلم الحراسة الليليه كان طيباً ونبيلاً، وربما متمرداً أيضاً، لأن الأخت جوليا التي طلبت منه ان يسمح لي بزيارة طالع، رد عليها ببساطة ووضوح، كما ذكرت وترجم لي طالع:

ـ اذا حصلت اغتيالات فانها تقع غالباً في النهار، ونحن الآن في الليل، هذا اولاً، وثانياً ان وزيرهم الآن على مائدة وزيرنا، وانت تعرفين ان مثل هذه الدعوات لا يحضرها الا المدعوون، وما دمنا انا ورقم ٢١٧ غير مدعوين فمعنى ذلك انّا هنا، وما دمنا نحن هنا فلن يقع الاغتيال، على الأقل من قبل ٢١٧ ، وانا مسؤول عن هذا الموضوع فقط، ولا يعنيني اي شيء اخر!

وضحك الشرطي بمرح، ربما تذكر شيئاً، ثم اضاف:

ـ ولا بد للسجناء والمرضى ان يجدوا وسيلة للترفيه وقتل الوقت، ولذلك ليس لدي ما يمنع ان يزوره احد مواطنيه، شرط ان يبقى الأمر بيننا!

والأخت جوليا التي وافقت على هذه الديباجة كلها والشروط، ركضت الى غرفتي وطلبت مني ان ارافقها بسرعة. لقد كنت مرتبكا وانا اسير في ذلك الممر الطويل باتجاه غرفة طالع. لم نستطع انا والأخت جوليا ان نتبادل اكثر من النظرات. اما وهي تشير نحوي فقد وقف الشرطي ومد يده لمصافحتي. قلت لنفسي، وانا اصافحه بحرارة، «حتى الشرطة فانهم مثل الأخرين، ويختلفون كاختلاف اصابع اليد، فيهم الانسان وفيهم النذل ، ولذلك يجب الا نضعهم كلهم في سلة واحدة».

كان طالع، وبسخرية مريرة، يلعب اللعبة الى نهايتها: باصابعه، وهي اصابع فنان دون ادنى شك، قص اوراقاً رفيعة على شكل اشرطة وحزم يديه وقدميه

بهذه الأوراق فبدت كسلاسل وكلبجات، ووضع قطعة مستطيلة من الورق على فمه، وكأنه الصقه تماماً.

ابتسمت، ثم قهقهت، وانا اراه هكذا. قلت بنزق في محاولة لاخفاء عواطفي:

ـ من حسن الحظ ان لكل منا تجارب في السجن، خاصة الانفرادي، مما يجعلنا نحتمل هذا الكابوس!

بدرت من عينيه موافقه، وربما ايضاً هزة رأس صغيرة، تابعت باندفاع:

ـ والمهم الآن تحدي الجلاد، تمهيداً لهزيمته..

ضحكت عيناه. تشجعت اكثر:
ـ وبداية سقوطنا، يا طالع، هو ان نستسلم لهم، ان نوافق على ما يريدون، وانت تذكر كم تحدينا السجن والسجان، اما ان نضع لأنفسنا القيود ونتباهى بها فلن نحقق لهم هذه الفرحة، خسئوا!
ومثلما يحصل في المسرحيات المأساوية الكبرى، وبهدوء الآلهة، انتزع طالع الورقة المستطيلة عن فمه، بعد ان مزق قيود يديه ورجليه بحركة سريعة بارعة، وكأنه لاعب جيد وماهر يعرف كيف يقابل خصمه وكيف يتغلب عليه. اعتدل في سريره، وكانت الأخت جوليا ترقب المشهد، وكأنها لا تصدق، وكانت حادة متوترة، وفي عينيها حزن لا تقوى على اخفائه.
هجمتُ عليه، دفنت وجهي في صدره، عانقته وقتاً، الى ان كوتني ملوحة الدمع. في هذه اللحظة سمعت الباب، وراءنا يغلق. لقد غادرت الأخت جوليا، لم تشأ، او لم تحتمل، ان ترى هذا الحزن كله، وان ترى العذاب.
بعد دقائق جاءت، فتحت الباب على مهل. نظرت بسرعة في كل انحاء الغرفة، وقالت لطالع، وبدأ صوتها مكسوراً.

ـ اود ان تكونا معاً لاطول فترة ممكنة، لكن من الأفضل، واقول ذلك من اجلكما، ان تستمعا للعقل اكثر مما تستسلما للعاطفة، وان تتصرفا بطريقة تراعيان بها وضعكما الصّحي، وهذا معناه: انني سأعود بعد قليل لكي ارى كل واحد منكما في فراشه!
وغابت الأخت جوليا فترة طويلة.

في هذه الليلة كان الصمت سيداً، كان اقوى من الكلام وأوضح منه. فطالع الذي حاول ان يبقى قوياً ومتماسكاً، لم يستطع ذلك في كل الحالات. فحين طلبت منه ان يفهم الحالة هز رأسه، وحين طلبت منه ان يتحمل وان يصبر قال، وخرج صوته من صدره، او ربما من اعماق ابعد:

ـ نحن الآن الطرف الضعيف في هذه العلاقة، والضعيف يجب ان يتحمل، كما كان الحال في السجن، لكن الفرق بين هذا وذاك، بين هنا وهناك، انني الآن يائس، وهذا ما يعذبني، ما يجعلني غير قادر على محاكمات منطقية ومتوازنة.

وهز رأسه. سقطت بهدوء حزين دمعة، تابع كأنه يكلم نفسه:

ـ ما لم نكتشف قوتنا، اي قوة الناس الذين معنا هناك، وما لم نحاول ان نوظف كل شيء وكل القوى من اجل قضيتنا، ان نوظف الريح والصحراء ومكر البدو وقوة احتمالاتهم، وايضاً قدرتهم على تحمل الجوع والعطش، فاننا سننتهي، وكيف؟ منفيين، وفي أسوأ الشروط، وكما تراني الآن.

في وقت ما فتح الشرطي الباب، بعد ان دقه مرتين، وسأل، بأدب، ما اذا كان لدينا ثقاب ليولع سيجارته. كانت لدي علبة ثقاب، لكن وجدت طالع، وكان لا يدخن، ينهض بسرعة الى الخزانة، قبل ان اعرف ما يجري، ويستخرج قداحة ويقدمها له. والشرطي الذي اولع سيجارته اراد ان يعيد القداحة، لكن اصرار طالع كان لا يحتمل الرفض. قبلها. نظر اليها من جديد، وقبل ان يغلق الباب، هز رأسه، وضحكت عيناه، وتعثر وهو يغلق الباب ايضاً!

قال لي طالع، وهو يحاول اغرائي بأن اتركه:

ـ والتضامن، يا صاحبي، ليس هو ان نتعب نحن الأثنان معاً، فلا بد ان نمنح انفسنا الراحة لكي نواجه يوماً جديداً...

ضحك بحزن واضاف:

ـ اذا كان «وزيرنا» اليوم عند وزيرهم، فلدينا ايام كثيرة يمكن ان نفكر خلالها، وان نصل الى القرار الصحيح، وليس معنى ذلك ان نصفي حساباتنا هنا، وانما يجب ان تصفى هناك، وهذا ما يحاول الكثيرون منا ان يتجاهلوه، اعتماداً على وهم مثل الذي نعيشه اليوم!

وبعد قليل وهو يتطلع الى السقف:

ـ الحالة التي نعيشها الآن، الطريقة التي يتعاملون بها معنا، بما فيها من ذل وقهر، درسنا الأخير، فاما ان نستوعب هذا الدرس جيداً او ان ننتهي.

قلت بانفعال:

ـ لو اننا تعلمنا هذا الدرس في وقت مبكر لجنبنا انفسنا وجنبنا الآخرين الكثير من الدماء والآلام، لكن يبدو ان التعلم ليس سهلاً دائماً، وبعض الأحيان باهظ التكاليف!

رد بسخرية:

ـ واخشى ان لا يكون الوقت اصبح متأخراً!

حاولت ان ارد، ان اقول بضع كلمات، رأيت وجهه يعتكر وعينيه تغيمان، قلت لنفسي «ليس الوقت مناسباً لاعطاء الدروس، المهم الآن ان نجتاز هذه المحنة» نظر اليّ طويلاً ثم خرجت كلماته متكسرة:

ـ احس الآن اني اولد من جديد، وتتراءى لي صورة الطفل الذي كُنته قبل وقت طويل، ربما قبل اكثر من ثلاثين سنة.. الله كم كانت اياماً جميلة، في ذلك الوقت كنا نجمع النجوم طوال الليل، وفي اليوم التالي نوزعها بيننا بالتساوي. وكنا نركض ولا نتعب، وكانت احلامنا كبيرة... اما الآن...

وبعد قليل وبانفعال:

ـ الأفضل ان تذهب لتستريح، وغداً سنكون اقدر على التفكير في المستقبل!

لم استطع المقاومة، شعرت ان طالع يريد ان يبقى وحيداً، ربما يريد ان يفكر بهدوء،ان يكتب، وربما احس بحركة الشرطي خارج الغرفة، او تذكر الوعد الذي اعطاه للأخت جوليا.

قلت وانا انهض:

ـ ان غداً لناظره قريب.

اليوم التالي، الثلاثاء، كان يوم هياج المستشفى، ويوم اصابتي بالجنون. فمنذ ساعات الصباح الأولى، وفي بداية الجولة التي يقوم بها الأطباء عادة لزيارة المرضى، وقع شيء غير عادي ادى الى انتهاء الجولة، او الى انقطاعها على الأقل. اذ تم استدعاء عاجل لعدد من هؤلاء الأطباء، وكانوا من ذوي اختصاصات متعددة، الى الغرفة ٢١٧ لمواجهة التدهور السريع والمفاجىء في صحة المريض.

لما سمعت، ثم عرفت، ان الأمر يتعلق بطالع قلت: نهاية الدنيا والطامة الكبرى. وركضت نحو غرفة طالع. مُنعت من الدخول، ثم طُلب الى الجميع ان يبتعدوا.

الدكتور ميلان ، رئيس القسم، وكان من عادته ان يمر على المرضى في وقت مبكر، لم يُشاهد اليوم، ولم يُعرف ما اذا انقطع عن العمل او اعتصم في غرفته. أما حين هرولت الأخت رادميلا، وكانت تركض مثل بطة مسنة، وكان منظرها يثير مشاعر الشفقة والضحك، فقد رأى الكثيرون الدكتور ميلان يقطع الممر قفزاً، وعلى مسافة غير قصيرة رادميلا وراءه تركض!

والشرطي المكلف بالحراسة النهارية، وكان فظاً شديد الصرامة في اليوم السابق، تخلى عن صرامته منذ اللحظات الأولى، واضطر للتراجع خطوتين او ثلاثاً عن باب الغرفة، فاسحاً المجال لدخول الأطباء والممرضات، او لنقل الأمصال والحاملات، دون اية اعاقة وبالسرعة اللازمة، من أجل انقاذ حياة المريض.

أما لماذا تدهورت صحة طالع بهذا المقدار، وبهذه السرعة، بعد ان تماثل للشفاء، وكان على وشك مغادرة المستشفى في غضون ايام او اسابيع قليلة، ومتى

حصل هذا التدهور، فان كل من في جناح الأمراض الخاصة، ثم كل من له علاقة بالمستشفى، يروي او يفسر ما حدث بطريقته.

«الجريدة»

كانت هذه الكلمة السحرية اكثر الكلمات التي ترددت في ساعات الصباح، وحاول الكثيرون ان يفسروا الانتكاسة نتيجة الصدمة. فقد قيل ان الأمور ظلت عادية الى ان وصلت صحف الصباح. ورغم معرفتي ان طالع تربطه بالقراءة علاقة خاصة، بما فيها قراءة الجريدة، في الوقت الذي كنت افضل الراديو عليها، لأنه يتيح لي حرية الاختيار والانتقال، وهي عادة اكتسبتها من السجن، وذكرت ذلك لطالع، فرد ساخراً «طريق المعرفة العين، اما الأذن فهي للطرب والنميمة». . . رغم هذه المعرفة فلم اصدق ان الجريدة يمكن ان تكون سبب انتكاسته.

حتى ما نقل عن مايا، الممرضة العصفورة، كما كنا نسميها انا وطالع، اذ قالت: «حملت اليه الأفطار، وكان في وضع طبيعي؛ أما بعد ان اطلع على الجريدة. . .» ان هذه الواقعة، على فرض صحتها، تحدد ولا تفسر.

والاشاعة السيئة التي سرت عن ان طالع حاول الانتحار، وان المحاولة جرت باستعمال سكين، هذه الاشاعة دفعت بعض المرضى ليس فقط للاقتراب، ثم الوقوف قريباً من باب الغرفة ٢١٧، لمعرفة ما جرى، اذ مد اثنان او ثلاثة منهم رؤوسهم للاطمئنان، وللتأكد ايضاً ان اغطية السرير خالية من بقع الدم. . هذه الاشاعة انتهت بسرعة. اما محاولات بعض المرضى ادارة حديث مع شرطي الحراسة، وسؤاله ما اذا رأى او سمع شيئاً غير عادي، فقد ظل هذا الحديث في الغالب من جانب واحد. والممرضات اللواتي سئلن لزمن الصمت. وقيل انهن فعلن ذلك نتيجة التوصيات الصارمة التي صدرت عن الدكتور ميلان والاخت رادميلا.

وبتقدم ساعات النهار وجد من قال ان الانتكاسة التي اصابت طالع ناشئة من اخطاء في المعالجة، لكن مثل هذا القول لم يلق اهتماماً، «لأن المريض، كما هو معروف، كان يستعد لمغادرة المستشفى خلال ايام، ولم يكن في مراحل العلاج الأولى».

أما الذين اكدوا، اعتماداً على كلمات لا يعرف كيف انتقلت اليهم، ان عملية

جراحية عاجلة سوف تجرى لمريض الغرفة ٢١٧، وان الدكتور ميلان، مع فريق من الأطباء، يستعدون لاجرائها، ولا بد ان ينقل المريض بين لحظة واخرى، فان ما تلا ذلك من انتظار دون ان يتم خلاله ما توقعوه، دفع احد المرضى لأن يقول بثقة تصل حدود اليقين، خاصة بعد ان قضى الدكتور ميلان وقتاً غير قصير في غرفة طالع، «ان هذا الطبيب من البراعة والثقة بالنفس الى درجة يمكن ان يجري العملية في اي مكان، وفي اي وقت، وليس فقط في غرفة العمليات ولا بد انه يجريها الآن».

وحين وصل طبيب اشقر لم يره الكثيرون في هذا الجناح، فقد ثار التساؤل عمن يكون، ومن الذي استدعاه، فأكد مريض مسن انه يعرفه، وقد رآه حين كان يخدم في الجيش، ولذلك لا بد انه جاء من المستشفى العسكري بناء لاستدعاء الدكتور ميلان. واكد مريض اخر ان هذا الطبيب اسمه اندريه بارسكي، وهو مختص بالأمراض الهضمية، ويعمل في نفس المستشفى، لكن في الجناح الغربي!

ان المرضى كالسجناء تماماً: ميالون الى المبالغة، والى اختراع القصص، ولا يترددون في ان يقسموا اغلظ الأيمان لتأكيد صحة هذه القصص، وكأنهم كانوا شهوداً عليها، ومع ذلك فهم سريعو الانكار ونفي أية علاقة او معرفة فيها لو تبين عدم صحة الأخبار التي روجوا لها!

حين منع الوقوف من جديد او الاقتراب من الغرفة ٢١٧، فقد تأكد اكثر من قبل ان الحالة الصحية للمريض تزداد سوءاً.

في هذا الجو المضطرب، المملوء بالدوي، كنت الوحيد الأخرس. وخلال ساعات الصباح الأولى، وعن طريق رادي، المسؤول عن الصيدلية، والذي يعرف الفرنسية، وكان يتعمد ان يجلب الأدوية والأمصال بنفسه، وبمقدار ما حاول ان يعرف مني عرفت بعضاً مما كان يقال او يجري. ولأن جهودي لزيارة طالع ومعرفة ما حصل انتهت بعد عدة محاولات الى الفشل، فقد بدأت اشعر بآلام حادة، اضطررت الى ملازمة غرفتي، خاصة بعد تلك النظرات التي كانت تنصب عليّ مشفقة او متسائلة.

وحين مرّ الدكتور ميلان، بعد ارتفاع حرارتي المفاجىء، اضافة الى حالة التقيؤ، فقد قال لي بلهجة بطيئة وابوية:

ـ يبدو ان العلاقة بينكم، انتم الشرقيين، تشبه العلاقة بين التوائم، ولذلك، ولكي تساعد طالع، اريدك ان تشفى بسرعة، ولا بد ان تفعل.

ورغم الحمى والغثيان استفسرت منه عن طالع، فقال، ويده على جبهتي:

- اعتقد ان الريح التي وصلتنا امس لم تؤثر على المناخ فقط، بل واثرت عليه ايضاً، لكنها ريح عابرة!

ولما حاولت ان افهم اكثر من ذلك، فقد رد، ورأيت على وجهه ابتسامة حزينة:

- أرجو ان تتحسن، وهذا هو الشيء المهم الآن!

رادميلا، وقد زارتني خلال ساعة مرتين للتأكد، وكانت تتكلم وحدها، قالت، دون ان افهم، اشياء كثيرة، لكني قدّرت انها لم تكن راضية، وربما غاضبة، أما وهي تتناول الدواء من رادي، فقد قالت، كما ترجم لي:

- يجب ان تكتبوا لحكومتكم ان اجراء مثل هذا، اي حجز المرضى وتقييد حريتهم، امر غير قانوني وغير انساني..

وبعد قليل، وهي تتطلع الى رادي بقلق:

- اذا سئلت عن الأمر فسوف اقول الحقيقة وفقط الحقيقة ولا شيء غير الحقيقة.

اما محاولاتي ورادي للسؤال عن طالع فقد قابلتها بحزم:

- المهم الآن ان تعتني بنفسك!

في وقت ما، ولم اعد اتذكر متى كان هذا الوقت، بدأت تغيم الألوان والأشكال وتتمازج. كان يفتح الباب ويغلق، وكانت ايدٍ ثقيلة رطبة تستقر فوق جبهتي، واسمع كلمات تتطاير في الهواء. افتح عيني، لكن طبقة كأنها الرصاص الثقيل تجعل كل شيء لزجاً مستعصياً. احاول الصراخ، لساني ثقيل لا يطاوعني. اتحرك في السرير، الغرفة كلها تتحرك، تطير. اصعد. اغرق. جسدي يتحول الى كومة من الطين. افتح بأصبعي طريقاً عند الرقبة، ينفر الدم، يغرق السرير. اغرق. اغرق. اصرخ، يخرج صوتي مبحوحاً. لا احد يسمع. الوحوش تحاصرني. تتقدم، تتقدم، عيونها حمراء، السنتها كبيرة متدلية رطبة. تسحبها قليلاً الى الداخل، تصبح مثل حيات ضخمة، وهي تتحرك هكذا. اتراجع، اصرخ، تضحك الحيوانات تتقدم، تتقدم. وحدي، لا احد حولي. الظلمة، الظلمة تتكاثف سوى انوار صغيرة. انها عيون الحيوانات. امد يدي، تلحس الحيوانات اليد، تكركرها، اشعر بلذة وقرف، اسحب يدي، ارفعها، اللعاب يتساقط، وبعده قطرات من الدم، دم ثقيل، لزج، الدم يتكاثر. نوافير من كل مكان. يهجم الدم، يملأ الأرض، يرتفع في الغرفة، تتغطى قوائم السرير، يرتفع اكثر، اهرب، يصطدم رأسي بذئب كبير. يعوي الذئب ويتراجع قليلاً ليتقدم. ابكي. الدموع حمراء. اخرج عيني لأرى كيف اصبح لونها، ينفجر الدم، يملأ يدي ويتساقط على صدري، يصبح الدم كثيراً. الرائحة ثقيلة موجعة، اصرخ، التفت، ارى الحيوانات على افريز عالٍ تنظر اليّ وتضحك، عدا الذئب فانه يقترب ويفتح فمه. اسنانه صفراء، صفراء كريهه. ورائحته نفاذة ورطبة. اقول له: انا غريب لا اعرف احداً هنا. اتركني. يعوي، تخرج من حلقه رائحة نفاذة قاسية. اقول له: انا ضعيف واريد ان ابقى

حياً. يمسك يدي، يلويها، ينتزعها، امسك بيدي، انتزعها. اسمع عظماً يتكسر. اقول له: انا غريب لا اعرف احداً هنا. يمسك يدي ويضعها في فمه. امد يدي لانزعها منه، يكشر. ابكي. احس ان الدم وصل السرير. اسحب رجلي. الحيوانات على الأفريز تنظر الى بعضها وتنظر اليّ. الألسنة تتدلى كالحيات. العيون مليئة بلون بني على صفرة. وتهز رؤوسها وتقول لا. ابكي اكثر من قبل، يتلمظ الذئب بعد ان ابتلع يدي كلها، عدا الساعة سقطت، كان لسقوطها دوي، ومع الدوي انتثرت قطرات كثيرة من الدم على الوسائد والأغطية. صرخت، الصراخ كان مكسوراً، اصطدم بالدم وتراجع. صرخت بصوت اقوى. تقدم الذئب، لكنه زلق في اللحظة الأخيرة، ووقع في بركة عميقة. سمعت الدوي. كان الدوي مثل صوت طبل كبير!

حين فتحت عيني وجدت مايا العصفورة تضع على جبيني كمادات لتنزيل الحرارة. ربما حصل هذا عند الغروب، عند الفجر، لا اتذكر. كان حلقي جافاً والعرق يغسلني. تطلعت حولي لاتأكد. بدا لي وكأني ارى المكان اول مرة. ابتسمت لي مايا وهزت رأسها.

شربت نصف كوب الماء، بعد ان سندتني مايا. طلبت منها ان ترفع الوسادة، دارت ورفعت القسم الأعلى من السرير. تطلعت الى مايا. تطلعت اليها طويلاً. كانت في عينيها وداعة اقرب الى الحزن. «هل كانت مايا هكذا»؟ سألت نفسي سألتها:

- طالع.. كيف حال طالع؟

قالت كلمات متلعثمة وهزت رأسها. سألتها من جديد:

- طالع.. ماذا حصل لطالع؟ اين هو طالع؟

نظرت اليّ وصمتت. حاولت من جديد، وفي هذه الأثناء دخلت الأختان: رادميلا وجوليا معاً. نظرت اليّ رادميلا بفرح. كانت عيناها تضحكان، اقتربت مني وامسكت بيدي، ربما لتقدّر الحرارة. تحدثت الى مايا، سألتها عن شيءما. هزت مايا رأسها. دخل رادي ومعه حبات من دواء. قالت رادميلا شيئاً للأخت جوليا. سألتُ رادي عن طالع. نظر الى رادميلا وتحدث معها، وبعد قليل:

- سوف يكون غداً افضل من اليوم، ومثلما تحسنت انت فانه يتحسن!

سألته ما اذا كنت قادراً على رؤيته. بعد ان ترجم سؤالي، ردت رادميلا بحزم:

ـ انه نائم، والطبيب منع الزيارة!

حاولت من جديد، لكن جوليا تراجعت خطوة للوراء، وغمزتني بعينيها، تطلب مني ان اترك لها الموضوع. قلت في محاولة اخيرة:

ـ سوف لن ازعجه، يكفي ان اراه وهو نائم!

ترجم رادي ما قلته، تجاهلت رادميلا، وطلبت من مايا ان تذهب. اعطتني حبة الدواء وقالت:

ـ الثانية تأخذها بعد العشاء!

قالت بعض الكلمات لجوليا ثم التفتت الى رادي، وطلبت منه ان يترجم:

ـ اذا كنت مطيعاً وواصلت صحتك بالتحسن، كما في الأسابيع الماضية، فسوف نتركك تغادر المستشفى في بداية الشهر القادم. يجب ان تفعل!

تلك الليلة لا تشبه غيرها من الليالي ابداً. ففي وقت ما، ربما بعد العشاء بساعة، جاءتني الأخت جوليا. قاست حرارتي، وتأكدت اني تناولت الدواء. نظرت اليّ ملياً وكأنها تدرس صحتي وقوتي من خلال العينين. ابتسمت وهزت رأسها. جرى كل ذلك بصمت. قالت بيدها اليسرى: «انتظر» غادرت الغرفة. لم تمض دقائق حتى عادت. طلبت مني ان اضع المعطف على كتفي. امتثلت. خرجنا باتجاه غرفة طالع.

شرطي المساء ذاته. سلّم علي بحرارة وكأننا اصدقاء قدامى. فتح باب الغرفة وتنحى. دخلت الأخت جوليا أولاً ودخلت بعدها. كان طالع في سريره، وقد ارتفع القسم الأعلى منه. بدا لي متعباً الى درجة الارهاق، وكان في عينيه حزن لم ار مثله من قبل. حاول ان يبتسم. كانت ابتسامته صغيرة وحزينة. راودتني نفسي ان اقبله واعانقه، لكن قدّرت ان صحته لا تحتمل، وان الانفعالات الزائدة قد تؤذيه. قلت له بمرح، وانا أجلس على حافة السرير:

ـ ما لك حق ان تخيف الجميع...

حاول ان يبتسم، لكن ابتسامته، هذه المرة، كانت اقرب الى الغصة. تابعت:

ـ ومثلما اتفقنا: سوف نتحداهم بقوتنا وصلابتنا، وايضاً بقدرتنا على التحمل، هل نسيت اتفاق الأمس؟

التفتُ لأرى الأخت جوليا. كانت ترقبنا كأم. كانت عيناها تحضننا، وحين التقت نظراتنا ابتسمت. قالت كلمات لطالع. لما طلبت منه ان يترجمها، قال، وخرج صوته ضعيفاً:

ـ السالفة نفسها...

وبعد قليل، وهو يحاول ان يبتسم:

ـ ما عندها غيرها!

سألته عن صحته. ماذا حصل له. كيف هو الآن. رد وهو يتنحنح في محاولة لأن يجلو صوته:

ـ هالحين احسن، بس بعدني تعبان..

ـ ولكن ماذا حصل؟ لماذا؟

ـ كله من الله!

وضحك ضحكة صغيرة. بدا انه غير قادر او غير راغب لأن يتحدث في الموضوع. لم احاول ان اثقل عليه، خاصة حين نظرت الى الأخت جوليا، فقالت لي عيناها: «لا ترهقه».

بعد ان صمتنا، وتبادلنا النظرات، وابتسمنا، قال لي، وخرج صوته متعباً:

ـ أريد ان تعطيني رأيك بهذي الأوراق.

واستخرج من وراء الوسادة رزمة من الأوراق. نظر اليها وهو يحملها بيديه الاثنتين، وكأنه يحمل طفلاً في ايامه الأولى، وقال:

ـ بعد ان تقرأها يمكن ان نتكلم حولها. المهم الآن ان تقرأها.

وبيدي الاثنتين، ايضاً، استلمت الأوراق. كنت اريد ان ابقى معه فترة اطول، لكن عيني جوليا، رجتني ان اختصر الزيارة، والتعب الذي كانت تنطق به

ملامحة وعيناه اجبرتني، قالت لي : كفى . أما الأوراق التي بين يدي فقد تحولت الى جمر مشتعل، وكأنها تدعوني لكي اقرأها بسرعة .

قلت له وانا انهض:

ـ سوف اقرأها بسرعة اذا وعدتني ان تشفى بسرعة .

هز رأسه وابتسم. قبل ان اغادر الغرفة، قلت بمرح ، وللتأكيد:

ـ هذا وعد بيننا!

الحمى، تلك الليلة، تطّوف بي من مكان الى آخر، والرعود هي التي تعيدني. لم يبق جرف حاد الا ووقفت على حافته، ثم وجدت يداً تشبه يد العطيوي تدفعني الى قاعه. ولم تبق حية صفراء او سوداء الا وطاردتني. كنت، في كل لحظة، اسقط. كان الظلام يتكاثف الى درجة انه وحده يخنقني. اما العطش فكان مثل حبل يلتف حول عنقي ويمنعني حتى من الصراخ. فاذا ارتجت الدنيا بدوي الرعد من الأماكن البعيدة التي كنت فيها، اتطلع حولي لكي اتأكد انني لا زلت حياً، ولا زلت هنا. وامد يدي الى كوب الماء، اجد صعوبة وانا اتجرعه، الماء ينزلق ملتوياً في الحلق الجاف، وما اكاد اشعر بالارتواء حتى يملؤني العطش من جديد. وتشتعل السماء، توجّ بالبروق فتبدو الأشياء بلونَ بين الأزرق والرمادي، ولكنه حاد كالنصل، وقبل ان استوعب ما يجري تهجم الرعود الثقيلة الجافة، وكأنها نطاح ثيران السماء. انكمش في سريري. استعيد البروق والرعود القديمة. استعيد وجه طالع ووجه امي، لكن البرق الجديد الذي يملأ الغرفة فجأة يمزق الصور، يبعثرها. اشعر انني صغير وخائف، ادير رأسي، اميله قليلاً، انتظاراً للرعد الآتي. لا يتأخر، ولكنه هذه المرة بعيد ثم فجأة يقترب، ينفجر داخل الغرفة، فوق السرير. وامد يدي الى كوب الماء، ومع انزلاق الجرعات الأولى اسمع حبات المطر وهي تتساقط مثل حجارة صغيرة لتملأ كل الفضاء.

ليلة لا تشبه اية ليلة غيرها. واسعة كالسماء، ومخيفة كصحراء التائه، اما البروق والرعود والمطر فكما كانت ايام الطوفان الأول، ولا بد ان تدمر كل شيء وتجرف المدن والمنازل والبشر.

وتأخذني الحمى مرة اخرى. اسافر، اغيب، وحين اعود ثانية من ذلك السفر

اشعر بالتعب، بالعطش، برغبة البكاء. وعبر النافذة ارى واسمع المطر.

لا اعرف كم مرة سافرت وكم مرة عدت تلك الليلة، ولكن عندما كنت اعود، وفي تلك المساحة الهشة من اليقظة أحس يداً كاللجام تطبق على رقبتي. احس بالانقباض، وفي مرة كدت اختنق. كنت ارفرف مثل عصفور لا يريد ان يبقى في قبضة حاقدة، كنت اشتهي الصراخ او البكاء. وفي مرة تأكدت ان قوة تشدني الى اسفل. تشبثت بالسرير، قبضت على الطرفين بقوة. . حتى بدأ النهار.

كنت اريد ان يأتي النهار.

وجاء النهار، جاء ذلك اليوم المشؤوم، يوم الأربعاء الملعون بكل اللغات، اللئيم كيدٍ حاقدة، القاسي الكريه كوجوه الأعداء!

في ذلك النهار، وبعد ان منُعت من مغادرة الغرفة، وكان منع الأخت رادميلا حازماً كاملاً، واجاباتها، وانا اسألها عن طالع، همهمات اقرب الى الشتائم، في ذلك النهار، في وقت منه، عند الظهر، قبل ذلك، او بعده بقليل، وفي جو العاصفة التي ما كانت تهدأ الا لتثور من جديد، وتحت وقع المطر، وحين غرقت الحديقة الأمامية كلها، وغابت العصافير تماماً، ولما توارى كوبكا، ولوت الزهور اعناقها، وفي ظل الدوي الذي يتولد من حركة الأرجل والكلمات المبعثرة ووقع المطر. . . في لحظة ما شعرت بألم حاد يسري في جميع انحاء جسدي، كان حاداً وسريعاً، شعرت بعده بصفير، خاصة في الأذن اليسرى، ونتيجة الخوف، او ربما الألم، دققت الجرس، فعلت ذلك مرتين او ثلاث مرات، لكن لم يأت احد، وفجأة وجدت نفسي اغرق في البكاء.

كيف عرفت، لا ادري!

لما جاءت الأخت رادميلا، كانت عيناها ثقيلتين وانفها احمر. نظرت الي ملياً امسكت يدي، وهي تنظر الى اللوح المسجل عليه درجات الحرارة. كنت متعباً ومستسلماً. بعد ان هزت رأسها عدة مرات، ولا اعرف لماذا فعلت ذلك، استخرجت ميزان الحرارة ووضعته في فمي. بدت لي وانا انظر اليها مسنة اكثر من قبل، وحزينة اكثر مما ينبغي، وحين لاحظت انني انظر اليها هكذا سحبت عينيها بعيداً، اما حين سألتها عن طالع فقد وضعت اصبعها على فمها تطلب مني السكوت، وبعد ان سجلت الحرارة على اللوح استدارت وغادرت دون كلمة. قلت

لنفسي: «العجائز والصغار يتصرفون بنفس الطريقة، انهم، وحدهم، سادة هذا العالم».

كل الذين سألتهم عن طالع ذلك اليوم لم يجيبوا، كنت أقرأ في وجوههم اخباره لكنهم اشاحوا عني وهربوا!

الدكتور ميلان، وانا اسأله وألح عليه لمعرفة اخبار طالع، كان يشيح وجهه، واخيراً قال بنفاذ صبر:

- يجب ان تبقى في الفراش يومين او ثلاثة ايام...

واضاف بعد قليل، وكأنه يخاطب نفسه:

- هذه الحرارة لا تعجبني، ويجب ان نعرف اسبابها!

وحين سألته عن طالع تجاهل السؤال، نظر الى رادميلا وسألها او تحدث معها. لما سألته مرة ثانية، وقبل ان يغادر الغرفة، رد، ولم ينظر اليّ:

- المهم الآن ان تعتني بنفسك.

كنت امتلىء احساساً ان شيئاً ما حصل في ذلك اليوم عند الظهر. حتى غياب رادي بذلك الشكل كان متعمداً. لا يريدني ان اعرف، وربما طلب منه ان يغيب، قلت لنفسي: «الرائحة الكريهة تنتقل بسرعة، ولا يمكن ان تخفي نفسها».

ظلت الأمور ملتبسة، وظللت اخدع نفسي واؤملها بالكذب والأوهام الى ان جاءت الأخت جوليا.

ما كادت تدخل الغرفة حتى عرفت كل شيء. حاولت ان تبتسم، لكن فكيها لم يطاوعاها، اذ بدت الابتسامة اقرب الى التكشير، او تشبه حالة من الألم المفاجىء والممض. اما العينان فكانتا حمراوين وكأنها فرغت لتوها من البكاء. ورغم انها ابعدت نظراتها وهي تمسك بمعصمي لتقيس النبض، بعد ان وضعت ميزان الحرارة في فمي، ووضعت اللوح حاجزاً بيننا، الا اني امتلأت بذلك التوقع الخفي الذي يقول كل شيء دون كلمات.

ما كادت تنتهي، ولا اعرف كيف صبرت كل ذلك الوقت، وكأني اهيّىء نفسي لتلقي الضربة، تماماً كما كنت افعل وانا اشد عضلاتي واعصابي لاستقبال ضربات العطيوي وبعد ان دونت المعلومات، سألتها عن طالع!

كيف تنفجر الطلقة، كيف تخرج الصرخة، كيف يعوي الكلب اذا ديس على قدمه، كيف تتفجر المياه بعد ان تنحبس، كيف يتهاوى فجأة جدار قديم، هكذا انفجرت دموع الأخت جوليا وهكذا كانت تنتحب. اما وهي تطوقني وتشد على كتفي فكانت تقول: اذا غاب هو فيجب ان تبقى على الأقل لتذكر للآخرين كيف عاش وكيف مات!

لا اعرف كم من الوقت مرّ ونحن هكذا. كانت اذا رفعت وجهها، في محاولة لأن تتماسك وتتوقف، وما ان ترى دموعي، حتى تنخرط في موجة جديدة من البكاء. وكنت وانا الوم نفسي على هذا الضعف الذي لا يليق بالرجال، اسمع النحيب، او ارى العينين وقد امتلأتا بالدموع، فاسقط. اصبح مثل طفل اضاعته امه. اشعر اني وحيد ومتروك، ولا شيء غير البكاء وسيلة للاحتجاج.

في وقت ما ساد صمت ثقيل، يشبه النوم. جففت خلاله الاخت جوليا دموعها، وبدت حازمة، او هكذا تظاهرت. هزت رأسها اكثر من مرة، وكأنها تلوم نفسها، ودون كلمات قالت الكثير.

ومثل الطفل الذي تهيّىء له الأم مهده، رتبتْ لي الوسائد وطلبت مني، بعد ان شربتُ حبة الدواء الأخيرة، وربما كانت مخدراً، ان اتمدد. احكمتْ الغطاء عليّ، ورجتني، بعينيها، ان انام. حاولتْ ان تبتسم، كانت ابتسامتها اقرب الى الخفر لكنها كانت مليئة بالحنان والحزن والرجاء.. ورحت في النوم.

مات طالع، يوم الاربعاء مات.

ويبدو لي ان اي كلام بعد هذا زائد!

ان يدفن هنا، في براغ، ان يدفن هناك، في موران، لا يعني شيئاً، ولا يغير اي شيء. أما تلك الحاجات الصغيرة البائسة التي تركها: الكتب والصور وبعض الملابس، فان عنت له، يوماً، ضرورة او متعة او ذكرى، فبعد ان ذهب هو، بعد ان غاب، لم تعد تعني لاحد شيئاً، سواء بقيت هنا او عادت الى ارض الوطن!

لكن الامور تجري، اغلب الاحيان، بشكل غير متوقع.

بقي جسد طالع في براد المستشفى اياماً طويلة، امتدت الى اسابيع! فعلى اثر الوفاة خاطبت المستشفى الجهات المختصة، فكان الجواب: «من غير الجائز، بروتوكولياً، بحث الموضوع اثناء زيارة ضيف البلاد الرسمي، وزير نفط موران، لان من شأن ذلك تعكير جو المباحثات والاساءة الى مصالح البلاد العليا، ولذلك يُرجأ الامر الى وقت آخر!».

بعد سفر الوزير، وحين اكدت المستشفى ضرورة البت، افادت الجهات المختصة: «لم يتسن بحث الموضوع، حتى تاريخه، باعتبار ان ذوي المتوفى في جولة قد تستمر بضعة ايام اخرى». وهذه الجولة الالزامية لم تكن رحلة الجبال التي بدأت قبل زيارة وزير النفط، والتي كان يفترض ان تنتهي بعد هذه الزيارة بيوم واحد، فقد مُدّدت في آخر لحظة، وفي براتسلافا جرت مباحثات كان الدافع لها، كما عرفتُ فيما بعد، «توضيح الظروف والملابسات التي قضت بتوجيه الدعوة لوزير نفط موران، وضرورة اعادة تقييم المرحلة على ضوء الظروف الدولية الجديدة». ويبدو ان الغاية

الحقيقيـة وراءها: امتصـاص المرارة وردود الفعـل المحتملة، اضافـة الى معـرفـة الاحتمالات في موران خلال المرحلة القادمة.

بعد عودة المسفّرين الى براغ اشارت الجهات المختصة «. . لقد تعذر الاتصال لان مسؤول العـلاقات الخـارجية في اجـازة حاليـاً، وسنبلغكم بالنتـائج في وقت لاحق».

وفي وقت لاحق، يوم الزيارة الاسبوعية، وبعد اسبوعين من الوفاة تقريباً، جاء اثنان لزيارة طالع. وبعد ان عُرف الامر بدأت خلافات من نوع جديد: انقسم «الشباب» الى فريقين، الفريق الاول يصر على «دفن الشهيد في ارض الوطن، وان تعتبر الوفاة مناسبة لفضح النظام امام الرأي العام الدولي، وهي فرصة ايضاً لتعبئة الجماهير في الداخل!» أما الفريق الثاني فقد كان اقل انفعالاً واكثر واقعيـة، لان «الوفاة نتيجة اسباب مرضية وليس لها علاقة بالشهادة، هذا اولاً، وثانياً من شأن هذا التشهير ان يسيء الى بلد صديق، ويجعل علاقاتنا تسوء واقامتنا هنا تصبح مهددة».

استمر النقاش وتحشيد المؤيدين بضعة ايام، وطالع راقد في البراد، الى ان انتصر الفريق المتشدد «لان دم طالع يجب ان لا يذهب هدراً، ولا بد ان يدفع القتلة الثمن»، وكلمة «القتلة» اثارت ايضاً الخلاف، الى ان وُجد من اقترح حلاً وسطاً ارضى الجميع ولم يرض احداً!

بعد ان تم تجاوز التأخير والتغلب على الخلافات، ظهرت صعوبات لم تخطر ببال: الانسان الحي يُعامل بطريقة مختلفة عن الجثة، فاذا كان يُكتفى بجواز السفر بالنسبةللاحياء، فان للموتى جوازات خاصة بهم، «وباعتبار ان الموما اليه سبق وان أبعد من موران، ولا يتمتع رسمياً وجدارة بجنسيتها، لذلك نبلغكم اعتذارنا عن صرف جواز سفر متوفى للمذكور». وبعد مداولات مع جهات انسـانية عـديدة، وكتاب رقيق من وزير نفط تشكوسلوفاكيا الى نظيره في موران، وباعتبار ان للمتوفى اقارب هناك، فقد «تمت الموافقة، لاعتبارات انسانية، وتقديرا لرغبة بعض الجهات التي توسطت في الامر، على استقبال جثمان الموما اليه، مع الاشارة«ان حكومتنا لا تتحمل اية تكاليف ناتجة عن ذلك، عـلى ان تستكمل الاوراق الثبـوتية الـلازمة بالمذكور».

وامكن، بعد انتظار وتدخل وسطاء كثيرين، صرف جواز سفر متوفى لطالع العريفي من دولة صديقة، «اعتماداً على الاوراق التي وجدت بحوزة المتوفى، ولمرة واحدة غير قابلة للتجديد، دون ان تترتب على ذلك اية حقوق مالية لاحقة».

وبدأت مرحلة استكمال الاوراق المطلوبة.

الشهادة الصحية، شهادة الوفاة، الجهة التي اوفدت المتوفى للعلاج، اضافة الى الامراض التي كان يعالج منها، المدة التي قضاها في المستشفى، تاريخ الوفاة. اسباب الوفاة. تقرير الطبيب المعالج.. وعشرات التفاصيل الاخرى. وطالع يرقد، وحيدا، في البراد!

بعد ان سقطت العقبات واحدة بعد اخرى، وصلت اشارة من موران، وهي عبارة عن صورة من كتاب هيئة الافتاء، يشترط «ان يتم تجهيز المتوفى، قبل صندقته بصورة نظامية، واجراء كافة الشعائر الدينية، من الغسل والتكفين، وفقاً للشريعة الاسلامية الغراء، على ان ترفق بذلك اوراق رسمية مترجمة ومصدقة».

كاد مركز فريق المتشددين، في هذه المرحلة، ان ينهار. فاذا امكن التغلب على الصعوبات السابقة كلها، فكيف يمكن مواجهة هذه العقبة الجديدة، لكن المنفيين بمقدار ما يخطؤون في الامور الكبيرة، فان لديهم القدرة على النجاح في الامور الصغيرة والعملية! وهكذا اقيمت المراسيم، بشكل ما، وتم تجاوز هذه العقبة ايضاً!

أما حين جهّز الصندوق، فقد اشترطت ادارة المستشفى ان لا يوضع فيه المتوفى الا قبل اقلاع الطائرة بفترة زمنية قصيرة، «خاصة وان الظروف المناخية، والى المنطقة التي سينقل اليها، تتطلب اجراءات خاصة في النقل».

واذا كانت براغ تستقبل عشرات الطائرات يومياً، وكذلك موران، فان خطاً بين المدينتين ليس له وجود، واذ استغرب بعض الذين يريدون انهاء هذه «المشكلة» باسرع وقت، فقد تساءلوا كيف جاء وزير النفط، وهل يعقل ان يكون قد بدّل طائرة او مطاراً لكي يصل الى هنا!

ومرة اخرى تعرقلت الامور، وكاد يصرف النظر عن كل شيء. اكثر من ذلك وجد من روى بعض النكات: «طالع العريفي مشكلة في حياته وفي موته، لنفسه

وللآخرين، فلو كان حياً لدبر نفسه بنفسه، أما بعد ان مات فشدوا روسكم يا قرعان» وقال آخر ساخراً «لو ظننا ان المشكلة بهذا التعقيد لطلبنا من وزير النفط ان يأخذ هذا الطرد معه الى موران».

والصدفة، او القدر، ساعد على ايجاد مخرج في اللحظة الاخيرة.

فايفان سافكو، ابن اخت رادميلا، وهو مهندس بترولي، كان يستعد، ضمن وفد كبير، لزيارة موران، بناء للاتفاق الذي جرى اثناء الزيارة الاخيرة لوزير نفط موران، ولا يعرف كيف حدّثته خالته عن طالع وموته، وان الصعوبة الآن هي نقله الى هناك.

وهكذا، ونتيجة مداخلات من جهات متعددة، وكان الدكتور ميلان يتابعها بنفسه، تم الوصول الى الحل «السعيد»!

اتخذ القرار في الساعات الأخيرة قبل اقلاع الطائرة، ولذلك اقتصر التشييع على نقل الجثمان من البراد الى سيارة الاسعاف، عند باب المستشفى الجانبي، من الناحية الشمالية، وقد شارك في ذلك ثلاثة من العاملين في المستشفى، اضافة الى كوبكا، الانسان الرائع، بستاني جناح الامراض الخاصة، والذي ثبّت على الصندوق باقة من الزهور انتقاها على عجل!

أما اللافتات التي اعدت في وقت مبكر، وقد كُتبت باللغتين، وكان يراد لها ان تتقدم موكب التشييع، أما الكلمات التي أعدت لهذه المناسبة، فقد طويت، «لان الجثمان نقل منذ ساعات طويلة الى المطار، وسلمت الاوراق الى القبطان، دون ان يعلم احد من الركاب، ولا بد ان الطائرة اقلعت، وهي الآن في طريقها الى موران»

كان طالع العريفي في صندوقه، اسفل الطائرة، يتنصت الى الهدير، وكان بين فترة واخرى يسمع المناقشات التي تدور فوقه بين اعضاء الوفد، وكان يسمع الضحكات ايضاً، كان يفعل ذلك وهو يبتسم، لان الرحلة توشك ان تنتهي، وها هو في طريقه الى الوطن، لكن دون عنوان ودون ان يعرف احد!

امتزج حزني بالغضب، وصحتي تنوس بين حدين متباعدين، فحين يملأ طالع عليّ الغرفة بوجهه المقدود من الصخر ومن شمس البلاد البعيدة، ترافقه تلك الكلمات التي تتطاير كالشهب، ومعها عنفوان التحدي، اشعر اني افيض بالغضب، واشعر اني بحاجة الى صحة جيدة، لكي اواصل المشوار الى نهايته. وبتصميم لا يعرفه الا الابالسة اقرر ان اشفى بسرعة، وخلال ساعات تغادرني الحرارة التي حيّرت الدكتور ميلان وازعجته.

أما اذا غشيني الحزن، وبدأت تلك الفورة الترابية تنغل في داخلي او تطفو على روحي، ويشتد صراخها: «باطل الاباطيل، كل شيء باطل، قبض الريح وحصاد الهشيم»، فلا بد عندئذ ان ترتفع حرارتي، ويرافقها ذلك الذوبان، وكأنه يعلن عن قرب النهاية، فتنظر الي الاخت رادميلا، وانا ادخل الحمى، وكأنني ادخل الى معبد، باستغراب، تقول للدكتور ميلان او لرادي: «صيف وشتاء على سطح واحد؟ لا اصدق، ان هذا يحيرني».

أما الدكتور ميلان، وهو يلاحظ التفاوت الكبير بين فترة واخرى، فكان يقول، وكأنه يخاطب نفسه:

- لو كان لدينا سجل طبي كامل عن وضعك الصحي للفترة السابقة لساعدنا كثيراً.. يهز رأسه وهو يحرضني على ان اتذكر اكثر:

- ..وهل اصابتك امراض اخرى غير التي ذكرتها؟ حاول ان تتذكر..

وحين لا اتذكر شيئاً اضافياً يسألني بحيرة:

ـ والوفيات في العائلة . . كانت لاية اسباب؟ باية امراض؟

كانت حرارتي ترتفع وصحتي تتراجع حين اتذكر الأيام الأخيرة، وايضاً ايام المهرجان الساحر الذي تبعها، خاصة حين بدأت اجراءات نقل جثمان طالع الى موران. فما اكاد اسمع تلك التفاصيل المتعلقة بالموضوع، او ارى احداً من اصدقاء طالع وهو يتابع الاجراءات، حتى امتلىء حزناً، لا لم يكن الحزن وحده، وانما معه مقدار هائل من الشعور بالتفاهة واللاجدوى. اقول لنفسي بانفعال حاد: «كان من الاسهل ان نموت هناك، لو فعلنا ذلك لجنبنا انفسنا المذلة والاهانة، وجنبنا الآخرين الاحراج.» ويتراءى لي موتي هنا، موت الكثيرين، فاصرخ:

ـ بيدي لا بيدك يا عمروا

لقد صدف مرة، حين مرضت هكذا، وكانت مايا العصفورة قد فرغت من قياس حرارتي، وكنت قد سمعت لتوي ان مسؤول العلاقات الخارجية في اجازته الصيفية، ولذلك لا يمكن البت بمصير الجثة، وقد نقل اليّ رادي ذلك. . حين صرخت بتلك الطريقة الحادة والمفاجئة، سقط اللوح من يد مايا واصفّر وجهها. نظرت الي ملياً، وكأنها تقرأ في عيني الخطوة التالية، لكي تتصرف على ضوئها. تابعت بحزن وانا ادرك ان مايا لن تفهم اية كلمة، ولن تقدّر في اي وضع انا:

طريد ولي مأوى، مباح ولي حمى
وحيد ولي صحب، غريب ولي اهل

لكن هيهات من يفهم او من يتصرف في الوقت المناسب!

ومرة اخرى، واتذكر ان اليوم كان يوم الزيارة الاسبوعية، وبعد ان سمعت عن الخلافات الواقعة حول الجثمان، هل ينقل ام يدفن هنا، وحين كنت اقلب في الليلة السابقة اوراق طالع، قرأت العبارة التالية: «ليست المسألة الاختيار بين نحن وهم، اي يجب علينا ان نختار واحداً منهما، المسألة في مدى قدرتنا على اتخاذ مواقف صحيحة ومدروسة، وايضاً نابعة من حاجاتنا الفعلية، ولا تجعلنا مرتهنين الى عوامل وقوى خارجية. اذا استطعنا ذلك نكون قد قطعنا نصف المسافة نحو الهدف. وهذا لا يمكن ان يقرره الا من تكون له علاقة حقيقية بالقضية، أما من يحارب بالمنظار وحده، او من تعوّد على المنفى، فغالباً لا يستطيع ان يتخذ الموقف المناسب، وتغلب على قراراته المزاودة او الهروب» بعد ان قرأت العبارة اكثر من مرة، وسمعت ببعض

ما يدور من نقاش، قلت: «اللعنة، لان النتائج جاءت اسرع مما توقع طالع». أما والاخت جوليا تدخل عليّ وانا استعيد هذه المشاهد، وكانت تبدو هرمه الى درجة لا تصدق، ولا ابالغ اذا قلت انها كانت تكبر بالساعات والايام، فقد ابتسمت وهزت رأسها هزات متأنية، وكأنها تسألني: كيف انت؟ ودون انتظار اخذت اردد:

- «وعند بابي يصرخ الاشقياء:

اعصر لنا من مقلتيك الضياء
فاننا مظلمون

عند بابي يصرخ المخبرون:
وعر هو المرقى الى الجلجلة
والصخر، يا سيزيف، ما اثقله
سيزيف.. ان الصخرة الاخرون».

انصتتْ. حاولت ان تقرأ معنى الكلمات من خلال اللحن، ومن العينين. لما رأتني اقرب الى الحزن، هزت رأسها باسى وبتأنٍ زائد. قدرْت ان ليلة صعبة ستكون هذه الليلة. ومثلما تفعل عادة، قالت لي بيدها «انتظر». عرفتُ ان رادي سيكون بعد لحظات ثالثنا، خاصة وانه في هذه الفترة يحضّر لامتحاناته النهائية، وسوف ينتقل من صيدلية المستشفى الى الجامعة، ولذلك فان المختبر الموجود هنا يتيح له العمل، وهذا ما جعله يقيم بصورة شبه دائمة في المستشفى:

جاءت ورادي، ولا بد انها اخبرته: «قرر هؤلاء العرب ان يموتوا على طريقة البطارق: ان يقفوا على الجرف، فاذا القى الاول نفسه تبعه الآخرون، ولذلك يجب ان نجعل من موت العريفي استثناء، وليس قاعدة». هكذا جاءا لحفلة المساء: قصص حكيمة، مسنة، نابعة من المشاهدة والتجربة، اضافة الى حبة دواء منوم، ومن عيار يناسب الحالة!

قال لي رادي:

- اذا كنت قد ذكرت لك اليوم، أو في ايام سابقة، بعض المسائل المتعلقة بالاساليب البيروقراطية السائدة، فلا يعني ذلك حذف الانسان، ان البشر ميالون الى الكسل، ويخضعون للعادات السهلة، لكن الضمير لا يموت، وابالغ فاقول انه لا

ينام ايضاً، وهذا معناه ان نثق بالآخرين، وان نثق بالمستقبل.

وخلال الفترة التي استغرقتها الاحاديث الكثيرة عن المرضى الذين كانت امراضهم مستعصية، لكن بالارادة، والامتثال للتعليمات، استطاعوا ان يختصروا مدة العلاج، وان يشفوا تماماً. وعن المرضى الذين استسلموا، والنتائج التي وصلوا اليها! وكيف يمكن ان يساعد المريض نفسه وطبيبه. . خلال تلك الاحاديث، وبشكل بسيط، اعطتني جوليا حبة الدواء. كنت احتاجها، كنت اريدها، وكانت هي تريدني ان ارتاح، ان ابقى، فاخذتها بسرور لم استطع ان اخفيه، وقلت وانا ابتلعها:

- الطريقة السهلة للنسيان!

لكن دواء النسيان المؤقت لا يكفيني. فالاعطاب الكثيرة التي حملتها معي تترمم بصعوبة وبطء، واذا كنت استطيع مساعدة الطبيب بالارادة، كما تقول الاخت جوليا، فان الموت، هذا الوحش الساخر، والذي يدق الابواب، ويقتحم بين فترة واخرى، فيجعل الناس، ولو مؤقتاً، يحزنون ويتساءلون، وربما يعيد بعضهم ترتيب اولوياته على ضوء احساسه بقربه، فانه هنا ضيف دائم الحضور. ليس ذلك فقط، ان الطريقة التي مات بها طالع قلبت كل شيء بالنسبة لي.

مع ايام حزيران الثقيلة، كانت الاحزان تترصدني في كل وقت وفي كل مكان، ومع تزايد الحرارة وتمدد ذرات الهواء، ومن خلال استعادة الماضي، وفي ظل الصمت الذي فرضته على نفسي، او فرضه عليّ غياب طالع، ثم انشغال رادي بامتحاناته، اصبحت الوحدة مرضاً اضافياً. كانت ثقيلة الى درجة الالم، وكانت مسيطرة في كل الاوقات. حتى كوبكا، البستاني، الذي كان يروق له ان يخوض في بعض الاحاديث مع طالع، وكان يراني معه باستمرار، افتقدني، واستغرب انقطاعي، خاصة في هذه الفترة من السنة، حيث كانت الحديقة الامامية تضج بالزهور والالوان.

كانت الحركات وحدها الوسيلة التي يخاطبني بها، ففي اليوم الذي سبق وفاة طالع، وحين تزايد الهمس والسؤال، وكنت كالتائه احلّق من مكان لآخر، جاءني وبدأ يتكلم، ولما وجد ان كلماته تضيع في الهواء، لجأ الى الحركات، حركات اليدين والوجه، وخاصة العينين. كنت افهم عليه، واحاول، قدر ما استطيع، ان اجيب، لكن تلك الاجابات التي تقول اشياء كثيرة، ومن القلب، ولا تقول!

حين لاحظ انقطاعي، ولا شك انه قدّر الحالة، وعرف السبب، اخذ يبعث اليّ كل صباح مع مايا بوردة او بباقة من الزهور الربيعية. كانت مايا تحملها اليّ مع كلمات، وكنت افهم انها منه. وتجرأ مرتين او ثلاث مرات بان حملها بنفسه. كنت الاحظ وقفته الطويلة المتسائلة. كان لديه الكثير ليقول، ولكن لا يجد امكانية للحوار، فتتكلم عيناه اول الامر، ثم تبدأ يداه بالكلام، ولا يكتفي بذلك، كان جسده كله يتكلم، وبعد ان ينتهي يرفع قبعته بتحية ودودة حارة ويغادر.

لكن الوردة او باقات الزهور الصغيرة مع الموت والمنفى دواء ضد النسيان، ورغم مشاعر الود والامتنان التي تملؤني تجاه هذا الرجل البسيط، فقد اصبح بالنسبة لي وجهاً آخر لطالع، فما يكاد يبعث بوردته، او يحملها بنفسه، وفي الوقت الذي يريد ان يحمل اليّ الفرح، فان احزاناً اضافية كانت تهف من زهوره ومن حركاته، وكثيراً ما وجدت نفسي امسح دمعة لا اعرف كيف سقطت، وانا ارى وجه طالع ينبثق من هذه الزهور.

قلت لزميل زارني في اواخر ايام حزيران:

- اريدك ان تبلغ البستاني ان يتوقف عن ارسال الزهور، لانها تسبب لي الحساسية، كما ان الطبيب منع وجودها في غرفتي!

لا اعرف لماذا تصرفت بهذه الطريقة. فجأة انبثقت الفكرة في رأسي، ودون تردد طلبت من هذا الصديق ان يحمل هذه الرسالة! هل اريد ان اجلد نفسي؟ ان اعاقبها؟ هل عنت لي تلك الباقات نهاية من نوع ما، خاصة وانا اراه، في اللحظات الأخيرة، كيف جمع تلك الباقة، وحزمها بخيط من النبات ايضاً، وبسرعة البرق، كي لا يفوته وداع لائق بطالع؟

في ذلك المساء، وانا اتناول العشاء، واستعيد مشاهد النهار كله، قلت، وخرج صوتي نزقاً: «لقد شوهنا السجن، وافسدنا الجلاد، والان جاء الموت، وهذا الموت العابث المجاني بالذات، لكي يقضي على آخر ما تبقى فينا من مشاعر إنسانية، والا كيف اسمح لنفسي ان ارد على هذا الانسان بهذه الطريقة؟».

والاخت جوليا التي بدأت جولتها المسائية، ولا بد ان تتوقف عندي فترة طويلة، حين رأتني متجهماً هكذا، قطبت جبينها، نظرت اليّ لتقرأ في عيني الحالة التي

انا فيها، ونظرت بسرعة ايضا الى اللوح المسجل عليه الحرارة، لتعرف هل بدأت واحدة من تلك الحالات الملعونه!

ابتسمتُ بهدوء، وقلت لها، دون كلمات، وانا اشير الى الاوراق الموضوعة على السرير: لست بحاجة، هذه الليلة، الى حبة من حبوب النسيان، لدى ما اشغل به نفسي، لدي اوراق طالع، واريد ان اتذكر.

كنت في هـذه الامسية، ولا اعـرف لماذا، اؤجـل قـراءة تلك الاوراق. صحيـح انني قلبتها، قرأت فقرة هنا وفقرة هناك، لكن منذ ان مات طالع، لم اجد لدي الرغبة او القدرة على ان اقرأها كلها. كنت اقول لنفسي بتشفٍ، لاشعر بمزيد من العذاب: «ما دام لم يف بوعده، فيجب ان لا اكون اكثر وفاء منه» لكني في هذه الليلة وجدت نفسي اغرق في هذه الاوراق. كنت وانا اتوغل في ذلك العالم المجنون ازداد مرارة، وحقداً، وازداد اقتناعاً ايضاً ان هذا العار الذي حملناه معنا فترة طويلة، السجن، يجب ان ينتهي، ان يزول.

في الليل المتأخر، وحين فتحت الاخت جوليا الباب، كي تطمئن، وقد فعلت ذلك بهدوء، ووجدتني لا ازال غارقـاً في تلك الاوراق، تغيرت فجـأة، غادرتهـا الوداعة وتخلت عن الهدوء. سحبت مني الاوراق بخشونة اقرب الى القسوة، وتدفق سيل من الكلمات، ومع الكلمات حركات من اليد تدل على الكتابة. وكان اسم العريفي يتردد بين جملة واخرى. ربما ميزت الاوراق، او اعتبرت الوقت متأخراً، وربما قالت ان الارهاق الذي اصابه، والذي اودى به، هو نتيجة القراءة او الكتابة الملعونة، هكذا قدّرت، وكنت اقرأ انفعالاتها وارى غضبها.

انها احدى المرات القليلة التي احافظ على هدوئي، وكأن الامر لا يعنيني. اكثر من ذلك بدا لي المشهد بالغ الغرابة والطرافة معاً. وتذكرت ايام السجن، وكيف ينفعل المحقق، وبعض الاحيان يبلغ اقصى حالات الغضب، نتيجة سبب بسيط: صمت المعتقل. في لحظة ما بلغت الاخت جوليا هذا الحد. كانت تريدني ان اتكلم، ان اجيب عن اسئلتها، وكانت مستعدة لان توافق على غضبي لو غضبت، لكن روح العناد، التي تتملكني بعض الاحيان، جعلتني استمر في الصمت.

دارت حول السرير. تطلعت بامعان الى الاوراق، وكأنها تحاول فك رموزها،

وفجأة سقط على خدها خيطان من الدموع، تيقنت عند ذاك انها عرفت تلك الاوراق، وربما عرفت ايضا ما خط طالع فيها، وبطريقة هادئة اقرب الى النجوى قلت:

- «تلك هي الحياة، يا فيديريكو

ومن هنا الاشياء التي تستطيع ان تقدمها

صداقتي كانسان شجاع وحزين

فقد اصبحت تعرف بنفسك اشياء كثيرة

وستعرف سواها على مهل».

هذه الكلمات، وانا متأكد انها لم تفهم واحدة منها، امتصت الغضب، غيرت الجو. هزت رأسها وهي تنظر اليّ بتفهم، حاولت ان تبتسم لكنها لم تستطع. قالت بعض الكلمات، وكأنها تطلب جواباً او وعداً، هززت رأسي موافقاً، خطت الى الامام نحو الطاولة البعيدة، ووضعت فوقها الاوراق، رفعت يدها اليمنى اشارة للتنبيه، فلما رأتني اتابعها، وضعت يدها اليسرى على اذنها تعبيراً انه حان وقت النوم، ويجب ان انام فوراً. امتثلت. انزلقت في الفراش، واطفأت الضوء، اغمضت عيني وبدأت السفر الى الامكنة البعيدة. واتذكر انني كنت على عتبة النوم عندما اغلق الباب، وساد الصمت!

طالع، الجسد، انتهى. وجد، اخيراً، بقعة من الارض واستقر فيها، لكن طالع آخر ظهر بدلاً عنه.

صحيح ان موته اثار استغراباً وصل حد الذهول وعدم التصديق اول الامر، ثم لما تأكد هذا الموت ـ وقد نقل جثمان طالع خلال فترة راحة المرضى، بعد الظهر، من الباب الجانبي المفضي الى الحديقة الداخلية ـ فان حالة من اللوعة، وصلت عند البعض درجة البكاء، استبدت بالكثيرين من المرضى والعاملين في المستشفى، نظراً للصداقات التي نشأت خلال هذه الفترة. أما في الليلة الاولى، ثم في عدة ليالٍ تالية، فان الرهبة حلت مكان الحزن، وشعر عدد من المرضى الذين اظهروا اهتماماً منذ البداية، وتابعوا ودققوا، ورأى بعضهم الجثمان وهو ينقل، وقد غطته بالكامل ملاءة بيضاء، شعر هؤلاء انهم لا يستطيعون النوم، او غير راغبين فيه، لان وهماً سيطر عليهم ان الموت يفضّل ان يأتي اثناء النوم، فهو يستغل الاغفاء او السهو والظلام وينقضّ، وخلال ثوان قليلة ينتهي كل شيء!

ونُقل عن اثنين من العاملين في المستشفى، صادف وجودهما لحظة الوفاة، ان طالع لم يمت مثل الآخرين، وليس نتيجة النزف كما قيل، وانما انفجر. وقد اكد الاثنان انهما سمعا صوت الانفجار، وكان قوياً ومفاجئاً، ولا بد ان يكون ذلك قد حصل بسبب الحزن او الغيظ! ونقل عن احد هذين الشخصين ان حالة من الهياج استبدت بالدكتور ميلان،فظل لفترة طويلة يدلك الصدر وينفخ في الفم، لكن هذه الاسعافات لم تجد، وعند ذاك هز الدكتور ميلان قبضته بغضب ثم ضرب الجدار. واضاف الشخص ذاته ان الدكتور ميلان قال لـرادميلا التي لم تستطع ان تحبس

دموعها: «هذا المريض كان مصمماً على الموت، لانه يعتبر الموت وحده الـرد على الاهانة التي وجهت اليه».

مناقشات المرضى وتفسيراتهم لما حصل كانت كثيرة ومتباينة الى اقصى الحدود. فحين تساءل واحد منهم، وكان بالحقيقة يوجه السؤال الى الفيلسوف، وهذا اللقب اطلق على اميل جانك، وهـو مريض قـديم، يعتبر المستشفى بيتـه الحقيقي، وربما الوحيد، وقد اطلق عليه لقب الفيلسوف لانه يحمل باستمرار كتاباً كبيراً، ولا يقرأ فيه الا فقرة او اثنتين، وبعدها يتيه في التأمل والتفكير. . حين وجه السؤال الى جانك لتفسير ما حصل، اتخذ سيماء جادة اقرب الى الصرامة، وقال بصوت مبحوح يشبه الهمس:

ـ هؤلاء الشرقيون عاطفيون وسريعو التأثر، ويمكن لارواحهـم، وهي تغادر اجسادهم، ان تنفجر، لانها ارواح شفافه، وهي على شكل بالونات صغيرة ذات لون ازرق. .

هز رأسه عدة مرات وتابع بتأكيد:

ـ لقد قرأت في كتاب كبير، اكبر من هذا ـ واشار الى الكتاب الذي يحمله ـ عن رحالة هولندي زار بلاد الشرق، ورأى بعينه ان حالات الموت هناك ليست كلها نتيجة المرض او الشيخوخة وليست نتيجة القتل المباشر، اذ يقع قسم منها بسبب حجز الحرية، وتعتبر هـذه اقسى العقوبـات! ولقد رأى هـذا الرحـالة عـدداً من الاشخاص يموت لهذا السبب بالذات، فما يكاد يحجز الانسان، وخلال فترة اقصاها ثلاثة ايام، حتى يجدوه ميتاً!

وحين تساءل احد المرضى ما اذا كان اناس آخرون، من غير الشرقيين، لو حجزت حرياتهم، يواجهون نفس المصير، رد جانك بثقة:

ـ قد لا يختلف الامر، لكن ما هو مؤكـد، ان الشرقيـين الذين عـاشوا في الصحارى وفي الهواء الطلق، لا يطيقون اي سقف، عدا السماء!

وغير هذه القصص والامور حدث الكثير ايضاً. فالدكتور ميلان الذي تغيب عن المستشفى بعد ثلاثة ايام من الوفاة، جاء من اكد انه كتب استقالته ووضعها بتصرف مدير المستشفى، ولن يعود عن الاستقالة ما لم تقدم له ايضاحات كافيـة

ومقنعة لتفسير الاجراءات التي اتخذت ضد طالع. أما بعد ان عاد في نهاية الاسبوع فقد اختلف الكثيرون في تفسير هذه العودة!

هذا بعض ما حصل في اوساط المرضى وبين العاملين في المستشفى، خلال الفترة الاولى التي اعقبت وفاة طالع. لكن هموم المرضى ومشاغل العاملين لا بد ان تطغى على كل ما عداها، وهكذا، وبمرور الأيام، بدأت صورة طالع تتراجع او تغيب، الا حين يقع ما يذكّر بها من جديد.

وفي اوساط شباب موران، واوساط العرب الآخرين، حدثت امور كثيرة ايضاً: ثارت خلافات حادة، ترافقت مع مناقشات صاخبة، ولم يخل بعضها من استعمال الايدي، اضافة الى الشتائم التي لم توفر احداً او شيئاً! لكن ما كاد جثمان طالع يسافر، حتى اخذت الامور مساراً جديداً: الاسئلة المحرمة، الاسئلة المسكوت عنها، بنوع من التواطؤ الضمني، بسبب الخوف، اصبحت وحدها الاسئلة التي تطرح ولا تجد من يجيب عنها، او ان اية اجابة تعتبر غير كافية وغير مرضية! ونتيجة ذلك فان علاقات وصداقات كثيرة، كانت قائمة، تصدعت او انتهت، وبدأت اشياء جديدة تبحث عن اشكال لها، حصل كل ذلك وطالع لم يعد حياً، لكنه موجود، وان لم يُذكر، ومؤثر دون ان يسّمى!

وتغيرت امور اخرى كثيرة.

لكن ربما كنت انا الوحيد الذي رفض ان يصدق او ان يعترف بما حدث.

كان طالع يقاسمني يومياً صحن الطعام وكأس الماء، وكان يتمدد على سريري، ولا يتردد في ان يجر الوسادة ناحيته او ان يقلبها. ويقف الى جانبي وانا انظر الى المرآة اثناء الحلاقة، اوحين احدق داخل عيني لاختبر مدى قدرتي على الاحتمال.

واثناء القراءة، خاصة قراءة الاوراق التي تركها، كنت احس بثقل يده وهو يطوي هذه الاوراق، للحظات، ويقدم لي ايضاحات اضافية عن الاشخاص والاماكن، ويقلد اصوات المحققين والجلادين، وكيف انهم كانوا يجفلون من اقل الحركات واضعف الاصوات، حين لا يتوقعونها! فاذا واصلت القراءة مرة اخرى يقول لي هامساً، واصبعه تشير الى الفقرة او الكلمة: «انتبه، انتبه هنا».

وحين اتأمل الاشجار او الزهور، وحين اتابع شحروراً مجنوناً يملأ فضاء المستشفى بنشيد لا ينتهي، خاصة في الصباح الباكر او عند الغروب، حين افعل ذلك كنت اراه واقفاً الى جانبي، وكان يشير ويعلّق ويتساءل. حتى الماء البارد الذي كان يجفل منه وهو يغسل وجهه او يديه، وكان ذلك مثار تعليقاتي الساخرة، اكتشفت فجأة انني اصبحت اجفل منه انا ايضاً!

ان العلاقة بين البشر، والصداقة بشكل خاص، لا تقاس قوتها ومتانتها بالزمن وحده، فقد اكتشفت انني اعرف طالع منذ وقت لم اعد اتذكره، او بالاحرى لا اتذكر الا وانا اعرفه.

صحيح اننا لم نعش معاً في السجن، او في السجن ذاته، لكن، وهذا ما يثير دهشتي واستغرابي وتساؤلي، قابلنا نفس الجلادين، وان اختلفت اسماؤهم، وعشنا نفس الآلام والعذاب. حتى اللحظات المجنونة، حين كنا نحلم باعادة تشكيل العالم، مرت علينا بالتفاصيل ذاتها!

كنا ونحن نتبادل اخبار السجن، فنروي القصص والنكات، او نصف السجناء والحرس والجلادين، كنا نفعل ذلك كي نتغلب على المرض وساعات المستشفى الطويلة، وكنا نحرّض بعضنا ونحلم ان سيأتي يوم تهدم فيه السجون وتبنى بحجارتها حدائق ورياض اطفال.

كانت الساعات والأيام وهي تمر تزيدني اقتناعاً اني اتعرف على طالع اكثر وافضل من قبل. بل واكتشفت انني كنت اجهله، او بالاحرى لم اتعرف على معاناته الّا حين قرأت اوراقه. كنت وانا اقرأ واغرق احس ان ما يربطني بطالع اقوى مما كنت افترض، وتأكدت ان العلاقة بيننا اقوى من علاقات الاخوة، وهذا ما جعل حياتي تضطرب من جديد.

لما قرأت الاوراق تعرفت، مرة اخرى، على طالع، ولكن بشكل ادق واعمق هذه المرة، وكنت ايضاً اتعرف فيه على نفسي وعلى الحياة التي عشناها. كانت الحياة، في تلك الفترة، عابثة ومنكودة، وكانت مليئة بالتشوهات والاكاذيب، او كما يقول طالع في احدى الفقرات التي كتبها: «.. يجب ان نكون شديدي الحذر من الشعارات الكبيرة ومظاهر التقوى. علينا ان ننظر الى الاشياء الصغيرة والبسيطة قبل ان ننظر الى الكلمات الكبيرة واللافتات، لان هذه الأخيرة غالباً ما تخفي الاعمال

الرديئة والاكاذيب. والا كيف نفسر كل ما يقع تحت ابصارنا وسمعنا في كل لحظة؟ كيف نفسر السجون والقتل والسرقة وعشرات الارتكابات الاخرى، وفي ظل الشعارات الكبيرة ومظاهر التقوى؟».

وبمقدار ما يتفاءل الدكتور ميلان من التحسن الذي احرزه خلال بعض الفترات، فلا البث ان اخيّب امله في فترات لاحقة، الى ان اصبح الامر تحدياً له. كان يحكم عليّ الحصار ـ وقد اكتشفت ذلك في وقت متأخر ـ لمعرفة العوامل والاسباب التي تؤثر على صحتي. افترض، اول الامر، ان صدمة الوفاة هي السبب، وبمرور الوقت لا بد ان انسى واتجاوز، واستعيد الصحة والنشاط. وفي فترة لاحقة افترض ان الاخبار التي ينقلها اليّ الزوار لا بد ان تكون هي السبب في ارتفاع درجة الحرارة، وفي الاضطرابات التي ترى في الصور او تظهرها التحليلات.

كان يسألني ويتبسط معي، خاصة في بداية الاسبوع، يريد ان يعرف ما اذا كانت اخبار العالم الخارجي هي التي تجعلني هكذا. لكن ما أن نسترسل في الحديث، او يقرأ درجات الحرارة المسجلة على اللوح، حتى يُسقط هذا السبب، او لا يعتبره اساسياً!

في منتصف تموز، او بعد ذلك بايام، وكان قد مضى على وجودي في المستشفى فترة طويلة، ويبدو ان قدرة الطب لا تستطيع ان تقدم لي اكثر مما قدمت، في هذه الفترة، نتيجة وشاية، او نتيجة صدفة، وضع الدكتور ميلان يده على السبب!

ـ هذه الاوراق.. اريد ان اعرف من كتبها، وما هو مكتوب فيها!

واشار الى اوراق طالع، وكانت موضوعة، مع كتب ودفترين، على الطاولة القريبة. للحظة خفت. تذكرت المداهمات القديمة والبحث عن المستمسكات، واية اوراق يمكن ان تكون طرف خيط وتساعد المحقق. وتذكرت مرة، حين عُثر على ورقة مفكرة صغيرة عليها بضعة اسماء. كانت اسماء مفردة. وكان المحقق متأكدا انها بخط يدي، ويريدني ان اعترف بذلك. سألني عنها، طلبت منه ان ارى الورقة. قدمها لي، ما كادت تصل الي يدي، حتى اتخذت قراراً خطيراً: في لحظة مناسبة، وبشكل مفاجىء التفت الى هذه الجهة ثم الى الجهة الاخرى، وقد تظاهرت بالخوف، وما ان التفت المحقق متسائلاً وليعرف ما حصل او سبب التفاتي حتى دعكت الورقة وكومتها ثم ابتلعتها. لا ازال اتذكر الجنون الذي اصابه فجأة. أما الفك المكسور، والاسنان

الثلاث التي سقطت، فالثمن الذي دفعته لقاء تلك الورقة الصغيرة!

ماذا اقول للدكتور ميلان الآن، وهل اقوى على ابتلاع هذا الكم الهائل ليس من الاوراق وانما من العذاب وحدي؟

قلت بنوع من الفخر:

- انها اوراق العريفي.

- اوراق العريفي؟

سأل باستغراب وقد انفتحت عيناه على اتساعهما، اجبت بكبرياء:

- نعم انها له، وقد كتبها قبل وفاته بفترة قصيرة.

- هل من حقي ان اسأل عما كتبه فيها؟

ولا اعرف كيف واتتني، في تلك اللحظة، السخرية السوداء، قلت وانا ابتسم:

- وهل يمكن ان يكتب الا في الموضوع الذي عاشه، وعرفه عن ظهر قلب؟

للحظات لم يستطع الدكتور ميلان ان يستوعب الامر، قلت بنفس السخرية:

- يمكن للاخرين ان يكتبوا في مواضيع عديدة: مثلاً: عن الحب في ضوء القمر، عن تسلق الجبال، او كيف تصبح ثرياً وسعيداً، أما نحن فقد تخصصنا في موضوع واحد، ولا نستطيع ان نتركه، لانه لاصق بنا، علامة فارقة لنا، عنوان لعصرنا الذي نعيشه..

ولا اعرف كيف اصبح وجهي او ماذا قالت عيناي، فقد لاحظت ان الدكتور ميلان يضطرب في كرسيه، وقد قالت ملامحه ايضاً ذلك. قلت وانا انظر الى السقف:

- الموضوع الذي يشغلنا هو: السجن..

خيم صمت قاس. احسست ان الرسالة اصبحت قابلة للقراءة، تابعت، وربما بدت لهجتي حزينة:

- كيف نستطيع ان نتحدث عن الامور الاخرى ما دام السجن الآن هو

عارنا، وهو الذي اكل زهرة ايامنا واحسن رجالنا، وما دام يطاردنا حتى في المنافي، وقد رأيت كيف مات طالع.

قام الدكتور ميلان، بعد ان ملأت زفرته الغرفة كلها. ودون ان يتطلع اليّ، قال وهو يخطو نحو الباب:

ـ يجب ان امرّ على المرضى الأخرين، وسوف نجد وقتاً آخر نتحدث فيه.

في ذلك اليوم، وربما اكثر من اي يوم سابق، تضطرب اوضاعي الصحية. والاخت رادميلا التي تكون عادة مشغولة في يوم الاثنين اكثر من الأيام الاخرى، وتبدو اكثر نـزقاً، وغـير مستعدة لتقـديم اي تنازل، او الخـوض في اية احـاديث ومـطالب، مـا كـادت تبّلغ بحـالـة الحمى التي اصـابتني، حتى اقتحمت غـرفتي كالعاصفة. كنت احس يدها الثقيلة وهي تستقر، مثل لوح الثلج، عـلى جبيني، وكنت اميز الشتائم التي تقذفها في كل الاتجاهات، وربما شتمتني ايضاً!

ومايا العصفورة التي رابطت في غرفتي، بطلب من رادميلا، وربما بايعاز من الدكتور ميلان، كانت مضطربة، اقرب الى الخوف. قدرت ذلك من نظراتها اليّ؛ من ردود فعلها وانا اطلب الماء او رفع مقدمة السرير، وايضاً من بعض الاحاديث التي كانت تبدو طويلة، وهي تجيب الاخت رادميلا، وكـأنها تنقل اليهـا لحظات الهذيان التي كانت تغشاني حين ترتفع حرارتي، او تصف لها حركاتي!

ان تفاصيل كثيرة لذلك اليوم، ثم لليلة التي تلته، غابت من ذاكـرتي، او بالاحرى لا اعيها، لان الادوية التي اعطيت لي، وايضاً حالة التعب، جعلتاني اغرق في نوم عميق اقرب الى الغيبوبة، حتى الاخت جوليا التي أُبلغت بحالتي، ولا بد ان تكون قد سهرت عليّ الليل بطوله، لا اتذكر اني رأيتها. وربما لان حالتي اخذت بالاستقرار، ولم تعاودني الحرارة، فقد سمحت لنفسها بمغادرة المستشفى في الوقت المحدد، ولم تظهر لمواصلة النهار بالليل، كما فعلت في مرة سابقة!

في اليوم التالي، عنـد الضحى، وهو وقت يعتبـر متأخـراً بالنسبـة للدكتور ميلان، ولا بد ان يكون قد انتهى من جولته، جاءني. خلافاً لمرات كثيرة سابقة بدا مرحاً. الابتسامة تملأ وجهه، ولديه استعداد لان يتحدث وان يسمع.

بعد ان سألني ان كان وضعي الآن افضل من قبل، تطلع بامعان الى درجات

الحرارة المسجلة على اللوح. هز رأسه عدة مرات تطلع اليّ وابتسم، وجلس على الكرسي القريب.

هناك لحظات يحس الانسان خلالها بالحرج، رغم انه لم يرتكب خطأ، ولا يريد ان يطلب شيئاً قد يُرفض، وهذا الحرج، ربما، بسبب دقة الموضوع الذي يريد ان يخوض فيه، او لانه لم يجد بعد اليه المدخل المناسب. وربما لخشيته ان لا يكون مفهوماً بالمقدار الكافي.

لقد سيطر علينا، نحن الاثنين، هذا الشعور، خلال فترة الصمت التي بدت طويلة وثقيلة، الى ان اخترقها الدكتور ميلان بصوت اجش:

ـ لا اسمح لنفسي، وليس من حقي، ان اطلب اليك تسليمي اوراق العريفي، فقد اختار هو الشخص الذي يسلمها اليه..

زفر وهو يحاول الابتسام، بدا له ان هذا المدخل شديد الوعورة. تحرك في كرسيه وتابع، وكان صوته هذه المرة مختلفاً:

ـ لا اريد ان اتحدث في السياسة، فانا لا اعرف في هذه الامور الا القليل، ولكني اتحدث كطبيب..

ومرة اخرى تغيرت نبرة الصوت:

ـ المرض، في حالات معينة، وربما كثيرة، هو المريض. فبعض المرضى لديهم استعداد اكثر من غيرهم لان يبقوا مرضى، ولفترة طويلة، وهذا بسبب رغبة داخلية اكثر مما هو نتيجة اسباب عضوية.

تطلع اليّ بامعان ليقرأ تأثير هذه البداية، لما وجدني مصغياً باهتمام، اضاف:

ـ وآخرون لديهم استعداد وارادة لان يتغلبوا على مرضهم، خاصة من خلال الالتزام بقواعد العلاج، ومن خلال الرغبة بتجاوز المرض. ورغبة من هذا النوع، تلعب دوراً بالغ التأثير حين يتداخل المرض العضوي بالمرض النفسي. ولذلك فان مواجهة العوامل النفسية من خلال معرفتها اولاً، ثم من خلال منع او وقف تأثيرها تكون ذات تأثير كبير، اذا لم نقل حاسماً.

بعد هذه المقدمة بدا مرتاحاً، وكأنه استطاع ان يوصل اليّ ما اراده.

خيمت موجة من الصمت. كان يفترض ان اتكلم، ان اقول رأياً بما سمعت. لكن وجدت ان كلامه يعني شخصاً آخر، او لا يعني شيئاً، فقد قرأت مثله في زوايا مجلات غير طبية توجد عادة عند ربات البيوت وفي عيادات الاطباء!

قلت وكأني احدث نفسي:

- ليس لي اي اعتراض على هذا الكلام، لكن الفرق كبير، وكبير جداً، بين ما نرغب فيه وما نقدر عليه.

ابتسم ابتسامة كبيرة، وكأنه يهيّىء نفسه لهجوم جديد، قلت لاوقف هجومه:

- ومع ذلك فان المشكلة..

- المشكلة هي الارادة...

هكذا قاطعني ولم تفارق الابتسامة شفتيه. وبعد قليل:

- انت مريض، هذا شيء مؤكد، لكن يمكن ان تتعايش مع هذا المرض، وان تتحسن باستمرار، شرط ان..

ولم اتركه يتابع:

- شرط ان انسى السجن، ان اخلفه ورائي.. أليس هذا ما تريد ان تقوله؟

قرب كرسيه ونظر اليّ بامعان. تصلب وجهه قليلاً، قال وهو يهز رأسه:

- العريفي أخطأ كثيراً. ان ثلاثة ايام سجن اضافية او أربعة لا تعني شيئاً، كان يمكن ان يتحملها ويستمر...

وبعد قليل ويحزن:

- انا ضد ما حصل، واعتبره منافياً لكل أخلاق، لكن الفرق بين شخص واخر: كيف يتصرف ومتى، ويبدو ان هذا الدرس ثمنه باهظ اغلب الأحيان، وقد رأيت كيف دفع العريفي حياته ثمناً، وربما دون مقابل، فأرجو ان تتأمل في الموضوع جيداً.

وتحرك في كرسيه وهو يهز رأسه وينظر اليّ، ثم نهض.
قال بعد ان جر نفساً عميقاً، وبدا لي صوته حزيناً:

ـ اريدك ان تشفى، ان تتحسن صحتك، لعلك تستطيع ان تفعل شيئاً، هل فهمتني؟

وابتسم ابتسامة عريضة وهو يغادر الغرفة!

ولم استطع ان اشفى، او الأصح لم اكن مقتنعاً بضرورة الشفاء! اصبحت الحياة بالنسبة لي مملة اقرب الى اللاجـدوى، وتستبد بي مثل هذه القناعة اكثر خلال ساعات الليل الطويلة القاتلة، حين تمر امامي، كشريط بلا نهاية، صور المرحلة الماضية، اذ يسيطر عليّ شعور ان كل شيء تبدد وسقط، وان ليست هناك امكانية لبداية جديدة، خاصة بعد ان توالت الخلافات ومعها الاتهامات والفضائح، وبعد ان تغير موقف السلطات المحلية تجاه اللاجئين.

وجوليا التى بذلت جهوداً كبيرة من أجل ان تعيـد لي الثقة، اخـذت تفقد صبرها، وبدأت تدفع الآخرين لعلهم يستطيعون ما عجزت عنه.

ذات صباح، اثناء مرور الدكتور ميلان، وبعد ان اطمأن لوضعي، تلفت في الغرفة وكأنه يبحث عن شيء، ولما لم يجده هز رأسه وسألني:

- اتذكر ان غرفتك لم تكن تخلو من زهور، فلماذا نسيك كوبكا؟

وقبل ان اجيب نقر على صدغه، وكأنه تذكر شيئاً، وخرج!

لم تمض دقيقة حتى وجدت كوبكا، بوجهه الطفولي المرح، داخلاً علي يحمل باقة من الزهور! كانت الباقة منتقاة بعنـاية، مـرتبة، فوّاحة. تقـدم بها نحـوي، وقالت عيناه، برجاء، ان اقبلها، فلما صمتُ وضعها على طرف السرير، قرب قدمي، وبعد ان تكلم بضع كلمات، وكان متأكداً انني لن افهم عليه، جعل يشير بيديه ورأسه، واسم الدكتور ميلان يتردد، فقدّرت انه ما كان ليحمل اليّ الزهور لو لم يأخذ موافقته!

ومرة اخرى، بدل ان تسعدني تلك الزهور اثارت احزاني وذكرياتي. كدت اتصرف بحماقة، ان ارفضها، ان احرك ساقي وادفعها لتسقط على الأرض، لكن

حركة كوبكا، وهو يحمل اناء الزهور الفارغ من طرف الشباك، ثم وهو يملؤه بالماء، بعد ان برّده قليلاً، وكيف تناول الباقة وفردها في الأناء، وقد فعل ذلك بمهارة وذوق، واخيراً حين حمل الأناء الى الطاولة البعيدة، مقابلي، واداره اكثر من مرة ليأخذ الشكل الملائم تماماً . . . لما انتهى من كل ذلك فرك يديه وابتسم ابتسامة كبيرة، واخذ ينقّل عينيه بين الزهور وبيني، وكأنه يلتمس الرضا او الموافقة.

في تلك اللحظة اختلطت مشاعري، لم اعد اعرف هل انا فرح ام حزين، هل اتذكر طالع ولحظاته الأخيرة، ام استعيد الحياة بجمالها وبساطة البشر وطريقتهم في الحب والتعبير؟ فجأة وجدت نفسي اقفز من السرير واهجم على كوبكا واعانقه.

شممت في كوبكا رائحة الأرض والنباتات. كانت رائحة منعشة ذكرتني بأيام بعيدة رائعة، شددت على ساعديه، عند الكتفين، تعبيراً عن الامتنان والمودة، وابعدته قليلاً لكي انظر الى وجهه والى عينيه. لفترة غير قصيرة تراءى لي اني لا ارى وجهاً امامي، كنت ارى مرجاً فسيحاً اخضر، كنت ارى امنا الأرض بتضاريسها القوية وحنانها الذي لا ينتهي. قلت، وانا واثق انني اخاطب نفسي:

- «لا عجب فيمن عمل خيراً . . في الماضي.

ولا فيمن عمل خيراً . . اليوم

العجب الدائم هو:

كيف يمكن ان يوجد انسان لئيم وجاحد؟»

وانا، يا كوبكا، اعتبر نفسي ذلك اللئيم الجاحد، كما يقول الشاعر، وأريد منك الآن ان تغفر لي.

في لحظات معينة يفهم البشر على بعضهم دون كلمات، او دون ان يعرف الواحد لغة الآخر. انهم يفعلون ذلك بطرق لا حصر لها، اذ فجأة وجدت كوبكا يهز رأسه فرحاً وتضحك عيناه بغفران لا نهاية له. وحين انزلقت يداي عن كتفيه تراجع قليلاً الى الوراء، دون ان يلتفت، واخذ جسده كله يشهق ويتكلم. قال الجسد اشياء كثيرةً، لذيذة وحزينة معاً، وكنت احاول ان ابادله الكلام بهزات من رأسي، بالابتسام، بالتعبير عن الشكر، فلما شعر انه قال كل ما عنده، وسمع الجواب، تراجع اكثر نحو الباب. مال بزاوية ووضع يده على قبضة الباب يريد ان يفتحه،

عاندته القبضة، استدار اكثر، كان جسده فرحاً، وحين انفتح البـاب واصبح في اطاره الخارجي، قال، باعتذار، كلمات، كنت متأكداً انها التالية، لا غيرها:

ـ الحديقة تناديني ولا بد ان البي النداء!

في الأيام التاليـة، ولكي لا يثقل كـوبكا عـليّ، ولئلا يصبـح للزهور معنى روتيني، لم يتبع قاعدة ثابتة في ايصالها، فمرة يحملها بنفسه، ومرة يحمّلها لمايا، وثالثة يتظاهر بالنسيان، وانه لم يتذكر الا في آخر لحظة، حين التقت نظراتنا عبر النافذة او في الدهليز، اذ يضرب على جبينه، ويندفع بسرعة وقوة لكي يحملها اليّ!

والآخرون، معظم الآخرين، يشاركون في هذه «اللعبة» ايضاً. فالدكتـور ميلان الذي ابدى دهشته، وقد فاجأته باقة الزهور في اليوم التالي، قال بمرح:

ـ سألني كوبكا قبل ايام ما اذا كانت الزهور تضر بصحتك، وحين اكدت له ان لا ضرر منها، اتعرف ماذا قال لي؟

حركت رأسي دلالة عدم المعرفة، تابع الدكتور ميلان:

ـ قـال لي: الزهـور والنباتـات، ومنذ اقـدم العصور، وبـالنسبـة لجميـع المخلوقات، دواء للأمراض والأوجاع كلها، واستغرب اذا كانت تضر احداً. . . الا اذا كان احمق او من فصيلة الجعلان!

ابتسمت لشتيمة كوبكا! تابع الدكتور ميلان:

ـ لم أجد ما أجيب عنـه الا ان اقول له: يجب ان تأتي وتحل مكاني، يا كوبكا، في معالجة المرضى. فرد: لكل انسان المهنة التي يحسنها في هذه الحياة، وانا لا احسن سوى العمل في الأرض، ولكن اريدك، يا دكتور ميلان، ان تتأمل الحياة والمخلوقات حولنا، وان تتـأمل الحيـوانات بشكـل خاص، وكيف تعـالج نفسهـا وتشفى من الأمراض!

ولأن الوقت لم يكن ملائماً لحديث طويل فقد هز الدكتور ميلان رأسه، وقال كلمة اخيرة وهو يغادر:

ـ نعم يجب ان نتأمل الحياة لكي نتعلم اكثر!

وان نتأمل الحياة حولنا ليس دائماً بالأمر الممتع، او مما يعجّل بالشفاء! فتلكَ

العادات الجامحة التي تعودناها منذ وقت طويل، وحملناها معنا الى هنا، وتلك الأحقاد الغافية،وكان الجبن وحده يمنعنا من التعبير عنها، بدأت تظهر بصخب، واخـذت التحديات تتزايد والخلافات تتسع وتستحكم، والقطيعـة ومعها الـظلال السوداء اليائسة تغطي كل شيء .أما الذين صمتوا طويلاً فلم يعودوا قادرين على ان يستمروا كذلك. ومع كل قصة جديدة تزداد الأمور صعوبة وتعقيداً!

واذا كنت قد انقطعت عن الحديقة منذ غياب طالع، الا انه نتيجة الحـاح الدكتور ميلان، فقد بدأت اتجرأ على الخروج في بعض العصـاري. كنت اخرج ومعي، اغلب الأحيان، كتاب ادفن فيه وجهي، لاتجنب الحديث مع الآخرين، ولكي اتجنب نظراتهم ايضاً!

واميل جانك الذي جاذبنا الحديث في اوقات سابقة، وكان طالع يحاوره بمرح ويترجم لي، ولأن من عادة جانك ان يطرح الأسئلة اذا لم يسأله احد، فقد اصطدمت به من جديد، رغم محاولاتي الابتعاد والهرب.

بدأ، اول الأمر، من خلال الكتاب الذي احمله، اذ بعد ان ابدى اهتماماً للاطلاع على الكتابة العربية، استغرب اننا نكتب من اليمين الى اليسار، وتساءل ما اذا كنا نستعمل ايدينا اليسرى في الكتابـة! ثم سأل عن مـوضوع الكتـاب، واية موضوعات تروق لي واهتم بها اكثر من غيرها. جرى كل ذلك الحديث بمزيج من التشيكيه واللاتينية والفرنسية، وبعض الكلمات الانكليزية والألمانيـة ايضاً! وفي مرات لاحقة، حين لا نفهم على بعضنا بالمقدار الكافي، كان يلجأ الى الكتابة، ولا يتردد في ان يرسم، واخيراً استعار قاموساً من مكتبة المستشفى وظل يحمله باستمرار، ليستعين به في الحالات الدقيقة والهامة!

أنا متأكد ان لدى جانك ما يقوله، وربما يكون ذلك هاماً ومفيداً، لكن قلة المفردات التي نتبادلها كانت تحول، اغلب الأحيان، دون مواصلة الحديث، او تحوّله الى حـديث شديـد البؤس، اذ تتخلله الاشـارات الكثيـرة، وتـرديـد الكلمـات كالأطفال، وايضاً الاستعانة بالقاموس! وهذه الطريقة في النقاش او الحديث اخذت تثير اهتمام المرضى وفضولهم، وتدفع الكثيرين منهم الى المشاركة، بشكل او اخر، لتوضيح فكرة او لابداء رأي فيما يدور بيننا. حتى الأخت رادميلا التي كانت ترقب المناقشات، بعض الأحيان، اذ تتوقف وتنظر الينا باهتمام وتساؤل، كانت لا تقوى

على اخفاء ابتسامتها وهي تقول:

ـ خلال فترة، لن تطول كثيراً، سوف نحول المستشفى الى جامعة مفتوحة لتعليم اللغات . . .

وتضحك ثم تضيف:

ـ بطريقة الصم!

وتُسمع هنا وهناك تعليقات مرحة، وبعض الأحيان لاذعة، ورغم ذلك لا بد ان ينتهي كل نقاش من هذا النوع بحكمة او فكرة يحاول جانك ان يثبتها في اذهان سامعيه. كان يفعل ذلك باصرار، «لأن صاحب الفكرة يجب ان يتحمل الكثير من أجل توصيل فكرته، ولنا بالانبياء قدوة»!

في اللقاء الذي ابدى رغبته في التعرف على اللغة العربية، قال كلمات ظل المرضى يتذكرونها حتى اليوم الأخير من اقامتي في المستشفى، اذ بعد الأسئلة والمناقشات قال بفخامة، بعد ان رفع يديه عدة مرات طالباً من الجميع ان ينصتوا بانتباه:

ـ الشرق امر خطير للغاية، يا ايها السادة. هكذا كان وهكذا سيعود مرة اخرى. . .

وبعد ان نظر اليّ بامعان، اضاف:

ـ ولأن الحضارة بدأت من الشرق، لا بد ان تعود الى الشرق مرة اخرى؛ فالحضارة كالدائرة تماماً، فمن اي نقطة بدأت لا بد ان تنتهي عند تلك النقطة، فانتبهوا جيداً لما اقول!

وهز رأسه عدة مرات، وبدا عليه همّ، وبعد فترة من الصمت تابع بصوت مختلف، وكان يوجه الحديث الى الآخرين:

ـ لكن عيب الشرق واهله انهم كالشهب سريعو التألق ثم الاحتراق. . .
والتفت اليّ في محاولة اعتذار وتوضيح:

ـ ومع ذلك فان بعض الشهب لا يحترق بسرعة، واظنك كذلك، وكذلك يجب ان تكون!

تبرع بعض المرضى بالتفسير وايـراد الأمثلة، وقال واحـد ظل واقفـاً طوال الحديث، ولا يعرف ان كان جاداً في حديثه ام ساخراً:

- لتبق افكارك نيرة ودائمة التوقد يا اميل جانك، ولتعش عمراً مديداً دون الألم،واستميحك العذر اذا شبّهت ما قلته بالشمس، فهي تغيب كل ليلة، لكن لا بد ان تظهر في اليوم التالي، فهل توافقني يا اميل جانك؟

وافقه، او اضطر لموافقته اميل جانك، خاصة وانه لم يبق احد الا وشارك في الحديث. وانتهى الأمر بمعادلة قصيرة: كل شيء يبدأ من الشرق: بزوغ الشمس، وبداية الحضارة وفناء البشرية ايضاً!

قلت لنفسي وانا انهض: «المرضى كالسجناء لا بد ان يشغلوا انفسهم بشيء ما، ويجب ان يكون هذا الشيء بالغ الجدية!»

واذا كانت هذه الأحاديث تسرّي عن المرضى، وربما تشغلهم ايضـاً، فقد كانت تبدو لي قليلة الأهمية، رغم ما يميزها من مظاهر الجد والاهتمام، وربما كنت انظر لها كذلك، لأن الهموم التي سيطرت عليّ مختلفة.

وفي مرة اخرى انهى اميل جانك الحديث، وكانت الريح تهب وتنذر بالمطر:

- الريح، في هذا العصر، هي الألهة الجديـدة، لأنها تحمل خـلال ثوانٍ، الأفكار والأخبار والجنون من اقصى مكان في الأرض الى اقصى مكان يقابله، وما تفعله خلال وقت قصير ينشغل فيه البشر لسنوات وسنوات... وانت تعرف ان الريح لا تتوقف!

ونظر الى السماء وهز رأسه للتأكيد، ثم نظر اليّ وابتسم!

انقطعتُ، مجدداً، عن الخروج الى الحديقة لبضعة ايام، كنت خلالها ارقب جانك وهو يتخطر في الممرات وبين الأشجار، ولكن لم يكن يكف عن ترصد غرفتي منتظراً خروجي، وكان بين فترة واخرى يخرج من كتابه السميك ورقة وينظر اليها بامعان، ثم يعيدها الى الكتاب.

في اليوم الثالث او الرابع، وفي لحظة انفعال، قـررت ان اغامـر بالخـروج لاكتشف المفاجأة التي هيأها لي جانك!

ما كدت أتبادل معه بضع كلمات حتى جاء رادي، ومع ذلك لم يتأخر ولم يتردد

في ان يبوح لي بالمفاجأة. ورغم انه استعان بالقاموس لترجمة الورقة، الا انه استغل وجود رادي لكي يخرج عن السياق الأول. اذ بعد ان اتخذ سيماء جادة، وابقى الورقة مطوية بين اصابعه، فقد طلب من رادي ان يترجم.

بدأ بمقدمة حول الشرق واهميته، وكيف انه قضى سنوات في دراسة فلسفة الشرق، وانتهى بأن قال:

- ان الشرق كنز المعرفة، وخير من يلخص هذه المعرفة طاغور، وخير ما كتب طاغور الأبيات التالية:

وبعد ان ترجم رادي، اخذ جانك يترنم:

«اخّلف الأشياء الصغيرة لمن احب، اما الكبيرة فلكل الناس»

«الانسان اسوأ من الحيوان حين يكون حيواناً»

«لن يصبح الخطأ صواباً ان هو اصبح اقوى»

«نعيش في هذا العالم حين نحبه»

«اني اثق بحبك، لتكن هذه اخر كلماتي»

كان يقرأ اثار كل بيت على وجهي، ورادي يترجم، ولا اعرف لماذا طلب اليه ان يترجم البيت الأخير مرة ثانية! بعد ان انتهى قدم اليّ، بطريقة احتفالية، الورقة التي كتب عليها تلك الأبيات. كان خطه، باللغتين، جميلاً، لكن الترجمة بالفرنسية كانت حرفية ومضحكة، وترك مسافات كافية بين بيت واخر، اما اسم طاغور فقد كتبه بخط اخضر، وبدا اقرب الى الرسم!

وبكثير من الحزم والمهابة نهض اميل جانك، وكان نهوضه، بتلك الطريقة، دعوة لأن نفعل مثله، ولم نتأخر، اذ مد يداً صلبة، صافحنا بقوة، وربما دون مودة، وكأنه يوشك على رحيل لا يعود منه. كانت عيناه حازمتين مثل قائد عسكري يودع قطعة ذاهبة الى القتال، أما وهو يستدير ويمشي، وقد وضع الكتاب تحت ابطه، فكان اقرب ما يكون الى فلاح يحرص على زوادته، وقد شد عليها بساعد قوي.

تبادلنا النظر انا ورادي، وكنا منفعلين. كان لدى كل منا ما يقوله، ولكن وجدنا انفسنا نجلس، من جديد، ونغرق في الصمت، وبدأ يهبط المساء.

ولم يظهر اميل جانك بعد تلك الليلة في مستشفى كارلوف!

وعلى عادة المرضى في ملء اوقات الفراغ والتسرية عن النفس، انتشرت في المستشفى اشاعات وتفسيرات ساخرة حول غيابه.

قيل انه ذهب الى الجبال ليتمتع باجازته السنوية من المرض! واكد سلوفان غيزي انه «ذهب للمشاركة في مؤتمر فلسفي يعقد حالياً في احدى جزر المحيط، وحالما يعود سوف يخصص الأيام الثلاثة الأولى للحديث عن انطباعاته، والأيام الثلاثة التالية للاجابة عن الأسئلة، فهيئوا اسئلتكم منذ الآن. . ايها السادة» اما سابيلا، المريض بالربو، والذي يحمل باستمرار جهازاً لمواجهة النوبات الطارئة للمرض، فقد اكد «ان جانك اكتشف، بالصدفة، وعن طريق بعض الزوار، مكان عائلته، ولذلك قرر ان يداهمها قبل ان تفر منه مرة اخرى وتغير عنوانها!»

قيلت هذه التعليقات في الصباح الباكر، حين كان غياب جانك مجرد اشاعة. اما بعد ان تأكد هذا الغياب، فقد قال داركو، مسؤول المكتبة، ان «الهارب» استولى على ممتلكات عامة وفرّ بها، وكان يشير الى الكتب التي استعارها جانك ولم يعدها، مما دفع عدداً من المرضى الى تدقيق محتويات حقائبهم وعدّ نقودهم، خشية ان تكون قد تعرضت للسرقة!

عند الظهر، حين عاد مانيس من قسم التحليل، وجد تحت سريره الكتب المستعارة، ومعها مجموعة من كتب جانك الخاصة، اضافة الى رسالة قصيرة: «قال فيلسوف ساخر: احمق من يعير كتاباً، لكن الأكثر حماقة من يستعير كتاباً ويرده، وانا،

يا مانيس، الأحمق الأكبر في محيط من الأرض قدرة مائتا ذراع طولاً ومثلها عرضاً، وها أنذا اعود، من جديد، الى الحياة. التوقيع : جانك : الذي يزداد جهلاً بعد قراءته لأي كتاب جديد!».

بعد ان عرفت هذه الواقعة ندم الذين اسأوا الظن بجانـك، ونفى الجميع علاقتهم بهذه الاشاعة! اكثر من ذلك لام الذين دققوا الحقائب انفسهم، وقال واحد من هؤلاء: اميل جانك شديد الزهد، لا يفكر بالنقود ولا يعرفها».

وعند الغروب، في الحديقة، كان الجميع يتحدثون عن اميل جانك. فقد وجد من اكد ان مسألة مغادرته للمستشفى كانت مقررة قبل ايام، لكن لم يشأ ان يعلن عنها «لئلا يواجه لحظة الوداع الصعبة» كما قال احد المرضى؛ وقال عجوز لا يكنّ الود لجانك «لقد طرد صاحب الأفكار السوداء، لأن المستشفى مكان للمرضى وليس نادياً للثرثارين!» واكد مانيس «ان جانك لم يكن طبيعياً في الأيام الأخيرة فقد كان منطوياً حزيناً، وحين صافحني امس بدا وكأنه يودعني» وقال اخرون انه انتقل من مستشفى كارلوف الى مستشفى اخر، لأنه جاء من ابلغه بوصول اطباء جدد الى ذلك المستشفى»!

ولم يتردد بعض المرضى في التندر على اميل جانك وايراد القصص الطريفة والساخرة عنه. ومثل واحد منهم ـ بعد ان استعار قبعة تشبه قبعة جانك، ووضع كتـاباً تحت ابـطه ـ كيف كان جـانك يتكلم وكيف يجيب عـن الأسئلة! ورغم ان هـذا المريض اضحك الجميع، الا انه كان يتلفت باستمرار، خوف ان يـظهر جـانك فجأة! وبعد ان هدأ الصخب قال مريض عجوز «لا احد منكم يعرف اميل جانك مثلما اعرفه، واراهنكم انه سيعود، لأنه لا يطيق العالم خارج المستشفى، وليس له احد هناك».

وانا، هل ندمت بعد تلك الليلة، هل تغيرت؟

لا اعرف ، او بالأحرى لست متأكداً، فقد اختلطت الأشياء بالنسبة لي الى درجة لم اعد قادراً على التثبت او التمييز.

فاميل جانك الذي كان يبدو لي «فيلسوف الغمام»، كما سميته مرة لطالع، وضحكنا طويلاً لهذه التسمية، خاصة بعد ان بـدأ شديـد الحماس، وهـو يتحدث عن

«القوى الخفية» التي تدفع الطيور والأسماك الى الهجرة من مكان الى آخر، رافضاً الأفكار والنظريات التي تفسر هذه الهجرة بدوافع البحث عن الغذاء والدفء، او نتيجة النور وتغيرالمناخ،وكيف اصبحنا نتجنب هذا «الفيلسوف» ونبتعد عن الأماكن التي يكون فيها «لئلا نعلق في شباكه». . اميل جانك، وخلال فترة قصيرة، يتحول الى شخص اخر مختلف، ثم الى شخص ثالث، ثم الى عدد من الشخصيات في آن واحد. . . ولا يمكن ان تحكم عليه او تعطيه اوصافاً ثابتة ودقيقة، خاصة وانه لا يحسن، اغلب الأحيان، التعبير عن الطيبة التي تملؤه.

لو كان طالع موجوداً في ذلك المساء، ورأى الانفعال الذي غمر جانك وهو يترنم بأبيات طاغور، ثم الطريقة التي يسلمني تلك الوثيقة، وكأنه يودع لدي كنزاً يريد مني ان احرص عليه حتى اخر لحظة في حياتي، وان اتمثل كل كلمة قالها، لورآه طالع او سمعه لما احتاج الى دليل اضافي للتأكد من اهمية الكلمة ـ الفكرة، ومدى ما تتركه في الانسان من آثار لا تزول بمرور الزمن.

والآن، بعد ان غاب ، كيف بدأ يتحول بنظر «الأصدقاء» من فيلسوف وقديس الى لص هارب، تروى عنه النوادر والحكايات، ويتقمص البعض صوته وحركاته لكي يعيد تصويره من جديد!

قلت لنفسي، وقد ملأتني الكآبة: «رغم ان المرض يجعل الناس اكثر شفافية واقرب الى الصدق، الا ان الخراب الذي يثوي في قلوب الكثيرين لا يمكن ان يزول بسهولة».

كنا، انا ورادي، في الأيام التالية، نستعيد قراءة ابيات طاغور، وكنا نضيف ونعلّق، وكان يروي لي الاخبار التي يتناقلها المرضى عن جانك، خاصة بعد ان تأكد الجميع ان جانك غادر المستشفى بطلب منه، وقد فعل ذلك «لكي افسح المجال لمريض اخر يحل مكاني بعد ان اتعبت نفسي واتعبت الأخرين ايضاً. واخذت من وقت الأطباء والممرضات الكثير وعلى حساب المرضى الحقيقين، ولقد آن لي ان اداوي اوهامي بنفسي» كما قرأ رادي في الكتاب الذي رفعه للادارة.

في احدى الأمسيات، بعد العشاء، جاء رادي لزيارتي، ولاعادة كتاب كان قد استعاره مني. ما كدنا نتبادل الحديث حتى مرت الأخت جوليا في جولتها المسائية، ولا اعرف لماذا كانت راغبة في الكلام ذلك المساء، ربما لوجود رادي، وبالتالي امكانية

ان تعبر عما يجول في خاطرها منذ فترة طويلة .

قالت ، بعد ان جلست على كرسي مقابلنا، وكانت توجه اليّ الكلام :

ـ لا يحق لي ان اتدخل في شؤونك الخاصة، كما لا اعرف ما يشغل بالك، ولكن من حقي، كممرضة، ان اعبر عن رأيي ومشاعري . . .

توقفت لتتيح لرادي ان يترجم، ويبدو انها ندمت، او اعتبرت هذا المدخل اوسع مما كانت تريد، اذ ارتسمت على وجهها تعابير حائرة، ثم طالت فترة الصمت بعد ان انتهى رادي من الترجمة. لما رأت عيوننا مشدودة اليها، قالت، وخرج صوتها حاداً :

ـ لا اعرف كيف تنظرون الى الموت هناك، او كيف تتعاملون معه، وقد يكون لكل انسان موقف يختلف عن غيره، لكن استطيع ان اعطي نفسي الحق في ان اعتبر ما حدث لا يستحق كل هذا العناد، واعتبر ان موقفكما، انت والعريفي، خاطىء ، فالأول قتل نفسه بشكل ما، وانت تصرّ على ان تبقى مريضاً.

ترجم رادي بحماس وقناعة، لما وجدته هكذا تابعت :

ـ جسد الانسان مقدس، وهو هبة من الله، ولذلك يجب ان لا نتعامل معه باستهتار او بازدراء، لأن من يستهتر بجسده او يزدريه لا يُعتبر بالنسبة له اي شيء يستحق الاحترام او مقدساً.

ارتبك رادي قليلاً، اذا اصبح اكثر بطئاً وهو ينتقي الكلمات المناسبة، وما كاد ينتهي حتى نظر اليها طالباً ان تتابع، لكي يكتشف ما وراء هذه الفلسفة، قالت بهدوء وهي تهز رأسها .

ـ اننا حين نتأمل الجسد نزداد قناعة ان الحياة تعني الكثير، وهي شديدة القوة والتناسق والجمال، وان ما وهبناه ، وربما بالصدفة، يجب ان نحرص عليه وان نحترمه حتى اللحظة الأخيرة، والا كيف نفسر قدرة الانسان على تحمل الصعوبات وتحدي الأخطار، وقدرته على النهوض من جديد بعد كل سقوط؟

بدت لي الأخت جوليا انسانة مختلفة هذه الليلة. كنت اتصورها شديدة البساطة، ولا تعرف اكثر مما تعلمته في مدرسة التمريض اولاً، ثم ما اضافته لها خبرة الحياة بعد ذلك، واذا كان لها رأي ففي الشؤون اليومية الصغيرة.

قلت لها بمداعبة لكسر الجدية المبالغ فيها، والتي تظهر في كلماتها وعلى ملامحها:

- يذكرني كلامك، يا سيدتي، بما قاله لي صديق حين جاء المخبرون لاعتقاله، قال لهم، لما دفعوه بقوة في سيارة الجيب: «احذركم ايها السادة، انا لا اسمح لأي كان ان يلمس جسدي، لأن جسد الانسان مقدس، وهو ملك صاحبه فقط».

بعد ان ترجم رادي بدا الاستغراب،الأقرب الى التساؤل، على وجهيهما. قلت وانا ارفع نظري الى السقف:

- يمكن ان تقول الاخت جوليا ما قالته لانسان غيري، لأن الفلسفة التي اؤمن بها تختلف عن ذلك كثيراً!

وظهر الاستغراب اكثر من قبل، تابعت بحدة:

- كانت مهمتنا، خلال سنوات طويلة، ان نهين اجسادنا، ان نروّضها لاحتمال اقسى انواع العذاب، ولو فعلنا ما تريده الأخت جوليا لما بقي واحد منا...

ضحكتُ بسخرية، وبعد فترة صمت، وهما يتطلعان اليّ ويتبادلان فيما بينهما النظرات، قلت:

- كنا نلعب معهم لعبة ماكرة، اذ بمقدار ما كانوا يريدون ايقاظ اجسادنا، ومحاولة استغلال يقظتها، كنا نحاول ان نبقى هذه الأجساد نائمة ومحايدة!

قبل ان يترجم ما قلته للأخت جوليا استوضح عن معنى يقظة الجسد، أجبت بسخرية:

- يقظة الجسد معناها ان تستجيب له، ان تدلله وتحنو عليه...

وبعد قليل وكأني اخاطب نفسي:

- ممنوع عليك ان تشعر بالألم، بالضيق، بأيٍ من الحاجات الفيزيولوجية، لأن رهانك الوحيد، وربما الأخير، في مدى قدرتك على التحمل والمقاومة، وهم لا يستطيعون الدخول عليك الا من باب الجسد، ولذلك كنا نبذل كل جهدنا من أجل اغلاق هذا الباب!

ترجم رادي حرفياً، وبحذر، وكنت متأكداً انهما لن يستطيعا استيعاب ما قلت، لأن اختلاف نظرتنا الى الموضوع تجعلنا في حالة من الافتراق الكامل، وبالتالي تجعل حوارنا مستحيلاً، لم اخطىء التقدير ، قالت جوليا بألم وحيرة.

ـ لا اتصور ان احداً يمكن ان ينظر الى الجسد باحتقار او يتعامل معه بقسوة. . واستدركت بحزن:

ـ الا اذا كان شاذاً او مجنوناً.

ومثل ليالٍ سابقة، ولأن لدى رادي ما يقوله، فقد استغل لحظات الصمت التي طالت، وتوجه اليّ بالكلام:

ـ الماضي هو الماضي ،ومن الجنون ان يظل الانسان اسيرا له، خاصة وان الحياة لا تتوقف عن السير الى الأمام، ولا بد من النظر الى المستقبل اكثر من العيش في الماضي!

ترجم بسرعة واختصار للاخت جوليا، لأنه يريد ان يتابع:

ـ واعتقد ان من الأفضل ان نفكر بما يجب عمله اليوم وغداً من ان نفكر بأخطاء الماضي!

قاطعته بحدة:

ـ من يقرأ الماضي بطريقة خاطئة سوف يرى الحاضر والمستقبل بطريقة خاطئة ايضاً، ولذلك لا بد ان نعرف ما حصل كي نتجنب وقوع الأخطاء مرة اخرى، ومن الغباء ان يدفع الانسان ثمن الخطأ الواحد مرتين.

قالت جوليا، بعد ان ترجم لها ما قلته:

ـ الحياة، كما اتصورها، اكبر واغنى من مجرد اخطاء سياسية، وانتم الرجال تتوهمون القوة والتفوق في السياسة وحدها، ولذلك تتغاضون، او لا ترون جوانب الحياة الأخرى. وربما الأكثر اهمية.

ابتسمتْ وتطلعت الينا بمكر جميل، وكأنها تقول: كم انتم ساذجون ايها الرجال، واضافت بمرح:

ـ كم في الحياة من المسرات والجمال، ولأنها قريبة هكذا فان الكثيرين لا

يرونها، او لا يعرفون كيف يتمتعون بها، وحين يفطنون الى ذلك يكون الوقت متأخراً، وكل شيء قد انتهى!

ربما كانت تريد ان تقول اشياء اخرى، لكن الجرس الذي طرق اسماعنا في تلك اللحظة، جعل الأخت جوليا تتنبه وتنهض بسرعة، قالت وهي تغادر:

- سوف نجد وقتاً آخر لمتابعة الموضوع!

قلت لرادي، وربما شاب صوتي حزن لم استطع ان اخفيه:

- اعرف ان في الحياة مسرات كثيرة ومتنوعة، ولا بد ان يتمتع بها الانسان، بدءاً من السيجارة الأولى مع قهوة الصباح، وانتهاءً بقدح الكونياك مع المرأة التي يحبها في الليل المتأخر، وبين المتعة الأولى والأخيرة، هناك كفاح الانسان من أجل العيش والصداقة والشجاعة والمودة ومن اجل قيم يؤمن بها، وهي التي تعطي للحياة معنى، وهذا ما يجعل حياة الانسان اكثر صدقاً وفائدة.

توقفتُ، زفرت بحرقة، ثم تابعت الاعتراف:

- لكن شرط هذا كله، يا عزيزي رادي الاعتراف اولاً بالانسان، وهذا الشرط لا وجود له في بلادنا، الآن، ولذلك فنحن لا نحس بهذه المتع، او لا نعرف كيف نتمتع بها!

قال رادي، وهو يسحب نظراته بعيداً.

- قد تختلف شروطنا، وربما مطالبنا، لكني متفق تماماً مع جوليا، لأن الجسد القوي هو اداتنا في الكفاح، وحتى في المتعة، ودون هذا الشرط فاننا لا نستطيع شيئاً في هذه الحياة لا لأنفسنا ولا لغيرنا، ولذلك فهي تلحّ على الموضوع بأكثر من شكل، لكي تحرّض اقوى ما فيك من اجل ان يقاوم وتنهض!

- اقدّر دوافع جوليا، لكن المشكلة، كما تبدو لي، اكثر تعقيداً، لأنها تتجاوز الرغبة، وبعض الأحيان تتحدى الارادة...

تنفست بعمق واضفت كأني اخاطب نفسي:

- المشكلة انني فقدت الثقة، وربما احتاج الى وقت طويل من أجل جمع الشظايا التي أصبحتها، ومحاولة معرفة ما يمكنني عمله..

وبعد قليل وانا ابتسم :

ـ ولكن اعد نفسيّ، قبل ان اعد اي انسان آخر، ان احاول ، واطول رحلة، كما يقول الصينيون، تبدأ بخطوة ، ولا بد ان اخطوها.

قال رادي ، وهو يضرب كتفي بمودة :

ـ يجب ان تفعل.

وبعد قليل، وقد تغيرت ملامحه :

ـ والمشكلة تعني كل واحد منا، وانت تعرف ان لكل انسان، لكل شعب، مشاكله وهمومه ، ومن الخطأ او العبث ان نلقي همومنا على اكتاف الآخرين. . .

وانفرجت اساريره مرة اخرى، واضاف بمرح :

ـ ربما عرفتُ، من خلال مناقشاتنا، ومن خلال الترجمة، بعض مشاكلكم، واصبحت قريباً منها، والسؤال الذي لا بدّ ان اوجهه اليك: الى اي حد عرفت مشاكلنا وهمومنا؟ وهل تتصور ان مشاكلنا اقل من مشاكلكم؟

فوجئت بالسؤال، بدا لي غريباً وجاداً معاً. وبدا لي رادي انساناً مهموماً، قلت، وكأني اخاطب نفسي :

ـ فعلاً. . لماذا لم اسأل نفسي هذا السؤال البسيط؟

رد رادي ، وهو يستعد للنهوض :

ـ اذا كنت راغباً ومستعداً، وتحتمل هموماً جديدة، فسوف نتحدث طويلاً عن هذه الهموم. . .

وبعد قليل وبمرح :

ـ طبيعي ليس في هذه الليلة!

وغرقت في تفكير مضطرب ، وملأتني اسئلة لا اعرف لماذا أجلّتها طوال هذي الشهور!

ومرة اخرى ينفجر في داخلي السؤال المقصلة: لماذا اصبحت الأمور هكذا؟

. . . واتذكر تلك الليالي الطويلة: كنت احشد ارادتي وانا ارى عيونهم المحتقنة تطل علي مثل فوهات النار، واسمع اصواتهم تهدر من كل مكان: «يجب ان تعترف» فاقول لنفسي: «الفرق بين الحياة والموت: لحظة؛ والفرق بين الصمود والسقوط: لحظة، ولا بد ان احتمل». وتمر تلك اللحظة الطويلة التي تصورتها بلا انتهاء، اعيشها كلها، واتجاوزها ايضاً، وابقى حياً وصامتاً. الى ان تعبوا مني، فقالوا: هنا ستموت، ولم امت. اجتزت الدهليز الطويل كله، كان اطول من طريق الصحراء، وكان اطول من احتمالهم. اخيراً تركوني اذهب لاموت في مكان بعيد، فهل احقق لهم هذه الأمنية الآن واموت هنا؟

ومن بين الرماد، من الشظايا، احس في داخلي شيئاً ينتفض، يصرخ: كن عنيداً كالثور، وافعل شيئاً غير ان تموت.

اتقلب عشرات المرات على الفراش. ادير الوسادة بكل الاتجاهات، اقول لنفسي بنحيب مكتوم: ولكن ماذا يمكن عمله الآن. . بعد الخراب الذي عمّ كل شيء؟

وتمر الحياة الماضية مرة اخرى. تمر الاشرطة الرمادية ثم السوداء. احس بالغصة ورغبة البكاء. انهض. اتطلع الى وجهي في المرآة. ارى الوجه مسكيناً، مخطوفاً، شديد الحزن، وفجأة يتطلع اليّ ويصرخ: «كن نفسك ولا تكني» هكذا يدوي صوت طالع، وشيئاً فشيئاً يذوب الصوت ثم يأتي الصمت. وحين اتطلع الى المرآة من جديد ينهرني بسخرية كاوية: «انت ليس انا، وانا لست انت، فانتبه».

ويذوب الصوت ويطغى الصمت. ارتمي على الفراش متعباً ، حائراً، موزعاً الى نخالة من الأفكار.

ولأن ليالي الصيف طويلة حارة فالهواء يتقلص ويتراجع ، وفي نصف الظلمة تأخذ الأشكال والأصوات حيزاً شبحياً كتيماً، وكأنها توشك على العويل. اجمع نفسي في حالة من التحفز اقرب الى الدفاع لمواجهة عدو لا بد ان ينقض في اية لحظة. تتداخل الأشكال، تتغير كل لحظة، اغمض عيني في محاولة للنوم، لكن ثقلاً يضغط على صدري، يجعلني منتبهاً، مشدوداً مثل وتر.

لم يكن عدّ اعمدة الهاتف في ذلك الطريق الصحراوي الطويل، ولا قطعان الماشية، ليجعلني قادراً على النوم. كما ان الغرق في الأعداد، وقد تجاوزت الألف، رغم الأخطاء المستمرة، ومعها الأمواج التي لا تتوقف، لم تكن كافية لاعادة ترتيب الأفكار والأحلام التي كانت تضجّ في رأسي، وتنقر الصدغين، وكأنها الأزاميل، وهكذا تبقى العينان مفتوحتين حتى الصباح.

واذا كانت ليالٍ سابقة تشبه الليلة سلمتني الى الحمى، وطوّفت بي كل العالم، فقد انقضت هذه الليلة دون كوابيس ودون كمادات. وفي الصباح، حين مرت الأخت رادميلا، نظرت اليّ بخوف مشوب بالتساؤل، ولا بد انها قالت لنفسها «لا احتمل اكثر مما احتملت دلع هذا الشرقي او جنونه». لكن بعد ان قاست حرارتي، لمحتُ على وجهها ظل ابتسامة، ولما رأت كوبكا داخلاً وبيده باقة الزهر، يفترض انها قالت: «وجه صديقك لا يعجبني هذا اليوم، يا كوبكا. فصلِ معي من أجل ان لا تدهمه الحرارة» ولما ضحكت عينا كوبكا ونقّل نظراته بين رادميلا والزهور، ثم استقرت في عيني، وكأنها ترجوني، فقد اضافت رادميلا «لا شك ان الزهور وضوء النهار وهؤلاء المرضى الذين لا يتوقفون عن الثرثرة، سوف يساعدونه على ان يستعيد حيويته بسرعة» اهتز راس كوبكا، وبدأ الجسد يغني بالموافقة والتأييد. تحركت رادميلا تريد الخروج، قالت لي عيناها قبل ان تغلق الباب «انتبه، لا اريد اي نوع من المتاعب، اتسمعني؟»

وكوبكا مثل كناري لا يهدأ ولا يتعب من الحركة، فعند الطاولة البعيدة، بعد ان ملأ اناء الزهور بالماء، وبخفة وبراعة، مع دندنات لحن شعبي، جعل يرتب الزهور؛ وبين لحظة واخرى ينظر اليّ بطرف عينه ويسألني: الا ترى كيف تتحدانا

النباتات بجمالها وقوتها؟

بعد ان انتهى، وبطريقة لا تخلو من كبرياء وافتنان، ومثلما يفعل نبلاء عصور مضت وفرسانها، وهم يدعون السيدات لرقصة الفالس، حرّك جسده كله: مد يداً سخية جسورة الى امام، واحكم الأخرى وراء ظهره، مشيراً الى آنية الزهور. وبهدوء مثل نسمة، بدأ يتراجع ووجهه نحوي، وابتسامته تملأ الغرفة كلها. وكما يفعل كل مرة، وهو في اطار الباب، من الخارج، قال: الى اللقاء مع زهور اخرى!

انها الحياة، هذه الزانية، التي لا تخلو قط من فتنة وطيبة وروعة!

ووجدت صوتي يهدر وتخرج الكلمات رغماً عني: وكم فيها من قسوة وخِسّه!

واحاول ترتيب الأشكال والأشياء والصور، لكن ما اكاد ارتب شيئاً او اتصور شكلاً او استعيد صورة حتى يتزلزل كل شيء وينهار، تماماً مثل البيوت التي يبنيها الأطفال من رمال الشاطىء. اثبّت، للحظات، صورة كوبكا، لكن فجأة تشّوش عليها صورة الشهيري او العطيوي، ثم تركبها تماماً. استعيد صورة طالع، تأتيني عيناه الذكيتان وابتسامته التي تجعلني ضعيفاً، وما اكاد آنس به حتى تهتز الصورة، ترتبك، ثم تنطفىء فجأة، ويعلو صراخ المساعد خليل: «والله لاخليك تتمنى الموت وما تحصّله!».

انظر الى الزهور، انظر اليها بامعان. امتلىء عجباً لألوانها وعبقرية تكوينها، وحين تنتشي منها روحي، ويصل عبيرها الى اقصى الرئتين، اشم فجأة رائحة البول المجنونة المتصاعدة على شكل ابخرة وصنان من ذلك الجحر الذي قضيت فيه اسابيع متوالية، وكانت تلك الرائحة، وحدها المخيمة ليل نهار.

اقترب. ابتعد، احس في لحظات معينة انه لا يزال في الوقت متسع لعمل شيء ما، لبداية جديدة، فاستجمع قواي، اتحفز، لكن فجأة ترتخي الساقان، واشعر بالتخاذل. ترتج الذاكرة بالصور النازفة كالطوفان. اخبط الهواء، اقول لنفسي بشراسة ذئب جريح: المهم الآن ان نخرج من هذا النفق، ان نداوي جروحنا لكي نستطيع مواصلة الرحلة، وهذا يتوقف على بقاء التنظيم وسلامة الخط؛ أما اذا سقط احد او تعب فيجب ان لا يتوقف الجمع، فالحياة تعلمنا ان كثيرين يمكن ان يتوقفوا، ان يسقطوا، لكن الحياة ذاتها لا تتوقف ولا تنتهي، وهذا ما ساظل اراهن عليه حتى آخر يوم من ايام العمر.

وحين اتقلب في الفراش، واحس الألم اقول، وتخرج الكلمات من بين اسناني «. . . وانت، ايها الموت، ماذا لو اتيت؟ انك، كما يقول يوناني ملعون: مجرد بغل، ولا بد ان اركبك لكي اصل الى الجنة. لا يهم ان يكون المشوار قريباً او بعيداً، الأكثر اهمية ان اتحداك، ان لا اخاف منك». ويشتد عصبي، اصبح حصاناً غير مروض، بشارة من تلك البشائر التي تتجاوز الخوف وتقف عند تخوم البركان.

وضاعت تلك الأيام. انـزلقت بسرعـة سمكة نهر جبـلي. هربت كحلم، وحلَّت مكانها سلحفاء بعين واحدة. جاءت الأيام السوداء، الطينية. واقف الآن في مواجهة الحائط، فهل اكون دريئة الأباطرة الجدد؟ هل ادخل القفص باوداج ديك مخصي؟

تتكاثف الصور وتتداخل، اشعـر اني مقسوم الى درجـة التلاشي، لكن في مكان ما، لا اعرف اين، اشعر ان هناك شيئاً لا يزال يتحرك، وهذا الشيء هو الذي سينقذني، انه جزيرة خضراء قريبة، وهو المركب الوثيق، وكأنه فنار آلهة قديمة تنتظر مسافرين سيأتون من امكنة قصية، وليست لديهم فرصة طويلة للانتظار او التوقف.

الى جانبي اوراق طالع، أقرأ الأوراق واعيد قراءتهـا. حين تمتلىء روحي بالعذاب اتطلع الى زهور كوبكا. اقترب منها كما يقترب العاشق. انظر الى الخضرة، التويجات، اتنشق بشغف العطر الذي لا يكف لحظة واحدة عن التدفق، وكأنه مطر دائم، عطاء لا يعرف الهدوء. وأسأل كطفل: «وانت يا كوبكا، يا نور العين وجسر المحبة، ماذا استطيع ان اقدم لك مقابل هذا العطاء؟» ترتعش الزهور، تحتج، تتأوه بنزق وقد حزها الألم.

واذا غاب كوبكا تتراءى قبعة جانك، ومعها يدوي صوت طاغور: «نعيش في هذا العالم حين نحبه» والحب بداية كل شيء، اذ من خلاله نفهم العالم، نتعاطف معه، رغم ان هذا العالم ليس مستوياً وليس هادئاً، وربما لا حاجة لأن يكون كذلك، كما قال جانك مرة. لقد «هرب» جانك، ليس من المستشفى او المرض، وانما من القسوة والخداع والخسة، وايضا من تفاهات الناس الصغيرة.»

وأنا كبندول الساعة اتـراوح بين الأمـل ولحظة الانفجـار، خاصـة بعد ان اكتشفت كم في هذا العالم من القسوة والنذالة.

الصور تتوالى كالأمطار التي تعقب العـاصفة: سـريعة، مـزدحمة، والـزمن

الماضي نثار من الألم والأقمار الصغيرة، ثم ذلك الانتظار الذي لا ينتهي على امل ان يكون الغد احسن من يوم العذاب الذي نعيشه الآن، لكن ما ان يجيء الغد حتى يخلّف حسرة كاوية على الأيام التي مضت. ويصرخ العطيوي: «والله لاطلع حليب امك من خشومك، يا ابن الحرام، اذا ما حكيت» ويصبح الصمت مرضي غير القابل للشفاء. وحين يرتخي الجسد، بعد ان اصبح كومة من اللحم المعجون بالدماء، احس في مكان ما، معتم، لكنه حصين، راحة يولدها العناد. ومع الأنين ورائحة الدم واحذية الذين يذهبون ويجيئون، واصوات الأبواب التي تفتح، والصرخات التي تتوالى، اشعر ان الأشياء تساوت الى درجة ان الحياة والموت شيء واحد. ويزول الخوف تماماً. يجن العطيوي، يصرخ: «والله لأخليك تحكي مثل العصفورة، يا ابن ستين كلب».

وتطل رادميلا. انظر اليها بوقاحة الرفض. تهز رأسها لتتأكد. تقترب بمشية البطة المسنة. تضع يدها على جبيني. تطمئن. تتكلم وحدها، تتكلم ببذاءة او ربما بقسوة، هكذا يوحي جرس الكلمات. وجهها محايد، لكنه لا يخلو من نزق وبقايا تعب. تسألني بعينيها: كيف انت الآن؟ اهز رأسي مثل ثور مسن دلالة العافية والرضا والشبع. تهز رأسها دلالة الفهم. نضحك كلانا، لكن لأسباب مختلفة!

ولأني انقطعت، مرة اخرى، عن الحديقة، فقد قال لي الدكتور ميلان ذات يوم:

- الفحوص السريرية تؤكد ان وضعك افضل من قبل، لكن يلزمك ان تتحرك، ان تمارس رياضة خفيفة.

وحين ابتسم ابتسامة تقع عند الحد الفاصل بين المكر والرضا، يضيف:

- الرياضة التي اقصدها لا تتعدى المشي في الحديقة، نصف ساعة في اليوم!

وفي محاولة لأن يخلق جواً من المرح، يلتفت في انحاء الغرفة، ويقول:

- صحيح ان كوبكا حمل الحديقة الى هنا، لكن الحديقة الأخرى، الهواء الطلق والناس والتمشي، ضرورية ايضاً.

واخرج ولا اخرج، لأن روحي شديدة العياء، وقلبي مثقل، والظروف التي تحيط بي تزداد تعقيداً. فالنكد الذي اخذ يزداد ويتكرر، اسبوعاً بعد آخر، منذ موت

طالع، اصبح يجيء من الزوار. فهؤلاء الذين يفترض فيهم ان يخففوا عني اصبحوا هماً فوق همي، ثم اصبحوا مرضاً لا اعرف كيف التخلص منه.

خلافات المقاهي والبارات، والتي تحولت بسرعة الى معارك، لا بد ان تصلني يوم الزيارة الاسبوعية اذا لم يستطع نقلها بين الزيارتين! كانـوا ينقلونها بحماسة المبشرين، ويريـدون مني، ومن صديقـاتهم ايضاً، ان نـأخذ علماً، ثم ان نصبح شهوداً، واخيراً ان نتحول الى حكام على صحة مواقفهم وما يقولون!

ولأني تعلمت في السجن الصمت، واتقنته كثيراً، كنت، في البداية، استمع اليهم باهتمام، او هكذا يبدو عليّ! والصمت، بالنسبة اليهم في المرحلة الأولى، ميزة لا تقدر بثمن، اذ يريد كل واحد منهم من يستمع اليه بعد ان تعذر وجود مثل هذا الشخص في المقاهي، واستحالته حين يبدأ السكر، اذ سرعان ما يتحول النقاش الى دروشة مليئة بالهذيان: الكل يتكلم ولا احد يسمع! ولذلك كنت صيداً ثميناً لهؤلاء المكتنزين بهذا الكم الهائل من الكلام. كانوا يجّربون السنتهم كما تُجرّب الأسلحة في مناورة بالذخيرة الحية. وبعدما اطمأنوا لإصغائي، وامتحنوا وقائعهم والحجج التي سيدلون بها في مرافعاتهم من أجل دحر الخصوم، لا بد ان يخطوا، زيارة بعد اخرى، خطوة اضافية الى الأمام: ان اكون اول من يقتنع. ان اكون اول من يوافق. ان استعد لدخول المعركة في وقت قريب!

ولأني كنت خلال هذه الفترة فريسة لعذاب الحيرة وانكسار اليقين، ولأن شيئاً في داخلي تفتت وانمعس، وكان هذا الشيء ابيض شفافاً يشبه حنـان الأم وشديـد التماسك كالجسد، فقد شعرت ان العالم اسودّ وتحول الى الاف الشظايا، فامتلأت بالقهر والتعب، وهجمت عليّ احزان لا اعرف اين كانت مختبئة، ولولا ذلك العناد الذي يلفني كسياج، في اغلب الأحيان، لوجدت نفسي منتهياً.

قلت لنفسي، وانا استعيد دوي المعارك التي تدور حولي: «اذا كان لا بد من معركة فيجب الا تكون مستشفى كارلوف ساحتها، ولا براغ مكانها، ففي موران وعمورية، وفي الأرض العربية الشاسعة، من الأمكنة والبشر ما يكفي لخوض المعركة هناك! وهؤلاء الذين يحملون اوهامهم، ويتجولون بها من مطار الى آخر، ويعرضونها في السهرات، وكأنها بضاعة مهربة، ويتصـورون ان بضع شتـائم تكفي لكسب الحرب او تصنع مجداً، مثل هؤلاء يجب ان التخلص منهم دون رحمة».

قلت لهم: اذا جئتم مرة اخرى لزيارتي، فتعالوا خفافاً لطافاً، وبعد ان تتركوا خلافاتكم خارج أبواب المستشفى.

وهكذا، بعد ان كان الصمت السلاح الذي اواجه به العالم الخارجي، اكتشفت بمرور الأيام تآكل هذا السلاح وعدم جدواه، لأن الصمت اذا كان ذا دلالة، ويعني موافقة او رضا في وقت سابق، فلم يعد يكفي هؤلاء «المحاربين». ولذلك لجأت الى الطريقة الثانية: الى السخرية التي لا تخلو من وقاحة. وتبين لي ان هذه الطريقة شديدة الأثر وفعالة جداً! فقد بدأت زيارة «المحاربين» تتباعد وتقل، الى ان جاءت اسابيع لم ار احداً منهم!

في البداية، في الاسبوع الأول، قلت لنفسي: «نوم الظالم رحمة». وبدأت اعيد مراجعة حياتي كلها بعيداً عن المؤثرات الآتية المتلاحقة. قرأت. حزنت. ندمت. قلت لنفسي: كم كنا أغبياء وجبناء خلال فترات طويلة سابقة. وتأكدت لدي هذه القناعة اكثر وانا استيعد ليس فقط الأخطاء التي وقعت، وانما معها المبررات التي كانت تساق والحجج التي تقدم. قلت لنفسي بأسى: «لا يكفي في العمل السياسي ان يكون الانسان صادقاً ومتفانياً، خاصة في جو الكهانة، والذي انتقل من الأديرة النائية الى التنظيمات السرية. فحين تغيب الحرية في القول والاختيار، وحين يتم التستر على كل شيء، خاصة الأخطاء، بحجة حماية التنظيم، ولعدم تمكين الأعداء، فعندئذ من الأفضل، بل الأهم، ان يكون الانسان ماكراً بارعاً واقرب الى النفاق، خاصة مع من هم اكبر منه موقعاً، ومع من هم اقوى! اما اذا كانت الطيّبة سلاح المناضل، فانها في حالات كثيرة تدل على الغفلة وسوء التقدير، وعدم معرفة القوانين الحقيقية التي تحرك الأشخاص وتتحكم بالسياسة والدول».

لم اصل الى نتيجة مرضية. اصابني الغم. قلت لنفسي: «الله كم كنت حماراً!» ابتسمت. اهتز رأسي كاهتزاز رأس الحرذون. تابعت بسخرية: «وكيف يجرؤ هؤلاء الأوغاد على اطلاق مثل هذه الصفات على مخلوقات الله الطيبة؟ ولماذا نظلم الحمير بهذا المقدار؟» اجبت نفسي، وقد تملكني المرح: «لا بد من اعادة النظر في أشياء كثيرة، وفي مقدمتها قاموس الشتائم السياسية، وكيفية اعطاء الأوصاف والألقاب والنياشين».

في اسبوع لاحق زارني عماد الاشهب.

بعد ان حياني بمودة، فرك يديه، ابتسم، قال: «الطقس حار». هززت رأسي موافقاً. تطلع حواليه بنظرة دائرية امنية. سألني عن صحتي، لم ينتظر الجواب، زم نفسه كعرنوس الذرة، تطلع اليّ بحزم محقق، وخرج صوته صارماً!

ـ ليس على الرسول الا البلاغ..

صمتُ وتطلعت اليه لأقرأ الرسالة قبل ان يتلوها كما تتلى كلمات تلقين الموق. تابع بحرج:

ـ طلب اليّ الرفاق ان اتصل بك لاعرف موقفك، يجب ان تحدد موقفك!

وبعد قليل وهو ينظر الى الأرض، وكأنه يبحث عن شيء، اضاف وهو مطرق:

ـ لأن على ضوء الموقف سوف تتحدد امور كثيرة، ولا حاجة للدخول في التفاصيل!

تطلعت اليه وانا ابتسم. شعر بالحرج اكثر من قبل. رفع رأسه، سحب نظراته بعيداً. ساد بيننا صمت ثقيل. نظر اليّ من جديد متسائلاً. قلت وقد ملأتني السخرية..:

ـ قل لهم، يا عماد، انني في هذه الفترة اعد النجوم وارعى الغيوم، وليس لدي وقت لاي شيء آخر!

وحين ابدى استغرابه اضفت:

ـ قال حكيم قديم «ان الحاضر لا يعنيني، أما المستقبل فيحزنني غاية الحزن، لاني ارى فيه اشتعال الكون ودماره، وهذا ما يهيب بي لان اتحسر وانتحب. اني لاذرف الدمع غزيراً لعدم رؤيتي اي شيء ثابت، فكل شيء متداخل بعضه في بعض، فاللذة تختلط بالالم، والمعرفة تمتزج بالجهل، والكبير بالصغير، والرفيع بالوضيع، وانها لحلقة لا تبرح شخوصها تتعاقب في لعبة الزمن»*..

---

* هراقليط، لوقيانوس، من «مذاهب في المزاد» ترجمة سعد صائب ومفيد عرنوق ـ ص ٩٤ دار الرشيد بغداد ١٩٧٩.

وبعد قليل، وقد اصابني الغم:

- هذا ما يشّغلني يا عماد، واتمنى ان يشغلك ايضاً، فاذا لم تفهم هذا الدرس جيداً، والآن، فلن نستطيع مساعدة احد، والافضل ان ننزوي ونصمت!

وعلى مدى عدة اسابيع لاحقة لم يأت احد لزيارتي!

شعرت، في البداية، بالراحة، فلن اصدع رأسي، بعد الآن، بالهراء الذي يدور، ولن اكون طرفاً في خصومات وهمية، المنتصر فيها كالمهزوم.

ورغم الاخبار القليلة والمتباعدة من الوطن، وكانت تتراوح بين النقيضين، فقد بقي الامل ان يتحكم العقل وان تتراجع الانانية، لكن املاً مثل هذا كان يخبو فترة بعد اخرى، وظلت المعارك هنا، وربما في اماكن اخرى، تزداد حدة وعنفاً لاقتسام «التنظيم»، والمناصب والافراد، ومعها حروب البيانات والاتهامات. وتأكدت اكثر من قبل ان هزائم جديدة تنتظرنا، طالما لم نعرف كيف نفهم بعضنا، ولم نستطع ان نحتمل خلافاتنا او نتوصل الى حلها، خاصة واننا، في مراحل معينة، ارتضينا ان يكون الحكم بيننا خصومنا!

قلت لنفسي بنوع من اليأس: «هذا النمط من التفكير والتنظيم هو امتداد للعصور السابقة اكثر مما هو للمستقبل!» وانصرفت للقراءة والتأمل.. وايضاً للمراجعة وانتظار شيء ما.

كانت اوراق طالع موجعة، نازفة، قلت لنفسي: «لا بد من نشرها» اطلّ علي بعينيه الضاحكتين والحازمتين معاً وقال: «من تكون حتى تقرر نيابة عني؟» قلت له «انتبه ايها الرجل، انت لم تعد موجوداً، كان يمكن ان تقول لا او نعم حتى ذلك الاربعاء، وبعدما انقضى ذلك اليوم، اصبحت ملكاً مشاعاً، ومثلما فقدت قدرتك على التحكم بجسدك فقدت، في نفس اللحظة، الحق في التدخل بشؤون الاحياء، لان هؤلاء وحدهم يقررون ما يناسبهم. واوراقك، الآن، تحت يدي، ويمكن ان افعل بها ما اشاء» قال بصوت مشروخ: «ولكنني اودعتها امانة لديك، واحتفظت لنفسي، لرفاقي، بحق التصرف بها، ويجب ان تكون اميناً وتعرف الحدود»! قلت وانا اضحك «لم يمت ضميري بعد، يا طالع، ولن اجعل منك سلعة مهما كانت الظروف. لكن يجب ان تعرف: الاكتشافات، الابداعات، وايضاً التجارب، رغم

صلتها بالذين ابدعوها او حققوها فانها تصبح ملك الآخرين بمجرد ان تتعدى اجساد اصحابها». قال لي، وهو يهز رأسه: «اسمع، لن استطيع منعك، وما تعتبره تجربة، انت تعرف في اية ظروف كتبت، ولهذا السبب بالذات اعتقد انهالا تستحق التوقف، ومع ذلك فان المسألة التي تؤرقني الى اقصى حد: كيف يمكن ان ندمر السجون، نعم كيف يمكن ان ندمرها؟ وكيف نستطيع ان نخلق نظاماً وانساناً يؤمنان فعلاً بالحرية؟ هذه هي المسألة التي تستحق العناء!» قلت له وانا اشدد على مخارج الحروف: «اعذرك، يا عزيزي الذي غاب الى الابد، فانت، ربما، لا تعرفني كما عرفتك، وقد تعمقت هذه المعرفة اكثر حين قرأت ما كتبته، ولذلك اريدك ان تتأكد من شيء واحد: اذا خنت نفسي اخونك يا طالع، هذا ما استطيع قوله». رد بحدة مشوبة بالخوف: «لا اتحدث هنا عن الوفاء والخيانة، فهذه الامور بالنهاية قيم شخصية، اي انها متعلقة بالاشخاص اكثر مما هي متعلقة بالظروف والوقائع، وما يهمني تماماً ان يتطابق الصوت مع الحركة، الشعار مع الموقف، والا اصبحنا متآمرين من حيث لا نريد». رددت بحدة «اسمع يا طالع، رغم قناعتي بحرية الآخرين، الا ان المقياس الحقيقي: هو الاحياء وليس الموتى، وانت الآن، رغم ان هذا يحز بقلبي ويشطره الى نصفين، لا يحق لك ان تدلي باي قول، لانك لم تعد موجوداً.» نظر اليّ بمرارة وقال بحدة: «انك لا تترك عاداتك ابداً، فانت، بلباقة، وربما بمكر، تريد ان تسلب الآخرين حقهم في الحرية، وتحاول ذلك من خلال افكارٍ تعتبرها نهائية، وهذا اكثر ما يزعجني فيك، فاتركني اتنفس، اتكلم كما اريد!» صرخت بحدة «طالع، يا عزيزي، آن لك ان تذهب لتستريح، فالاحياء اقدر منك، الآن، على حل مشاكلهم». وغاب وجه طالع.

لكن عشرات الوجوه القديمة طلعت. كنت اتأملها بكثير من الصبر، واحاول ان استعيد الكلمات والمواقف.. ثم النتائج.. اصرخ بحدة: «هل يمكن ان يكون الانسان مغفلاً بهذا المقدار؟ لماذا كنا بسطاء الى هذه الدرجة؟ ولماذا كنا جبناء بحيث لم نستطع ان نقول كلمتنا في الوقت المناسب؟».

وتملؤني افكار ومشاعر تحيرني، لا اعرف كيف اصنفها، ان اعطيها اوصافاً معينة. ليست الغبطة، ولا الرضا. ولا تمتّ الى القناعة، كما انها تختلف عن الضرورة، وليس لها اية صلة بالتقدير الخاطيء او المعلومات الخاطئة، او نتيجة عدم توفر

المعلومات. انها، بشكل مختصر: الغباء والجبن.

كنا اغبياء وجبناء، وكانوا اذكياء وجبابرة. تنازلنا عن حقوقنا، طواعية، وكانوا اذكياء في ان يضعوا ايديهم على اي شيء ليس له مالك، وهكذا اصبحنا في وضع غير متكافىء، ليس من حيث الملكية، وانما من حيث معرفة ما لنا وما لهم، والجهل هو دائماً الوجه الآخر للعبودية، ولذلك انتهينا الى الوضع الذي وصلنا اليه!

ورغم الراحة لانقطاع زياراتهم، والقناعات التي توصلت اليها، بدأت افتقدهم واشعر بحنين اليهم. وفي محاولة لتبرير هذه المشاعر، كنت اقول لنفسي، «الجنة بلا ناس لا تداس، هكذا قال الذين سبقونا، ولذلك لا بد من الاتصال بهم لكي اعرف الاخبار» وترتسم على شفتي ابتسامة، واتذكر خلافي مع طالع الذي لا يعترف الا بالكلمة المقروءة، وان يرى الاشياء والاشخاص بعينيه ليتأكد. واتذكر كم ناكدته، فانا اعتبر متابعة الاخبار من الراديو الوسيلة الحقيقية، أما جمعها من خلال الافواه والافراد فانها مضيعة للوقت، ولهذا ما برح الراديو يئز، وحتى ساعة متأخرة من الليل في غرفتي. لقد صدف ان جاءت اكثر من مرة الاخت جوليا، ووجدته مفتوحاً ووجدتني نائماً، وما تكاد تغلقه حتى افتح عيني. قالت لي مرة، ورادي يترجم:

ـ حسب معلوماتي ان اغلب الناس لا يستطيعون النوم اذا كانت هناك ضجة، وانت يغادرك النوم اذا خيم الصمت..

ابتسمت وهزت رأسها عدة مرات، ثم تابعت:

ـ لا اعرف ماذا تنتظر، لكن وانا اراقبك تتابع الراديو بهذا الاهتمام، اتصور انك تتوقع شيئاً ما بين لحظة واخرى، هل انا مخطئة؟

قلت، وكنت اوجه الحديث لرادي واعنيه:

ـ المسألة لا تتعلق بالخطأ والصواب، وانما تتعلق بهذا الشرق المليء بالاحتمالات، انه ومنذ سنوات طويلة، علمنا على المفاجآت. قد لا تكون المفاجآت سارة، ولكنها تدّل ان شيئاً ما لا يزال حياً ويتحرك، وهذا ما اريد ان اتأكد من استمراره، لانه رهاني الأخير.

بعد ان ترجم رادي، وحاول ان يختار عباراته بعناية، قدّرت هذا من الشروح الاضافية التي قدمها لجوليا، سألني:

ـ واية مفاجآت تنتظر؟

ـ لا انتظر مفاجآت من اي نوع!

ارتد الى الخلف، اذ شعر اني اسخر منه. تطلع بتساؤل، فتابعت:

ـ الذي يزرع قمحاً يحصد قمحاً، والذي يزرع شعيراً يحصد الشعير، أما من يزرع الريح فلا بد ان يحصد العاصفة!

راقت لي هذه العبارة الشاعرية، لكنها لم ترق لرادي، أما الاخت جوليا فقد تحركت، لكن قبل ان تترك الغرفة قالت:

ـ كثيرا ما يتحارب الرجال، والذكور عموماً، دون ان يعرفوا لماذا، ربما لان في داخلهم قوة فائضة او لانهم مجانين، وهذه هي السياسة التي يغرق فيها الرجال اينما كانوا، ويتوهمون انهم يقومون بعمل هام، ولذلك عليّ ان انسحب!

بعد ان غادرت جوليا، كان لدي الكثير لاقوله لرادي، لكن لا اعرف لماذا وجدت نفسي اختصر، واجعل الحديث خفيفاً سريعاً، وحين امتدت يدي الى مؤشر الراديو، ابتسم ونهض. قال، وبدا صوته بين الحزن والقلق:

ـ لا بد ان اتركك الآن، لعل المفاجأة التي تنتظرها يحملها اليك الراديو..

تنفس بعمق، وخرج صوته مختلفاً:

ـ أما المفاجأة التي انتظرها فلا بد ان اساهم بصنعها!

وقبل ان أنام تلك الليلة اتصلت، هاتفياً، بعماد الاشهب، كان صوته على الجانب الآخر، رخواً، وقد امتلأ بالفجوات، نتيجة السكر. حين عرفني ضحك بنشوة، وحين قلت له انني انتظر زيارته في اقرب فرصة، قال بصخب:

ـ لولا ان المستشفى بعيدة، والوقت متأخر، لجئت فوراً!

ـ ليس الامر بهذه الاهمية.. والشوق هو الذي دفعني للاتصال، وايضاً للاطمئنان..

وبعد لحظات صمت طويلة، سألته:

ـ ما هي اخبار الوطن يا عماد؟

ـ زفت، من سيّىء الى اسوأ.

ـ طيب.. بسيطة، عندما تزورني سنتحدث!

لم يأت عماد الاشهب يوم الزيارة الاسبوعية، جاء ثلاثة غيره: زكي وصادق واحمد، كردينال واثنان من الاساقفة، كان ينقصهم فقط الشماس الذي يفترض ان يمشي في المقدمة حاملاً المجمرة والماء المقدس، اعلاناً عن بدء الاحتفال؛ فالثمرة قد نضجت ولا بد ان تسقط في احضانهم، ولذلك يجب ان يكون هذا المستوى من التنظيم من يستقبل الابن الضال، ومن يتلقى اعترافه.. ثم يهبه الغفران.

وانا استعد لهذه الزيارة تذكرت الثلاثة الذين جاءوا لزيارة طالع في ذلك الاحد الحزين.. قلت لنفسي: «لن اكون مثل طالع لاني ساجعل بغل الله الذي سينقلني الى الجنة ينتظر طويلاً، وينتظر الى ان يقتله الملل».

ومن باب السخرية انتقيت من بين الكتب القليلة التي عندي: محاورات لوقيانوس. كان هذا الاختيار مرتبطاً بعماد، لاني اريد ان اقرأ له بعض الفقرات لاشعره كم نحن مخدوعون ومغرر بهم.

الصدفة، ربما، دفعت ثلاثة آخرين غير عماد. وربما حصل ذلك، مثل مرات كثيرة سابقة، نتيجة الاصرار الذي لا يتردد عماد في التشبث به: «العطلة مقدسة، يا رفاق، ولذلك اعتذر عن اية التزامات ايام العطل» فاذا كان الجو مرحاً، او يحتمل، فعندئذ يبتسم ويضيف: «والاعياد وبعض المناسبات!».

ويعرف الجميع اسباب اعتذار عماد، ويحسدونه ايضاً، خاصة بعد ان «وضع يده» على سفيتلانا، تلك الغزالة الريفية غير المروضة، والتي تأتيه بعد ظهر كل سبت من مسافة مائة وثلاثين كيلو مترا، لتقضي معه ليلة السبت ويوم الاحد، لان عليها

ان تأخذ قطار السابعة وتعود من حيث اتت، ولتغيب ايام الاسبوع الاخرى تاركة له كل الحرية. عماد وهو يصر على قداسة العطلة الاسبوعية، ويرفض، او يحاول التملص من اية مهمات اثناءها، لا يتردد في اصطحاب سفيتلانا معه اذا اضطر للقيام بمهمة! يفعل ذلك بتواضع زائف، مما جعل خليل الحاج اسماعيل يصرخ في وجهه:

- يا سيدنا.. اذا قال روكفلر او مورجان ان العطلة مقدسة فعلى العين والراس، لان الجماعة يقدسون العمل، وهم كالنحل لا يهدؤون لحظة طوال ايام الاسبوع، أما انت فانك مثل الشرطي العموري، اذا اخذ اجازته فانه لا يفعل شيئاً الا الجلوس على باب المخفر! وانت، اولاً، فاضي، لا شغل ولا عمل، وثانياً، اذا راحت سفيتلانا عندك بدلها عشر، ولا ادري لماذا تتشبث بهذا الموقف العقائدي.

ينظر عماد الى مثل هذه التعليقات بسخرية او بعدم اهتمام، وبعض الاحيان يرد بمداعبات مليئة بالتحدي. هذه المرة يختلف الامر، اذ بعد ان ابلغ مسؤوله عن الاتصال الهاتفي تلك الليلة، ورغم انه غير راغب، او غير متحمس للقيام بالزيارة، فلا بد ان يكسب جزءا من الثناء وربما الثواب.

وهكذا جاء الثلاثة الآخرون.

لاول وهلة شعرت بالارتباك.

كنت تحت شجرة اكاسيا اقلب محاورات لوقيانوس. رأيتهم وهم يدخلون الى الحديقة. لم اتوقعهم. فزكي الغائب الحاضر دائماً، لم اره الا لفترة دقائق في اليوم الثاني لوصولي الى براغ، واثناء اجراء المعاملات من اجل دخولي الى المستشفى. وفي المرات التي سألت عنه، باعتباره المسؤول الذي طُلب مني ان اراجعه حول كل صغيرة كبيرة، تلقيت اجابات غامضة: السفر، الانشغال، التحضير للمؤتمر. وتصلني، بعض الاحيان، تحياته ووعد بالزيارة في وقت قريب. ها هو الآن يتقدم، بنصف خطوة، احمد وصادق، وقد وضع على رأسه بيريه للتخفي!

لبضع ثوان، وهم يسيرون نحوي، بعد ان اجالوا نظراتهم بامعان لاكتشاف مكاني، تظاهرت اني مستغرق في الكتاب. حين وقفوا قريباً مني، وبعد ان رفعت رأسي، والتقت العيون، رأيت فيضاً من الفرح، عبرت عنه الابتسامات الواسعة،

مع حركات، جعلت زكي ينزع البيره ويتقدم بلهفة:

ـ الحمد لله على السلامة، رفيق!

القبل والاشواق اكثر ما تكون من زكي، ورغم اني رأيت احمد وصادق اكثر من مرة، فقد كانا اكثر تحفظاً. لم يترك زكي مجالاً للصمت:

ـ كنا نتابع اخبار صحتك، عن طريق الرفاق، وعن طريق ادارة المستشفى، خطوة خطوة، وكنا مسرورين ان التقدم مستمر والتقارير مرضية!

لم اجب، نظرت اليه، والى الآخرين، بهدوء، اقرب الى البرود، وهززت رأسي، دلالة الرضى والموافقة. آذته هذه الطريقة في الاجابة. تابع بحماس:

ـ كنت اطلب من الرفاق ان يذّكروني بيوم الزيارة، لكي اتأكد بنفسي، لكن انت تعرف الظروف الراهنة..

ضحك بصخب وتوجه نحو الآخرين:

ـ تتذكر صادق.. منذ اكثر من شهرين وانا اقول لنفسي: لازم اشوف صادق، ولازم نقعد ونسولف.. لكن.. وانت، احمد، متى آخر مرة تلاقينا؟

ولم يبق احد منا، وباعتباري معنياً، الا وقدّر ظروف الآخرين، وحاول ان يلتمس عذراً او تفسيراً..

وقيلت اشياء كثيرة حول كيفية النظر او التعامل مع الزمن بشكل مختلف، وان نترك المجاملات والشكليات، «لان من جملة الاخطاء التي وقعنا فيها خلال الفترة الماضية خضوعنا لمثل هذه الاعتبارات!» هكذا قال احمد، وكان مقطباً!

بعد اسئلة، لا تخلو من اهتمام، عن الصحة، وكيف استجيب للمعالجة، ورأيي بالمستشفى والاطباء، قال زكي بثقة:

ـ المعالجة هنا تعتمد على ثلاثة خطوط اساسية ومتلازمة: خط الثقة، وهو نتيجة المعرفة، والعلاقة بين الطبيب والمريض، وهي تقاليد معروفة في هذه البلاد، لان الثقة اساس العلاج؛ والخط الثاني، تكوين ملف كامل عن المريض، عضوياً ونفسياً، لاعتقادهم ان المرضَ، اي مرض، لا يمكن ان يكون له سبب عضوي او طارىء فقط، وباعتبار ان الكثيرين درسوا في النمسا، فقد تأثروا بنظريات علم

النفس. أما الخط الثالث فهو العلاج الحديث بكل ما تعنيه هذه الكلمة!

وافقنا على اقوال زكي، ولكي لا يترك مجالاً لتساؤل، اضاف بمرح ومعرفة:

- مستشفى كارلوف من احسن مستشفيات اوروبا، ومعروفة على نطاق واسع، وخدم فيها عدد من كبار الاطباء!

وبعد ان جال بنظره، ووقف في بعض اللحظات، لتكون نظرته شاملة، وبعد ان سأل عن بعض الاقسام، وبدون تمهيد سألني عن الكتاب الذي اقرأ فيه.

قلت بهدوء، وربما بعدم اهتمام:

- كتاب لكاتب قديم، اسمه لوقيانوس، كانت الحرية اعز صديق له، وكان يقول باعتزاز: «هؤلاء المهرجون والدجالون الجهال الذين خُلقوا ليزحفوا على بطونهم، وولدوا للذل، وعاشوا للهوان، وفطموا على المسكنة، اذا استطاع هؤلاء ان يتخلصوا من هذا العمل المشين، فلن يجدوا لانفسهم اي عمل آخر، لانهم لن يصلحوا لسواه، وبذلك يصبحون عاطلين مدى العمر».

نظرت الى زكي وانا ابتسم لاقرأ اثر هذه الكلمات. ابتسم بدوره وتطلع الي، تابعت: «وهو كاتب ساخر، الحقيقة بالنسبة له اهم من اي شيء آخر، ولذلك يحاول ان يكشف الزيف والمظاهر والنفاق، ولا يتردد في تسمية الاشياء باسمائها مهما بدت قاسية او تخدش الحياء العام..»

توقفت لحظة، هززت رأسي دلالة الاقتناع، وكان الصمت قوياً، فاضفت:

- والغريب ان موضوعاته، طريقته في التعبير، وايضاً كلماته، تكاد تكون معاصرة، حتى ليظن الانسان ان في الامر ما يشبه الحيلة، وان كاتباً معاصراً يتخفى وراء هذا الكاتب القديم الذي عاش قبل اكثر من الف وثمانمائة سنة..

وبعد قليل وبسخرية:

- او ربما لم تتغير الحياة، ولم يتغير البشر، منذ ايام لوقيانوس حتى يومنا الراهن!

- الغريب انني لم اقرأ لهذا الكاتب!

هكذا قال زكي، وكان يمد يده طالباً ان يرى الكتاب، ولاني طويت بعض

الصفحات، ليسهل الرجوع اليها، فقد توقف زكي عند بعضها، وقرأ لنفسه، وكان يقرأ للآخرين ايضاً:

ـ «ما دمتم قد انتويتم مصرين على قتلي، واذا لم تتضح اية وسيلة لافلت من قبضتكم، تعالوا، اجيبوني، على الاقل، من انتم، واي شر مستطير الحقته بكم، فدفعكم الى هذا الغيظ، او اثار فيكم هذا الغضب الذي اشتدت سورته فحملكم على القبض عليّ وتقديمي للموت».

وفتح صفحة اخرى وقرأ:

ـ «ديوجين اذا جعلتك مريداً لي سأبدأ بأن أنزع عنك تراخيك، واضمك الى الفقراء، والبسك ثوباً زرياً، ومن ثم فاني سأقسرك على العمل والتعب، وساضطرك الى النوم الخشن، وشرب الماء، واكل ما يقع بين يديك، أما الثراء فان كنت على نصيب منه فاني انصح لك ان تلقى به من توّك في اليم، ولن تهتم البتة بامرأة او ولد او وطن..

ضحك زكي وقال بصخب:

ـ لا.. هذي الأخيرة كبيرة، لان الانسان بلا وطن ما يسوى فلسين، ومع ذلك خلنا نشوف التالي:

«.. لان كل ذلك سيغدو بالنسبة اليك لغواً وعبثاً، وستهجر بيت ابيك الذي نشأت فيه، لتمضي فتسكن رمساً او برجاً صغيراً مهجوراً او برميلا، وستملأ جعبتك دوماً وابداً بالترمس والكتب المطبوعة على الظهر، فاذا ما بلغت هذه الحال فستزهو بانك اكثر سعادة وهناء من ملك عظيم، واذا جلدوك او آذوك او نكلوا بك تنكيلاً فثق بان لا شيء من كل ذلك يؤذيك او يؤلمك».

توقف، صمت. هز رأسه اكثر من مرة، وبعد فترة من الحيرة والارتباك قال وكأنه يخاطب نفسه:

ـ تحليل صحيح، لكن النتائج خاطئة..

وبعد قليل، وكان يتوجه الينا بالحديث:

ـ لو ربط هذه المعاناة بقضية ملموسة لكان اكثر اقناعاً.

وضحك في محاولة لان يغير الجو:

- على كلٍ، لازم الواحد يطلع على الكتاب بدقة قبل ان يحكم!

والتفت الى احمد، وقال له بلهجة اقرب الى الامر:

- سجل، رفيق احمد، اسم الكتاب، واطلب لنا نسخة او اثنتين!

قلت بمكر:

- يمكنني ان اعيره او اتنازل عنه.

- لا.. لا رفيق، واجبنا نحن ان نزودك بالكتب، لا ان نأخذ الكتب الموجودة عندك!

وساد بيننا، من جديد، الصمت الذي يسبق الحديث الجدي.

بعد فترة، لا ادري كما طالت، قال زكي:

- رفيق.. نحن جئنا لزيارتك اولاً، ولبحث بعض الموضوعات ثانياً، والذي شجعنا اكثر اتصالك الهاتفي مع الرفيق عماد..

هزرت رأسي موافقاً، تابع دون انتظار:

- كان بودنا الا تحصل فجوة بالعلاقة، خاصة في هذه الظروف الخطيرة، لكن يبدو انك كنت ميالاً لعدم تحديد موقف، او هذا ما ابلغنا به الرفيق عماد.. ونحن، بسبب تقديرنا لوضعك الصحي، لم نشأ ان نلّح، او ان نضغط..

وبعد ان اخذ نفساً عميقاً، وغيّر قليلاً جلسته، اضاف:

- ولا بد انك راجعت نفسك وراجعت المواقف خلال الفترة الماضية، وانا متأكد انك توصلت الى النتيجة الصحيحة!

واقترب مني، طوقني وشد على كتفي، وتابع بلهجة ودية تماماً:

- لا تعرف كم نقدر تضحياتك وصمودك يا رفيق، وهذا موضع اعتزازنا؛ وانا، منذ سنوات طويلة، وعلى البعد، اسمع باسمك يتردد كواحد من الرفاق الذين تحدوا الجلادين والسجون وصمدوا، ولانك تحتل في قلوبنا هذه المنزلة، نريدك ان تبقى رمزاً، ونريد ايضاً ان يستمر هذا الرمز، ليس عنواناً لمرحلة سابقة فقط، وانما

عنوان للمرحلة الحالية وللمستقبل ايضاً.

قلت، وخرج صوتي ضعيفاً، وان اردته حازماً:

- رفيق زكي.. اشكرك اولاً على الزيارة، واشكر باقي الرفاق، وثانياً انا لا استحق هذا الاطراء الذي سمعته الآن، كل ما عملته انني قمت بواجبي، بما يفرضه عليّ ضميري..

كان داخلي يغلي، وقد شعرت اني اتوتر كلمة بعد اخرى. تنفست بعمق في محاولة لان اسيطر على اي انفعال حاد، وبعد فترة، تابعت، وبدا صوتي اكثر قوة:

- لست ميالاً، الآن، للحديث عن الماضي، أما بخصوص القضايا المطروحة فلدي ثلاثة ثوابت اساسية، اولاً: الديمقراطية، اذ يجب ان نؤمن بها ايمانا حقيقياً، وان نمارسها ممارسة فعلية، وحول هذه النقطة تفاصيل كثيرة معروفة، ولا حاجة لان نخوض فيها الآن..

ابتسمت وانا انقل نظراتي بينهم، واضفت بلهجة مرحة:

- ويجب الا تستغربوا ايضاً، إنّ ايماني بالديمقراطية تجاوز كثيراً ما كان يدور بيننا، وقد تأكدت لدي هذه القناعة في السجن، واصبحت غير قابلة للمراجعة او اعادة النظر. والآن، ومن خلال تأملي لكل ما يجري.. فانا لا اؤمن بالديمقراطية لحزب او لفئة او طبقة، اؤمن بالديمقراطية للجميع، وبنفس المستوى، عدا اولئك الذين يخونون وطنهم!

وثانياً: لا يمكن لاية قوة سياسية بلغت هذا العمر العتي، وخاضبت هذه التجارب، ان تترك للمنجمين وفتاحي الفال والمؤرخين في القرون الآتية المضيئة، ان يحكموا على مواقفها وسلوكها، يجب ان تقدّم كل حركة سياسية كشفاً بما قامت به من اعمال، وما حققت من نتائج، تماماً كما يفعل مكلف الضرائب، وهذا الكشف يجب ان يكون من الدقة والنزاهة والشمول بحيث يقنع مأمور الضرائب، اي الشعب. لأن أي خطأ يقع ويعترف به كالخسارة، لا يشكل عيباً او سبة، وعلى ضوء هذا الكشف يمكن ان يُحكم، ليس فقط على ماضي هذه القوة السياسية، وانما على جدارتها بالنسبة للمستقبل.

فيما اراه بخصوص هذه القضية، إن الكثيرين يفهمون من النقد والنقد الذاتي

حريتنا في شتيمة الآخر، وهذا الآخر الذي كان خصماً في فترات سابقة، اصبح الآن الطرف المقابل في التنظيم، ولم يعد يكتفي بالشتائم الآن، بل تم تجاوزها الى الاعراض والسرقات والمنافع، بحيث لم يبق شيء واحد مقدساً، ولم تعد تُعرف الحقيقة في هذا المزاد الذي يقوده الرعاع ويباركه الالهة من بعيد.

ولذلك فان مفهوم النقد الذي يجب ان يسود ليس حريتي في شتيمة الآخرين وانما مدى مسؤوليتي عن الاخطاء التي حصلت، ولماذا حصلت، وكيف يمكن تجاوزها في المستقبل. وبدون النزاهة والموضوعية والترفع عن الاحقاد والمطامع الشخصية لا يمكن ان نقنع احداً حتى انفسنا، بل ونستحق الحبس بسبب التزوير او اخفاء الحقائق، وهذا ما يجري الآن.

لقد آن لنا ان نتعلم بعض الفضائل من خصومنا، وان نعود الى ضمائرنا ايضاً!

أما الثابت الأخير فهو انني مع الحزب وضد الكتل، مع الديمقراطية وضد الحقوق المكتسبة والأرث التاريخي، مع الأغلبية وضد مراكز القوى، مع المنطق وضد الأرهاب والتشهير، مع النزاهة والاستقامة وضد الشطارة والتلفيق والافتراء على الآخرين من أجل تصفيتهم واخراجهم من المعركة، مع الانسان وضد الغول والبهلوان والصنم.

. . . عندما وصلت الى هذا الحد شعرت بالتعب، بل بالأعياء. كانوا يسمعون وينظرون اليّ بتساؤل واستغراب، ولم ينظروا الى وجوه بعضهم بعضاً، وكأنهم يتحاشون مثل هذه النظرات التي قد تكشف وربما تفضح.

بعد ان خيم الصمت قال زكي بصوت رخو:

ـ على كلٍ . . .

وبعد قليل وهو يرفع رأسه ويديره في اكثر من اتجاه، قال كأنه يخاطب نفسه:

ـ المسائل التي طرحتها، رفيق، فيها الكثير من العموميات والبديهيات، وفيها قضايا تتطلب المناقشة والتوقف. .

وتطلع اليّ، وكأنه يريد ان يقرأ في عيني ما لم تستطع الكلمات ان تقوله، وسأل:

ـ هذا رأيك الكامل والنهائي ، رفيق؟

ـ هذا جزء رأيت من المفيد والضروري ان اقوله الآن.

ـ اذن نُبقي الأمور معلقة، وارجو ان تتاح لنا الفرصة لمناقشتها في المستقبل.

قلت وانا لا اخفي ابتسامتي:

ـ لا انكر ان هناك اموراً كثيرة تستوجب مناقشة عميقة، وكل ما ارجوه ان تناقش قبل اتخاذ اي موقف، اي قرار، لئلا يأكلنا الندم.

قال احمد، وكان صوته حاداً، اقرب الى النزق:

ـ انا لست ضد النقاش وبحث القضايا، لكن في احيان كثيرة يكون مثل هذا الطلب ذريعة لعدم اتخاذ موقف، او محاولة لتمييع الأمور. .

ـ اعتقد، يا رفيق، ان الخطوة الأساسية للخروج من هذا المأزق ان نفعل مثلما يفعل الكرادلة اثناء انتخاب البابا: ان نتعلم كيف نتناقش، ان نسمع بعضنا جيداً، ان نفهم ما يقوله الآخر، وان نعطي الفرصة لكل وجهة نظر لكي تعبر عن نفسها بحرية. بعد ان نتقن هذا الدرس جيداً يمكن اختيار البابا، وعندها نطلق ليس فقط الدخان الأبيض، بل ومعه الفرح والوعد بالمستقبل بأننا اجتزنا سن الطفولة واصبحنا قادرين على اتخاذ قرارات مقنعة لنا وللآخرين، ومفيدة ايضاً لهؤلاء الذين لم يتوقفوا طوال الفترة الماضية عن دفع الدم والدموع، على أمل ان يكون اليوم احسن من الأمس، والغد احسن من اليوم.

قال صادق في محاولة لوضع حد لهذا النقاش:

ـ اعتقد ان الموضوعات المطروحة طويلة... وبعضها خلافي. ويجب ان تؤَجل الآن...

والتفت الى زكي:

ـ ولا نستطيع ان نتأخر عن الموعد... مع صاحبنا!

قلت بلهجة مرحة.

ـ عندما طرحت هذه القضايا لم افترض اننا سنناقشها الآن، انها مجرد افكار، واريد، قبل مغادرتكم، ان تسمعوا ما يقوله صاحب هذا الكتاب، وارجوا الا اثقل عليكم...

ضحك زكي، ورد بصوت أجشّ:

ـ تفضل. . تفضل رفيق.

ـ يقول لوقيانوس في حوار مجلس الآلهة، وربما تأثرت به بما قلت: «اني اقول اذن ان ثمة نفراً بيننا تصرفوا بتعسف غريب، فلم يرضهم انهم امسوا هم انفسهم آلهة بعد ان كانوا بشراً، بل زعموا ان من حق عظمتهم وسلطانهم ان يحظى اتباعهم وخدمهم بالشرف الذي حظينا نحن به. ولهذا، يا زيوس، استأذنك بأن اتكلم بصراحة اذ ليس في مقدوري الكلام على غير هذا النحو. لقد عرف العالم أجمع صراحة لساني، وعرف ايضاً اني لا استطيع ان اسكت عما يخالف النظام، واني انتقد كل شيء وافصح عن رأيي جهاراً دون ان اخشى احداً، بل دون ان اخفي فكرتي احتراماً لأي كان، لذلك فان معظم الآلهة لا يستطيعون احتمالي، ويقولون اني خُلقت لافتري على الناس، ويطلقون علي لقب المدعي العام. واذ ان القانون قد خولني حق الكلام. . .».

قال أحمد بسخرية:

ـ الصراحة مطلوبة دائماً، لكن هناك فرق، وفرق كبير، بين الصراحة والوقاحة، واعتقد ان صاحبك، يا رفيق، من النوع الثاني!

تحرك زكي، اشارة ان الزيارة توشك على النهاية. كتم عواطفه تماماً، شد على كتفي وابتسم وهو ينظر اليّ بتركيز، كمحاولة اخيرة لقراءة افكاري، ونهض ونهضنا. قال مجاملاً:

ـ الحديث معك، رفيق، اثار افكاراً وتساؤلات كثيرة، ولا بد ان نفكر فيها جميعاً، ولا بد ان نصل الى نتيجة ايجابية ما دامت النوايا سليمة ورائدنا المصلحة العامة!

وقبل ان نتوادع قلت بمكر ورجاء:

ـ اريدكم ان تسمعوا هذه القصة الأخيرة التي يرويها لوقيانوس، وأرجو الا تضايقكم!

رد أحمد بغيظ وبصوت ممطوط:

ـ ظلت على هذي. . تفضل، رفيق!

- «يحكى ان ملكاً من ملوك مصر دّرب قرَدة على الرقص، وان هذه الحيوانات، وهي اجدر من يقلد افعال الناس، قد تعلمت بسرعة ورقصت بعد ان تزينت بالأرجوان، ووضعت على رؤوسها الخوذ، وظل هذا المشهد يثير اعجاب الناس، حتى جاء يوم شاء احد النظارة ان يلهو، وكان في حوزته جوز القاه في حلبة الرقص، وما ان شاهدته القردة حتى نسيت الرقص وعادت الى طبيعتها الأولى، قردة بدل راقصين، فحطمت خوذها ومزقت ثيابها، وتقاتلت في سبيل الحصول على الجوز، فاختل نظام الرقص، وراح النظارة يضجون بالضحك!»

قال صادق بعصبية، وكان يوجه الحديث الى زكي :

- راح يفوتنا الموعد، رفيق، ولازم نمشي فوراً!

ورغم ان اللقاء انتهى بنفس الطريقة: ضرورة ان اهتم بصحتي، واننا سنبقى على اتصال خلال الفترة القادمة، واخيراً بالقبل، فقد تأكدت ان شيئاً في داخلي قد انكسر، وان هذا الشيء يصعب جبره، على الأقل الآن!

قلت وانا ارافقهم للبوابة الخارجية :

- يجب ان اشفى بسرعة، وبعد ان اغادر المستشفى سوف تكون الظروف افضل.

قال زكي وهو ينظر اليّ بارتياب :

- بكل تأكيد، رفيق!

وبعد قليل:

- الى اللقاء . . رفيق!

وانا اعود تجاه شجرة الأكاسيا تذكرت جانك، قلت، وكانت الكلمات اقرب الى الدمدمة.

- يجب ان اتخلص اولاً من المرض، وهذا معناه ان اصرف بغل الله، ان اقول له :

اذهب ايها الحيوان القوي الذي يساعد الكثيرين، خاصة في الجبال، لأن طريقك ليس طريقي، على الأقل الآن . .

وبعد ان انتهي من المرض لا بد ان انتهي من الغربة، فإذا رجعت الى الوطن، اذا نظرت الى عيون الناس، وعرفت همومهم، ولفحتني الانفاس الشقية، عند ذاك يمكن ان اكون قادراً على المساهمة، مع الآخرين، في عمل شيء ما، واتخاذ الموقف الصحيح.

ما ان جلست تحت الشجرة، حتى عاودني صوت جانك مرة اخرى:

«الانسان اسوأ من الحيوان حين يكون حيواناً».

«لن يصبح الخطأ صوابا ان هو اصبح اقوى».

ووجدت نفسي اصرخ:

- أين انت يا طالع العريفي لتسمع وترى؟

وبعد قليل وكنت احدث نفسي:

- ماذا يمكن ان نفعل لأولئك الذين يقبعون وراء القضبان، الحزانى، المتروكين؟ كيف نستطيع ان نجعل ما تبقى لهم من ايام فيها شيء من الأمل والدفء؟

وذلك الوطن المسبي بالحكام المؤبدين الآن، واولئك الذين ينتظرون دورهم في الحكم اذا كانوا هكذا اليوم!

وتلاحقت الأمور، بعد ذلك، بسرعة كبيرة.

فعقب الزيارة بيومين او ثلاثة ايام،لم اعد اتذكر بدقة،وصلتني رسالة خالية من الطوابع وختم البريد، وليست فيها اية اشارة لمرسل، وهذا يؤكد انها وُضعت في صندوق بريد المستشفى، او سلّمت باليد. وقد يكون من باب المجاز او التجاوز وصفها بالرسالة، اذ لم تتعد نشرة داخلية تشير الى «الانحرافات والأخطاء الجسيمة التي تسبب فيها عدد من الأعضاء، الأمر الذي اضطر القيادة لاتخاذ الاجراءات المناسبة بحقهم»، وقائمة بالأسماء والعقوبات. وزيادة في التأكيد اشير الى اسمي بالخط الأحمر، كي لا يفوتني، ولئلا اخطىء في قراءته!

صحيح ان الرسائل والنشرات لم تنقطع عني طوال الفترة الماضية، لكن كانت تصلني دائماً عن طريق الزوار او بالبريد الرسمي،وغالباً ما كان يكتب اسم المرسل وعنوانه على الغلاف، اضافة الى كلمات تحية على طرف بعض النشرات، او بورقة مستقلة.

لماذا جاء «البريد» هذه المرة هكذا؟ ولماذا جاء بهذه السرعة؟

قرأت قائمة الأسماء اكثر من مرة. تذكرت بعض الوجوه، ورنت في ذاكرتي عبارات كثيرة وهي تتطاير في الهواء وتملأ سماء براغ. تذكرت التحديات، وكيف كانت تتحول حلقة الزوار في حديقة المستشفى الى حلبة لصراع الديكة، مما يجعل المرضى ينظرون الينا باستغراب اغلب الأحيان. وتذكرت ايضاً رادي وهو يسألني في احدى المرات، وقد جاء ليرّد اليّ شريطاً موسيقياً استعاره مني قبل ايام. سألني ذلك المساء بعد انصراف الزوار، وكان ميالاً للمداعبة:

- لا ادري عما كانت تدور مناقشاتكم، لكني اجزم انها حول واحد من ثلاثة المرأة، الله ، السياسة!

وبعد قليل وبمرح اكبر:

- فاذا استبعدنا المرأة، لأن الحديث اذا جرى حولها فأغلب الأحيان يكون بين اثنين او ثلاثة، ويكون همساً، ويكون مرحاً متألقاً، ولا يخلو من عطر وابتسامات. . . وانتم لم تكونوا هكذا، فيبقى الأمران الآخران: الله والسياسة، ولا بد لي ان اسقط الله ايضاً من القائمة بالنسبة لكم، عكس ما نفعل نحن هنا، لأن لديكم قناعة ان الطريق الآخر هو الذي يوصل الى التقدم! فيبقى الأمر الثالث والأخير: السياسة. فاذا كنتم تتحدثون في السياسة فالشيء الأساسي الذي كان ينقصكم، لحسم الأمور والوصول الى نتائج ،هو السلاح، وهذا ما يجب ان تحرصوا على توفيره في مناقشات لاحقة!

حاولت ان افسر - وكان كلامي تبريراً اكثر مما هو تفسير - هذه الطريقة في الحوار. عزوتها الى الكبت الطويل الذي عشناه في الوطن، وكيف كانت الكلمة تؤدي بقائلها الى السجن اذا لم تعجب السلطة، ولذلك يلجأ الشباب الآن الى الانتقام من هذا الماضي والتعويض عما فاتهم! وعزوتها الى حرارة الشرق، وكيف يضطر الانسان، نتيجة الطقس تحديداً، الى الرد بنزق. ولا اعرف لماذا عنّت ببالي ايضاً طبيعة المجتمع الزراعي، وكيف ان الفلاحين عموماً يلجأون الى الصوت العالي حين يتكلمون!

استمع إلي رادي بصبر، وكان يهز رأسه وحالما انتهيت سألني:

- وكيف تفسر حركات الأيدي والأجساد، وتلك الأصوات الغاضبة؟

- الحيوية والانفعال. . .

وبعد قليل وانا ابتسم:

- ودقة وحساسية المشاكل المطروحة!

- المطروحة للحل ام للتفجير؟

وفجأة وجدت نفسي اقول بسخرية وحدة:

ـ للتفجير، للانتحار، للانتقام من النفس، وايضاً لـلانتقام من الآخـرين الذين كانوا سبباً لهذا الذل الطويل والخيبة الدائمة!

تذكرت تلك المناقشة، وتذكرت غيرها، ولكن السؤال ظل قائماً: هذه الرسالة الا يحتمل ان تكون فخاً يريـد الطرف الثـاني ان ينصبه لي ليحـرضني لكي يعزز مواقعه، وبالتالي ان اكون مجرد مخلب، بعد ان استعصيت على الطرفين؟

وزكي، الدمث، الذي يفيض عاطفة ورقة، ويبدو شديد الاتزان، الم يستطع ان ينتظر فترة قبل اتخاذ مثل هذا القرار؟ وهؤلاء الذين يرافقونه مثل ظله، لماذا يبدون متعجلين هكذا؟

كدت، مرة اخرى اعود الى لوقيانوس، لكي استخرج منه الأمثلة والشواهد، واحـاول، من بعيـد، الاشـارة الى تلك العقـد والاحقـاد، والى ذلـك الحنـين الذي لا ينتهي للمكر والانتقام، لكن وجدت نفسي ابتسم بحزن، وبعد قليل انظر الى المرآة، واقول لطالع: «لا اصدق يا طالع انك غبت الى الأبد، ولا يمكن لأحد ان يقنعني انك لا تسمع ولا ترى، ربما ثقلك قد زال، ومطالبك انتهت، ولم تعد تزعج احداً، لكنك موجود كقبضة اليد، كالابتسامة، وانت دافيء كصدر الحبيبة، وعيناك ماكرتان كالطفل، وتعرف اشياء كثيرة دون ان تتكلم او تُشعر الآخرين بذلك، وكل هذا يعجبني فيك ويروق لي كالنسيم والأرغفة الساخنـة وحنان الأم، ولا بـد ان اتشاور معك، قد نختلف، لكن يجب ان تفهم لماذا اتكلم هكذا؟!

« انا متعب يا طالع، متعب وحـزين، الأسى ملأ قلبي والحيـرة تفتك بي، والذين يتراكضون حولي الآن اما كذبة خادعون اوجهلة مسخرون. الزيف ينخرهم والقدرة على المحاكمة المنطقية لم تعد من صفاتهم، تحركهم مصالح او اوهام. كل من هو ليس معهم فهو خصم، وكل من يتساءل، واغلب الأحيان لكي يقتنع، ينظرون اليه بشك. وصلوا الى معادلة بدائية جداً: الأسود والابيض، ونسوا ما بينهما من الوان. وانت تعرف ان المعادلات البسيطة تريح العجزة والضعفاء، وذوي العقول الصغيرة، لكنها تخلق من المشاكل اكثر ما تحل، وتعجّل بالكفر بدل ان توصل الى الايمان الحقيقي.

«وباعتبار ان ما يجري الآن مزاد للمصالح والمكاسب والضمائر، فقد فضلت ان اقف بعيداً، لكي اعطي نفسي الفرصة الكافية لاختبار الأمور من جديد، ولمعرفة

ما يمكن عمله. فهل انا مخطىء يا طالع؟»

كان ينظر اليّ ويهز رأسه. حاول ان يبتسم اكثر من مرة، لكن شفتيه كانتا كلحاء الشجر اليابس تتفطران، وكان يمسح خيط الدم الذي انفجر من الشفة السفلى بلسانه. هز قبضته وقال: «حين كنا معاً كنت ترى وجهاً واحداً من الصورة، ولم تكن تريد ان ترى غيره. كنت تهدر كالرعد، وتكرز كالرهبان. كنت متفائلاً وكأننا وصلنا الى نهاية المشوار.

وقبل ايام كنت تريدني ان اصمت، لأنه لم يعد لي الحق في التدخل بشؤون الأحياء، والآن تسألني عن الخطأ والصواب؟»

صرخت : لا تعيرني ، ولا يحق لك ان تنتقم مني يا طالع، فكلانا ضحية ومخدوع.

جلجلت ضحكته الصاخبة مثل طفل شقي، وقال بعد ان هدأ : «يمكن ان تفعل اي شيء الآن. يمكن ان تشتم او ان تنسحب، وقد تقنع نفسك بنصف الحقيقة وتنضم لأحد الطرفين. لكن المشكلة، كما اتصور، باقية، وقد تستمر فترة طويلة، لأن لها جذراً قديماً.

المشكلة، يا صديقي، بدأت حين ارتضينا، وخلال فترة طويلة، ان نكون مجرد محرضين على العنف من اية جهة جاء، وتجاه اي كان. فعندما ضرب غيرنا، وكنا نعتبرهم آنذاك خصومنا، احمرّت ايدينا لكثرة التصفيق، وبُحتّ اصواتنا من مظاهرات التأييد، ولم نترك حائطاً الا وجعلناه سجلاً لامجادنا وتاريخنا، وايضاً سجلاً لامجاد الطغاة! اما عندما بدأ ضربنا فقد تخلى الناس عنا، لأننا تخلينا، من قبل، عن الناس، وتوارى قادتنا، سافروا، وتُرك الصغار لكي يسددوا الفواتير المستحقة، تماماً كما يُترك الخدم بعد انتهاء الحفلة من أجل جمع البقايا والنفايات.

والآن حان الوقت لكي نضرب بعضنا بعضاً، ليس من أجل اقتسام المكاسب، فهذه غير موجودة، وانما من أجل استمرار الوهم، وانت تعرف ان الثور الأبيض بدأ اكله يوم ذبح الثور الأسود! .

قلت بغضب: «اتركني يا طالع من الثيران السود والبيض. اريدك الآن عوناً

وليس خصماً ، فقد اختصمنا بما فيه الكفاية، وآن لنا ان نصالح انفسنا وبعضنا والآخرين».

رد وهو يغمزني: «آن لي ان أغيب ، وأرجو الا تنتظر مني شيئاً، لأن الموتى لا يستطيعون مساعدة الأحياء».

ولا اعرف كيف امتلأ سمعي باصوات ديكة وخيول، اضافة الى صوت طبل بدقات منتظمة اقرب ما تكون الى دقات القلب. قلت لنفسي: «طالع ترك العبء عليّ. وولى . . . نعم ترك العبء عليّ وولى» .

واوغل طالع في الغياب. .

وفي اليوم الرابع، بعد الزيارة، واتذكر ذلك بوضوح لأن اندريه الذي كان يمر دورياً كل خميس، وكان يطلب ان نوقع على اوراق معينة بشكل روتيني، ولا شيء غير ذلك، فقد اصطحب معه في ذلك الخميس رادي.

لأول مرة ارى ان المترجم يشعر بالحيرة والخجل اكثر من المتكلم، اكثر من الذي يترجم له. قال لي، لا اعرف من، رادي او اندريه:

ـ نحن آسفون ان نبلغك بشروط المستشفى الجديدة: بدءاً من الاسبوع القادم سوف نجري الحساب بالدولار وعن طريق البنك، ولذلك يجب ان يتوفر لك ضمان بنكي من أجل تسديد اجور العلاج!

واندريه محاسب، سمين، اقرب الى القصر، بارد، صارم، قليل الكلام، ولقد نسي الضحك او الدعابة منذ فترة طويلة. يقوم بواجبه بكثير من الوضوح والاختصار.

أما رادي، وبعد ان ترجم، فقد بدا محرجاً، لأول مرة اراه هكذا. بعد ان ودع اندريه رجع اليّ مرة اخرى. قال لي بحدة:

ـ لا اعرف ماذا يحصل في هذا العالم، ولا استطيع ان اوضح او ان افسر، ومثلما تشكون من ملوككم نشكو من ملوكنا. الملوك لا يختلفون ابداً، حتى من حيث الشبه، ولذلك ارجو ان تعتبرني مجرد آلة!

قلت له وانا ابتسم:

ـ الملوك يتشابهون، وكذلك من هم دون الملك، حسب الرتب. . .

ضحكت ثم اضفت بلهجة مختلفة:

ـ والناس العاديون يتشابهون أيضاً يا رادي، وهذا ما يجعلهم يلتقون بسرعة ويتفاهمون، على الرغم من بعد المسافات واختلاف اللغات، ورغم انهم لم يلتقوا من قبل، ان في الأمر شيئاً يستدعي التفكير.

قال بحزن:

ـ لكن الملوك هم الأقوياء وهم الذين يقررون كل شيء!

قلت بحدة:

ـ الملوك يقررون لكن البشر ينفذون.

ـ علينا ان ننتظر فترة، وربما طويلة، لكي يزول الفرق بين القرار وتنفيذ القرار، او يصبح الناس اقوياء بحيث لا ينفذون الا ما هو عادل وصحيح!

بعد هذه المناقشات النظرية سألني رادي بقلق:

ـ هل تملك مالاً في البنك؟

ـ لا املك اي شيء!

ـ وكيف ستتصرف ما داموا يريدون مالاً مقابل العلاج؟

ـ لا اعرف!

بعد فترة من الصمت الحزين قال، وخرج صوته مضطرباً:

ـ لدي حوالي مائة وخمسين دولاراً، وانا لا احتاج لها الآن، يمكن ان اضعها تحت تصرفك!

ضحكت وقلت، وربما تسرعت:

ـ هذا المبلغ يكفي لبضعة ايام، اذا اعتمدنا السعر الرسمي!

ـ وماذا ستفعل؟

ـ الشيء الوحيد الذي استطيع ان أعدك به: ان لا افعل مثلما فعل طالع!

حاول ان يفكر نيابة عني، قدّرت ذلك من ملامحه ونظراته، وايضاً من حركاته، فقد بدا انه لا يستطيع مواجهة مشكلة من هذا النوع، كان حائراً ومرتبكاً، ولما طال الصمت الذي امتد بيننا، قال وكان اقرب الى الخجل. :

ـ ربما ليس من حقي ان اتدخل كثيراً، لكن ما اسمعه، بعض الأحيان، ان عدداً من الأجانب (ولم يشأ ان يقول اكثر من ذلك) يتعاملون بالدولار، فهل يمكن الاستدانة منهم؟

وبعد قليل وبارتباك:

ـ لدى والدتي كمية من الكورونات واعتقد انها ليست بحاجة لها الآن، فهل يمكن ان نضعها عند احد ونأخذ بدلاً منها دولارات لتسديد أجور المستشفى ريثما أحصل انا على قرض السكن بعد ثلاثة شهور؟

ولم يتوقف عن تقديم اقتراحات بديلة اخرى، واذا لم استطع ان اتذكرها الآن، فلأن افكاري كانت تطوف في عالم آخر، ولما شاهدته حزيناً مرتبكاً هكذا، قلت بسخرية وربما بخشونة:

ـ يجب ان تعرف يا رادي: انا الآن في المرحلة الأخيرة من اقامتي في المستشفى. وغداً او بعد غد لا بد ان يوافق الدكتور ميلان على خروجي، ولذلك فان الأمور محلولة، ومعنى ذلك ان لا حاجة للبحث عن حلول.

هكذا انتهى الأمر، او على الأقل تأجل.

في الليل وانا افكر، وكنت في حالة من الانفعال الشديد، وقد مرت في ذهني صور المرحلة الماضية، جاءت الأخت جوليا. ومثلما تجرّ بعض الحشرات ارجلها المائة، في زحفها البطيء وغير المحسوس، جرت الأخت جوليا نفسها نحوي. سألتني بعينيها، ما اذا كنت في حالة جيدة، وهل لي طلبات من اي نوع. هززت رأسي مثل اي حكيم هندي، وقلت، وكنت اخاطب نفسي:

ـ احلماً نرى ام زماناً جديداً ام الخلق في شخص اعيدا

ابتسمت الأخت جوليا. اضفت وكنت اترنم:

ـ «لتعلم مصر ومن بالعراق ومن بالعواصم اني الفتى
واني وفيت واني ابيت واني عتوت على من عتا

وما كل من قال قولاً وفى ... وما كل من سيم خسفاً ابى
ومن يك قلب كقلبي له ... يشق الى العز قلب الشوى
ولا بد للقلب من آلة ... ورأيٍ يصدع صم الصفا
وكل طريق اتاه الفتى ... على قدر الرجل فيه الخطا»

ولأن اللحن كان سريعاً ومُرنماً فقد اخذت الأخت جوليا تهز رأسها وتبتسم، وربما ظنت اني اردد دعاء للشفاء، لأن الكلمة التي قالتها بعد ان توقفت قليلاً: «آمين»

استرحت قليلاً ثم قلت، وبدا صوتي غريباً، وكأنه صوت انسان آخر:

- «على الصحة العائدة
على المخاطر الزائلة
على الأمل الخالي من الذكرى
اكتب اسمك
وبقدرة كلمة احيا
احيا ثانية
ولدتُ لاعرفك
لاسميك باسمك
ايتها الحرية»

كانت تهز رأسها دلالة الفهم، وبدت مثل ام توافق باعجاب على كل ما يقوله ابنها! أما عندما ذكرت اسم ايلوار في نهاية المقطوعة، فقد تيقظت مثل قطة، اذ اثار هذا الاسم في قلبها خواطر بعيدة. قالت دون كلمات: الله . . كم مضى من الزمن منذ ان سمعت هذا النشيد!

ورغم يقظة الذكريات كانت تريدني ان انام، فما كاد الصمت يمتد بيننا حتى اقتربت مني، مسَّدت الفراش، وقالت لي بعينيها: «يجب ان تنام» وحين مددت جسدي، كقصبة، استعداداً للنوم، سوت الفراش فوق صدري، وضغطت من الجانبين، لكي لا تنفذ الريح الباردة في الليل المتأخر، وقالت لي بكل روحها: اتمنى لك ليلة احسن من كل الليالي السابقة!

تلك الليلة، والتي تلتها، لم انم بسرعة. طوفت في اماكن شاسعة . استعدت وجوهاً وذكريات كثيرة، وكان بعضها بعيداً موغلاً في البعد. وفي احدى اللحظات سمعت كلمات لا اعرف كيف نسيتها طوال الفترة الماضية: «. . . انا بكل صراحة جبان. الله خلقني بهذا الشكل. اخاف من الشرطة ولا اتصور نفسي مسجوناً ولو ليوم واحد. لو سجنت اموت فوراً. ولذلك اذا اردتني ان ابقى صديقاً اتركني، لا تلحّ عليّ. اقسم لك انني لا اقدر. انا معك فكراً وعاطفة، لكن لا احتمل السجن. انت حر، افعل ما تشاء، ولكن لا تلحّ عليّ ولا تتركني. انا معك وانا لست معك، كيف؟ لا اعرف. يمكن ان اساعد في اشياء كثيرة، وتستطيع ان تعتمد عليّ والأيام بيننا».

هل كانت هذه كلمات انيس ام انني اخترعها الآن؟ ولماذا اتذكرها وتلحّ عليّ مرة اخرى؟

لست متأكداً من شيء، فأنا شديد الحيرة ولا اعرف كيف اتصرف او ماذا يجب عليّ ان افعله. اشعر اني اهوي، ولا احد الى جانبي، او يمكن ان يساعدني، عدا هذا الحزين الحالم: رادي. الجميع تخلوا عني او وضعوا شروطاً لانقاذي.

فجأة ينبثق من بين آلاف الوجوه انيس. انيس الذي اعرفه. ولكن هل بقي هو نفسه؟ الم يغيره المال والأيام وتلك القطيعة التي تعمدتها؟ اتذكر انني كنت اتظاهر بعدم الاهتمام حين يرد اسمه، وحين تبلغني تحياته اكتفي بأن اهز رأسي ولا شيء غير ذلك.

لكنه ظل بالنسبة لي مثل جرح قديم. اذا تذكرته، اذا طفا وجهه، احس نحوه بحنين جارف، واحس بالغضب، اذ كيف يمكن لمخلوق من هذا النوع الا يكون معي؟ ان لا نكون معاً؟ وهل حقيقة يخاف السجن والشرطة الى هذا الحد ام اعتبرهما حجة لكي يشق لنفسه طريقاً خاصاً به؟

بعد ان خرجت من السجن، واثناء الاتصالات وبحث الأماكن المحتملة للمعالجة، خُيّرت بين باريس وبراغ. قالوا لي، بأكثر من طريقة، ان انيس ينتظرني على احر من الجمر، وقد اتصل اكثر من مرة، وكان يستوضح ويلّح، وكان يؤكد ايضاً ان باريس المكان المناسب للعلاج. لكنني قلت، ودون تردد: براغ حبيبتي، وسأذهب الى براغ!

حين تقرر كل شيء اعطوني عنوان انيس ورقم هاتفه، وقالوا: اتصل به.

خلال الأسابيع الأولى بعث اليّ برسالتين وبطاقة بريدية. تطلعت الى خطه، الى كلماته. الخط كبير وماثل، والكلمات بسيطة وواضحة، قلت لنفسي: الاغنياء يكتبون بهذه الطريقة، عكس السياسيين، خاصة الذين سجنوا، وانا لا املك الآن ما اقوله له. ولذلك لم ارد على رسائله!

ورغم أني اتخذت قراراً في الليلة الثانية قبل ان أنام، الا ان مزاجي في اليوم التالي كان معتكراً وسوداوياً. شعرت بالندم وبحالة من الضياع. هل ارهن نفسي من جديد، وهذه المرة ليس من اجل فكرة وانما من اجل العلاج؟

يوم الزيارة الاسبوعية جاءني وفد من الطرف الثاني: سميح وخالد وانور وابو عزام والتشيكي، جاءوا في مظاهرة صاخبة مع باقة كبيرة جداً من الورد وعلب من الشكولا والسكاكر، وايضاً زجاجة من الخمر الجيد. كانوا في حالة من الغبطة لا يستطيعون اخفاءها، وكانت عيونهم تقول: الم نقل لك؟ الم نحذرك؟ وهل تأكدت الآن من غدرهم وتخليهم وعدم اعترافهم بأية قيم؟

لم اصدق عيني وانا ارى الموكب. كدت اصرخ: قفوا، الى الخلف در، وعودوا من حيث أتيتم. كدت اتوارى، لكن كل شيء بدا متأخراً وعديم الجدوى. قلت لنفسي: الفصل الأخير من المسرحية!

هناك لحظات قاسية ومربكة، مثل اللحظات الأولى في مواجهة المحقق. وعندما يكون الانسان متأكداً ان ما يجري امامه، وما يقال، رغم مظاهر الجدية، لا يعدو تمثيله تفتقر الى كل العناصر التي تجعلها مقبولة او ممكنة.

قالوا: جئنا فقط للسلام والاطمئنان.

قلت: شكراً لزيارتكم ولاهتمامكم، واهلا بكم.

قالوا: تبدو الآن نشيطاً وفي صحة جيدة.

قلت: انا الآن على احسن ما يرام!

قالوا: نعتذر لانقطاعنا عن زيارتك.

قلت: عذركم مقبول واقدر ظروفكم.

قالوا : هل تأمرنا بشيء؟ هل تحتاج الى اي شيء؟

قلت : لا امر عليكم، ولا احتاج الآن اي شيء!

قالوا : سيمر عليك بعض الرفاق في الاسبوع القادم وسوف يزودونك بالمطبوعات الجديدة!

قلت : لا حاجة لأن تتعبوا انفسكم، فقد اوصاني الطبيب بالراحة التامة والامتناع كلياً عن القراءة، والابتعاد عن جميع المنغصات!

قالوا : الا تقرأ الآن؟

قلت : ابداً

قالوا : منذ متى؟

قلت : منذ شهور؟

نظروا الى بعضهم بعضاً. تحركوا، كانت الحركات اقرب الى التساؤل. هزوا رؤوسهم، تنحنح واحد او اثنان. قال سميح :

ـ نستأذن، رفيق، وسوف يمر عليك الاسبوع القادم خالد والتشيكي لتدارس بعض الأمور. . .

ضحك واضاف بتهذيب:

ـ طبيعي اذا كنت راغباً، وكان وضعك الصحي مساعداً.

ـ ارى ان نؤجل تدارس القضايا التي تشير اليها، رفيق ، الى وقت لاحق، الى حين موافقة الطبيب وبعدما استرد صحتي!

ـ كما ترى، رفيق، ونحن الآن نستأذن.

ـ اذنكم معكم ايها الرفاق، وشكراً، مرة اخرى، لزيارتكم!

وغادر الموكب بهدوء اول الأمر، واخذ يزداد الصخب مع كل خطوة يخطونها مبتعدين!

في هذه الليلة اتصلت بأنيس. لم يصدق. سألته بايجاز ما اذا كان قادراً على استقبالي في باريس لاستكمال العلاج. لم يتردد ولم يتأخر في الاجابة. بدا منفعلاً

شديد الحماس.

قال لي في نهاية المكالمة!

ـ سوف ارتب كل شيء هنا، حتى سمة الدخول سوف تجدها في المطار، وانا بانتظارك وغداً نتحدث مرة اخرى لكي اعرف متى يمكن ان تصل. هل استطيع اخذ رقم تلفونك؟

ولا اعرف لماذا استيقظ فيّ ذلك الحذر الغريزي، رددت بارتباك:

ـ صعب ان تتصل بي، انا سأتصل بك في الأيام القادمة!

ـ ارجوك غداً، وفي نفس الوقت، لكي نتفق على التفاصيل!

اليوم التالي، الاثنين، الدكتور ميلان، ومثل عادته في زيارة بداية الاسبوع ، اذ ما كاد يرى باقة الزهور الكبيرة، والمركونة في الزاوية، حتى صاح بدهشة:

ـ هذه الزهور تكفي المستشفى كلها، وتتحدى كوبكا وحديقته على مدى شهر كامل!

ابتسمت ابتسامة متحفظة ولم ارد. تابع بمداعبة:

ـ وهي إما من عاشقة او من رجال شرقيين!

ـ من عاشقة!

هكذا رددت بمكر! فتح عينيه على اتساعهما وهز رأسه دلالة التأييد والاعجاب، وبعد قليل:

ـ حين يبدأ العشق ينتهي المرض!

ـ انه مرض آخر، وربما اخطر، يا دكتورا

ـ قد يكون من انواع المرض، ولكنه ذلك المرض الذي يعطي الجسد مناعة ويمنح الحياة طعماً ومعنى . . .

وابتسم ثم اضاف:

ـ ونحن الأطباء نشجع عليه، ونريد لمرضانا ان يصابوا به، لأنه يزيد المناعة والمقاومة في آن واحد، اذ يجعل الانسان اقوى على مواجهة المرض الأصلي.

بدا واضحاً، ونحن نجري هذا الحوار، كأننا نمهد لما بعده، وكان اقرب الى

الدعابة، وان لم يخل من رغبات او وجهه نظرة.

في لحظة معينة، وبعد ان ساد الصمت، قال لي الدكتور ميلان بلهجة جديدة:

ـ دعنا نقس الضغط والحرارة لنعرف مدى التقدم.

بعد ان انتهى هز رأسه وقال بوثوق:

ـ النتائج جيدة.

ـ ومتى استطيع مغادرة المستشفى؟

تطلع الى عيني تماماً ليكتشف ما وراء السؤال، عض على شفته، وكأنه يوازن بين امور عديدة، وقال بحزم اقرب الى الحدة:

ـ بدءاً من اليوم انت في وضع جيد، وغداً، بعد ان نجري بعض الفحوصات الاضافية، وللتأكد فقط، سوف اترك لك ان تقرر متى تحب ان تتركنا.

قال الكلمة الأخيرة، وضرب كتفي بمودة، وبعد قليل:

ـ اريدك ان تخرج بسرعة، ولكن اريد ان اراك ايضاً، فقد اصبحنا اصدقاء، الا اذا كان العشق سيسرقك منا.

والتفت من جديد الى الزهور في الزاوية!

في الليلة ذاتها اتصلت بانيس وابلغته انني جاهز، ويمكن ان اسافر في اقرب فرصة ممكنة

رد بفرح لم يستطع ان يخفيه:

ـ رائع، واليوم احسن من بكرة!

وبعد قليل:

ـ قدمت طلبا لسمة الدخول، فقط اريد رقم جواز السفر وتاريخه، وغداً نحدد الموعد بالضبط.

اعطني الرقم والتاريخ.

واتفقنا على الاتصال في اليوم التالي، وبنفس الموعد، قال في محاولة لكسر الجفلة، ولكي اكون طبيعياً اكثر معه:

ـ منذ الأمس اصبحنا كالعشاق الذين يتصلون ببعضهم في ساعـة محددة، ويتذكرون بعضهم ايضاً حين يتطابق عقربا الساعة او وهم يرون القمر وحين توّش احدى الآذان . .

وبعد قليل وبمرح:

ـ اذن غداً، وفي نفس الوقت، لكي نتفق على كافة التفاصيل.

تحدد يوم الجمعة، عصراً، موعداً للسفر!

ما كادت هذه الفكرة تكتسب قوامها وصلابتها حتى بدت لي ثقيلة ، ثم اصبحت قاسية. اما ذلك الفرح الهش الذي سبق تحديد الموعد، وكان يحرضني، فما لبث لي ان تراجع الى ان تلاشى. ومع كل ساعة تمر وتقرّب الموعد احس بالتوتر يتسع ويزداد ليصبح اضطراباً ثم خوفاً . انظر حوالي ولا اصدق. هل استطيع ان اخلف كل شيء ورائي وامضي؟ وهذه الأماكن التي كنت افترض انها مؤقتة ، ولا تعني لي شيئاً، انتفضت امام عيني واكتبست صورة جديدة: زوايا الغرفة، قبضة الباب، حافة النافذة، بلاط الأرض، السرير والأغطية، حتى المزهرية التي كانت تبقى صامته على طرف الشباك اياماً طويلة، اخذت تنظر اليّ بحزن يقرب الألم، تحولت الى عين كبيرة لا تتعب من التحديق اليّ وكأنها تطلب مني البقاء، ترجوني. كيف ساتركها وامضي؟ حتى لون الغرفة الذي لم يلفت نظري من قبل، بدأ لي ببياضه على زرقة يتغير مع ساعات النهار، ويصبح لحظة بعد اخرى محبباً ومريحاً!

والحديقة. . الأشجار، النباتات الصغيرة، رائحة الأرض، خاصة بعد ان يُقصّ المرج او غب المطر، وتلك الممرات الظليلة، والاحجار التي تكسوها، وهذه الخضرة الفياضة، الناصعة، المتنوعة الى اقصى حد؛ الحديقة في ساعات الصباح الباكر وعند الغروب، وكنت اقضي فيها وقتاً يمكن من خلاله معرفة وضعي النفسي، هل استطيع ان اخلفها ورائي وانساها، ام ان غصتّها سترافقني حتى آخر ايام العمر؟

واذا افترضت ان الأماكن قد تُستبدل او تُنسى بمرور الزمن، فماذا بالنسبة

للبشر؟ هؤلاء الذين قامت بيننا العلاقة فالصداقة بصمت، اغلب الأحيان، لكن بقوة، من خلال الألم والمعاناة، تماماً كما هو الحال في السجن، والذين لا يطيقون ان نبتعد او نغيب عن بعضنا، ولو لساعات، كيف يمكن لي ان اترك هؤلاء، ليس من أجل اجراء فحوص خلال فترة قصيرة، وانما الى الأبد؟ ان لا اراهم مرة اخرى؟

اتذكرهم يوم مات طالع. انخطفت وجوههم. اصبحت زرقاء كامدة، وغادرت العيون محاجرها. ورغم ان الصمت الحزين ملأ المستشفى كلها، وعرّش على الأبواب والنوافذ وسدها، فان دوياً مكتوماً، اقرب الى النشيج سرى في جميع الأنحاء، وفاض من القلوب والعيون، بحيث ان احداً لم يستطع ان ينام تلك الليلة رغم الأدوية التي أُعطيت، ورغم تعب النهار وحزن الليل.

هل استطيع ان اغادر واترك جميع هؤلاء دفعة واحدة، ولكي لا اراهم مرة اخرى؟ اي قلب يحتمل، وهل املك من القوة ما تجعلني قادراً على البقاء ولا اتبدد الى الاف القطع؟

ربما تسرعت او اخطأت وانا ابلّغ انيس برغبتي في مواصلة العلاج في باريس؛ ثم وانا اوافق على هذا الموعد للسفر. لو اني قدّمت الموعد، او لو اخرته لشعرت الآن ببعض الراحة. لكن يبدو ان كل شيء أصبح متأخراً.

حتى تلك المتع الصغيرة، راحة يوم مثلاً، والتي تتاح لجميع الناس، اصبحت احس انها تُسرق مني: فكوبكا الذي تعّود على الغياب يوم الخميس، بدل عطلة يوم الأحد، كي يبقى اثناء الزيارة الاسبوعية، وافترضت انه سيترك لي راحة يوم الخميس، فلا اراه بين يومي اختناق، حرمني ايضاً من هذه المتعة!

ورادميلا، القاسية، الضجرة، طوال الفترة الماضية، اين كانت تخبىء كل هذا الحنان؟ وكيف تستطيع ، فوق هذه السمنة، ان تحمل قلباً بهذا الحجم؟ ولماذا فضحت نفسها فجأة ودفعة واحدة؟

أما مايا، الحمامة، الغزالة، انشودة البحار الذي أمضه الشوق، وها هو يعود الى الوطن بعد الغياب الطويل ، مايا الحزن والفرح يتعانقان، يتداخلان، مايا العينان الواسعتان اللتان تمتلآن دوماً بالدموع والعسل، فهل يمكن ان تغيب ولا اعود اراها كل صباح؟ هل احتمل ذلك ولو ليوم واحد؟

والدكتور ميلان، هل يمكن ان أحب طبيباً كما احببته؟ وهذا التصميم على الشفاء، الم يكن بهدف ان اثبت له صحة نظريته وتقديراته ؟ وبعد هذه الألفة، التي اصبحت صداقة، كيف اسمح لنفسي ان اقول له «في امان الله» وامشي، وكأن شيئاً لم يكن؟ من اعطاني الحق في ان اكون قاسياً، او ان اسيء للذين اعطوني انبل ما يملكون: الثقة والحب، من أجل ان اشفى؟

ويمتلىء قلبي بالبكاء والوجع حين افكر، لثانية واحدة، انني قادر على ترك جوليا. كيف يستطيع الانسان ان يتخلى، بارادته، عن عينيه، او عن نبض قلبه، وكيف يتسنى لي ولو بالخيال، ان اتركها وامضي؟ والليالي القادمة، كيف ساواجه ظلمتها وآلامها دون ان تكون جوليا فوق رأسي؟

لا اطيق ان افكر، ولا اقوى على الاحتمال.

ومع كل ساعة تمر اشعر بالاضطراب اكثر. الوم نفسي، احس بالتعب، اتوقع ان شيئاً ما لا بد ان يقع ويغير في مسارات البشر والأشياء والحياة. واغفو على هذا الأمل!

يوم الأربعاء، عند اول المساء، رادي يمر على غرف مرضى القسم الخاص، لترتيب حفلة وداع صغيرة في اليوم التالي. احس ان الحبل ينشّد اكثر من قبل حول عنقي. احس بالاختناق. كدت، في لحظة معينة، اصرخ، ان اخرج الى الحديقة واقول بصوت مدوٍ: يا ايها الناس اوقفوا هذا العبث غير المتقن وغير المحمول! او ان اتسلل مثل لص في الليل المتأخر، دون ان يحس احد، واغيب، كما فعل جانك.

وانا ارى رادي ينتقل من غرفة الى اخرى، ناديته بعصبية، وكنت غير قادر على اخفاء المي وارتباكي:

- تكفيهم امراضهم وهمومهم، يا رادي، ولا يحق لنا ابداً ان نثقل عليهم . .

وبعد قليل وبلهجة حزينة:

- وأنا لا احب هذه الحفلات، واراها غير ضرورية.

- انت مجرد مدعو، ولا علاقة لك بأي شيء اخر!

- اذن ساقاطع هذه الحفلة.

- لا يمكن للعريس ان يهرب ليلة الزفاف!

المشاعر التي انتابتني خلال اليومين الأخيرين من الاضطراب والعنف الى درجة لا استطيع ان استعيدها، مهما حاولت ان اكون هادئاً، وحتى لو افترضت انها تعني انساناً اخر. لقد بكيت في ليلة الخميس كما يبكي الأطفال، بكيت من الألم، ومن فيض مشاعر الناس، ومن العذاب.

بدأ يوم الخميس هادئاً، مثل ايام كثيرة غيره.

عند التاسعة جاء اندريه، جاء هذه المرة وحده، تحدث او ربما كان يسأل. لم نستطع ان نتفاهم، لكن كان يردد بعض الكلمات، قدّرت انها تتعلق بالبنك والدولارات، اي باجور العلاج. حين لم نصل الى نتيجة طلب مني ان اعطيه جواز السفر، مددت يدي الى الدرج القريب، فتحته، استخرجت الجواز منه، وسلمته الى اندريه. امسك به وهزه في وجهي عدة مرات، وقال بضعة كلمات استنتجت منها ان الجواز سيبقى عنده، سيحجزه، الى حين ترتيب الكفالة المصرفية. هززت كتفي بعدم اهتمام. وغادر اندريه بغضب!

حين جاء الدكتور ميلان ابلغته بما حصل. جر نفساً عميقاً. حاول ان يبتسم، لكن فكيه لم يساعداه. بعد ان فحصني قال انه سيتابع الموضوع بنفسه، وسوف يهيّء لي تقريراً طبياً يوضح فيه حالتي بالتفصيل ومراحل العلاج والأدوية التي وصفت لي، لكي يساعد التقرير الطبيب الذي سيعالجني لاحقاً.

جاءت رادميلا. كانت حزينة وفرحة في آن واحد. كانت تحمل لي هدية ملفوفة، اصرت ان تضعها بنفسها داخل الحقيبة، وفهمت من طريقتها، واشاراتها، ان لا افتحها الا بعد ان اغادر. قلت لها «ساعود في وقت قريب» استعملت بعض الاشارات للتوضيح، فهمت،هزت رأسها بحزن، وقالت اهلاً كل لحظة، لكن يجب الا تكون مريضاً وستزورني في بيتي. وفي لحظة معينة بدت غير قادرة على البقاء فانسحبت. يكفيها هذا القدر من العذاب!

جاء رادي. كان غاضباً ومرتبكاً. قدرت ان الأمر متعلق بأندريه وجواز السفر. تطلع اليّ وهز رأسه، بعد فترة صمت قال بمرارة!

- لا حاجة لأن اقول لك اي نوع من البشر هؤلاء المحاسبين، انهم كالثيران

العمياء، واقرب ما يكونون الى الآلات . . .

وزفر بحزن ثم اضاف بلهجة مختلفة :

ـ هل يمكن ان تتصل بمسؤول التنظيم لكي يتصل بمسؤوليه ويطلبوا منه ان يتصرف بطريقة متحضرة؟

ـ لن اتصل بأي انسان وليفعل ما يشاء!

قال بارتباك .

ـ لا اريد ان ازعجك، كل ما في الأمر لكي نختصر الاجراءات، لأن مثل هؤلاء لا يفهمون الا بالأوامر تأتيهم من فوق!

ـ قلت لك، رادي، لن اتصل بأحد، وحتى موضوع السفر يمكن ان الغيه بكل بساطة .

ـ طيب، اترك الأمر عليّ!

اصابني الغم الى درجة ان الدنيا اسوّدت بعيني، واخذت نبضات قلبي تدق بصوت عالٍ، وهذه اشارة اعرفها، فلن تلبث حرارتي ان ترتفع، وادخل في ذلك الدهليز الذي جهدت طوال الشهور الماضية لكي اخرج منه . قلت لنفسي بصوت عالٍ : «ربما يكون اندريه حماراً او قاسياً، لكن المسألة تتعدى الحمرنة والقسوة، فهي مرتبطة بالأنظمة ومن يسن الأنظمة من ناحية، ومرتبطة بهؤلاء الذين بعثوا بي الى هنا، ودقوا على صدورهم وقالوا : «نحن سنعيد اليه الصحة والشباب» .

نهضت بانفعال شديد وبسرّعة، فقد اصبحت على يقين ان بقائي في الفراش، داخل الغرفة سيعّجل بانهياري .

ما كدت افتح الباب واجتاز الممر باتجاه الحديقة، حتى فوجئت تماماً: كوبكا بملابس جديدة، ملابس الأعياد، وكأنه انسان آخر غير الذي اعرفه . ما كاد يراني حتى هب لملاقاتي . صافحني بحرارة وكأننا لم نر بعضنا منذ زمن طويل . قال بضع كلمات فهمت منها انه لم يطق البقاء في البيت والتمتع بالاجازة ما دمت نويت السفر، ولم يبق على موعد سفري الا وقت قصير!

كان لدينا الكثير لنتكلم فيه، وقد تأكدت من ذلك وانا ارقب كوبكا يرفع اليّ بين لحظة واخرى نظرات مليئة، ويهز رأسه بأسف . حين تعذر علينا الكلام، ولم

تكف النظرات، تقدم نحوي، شد على يدي عند الزند، وقالت قبضته: يجب ان تكون قوياً وشجاعاً وذكياً! هززت رأسي بالموافقة، ضرب كتفي باطراف اصابعه وقال: احببتك، واريدك الآن ان تتمتع بالحياة. وايضاً اريد ان اسمع اخبارك. ولقد تأكدت ان هذا ما قاله حين استخرج من جيبه ورقة كتب عليها عنوانه، وبعد قليل، وفي محاولة للتأكيد: ويمكن ان تكتب ايضاً على عنوان المستشفى. وقد ردد اسم المستشفى مرتين او ثلاث مرات، ودق على صدره انه هنا.

وفجأة تذكرت زجاجة الخمر. قلت لنفسي: ليس هناك من يستحقها غير كويكا. طلبت منه ان ينتظرني لحظة. رجعت الى الغرفة، تناولت الزجاجة، وضعتها في كيس وعدت. حاول ان يعتذر، تردد، قلت بحدة:

- كنت اتمنى، يا كويكا، لو اني املك تاجاً او صولجاناً، لو املك غزالاً او حصاناً، لما ترددت لحظة في ان اقدمه اليك، لكن كما ترى، ليس لدي سوى هذه الزجاجة، وهي لا توفي زهرة واحدة من الزهور التي كنت تحملها اليّ كل يوم.

قبلها، اخيراً، محرجاً. قلت لنفسي: ان لهذا الرجل قلباً من ذهب.

ونحن في هذه الحال هجست ان احداً او شيئاً ورائي يتحرك ويقترب. لم اسمع صوتاً، ولم تعلن ذلك عينا كويكا اللتان كانتا اغلب الأحيان تتمعنان في الأرض او تتسلقان الأشجار. قدرت ذلك لأن في داخلي شيئاً انبأني. ما كدت التفت حتى رأيت امرأة!

كانت تلبس تنورة رمادية ترتدي فوقها سترة كحلية، مثل تلك الأزياء التي تلبسها ممثلات الخمسينات اثناء النهار. وكانت تسرح شعرها على طريقتهن ايضاً. ما كدت اتمعن بها، وهي مقبلة نحونا، حتى عرفتها:

- جوليا.. لا اصدق!

هجمت عليّ، قبلتني كام. وضعت رأسي على صدرها. شدت على كتفي وكأنها تختبر مدى القدرة والصحة. قالت لي خلال ثوان ما لم تقله كلمات الدنيا كلها. حين رفعت رأسي ونظرت اليها كانت دمعة صغيرة، بلون البلور الصافي، كحبة الكريستال، تنزلق، لكنها مسحتها بسرعة والتفتت الى الجهة الأخرى.

خلال فترة قصيرة، ولا اعرف نتيجة ترتيب من، بدأ التقاط الصور. التقطت

صور كثيرة، وكان كل واحد يحرص على ان يكون الأقرب اليّ! والأخت جوليا التي التقطت لها عدة صور وهي متنكرة بهذا الزي الذي لم يألفها احد به، ما لبثت ان عادت بزيها التقليدي: كبيرة للممرضات، بوجه حازم، لكنه لا يفتقر الى الحنان. اما حين وقفتُ بين رادميلا وجوليا، فقد علّق احد المرضى: «كيف يستطيع الأرنب ان يفلت الآن» لما طلبت ان تؤخذ لنا صورة خاصة انا ومايا، تعالت صرخات صغيرة فرحة ومؤيدة وتطلب الينا ان نقترب من بعضنا اكثر!

حتى الدكتور ميلان الذي ظهر في نهاية حفلة التصوير، وكان متوجهاً الى غرفتي، لكن لفت نظرهُ التجمع فاقبل نحونا، فقد مدّ اليّ جواز السفر بثقة وقال:

- أرجو ان تنسى هذه الاساءة الصغيرة!

وحين لاحظ الكاميرا، قال بحيوية، وقالت ذلك يداه ايضاً: الذكريات الجميلة تبقى طويلاً في القلب، وطلب ان ينتظم الجميع لالتقاط صورة.

على الشرفة الصغيرة، في نهاية الدرج الذي يفضي الى قسم الادارة كان اندريه يقف. كان ينظر الى الجميع بسخرية، وكان لا يستطيع ان يكتم غيظه!

في لحظة ما صفّقت الأخت رادميلا، طالبة من الجمع ان يتفرق، وان يعود كل شخص الى غرفته، لأن موعد الطعام قد حان!

بقية التفاصيل المتعلقة بليلة الخميس او بيوم الجمعة لم تعد مهمة، لأن ما تلاها من احداث غيّر الكثير، وكأن قوة غامضة تترصد البشر وتحدد لهم مصائرهم

والمسارات التي يجب ان يسيروا فيها! وهذا ما حدث لي، مرة اخرى، بعد ان وصلت الى باريس!

لا.. ليس الأمر على هذه الصورة تماماً، فان المشهد، بالنسبة لي، شديد الاضطراب، غائم، واقرب الى عدم التصديق، اذ تتداخل الصور والأصوات والأماكن والوجوه بحيث لا اعرف كيف وقعت الأحداث او كيف تتابعت. اكثر من ذلك لا استطيع ان اجزم ما اذا وقعت فعلاً ام اني اتخيلها او حلمت بها!

ولكن ماذا لو رويت لكم تفاصيل يومي الخميس والجمعة وعانيتم مثلي مقداراً من الألم وذرفتم قدراً من الدموع، الا تعتبرون ذلك تطهيراً لارواحكم، او احتجاجاً صامتاً واخيراً على هذا الذي جرى؟ لو فعلت ذلك الا اعتبر متواطئاً، وينتهي الأمر بنوع من التوافق الضمني المتسم بالرضا والتسليم، وكأن كل شيء أصبح ملكاً للتاريخ يحاكمه ويحكم عليه بطريقة باردة، ويسدل بعد ذلك الستار؟

لا اريد ان امنح نفسي، وبالضرورة لن امنحكم، فرصة العزاء او مصالحة النفس. كنت انوي ان اصمت، كنت اريد ان انسى، وان ابدأ حياتي من جديد. صحيح ان الجروح التي تملأ اجسادنا وارواحنا تزاحم بعضها بعضاً، وتتراكم فوقنا كالتراب، لكن الرغبة بتجاوزها كانت موجودة، خاصة وانني لم اكن في يوم من الأيام جلاداً، ولن اكون. وانتم الذين لم تكفوا يوماً واحداً عن ان تكونوا الضحايا، كان

هذا يكفينا. كنا نعض على الجروح بانتظار ان تأتي اوقات افضل، وان تجد المشاكل حلولاً بشكل ما، لكن..

آه كم حلمت ان انسى وان ابدأ من جديد. وكم بذلت من الجهد والاصرار لكي اتجاوز كل ما حصل. كنت اصرخ في الظلمة: «نحن ابناء اليوم ولسنا عبيد الأمس» وكنت اقول: «الحقد يهدم ولا يبنى، ولذلك نكون اقوى اذا نسينا بسرعة» وانسى ولا انسى. اهرب من نفسي، من خيالاتي. افكر بمشاريع الغد، وادفع بوقائع الأمس بعيداً. انجح مرة وافشل مرة. اضحك وابكي في نفس اللحظة. اعطّل مراكز عديدة في ذاكرتي. استحضر اوهاماً كثيرة اراكمها فوق بعضها لعلي اقوى على مواجهة المرض والتعب والأفق المسدود.

وتعاودني من جديد كلمات الدكتور ميلان «المرض، في حالات كثيرة، هو المريض. فبعض المرضى لديهم استعداد اكثر من غيرهم لأن يبقوا مرضى، ولفترة طويلة، وهذا بسبب رغبة داخلية اكثر مما هو نتيجة اسباب عضوية.. وآخرون لديهم استعداد لأن يتغلبوا على مرضهم»

واقرر ان اشفى.

لا انكر اني اصبحت رجلاً اقرب الى العطب، ويجب ان اتعلم كيف اتعايش مع المرض، لكن في احدى الليالي هزني نداء، جاءني مثقلاً رجراجاً «المرض كالشيخوخة، تعب في الجسد. اما الذي لا يتعب ولا ينتهي فهو الشوق. وارادة الانسان ورغباته، شوق دائم، فاريدك ان لا تنسى ما امتلأت به من اشواق» وتجاوزت الحمى وكوابيس الليل، وتتالت الأحداث، بما فيها من منغصات، لكن قررت ان اواصل الدرب الى نهايته، الى ان اشفى او اقترب، يوماً بعد آخر، من الشفاء.

حتى اوراق طالع التي تسببت لي بجروح عميقة، مرة حين غرقت فيها وعرفت مدى الآلام التي عانى منها، ومرة حين جاءوا يريدون انتزاعها، وانكرت وجودها او معرفتي بها، فاضطررت ان اضعها في مغلف، وان اكتب في اكثر من موضع انها لطالع، ولطالع وحده، لكي تبقى بعيدة عن المعارك الوهمية التي تخاض الآن، وان لا يتم التصرف بها، لاحقاً، الا بعد استشارة عدد من الأشخاص، سميتهم بورقة مستقلة. وضعتها داخل المغلف، حتى هذه الأوراق قررت ان انساها.

هكذا صممت على نسيان الماضي، خاصة السجن، ولو مؤقتاً، وان ابـدأ حياتي من جديد.

وزيادة في خلق المبررات للاقتناع قررت ان أجد عملاً، وان اواصل دراسة تاريخ الفن، وهو الفرع الذي بدأته قبل رحلة السجن الطويلة.

ومن حقي هنا ان اطلب عدم السخرية من هـذا الاختصاص، ومن الفن عموماً. ويجب ان لا تبلغ القحة باحد منكم ان يسألني او ان يقول كما قال ابو مهند في واحدة من مراحل التحقيق والتعذيب، قال لي بسخرية:

- اريدك يا بلّاع (. . .) ان تفهمني: ما علاقة الفن بالسياسة؟ واذا اعتبرت نفسك فناناً: تخط وترسم او تدق اصبعتين وتهـز طيزك، فـأي قواد دهى بعقلك وسوّاك سياسي؟

هكذا قررت، او عـلى الأقل هكـذا كنت افكر فكيف يمكن ان اتخلى عن القرارات والأفكار التي تعبت حتى توصلت لها واتحول خلال فترة قصيرة من ذلك الشخص المسالم المتعب الذي كنته او حاولت ان اكونه الى الموقف النقيض؟

هل لباريس، تلك المدينة التي طالما حلمت بها، وتمنيت ان تتاح لي الفرصة لكي اهيم في شوارعها وحدائقها ومتاحفها، دخل في هذا الجنون الذي اصابني؟ وهل بلغت بي الهشاشة الى درجة ان اتداعى وانهار في مواجهة اول صدمة؟

مثلما لعب القدر، او ربما الصدفة، لا ادري، ذلك الدور في علاقتي بطالع، وغيّر الكثير، فان القدر ذاته لم يتخل عني في هذه المدينة ذات العشرة ملايين انسان. اذ ما كدت اضع خطواتي الأولى حتى تناوشتني الصدمات الواحدة بعد الأخرى!

أي الصدمات وقعت قبل الأخرى، او التي جعلتني مجنوناً هكذا؟ كلما حاولت ان اضع اولوية او ترتيباً اجد ان السبب الذي استبعدته او اخرّته اكثر اهمية من ذاك الذي اعطيته الأهمية الأساسية او ربما كان وحده الذي دفعني لأن اتصرف هكذا!

بعد مراجعات طبية متعددة تقرر دخولي الى مستشفى سان باترير لاستكمال العلاج.

وصلت المستشفى بين العصر والغروب، بدا لي الجو كامداً ثقيلاً، ربما لقدم البناء ولعدم وجود حدائق للمرضى، ولتلك الحركة السريعة والخفية في الممرات، وهذا ما يجعل شعور الانسان بعلاقته بالمكان شعوراً حذراً اقرب الى الارتياب، وينعكس ذلك أيضاً على علاقته بالبشر، اذ ليس من السهل ان يألفهم او يألفوه الا بعد انقضاء فترة طويلة.

اذكر هذه المشاعر لأن اليوم الثالث لاقامتي في المستشفى كان استثنائياً الى درجة الرعب، ولم اتخيل انني قد اواجه مثله او احتمله!

فعند الساعة الثالثة بعد الظهر دخلت عليّ الممرضة ماري لور، وكان في عينيها رجاء اقرب الى التوسل!

ـ نريد ان تساعدنا في الترجمة بالنسبة لمريض عربي..

تذكرت طالع واحسست بالمعاناة نتيجة حاجز اللغة، ودون انتظار او تردد نهضت بسرعة للقيام بالمهمة التي تطلبها ماري لور.

ونحن نجتاز الممر قالت في محاولة للتوضيح:

ـ اخذنا موافقته وموافقة السفارة على اجراء العملية، وبعد ان هيأناه رفض في آخر لحظة.

وبعد قليل، وبلهجة مختلفة:

- وكل يوم تأخير في اجراء العملية ستضره كثيراً .

موقف صعب. ماذا اقول لهذا الانسان الذي سأقابله لأول مرة؟ وهل الترجمة مجرد عملية آلية ام تحمل مقداراً من الضغط الخفي ، خاصة عندما تتقابل العيون ، وتعبر ملامح الوجه عما يراد قوله قبل ان يقال؟ والكلمات التي يتم اختيارها ، دون غيرها ، للتعبير عن طلب او موقف ، هل يمكن ان تكون محايدة؟

اتذكر رادي . . . لم يكن يستطيع ان يخفي ميوله وعواطفه وهو يترجم . كان يبين ذلك من حركة العينين ، من هزات رأسه ، ثم مدى سرعة الاستجابة وطريقة اختيار الكلمات او النبرة . كان موقفه واضحاً ، اغلب الاحيان قبل ان يترجم .

وهذا الغريب الذي لا اعرف ملامحه ، ولم يرني من قبل ، كيف يمكن ان اقنعه بضرورة ان يوافق على ان تجرى له عملية جراحية؟ ماذا لو مات او تشوه الا اعتبر مسؤولاً بشكل ما؟ وكيف سيتقبل كلماتي ، وماذا سيكون رأيه فيما سأقوله؟ وهل انا مقتنع لكي استعمل كلمات دون غيرها لاقناعه ام سأكون آلياً مثل مترجمي المحاكم ، او مثل اولئك المترجمين المحصورين في العلب الزجاجية في قاعات الاجتماعات الكبرى ، حيث يقومون بالترجمة من بعيد ، دون ان يروا المتكلم ولا يعنيهم ما يقول؟

مرت هذه الصور السريعة في ذاكرتي ونحن نجتاز الممر الطويل ، ثم ننعطف نحو اليمين ونهبط الدرج .

سألت ماري لور ، وكانت تتقدمني بنصف خطوة :

- هل يمكنني معرفة سبب رفضه بعد ان وافق من قبل؟

التفتت نحوي بطرف وجهها ، ولم تبطىء خطواتها ، وردت :

- ربما نتيجة الخوف ، او لأن الذين ترجموا له في السابق لم يوضحوا له الأمر بما يكفي !

من هذه العبارة الصغيرة تأكدت ان ليس هناك لغة محايدة ، وان ماري لور لا تطلب مني ان اترجم فقط ، وانما تطلب ان اتدخل لاقناعه ، ولذلك اصبحت اكثر حذراً .

وصلنا . تقدمتني ماري لور ، فتحت الباب ، دخلت ، دخلت بعدها . فعلت ذلك بنوع من الآلية .

كان جسد الطبيب يحجب الجزء الأكبر من جسد المريض، بما في ذلك الوجه، ابتسم لي الطبيب، وهو يلتفت، ابتسامة ودية ومتواطئة، واشار بيده طالباً ان اتقدم الى الجهة الأخرى من السرير لأتوسط بينه وبين المريض.

خلال ثانية، اقل من الثانية، وما كادت عيناي تلتقي بعيني المريض، ورغم اني هززت رأسي، لاشعورياً لكي اتأكد، فقد رأيت خلال تلك الثانية خوف الدنيا كله يتجمع في العينين اللتين تقابلاني، وزاد في هذا الخوف تعبير الوجه، لونه، حركة الجسد، ارتجاف الوجنتين، طريقة التنفس، اهتزاز الفراش، ارتفاع اليدين ثم هبوطهما السريع واليأس!

لا يمكن لأحد ان يعيد رسم المشهد، ان يتذكر التفاصيل. كما لا يمكن له ان يقول كيف التهب الجو وكيف تغيرت رائحته.

واذا كنت قد رأيت كل ذلك في الوجه الذي يقابلني، فكيف كنت خلال هذه الثواني؟ وكيف رآني الطبيب وماري لور، وذلك اللابد في الفراش، وكان يشبه القط الخائف والمحاصر؟

تنفست بعمق في محاولة لأن استجمع نفسي. حاولت ان ابتسم. قلت، وانا شديد التأكد ان صوتي ارتجف، او كان الصوت مجرد ارتجاف:

ـ مرحبا ابو مهند!

هز رأسه ولم يجب. تابعت بعد ان تنحنحت:

ـ خير ان شاء الله؟

وفجأة انبعث صوت هو خليط بين الضحك الهستيري والبكاء. كان قوياً مباغتاً، ثم هجم عليّ. اخذ يعانقني ويقبلني، ثم اخذ يدي، وبطريقة بائسة بدأ يقبلها، ولا استطيع سحبها منه، وفي لحظة معينة صرخ:

ـ أنا عبدك وداخل عليك!

ـ بسيطة يا ابو مهند، المهم الآن، ان تستريح!

ولأنه كان خائفاً ولا يصدق الكلمات، وكانت دموعه تنهمر بغزارة، فقد قلت بحزم:

ـ المهم صحتك يا ابو مهند.

قال الطبيب بطريقة هي مزيج من التساؤل والاستغراب:

ـ من اقاربك او من اصدقائك، ولا تعرف انه هنا؟

تطلعت اليه بطرف عيني وانا احاول اعادة سالم عطيوي الى فراشه، وما ان استطعت ذلك، حتى اخذ يرتجف كقصبة. كانت اسنانه تصطك، كما ان برودة مفاجئة سيطرت عليه، اضافة الى الخوف. قال الطبيب للممرضة همساً

ـ حالته الآن لا تمكننا من اجراء العملية.

لم ترد الممرضة.

ولا حاجة لأن اقول أي شيء الآن، دعوني استريح..!

قد اكون ساخراً اذا قلت لكم ان من جملة هواياتي في السجن: السياحة! ولكن هذا ما كان يحصل في احيان كثيرة، فما ان أجد نفسي ضيق الصدر، محاصراً، حتى احمل حقيبة الحلاقة، ودون تردد اتوجه الى المطار لاستقل الطائرة واسافر.

سافرت الى مدن عديدة، وفي معظم القارات. كان يروق لي ان تكون الرحلة قصيرة، وان تتخللها المفاجآت وبعض المتاعب، وحتى الأخطار، على ان لا تكون قاتلة او تترك تشوهات دائمة، ومن شروطها ايضاً الضياع في المدن من أجل اكتشافها!

لقد فعلت ذلك مرات كثيرة وانا في السجن من خلال الخيال. اما الآن، وقد وصلت باريس بالفعل، فقد وجدت نفسي مدفوعاً لاكتشافها.

كنت اهيم لساعات طويلة كل يوم في هذه المدينة التي ليس لها بداية او نهاية. كنت اعرف اسماء عدد من الأماكن، وكم شعرت بالغبطة، وكانت اقرب الى فرح الأطفال، حين اكتشف شبهاً، وليس تطابقاً، بين مكان تخيلته او قرأت عنه، وبين هذا الذي أراه متجسداً امامي.

لا اريد ان اغرقكم الآن، او ان أثقل عليكم، باستعراض الهوايات التي شغلتني. الأهم من ذلك انني كنت اتمشى ذات صباح بالقرب من قوس النصر. كنت اتطلع الى الأبنية والأشجار، كان الجو منعشاً، والحياة تتدفق، وفجأة رأيت رضوان!

التقت نظراتنا بسرعة. لم نصدق. او بالأحرى انا الذي لم يصدق. كان مع اثنين. بدا انيقاً معافى. رآني، لكنه واصل سيره. خفق قلبي بشدة. توقفت. نظرت

اليه باصرار لكي اتأكد. بعد ان سار عدة خطوات التفت. كانت نظراته بهدف الاكتشاف. حين التقت نظراتنا من جديد لم يستطع ان يتجاهل. لما وجدني واقفاً وقف واستدار بنصف دائرة. صرخت، ولا اعرف لماذا كان صوتي نزقاً:

- رضوان!

تعانقنا. تبادلنا القبل. سألني عن صحتي ولماذا انا هنا. كنت انظر الى عينيه، كان يهرب. قلت له: لا اصدق ان نلتقي في باريس. ضحك بعصبية وقال : العالم اصبح صغيراً. عرضت عليه ان نجلس في مكان وان نشرب القهوة معاً. رد بأن طائرته الى لندن ستقلع بعد ساعة ونصف، ولا يعرف ما اذا الوقت الباقي يكفي لأن يصل الى المطار ام لا. وفي محاولة للاعتذار قال:

- اعطني رقم تلفونك وسوف اتصل بك ونرتب كيف نلتقي ، ومتى!

لم اسلم بسهولة. طلبت منه تأجيل السفر، الغاءه، ليس بدافع الشوق والذكريات فقط، وانما لنتحدث عما يجري في الوطن والتنظيم، خاصة بعد الانقسامات الحادة والخلافات والاتهامات المتبادلة. بدا محرجاً ، وغير راغب في مواصلة الحديث، وكان، بين لحظة واخرى، ينظر الىاللذين يرافقانه، وكأنه يعتذر!

في لحظة معينة سحبني جانباً وهمس في اذني:

- لدي مهمة في لندن لا تحتمل التأجيل، وسأعود خلال ايام ونلتقي، اتفهمني؟

فهمت، ولكن كيف يتسنى لي ان اتركه يفلت مني هكذا؟ انها الفرصة التي كنت انتظرها منذ شهور، لكي اعرف اية مصائب حلت بالوطن، واعرفها من شخص تربطني به علاقة طويلة، زادها السجن قوة.

عرضت ان ارافقه الى المطار، وخلال الطريق يمكن ان نتحدث، ارتبك قليلاً، وقال:

- لدي مع الأخوان بعض الأشغال التي لا تحتمل التأجيل...

وبعد قليل، وهو يحاول الابتسام:

- سأعود بعد عدة ايام، ونقعد ونسولف!

وافقت في النهاية، مع وعد باللقاء خلال ايام!

وتعاقبت الأيام دون ان اسمع صوت رضوان. التمست له اعـذاراً كثيرة. قلت لنفسي: القادة يتنقلون بحذر وخفـاء، وكثيراً مـا يضطرون لتغيـير وجهات سفرهم للضرورة او لأسباب امنية!

سوف اترك تفاصيل كثيرة الآن. ربما رجعت الى بعضها في وقت لاحق، لكن لتتأكدوا انني لست سادياً، ولا انوي ايذاء احد، ولتعرفوا ما الذي جعلني هكذا عصبيـاً نزقاً غضوباً، واريدكم ان تصبحوا مثلي. ما جعلني هكذا انني بعد دخولي المستشفى بعشرة ايام او اسبوعين، واثناء احدى زياراتي لابي مهند، بعد ان قطعوا له رجله عند اعلى الساق، نتيجة استفحال مرض السكري، في هذه الزيارة رأيت رضوان!

ما كدت ادخل حتى نهض، وكان معه معاون الملحق العسكري، واستأذن، لأن طائرته ستقلع بعد قليل!

لا استطيع هنا ان اضيف اية كلمة. سوف ادعكم قليلاً، قبل ان ازف اليكم نبأ صدمة اخرى!

ذات ليلة، قبل دخولي الى المستشفى بيومين او ثلاثة ايام، قال لي أنيس

- سيزورنا بعد قليل شخص قد تفاجأ به . . .

تطلع اليّ وهو يبتسم، وكان يقيس رد فعلي. لم اسأله ولم اتكلم. تابع:

- كان يمكن ان استقبله في المكتب، ولكن حين عرف بوجودك اصرّ على زيارتك!

وفي محاولة لاغاظة انيس اكثر لزمت الصمت، لم اسأله ولم اتكلم!

زفر وهو يهز رأسه، ولم تفارق الابتسامة شفتيه، وتابع بصوت مختلف:

- يبدو ان رغبتك في تطليق الماضي لا توازيها الا رغبة حكامنا في التشبث بكراسي الحكم . .

واتبع هذه الكلمات بضحكة عالية. وبعد ان هدأ:

- سيزورنا الليلة سامي ايوب، واظنك تعرفه او على الأقل سمعت الكثير عنه!

- سامي أيوب؟

ولا بد ان يكون شكلي قد تغير، وظهرت على وجهي انفعالات واضحة. رد انيس:

- نعم سامي ايوب . .

وخلال ساعة او اكثر قليلاً، اي الى حين وصول سامي، روى لي انيس اشياء لم اصدقها.

فسامي الذي يحمل على كتفيه حكمين بالاعدام، والذي كان مثل المشجب تعلق عليه وتنسب اليه مسؤولية الكثير من القضايا باعتباره غائباً، ولا يمكن لسلطات عمورية ان تطاله، والذي كان اسمه يتردد على كل شفة ولسان. . . سامي الآن، ومعه اطفاله الخمسة وزوجته، يسكنون في غرفة واحدة، في احدى الضواحي الباريسية الفقيرة، ولديه من المشاكل ما لا يقوى على حملها عدة رجال معاً!

ـ والسبب؟

هكذا سألت انيس بانفعال وغضب، رد، وكان صوته هادئاً وعميقاً:

ـ علاقتي به كانت محدودة ومن بعيد، الى شهور، وقد عرفت وسمعت من اصدقاء انه اختلف مع التنظيم، او كانت له أفكار واجتهادات لم ترق للبعض، ولذلك أُنهيت علاقاته او انهاها بنفسه، وبعد ذلك تدهورت اموره كلها: انتقل من البيت الذي كان يسكن فيه وسط المدينة. لم تعد لديه موارد مالية. وربما تعرف ان احد ابنائه معوق ويحتاج الى رعاية صحية دائمة. . .

وتنفس بعمق واسى واضاف:

ـ ولازم تعرف ان الرجل، وهذه شهادة لله، لم يتحدث لي حول الموضوع ابداً، وانا لم اجرؤ على سؤاله او الخوض في هذه التفاصيل، لأني وجدت ذلك تطفلاً، وربما يحرجه.ورغم ان علاقاتنا توثقت خلال الفترة الماضية، لكن احاديثنا، اغلب الأحيان، تبقى في العموميات، عدا مرة واحدة، شرب خلالها، وبدا ان لديه ما يريد ان يبوح به، وما كاد يبدأ حتى انتبه لنفسه فكسر القدح وغرق في موجة من البكاء!

أما كيف توثقت العلاقة بيني وبينه فمن خلال احد الأصدقاء، اذ سألني هذا الصديق اذا كانت لدي مواد للترجمة من الفرنسية الى العربية، وحين اكدت له ان مثل هذه الترجمات قليلة، ولدينا من يترجم، فقد طلب باصرار توفيرها، لأن الأمر بالغ الأهمية والحساسية، ويعني احد اصدقائه، فعرضت ان اقدم تبرعاً لمساعدته، فرد

عليّ : «تموت الحرة ولا تأكل بثديها والمسألة اولاً وأخيراً متعلقـة بسامي ايـوب!»
وهكذا تعرفت عليه حين اعاد المواد بعد ان ترجمها، واستمرت العلاقة وقويت!

وهكذا ، بعد ان تعرفت على سامي ايوب ، وعرفت اشياء كثيرة ، وبدأنا نفكر في الماضي والمستقبل، ما كان وما يجب ان يكون. وكيف كـانت مواقف الكبـار والقادة، هنا او في الوطن، في الظاهر والعلن، وسامي يعرف الكثير الكثير، فقد اصبحت اقرب الى حالة التمزق والجنون، ولا املك تفسيراً لما يقال وما يجري على الأرض، في الواقع، وهذا ما دفعني لأن اتكلم، لأن أنشر بعض الأوراق!

اعرف ان المسألة لا تخلو من خطورة ، لكن اقول لنفسي لقهر التردد: يجب ان تكون الحقيقة ملك الجميع، لأنها وحدها قاربنا الأخير للانقاذ، ثم ان الكثيـرين يملكون حقائق ومعلومات اخطر مما لدي، ولا بد ان يتجرأوا ذات يوم على قولها، او على كتابتها وايداعها لدى اصدقاء،وحين تعرف، حين تنشر، فان اشياء كثيرة سوف تتغيرا

حرائق الحضور والغياب

الأوراق التالية شهادتي، انا طالع العريفي، احد الذين عاشـوا في سجون موران، لمدة عشر سنين متوالية. قد لا يحتاج الأمر الى التنبيه انني سجين سياسي، وانني قضيت هذه المدة كلها دون محاكمة قانونية ودون حكم. وهذه الحالة الأخيرة لا تقتصر عليّ، اذ ان جميع السجناء، وقد مر على بعضهم زمن يزيد عما قضيته،وربما ضعفه، موجودون دون ان يعرفوا المدة التي سيقضونها في السجن، ولا يعرفون ما يخبىء لهم الغد.

اكتب هذه الأوراق بعد ان رحّلت من مـوران، وبعد انقضاء فترة طويلة، نسبياً،على مغادرتي للسجن. ومعنى ذلك انني الآن اقل انفعالاً، وربما اقل حقداً، واحاول، قدر ما استطيع، ان ارسم صورة لما حصل منذ لحظة القبض عليّ، وحتى ابعادي عن موران.

ليس الهدف من الكتابة اثارة الشفقة او استعراض بطولات فردية، كما ليس هدفها توجيه الشتائم لحكام موران، او الانتقام من الجلادين بتسميتهم وفضحهم، لأن المشكلة، كما تبدو لي، اكبر من ذلك واخطر، اذ انها تتعلق بطبيعة النظام وتركيبه، مما يتطلب ان نتعامـل مع ظـاهرة السجن والجـلاد ليس من منظور شخصي، وانمـا باعتبارها نتيجة خلل عميق، وافراز لعلاقات غير متكافئة، اضافة الى فهم خاطىء بطبيعة العلاقة بين الحاكم والمحكوم، ولحقوق وواجبات كل منهما.

ربما ليس من حقي، هنا، ان اقدم تنظيراً او شروحاً لظاهرة القمع، كيف بدأت وكيف تطورت، وما هي بواعثها، وأخيراً احتمالاتها، لأن تنظيراً من هذا النوع مهمة الباحثين والمفكرين، وانا، واشكـر الله على ذلـك، لست واحداً من

هؤلاء؛ اكثر من ذلك قد اخطىء في تفسير هذه الظاهرة، وقد اخلط، وبالتالي اسيء، بين عرض التجربة وهذا ما استطيعه، وما هو مطلوب مني ايضاً، وبين ردها الى جذورها واسبابها الحقيقية.

وملاحظة اخرى: انا الآن اكتب من الذاكرة، في ظل ظروف صحية دقيقة، ولذلك يحتمل ان تكون كتابتي، او اجزاء منها، مضطربة او متداخلة، وقد تفقد تسلسلها في بعض الأحيان، لأن ذاكرة الانسان اعجب واخطر شيء في تكوينه، ولذلك يمكن ان تفوتني بعض الأمور الهامة، او اعطيها اهمية اقل او اكثر مما تستحق، وهذا مجرد تقدير شخصي.

وملاحظة ثانية جديرة بأن تسجل: ان حجم العذاب الذي قد يلمسه من يقرأ هذه الأوراق، والقسوة التي قد تصطدمه، وأيضاً الوحشية التي تقابله في سلوك الأفراد، يجب ان لا يخلق الخوف، او التردد، وربما ابالغ واقول: يجب ان يخلق موقفاً معاكساً، أي ان يحفزنا على استثمار هذا الحقد وتوجيهه في الاتجاه الصحيح، ليس ضد افراد وانما ضد حالة، لأن هذه الحالة هي التي خلقت مثل هؤلاء الأفراد المشوهين.

انا على يقين كامل ان عدداً كبيراً من الجلادين هم أيضاً ضحايا. لا اتحدث هنا عن المرضى، والمعطوبين، او من لهم مصلحة، ولكني اتحدث عن الانسان الموجود في داخل كل جلاد، وكيف استطاعت حالة القمع التي اريد لها ان تنتشر وتعمّم، جعلت هذا الانسان الموجود في الداخل يغفو او يصم اذنيه، وبمرور الوقت خُدّر او اصبح عاجزاً عن المقاومة.

لقد اردت لهذه الأوراق ان تكون شهادة صادقة ومحايدة قدر الامكان، وان تجعل كل من يقرأها يزداد قوة ورغبة في تدمير القمع وهدم السجون، والمساهمة في خلق وضع انساني يمكن ان يعيش فيه الناس دون ان يقتل بعضهم بعضاً، ودون ان يصبح الدم لغة الحوار الوحيدة.

وهنا اصل الى الفقرة الأخيرة في هذا المدخل: هذه الأوراق ما كانت لتكتب لولا وجود محرض جمعتني به المأساة في مستشفى كارلوف. انه عادل الخالدي. فهذا الرجل لديه قناعة تصل حدود اليقين ان الكلمة يمكن ان تترك تأثيراً كبيراً، وانها اساس كل تغيير، ويجب ان تكون سلاحنا الأساسي في المرحلة الراهنة.

لقد ظل عادل يلاحقني ويلحّ عليّ من أجل تدوين تجربتي عن السجن، ورغم ترددي الذي استمر اسابيع عديدة، فقد اقتنعت، او اقتربت من الاقتناع، ان تدوين مثل هذه التجربة امر غير ضار، اذا لم يكن مفيداً، وهذا ما جعلني اكتب الأوراق التالية!

ولا حاجة لأن اقول، كما يفعل المؤلفون الأنكليز بشكل خاص، ان كل خطأ او تقصير، وأيضاً كل تعبير نابٍ في هذه الأوراق ، انا وحدي مسؤول عنه، ولا احد غيري .

أما الشكر فلعادل الخالدي، هذا الانسان الحساس والشديد الرهافة ، عاشق الكلمة، والواهم أيضاً انها طريقنا، الآن، للوصول الى الحرية!

اتذكر . . قبضوا عليّ وكنت خارجاً لتوي من سوق الحلال!

كان الوقت حوالي الظهر، في يوم من ايـام أيار المتـأخرة. وفي مثل هذا الفصل قبل دخول الصيف الكبير، يكون الجو عادة رضياً مقبولاً ، ويكون السوق هادئاً اقرب الى الركود، الا ان شتاء تلك السنة انقضى دون امطار، وتبعه ربيع قصير مغّبر، وبدءاً من الأيام الأولى لأيار اشتدت الحرارة وثقل الجو، وتدفقت، على غير انتظار، الرعايا من البادية، ومعها الوجوه المتجهمة والغضب، وامتلأ سوق الحلال بالذين يريدون بيع اغنامهم ودوابهم باسرع وقت، بعد ان تعذر عليهم اطعامها او تأمين العلف لها، ولخوفهم أيضاً من الرعايا التي سوف يتزايد وصولها يوماً بعد آخر، وكان المشترون يترددون ويتأخرون ويطيلون المسـاومة، ويـرافق ذلك، الفـوضى والخلافات .

واذا كانت العادة ان يبلغ السوق ذروته يوم الخميس، فقد كانت ايام ذلك الشهر خميساً متصلاً، وهذا ما جعل المخبرين يقيمون في السوق لا يغادرونه، ورغم الزحام والأصوات العالية وحركة الناس الثقيلة، مما يجعل السوق كله كتلة يصعب اختراقها او تحديها، الا ان هؤلاء المخبرين الذين ظلوا على اطراف السوق يراقبون ويتابعون، ويتنصتون الى ما يدور ، بدأوا يخافون مما يتردد على السنة الناس من الشتائم والتحديات، وحين انتقلت تلك الشتائم الى الرؤوساء ثم الى القصر، فان الخوف زاد اكثر من قبل، ممـا ادى الى حملة واسعة من الاعتقـالات، شملت الكثيرين .

وهكذا كنت احد الذين قبض عليهم!

صحيح ان اعتقالي لم يكن متوقعاً، اذ لم اكن معروفاً لا بالاسم ولا بالهيئة، خاصة واني حديث الاقامة في موران، لكن ترددي على السوق باستمرار، ولأني لم اشترك في عمليات البيع والشراء ، اوحتى المساومة، فقد اصبحت، دون ان ادري ، موضع رقابة عدد من المخبرين.

كان المخبرون يكتفون بالمراقبة، وينشغلون اكثر ما يكون بالغرباء والأخبار التي يحملونها، وبعض الأحيان بفضّ المنازعات التي تقع فجأة نتيجة عمليات خداع وتدليس برع بعض دلالي السوق فيها، خاصة مع البدو الذين يصلون السوق لأول مرة. ولأن هؤلاء المخبرين يشغلهم اكثر من همّ، اذ كانوا حريصين على تحصيل «ديون مستحقة» لهم عن خدمات سابقة قدموها، فلم ينسوا ان يستفيدوا من هذه الفترة اكثر من فترات سابقة بعمليات البيع والشراء، نظراً لتدني الأسعار، ولذلك كانت تظهر عليهم ملامح التجار اكثر من صفات المخبرين، الأمر الذي جعل سوق الحلال مصيدة بدل ان يكون عطاء لبعض المهمات التي كنا نقوم بها، وكان هذا ما اوقع بي. اذ ما كدت اصل اسوار السوق حتى اعترضني ثلاثة اشخاص، وبهدوء، لكن بحزم، طلبوا اليّ مرافقتهم. رفضت، حاولت ان اقاوم، طلبت منهم ان يبرزوا لي ما يثبت صفتهم والأسباب التي تستدعي القبض عليّ؛ قال لي المسؤول ، وخرجت الكلمات من بين اسنانه:

- امش معنا برضاك أحسن ما تتبهدل وينكسر راسك!

بعد ان تلفت هنا وهناك، ولم اجد احداً يعرفني، او يمكن ان يقف الى جانبي، اضطررت الى مرافقتهم!

على مسافة غير بعيدة من السوق كانت تنتظرنا سيارتان، وبخفة وبراعة دفعوني في السيارة الأولى، وجلس الى جانبي اثنان، واحد من كل جهة، وانطلقت السيارتان بسرعة، واخذنا طريق العوالي.

كانوا صامتين، وكنت ، خلال ذلك، افكر بالاحتمالات والاجابات الأفضل. ورغم التوتر، فقد احسست ان الانسان اذا اعتقل بمفرده افضل من ان يعتقل مع الآخرين، خاصة الفترة الأولى، اذ يستطيع في هذه الفترة ان يهيىء نفسه، ان يحضر الاجابات الأكثر ملاءمة، بدل ان ينشغل بحل التناقضات التي تنشأ من الاجابات المتعددة والمتباينة. قلت لنفسي بنوع من العزاء: «لو اني اعتقلت مع بعض

الذين التقيت بهم في سوق هذا اليوم لوقعت مصيبة لا يمكن تلافيها!»

الصمت قوي شامل ونحن نجتاز موران، وما عدا الأنفاس وصوت محرك السيارة، فلم يكن يسمع اي صوت.

بعد ان قطعنا بضعة كيلو مترات، واصبحنا خارج المدينة، استخرج الذي كان يجلس الى يميني قطعة من القماش وعصّب عيني. فعل ذلك دون كلمة، وبطريقة آلية متقنة.

استدارت السيارة اكثر من مرة. انعطفت في طرق جانبية، وبعد نصف ساعة تقريباً توقفت. امسكوا بيدي وانزلوني. قادوني بضع خطوات ثم صعدنا درجاً. فُتح باب غرفة، دُفعت الى داخلها. وغابوا.

فعلوا ذلك بطريقة آلية، وبصمت. قلت لنفسي: «الصمت، بعض الأحيان، لغة خطرة وشديدة التعبير». كنت اسمع، بين فترة واخرى، ومن بعيد، وقع اقدام او اصواتاً، لم اكن استطيع تمييزها بوضوح. بعد عدة دقائق تجرأت على نزع العصابة عن عيني: غرفة واسعة، في جانب طاولة كبيرة حولها، من جهة واحدة، عدة كراسٍ، وفي الجانب الآخر من الغرفة سرير عسكري. ولم يكن في الغرفة نوافذ، والضوء الكهربائي دائم الاشتعال.

لم يتركوني طويلاً. جاءوا. كانوا ثلاثة: شاب بجسم رياضي، نظيف، واثق من نفسه وقوته، والآخران اقرب الى الكهولة، ويبدو انهما مرؤوسان للأول. بعد ان طلب مني ذلك الشاب الجلوس على كرسي في طرف الطاولة، وجلسوا هم وراءها، قال لي، وكان صوته محايداً:

ـ نحن نعرف عنك كل شيء، نعرف من انت ولماذا انت هنا، ولذلك يجب ان تعترف، لأن النجاة في الصدق!

قال ذلك بثقة، وبعد قليل:

ـ سوف اوجه لك اسئلة وانت تجيب. لن اقول لك اين صدقت واين كذبت، لكن يجب ان تكون متأكداً: نحن نعرفك جيداً، ونعرف كل شيء عنك!

وبدأت اسئلته. كان وحده يسأل، والاثنان الآخران لا يفعلان شيئاً سوى مراقبتي، دراستي، النظر الى عيني مباشرة، في محاولة لاكتشافي، لمعرفة من اكون،

وأيضاً لارهابي من خلال تلك النظرات التي تندّق في انحاء حساسة من جسدي وكأنها المسامير. كانت النظرات تنزلق الى ما تحت الجلد، كانت باردة لاذعة، وكنت اشعر بالارتباك مع كل كلمة.

تركزت المعركة الأولى حول امور محددة: من اكون، اين اسكن، لماذا انا في موران!

أجبت عن الأسئلة باختصار. ذكرت انني من روضة المشتى، وانني بعد ان عجزت عن تأمين رزقي هناك جئت الى موران بحثاً عن عمل او صيغة للحياة. أما عن اقامتي فأنا انام في المساجد، وفي بعض المضافات، بعد ان نفدت نقودي، وان كنت قد اقمت في بعض الفنادق الصغيرة خلال فصل الشتاء!

في لحظة ما تطلع اليّ وابتسم بسخرية. وقال:

ـ انت كذاب اشر..

وبعد قليل، وهو يمزق الأوراق التي كتبها:

ـ كل ما قلته لا اصدقه، ومع ذلك، سوف اعطيك فرصة هذه الليلة لتفكر وتعود الى عقلك، والا ستندم، ستندم كثيراً.

ودون تردد او انتظار نهض، ونهض الآخران، قال وهو يتركني:

ـ انتبه جيداً، ساعود غداً، واريدك ان تعترف بكل شيء... والا!

وخرجوا!

في وقت ما جلبوا لي طعاماً. بدا لي ان الطعام تم شراؤه من السوق، فقد كان نظيفاً، متنوعاً. حمله اليّ رجل مقنّع. وضعه امامي دون اية كلمة وخرج.

انها الجولة الأولى في معركة طويلة. بدا لي الأمر واضحاً منذ لحظة القبض عليّ، لكن كنت اريد ان يمر بعض الوقت، اذ بمجرد مروره لأبد ان يعرف انه قُبض عليّ، وسيتأكد ذلك لغيابي عن البيت، لعدم حضوري بعض الاجتماعات او المواعيد، وايضاً من خلال اخبار اهل السوق، فالناس رغم انهم لا يتدخلون في بعض الحالات، الاّ انهم يروون ويتكلمون، وعند ذاك لا بد ان تصل الأخبار.

وكنت افترض ايضاً ان انقضاء الوقت سوف يساعدني نفسياً للتحقيق

والتعذيب، لأن المفاجأة تجعل الانسان مرتبكاً وخائفاً، واي من هاتين الحالتين تؤدي الى جملة من الأخطاء قد لا يستطاع تلافيها في وقت لاحق.

والجولة الأولى بالنسبة لهم مجرد اختبار لمعرفة وتحديد اهمية المعتقل، والطريقة المناسبة للتعامل معه. ولذلك فانهم يلجأون الى ايهامه بأنهم يعرفون عنه كل شيء، والأفضل بالنسبة له الاعتراف، لأنه الوسيلة التي تختصر العذاب. ويحاولون، قدر الامكان، اختبار اكثر من اسلوب، مرجئين التعذيب، لأن الاهانة التي تلحق بعض المعتقلين من خلال التعذيب تجعلهم اكثر عناداً واصراراً.

في اليوم التالي جاءني المحقق الشاب وحده:

- اسمع.. تكون مجنوناً اذا تصورت انك تستطيع اقناعي من خلال الأوراق المهترئة التي تحملها انك من موران وانك متسبب..

وبعد قليل وهو ينظر الى عيني بتحديد:

- في الصدق النجاة، وأفضل لك الف مرة ان تعترف، لأنك اذا اعترفت لي يمكن ان اساعدك، يمكن ان اخفف عنك، أما اذا بقيت عنيداً، وتصورت ان هذه الطريقة في الاجابة عن الأسئلة تنقذك فانت واهم وغلطان.

تنفس بعمق وسأل:

- من أين حصلت على هذه الأوراق؟ من ارسلك الى موران؟ ما هي المهمات المكلف بها؟ اريدك ان تجيب عن الأسئلة بدقة... والا!

- كما ذكرت لك امس: انا رجل متسبب، فقير، وبعدما ضاقت بي السبل ولم اجد عملاً او مكاناً قلت لنفسي: ليس لك الا موران يا ولد، فهي مدينة كبيرة، والأشغال فيها كثيرة، ومثلما وفرت العمل والحياة للآلاف لا بد ان توفر لك.

- هذا الكلام يمكن تقوله في سوق الحلال لبدوي لا يعرف راسه من رجليه، لعله ينزّل لك كم قرش براس غنم تريد تشتريه منه، أما عليّ فيفتح الله!

- والله الكلام اللي قلته لك اقوله للكبير والصغير، اللي اعرفه واللي لا اعرفه، وما اريد اخدع احد.

قال وهو يضحك:

ـ وغير هذا الكلام عندك كلام؟

ـ ابد، الله يسلمك!

ـ هالحين راح اتركك تفكر، تحسب وتوازن، تضرب اخماس باسداس، وباكر اذا جيتك وسألتك وجاوبت مثل ما جاوبتني اليوم ترى ارفع يدي واسلمك لمن يعرف يخليك تطّلع كل اللي ببطنك، فاحسن لك ولنا ان تعترف امامنا لأننا نقدر نساعدك، نخفف عنك، أما اذا استلموك الجماعة فاقرا على روحك الفاتحة. . .

ولما وجدني صامتاً، وربما مصراً، اضاف بلهجة مختلفة:

ـ راح اتركك هالحين، بس تفطّن زين اللي قلته لك، وغداً لناظره قريب.

وتركني وخرج!

وجاء في اليوم التالي وكان برفقته مساعداه اللذان جاءا معه في اليوم الأول. نظر اليّ طويلاً، وكان صامتاً. سألت عيناه ما اذا كان لدي ما اقوله، وحين تأكد انه لم يجد ما يريد جاءت كلماته:

ـ ها. . . عسى ان الله فتح عليك؟

وحين اعتبرتُ انه لم يسأل، وليس مطلوب مني جواباً، فقد صمت. هز رأسه عدة مرات وسأل:

ـ متسبب، فقير، بياع شرّا، تنام بالمساجدوالمضافات، هذه سوالف لا تقنع أي انسان، والأسئلة اللي سألتك امس واول امس: من اين حصلت على هذه الأوراق؟ من ارسلك الى موران؟ ما هي المهمات المكلف بها؟ اين كنت تسكن منذ ان وصلت وحتى الآن؛ هذه الاسئلة اذا أجبت عنها بصدق تنقذ روحك، تأمن ان رأسك سالم، فما هو قولك؟

تنفست بعمق. تطلعت اليه بمسكنة، في محاولة لأن اقنعه بصدق اجاباتي، وقلت:

ـ مثل ما ذكرت لك اول مرة: أنا رِجّال مسكين، على باب الله، ادور خبزتي واترزق الله، وما ادور طلايب وما عندي طلايب، ويجوز انكم تدورون على غيري!

ـ لدينا معلومات اكيدة انك من الدواحس، وانك مكلف بمهمة، فاذا

اعترفت خلّصت روحك، واذا ظليت منكر ترى مثل ما قلت لك امس: ارفع يدي، وبعدها الله يستر، فشنهو قولك؟

ـ الله يسلمك مثل ما قلت لك امس واول امس!

ـ الله لا يسلّم فيك عظم يا ابن الحرام..

وبعد قليل:

ـ يبين عليك: مقّطع موّصل، وما تجي الا بكسر الراس، يا ابن الحرام!

وفي هذه اللحظة دخل عدد من الأفراد، لا اعرف كيف! استدعاهم، قال لهم بحزم اقرب الى الأمر:

ـ خذوه!

لا اعرف اين كنت او الى اين سيأخذونني، اذ ما كاد المحقق يغادر الغرفة، حتى ربطوا العصابة حول عيني، واحكموا شدّها، وكانـوا اكثر عـداء وشراسـة، واخذوني الى مكان آخر، يبعد عن المكان الأول بمقدار ساعة في السيارة!

ادخلوني الى مكان، طلبوا مني ان ابقى واقفاً ومشدود العينين، وابتعدوا!

المكان الذي انا فيه هادىء ساكن؛ على مسافـة غير بعيـدة اسمع اصـواتاً وضوضاء. لا استطيع ان اقدّر المسافات او تحديد مصدر الضجة، ولست متأكداً ما اذا كنت وحدي او ان احداً يرقبني، ولذلك لم اجرؤ على نزع العصـابة او تغيـير موقعي. كنت مربوطاً دون حبل. كنت ارى من خلال اذنيّ، ولا اعـرف ما هي الخطوة القادمة.

فجأة امتلأ المكان بدوي مكتوم. بدأت اسمع وقع اقدام تتجه نحوي. كان القادمون صامتين، لكن كنت احس اقترابهم. هل يقصدونني ؟ يمرون في المكان؟ كم عددهم وما هي اشكالهم؟ لم استطع ان اقدر. الاقدام تقترب والصمت. اخذت الأقدام، وهي تقترب اكثر، تصبح أكثر حذراً، وكأنها تحاول التخفي، واحسست في لحظة معينة وكأن بعضها تجاوزني، وفجأة، وكما تقع الزلازل، او كما تنفجر البراكين، وبـطريقة شـديدة البـراعة، والاتقـان، وجدت ان ابـواب الجحيم فتحت عليّ: الضرب، اللكمات، بالأيدي، بالأرجل، بالرأس والاكتاف، كلها انصبت عليّ. كانت القبضة، لأنها قوية ومحكمة، توقعني ارضاً وكانت القفزة فوقي تجعلني امتزج بهذه الأرض، وما ان استقر لحظة في حالة حتى تنتزعني يد مدربة وشديدة الجبروت

من تلك الحالة وتطوح بي في الهواء، وقبل ان اصل الى حائط او الى الأرض تتلقاني ضربة اقوى منها فارتدّ!

اني الآن، ورغم مرور سنين طويلة، لا اتصور ان استقبالاً يمكن ان يُجرى لانسان يماثل ذلك الاستقبال. ربما كان عددهم يزيد على السبعة، وكانوا اقـوياء ومدربين، وكنت بينهم كالكرة.

في لحظات كثيرة افترضت ان الغاية او النتيجة المؤكدة لهذا الضرب ان اموت. لقد بلغت اكثر من مرة حدود الموت، فخلال فترة تزيد على الساعة بدا لي ان الموت ليس احتمالاً وانما حالة اعيشها، خاصة وان طريقتهم، الأماكن التي يتخيرونها، الشدة والسرعة في الضرب، الحماس الذي يزيد ويتعالى مع مرور الوقت، جعلني على يقين ان الأمر يتجاوز التعذيب، وان الهدف ان اموت بين ايديهم!

لم يسألوني عن أي شيء. لم يكونوا يريدون شيئاً سوى قتلي، او على الأقل ان يوصلوني الى الموت، تاركين لغيرهم ان يستعيدني من هناك اذا كان ذلك ضرورياً. كانوا في لحظات معينة، وبكلمات قليلة، يطلبون من بعضهم ان يجربوا ضربات بذاتها، فما ان يوقفوني على رجلي، بعد سقطة من قبضة، حتى احسّ ان قدمين، وبقفزة بارعة، طوحّت بي لا اعرف اين، فاذا طال ترّنحي هبطت عليّ قفزة من نوع آخر لكي تعجن جسدي بالأرض، لكي تسويـه معها! كنت اتمنى ان اراهم، ان اعرف خصومي، لكن احتمالاً مثل هذا لما بدا ممكناً، في لحظة حاولت خلالها ان اقاوم، فقد قيدوا يدي الى الخلف، واحكموا بطريقة مجنونة، ربط العصابة حول عيني. كما انهم لم ينسوا احكام العصابة بين فترة واخرى، وكأنهم يخافون ان اراهم، ان اعرفهم. في مرات عديدة، وهم يشدون العصابه، كنت أتصور أن الهدف أن يفجروا رأسي، أن يقسموه الى نصفين، وكنت أحس، وهم يشدون بهذه الطريقة، وكأن رأسي اصبح كالبيضة المسلوقة، اذ لن يلبث ان ينعجن، ان يفقد استدارته وصلابته ويتحول الى شيء آخر!

لو ان الأمر اقتصر على الضرب، باشكاله غير المحدودة، لوجدت له تفسيراً من نوع ما! ربما كانوا يتمرنون او يتبارون، وربما كانوا يتراهنون، ولكن ماذا اذا ترافق مع كم هائل من الشتائم البذيئة؟

حتى تلك الليلة لم اكن اتصور ان هناك هذا الكم من الشتائم التي يمكن ان

تستعمل، ان يقولها احد في مواجهة انسان آخر. كانت شتائمهم تتوالى وهم يضحكون، وكأن احداً يكركرهم. كانوا شديدي التمتع وهم يطلقونها، وربما اعتبروها من صيغ التحريض او توزيع الأدوار، اذ ما تكاد تتوقف الشتائم حتى يبدأ دوي الأيدي والأقدام، ومعها اصوات اقرب الى اصوات الحيوانات، حتى إذا سقطت، اصطدم رأسي بالجدار، اسمع طريقة جديدة في الشتم، مع ضربة لم اكن اتوقع مكانها او طريقتها!

طبيعي انني مثلما حاولت المقاومة بيدي وساقي، وسرعان ما شلّوا اليدين على الأقل، حين ربطوهما الى الخلف، واصبحت الساقان كأنهما من طين بعد الضربات التي انهالت عليهما، وبعد ان فقدت توازني نتيجة ربط اليدين، فان لساني حاول المقاومة الى النهاية، لكنه كان كسمكة صغيرة، مثل اسماك الزينة، في خضم هذا البحر من الحيتان العمياء.

في وقت متأخر، حين كنت استيعد حفل الاستقبال الذي جرى، واتذكر بعض الشتائم التي كنت ارد بها على ضرباتهم وشتائمهم، لا اتمالك نفسي من الابتسام! لقد كان قاموس شتائمي فقيراً محدوداً، وليس فيه اي ابداع او خيال، ولا ابالغ اذا قلت انه مثل ابرة تريد ان تحفر جبلاً. ليس ذلك فقط، كانت تلك الشتائم تثير سخريتهم، وكانوا يردون عليها باحدى طريقتين او بالطريقين معاً: بشتائم تفوقها حجماً عشرات المرات، وأيضاً بطريقة عملية، اذ بعد ان يتنعظوا كانوا يحتكون بي بطريقة معينة، او يركبون فوقي، وكانوا يقولون لي، لا نفسهم، لبعضهم: هكذا تكون الشتائم، وهكذا تكون الأفعال يا ايها الطفل الأبله!

هذه الليلة لا يمكن ان توصف. قدرت ان تكون ليلتي الأخيرة، ولذلك قررت ان احرمهم من الفرح: يجب ان لا اطلب شيئاً، يجب ان تموت كلمات الاستغاثة والتوسل. يجب ان اموت دون ان يسمعوا الكلمات التي كانوا ينتظرونها!

واذا كان الانسان، اي انسان، يتعب، يملّ، في لحظة معينة، من رياضة او عمل، ويحاول ان يتوقف اويستريح ،فانهم كانوا كالقردة او مثل اسماك القرش، مع نزف الدماء، مع تلاشي الخصم او تراجعه، يزدادون شراسة وعنفاً. وكانوا، في احيان كثيرة، كالدراويش، ما ان تزداد الشتائم وتعنف الضربات حتى يدخلوا في حالة من العنف اعلى من التي سبقتها واشد. واذا جسدي لم يحتملني الى النهاية، اذ

بدأ يتخلى عني جولة بعد اخرى، فان لساني لم يضعف ولم يتراجع، اكثر من ذلك بدأ لساني يعوي مثل كلب: «قتلة مجرمين، قتلة مجرمين، قتلة مجرمين» ولأني اصبحت اردد هاتين الكلمتين بالذات، وكأني اسطوانة مشروخة تدور في نفس الدائرة، فقد صرخوا:

- غيّر يا ابن ستين كلب.

وينهالون عليّ اكثر من قبل، وأدور في عالم شديد السواد والجنون، وحين يسمعون شتيمتي تتردد بنفس النغم، لكن بوتيرة تعلو وتهبط، تبعاً لقدرة جسدي وامكانيته في ان يقف الى جانبي، كانوا يصرخون:

- اذا كنا قتلة ومجرمين. . . خذ يا ابن الشرموطة!

- قتلة مجرمين، قتلة مجرمين، وانا اشرف منكم الف مرة!

في وقت ما، وحين بدأ جسدي يغادرني، يتركني وحدي اصارع هؤلاء القتلة، اخذوا يرشون عليّ الماء. كنت اعود من المكان البعيد الذي وصلت اليه نتيجة الماء البارد، نتيجة الماء الساخن، الى ان غبت تماماً عن الوعي، ولا اعرف متى اكتشفت نفسي في المكان الآخر.

في وقت ما افقت. بصعوبة حاولت ان اكتشف المكان الذي انا فيه، ان اتبين معالمه. بعد جهد، وبعد فترة غير قصيرة بدأتْ صورته تتكامل في عيني: انه يشبه الممر، طوله ثلاث خطوات وعرضه خطوتان. الى اليمين دكة بارتفاع شبرين، عليها حشية من القش، فوقها بطانية لا يمكن لأحد ان يحزر لونها الأصلي. من الأعلى، ومن خلال بلاطات زجاجية، يتسرب نور باهت هو الذي يعلن قدوم النهار او انتهائه، ويستطيع الانسان على اساسه ان يحدد بأن يوماً آخر قد انقضى. في صدر القفص دورة المياه، والتي لا تكف عن نفث رائحة قاسية، وتصدر عنها اصوات كأنها التجشؤ، لارتباطها بدورات المياه في الزنزانات الأخرى، وأيضاً لارتباطها بالدورات العامة، وراء الجدار، حيث يشكل الجدار نهاية الدهليز، وفيه ساحبات الهواء التي تصب روائحها في المكان كله، خاصة الزنزانات.

الحنفية قريبة من دورة المياه، واطئة، ويتسرب منها الماء باستمرار بوقع ثابت كأنه دقات الساعة، لا يمكن للانسان ان يستعملها الا اذا باعد بين ساقيه، فهي اعلى

من قامة الجالس، واكثر انخفاضاً من قامته اذا وقف، ولأنها لا تتوقف عن التنقيط فكأنها لا تكفّ عن البكاء او تعلن عن زمن سرمدي دائم الجريان!

لم استطع ان اتأكد من مواصفات هذا القفص الا بعد مضي عدة ايام، وبالتدريج ايضاً. فالآلام التي كنت اعاني منها لم تترك لي فرصة الالتفات او التركيز، يضاف الى ذلك: الصمت الذي يسيطر معظم الوقت، مما يجعل السجين في حالة اقرب الى الترقب او الخوف.

طعام الأيام الأولى لم تمتد اليه يدي، ولا اتذكر متى جيئ به او من حمله اليّ وما عدا قطرات من الماء، او سائل ساخن، تسربت الى حلقي فجوفي، ولا اعرف من فعل ذلك، فلم اذق طعم أي شيء.

لما بدأت اصحو شيئاً فشيئاً اخذت اميز الدم والبراز، ثم رأيت الجرذان. اما حين اصبحت قادراً على التركيز اكثر فقد اكتشفت انواعاً عديدة من الحشرات تدب في كل الانحاء، وكان هدفها الأساسي الطعام!

مع تزايد الصحو، وخلافاً للآلام نتيجة الضرب، فقد بدأت احس ان صدري من الداخل يتعبني، وبالتدريج اصبحت اربط بين هذا الألم والهواء المحبوس الكثيف والمثقل بروائح خانقة.

الصمت المسكون بالانفجار يملأ المكان كله، ويجعله خطراً.

صلتي بالعالم الخارجي مجرد كوة وسط الباب، تفتح الى الخارج، ومنها تمتد يد لترمي رغيفاً في الصباح ومعه بضع حبات من التمر، ومثله في المساء، أما وقت الظهيرة، فان اليد، وبعد ان تفتح الكوة، تطلب بحركة معينة، وغالباً دون كلمات، صحن الألمنيوم المسود الجنبات، لتضع فيه كمية من الفاصولياء او الفول، وبعض الأحيان انواعاً من الخضرة لا يمكن معرفة اصولها. تفعل ذلك بصمت وسرعة، يعقبها اغلاق الكوة حتى يحين الموعد الآخر!

هكذا كانت صلتي مع العالم الخارجي. أما عالم الزنزانة، الذي بدا لي خاوياً اول الامر، فقد اخذ يمتلىء يوماً بعد آخر، ويصخب! فالمخلوقات الصغيرة التي لا اعرف اين كانت اخذت تزحف في كل مكان، وقد حرّضها على ذلك توفر الطعام ورائحته، والجرذان التي لم تكن تظهر الا في الليل، وكانت تقترب بحذر بالغ لالتقاط الطعام، تجرأت يوماً بعد آخر، اخذت تقبع في الزاوية، ولا تتردد في ان تبادلني النظر دون خوف. ولاني اصبحت اشارك هذه المخلوقات ما ترميه لنا اليد التي تفتح الكوة ثلاث مرات في اليوم، بعد ان اخذت آلامي تخف، واصبحت بحاجة ماسة للغذاء، فقد تغيرت علاقاتي بهذه الكائنات، وتغيرت العلاقات فيما بينها ايضاً. فالطعام الذي كانت تحتكره وتتقاسمه، وتنقل ما تبقى منه لا اعرف الى اين، لم يعد كافياً او موجوداً، وهكذا اخذت تدخل في صراع فيما بينها بالغ الحدة والعنف، اذ ما اكاد ارمي بقطعة من الخبز حتى تشب متصارعة يريد الواحد ان يمزق الآخر، قبل ان

يستولي على تلك القطعة. وربما وقع الشيء ذاته فيما بين الكائنات الادنى، دون ان استطيع رؤيته!

ما اوسع هذا العالم، وكم فيه من الصراع الدامي!

ولان الصلة مع العالم الخارجي كانت تلك اليد المشعرة التي تفتح الكوة ثلاث مرات في اليوم، ويعم بعدها الصمت، فقد افترضت اني وحدي في هذا المكان المعزول. ولان الجو اخذ يزيد ثقلاً بتقدم الأيام الحارة، حيث يتوقف الهواء، فان الرائحة الكريهة، وهي مزيج من المياه الآسنة الخانقة، وعرق الجسد وبقايات الدم اليابس، تجعل الانسان في حالة من الحذر اقرب الى التلاشي، يفقد القدرة على التفكير، على الحركة، وتضمحل الرغبات ايضاً.

ذات مساء، اثناء توزيع وجبة العشاء، وعلى غير توقع، انفجرت اصوات بكاء ونحيب، وهذه الاصوات، رغم انها بدأت غير واضحة اول الامر، وكأنها آتية من امكنة بعيدة، لكن استمرارها، ثم ارتفاعها جعلتني اميز بالتدريج:

ـ انا بعرضكم ودخيل عليكم.

ـ مظلوم والله مظلوم.

ومن مكان آخر، اقرب، او ابعد، لا اعرف، يرتفع صوت آخر:

ـ انا مستعد اقول كل شيء، بس خلصوني!

وهكذا اكتشفت وجود بشر آخرين مثلي. كنت الى ما قبل انفجار تلك الاصوات، وربما حتى اليوم السادس او السابع، اتصور نفسي وحيداً في هذا العالم النائي.

ورغم اني توصلت الى هذا الاكتشاف فقد اخذ يساورني الشك من جديد: «الا يحتمل ان تكون هذه الاصوات مسجلة؟ ألم يريدوا ان اسمعها الا بعد ان حان موعد التحقيق معي مرة اخرى؟ هل يريدون التأثير عليّ لاضعف وانهار قبل ان يبدأوا التحقيق؟».

واحاول ان اقنع نفسي بالشيء ونقيضه «لو ارادوا ان يؤثروا عليّ لبدأوا في فترة مبكرة، ولماذا اختاروا وقت توزيع الطعام بالذات؟ وهذا الذي بكى وصرخ، انه لم

يفعل ذلك في وقت آخر ربما لانه لن يجد من يسمعه او ينقل رسالته، ولذلك اختار هذا الوقت.

مشاعر الانسان حين يتأكد انه ليس وحيداً تصبح شديدة التعقيد، اذ بمقدار ما يشعر بالثقة والقوة، فان الشعور بالظلم يصبح اكبر واقوى، فهو يحس ان دائرة الظلم العمياء مثلما طالته طالت الآخرين ايضاً. أما الشعور بالقوة الذي جعله يصمد، ربما نتيجة العناد والتحدي، فانه الآن يتعرض للامتحان الصعب وهو يسمع البكاء والنحيب، فهذا الذي يصرخ طالباً ان ينقلوا استعداده للاعتراف، لم يفعل ذلك نتيجة الضرب والتعذيب، وانما لانه لم يعد قادراً على احتمال الزنزانة، وهكذا يسأل كل انسان نفسه: «وانا، الى متى، استطيع الاحتمال؟ ولماذا لا اختصر العذاب ما دمت سأعترف في النهاية؟ وهذا الذي صرخ الآن، كم مضى عليه وهو في الزنزانة، ولماذا لم يصمد اكثر؟».

لقد انفجر عالمي هذا المساء، ولذلك قررت ان اصمّ اذني مهما علا الصراخ، ومهما كانت النتائج.

لاول مرة اكتشف، فجأة، انني لست وحيداً!

فالاسبوع الاول الذي امتلأ بالصمت، وجعلني، بالاضافة الى الآلام، لا اقدر وجود الآخرين، وبالتالي لا احس بهم، لكن نحيباً اقرب الى العواء انفجر فجأة عند اول المساء وغيّر الكثير.

لقد حصل ذلك بعد اسبوع من وجودي في الزنزانة، فتأكدت انني واحد من مجموعة، واوضاع هذه المجموعة لا تختلف عن وضعي. ربما مرت على بعضهم فترات طويلة، ومع ذلك لا يزال عدد منهم صامداً. ولكن كيف افسر هذا البكاء الاقرب الى النحيب، والذي انفجر هكذا؟ صحيح انه خفت تدريجياً الى ان انتهى، ومع ذلك ظل له رنين يمكن التقاطه دونما خطأ، فانتصب الحزن كشبح في زنزانتي، وربما في كل زنزانه، ومن الحزن بدأت تفّرخ الافكار والمخاوف والذكريات، ومعها الاسئلة ايضاً!

واذا كانت الصلابة، وهي مزيج من العناد والتحدي، تغري وتنتقل الى الآخرين، فان سريان الضعف اسرع، او هكذا يكون في بعض الاحيان، خاصة في مثل هذه العزلة.

وبدأت الاسئلة: لماذا نحن هنا، والى متى سنبقى؟ وهؤلاء الموجودون في الزنزانات الاخرى. ما هي التهم الموجهة اليهم، وكم مضى على وجودهم؟ وهل سيخرج احد او يأتي آخرون؟ والعالم الخارجي.. الاهل والرفاق والاصدقاء.. والناس في المقاهي والشوارع؟

ان الانسان دون خيال ودون ذاكرة لا يقوى على مقاومة الزنزانة!

لم تبق صورة او ذكرى، لم تبق كلمات او وجوه الا واستطعت استحضارها الى هنا، ليس مرة واحدة وانما مرات ومرات. كانت حياتي الماضية تنداح امام ناظري، وكأنها لا تستعاد فقط وانما تتكون من جديد. وكنت قادراً على ان اجمد لحظات ومشاهد معينة فترة غير قصيرة من اجل اعادة فحصها والتأكد من التفاصيل الصغيرة. كانت تعود اليّ الصور والكلمات ذاتها، كيف قيلت ومن قالها، ومعها رائحة الدخان وتعابير الوجوه وابتسامات العيون او غضبها.

وان تمر الحياة، من جديد، هكذا، فان الزمن يصبح شيئاً مختلفاً، لا يعود انتظاراً لشيء ما، يتحول الى حالة من الاستغراق لا تفسدها الا تلك اليد السمينة، وهي تطرق الباب اولاً، ثم وهي تفتح الكوة لتلقي بالرغيف ومعه شيءما، وهذا يعني ان وقتاً انقضى، وآخر حل مكانه.

ويضطرب الزمن من جديد، يتمدد، فيعود الانسان من الامكنة التي كان فيها، خاصة حين تنفجر تلك الاصوات التي تطالب برجاء ذليل ان تمثل امام المحقق مرة اخرى، وانها مستعدة للاعتراف بكل شيء. وحين لا يستجاب لها تختلط اصوات البكاء بالشتائم. وقد تستبد بآخر حالة من الهذيان فيتداخل البكاء بالغناء بالخطب والشتائم فتبدو الحياة عندئذ وكأنها في نهايتها!

في مثل هذه الليالي، والتي بدأت تتقارب وتتكرر، ربما نتيجة الحرارة الشديدة، والتي جعلت الزنازين اقرب الى الافران، لا يتغير مزاج الانسان فقط، وانما يصبح انساناً آخر، اقرب الى الجنون، فهو مستعد لان يكون في منتهى القوة، ربما الى درجة التهور، او جباناً خائفاً يرتعد من عيني الجرذ وهما تحدقان اليه، وقد ينهض فزعاً مرعوباً اذا دبت فوق وجهه حشرة من حشرات الليل، ويتعذر عليه النوم بعد ذلك.

وتصرفات الانسان في مثل هذه الليالي تتغير ايضاً. فالرغبة في الغناء او البكاء لا يمكن التحكم بها او السيطرة عليها، وحنفية الماء التي كانت قطراتها تنحدر كالابر، في ذلك السكون، تتحول الى مجال للتسلية وقتل الوقت حين يبدأ بعدها، او حين يفتح الحنفية الى اقصاها. أما الحشرات التي كانت تموج دون ان يلتفت اليها احد او يزعجها فلا تلبث ان تصبح هدفاً للانتقام الذي لا يعرف التوقف او الرحمة!

لكن مثلما هي الحياة نزوة، وقد تكونت نتيجة الصدفة، فان معظم ما توحي به

او تصنعه نزوات ايضاً. فبعد هذيان الليل، والذي ولدّ احزاناً كثيفة ربضت على الصدر بثقل، وكأنه حالة اختناق، لساعات مستمرة، في اليقظة والمنام، فان النور الضعيف المتسرب من بلاطات السقف، والذي يعني ان يوماً آخر قد بدأ، يحمل معه افكاراً واسئلة تختلف عن افكار الامس واحلامه. يصبح الحفاظ على الجسد امراً بالغ الاهمية من اجل الاستمرار ومن اجل مواجهة الأيام القادمة، ولذلك فان «الرياضة»، بمقدار ما تسمح به الزنزانة (!) هي الصفة الاساسية لبدء نهار جديد. وان يكون الانسان رياضياً فمعنى ذلك ان يتحول الى طفل، وهكذا، فمع الحركات احلام الاطفال ونزقهم، فيتذكر نفسه حين كان طفلاً، ثم حين سُرقت منه طفولته وتاه في هذا العالم الوحشي. ومع حبات العرق التي تتساقط، وبسرعة تزيد يوماً بعد آخر، يدرك انه لم يعد شاباً او قوياً، وان ما سُرق منه اكثر من الطفولة والشباب!

وهكذا اذا بدأ كل يوم جديد برغيف وبضع حبات من التمر اوالزيتون ،تمدها يد محايدة ومعادية في نفس الوقت، فان ذلك اليوم الذي بدأ هكذا ما لبث ان اخذ مساراً جديداً.

كان يوم الجمعة، بداية الشهر، وكان قد انقضى على وجودي في الزنزانة مدة تزيد عن ثلاثة اسابيع، ولاول مرة اسمع كلام انسان:

- عصّب عينك واستعد!

قالها الحارس من وراء الباب، وقبل ان يفتحه!

خلال لحظات لا يمكن قياسها لفرط دقتها المتناهية، ومن كلمات قليلة، يتغير تفكير الانسان ومزاجه، تحتشد الصور والاحتمالات الى درجة لا يعرف كيف يمكن لزمن مثل هذا، وبمجرد كلمات من انسان مجهول، ان تفجّر ثم ان تراكم كل هذه الافكار والمخاوف والتساؤلات، وايضاً مشاعر التحدي.

هل جاء وقت التحقيق مرة اخرى؟ هل تجمعت لديهم معلومات تمكنّهم من النظر اليّ بسخرية، بعد ان يضعوا امامي تلك المعلومات لتقول: كم انت كاذب، وكم نحن اقوياء وقادرون؟

والتعذيب، هل يكون مثل المرة السابقة؟وخصومي، هؤلاء الذين يضربون دون رحمة، هل سأكون قادراً على ان انظر في عيونهم ومعرفتهم ؟ وهل يحتمل ان يواجهوني برفاق اعترفوا عليّ؟ وماذا سيكون موقفي وردي عليهم؟

لم يقتصر الأمر، خلال تلك الثواني القليلة، على الاسئلة والاحتمالات التي احتشدت في عقلي، فقد بدأت اشعر بآلام في اجزاء متعددة من جسدي: الرقبة والساقين والجنب الايسر من الظهر. ولا شعورياً وجدت يدي ترتفع وكأني احاول اتقاء ضربات بدأت تنهال عليّ.

ومثل طفل مطيع وخائف وضعت العصابة حول عيني، وبدأت انتظر!

لم تمر الا فترة قصيرة حتى سمعت المفتاح يخشّ في الهواء اولاً، وقد انفصل عن حزمة من المفاتيح الاخرى، ثم سمعته يصرّ داخل القفل. طق مرتين، ثم انفتح الباب الى الداخل بقوة وضرب كتفي الايمن.

امسك بيدي اليمنى وجرني. لم تكن قبضته قوية ولم تكن ودودة، كانت فقط ثقيلة. ربما هي نفس اليد التي ترمي لي الارغفة، او تمد صحن الالمنيوم المسود الأطراف. ساقني، بصمت، عبر الدهليز. لم اكن ارى من تحت العصابة، وباتجاه الأسفل، إلا مواضع اقدامنا. كانت ارضية الدهليز زرقاء قاتمة او خضراء، ولم تكن رمادية، ربما هذا الكم من النور هو الذي يعطيها ذلك اللون. واحسست، دون ان ارى، على طرف الدهليز، من جهة واحدة، ان مجموعة من الزنازين تصطف الواحدة بعد الأخرى. قد يكون صدى الخطوات، صدى خطواته هو، ما اعطاني هذا التقدير.

في لحظة ما، وبعد ان مشينا ثلاثين او اربعين خطوة، شد يدي الى الاسفل، وقبل ان يتكلم او يتركني عرفت ما يجب عليّ: وقفت.

لم اتذكر كيف قادوني الى الزنزانة اول مرة. لا اتذكر الطريق ولا المسافات التي قطعناها. كنت في حالة من الالم اقرب الى فقدان الوعي. فهل وقوفنا، هنا الان كي يفتح البوابة، او كي تُفتح له، وننتقل الى عالم آخر؟ وهل اليد التي شدت يدي قبل قليل، وبدا فيها امر اكثر مما فيها طلب، وكانت اقرب الى الحزم، هي احدى الايدي التي اشتركت تلك الليلة في ضربي، وتستعد الآن لكي تعود الى سابق وظيفتها؟

وجاء صوته اليّ اولاً:

- قف عندك ولا تتحرك!

وبعد قليل سمعت نقراً على بابٍ، ثم صوته مرة اخرى:

ـ عصّب عينك واستعد!

ماذا . . هل يحتمل ان يكون احد الذين اعترفوا عليّ ويريد ان يقودنا معاً: الجريمة والشاهد؟ ولماذا توكل المهمات كلها الى واحد؟ اين اولئك الذين تجمعوا عليّ تلك الليلة كما تتجمع النسور على فريسة؟

وسمعت خطواته تقترب مني، ثم جاء صوته:

ـ عندك عشر دقائق، ولا دقيقة اكثر، للحمام!

وبعد قليل، وبلهجة مختلفة:

ـ ومن اول دقة ادقها عليك تعصب عينك وتستعد، سمعت؟ يا الله!

وبدت يده، وهو يقودني من جديد، اكثر خشونة وحزماً. وما كاد يفتح الباب حتى جر ذاك الذي ينتظر بيد ودفعني باليد الاخرى!

كيف تنفتح ابواب الجحيم؟ كيف لو دفع الانسان في مرجل من الماء المغلي والقذر في آن واحد؟ وعين دارم الكبريتية، والتي زرتها ذات يوم، الا تعتبر رائحتها مسكاً وعنبراً قياساً لهذا الحمام العابق بروائح الدم والبول والقذارة؟

يهجم البخار المشبع بكل هذه الروائح فيُعشي العينين ويملأ الصدر والرئتين، فيصبح الانسان بحالة اقرب الى الاختناق. تنعدم الرؤية ويضيق النفس، وتزلق القدم وهي تحاول ان تجد مكاناً اقل قذارة من الامكنة الاخرى. أما الجرنان الحجريان فلا يمكن ان يقترب منهما الانسان، لانهما يشعّان لهباً والمياه تنصب فيهما!

كيف يمكن احتمال هذه الحرارة في مثل هذا الفصل من السنة؟ وهل يقوى احد من السجناء على الاستحمام بهذا الماء المغلي؟ والا يعتبر الحمام طريقة اضافية للتعذيب؟

وهذا النوع من الصابون الرخو، والذي تنبعث منه رائحة كريهة اقرب ما تكون الى رائحة الفطائس، كيف يمكن ان يضعه الانسان على جسده ولا يتقيأ؟

وتلك المناشف الرطبة، والتي تشبه اكفان الفقراء، لقذارتها واهترائها، الا

تزيد وسخ الانسان اذا استعملها؟

بعد ان نزعت ملابسي اغمضت عيني، ودون ان انظر الى المنشفة ، والتي كانت رطبة اقرب الى البلل، ومسحت جسدي عدة مرات، وحين قربتها من وجهي داهمتني رائحة القذارة واللزوجة، وربما كانت مليئة بالمخاط او المني، وبتقزز وسرعة بدأت بارتداء ملابسي من جديد، وحين سمعت النقر على الباب، صرخت بغيظ:

ـ حاضر!

عصبت عيني بسرعة، لاني كنت متلهفاً للخروج من هذا المستنقع القاتل . كنت على يقين اني ساموت اختناقاً اذا ظللت فترة اطول. ما كاد يفتح الباب حتى تنفست هواء الممر كله. كان رطباً ولذيذاً. اعطيت يدي للحارس كما لو اعطيها لامرأة ومشيت الى جانبه وقد ملأني احساس بالدوار والقذارة معاً!

هكذا كانت اول رحلة خارج الزنزانة! وفي هذه الرحلة اكتشفت عالماً جديداً: الممر،الأرضية، وجود زنزانات اخرى، واخيراً الحمام والذي لا يختلف عن الزنزانة ايضاً! وحاولت ان اكون سجيناً عبقرياً، ففي طريق العودة جعلت خطواتي واسعة ومنتظمة لعلي استطيع ان اقيس المسافة تماماً من بداية الممر حتى نهايته، عند ذاك سوف أستنتج عدد الزنزانات، وربما عدد البشر، لكن اليد السميكة الحازمة حدّت من خطواتي. قال لي الحارس وهو يشد يدي:

ـ شايفك طاير. . وين رايح، لحضن مرتك يا ابن الحرام!

ومثل من يفخر بنكته يريد ان يضحك لها الجميع فلا يضحك لها احد، شعرت بالتخاذل، فصوبت عيني الى الارض لكي اكتشف لونها الحقيقي، فقالت لي اليد دون كلمات: توقف!

وصلت اذن، وما كدت انزلق الى الزنزانة وازيح العصابة عن عيني حتى بدأت ارسم، في الخيال، مصوراً للمكان كله، وكأني قائد عسكري يخطط للاقتحام، ويريد ان ينقذ الاسرى باقل الخسائر او دون خسائر! حسبت عدد الزنازين، عدد المحتجزين، الابواب الرئيسية، ابواب النجاة، وقت تبديل الحرس، ولا اعرف اية تفاصيل اخرى ضرورية لنجاح العملية! . . توصلت الى بعض النتائج! اعتبرتها بداية هامة ويمكن ان تقود الى تطورات اهم في المستقبل، خاصة اذا طالت الاقامة هنا!

تماديت اكثر وقلت: يجب ان اتخيل السجن كله، ولابدأ بالذين مروا قبلي في هذه الزنزانة.

كانت ملامحهم، اول الامر، مشوشة، متداخلة، لكن وانا امعن النظر الى الجدران، بدأت الملامح تتضح، فالكلمات المكتوبة تقول كيف كان كل واحد منهم. الخطوط الهادئة، المحفورة بثقة، ربما بمسمار حاد، تؤكد على الصمود، وتطلب من كل جديد ان يتحمل ويتماسك، لان السجن مهما طالت ايامه لا بد ان ينتهي. وكلمات اخرى تقول ان الجلاد جبان وغدار. وكانت هناك شتائم بذيئه وادعية، ولاحظت ان كلمة تتكرر اكثر من غيرها وهي: الصمود!

وعلى الجدران ايضاً رسوم. كانت خطوطاً واشكالاً فجة اقرب الى البدائية، لكنها كلفت وقتاً حتى اصبحت هكذا. كنت اقترب وابتعد، بمقدار ما تسمح الزنزانة، لكي اراها بشكل افضل. ولم اتردد في ان اميل برأسي، ان اضع راحة يدي امام عيني لاحجب جزءا من «اللوحة» في محاولة للتمتع بها اكثر، ولتحديد مدى الاتقان والتناسب بين اجزائها! وتجرأت اكثر من مرة لان اضيف اليها، وان اغيّر بعض التفاصيل، واغلب الاحيان كنت أتوصل الى لعبة يمكن ان تحّول السجين الى فنان، وتجعله يقضي وقتاً ممتعاً وطويلاً دون ان يحس بالزمن!

أما الاسماء التي قرأتها على الجدران فقد جعلت ملامح الذين مروا تتضح وتبين اكثر من قبل. قلت لنفسي بفرح، وقد اكتشفت شيئاً خطيراً: «ما دام كل هؤلاء خرجوا من هذه الزنزانة فلا بد ان اخرج» طربت لهذه النتيجة وصفقت!

تمددت على السرير، لم اشعر منذ اسابيع انني نشيط كما انا الآن، ربما زالت طبقة سميكة من القذارة عن جسدي، وقد تم ذلك بفعل البخار. تفتحت مسامي وعرقت. ولأول مرة اغرق في نوم عميق خلال النهار!

لم اصحُ من نومي الى على دقات وجبة العشاء!

ما كدت افتح عيني، واميز ما حولي، حتى سمعت صوتاً كالعواء، كان نحيباً موصولاً تتخلله، بين فترة واخرى، كلمات توسل مليئة بالاستعطاف. وما تكاد تخبو او تتلاشى حتى ينفجر البكاء من جديد. هكذا بدأ، وما ان مرت دقائق حتى سمعت صوتاً آخر كان بين الغضب والتحدي:

ـ حاكمونا واحكموا علينا بالاعدام يا اولاد الكلب، اما ان تتركونا هكذا فلا!

ويمتد الصمت ثقيلاً موجعاً، لكن هذا الصمت لا يطول، اذ يرتفع صوت البكاء مرة اخرى، ثم يعود صوت التحدي:

ـ اذا كنتم شجعاناً فلنحتكم الى الشعب..

وبعد قليل:

ـ ولا بد ان تعرفوا، يا ايها المجرمون، ان حكم الشعب لا يرحم!

واذا يصل الى هذه القناعة، ويطمئن اليها يدوي صوته:

ـ «اذا الشعب يوماً اراد الحياة فلا بد ان يستجيب القدر».

واسمع اصواتاً متفرقة، متباعدة، وايضاً غير واضحة، ثم يأتي صوت البكاء مرة اخرى!

ظل الامر كذلك لبعض الوقت، ولان احداً من الذين وراء الاسوار لم يسمع ولم يستجب فقد تطامن صوت التحدي الى ان توقف، وتراجع صوت البكاء الى ان لم يعد يُسمع.

ولان وضعي في ذلك اليوم يختلف عن الأيام السابقة، نتيجة «الحمام»، او ربما للحرارة التي تضاعفت عند اول المساء، وكأنها موجة كثيفة حطت وطغت على كل شيء، فقد قدرت ان الآخرين لا يختلفون عن وضعي، فالاجساد، في مثل هذه الحالات، رغم ما يبدو عليها من رخاوة، تشتعل من الداخل، تتحرك فيها اشياء كانت نائمة او ساكنة، وهذا ما يدفعها لان تتصرف هكذا!

ومثلما رسمت صوراً للذين سبقوني الى هذه الزنزانة، بدأت ارسم صوراً للذين حولي.

قدرت ان عددنا يتراوح بين العشرة والخمسة عشر. ولا اعرف لماذا بدأت افكر بهذا الذي لا يكّف عن البكاء. قدرت ان عمره بين العشرين والثلاثين، قمحي اللون، سمين او اقرب الى السمنة، مربوع الطول. من مواليد برج العقرب! الاوسط بين اخوين، كان متزوجاً واختلف مع زوجته، وهما مطلقان او على وشك الطلاق (حين قبض عليه). يحب الاكل والنوم، وحين يصحو لا يعرف ماذا يفعل.

قلق واقرب الى الكآبة، ولا بد ان حفلة استقباله كانت قاسية او لم يتوقعها، مع ان جسده يحتمل. مضى عليه بين الشهرين والثلاثة، ولم يعد قادراً على الاحتمال اكثر، ولذلك فان وسيلته الى الخروج هي البكاء!

وقدّرت ان الذي يتحدى تجاوز الثلاثين ببضع سنوات. اسمر، طويل القامة، ناحل الجسد. من مواليد برج الثور! وهو اكبر اخوته. متزوج وله ثلاثة اطفال. امه لا تزال حية وقوية، وهي على وفاق مع زوجته. اشتغل في عدة اعمال وفشل نتيجة عدم الحرص، والثقة الزائدة بالآخرين. ولا بد ان يكون من عائلة كبيرة او عشيرة قوية!

ولا اعرف الى اين وصلت وانا استعرض شخصيات الزنازين الاخرى، لكن شعرت انني اصبحت اقرب الى هذاالعالم،وبدأت اتعرف اليه افضل من قبل، قلت لنفسي، وانا استعد للنوم: «سيصبح كل هذا، في يوم من الأيام، جزءاً من التاريخ، والتاريخ لا ينسى ولا يرحم او هكذا يجب ان يكون!».

اليد ذاتها، او اخرى تشبهها تماما، هي صلتي الوحيدة مع العالم الخارجي. فلهذه اليد اوقات ثابتة لا تغيرها، حين تدق الباب، وهي تفتح الكوة، ثم وهي تلقي الطعام وتمضي دون كلمة!

من خلال هذه الصلة كنت احس ان العالم الخارجي، العدو، لا يزال موجوداً. ولان حرارة الصيف تزداد يوماً بعد آخر، ومع الحرارة التعرق، يضعف الجسد ويخبو، «والرياضة» التي كانت متعة ونزقاً، وايضا لمواجهة المرحلة القادمة! لم تعد فيها تلك المتعة، ولا يمكن ممارستها، لان الجسد، ومنذ ساعات الصباح الاولى، يبدو متعباً. اما الهواء الذي كان يصل في اوقات سابقة، رغم نتانته، فقد اصبح الان مثل غيمة رصاصية، او مثل من تربط على وجهه خرقة مبللة كريهة الرائحة، يضيق النفس، فتلوب الروح، ويحس الانسان انه منهك وفاقد لاية رغبة. حتى الكلمات المحفورة على الجدران، وكانت تسلية لا تنتهي، بدت الان اخاديد جافة اقرب ما تكون الى العبث، وان من خطها كان ينتقم من الجدار الأصم ومن نفسه، وهو يحفر بذلك الدأب والاصرار.

اما الزمن الذي كان دائم الجريان، فقد تحول، بتقدم ايام الصيف، الى ما يشبه المياه الاسنة، لا يتحرك ولا يتقدم الا بتثاقل، فالنور المتسرب من بلاطات السقف يابس اقرب الى الجمود، لا يتغير ولا ينتهي. حتى مواعيد تقديم الطعام اختلطت وتداخلت الى درجة لا يعرف الانسان هل ما يقدم له رغيف الافطار ام رغيف العشاء!

والهذيان والبكاء في هذا الصيف ازدادا الى درجة ان الخوف بدأ يتسرب الي.

واذا كان لهما توقيت في الفترة السابقة يترافق مع وصول حامل الارغفة، فلم يعودا يرتبطان الان بأي توقيت. كان الهذيان او البكاء ينفجر في الليل المتأخر او في ساعات الصباح الاولى. وصدف عدة مرات ان استيقظت فزعاً على اصوات نواحٍ مرٍ مجنون، وقد امتزج باللطم على الوجه او الصدر. كانت مثل هذه الموجات تطولُ وتتنوع، ولم تعد مهمتها التنبيه او الاحتجاج.

ان البكاء، في مثل هذه الاوقات، وبالطريقة النائحة الموصولة، يترك في الروح ندوباً لاتزول،ويولد حالة من التوتر تمنع النوم او التفكير بأي شيء سوى متابعته وانتظاره. كنت اقول لنفسي، بعد ان يهجرني النوم واجلس على الدكة كالمعاقب: «هؤلاء الناس يبكون انفسهم قبل ان يموتوا!».

واحاول نسيان هذا الجو، مغادرته، لكن ما اكاد استدعي وجهاً او ذكرى، الا ويملؤني احساس لا يختلف عن احساس الراعي الذي لمح ذئباً وينتظر ظهوره في كل لحظة ليبدأ بنهش الغنم، ولذلك يتعذر علي ان آنس بوجه او ان استرسل في ذكرى، لاني لا اعرف متى يَنفجر صوت النواح من جديد!

ولان الزنزانات منفصلة، وجدرانها سميكة وكتمية، وباب الواحدة بمواجهة جدار الاخرى، وهذا ما اكتشفته في رحلتي الثانية الى الحمام، فقد تأكدت ان الامكانية لاي حديث مع سجين اخر متعذرة. حتى الدق على الجدران، والوصول الى تلك اللغة العالمية للتفاهم، يبدو متعذراً وغير مجدٍ، لأن الصوت يتبدد وتتشربه الجدران قبل ان يصل.

ليس هذا فقط فان خوفاً غريزياً من «اخر» زُرع بشكل مقصود، جعل كل واحد ينطوي على نفسه كالسلحفاة، فلا يحاول ان يعرف ساكن الزنزانة المجاورة او التهمة التي اوقف منأجلها،ولذلك كان العالم الداخلي هو الرفيق الوحيد للسجين، منه ينطلق واليه يعود.

وان يكون الانسان مدخناً ويحرم من التدخين لا يقل صعوبة عن التعذيب الجسدي. لكن السجين يتعود تدريجياً في الزنزانة على ما هو متاح، وينسى عاداته القديمة، والا فان معاناته ستزداد، وسوف يضطر الى تنازلات اضافية.

اتذكر الشهيري: اشعل سيجارة ورمى علبة السجائر على الطاولة باستهتار،

اصبحت العلبة بيني وبينه، نفث الدخان في وجهي وقال، وهو يبتسم:

ـ دخن سيجارة، فانا اعرف انك تدخن!

ـ توقفت عن التدخين!

هكذا رددت بصلابة، وانا احاول عدم استنشاق الدخان. قال بسخرية:

ـ اذا نفخت سيجارة فليس معنى ذلك ان تعود الى التدخين، ويمكن للسيجارة ان تريح اعصابك وتجعلنا نتفاهم بطريقة أفضل!

ـ شكراً، لا اريد!

ـ انت هاوي عذاب، تحب ان تعذب نفسك وتعذب الاخرين!

وضحك بتشفٍ ثم اضاف:

ـ واذا كنت تظن ان السجائر مشكلة فابشر، بدل العلبة علبتين يومياً!

ـ قلت لك: تركت التدخين ولن اعود اليه مرة ثانية!

في الايام الاولى، بعد ان خفت الالام، كنت افترض انني سأكون اقوى على احتمال الزنزانة لو استطعت تدخين ثلاث سجاير يومياً: واحدة بعد الفطور، والثانية بعد الغذاء، والاخيرة قبل ان انام. كانت هذه الامنية تراودني كثيرا، لكن نظراً لاستحالتها فقد حاربتها بشراسة. كنت اقول لنفسي: «ليس أكثر ذلاً للسجين من أن تسقطه سيجارة، ولذلك علي ان اتخلى عنها دون اسف». وفي محاولة لاقناع نفسي أكثر بدأت اتذكر مضار التدخين، والامراض التي يسببها! ولم انس تلك القصة التي لم ينفك عمي يرددها على مسامعنا، في محاولة غير مباشرة لاقناعنا بضرر التدخين، «لما كنت ابني بيتي كان معلم البناء، ابو نديم، لا تنزل السيجارة من بين شفتيه. كان يولع سيجارة من طيز سيجارة دون ان يستعمل الكبريت، كانت عادتي ان احاسب العمال اسبوعياً، كل يوم خميس. سألت مرة معلم البناء: كم تصرف على شراء السجاير يا اسطه؟ فقال كذا. قلت له هذا يعني في الاسبوع كذا. حسمت هذا المبلغ واعطيته الباقي. استغرب، نظرت اليه وابتسمت، وبعد ان انتهيت من محاسبة جميع العمال التفت اليه وقلت: اعطني كبريتاً يا اسطة. مد الي بعلبة الكبريت. استخرجت عُوداً واشعلته وقربت الورقة النقدية التي تعادل ثمن السجائر

في اسبوع من عود الكبريت. صرخ ابو نديم: «حرام يا حاج تحرق الرزق». رميت عود الكبريت على الارض وقلت له: وانت يا اسطة، ماذا تقول فيمن يحرق فلوسه ويتلف صحته؟» وينهي عمي قصته بان يقول: «ومن ذاك اليوم توقف ابو نديم عن التدخين نهائياً!».

واذا كان من الصعب، وربما من المستحيل، التعود على الزنزانة او التآلف معها فلا بد من احتمالها كامر واقع، ويجب ان لا يبلغ الضيق بالسجين الى درجة يعتبرها عدواً لا بد من التخلص منه باي ثمن وباي شكل.

حتى هؤلاء الذين كانوا يبكون ويستغيثون في اواخر الليل، او حين توزع الارغفة، كانت ترفض توسلاتهم، لان الهدف ان يسحقوهم أكثر مما فعلوا حتى الان، لكي يجبروهم على تقديم تنازلات أكبر، وليعطوا الاخرين درساً حياً عما ينتظرهم!

كنت في لحظات كثيرة احس بالغضب الى درجة القهر، وتصورت نفسي قادراً على القتل لو انني املك سلاحاً. سأقتل أكبر عدد من الجلادين ثم سأقتل نفسي، أما ان اسلم بما يريدون، ان اعترف، فهذا لن يفرحوا به مهما احاطوني باؤلئك النواحين والذين سقطوا، وينتظرون فقط عطف الجلاد كي يخرجوا من هذا المكان.

لقد ادركت منذ لحظة القبض عليّ ان ما ينتظرني الكثير، وتأكدتْ لدي هذه الحقيقة والشهيري يقول لي:

- نحن نعرف عنك كل شيء،ولكن نريد منك ان تطّلع كل اللي ببطنك، وحنا وياك والزمن طويل، يا حديدان!

ولاني لم اتكلم فها هم يجربون اسلحتهم الواحد بعد الاخر، لكن يجب ان اثبت لهم كم يحتمل هذا الجسد الضامر، ومن أكون!

لقد اتاحت لي الزنزانة ميزة واحدة، اذا صح مثل هذا الوصف، وهذه الميزة تتلخص بالتالي: مراجعة كل شيء، واستعادة وتقييم المواقف التي ترفع رأس الانسان او تذله.

تذكرت الكلمات التي تتردد بيننا عن الذين اعترفوا وسقطوا، وكيف كنا نعاملهم وكيف كان ينظر لهم الناس. كنا نطلق عليهم: الجثث المتحركة، او موتى

برسم الدفن، وكنا، نتجنبهم كما يتجنب الانسان الطاعون. وحتى الناس البسطاء الذين لا يعملون بالسياسة كانوا لا يجلسون معهم،وحين يسألون عن ذلك يرددون:

ـ اذا خانوا جماعتهم وانكروا الخبز والملح فشنهو اللي تترجوه منهم؟

ومرت صور الذين عملوا مع «الجهاز» بعد ان اعترفوا، ظل الجهاز لا يثق بهم، يتعامل معهم بحذر، وهم في محاولة لاثبات جدارتهم في العمل الجديد كانوا يندفعون الى اقصى حدود التطرف والمبالغة، ومع ذلك ظلوا ابناء الجارية!

اتذكر لما سقط عوض واعترف، اذ بعد ان رفضت توبته ولم تقبل عودته للتنظيم، ولم يقتنع او لم يستطع ان يكون واحداً من «الجهاز»، فقد اختار يوم الخميس، وفي السوق، عند الظهر، وانهى حياته. انتحر امام المثات. وبعد ان حمل من المكان وغطيت بقع الدم بالتراب، وبعد ان عرف سبب انتحاره، فقد قال الكثيرون، وكأنهم يخاطبون انفسهم:

ـ الحكومة تذبح الجمعة، بعد الصلاة، وهذول اللي لا دنيا ولا دين، واللي صاروا مثل معايدي القريتين، يذبحون ارواحهم بايديهم يوم الخميس.. وقبل الصلاة!

وتذكرت ابن رشود، فبعد ان سقط اصيب بالانهيار ثم جن، وظل يدور في الشوارع ويشتم الحكومة ويشتم نفسه لانه اعترف، الى ان سحقته سيارة مجهولة وقتلته!

واضاءت الزنزانة وامتلأت بروائح الربيع حين تذكرت عثمان المصلح. ظلوا يعذبونه ليل نهار لكي يقر بما اعترف عليه الاخرون، ولكنه لم ينكر ما يقولونه فقط انكر معرفته بهم. وحين وضعوا امامه الصور التي تجمعه ببعضهم، قال كلمة نقلها عنه الكثيرون، قال:

ـ كنت اعرف هؤلاء، ولكن هؤلاء ماتوا، وهذه الصور ليست للذين امامي!

استمروا بتعذيبه ثلاثة ايام بلياليها، ولكنه لم يعترف، وكل يوم تعذيب اضافي يجعله أكثر اصراراً وعناداً. في اليوم الثالث، عند الغروب، مات!

وموران التي شيعته كما لم تشيع واحداً من ابنائها، ظلت تردد كلماته، وتشيد بصلابته. قال ابن غريفة لما وصله الخبر:

- الموت، يا اولاد الحلال، حق، وما من احد يفلت منه؛ لكن الفرق بين موت وموت، ان موت يرفع الرأس، وموت ما يذل راس الميت وحده يذل عشيرته وديرته الى قيام الساعة . . .

وظل يردد لنفسه ولمن حوله بصوت خافت:

- ومن لم يمت بالسيف مات بالحذا او بالعصا وموت ابن مصلح، يا جماعة الخير، يتمناه كل ابن حرة!

تذكرت هذه القصص وتذكرت غيرها، وتوصلت، بهدوء الى نتيجة حاسمة: الزنزانة، مهما امتدت ايامها، لن تهزمني!

ولان حرارة الصيف تزداد يوماً بعد يوم وتتضاعف حرارتها في الزنزانة، ولان ايام الصيف اخذت تطول ولا تكاد تنتهي، لذلك بدأت الابحار الى الداخل، الامر الذي جعلني لا اترك حادثة او علاقة الا وحاولت ان احاكمها وموقفي منها، كنت اتساءل كيف كان سلوكي وعلاقاتي مع الاخرين؟ هل اسأت لبعض الناس او ظلمتهم في فترات سابقة، ولماذا؟ والاخرون. . . كيف كانوا ينظرون الي وكيف تعاملوا معي؟ تذكرت قصصاً كثيرة، بعضها حزين وبعضها الاخر جعلني ابتسم ثم اضحك. وان يحزن السجين فامر طبيعي، وليس بحاجة الى اسباب تحرضه، اما ان يضحك. . .

لقد قبضت على نفسي مرات عديدة وانا اضحك بصوت عالٍ. وان اكون هكذا، وفي هذا المكان، اشعر بنوع من الفخر والاطمئنان، اقول لنفسي، وهزات رأسي تتوالى كأي حكيم «الانسان مخلوق جبار، قوي وذكي، لأنه قادر على تحمل المصاعب، وتجاوزها» وحين اقلب نظري في الزنزانة اجر نفساً عميقاً واضيف: «والارادة وحدها هي القادرة على مقاومة الزنزانة». هكذا كانت الأيام تتوالى.

وانقضى الصيف كله وانقضى الخريف.

باب الزنزانة يفتح مرة واحدة في الشهر، توضع العصابة على العين، ويبدأ المشوار اياه الى الحمام. واذا كانت المياه المغلية عقاب اشهر الصيف، فان المياه الشديدة البرودة اصبحت عقاب الايام الاخيرة من الخريف ثم الشتاء الذي تلاه.

ذات يوم، بعد الحمام باسبوع تقريباً، وفي غير ساعات توزيع الارغفة، سمعت النقر على الباب، ثم الصوت:

ـ عصب عينك واستعد!

الى اين هذه المرة؟ هل سحقت بما فيه الكفاية وحان وقت التحقيق؟ هـل تجمعت لديهم الادلة الكافية لكي يواجهوني بالوقائع والشهود ثم لاصدار الحكم؟ وهل حصلت احداث في العالم الخارجي تستدعي سؤالي؟ وعشرات الاسئلة الاخرى خطرت.

ومثل برق خاطف لم افوت على نفسي فرحاً او وهماً بالفرح: ماذا لو انتهى هذا النظام وجاء نظام صديق؟ لكني لم استرسل في هذا الوهم أكـثر من لحظة، قلت لنفسي: «الاصدقاء يتعاملون بطريقة مختلفة، وهؤلاء لا يزالون اعـداء وسيبقون كذلك حتى النهاية».

عصبت عيني ووقفت انتـظر! ومثل المـرات السابقـة: انفصل المفتـاح عن الحزمة، دخل القفل، انفتح الباب. لكني ابتعـدت عنه هـذه المرة لكي لا يلطم كتفي، امسك الحارس بيدي وجرني. كانت قبضته قوية ومعادية. قدرت ان النية سيئة وما ينتظرني لا يبشر بخير، تأكد عندي هذا التقدير حين تجاوزنا الحمام ببضع خطوات، لما انفتح الباب، ربما باشارة من الحارس، بدأت اسمع اصواتاً. كانت الاصوات غير واضحة وجافة. بدأ جسدي يتصلب وينشد، اذ يحتمل ان تتهاوى عليّ الضربات في اية لحظة.

اجتزنا الباب ثم باباً آخر. شد الحارس يدي الى اسفل. وقفت كما تقف دواب الحمل اذا شدت ارسانها. قال، وكان صوته امراً:

ـ قف عندك، لا تتحرك ولا تلتفت!

اسمع اصواتا ونداءات. الساحة مكشوفة لان الهواء الخريفي يتدفق بغزارة ومن جميع الجهـات. اسمع حركة حولي لكن لا استطيع ان اميزها بدقة من اين تأتي والى اين تذهب. وهذا المكان الذي اقف فيه... هل هو ساحة التعذيب ام ساحة الرمي او ربما محطة صغيرة بين مكانين؟

سمعت دحرجة برميل. اجفلت. اقترب البرميل كثيراً مني قبل ان يتوقف. سمعت اصوات سكاكين او ما يشبه ذلك. همس غير بعيد، ثم خطوات تقترب. ماذا... هل يريدون ذبحي وها هم الان يسنون سكاكينهم؟ ولماذا الهمس وتلك الحركات المحاذرة؟

اقترب مني الحارس، ولا اعرف ان كان هو الذي قادني الى هنا ام واحد اخر، وبطرف عصا او قضيب حديدي وخزني بقوة وقال:

ـ انزع العصابة!

هل يريدون ان اراهم وهم يطلقون النار، لاني بعد لحظات سأكون المسافر الى الابد، ولن استطيع نهائياً ان اكون الشاهد الذي ربما يخافون منه اذا بقي حياً؟ هل يتلذذون وهم يرون الضحية تنظر الى عيونهم لحظة الذبح؟ ولكن ماذا لو اطلقوا النار بسرعة وانتهوا من هذا الواجب الثقيل دون ان تلاحقهم تلك النظرات التي لن ينسوها حتى اخر يوم في حياتهم؟

تراكمت الاسئلة والانفعالات وانا ازيح تلك العصابة السوداء عن عيني. ما كادت الشمس تدهمني حتى شعرت بانفعالات غريبة ومتلاحقة: الحزن والفرح معاً، الرغبة في التحدي والاستسلام الى الضوء الباهر والهواء الذي يملأ الساحة كصيغة من صيغ الاندماج بالحياة وان اصبح مرة اخرى جزءاً منها، النظر الى عيونهم دون خوف، ومحاولة رسم ملامحهم وحملها معي الى اخر الدنيا، وتحت التراب، لتكون مصدراً لحقد قد تولده شجرة تقوم ذات يوم فوق قبري، ويأكل من ثمارها انسان، ويعرف كم من المرارة والقسوة عانى بشر تلك الفترة!

كانوا ثلاثة: الحارس الذي قادني او واحد مثله، يقف الى جانبي مثل ديك هرم: ملابسه مهترئة رغم عنايته بها، ووجهه فقير. حارس اخر يقف عند البوابة البعيدة مقابلي، وثالث لا يمكن ان تكون له اوصاف ثابتة، ولقد تأكد لي ذلك حين بدأ العمل.

تقدم هذا الشخص نحوي. كانت خطواته بطيئة، وربما كان اقرب الى العرج. جسد ضامر وكأن الملابس التي يرتديها عثر عليها بالصدفة وفي اخر لحظة قبل ان يدخل الساحة، فقد كانت فضفاضة يخب فيها بصعوبة. دون كلمات اشار الي لكي اجلس، كان يحمل بيده مقصاً والة حلاقة قديمة صدئة.

يريدون ان يقصوا شعري ويحلقوا لحيتي؟ عجيب امر هؤلاء الناس!

لم اصادف في حياتي انساناً يكره العمل الذي يقوم به قدر هذا الحلاق. كان له ثأر مع شعري، مع لحيتي، وقد ساعدته على الانتقام مني تلك الادوات التي يحملها!

ليس ذلك فقط ،كانت ركبته وسيلته في التعبير. اذ ما كاد يبدأ بجز شعر رأسي ، ونتيجة القذارة الشديدة، والتي تراكمت خلال شهور متلاحقة، بحيث كان من الصعوبة على المقص ان يدخل في هذا الشعر المفتّل واليابس، حتى يضطر لأن يلكزني بركبته من أجل ان آخذ وضعية تساعده على ان يجمع حزمة اكبر من الشعر، ويعد ان يلويها حول كفه، يمرر المقص لكي يجزها. ولأنه يريد ان يتحكم بالرأس، لا بد انْ يقترب مني الى اقصى درجة لكي يكون قادراً على السيطرة، لكن رائحتي، رائحة الجسد ورائحة الملابس، تجعله يدوخ، ولذلك يلكزني ،مرة اخرى، بركبته، لكي اتيح له وضعاً أفضل!

عدة مرات انفصل عني لأنه لم يعد يطيق رائحتي. كان يبتعد خطوات لكي يستنشق هواء نقياً، واسمعه يتمتم ، ولا اعرف ان كان يشتمني ام يقدم مجرد وصف:

- ريحة الخنزير احسن من هذه الريحة. اف!

ويقترب ببطء، لكن حركة يده السريعة تريد ان تخلص من هذه المهمة الشاقة، ومقصه الأعمى لا يطاوعه، وشعري المفتول يعاند!

لا استطيع ان اقدر عدد الجروح التي تركها في رأسي. كنت احس آلاماً في مواضع متعددة، وكنت أرقب المقص وهو يتعثر، ثم الماكنة وهي تهمد بعد ان تعذر عليها الاستمرار، فيضطر لأن يفك البراغي وينفخ بقوة لكي يزيل عنها الشعر والأوساخ التي علقت بها.

وهو يزين لي لحيتي كنت ارقب عينيه الحاقدتين القلقتين. حالما تلتقي نظراتنا كان يشدّ شعر اللحية، كما لو انه يشد لحية تيس، لكي اخفض رأسي او ارفعه قليلاً. كان يروق لي، في بعض اللحظات ان اضحك، ان امسك يده، ان اقوم نيابة عنه بهذه المهمة، لكن الصرامة التي كانت تميز حركاته، وتلك الملامح الجامدة، كانت تجعلني اتابع الشعر المتساقط، واتحسب للآلام المتوقعة في كل حركة.

قال للحارس، بعد ان انتهى:

- جزّ صوف الغنم اسهل الف مرة، ورائحتها احسن من هذه الجيف!

حين رأيت شعري وقد اصبح كومة امامي ، شعرت بالبرد، وبأني انسان آخر.

قلت لنفسي: «كلانا كان في غنى عن هذا العذاب»!

وبدأت تثور الأسئلة من جديد: وماذا الآن؟ واية فائدة لهم في ان اظل كما كنت او ان اصبح حليقاً؟ وهذا «الحلاق» الذي اتعبته هكذا، واصبح لي عدواً، الم يكن الأفضل لنا لو تجنبنا هذه اللعبة السمجة؟

والحارس الذي كان غائباً في عالمه الخاص طوال فترة الحلاقة، وقد سمعت خطواته تبتعد، وربما انتحى مكاناً واخذ يدخن، انبثق فجأة، كما لو ان الأرض اخرجته:

- انهض. عصب عينك واستعد!

لم اعرف كيف اعصب عيني هذه المرة بسرعة، وكأن زوال الشعر غيّر في التضاريس كلها، انزلقت العصابة بعد ان افترضت ثباتها. وخزني بعصا او بقضيب في جنبي وصرخ:

- عصب عينك مثل الأوادم يا خنزير!

قدرت ان ما ينتظرني سيكون صعباً، لأن لهجة الحارس اصبحت معادية واكثر حدة. قلت لنفسي بسخرية: «الذين سيستقبلونني الآن يريدونني كالعريس: نظيفاً، معطراً، مهفهفاً... ونير وخضير وعريس الزين يتهنا!»

امسك بيدي وجرني. انفتح باب، دخلناه، سرنا مسافة عشر خطوات او اكثر قليلاً، شد يدي، ومثل كل مرة وقفت. قال وهو يتركني:

- لا تتحرك ولا تلتفت!

احسست اننا اصبحنا تحت سقف، لأن صوت الأقدام اختلف، والدفء الذي كان يملأ الساحة غاب، الصمت يشمل المكان. سمعت من بعيد باباً يفتح. عاد الي بعد قليل وجرني. مشينا عشرين خطوة. شد يدي، وقفت. دق باباً وفتحه. دخلنا. شد يدي. وقفت. تركني وسمعته يتحدث الى شخص همساً. قال لي بحزم!

- انزع العصابة!

نزعت العصابة ونظرت. كنت في غرفة. الغرفة المعتمة قليلاً وباردة رجل مسّن يضع نظارات سميكة على عينيه، وتغطي اكمامه، حتى الكوعين، لفافات سوداء وُضعت فوق القميص كان وجه الرجل محايداً، وكأنه جزء من الغرفة!

اشار الرجل بيده الى الحارس ان يبتعد قليلاً. اقترب مني، نظر الي نظرة باردة. قال:

- قف هكذا ولا تتحرك.

ذهب الى الزاوية، وفجأة اكتشفت وجود آلة تصوير. صوّر ثم اقترب مني مرة اخرى، ادارني كما يدير الانسان حجراً، فلما اصبحت بوضع جانبي، قال:

- قف هكذا ولا تتحرك.

التقط الصورة الثانية؛ اقترب مني وادارني، من جديد بشكل معاكس، فعل ذلك بحزم لم يبلغ درجة القسوة، وقال:

- لا تتحرك!

بعد ان التقط الصور، اشار بيده، دون كلمة، الى انه انتهى. صرخ الحارس، وكأنه يؤذن:

- عصب عينك، واستعد.

فعلت ذلك، لكن العصابة ابت الا ان تعاند، وكأن الصورة، بعد زوال الشعر، جعلاني اتغير. انزلقت العصابة حين بدأنا نتحرك. وخزني بعصا او بقضيب حديدي وصرخ:

- قلت لك عصب عينك يا ابن الكلب.

- فعلت ذلك، وزيادة في الحيطة ظللت امسك العصبة باليد الطليقة طوال المسافة الى ان وصلنا الى الزنزانة مرة اخرى!

بدخول فصل الشتاء اخذت الأمور تزداد تعقيداً وصعوبة، بدأ المرض، او بالأحرى اخذ يشتد ويقوى قياساً لفترة سابقة، وما جعله اكثر حدة: البرد ثم الجوع.

واذا استطعت ان اخفف من وقع المرض، او ان احتمله، فقد اصبح لا يطاق، وشديد القسوة، في المرحلة الجديدة.

لا اعرف من اين كان ينبع كل هذا البرد او كيف يتدفق. فالهواء لا زال ساكناً ثقيلاً، لكنه امتلأ ببريق حاد وخاز كأنه الانصال، فما اكاد اخرج يدي من تحت البطانية حتى ترتد وكأنها لامست حديداً محمياً. أما قطرات الماء التي ابلل بها يدي لكي امسح وجهي في الصباح فانها تتساقط في راحتي كالحجر. والفراش الذي كنت اكره رائحته، ولم اتعودها ابداً، مع ان جزءاً منها أنا، لم اعد قادراً على مفارقته. حتى البطانية التي كانت طوال الفترة الماضية عدواً، واضطررت الى دفنها تحت الفراش طوال الصيف، وخلال الفترة الأولى من فصل الخريف، استخرجتها باحتفال لائق عندما هجم البرد هكذا. واذا كنت قد فردتها على طولها في الأيام الأولى، فقد اضطررت لأن اجمع نفسي واجمعها على طبقتين!

والجوع، نعم الجوع الذي تراكم يوماً بعد آخر طوال الشهور الماضية، اصبح الآن عدواً لا يرحم.

كنت حين استلم «الأرزاق» وهي في الغالب بضع حبات من التمر او الزيتون، مع رغيف الخبز، امسك بها كما أمسك قبّرة. كنت اتطلع اليها بخوف ومحبة. كنت اقول لها برجاء. «اريدك ان تشتعلي في داخلي وان تحركي دمائي». وما ان ابدأ بالأكل، وكنت افضل ذلك بكثير من الهدوء، حتى اشعر ان كل شيء انتهى

بسرعة لم اكن اتوقعها، ولم اكن احبها! كانت التمرات تذوب، تنتهي، دون ان احس. واعاود مص النوى واحدة واحدة فازداد جوعاً!

ولأن الجوع اصبح يحاصرني هكذا فقد امتلأت الزنزانة بروائح الأكل، لم اعد احلم الا بالأكل الذي كانت تهيئه امي، خاصة في ايام الشتاء، كانت الأبخرة المتصاعدة من الموقد، ابخرة شوربة العدس وهي تـطّيب على نـار هادئـة، وقطع اللحمة التي تشوى في طرف الحوش، وتوضع في ارغفة ساخنة، ثم رائحة الليمون التي تفوح مع صنفين او ثلاثة من البهارات... هذه الروائح تدوخني.

كان يروق لي ان اقضي ساعات وانا اتذكر تلك الأطعمة، واذا صدف ان مرّ موقف احتجاج في يوم ما على نوع من الأكل، او على مذاقه، اتذكر كلمات امي وهي تقول:

- الأكل، يا ابني، حشو مصران، فاياك ان تدني نفسك، والبني آدم يقدر يعيش من حبة تمر او حفنة تراب!

لكن في هذه الزنزانة كل شيء معادٍ، ولا يمكن نسيانه!

واذا كنت طوال فصل الصيف، ثم جزءاً من الخريف، اهـرب من الفراش، واحاول في تلك المساحة ان «امشي»، فقد اصبحت، مـع تزايـد البرد، اتحصن كالخلد بالفراش لا اغادره. واذا كنت اهرب من رائحة البطانية الى اكل امي، في محاولةٍ للدفء والنسيان، فان الروائح المتخثرة والمتفسخة، والتي تتولد من البطانية والأنفاس تجعلني اختنق، وما اكاد اخفف منها، بعد ان اصبحت روحي مثل فراشة لائبة، حتى يهجم البرد من جديد. كانت لسعاته كالدبابيس!

في ليلة من ليالي كانون استيقظت على صوت بكاء. كان البكاء يشبه عواء كلب جريح. بعد ان فركت عيني لأتأكد، وحين انفجر الصـوت من جديـد، لم استطع ان انام. جلست في السرير واحكمت وضع البطانية حولي بانتظار الصرخة التالية. ابتعد صوت البكاء او غاب. ارتخت البطانية وسقطت عن كتفي، قلت لها برجاء «البرد قوي لكن الدم اقوى. وانت فيك شيء له علاقة بالحياة، او هكذا افترض، فالذين احتموا بك اعطوك شيئاً من نفوسهم، ولا بد أن تعترفي بالجميل وأن ترديه إليّ... أو، وهذا افتراض آخر: انت من مخلوقات حية، من تيس او معزة، من خروف او نعجة، وهذه المخلوقات لا تبخل بجلدها ولحمها ولبنها، ولذلك يجب

ان تفعلي مثلما تفعل تلك المخلوقات، لأن من ينكر اصله لا اصل له» وتظل البطانية يابسة بليدة، وكأنها عين الجلاد، فاقول لها بغضب «المواد الملفقة قصيرة الأجل، والزيف لن يطول!».

وتزداد عداوتي للزنزانة يوماً بعد آخر. للجدران والفراش وللبلاطات في السقف ايضاً. انظر الى كل شيء باحتقار وغضب، ولأني كنت على يقين انهم يرونني، ولقد تأكدت من ذلك من المرات التي سمعت فيها اصوات اقدام محاذرة، ثم من تلك الثقوب السوداء في الجدار، والتي لم احبها ابداً، ولم استطع تفسير وجودها، فقد صممت منذ البداية ان اتصرف داخل الزنزانة كما لو انني تحت الأضواء. كنت ،

في احيان كثيرة، آخذ سمات رجل صارم او لا مبالٍ، وفي تلك المساحة التي لا تزيد عن ثلاث خطوات كنت «اتمشى»!

ولأن احداً قال لي ذات يوم ان السجين الذي يكلم نفسه بصوت عالٍ يكون اكثر استعداداً للاعتراف او للجنون، فقد قررت ان اضع على شفتي طبقة من الصمغ، وهذه الطبقة لا ترفع الا وقت الطعام!

أما الآن والمرض يشتد، وفي محاولة لتحريك لساني، فقد حوّلت اهات الألم الى شتائم. كنت اشتم بطريقة فذة، بطريقة لا يفهمها سواي!

ما كدت اصل الى هذا المستوى حتى افترضت انني جننت او في طريقي الى الجنون، قلت لنفسي:

«أكره الوعاظ، وحاملي المسابح، والحكماء الصغار، ولاعبي الورق، والمشعوذين، واولئك النادمين الذين فاتهم قطار السفر، وغيرهم الذين ينتقمون من شيء ما لا يعرفونه، لكي يشعروا برغبة الانتقام!»

في منتصف الشتاء، ودون موعد الحمام او الرغيف اليومي، وبعد البرد والجوع والمرض، قالوا لي: تعال.

في احد ايام شباط، وبعد رغيف الصباح والتمرات، قالوا: تعال!

ومثل كل مرة دق الحارس الباب للتنبيه، ولما وجدني هادئاً صرخ:

ـ حضّر نفسك وحضّر زهابك..

كان يريد ان يقول: حضر سلاحك، فقد تعود ان يخاطب جنوده هكذا، لكنه استدرك في اللحظة الأخيرة. وفي محاولة لأن يضفي على نفسه اهمية اضافية تنحنح وقال بلهجة جديدة:

ـ خلال دقيقة تكون في حالة الجاهزية ومعصوب العيون!

وماذا الآن؟ وماذا بعد؟

لم يكن لدي اي شيء احمله من الزنزانة. هل سأنقل الى زنزانة اخرى؟ الى مكان آخر؟

كلامه واضح ولا يحتمل ايّ تأويل.

نهضت. نظرت الى الزنزانة نظرة اخيرة. تأسفت اني لم اكن احمق بالمقدار الكافي لكي اخط اسمي على احد الجدران. لو اني كتبت اسمي لعنى شيئاً ما، في وقت من الأوقات، لانسان آخر: «لقد مررت من هنا. ظللت قوياً وصامداً حتى النهاية. قضيت في هذه الزنزانة سبعة شهور وبضعة ايام. لم أضعف، لم اعترف، ومثلما دخلت الى هذه الزنزانة خرجت منها مرة اخرى. الانسان اقوى من الزنزانة، اكبر منها». صحيح انني فقدت من وزني الكثير، فقدت عشرين كيلو غراماً، لكن هذه الكيلو غرامات لم تغيرني، ربما كانت زائدة، وربما لا احتاجها بهذا القدر، ولذلك اترك الزنزانة دون اسف، لكن اتذكرها جيداً، لن انساها. اعرف زواياها كلها، رغم قلتها. اعرف ايام الصيف القاسية واعرف ايام البرودة. اعرف نهاراتها كلها واعرف الليل، وها انذا اغادرها كما فعل كل الذين سبقوني. سيحل فيها واحد آخر، ربما لا يعرفني، لم يرني، وقد لا يراني، لكن تركت هنا اياماً وذكريات، ولا بد ان يكتشفها بطريقته الخاصة، وربما يتعلم منها درساً.

وخشّت المفاتيح ثم دخل واحد منها في القفل. ولأني تعلمت كيف اقف لم يمسني الباب وهو يُفتح! أما حين مددت يدي الباردة الى الحارس لكي يقودني الى المكان الآخر، فقد اكتشفت ان يد الحارس باردة ايضاً!

قلت لنفسي: ايدي الفقراء والوحيدين تكون باردة في الشتاء!

سألني المحقق قبل ان اخلع ملابس السجن، وكمحاولة اخيرة في ان يكون له دور:

ـ ماذا تقول الآن؟

ـ عن أي شيء؟

ـ هل تريد ان تتكلم؟

ـ عن اي شيء؟

قدّم لي علبة السجائر. هززت رأسي دلالة الرفض. ابتسم وقال:

ـ اعطيك الآن الفرصة الأخيرة لكي اخلصك من عذاب الجحيم: إمّا ان تتكلم، او ان اسلمك لمن يستطيع ان يجعلك تتكلم كالببغاء!

قلت وانا انظر الى عينيه:

ـ قلت كل شيء، وليس عندي ما اضيفه.

هز كتفيه، وقال لي، وكان يعني الآخرين ايضاً!

ـ اعطيناك كل الفرص، لكن يبدو ان رأسك اعند من راس التيس، ولذلك اتركك الآن لمن يجعلك تترحم على الأيام التي كنت فيها هنا . . .

ولم يتوقف، اضاف بلهجة امرة:

ـ خذوه، وهذه اضبارته!

لم يقل لي، ولم يقل للآخرين، الى اين انا ذاهب، لكن الآخرين يعرفون، وها نحن، وقبل ان نصل، يبلغونني بالبشارة : الى سجن العبيد!

حتى تلك اللحظة كنت اخدع نفسي، أمنّيها باوهام. الآن اواجه الحقيقة كلها، ويجب عليّ ان اعرف كيف اتصرف لكي احمي في داخلي الانسان الذي لا يريد ان يسقط.

في ليالي الزنزانة الطويلة كان يروق لي، بعض الأحيان، الافتراض انهم سيتعبون مني ذات يوم، او سيحتاجون الزنزانة لنزيل آخر، ولذلك سيطلقون سراحي. وتعزز لديَّ هذا الوهم لأن جلسات التحقيق التي اجروها معي لم توصلهم الى اية نتيجة، وتأكد لي ذلك اكثر حين كنت ارقب المحقق. كان في احيان كثيرة لا يستطيع ان يداري حيرته او شعوره بالضيق. كان يتركني ويذهب لا اعرف الى اين، وحين يعود ارى القلق في عينيه، وكنت ارى الرجاء.

ـ من مصلحتك يا طالع ان تعترف. وان تعترف لي افضل لك الف مرة، لأني اذا يئست منك سوف ارفع يدي، وبعدها سيأتي من يجعلك تعترف بكل شيء. وعند ذاك سوف تجر آه، وتقول: ليتني اعترفت قبل ان اصل الى سجن العبيد!

ويغير اساليبة مرة بعد اخرى. كان يفعل ذلك بعض الأحيان، في ذات الجلسة، كان يأتي بشهود يثيرون السخرية: يدق الجرس ويطلب مجيء الشاهد رقم ٤، كصيغة من صيغ التمويه لئلا اعرف اسم ذلك المخبر، وما يكاد يدخل المخبر، ويتطلع اليّ بامعان حتى يقول:

ـ نعم، سيدي، هذا هو، انه نفسه!

وحين ابتسم يحاول ألا ينظر اليّ، يقول للمخبر:

ـ الله يعطيك العافية، انصرف!

ويلتفت اليّ ويقول:

ـ لدينا عشرات الشهود، لكن اريد ان اسمع منك!

كانت التهم تتغير فترة بعد اخرى، الأمر الذي جعلني اتأكد ان معلوماتهم عني مشوشة ومضطربة الى حد كبير. يعرفون بعض الأشياء، لكن ليست واضحة او مؤكدة، ولذلك فهم يحاولون بأكثر من اسلوب، وبالقاء مجموعة من التهم، لعلهم يصطادونني بواحدة منها.

واخيراً وصلوا الى نتيجة محددة: الزنزانة، وبهذه الشروط، يمكن ان تسحقني، ان تحولني الى انسان اسلّم بكل ما يريدون واعترف بكل شيء!

وحتى يصلوا الى تلك النتيجة، فان عامل الزمن لمصلحتهم، اذ لا بد ان يقع خلال تلك الفترة صيد في شباكهم يمكن ان يكون مفتاحاً لكشف هذا العالم المجهول والمحير في نفس الوقت، اذا لم تكف الزنزانة وحدها للوصول الى ما يريدون!

ولأن تلك الفترة انقضت دون ان ادق الباب، دون ان اتوسل، ولاعتقادهم ان المرض هدني، اضافة الى النحيب الذي تزايد خلال الفترة الأخيرة، فقد حان الوقت لأن أُمتحن.

قال لي المحقق، وقد بدا انيساً، وحريصاً عليّ:

ـ حرام ان تعذب نفسك هكذا، يا طالع!

وبعد قليل وبنفس اللهجة:

ـ ولمصلحتك، ومن اجلك اريد ان اقفل هذه القضية، ولا استطيع الا اذا ساعدتني، يا طالع!

لم أجب نظرت اليه وابتسمت ابتسامة صغيرة، تابع:

ـ انظر الى نفسك، الى صحتك، الا ترحم روحك؟

ـ وماذا تريدني ان افعل؟

اقترب مني، رغم الرائحة الكريهة التي كانت تنبعث من ملابسي، من جسدي، وقال:

ـ اريدك ان تقول كل شيء: مسؤولياتك في التنظيم، علاقاتك، من تعرف، ما هي المهمات التي قمت بها، من هم الأشخاص الذين يرتبطون بك.

وحين رأى ابتسامتي، وكانت اقرب الى السخرية، لم يتابع، تراجع خطوتين الى الخلف، هرباً من رائحتي، ولكي يكون على مسافة تمكّنه من قراءة معنى هذه الابتسامة.

سألني بحيرة:

ـ ماذا تقول؟

ـ لقد قلت لك كل شيء، واكرر الآن: لا علاقة لي بأي تنظيم، وربما كنت تبحث عن واحد غيري، ووقعتُ في طريقك!

ـ لكّ، يا ابن ستين كلب، تريد تضحك عليّ؟

وابتسم بتشفٍ ثم اضاف:

ـ ولك انا اضحك على اجداد اجدادك، ومثلك شفت كثير، لكن يبدو انك متيّس ولا تفهم الا بالعصا، مثل الحمير.

ودار حول نفسه وهو يهز رأسه، وسأل:

ـ اريدك تفهمني شنهو اللي ناوي تصيره: وزير؟ امير؟ او سواق للحمير؟

وبعد قليل وبلهجة مختلفة:

- ولك ارحم نفسك وصير عاقل، لأن يباسة الرأس لا تفيد، وهذول اللي قالوا لك يمكن تصير كذا او كيت يضحكون عليك. هذول باعوك وباعوا غيرك، وعندنا في «الجهاز» منهم كثير، ومن هذي اليد ياخذون قريشاتهم، وانتم مساكين لا تعرفون، الواحد منكم مثل ثور الله ببرسيمه. فاريدك تخلص من هذا العذاب وتطلع من عندي لأهلك!

- انا لا اريد هذا العذاب، ولم آت الى هنا برغبتي وعلى رجلي، انتم جئتم بي!

- وهالحين تريد تطلع يا ابن الحلال؟

- اي نعم!

- اذن اعترف.

- قلت كل اللي عندي!

- طلعّت روحي يا ابن الحرام يا طالع، بس ما يخالف. باكر او اللي عقبه تشوف، وراح تترحم على ايامك هنا!

الآن، وهم يزّفون اليّ بشارة سجن العبيد، ويزفونني اليه، انقطع الشك باليقين. فتلك الأحلام الصغيرة التي راودتني انهارت تماماً لتبدأ بعدها رحلة العذاب الطويلة!

في القسم الشمالي الغربي من موران، على طريق العوالي، مكان محظور على الناس الاقتراب منه، اذ تحيط به اسلاك شائكة ثم اسوار عالية، اضافة الى نقاط للحراسة تمنع الوقوف او المرور.

كان هذا المكان ذات يوم سرداباً، او بئراً، «ويؤكد» بعض المتحذلقين من مزوري التاريخ ان اولاد يعقوب اختاروه ليلقوا فيه اخاهم الصغير يوسف، المدلل من ابيه، لكي يتخلصوا منه نهائياً. وبمرور الأيام، وبعد ان انقذ الصغير وكبر اصبح نبياً مشهوراً، وتحول الجب الى سجن لا نهاية له! كان يسجن فيه العصاة والذين يقطعون الطريق، ثم بدأ يسجن فيه الذين «خانوا» العهد، وأيضاً كل من له رأي يخالف السلطان.

كان ذلك يجري وموران بلدة صغيرة، أما حين اتسعت وامتدت فيؤكد الذين يعرفونها كيف كانت وكيف هي الآن، ان الامتداد والاتساع شملا الجهات كلها عدا الجهة الشمالية الغربية، لأن هناك تقع قصور السلطان. ويؤكد من يعرفون اكثر من غيرهم ان الامتداد لم يشمل تلك الجهة لأن فيها حرس السلطان ومعسكراته. أما الذين يعرفون اكثر من الجميع، ونادراً ما يتكلمون، فانهم على يقين ان امتداد المدينة في تلك الجهة مستحيل لوجود سجن العبيد!

فالسلطان الذي كان شديد الخوف والتحسب من اعدائه، تعود على «استضافة» من يقع منهم في الأسر عنده، فكان سجن العبيد المكان الذي ينزلهم فيه، الى ان يقرر امرهم. فبعد ان يستنطقهم، وغالباً ما كان يفعل ذلك بنفسه، يحدد لهم آجالهم، فيقتل من يرى ضرورة قتله، ويترك الآخرين لكي يقتلهم السجن!

الذين قتلوا، بعد ان قضوا فترة قصيرة في سجن العبيد، كثيرون. والذين ماتوا كمداً، او بالسم الذي يوضع في الطعام، لا يحصى عددهم. أما الذين قدّر لهم ان يخرجوا من السجن فقد صدف ان ماتوا بعد فترة قصيرة! رغم ان السلطان زارهم بعد خروجهم في بيوتهم، او بعث اليهم موفديه ليزوروهم، وحمّلهم الهدايا والاعتذار والحزن لما حصل، وانه لم يقصد ذلك ابداً، لكن. . . ولا يجد الموفدون ما يضيفونه سوى مبلغ من المال، هدية من السلطان تعبيراً عن المودة!

مفتاح السجن كان دائماً مع السلطان، وقيل انه كان يربطه الى حزامه، وحين ينزع ثيابه يضعه تحت وسادته! فاذا سافر او شغلته امور كبيرة اودعه لدى احد رجاله الموثوقين. ويؤكد واحد من المقربين ان السلطان في إحدى معاركه، وقد وقعت بشكل مفاجىءٍ، استبقى المفتاح معه، او ربما نسيه، الأمر الذي ادى الى موت جميع السجناء، اضافة الى ثمانية من الحرس، صدف ان كانوا داخل السجن لما تحركت الحملة!

القصص التي تروى عن سجن العبيد كثيرة الى درجة ان الانسان يتردد في تصديق بعضها ويتساءل: هل يمكن للحكام ان يكونوا بهذه الدرجة من القسوة والغلظة وموات القلب؟

واذا وجد الناس عذراً او سبباً لقسوة السلطان تجاه اعدائه، فقد حاروا اشد الحيرة وهم يسمعون الأخبار عن اختفاء بعض رجاله! اذ ما تكاد معركة من المعارك تنتهي، الا وينتهي بعدها بفترة قصيرة عدد من رجال السلطان، خاصة اولئك الذين ابلوا في المعركة بلاء حسناً، ولهج الكثيرون بذكر شجاعتهم وتضحياتهم! ولأن السلطان اعترف لهؤلاء بما قدموه، واشاد بهم امام الكثيرين، ولم يتردد في ان يقدم لهم العطايا، وان يزوجهم ايضاً، فان الاشاعات التي تطال السلطان وتتهمه بالتخلص منهم، لا تجد من يصدقها، بل اكثر من ذلك كان من يروجها يعتبر عدواً، او وقع فريسة للأعداء، ولا بد من تأديبه، ولذلك كان يوضع في مكان غير بعيد عن سجن العبيد، تمهيداً لمعرفة ما اذا تأدب ام يحتاج الى طريقة اصلاح افضل!

أما كيف اختفى هؤلاء، والى اين ذهبوا، فقد كان يشط بالكثيرين الخيال الى درجة لا تصدّق، كان يقال انهم دخلوا الصحراء تكفيراً عن قسوتهم في المعارك، وقيل ان الصحراء استدرجتهم ثم غيّبتهم وانتقمت منهم، اذ اماتتهم عطشاً، «وكان

ذلك جزاء وفاقاً لما قاموا به، دون علم السلطان ودون اذنه!» كما اكد خطيب مسجد موران الكبير حين سئل ذات يوم. وغيرهم اعتزلوا الناس في الضياع التي اقطعهم اياها السلطان. وآخرون انتبذوا الحياة الدنيا وانصرفوا الى النسك والتعبد انتظاراً ليوم الأجل، بعد ان زهدوا بكل شيء!

هكذا كان يجري الحديث، اذا جرى، عن الذين غابوا. وكان رجال السلطان يسمعون ويراقبون وينقلون، وحين يتكلمون فعن العطايا التي قدمها لهم السلطان، وعن الكلمات التي قالها فيهم. واذا استمر الحديث او التساؤل فلا بد ان يذكروا المهمات السرية التي يكلف بها السلطان عادة الرجال الذين يثق بهم، والاسفار التي يضطرون للقيام بها! ويختمون الحديث في هذا الموضوع، وهم يقولون ويبتسمون: «.. وليس كل ما يعرف يقال، والمجالس بالامانات».

كان ذلك يقع زمن المعارك والفتوحات؛ اما بعد ان انتهت المعارك، ولم يعد مسموحاً بالفتح، فقد اصبح سجن العبيد مكاناً للتأديب واظهار الغضب. قيل ان السلطان ادخل عدداً من اولاده الى السجن، وقضوا فيه بين ثلاثة وخمسة ايام، لأن هؤلاء الأولاد قتلوا اثنين من خيوله الكريمة في مراهنات بينهم وهم يتبارون بالنيشان! وقيل ان اولاداً آخرين سجنوا لمدة عشرة ايام متوالية نتيجة نزاعات استعملت فيها الأسلحة النارية، وكانت هذه النزاعات قد بدأت بين النساء!

ويؤكد بعض الذين عملوا في القصر خلال تلك الفترة ان عدداً من كبار رجال السلطان دخل الى السجن، وقد حصل ذلك مرة بعد ملاسنة حادة فيما بينهم، ومرة اخرى بعد ان شتم احد الشيوخ إمام مسجد موران الكبير!

ان ذلك جزء من تاريخ موران غير المدون، ويمكن لمن يرويه ان يفعل ذلك بالطريقة التي تروق له، رغم تأكيده المتزايد ان هذا ما شهده، او ما سمعه من رجال ثقاة!

وهذا الراوي الذي ينقل للآخرين ما رآه او ما سمعه، يفعل ذلك بتصرف لا يلبث ان يزداد مرة بعد اخرى، ويساعده الآخرون في ان يضيف او ان يحذف، حسب ما يرون ذلك اكثر ملاءمة، وهو في الحالين لا يشعر انه اخطأ بالاضافة او بالحذف!

بعد ان انتقل السلطان من القصر، ولأن الضرورة تقضي ببقاء سجن العبيد،

فقد تقرر ان يحل بالمكان وزير الداخلية، ثم حل مكانه نائبه، الى ان سُلّم الى المخابرات العامة.

لما تسلمت المخابرات العامة المكان كان السلطان الأول قد مات، وعزل ابنه، وجاء السلطان الجديد. وكانت موران قد كبرت واتسعت عشرات المرات، وكانت المخابرات قد قدمت مئات المذكرات ان المكان قد ضاق، ولم يعد كافياً لاستيعاب اعمالها او نزلائها!

في هذه الفترة، كما في فترات سابقة ايضاً، اضطر المسؤولون عن سجن العبيد الى حفر انفاق اضافية، والى وضع بوابات حديدية، والى توسيع المكان من جميع الجهات. اما السجناء غير الخطرين من القتلة والسراق، والذين يخطفون الأطفال، واولئك الذين يستعملون الأسلحة في قطع الطرق، فلا بد من ترحيلهم، وابعادهم، «لأن هؤلاء لا يؤبه لخطرهم بالمقارنة مع اولئك السياسيين الذين لا يعرف كيف انشقت الأرض واخرجتهم فجأة».وهكذا تم ترحيل السجناء العاديين، وسلّموا الى ادارة السجون، وبقي سجن العبيد للمخابرات وللسجناء السياسيين.

كتب قنصل النمسا في يومياته، بعد ان قضى في موران عشر سنين، والسبب في بقائه هذا المدة الطويلة انه كان يتقن اللغة العربية بلهجة اهل موران، ولأنه كان يهيّىء كتاباً عن هذا البلد، وقد مدّدت له حكومته فترة اقامته اكثر من مرة، نتيجة هذا السبب، كتب هذا القنصل كتاباً قرأته في المدة الأخيرة، يقول في احدى صفحاته، اعتماداً على اليوميات: «. . . وشملت الاعتقالات عدداً كبيراً من الموظفين، من مستويات متعددة، وعدداً أكبر من الطلاب والعمال، اضافة الى مجموعة من الضباط، وقيل انهم اودعوا جميعاً في سجن العبيد!

«وسجن العبيد، بكلمات قليلة، يلخص تاريخ موران المعاصر، اذ رغم ان لا احد يتكلم عنه بصوت عالٍ، وغالباً ما يذكر تورية، او باشارات غير مباشرة تدل عليه، الا انه كابوس حقيقي، اذ بالاضافة الى انتفاء الشروط الصحية، لأنه يقع بمجموعه تحت الأرض، فان الوسائل التي تتبع داخله للتعذيب تجمع بين عصرين مختلفين، اذا لم نقل عدة عصور مختلفة. فالوسائل البدائية جداً، من الضرب بالعصي، الى الربط بالجدران، الى التجويع، الى تقييد المسجون، ممداً، بجذوع النخيل، فان الوسائل الحديثة تزداد يوماً بعد آخر، ويتسع استعمالها».

ويضيف القنصل في مكان آخر: «. . . وهذا نتيجة الاستبداد الشرقي الذي يضرب جذوره في تاريخ هذا البلد. فالاعتقالات تتم نتيجة الوشايات، ولا حاجة لأية ادلة، وفي احيان كثيرة بهدف الانتقام. كما ان المعتقل لا يملك الحق في محاكمة علنية وعادلة، ولذلك فان اغلب الذين يلقى القبض عليهم يقضون فترات طويلة في السجن دون احكام، وهذا احد أسباب قلق السجناء وذويهم».

«ان شعور أهل موران بضرورة الولاء لحكامهم لا يقابله هؤلاء الحكام بمنح المواطنين الحقوق التي يتمتع بها المواطن الغربي، وقد يكون هذا راجعاً الى ضعف مبادرة الأفراد، وعدم مطالبتهم بحقوقهم، اضافة الى الاعتماد على القاعدة الدينية التي تقول ان الانسان الذي يُغبن في الدنيا لا بد ان يجازى في الآخرة، اي بعد الموت، اضعافاً مضاعفة، وهذا اعتقاد شرقي راسخ».

يمكن للقناصل ان يبعثوا بالتقارير، ان يؤلفوا الكتب، وكذلك يستطيع السفراء والرحالة ورجال الأعمال، وربما ايضاً بعض الجواسيس. قد يتحدثون عن موران الجانب الأخر، موران ايام الربيع وايام الخريف. في ساعات الشروق او ساعات الغروب، بعد ان يرتفع الأذان، وتحل تلك الساعات الشجية، والطبيعة تنتقل من النهار الى الليل او من الليل الى النهار في ذلك الجو الشديد الصفاء، اذ تتداخل الألوان وتمتزج بتفاعل قد لا تدركه الا عين الرسام، ولا تلتقطه الا روح هائمة شاعرة ترى الأشياء في تواليها وتعاقبها، كما لو ان يداً خالقة شديدة البراعة هي التي تعيد صناعة الأشياء!

ويمكن لهؤلاء ان يروا الصحراء في لحظة هدوئها وتألقها خلال احدى رحلات القنص التي ينظمها أمير من الأمراء وقد يفيضون في الحديث عن جمال مطلق وكلي، وكأنهم في حلم من الأحلام!

لا اعتراض على ما يكتبه قنصل من القناصل، لأنه هكذا رأى، او هذا ما يفيد بلده، خاصة وان ما كتبه هؤلاء يكاد يكون وحده المنشور، بعدما اصاب الخرس اهل موران او جعلهم لا يتكلمون الا همساً او بالاشارات. ولذلك فاذا غاب اهل البلاد لا بد ان يتولى مهمة الكلام احد آخر نيابة عنهم، ومن حق هذا الآخر ان يرى الأشياء، ان يفسرها، كما يشاء. ويجب ان لا نغضب اذا وجدنا شيئاً غير دقيق او لا نحبه، لأننا لم نقل ما هو الشيء الصحيح، ولم نقل ماذا نحب!

هذا الكتاب، كتاب قنصل النمسا، والذي قرأته في الأيام الأخيرة، وبكثير من العناية والحياد ايضاً، اذا جاز لي ان اكون محايداً، اضافة الى تحريض عادل الخالدي جعلني اكتب عن . .

ولكن كيف استطيع ان اكتب عن تلك الأيام، عن تلك العذابات والآلام دون ان اتحول الى غضب ماحق؟ وهل يجب ان اصبح مستشرقاً بملامح غربية لكي اتكلم ويستمع اليّ الآخرون؟ وهل عليّ ان اتحول الى مزّور ام محايد لاكون اكثر اقناعاً؟

الحياد، في اي شيء، اكذوبة كبيرة. فالانسان يحب ويكره، يفرح ويحزن. ولأنه تعلم النظر الى الاشياء بطريقة معينة فانه يقّيم هذه الأشياء وفقاً لتلك الطريقة. والذين قضوا الشهور والسنين، شهراً وراء آخر، سنة بعد سنة، في ذلك المكان العاتي الرجيم، في سجن العبيد، ولا تزال على جدرانه بقع من دمائهم واجزاء من لحومهم، اضافة الى صرخات الألم وآهات الأحزان، ان هؤلاء الناس لا يمكن ان يكتبوا عن سجن العبيد بحياد او بدم بارد!

أما كيف كنا نتصور سجن العبيد، وما هي نظرتنا، فان ذلك مزيج من الخوف، والحنين والتحدي معاً. واريد ان اغامر واقول: كالحب، او مثل العلاقة الجنسية. اذ بمقدار التهيب، والذي يصل الى درجة الارتباك، فان رغبة جامحة وخفية تدفع الانسان الى المغامرة، وعندما يصلها ويقترب منها تتولد داخله شجاعة لم يكن يتصور وجودها، او انها بهذا القدر. هذه الشجاعة الممزوجة بالعناد ورغبة التحدي والبقاء، تجعله ليس فقط قادراً على الاحتمال وانما ايضاً على التجاوز والاستمرار.

انني بمجرد الاقتراب من هذا الجو، استعادته، أشعر ان كل شيء داخلي يتغير. يتوتر جسدي واصاب بحالة من الشراسة قد ارتكب معها الحماقات كلها، بل واصبح مستعداً للحرب حتى لو كنت وحدي.

لكن باعتبار ان الأمر اصبح علامة وذكرى فلا اقل من العودة بهدوء الى تلك الأيام، من أجل ان يراها الانسان كيف وقعت ولماذا وقعت، وكأنها تعني واحداً آخر، خاصة وان هذا الآخر هو الضحية القادمة، فاذا لم يستعد لها بما يكفي فلا بد ان تأكله وتجعله غير قادر على اكتشاف شجاعته، وكيف يستطيع ان يعبر ذلك النفق المظلم من جهة الى الجهة الأخرى.

رغم الهواء الطري الذي انتشر وملأ كل شيء حولي ، فقد تصلب جسدي وزادت حرارتي وانا اتذكر سجن العبيد: عادت اليّ دفعة واحدة الصـور السوداء المليئة بالدم والعذاب ورائحة الموت، وزادتها حدة خدوش الشهورالأخيرة.ولكي اضع حداً لخوف لا اعرف كيف دهمني فجأة، قلت «من احتمل سبعة شهور بايامها ولياليها في تلك الزنزانة، وما زال حياً وفيه قوة، لا يخشى عليه وسوف يصمد!»

كانوا يثرثرون ، يتابعون احاديثاً سابقة او يتبادلون اسـراراً؛ وكانت بعض التعليقات تريد كسري: «. . . وتشوف الواحد منهم عنتر، سبع، لكن اذا وصل سجن العبيد صار جريزي، وين ذيـك النفس الحامضـة مولانـا؟ ليش تنازلت؟ ويخرس، ويس يترجى ويبوس الحذيان». ويلكزني واحد منهم بكوعـه، فينغرس الكوع في خاصررتي، يسأل بسخرية:

ـ رأيك مولانا؟

لم أجب، فقد كان من الجنون ان اتحاور معهم!

قادوني الى مكان، بعد ان نزلنا اكثر من درج، وقالوا:

ـ اقعد: لا تتحرك ولا تلتفت!

وصلت اذن، وأخيراً ، الى سجن العبيد!

ذاكـرتي تستيقظ، تصاب، بـرعاف مجنـون، تمتلىء بـالتحـريض والخـوف والتحدي: « هذا يومك يا طالع كل ما مضى بكفة وما تواجهه الآن بكفة ثانية. أما ان تكون رجلاً او تنتهي الى الأبد. لا يكفي انك صمدت طوال الشهور الماضية، كما

لا يشفع لك تاريخك او نضالك. كل ما كان مضى وانقضى، وعليك ان تعرف: انت الآن في مواجهة التحدي الكبير، إمّا ان تصمد او ان تسقط » . ويشمخ في داخلي نداء عاتٍ ، صوت كأنه الطوفان: الانسان لحظة قوة، وقفة عزّ، فاحذر!

الله . . كم في الانسان من قوى غير قابلة للكسر او للالغاء!

في تلك الوحدة، وأنا جالس على الأرض، في مواجهة الحائط ، ووسط جموع عمياء نتيجة العذاب والصراخ، والندم أيضاً، شعرت ان الامتحان، رغم قسوته وتحديه، يستحق ان يخاض .

لم يغيبوا طويلاً. وخزتني عصا تحت ابطي، وكأنها سكين، ثم جاء الصوت:

ـ انهض وامسك بالعصا!

نهضتُ بحثت يدي، في الظلمة، عن العصا العدوة، وجدتها. امسكت بها. قادوني. سمعت اصواتاً كثيرة حولي، لكن وقع الأقدام كان اكثر. ومثل من يمشي في الفراغ او الحلم مشيت. ما كادت العصا تتوقف حتى توقفت. ثم فجأة ، ولا اعزف كيف، او من اين، بدأت تنهال عليّ الضربات من كل جانب، بالأيدي، بالأرجل، كانت تنهال مع صرخات فرحة اقرب الى النشوة، كنت اطير في الهواء، واسقط، كان رأسي يصطدم بالجدار، بالأرض، لكن الأيدي القوية تنتزعني لاقف مرة اخرى، ثم هجمة ثانية، اشد من الأولى، ثم صرخات محذرة: «قف. . قف» وبعد لحظة صمت، احسّ هواء ولّده ركض من بعيد. ثم ساقين قويتين تنغرزان في بطني ، فينطوي جسدي وانداح في الفضاء، لا اعرف الى اين، لكن امتلىء قناعة اكيدة انني تبعثرت، اصبحت اشلاء. وما يكاد رأسي يصطدم بالجدار حتى ارتّد. تنهضني ايدٍ عدوة كأنها الكلابات، وحين اقف تلك الوقفة المترنحة العمياء تهوي على وجهي صفعات متوالية ببطن اليدوظهرها، فينخلع عنقي، ويصبح الوجه كتلة من الجمر. اصرخ، اشتم، لكن الضحكات التي تتوالى والمعجونة بشبق عارم مفضوح تطغى على صوتي، تذيبه، وتنقضّ يدان قويتان على لحيتي فاحس انني أُقتلعت من جذوري، او كأنني مربوط الى هذه اللحية. أما حين تبدأ الشدات المعاكسة لشعر رأسي فأصبح على يقين أنني سأنقسم فوراً الى نصفين غير متساويين، لكن في اللحظة الأخرى يفلت رأسي او لحيتي، فاتدحرج، مثل كرة على الأرض، واتلقى ركلات مجنونة في كل مكان، واصرخ، خاصة وان رائحة الدم حولتني الى حيوان وسيلته الوحيدة في

الدفاع هي ان يصرخ. ويضحكون، يضحكون، يتراءى لي وكأنهم تحولوا الى مجرد اصوات، هل كانوا يردون على صراخي بصراخ اقوى منه؟ هل كانوا يخافون صوتي ويحاولون ان يحجبوه باصواتهم؟ وشكلي.. هل كان مضحكاً الى هذه الدرجة؟

كم مرة وقعت وانتزعوني من الأرض، كم مرة اصطدم رأسي بالجدار ونهضت؟ والى متى سوف تستمر هذه الحفلة؟

لم امت، وسوف اعرف في وقت لاحق، ان هذه «الحفلة» هكذا يسمونها، عربون الوصول الى سجن العبيد! وهذه الجوقة، او جوقة مثلها، تستقبل كل من يصل الى هذا السجن بنفس الطريقة إيذاناً بالتدشين لهذا الوصول العظيم!

في لحظات كثيرة كنت متأكداً انني لن اتخطى هذه الغرفة، ولن تتاح لهم الفرصة، مرة اخرى، لكي يمارسوا عليّ اي نوع من العذاب، الا اذا كانوا يمارسون التعذيب ايضاً مع الموتى! كنت متأكداً أن هنا، والآن، سوف تكون النهاية. لكن جسد الانسان يحتمل الكثير، ويمكن ان يُرمم ايضاً!

لم يسألوني عن أي شيء، لم يطلبوا مني شيئاً. فهذا النوع من المخلوقات ليس مطلوب منه، او لا يحسن في هذه الحياة الا: الضرب والضحك، والصراخ الأعمى، وربما لا شيء غير ذلك!

عندما تكومت مثل جثة، مثل كرشة مليئة بالدماء والقيء، تركوني.

بعد وقت لا استطيع ان اقدره جاء واحد ورشقني بماء بارد، دلقه عليّ، لما افقت سمعت صرخته:

ـ انهض يا ابن ستين كلب!

بعد محاولات عديدة استطعت ان اقف. وخزني بعصا، وقال:

ـ امسك بالعصا.

بصعوبة مشيت. كان جسدي يرتجف، كان يصرخ من آلام لا اعرف من اين تنبع. قادتني العصا الى ان وصلنا الى مكان، قالت العصا: قف، فوقفت، وجاء صوته:

ـ اقعد ولا تلتفت لا يمين ولا يسار!

ومثل شوال يسقط في حفرة تداعيت على الأرض، لم اكن قادراً على الجلوس بأي شكل. حين ارتخيت اكثر دفرني برجله وصرخ:

- اعتدل!

حاولت ان اعدّل تلك الكومة من الأعضاء التي كنتها، تعدلتْ قليلاً لكنها لم تستقم. كنت اريد ان اتقيأ، ان انام، ان اغيب، لكن الأنين الذي حولي، صرخات الألم، ثم تلك الصفعات المفاجئة التي لا اعرف من أين تأتي، وليس لها مواعيد ثابتة، جعلت اعضائي مشدودة دائماً نتيجة التوتر، ولانتظار الضربة التالية!

في وقت ما جاءوني بالأكل قال لي وهو يضع امامي صحناً معدنياً:

- ارفع العصابة، لكن لا تنظر الا الى الصحن، واذا التفت يمنة او يسرة لا تلوم الا روحك!

طعام؟ اية سخرية كاوية اشد من هذه السخرية؟ من يفكر بالأكل؟ من يستطيعه؟

لا اعرف كيف عبّرتُ عن رفضي، وانني لا اشتهي. وخزتني عصا من وراء ظهري، وجاء صوت آخر:

- كل يا خنزير...

وتغيرت النبرة:

- وإذا ما اكلت برضاك تأكل غصب عنك!

هل مددت يدي؟ هل فتحوا فمي ووضعوا فيه الأكل؟ اتذكر انني تلقيت عشرات الوخزات، وكل واحدة اقوى من الأخرى؛ واتذكر ان الرِّجل التي خلفي كانت تحاورني اكثر من الكلمات!

كنت فقط اريد ان انام. كان النوم الأمنية الوحيدة، لكن...

ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ لم تر عيناي النوم، أو لم يتح لي ان انام الا كما ينام عصفور في مواجهة حيّة. كانت الصفعات تتوالى حين يسترخي جسدي، حين يميل رأسي، فاذا رفرفت تلك الوسنة وطارت، فان الأنين حولي يجعلني، لفترة طويلة، في حالة من التوتر تمنعني من النوم مرة اخرى. فاذا تداعى رأسي او تخاذل العنق، وحينها

اغيّر جلستي بحثاً عن طريقة تخفف الألم، فلا بد ان تأتيني وخزة او دفرة لتقول لي : نحن نراقب كل شيء!

في هذا الممر الذي لا تهدأ فيه الحركة ليل نهار، والمملوء بالأنين والنواح والصراخ والألم، مع الوخزات والصفعات، يهيئون القادم الجديد، نفسياً، ويشعرونه بما ينتظره خلال الأيام القادمة، لأن النداءات الخشنة التي كانت تتردد ساعة بعد اخرى، وهي تطلب من واحد من المنتظرين ان ينهض، كانت اكثر من مجرد اوامر:

ـ انت، اي نعم، انت، انهض.

وبعد قليل وبلهجة مختلفة، لكن لا تقل خشونة.

ـ جاء دورك الآن، وراح نشوف بطولاتك!

حتى الذهاب الى المرحاض، وقد رفعت يدي، كما امرنا من قبل، لم يُسمح لي الا بعد وقت طويل. كادت مثانتي تنفجر، وكدت ابول في مكاني. قال لي وهو يقودني، بعد ان اعطاني طرف العصا:

ـ دقيقة واحدة؛ اكثر من دقيقة اكسر راسك!

وان يحتقن البول، وان يستعصي، لا يولّد الألم فقط، يجعل الجسد كله في حالة من الاختناق. صرخ، وانا احاول بصعوبة، وكان يقف على بعد امتار، وكان الباب مفتوحاً:

ـ وتكذب يا ابن الحرام، بس تريد تعذبني... ها؟

كانت امنيتي في تلك اللحظة ان اتبول، ان اتخلص من ذلك الاختناق الذي بدأ يصل الى رقبتي. لما انتهيت وضعت يدي الاثنتين على طرفي الباب تعبيراً عن الراحة. صرخ مثل ذئب:

ـ عصّب عينك يا خنزير!

ومثل دودة عمياء مشيت وراءه. لما وصلت الى مكاني جلست، قال لي، وهو يركلني بطرف حذائه المدبب، وفي الخاصرة تماماً:

ـ اذا اردت تضحك عليّ، نوبة ثانية، اشعل اجداد اجدادك، سمعتني؟

هذا الممر، الذي اكتشفتُ انه طويل، وربما طويل جداً، بداية الجحيم. ففي

جانب، وعلى طول مئات الامتار، غرف المحققين. وفي الجانب الأخر، بالاضافة الى الجدار الأصم، كانت هناك ممرات فرعية تقود الى الزنزانات. ابواب غرف المحققين تنفتح بين فترة واخرى لتنتزع واحداً من الذين ينتظرون، ووجوههم الى الجدار، وتغيبة في الداخل، حتى اذا انفتحت مرة ثانية فلكي تلقي بـه كومـة من الدمـاء والأعضاء المكسورة او المسحوقة. كانت تلقي به بقـوة فيصطدم بـالجدار، بـاحد الموقوفين، وتفوح رائحة الدماء او رائحة القيء. وبعد ذلك إما ان يبقى هامداً في مكانه، لا تصدر عنه الا الآهات والأنين، او ان يُرفع كما ترفع الجثة ليلقى به في احدى الزنزانات. كان يصرّ باب الزنزانة صريراً قاسياً موجعاً إعلاناً عن استقبال وافد جديد، او لسحب واحد طال عليه الانتظار!

وتستمر الحركة في هذا الممر، وبعض الأحيان تتواصل ليل نهار. كانوا يريدون من كل واحد ان يستوعب الدرس جيداً قبل ان يدخل الامتحان. اذ بالاضافة الى المشاهد الاجبارية التي يريدون للقادم الجديد ان يراها، حتى من وراء العصابة التي لا تفارق عينيه، فقد كانت الأصوات، ومن الجانبين، تثير الفزع، اصوات الشتائم والضرب، والأبواب وهي تفتح او حين تغلق، ثم اصـوات المجلودين، اليائسـة اغلب الأحيان، وربما المصنوعة، التي تتعالى في كل وقت، طالبة باستغاثة الماء، او ان يسمح لها بالمثول مجدداً امام المحقق، لكي تعترف بكل شيء، ومن اجل ان تعلن توبتها الكاملة والنهائية. هذه الأصوات اذا لم تكف، فلا بد ان تُستكمل من خلال الهمسات السرية. كان الواحد منهم يقرفص قريباً مني ويسأل ببراءة:

ـ ما هي تهمتك؟

او

ـ لماذا جاءوا بك الى هنا؟

وحين انفي وجود أية تهمة، او اني لا اعرف لماذا جيء بي الى هنا، كنت اتلقى لكمة او ركلة مع مجموعـة من الشتائم! وبعـد دقائق قليلة يتحلقـون، ويقول الـواحد للآخر، ويريدني ان اسمع كلماته: «أي نعم.. هذا هو» «لا تنس، لازم تتوصى به» «هذا ما جاء دوره بعد» ولكي لا يقع خطأ لا بد من وخزة قوية بالعصا او ركلة، لكي تؤكد من هو المقصود!

هـل جعلتني هذه الأيـام الثلاثـة اقرب الى الـذهول او الجنـون، ومستعداً

للاعتراف؟ لقد تداعى جسدي، اصبحت غير قادر على التحكم به. لكني اصبحت، في نفس الوقت، بحالة من العناد الممزوجة بحقد اشد سواداً من القطران، وبدأ يتضاعف هذا الحقد مئات المرات، الاف المرات، وصرخات طفل رضيع حادة موصولة كأنها الشفرات تحز القلب مباشرة او تدخل باطن العين، وهي تملأ الممر كله!

لم أفطن، او لم اميزّ، خلال الساعات الأولى، وجود نساء في الممر، وانهن ينتظرن دورهن للتحقيق، تماماً مثل الرجال! أما بعد ان اخذت الصرخات تنفجر وتتوالى، وحين تجرأت في اليوم الثاني، او الثالث لم اعد اتذكر، ونظرت صوب المكان الذي كان يأتي منه الصوت، في لحظة سهو الحراس، ورأيت تلك المرأة وهي تحتضن الطفل، فقد قررت ان ابقى مجنوناً الى النهاية!

ربما في تلك اللحظة، ومن خلال نظرة خاطفة كالبرق، مثلما تتقاطع النيازك في السماء، شعرت انني اكون تافهاً منحطاً لا اساوي شيئاً اذا لم اتخذ موقفاً، قلت لنفسي: «لو هبطت السماء على الأرض، لو قُطعت الى آلاف الأجزاء، لو فعلوا بي أي شيء، فلن ينالوا مني كلمة واحدة». في تلك اللحظة لم اكن ادافع عن نفسي، عن جسدي، كما لم اكن احس بالألم. كنت امتلىء بشيء غامض، لكنه طاغٍ وكثيف، وقد افترضت ان اية تضحية في سبيل هذا الشيء ليست مقبولة فقط بل وضرورية الى اقصى الحدود.

الى وقت متأخر، وربما الى الآن، لم استطع ان احدد طبيعة هذا الشيء الذي ادافع عنه هل هو الكرامة الشخصية؟ الانسانية؟ هل هو اليأس او الاستقالة الكاملة من الحياة؟ او هل هو الدفاع عن حرية البشر وحقهم في الحياة؟

تلك المرأة المكسورة، المليئة بالألم، والشديدة الحزن والسواد، حرّكت في داخلي شعوراً جامحاً لا يمكن ان تقف في وجهه اية قوة، شعور الغضب والحقد والتحدي، وايضاً الاستعداد لاي شيء وفي الوقت الضروري.

وذاك المخلوق الصغير الذي لا يعرف غير الصراخ، وكان صراخه معبراً وقوياً، كيف يمكن ان يؤتى به الى هنا، ولا يجد أحداً يحميه ويدافع عنه؟

حين استيعد الآن اللحظات الصعبة، واحاول تفسير مواقفي تجاهها، أجد ان الجانب البدائي، جانب الحيوان فيّ هو الذي حماني. كان العناد سداً في مواجهة

الكوارث التي اجتاحت عدداً كبيراً، ولو ان الآخرين امتلكوا عناداً مثل عنادي لظلوا اقوياء وشامخين الى الآن! فالفرق بين السقوط والصمود لحظة، ممر ضيق، وهذا ما ينساه او يتناساه الكثيرون!

لا اريد ان اكون فيلسوفاً لكي افسر او ابرر مواقف البشر، واعتقد ان لا ضرورة لذلك ابداً. كل ما كنت ابحث عنه نقطة ارتكاز، ولقد وجدتها. يمكن ان اسميها العناد، وربما يسميها غيري القناعة او التحدي. المهم انني وجدت تلك النقطة، وهي التي حمتني، جعلتني عصياً على كل قوى الأرض، واقسى من الصوان.

ربما افسدت عليكم المتعة، فانتم بحاجة لأن تتابعوا كيف كنت اتلوى واصرخ من العذاب والألم، لا ان تسمعوا وعظاً او خطابات فلسفية بائسة. واني اذ اتفق معكم، ولو مؤقتاً، اقول لكم شيئاً قد تستغربونه: لم يعلمني هذا العناد اي انسان، لم ارضعه من ثدي امي، ولم اقرأه في كتاب، كما لم ادرسه على شيخ، ولم يرشدني اليه بشر. لقد تعلمته من وردان! ووردان لما بدأت العلاقة بيننا كان لا يزال كلباً صغيراً كالدمية، كان لا يعرف حتى العواء. اذا مشى ترنح، واذا رفعت يدي خاف وهرب. لكنه كبر وقوي بسرعة. اردت له تربية تليق بجنسه الأصيل وبالمهمة التي نذرته لها. لكن ما كان يروق لي لا يعني انه يروق له دائماً. اختلفنا، لكن تعايشنا. كان يحب ان يلعب حين يريد وليس حين اريد انا. وكان يحب ان يركض في اماكن لا اعتبرها الأكثر ملاءمة، وبسرعة لا اطيقها؛ ويحب ان يغفو او يستريح حين اكون راغباً في ان يتحول الى كلب من كلاب السيرك. أما وقت الأكل، خاصة اذا كانت ضمن وجبته عظام، فيجب ان احتفظ بمسافة امن كافية، فلا اقترب ولا اتدخل؛ فاذا تجاوزته في بعض الأحيان، او ما اعتبره ذلك، وضربته فكان يعضني!

وردان الذي ربيته بطريقة فذة، لكي اصل معه الى تفاهم لا تدانيه الكلاب الأخرى، يعرف في احيان كثيرة كيف يغضب ويحتج، ويعرف ايضاً كيف يرفض ويقول لا.

هذه اللا هي سر الكون كله!

هذه الكلمة الصغيرة الى درجة التلاشي هي التي غيرت الكون والبشر والحياة، وهي التي غيرتني، ومثلما جعلت الانسان انساناً حين يعرف كيف يستعملها ومتى وفي مواجهة من، جعلتني اجرؤ على استعمالها!

ففي اليومِ الرابع، في جو الـذهول والألم والبعد، تلقيت ركلة مفاجئة ومختلفة، ثم سمعت صوتاً:

- استعد!

للحظات لم اتصور انها تختلف عن عشرات الركلات السابقة، لكن الحركة حولي، وكانت اكثر من عادية، جعلتني اتأكد! وخزتني عصا من نوع مختلف، وجاءني صوت مختلف:

- انهض!

بصعوبة نهضت.

- امسك بالعصا . . واتبعني.

امسكت بالعصا ومشيت. مشينا مائة متر، ربما اكثر من ذلك او اقل، فقد كنت في حالة لا افكر باقتحام سجن العبيد ولا تحرير السجناء، كنت افكر كيف استطيع ان اواجه الخطوة التالية، كيف اصمد وان اتحدى!

بعد تلك المسافة وخزني في صدري، وقال كلمة صلبة:

- قف . . ولا تتحرك!

تركني هكذا في الفراغ، تماماً كما يقف انسان على حافة جرف. ذهب. شعرت انني بحاجة الى احد، بحاجة الى اي انسان، اذ ربما جنبني السقوط في الهـاوية. حاولت ان انظر، لكن العصابة كانت شديدة، وقد تعمدت ان اشدها هكذا لعلها تكون طريقتي الى الرؤية الأخرى، اذ بعد ان عانيت من الرخاوة، والتي تجعل كل شيء ملتبساً، قررت ان احكم اغلاقها لعلها تساعدني على السفر البعيد: الى حيث اريد، مترفعاً عن هذا الاستفزاز الذي يحاولون ان يطوقوني به في كل لحظة.

حـاولت ان اسافـر، سافـرت، لكنه سفـر قصير اقـرب الى الحلم. عدت بسرعة، كما يعود مسافر طلب اليه العودة لاسباب قاهرة، لموت، او لمرض لم يكن متوقعاً.

جاء مرة اخرى . قدّرت ذلـك من الضجة التي تقتـرب نحوي، وخـزتني العصا، قال لي الصوت ذاته، لكن برخاوة هذه المرة:

ـ امش معي، وهالحين راح نشوف المنفخة ويباسة الراس ماذا تفعل بصاحبها!

نزلنا أدراجاً، كانت الضجة الكثيفة ترافقني، فالواقع القاسي للاقدام، والاحتكاك، وبعض الهمسات، تولد اصواتاً اضافية ورهبة. كنت متوتراً اكثر مما كنت خائفاً، وكنت، في كل لحظة متوقعاً شيئاً غير عادي: ان يدفعني احد وانا انزل الأدراج، ان يضع ساقه امامي فاتدحرج ،ان اتلقى ضربة قوية ويختل توازني فاسقط. لاحظ توتري، ربما من العصا التي اخذت تتموج بيننا لعدم تناسب حركتنا، دفعها في صدري وقال:

ـ اشوفك بدأت ترجف قبل ما نصل الى غرفة التحقيق!

لم أجب ولم اتغير. تابعنا سيرنا. قطعنا مسافة غير قصيرة، دخلنا الى غرفة، بدت اكثر دفئاً من الخارج، او هكذا تصورت.

رغم الصمت كنت احس ان عدداً من المخلوقات حولي. هل تبدأ الحفلة الآن؟

بعد فترة بدت طويلة وقاسية جاءني صوته:

ـ لازم تعرف، انت الآن في سجن العبيد. .

وبعد قليل، وبلهجة واثقة ومرحة:

ـ ولازم تعرف اننا هنا نقدر نسوي كل شيء، لا احد يسألنا ولا احد يحاسبنا، شورنا من راسنا. نحن نقدر نخلي البلبل ينهق والحمار يغرد، وما مرّ احد من تحت ايدنا الا واعترف، وقال حتى بأي شيء كان يفكر او يحلم.

وتغيرت اللهجة.

ـ وهذا الكلام اللي قلته هناك ما يفيدك، كله كذب وما اشريه بفلس، وهالحين اسألك سؤال بسيط: تريد تعترف وتتكلم، وتقول كل شيء، كل شيء، من يوم وعيت لهذه الدنيا وحتى هذه الساعة، أم تريد تجرب قوتك وكم تقدر تتحمل قبل ما تعترف؟

أجبت، وقد حاولت ان اكون بسيطاً وواضحاً:

ـ انا قلت كل اللي اعرفه، كل اللي عندي!

- وغير هذا الكلام؟

- يمكن انتم غلطانين، وتدورون على واحد غيري!

- لك، اسمع. . .

وربما تحرك من مكانه، فقد اقترب مني صوته وتغير، حتى ظننت ان الحفلة ستبدأ فوراً، تابع:

- مثلك شفت آلاف، والواحد منكم يسوّي روحه مسكين، البّس ياكل عشاه، لا سمع شيء ولا يعرف شيء، لكن بعد ما ينسحق، بعد ما تتكسر عظامه، يبوس الأيدين والرجلين ويبصم بالعشرة. وهالحين ما اريد اقول لك من هو الشهيري وشنهو اللي يقدر يسويه، لأنك راح تشوف بعينك، بس قبل ما اوسخ يدي بجزّك وسلخك اسألك لآخر مرة: عندك كلام غير اللي قلته هناك ام لا؟

- كل ما عندي قلته!

- والله، يا ابن الحرام، لاخليك تأكل اصابعك ندامة، وراح اسويك علم على رأسه نار، ما يذكرك احد الا ويقول: اعترف احسن ما يصير بي مثل ما صار بطالع العريفي، وراح تشوف بعينك!

لم اتكلم.

احسست ان شيئاً سوف يحصل في تلك اللحظة، خاصة وقد خيّم الصمت. اقترب مني، سمعت الخطوات، ثم نفحتني الأنفاس، وخزني بعصاه، تراجعت قليلاً، قال بصوت رخو وحاقد. موجهاً الكلام اليّ، ثم الى آخرين:

- ان ترى خير من ان تسمع. . . تفو

بصق عليّ وقال:

- خذوا هذا الزنديق!

الزنزانة في سجن العبيد قبر: صغيرة، باردة، فارغة، اقرب الى الظلمة، وتنبعث منها ايضاً رائحة الموت. واذا كان الصمت «هناك» سيداً فان الصراخ هنا، بكل اشكاله، من البكاء الى الرجاء، من الأوامر الى الشتائم، وفي كل وقت، في الليل والنهار، هو الملك. وحين لا يكفي صراخ البشر، فان ابواب الزنزانات وهي

تفتح او حين تغلق، تضفي على الجو حالة من الرهبة تشبه لحظة الاحتضار.

صرّ باب الزنزانة، وكأنه احتكاك عظام، لما فتحه. دهمتني رائحة عفنة مليئة برطوبة فاسدة، قال لي بلهجة ساخرة:

- تفضل.. مولانا!

صرّ الباب اكثر وهو يغلق. ظلمة لا تمكّن من الرؤية الواضحة. بعد وقت غير قصير تعودت على الظلمة وبدأت اميّز. ليس في الزنزانة كلها الا وسادة، وهي عبارة عن قطعة مستطيلة من الاسفنج لا تزيد على نصف متر طولاً وهو ضعف عرضها. انها الفراش والغطاء معاً!

الآن تبدأ الرحلة الجديدة.

حذفت من ذهني جميع الرغبات والأفكار، كنت فقط اريد ان انام. فبعد هذه الأيام الطويلة في ممر الجحيم، كنت اشتهي الغرق في سبات عميق. بدأت اهيّىء نفسي، لكن الصرخات التي لم تنقطع، والحراس الذين يمرون بين لحظة واخرى، باقدامهم الثقيلة والمفاتيح التي ترّن، ثم وهم يفتحون الشرّاعات ليتأكدوا ان ضحاياهم لا تزال على قيد الحياة، ثم حين يغلقونها بذلك الدّوي... ان واحداً من هذه الأسباب او الحركات، اضافة الى الرهبة في مكان لم يتعوده الانسان، يجعل النوم بعيداً او مستحيلاً. اذ ما اكاد اسهو، ولا اقول اغفو، حتى ينفجر صوت من نوع ما فيسرق النوم من عيوني لفترة طويلة.

كنت متعباً الى درجة افترضت ان لا شيء يمنعني من النوم، خاصة بعد ان توقفت الركلات والصفعات، لكن تلك الأصوات التي تتتابع وتتوالى، وكان يمكن للانسان ان يتعود عليها لو ان لها وقعاً منتظماً، او رتيباً، فقد كانت تتغير باستمرار، تزدحم بصرير البوابات، بالشتائم، بأصوات الضرب، فتجعل النوم كابوساً مروعاً لا يعرف الانسان كيف يتخلص منه.

بين رغبة النوم والوصول الى النوم مسافة لا يمكن اجتيازها في سجن العبيد، وهم يراهنون على هذه المسافة. فالتحقيق لا يبدأ الا حين يتأكدون ان النار الهادئة انضجت «الضحية» اي حين يصبح المعتقل غير مستعد سوى للاعتراف، وعند ذلك يبدأون!

بعد خمسة ايام من محاولة النوم وعدم القدرة على الوصول اليه، جاءوا:

- عصب عينك واستعد!

كنت متلهفاً لبداية المرحلة التالية، ايا كانت، فقد اصبحت على يقين ان المرحلة الجديدة تلغي ما قبلها، وتدفعني الى اخرى تليها، ولذلك من الأفضل ان تتوالى وان تتسارع.

عصبت عيني وانتظرت . وخزني بالعصا، دون كلمات، اشارة الى ان الرحلة تبدأ الأن!

اخذوني الى الشهيري مرة اخرى. عرفت ذلك من صوته، قال لي برخاوة ، وربما كان يلوك شيئاً في فمه:

- ها، يا ابن العريفي، عندك شيء جديد تريد تقوله؟

- لا

- متأكد؟

- اي نعم متأكد!

- زين. . زين، وهالحين تعرف وين راح تروح؟

- لا

- راح تزور، الله يسلمك، السرداب!

وضحك، وسألني:

- تعرف شنهو السرداب؟

- لا

- ولا سمعت عنه؟

- لا

- ما احد سولف لك شنهو السرداب، والشهيري يصول به ويجول؟

- لا

ـ هذه «اللا» اللي تعرفها زين، يا ابن الحرام، راح اخليك تنساها حتى بالصلاة!

وبعد قليل، وكان يوجه الكلام الى آخرين بغيظ.

ـ خذوه قدامي الى هناك!

اخذوني. سرنا في طريق طويل، ثم نزلنا درجاً. كانت خطواتنا تدوي، وكأننا ننزل الى بئر او الى باطن الأرض. في لحظات كثيرة توقعت يداً تدفعني فاهوي الى مكان سحيق، وهناك تكون النهاية... «هذا هو السرداب اذن»، هكذا قلت لنفسي! لكن الدرج انتهى، وسرنا بضع خطوات اخرى، ثم فُتح الباب، دُفعت الى الداخل، وقال لي صوت:

ـ اجلس!

جلست، غادروا المكان نهائياً، ولقد تأكدت من خلال الصمت الذي امتد واستطال، وترافق مع دوي مكتوم، وكأنه اصوات مياه بعيدة تجري في مكان عميق باطن الأرض. تلفت الى اكثر من اتجاه وانا معصوب العينين. لم يعترض احد. لما تأكدت اني وحيد تجرأت على ان ارخي العصابة. رأيت كما يرى الحالم: غرفة واسعة، شديدة الانارة، في جانب دكة عالية، يتوسطها كرسي بلون نبيذي له مساند. الدكة كأنها خشبة مسرح ديكورها الوحيد هذا الكرسي. في وسط الغرفة طاولة بأرجل اسمنتية مثبتة بالأرض، وسطحها الواح خشبية غير منتظمة وغير مصقولة، وتتدلى منها حبال وسيور جلدية. في ارضية الغرفة مجموعة من الأحذية والقمصان والعصي والكابلات، مجموعة غير منتظمة، اقرب الى الفوضى. اما الجدران فقد كانت ملطخة بالدماء، دماء قديمة واخرى لم تجف!

هذا هو السرداب اذن؟

هكذا تساءلت. ثم تجرأت فنظرت الى الباب، بعد ان تأكدت ان لا احد في الغرفة.

ربما تركوني وحيداً، وتركوا لي وقتاً، لكي استوعب آخر الدروس، قبل ان يبدأوا، لعلّي اخاف او اقدر ما ينتظرني، فاحاول، منذ اللحظات الأولى، ان اختصر عذابهم!

قلت لنفسي: «من العار، بعد هذا الاذلال والعذاب، ان اقدّم لهم لحمي عشاء شهياً يتمتعون به، ثم اني ادافع عن قضية عادلة وبسيطة: حقي وحق الآخرين في الحياة والحرية، وهم يدافعون عن امتيازاتهم وعن السلاطين والشيوخ الفاسدين، ولذلك يجب ان اكون اقوى منهم، لأن قضيتي هي المشروعة».

لا اعرف كم من الوقت مرّ حين اتوا. سمعت وقع الأقدام وهي تدوي. عصبت عيني من جديد وبدأت استعد!

اعتلى الشهيري خشبة المسرح. قدرت ذلك من خلال الصوت.

ومثل اية مسرحية بدأوا:

- ارفع العصابة.

رفعتها. كانوا جميعاً مقنّعين، كانوا يضعون على وجوههم اغطية او جوارب، وكنت الوحيد المكشوف الوجه! حتى الشهيري الذي جلس على العرش وسط المسرح بدا مثل دمية. لأول مرة اراه قصيراً سميناً، ومرتبكاً ايضاً.

وضعوا امامي دورقاً كبيراً من الماء. قال لي الشهيري بسخرية:

- لازم تشرب هذا كله!

كان في الدورق ماء يكفي او يزيد لعدة اشخاص عطاش. نظرت الى هذه الكمية باستغراب، ولكي لا يترك مجالاً لمناقشة طويلة صرخ:

- تشربه كله بلا سين وجيم!

وحين رأى الاستغراب والدهشة اشار بيده فركلني احدهم بحذائه، ثم هدر صوته:

- اشربه احسن لك!

قدّرت ان الاختلاف والعناد في هذه المرحلة، وحول هذاالأمر،مضيعة للوقت، ولا يعتبر شيئاً، ولكن كيف استطيع شرب كل هذه الكمية؟

بصعوبة بالغة، وعلى عدة مراحل، وبعد عدد من الركلات والصفعات، شربت الماء كله. احسست نفسي كالطبل، ولا بد ان انفجر في اية لحظة. حين انتهيت قال لي الشهيري بمرح:

ـ بالهنا والشفا . .

وبعد قليل وبلهجة حازمة، لكن لا تخلو من سخرية :

ـ وهالحين، الله يسلمك، عصّب عيونك، وخلنا نشوف دربنا!

امتثلت . قال، يخاطبهم :

ـ ركبوه!

رفعوني الى الطاولة. كنت مربكاً لنفسي ولهم. بعد عدة توضيحات اخذت الشكل «الصحيح»! وجهي الى اسفل عند الحافة، ويداي متدليتان لكي تربطا بقوة الى قائمتي الطاولة، والساقان منفرجتان ليسهل تقييدهما عند الكاحلين وبشكل عمودي الى القوائم الخلفية. أما الظهر الذي تقوس قليلاً ، نظراً لخشونة سطح الطاولة وللفراغات بين دف وآخر، ولتباين المستويات ايضاً، فقد تولى تقويمه واحد منهم، حين «هبط» بقوة وبشكل مفاجيء فوق ظهري!

عملية التربيط والتقييد بداية الدخول في نفق الموت. كانت الحبال وهي تشدّ على كاحلي كأنها اسلاك النار. تصورت، في لحظات كثيرة، انهم لا يريدون تقييد الساقين او تثبيتهما، وانما الهدف ان تُقصا عند نهاية القدم. أما اليدان، وقد رُبطت كل منهما بقيد، وشُدّ القيد الى قائمة الطاولة، فقد كنت على يقين ان اية حركة اضافية من قبلي تعني انتزاع اليدين عند الكتفين. والحبل الذي التف حول خصري، بعد ان قوّم الظهر بتلك الطريقة، جعلني احس الماء الذي امتلأت به لا بد ان ينفجر، ومن مكان محدد، من العيون بالذات!

استغرقت العملية وقتاً غير قصير، رغم البراعة والاتقان، وبدا، بعد هذا الاستعداد، ان المهمة ستكون شاقة، تماماً مثل من يستعد لسفر طويل!

خيم صمت رصاصي ثقيل.

سمعت نحنحة تجلو الحنجرة، ثما جاء صوت الشهيري مصقولاً :

ـ اسمع، يا ابن العريفي، انا لن اسألك، ولن اتكلم، وانت حين تريد ان تتكلم، ان تعترف، وتقول كل اللي تعرفه، تحّرك السبابة . . .

ويعد قليل وبسخرية ·

ـ لكن انت كافر، ملحد، ويجوز اذا قلت لك: اللي تتشاهد بها لا تعرف، فعلّموه عن سبابته!

وامسك احدهم بذلك الأصبع بقوة كاد يكسره، وبعد قليل قال الشهيري:

ـ هذه هي السبابة، فاذا حركتها اعـرف انك صـرت آدمي ورجع عقلك لراسك.

وخيم الصمت، وبعد قليل جاء الصوت مرة اخرى، لكنه بدا مختلفاً تماماً، كان اقرب الى الدعاء او الترنيم:

ـ بسم الله الرحمن الرحيم

محمـد رسول الله والذين معه اشداء على الكفار رحماء بينهم تـراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً، صدق الله العظيم.

تنحنح، مرة واخرى، ثم تابع بتوسل:

ـ يا الهي، ربنا الذي في السماء عرشه، ربنا الذي في السماء تقدس اسمه، امرك ماضٍ في السماء والأرض، اغفر لنـا ذنوبنـا وخطايـانا، انـك انت الغفور الرحيم.

ربي والهي انت تعرف انه من اجلك ولخدمتك ومرضاتك ولاعلاء كلمتك في الأرض نضرب هذا الملحد الكافر الزنديق، لأنه كذب ولم يصدق، ودخل الشيطان الى قلبة ولم يخرج. فساعدنا، يا قوي يا جبار، في رده الى الصراط المستقيم.

يا الهي فرّج عني ما ضاق به صدري، وعيل معه صبري، وقلّت فيه حيلتي وضعفت له قوتي، يا كاشف كل ضر وبلية، ويا عالم كل سـر وخفية، يـا ارحم الراحمين وافوض امري الى الله، ان الله بصير بالعبـاد، وما توفيقي الا بالله عليـه توكلت، وهو رب العرش العظيم»

سمعت تمتمة غير واضحة بعد هذا الدعاء، ثم انفتحت عليّ ابواب الجحيم!

في لحظات معينة، والشرر يتطاير من عيني، ونوافير الدماء تتقافز كالجنادب من القدمين، من الساقين ، كادت السبابة تتحرك. ولكن وانا اتذكر ذلك الله الذي حدثتني عنه امي حين كنت صغيراً، جعل السبابة يابسة كأنها جذر قديم،لا تستجيب

ولا تتحرك. اتذكر الله ذاك رحيماً يحب الفقراء ويكره القسوة والظلم والناس الفاسقين، فهل استجيب للنداء الذي في داخلي ام استسلم لهؤلاء الذين ينهالون عليّ، باسم الله، بهذا الشكل الأرعن، والذي يزداد لحظة بعد اخرى، وكأنهم دخلوا في حالة من الجنون؟

كان العناد الرفيق الذي لم يتخل عني لحظة واحدة، كان يسندني بقوة، كان يصرخ: «احتمل وسوف يتعبون».

لكنهم لم يتعبوا، ولم يهدأوا. كانوا يزدادون ضراوة وجنونا، وكنت ازداد عناداً وشراسة. وبعد الشتائم التي كانت وسيلتي الوحيدة في الدفاع خلال الفترة الأولى، وكانت ضرباتهم سريعة وغير منتظمة، اصبحت اردد، لا اعرف كيف او لماذا، وقد انتظمت الضربات، عبارة بذاتها: آخ يمّه، آخ يمّه.

كانت هذه العبارة، ومعها العناد، مثل ايدٍ تتلقى عني الضربات، او تخفف منها. كنت اسمع لهاثهم، كانوا يلهثون كالكلاب. كانوا يريدون ان يقضوا عليّ. لكن تلك الأقدام التي طالما قطعت شوارع موران من شرقها الى غربها، من شمالها الى جنوبها، في الليل والنهار، اكتسبت من الأرض قسوتها وقدرتها على الاحتمال. كنت احس اقدامي في لحظات كثيرة انها انفصلت عني، انها تشتعل ولا بد ان تطير، وكنت اتمنى ان تفعل ذلك، لكن والألم ينتقل مثل حريق الزيت لينتشر في كل مكان، ثم ليتركز في العيون بالذات، جعل كل شيء فيّ يلتهب، يصرخ. ومرة بعد اخرى اعود الى الشتائم، الى الصراخ، ثم الى ذلك النداء: آخ يمه، آخ يمه. وتترآى لي امي من بعيد، كطائر يفرد جناحيه، تمد يديها، وكأنها تحاول ان تأخذني الى هناك، حيث الصمت والسكينة، وحيث لا احد يعتدي على الآخرين، وحيث الله الحقيقي، واغيب عن الوعي.

وفي لحظات اخرى احس المياه الباردة وقد اغرقتني، ومن خلل المياه احس جمراً يشتعل في جسدي كله، جسدي يتحول الى فحم محموم ينفث وهجاً دون توقف. القيء تتصاعد رائحته، الدماء مثل نجوم تنبعث اضواؤها من ثقوبٍ وشروخ ملأت القدمين والساقين وملأت جو السرداب.

في وقت ما تركوني. كنت بين الحياة والموت. هذا ما ساقدره في وقت لاحق، لأني لا اعرف متى اوقفوا الضرب اولماذا، ولا اعرف كم بقيت فاقداً الوعي. كل ما

اتذكره: الصمت والنيران. كان الصمت يملأ السرداب الذي بدأ كأنه مكان عُزل عن العالم كله. وكان جسدي يشتعل بالحرارة والألم. اما الرائحة التي انتشرت حولي فكانت مزيجاً من القيء والرطوبة والدماء، وربما ايضاً رائحة دواء يمنع تقيح الجروح. هكذا قدرت دون ان اعرف شيئاً،دون ان ارى اي شيء.

لا ازال مقيداً الى الطاولة، وربما اصبحت جزءاً منها، لأن اية حركة، مهما كانت صغيرة، تضاعف الألم عشرات المرات، تماماً كما لو ان الانسان يحاول سلخ جلده. والدفوف غير المنتظمة وغير المستوية تداخلت مع جسدي، خاصة بين الأضلاع، واية محاولة للانفصال عنها، لاقامة صيغة جديدة للعلاقة معها، تحرك جنوناً في الجسد لا يمكن احتماله.

كيف يتحول الجسد الى جزء من الأشياء، مهما كانت هذه الأشياء قاسية او عدوة؟ انه يفعل ذلك كما تتحرك السوائل في الفراغات وتملؤها، هكذا تداخل جسدي مع الطاولة والتحم بها.

حين تنفست بعمق لأتشرب رائحة الأشياء حولي عرفت انني لا ازال حياً، أما حين حركت السبابة فقد تأكدت انني لا ازال قادراً على الحياة رغم جميع الآلام. ولكن شعرت فوراً بالندم وانا احرك السبابة «ماذا لو كان الشهيري موجوداً ونصب لي هذا الكمين من الصمت والغياب ليشعرني بعدم وجوده، ثم ينقّض عليّ في اللحظة المناسبة»: «بعدما عرفت شنهو السرداب، ومن هو الشهيري وبعدما حركت السبابة فنحن الآن بانتظار ان تقول كل شيء».

بعد ان صحوت، وبدأت استعيد كيف حصلت الأمور، وكانت الصور والأصوات شديدة التداخل والاضطراب، وبين فترة واخرى كان يفتح الباب، تأكدت انني كنت وحيداً. اما اذا تبادل الذين يأتون الكلام، وكان هذا الكلام بين الشتائم والأسئلة، فقد اصبحت على يقين ان الجولة الأولى انقضت دون ان اعترف، دون ان انهار. كنت اسمعهم يقولون:

«هالابن الحرام ولا كلمة» «ما عنده الا آخ يُمّه، آخ يُمّه»

واغفو، او يعاودني الخدر، فلا احس الا بطبقة كثيفة من النيران تشتعل في داخلي وتنتشر في جميع انحاء جسدي، واحسّ ان القيدين والساقين مصدر هذه

النيران التي تتفجر بين فترة واخرى كما ينفجر ينبوع انحبست مياهه مدة طويلة وها هو يفيض ليملأ كل شيء.

النار. النار في كل مكان. نار تتفوقُ على نفسها في كل لحظة. تتزايد. لونها البرتقالي يحمّر شيئاً فشيئاً، يصبح على زرقة، وتمتد من الساقين الى الظهر حتى اذا وصلت الى الكتفين انتشرت صعوداً ونزولاً لتتركز اخيراً في العينين والخصيتين، وحين تتركز هناك يغادرني الخدر ويصرخ الم حاد كأنه الأسياخ في كل مكان من جسدي، فاتمنى ان اغرق في ماء بارد بارد، وان ابقى هناك فلا اخرج أبداً. اتمنى ان اصبح قطعة من جليد غير قابلة للذوبان نهائياً، لعل جزءاً من هذا الألم يتلاشى!

كانوا يطلّون عليّ بين فترة واخرى، هكذا كنت احس، من الكلمات، من اصطفاق الباب. هل كانوا يريدون التأكد من موتي؟ انني لا ازال على قيد الحياة؟ هل يريدون مني شيئاً اخر؟ هل اقوى على احتمال اكثر مما احتملت؟

واصحو، مرة اخرى، على موجة جديدة من القيء. احس انني سانقذف كلي الى الخارج، الى ما وراء جسدي، وان حيوانات عمياء كانت محبوسة في الداخل تريد ان تخرج، ولأنها لا تعرف طريقها، ولا ترى، فهي تتدافع بقوة، بجنون، بحثاً عن وسيلة ما للهرب. وحين اتحرك فاسحاً لها المجال تصرخ اضلاعي من الحركة، من الاحتكاك بتلك الأخشاب التي تشدني بقوة. اما الكاحلان المربوطان الى القوائم الخلفية للطاولة فلم اعد احس بهما.

في وقت ما جاءوا مرة اخرى!

لم اتأكد، رغم الأصوات، الا حين هوى الكابل على ظهري، ارتعشت او صرخت، لا اعرف، وسمعت صوتاً يأتي من بعيد:

ـ استعد!

في وقت لاحق، ومتأخر جداً، وكنت استعيد وقائع تلك الأيام، ساكتشف ان كلمات كثيرة يرددها مثل هؤلاء الناس لا تعني اي شيء، وانهم يرددونها بشكل آلي، لأنهم هكذا لُقّنوا، ولا يعرفون استعمال غيرها اذ قد لا تليق بهم او بالمهمات التي يقومون بها!

ماذا يعني ان استعد؟

ربما تحركت او تململت، فانتشر الألم مثل موجة عاتية. وجاءني الصوت اقرب من المرة السابقة:

- راح نفّك يدك اليمين حتى تتسمم!

وبعد قليل وبلهجة ساخرة:

- وهذا الأكل لازم تأكله!

هذه المخلوقات، بالاضافة الى الضرب، تعرف كيف تسخر، وتعرف متى تفعل ذلك!

فكوا القيد، نزعوا العصابة عن عيني، وضعوا على كرسي صغير، قريباً من فمي، صحناً. هكذا قدرت من الرائحة، لأني لم اقو على رؤية اي شيء. حين لم يجدوا اي رد فعل، ولم استوعب ما يريدونه مني، هبط واحد منهم على ظهري كما تهبط صخرة. غاصت اضلاعي في حفرة بين لوحتين صرخت:

- كفار.

اتذكر هذه الكلمة بالذات لأن الضحكات، الأقرب الى القهقهة، ملأت جو السرداب، وكانت تترجع على شكل صدى، وكانت مليئة باللذة والشبق.

كنت احاول ان أجمع نفسي، ان اركزلعلي اراهم. في لحظة ما رأيت اشباحاً، كانوا يدورون حولي كما يدور الثور المربوط، أرى أرجلاً، كتلاً سوداء، أسمع اصواتا،ورغم حدتها الا انها تصطدم ببعضها وتتكسر، لا تصلني الا اصداؤها. كانوا يضحكون، يتبادلون حديثاً، وحين يلتفتون اليّ فلكي لا ينسوا المهمة التي جاءوا من اجلها!

تعبوا مني. لم افطن للأكل، فاذا ذكّروني به تصدر عني صرخة او حركة تجعلهم يتأكدون انني لن أمدّ يدي، ولا افكر ابداً بهذا الأمر.

اخيراً، وتنفيذاً للواجب، اطعموني بالقوة! كانوا يدسون البيضة في حلقي كما يدّس العلف لخراف الشتاء. كان الواحد منهم يلوي رأسي، والأخر يدس البيضة، فاذا اصرّ فكاي على الصمت يضغط الثالث على ظهري بطريقة معينة، احس معها انني على وشك الاختناق، فيتحرك الفكان، وبهذه الحركة الاجبارية القصيرة تنزلق اجزاء من البيضة الى البلعوم، لكن الحيوانات العمياء في داخلي كانت تشكل سداً

يمنع استمرار التقدم. اذ ما كادوا يفترضون انهم قهروني، وانهم استطاعوا اطعامي بالقوة، وتراجعوا قليلاً، حتى هجمت تلك الحيوانات المنتظرة، فتقيأت، اخرجت من جوفي اضعاف ما حاولوا ان يضعوه فيه!

رغم النار التي تشتعل في داخلي، نتيجة الألم، ونتيجة سخريتهم المرّة السوداء، وفي لحظة خاطفة، استطاعت عيني ان ترى ذاك الذي يلوي عنقي، ورأيت الآخر الذي يزقني كما تزق الطيور الصغيرة، كانوا يضعون على وجوههم الأقنعة!

هل كانوا يخافون مني؟ لا يريدون ان اعرفهم؟

لا يهم، ولكني تشجعت، احسست انني لا زلت اعني لهم شيئاً، وربما لا زلت قوياً!

تعبوا، ملوا، ثم يئسوا، خاصة وان القيء تزايد، وكأن شيئاً حرض الحيوانات التي في داخلي، فقرفوا، ابتعدوا، اصبحوا يحاذرون وهم يقتربون مني، وهم ينقلّون خطواتهم هنا او هناك.

في لحظة صحو سمعت الصوت واضحاً:

- طبّة مرض اكل او عمره ما ياكل!

وبطريقة اقرب الى التواطؤ، وبكلمات قليلة، غير واضحة، اتفقوا على ترك هذه المهمة الشاقة، وغادروا.

خيم الصمت من جديد. لا اعرف ان سهوت او غفوت، لكن اتذكر ان سوطاً أيقظني. فزرت كما تفز الطيور الخائفة، فقد كان مفاجئاً، قوياً، قاسياً الى درجة انه يريد ان يقتلني لا ان يوقظني. صرخت:

- يا اولاد الكلب!

جاءتني ضحكة الشهيري. كانت اقرب الى القهقهة، تماماً مثلما يفعل الأب حين يكتشف ان قاموس ابنه قد اغتنى وامتلأ بكلمات لم يكن يتوقع انه وصل لها. قال بعد ان هدأ:

- بسيطة، ما يخالف، باكر او اللي عقبه راح نشوف!

وتغيرت اللهجة وهو يضيف:

- اذا كانت هذه المرة فاتت على خير، وبعدك حي، فحضّر نفسك للجاية وحدها، وما اقول للجايات، لأنْ اللي ما ينصاد اول نوبة ينكس على رأسه في الثانية، والشهيري أبد ما يعرف الثالثة، وان غداً لناظره قريب. . .

وخاطب الذين معه:

- فكوا هذا الخنزير الكافر!

بعد ان فكوا القيود والحبال صرخوا بي:

- انزل!

للحظات، وربما طويلة، لم استوعب ماذا يريدون مني، فقد كنت بعيداً ومملوءاً، بالألم والخدر، أما بعد ان لسعني السوط بين الكتفين، مع صرخة اقوى من الأولى، فقد ادركت. جمعت بقايا قوتي وإرادتي وحاولت النزول، لكن لم استطع، اذ انفجر الألم بين اضلاعي وعند الكتفين ووسط الصدر، فارتخيت. حاولت ان ارفع يديّ وان استعين بهما لكنهما لم تطاوعاني، وحين هوت الرجل اليمنى، مع دفعة قوية من الجهة المعاكسة، فقد تدحرجت، سقطت في مستنقع الدماء والقيء وبقايا المياه، كما تسقط سمكة. كان للسقوط صوت يشبه طشة جسم ندي في زيت مغلي، اذا انتفض الجسد نتيجة الصدمة ثم ما لبث ان همد.

لم اكن قادراً على ان اميز شيئاً او احداً. الدوي يملؤني، والألم ينتشر ويفيض كالحرائق. كنتُ على تخوم الوعي والغياب، لا اقوى على الصحو ولست بعيداً عما يجري حولي. أما حين انفجر الصوت من جديد: «انهض»، ومثلما تستجيب الحيوانات للأصوات، وان تكن لا تميز دلالاتها، فقد تململت في محاولة للنهوض. امتدت لي يد وانتشلتني من تحت الأبط. حاولت ان اقف. لكن ما كادت اقدامي تلامس الأرض حتى أصبت بحالة من العواء المجنون: «آخ . . آخ يمه آخ يمه» وهويت!

كانت القدمان تشتعلان، تلتهبان، وكان اللهب يمتد بسرعة خارقة الى كل انحاء الجسد، يصبح حريقاً اسمع صوته وهو يأكل الأعصاب، يذيبها، يجعل كل شيء بلون قرمزي، وكأنه اكتنز حرائق الدنيا كلها، ولا يتوقف، اذ ما يكاد يصل الصدر ثم الرقبة، ويلمع بقوة وحدة داخل الجمجمة، حتى يرتد من جديد كأنه

الزوبعة المجنونة التي لا يمكن لشيء ان يقف في طريقها.

صرخوا من جديد طالبين مني ان اقف، حاولت، لكن لم استطع. فرقع سوط في الهواء، في محاولة للتهديد او التخويف، لكن الأمر لم يتغير. جاء صوت، ربما صوت الشهيري:

ـ شيلوه!

دحرجوني على بطانية، وتقابل اثنان على حملي. فُتح باب السرداب، ثم فتح باب آخر على بعد خطوات من الأول، والقيت هناك، وغابوا!

لا اعرف كم انقضى من الوقت حين جاءوا مرة ثانية؛ جاءوا يحملون سخريتهم المرة من جديد: جاءوا بالطعام!

كانوا مجموعة وكانوا مقنعين ايضاً. بعد ان بذلوا «جهداً» كبيراً من أجل استعادتي من المكان البعيد الذي كنت فيه، بالصفعات والركلات والماء البارد، عدت. بصعوبة عدت، القليل مني هو الذي عاد.

من خلال الصراخ وتقاسم المهمات قدرت انهم ثلاثة، واذا كنت قد استعصيت عليهم في السابق من خلال العجز والألم، فقد جاءت الحمى الآن لتجعل كل الأشياء حولي اقرب الى الأشباح، ولتجعل الأكل عملية مستحيلة!

ومثل المرة الأولى، وكواجب ثقيل، فتحوا فمي، كما تفتح افواه الخيول لمعرفة اعمارها، ودلقوا شيئاً فاتراً، ولمّا تعذّر دخوله، امسك واحد منهم بالرقبة وخلخلها، شعرت انه يريد خنقي، يريدني ان اموت في اللحظة، انتفضت، فانزلق ذلك السائل الفاتر الى الداخل والى الخارج، كما يفيض المحقان اذا دُلق فيه اكثر مما يحتمل! فعلوا ذلك مرتين او ثلاثاً، ولما اعتبروا ان ما فعلوه كافياً نفضوا ايديهم وغادروا!

قدّرت بتوالي الأيام انهم يريدون ان ابقى حياً لكي يقتلوني بأنفسهم، فهم لا يوافقون ان اموت كما يموت آلاف البشر الآخرين، واذا فعلت ذلك سوف يحزنون، خاصة الشهيري. كيف اجرؤ على ان اغدرهم واغادر؟ ومتى كان للسجين حرية ان ينهي حياته بنفسه؟

بعد تلك الوجبات، وحين اصبحتُ اميز ما حولي قليلاً قليلاً، وخلال فترات الصحو، اخذتْ الآلام شكلاً مختلفاً، فالجروح التي كانت ساخنة، وتنفجر على

شكل ومضات، ثم تغيب، اصبحت الآن هذياناً مقيماً، لعنة لا تفارق، كالحكة المجنونة او مثل وجع الأضراس. واصبح الألم الآن وجعاً لا يزول، فكل حركة، حتى من خلال النفس، تولّد موجات متلاحقة من الآلام، فاذا اضيفت اليها العين فعندئذ يتحول الوجع الى حالة من الجنون!

باطن الساقين جمر . الأمعاء اسياخ نافرة. العيون مسابر للداخل بدل ان تكون نافذة للخارج. وماذا ايضاً؟ الغيظ، الحقد، الانين الذي اذا توقف بدأ بعده الهذيان، لكن ماذا اذا رأى الانسان انه اخذ يتحول بين نظرة واخرى؟

حين بدأتْ عيناي تميزان، ونظرتُ الى ساقّي لم اصدق: هل استبدلوا الساقين؟ هل يمكن ان يتحول الانسان بهذا المقدار او الى هذا الشكل؟

زرقة الساقين تبدأ لكن لا تنتهي. في وقت متأخر، بعد ان استعدت القدرة على التدقيق وقراءة الألوان كنت ادهش: الركبتان قائمتان، ثم ما يليهما قتام كامل، فصفار ـ أقرب الى لون التراب المحروق، يليه حمارات متنوعة ومتدرجة الى أن تصبح بنفسجية، ثم سوداء!

لو ان الأمر اقتصر على الألوان لوجدت له تفسيراً سريعاً، كأن اقول: الاحتقان ، او مواقع الضربات؛ واذا تجرأت اكثر، ودون معرفة كافية بالطب يمكن ان افسر الأمر بالاوردة والشرايين، وبالتالي افسر ما حصل على ضوء مسارات الدماء في الجسد، لكن حين تصبح الساقان بضخامة سيقان الفيل، ولا تتوقفان عن التغير، فان العينين تصبحان نافذتين للخوف. من أين جاءتني هذه السمنة، واين كانت تختبىء كل هذه الألوان؟ تذكرت الغريري والحرباء ولكن اذا كان الأول يسمن بالضرب فان الثانية تغيّر الوانها بنفسها، كطريقة للدفاع او للتكيف مع المكان الذي تعيش فيه. أما بالنسبة لي فلم اتصور ابداً انه يمكن خلال بضع ساعات ان اسمن بهذا المقدار، او ان تتغير الواني بهذا الشكل!

ولكنهم لم يتركوني انعم بهذه الاكتشافات!

في اليوم الثالث او الرابع، لست متأكداً، لأن مقاييس الزمن اختلطت بالنسبة لي الى درجة لم تعد حتى وجبات الطعام قادرة على تحديدها؛ فالضوء الكهربائي الذي لا ينطفىء ابداً، وعلى هذا العمق في باطن الأرض، يقتل الاحساس بالزمن، يجعله

مختلفاً تماماً؛ واذ ظللت قادراً على التمييز في الزنزانة القديمة من خلال بلاطات السقف، فقد انقطعت صلتي بزمن البشر وبزمن الله منذ ان وصلت الى سجن العبيد.

في اليوم الثالث او الرابع اذن سمعت ضجة غير عادية، من وقع الأقدام اولاً ثم الأصوات. قدّرت انهم جاءوا لأخذي مرة اخرى. تطلعت الى ساقي الممدودتين، وكانتا اشبه بباذنجتين شيطانيتين من حيث الحجم وعدم الانتظام، وتطلعت الى السبابة ايضاً. قلت لنفسي : «عذاب ساعات ولا ذل العمر كله، والرهان بيننا، وسوف يرون» حركت السبابة وقلت لها «انت لي ولا تعترفين بأحد سواي، ولذلك لا تتلقين الأمر الا مني، وها انا اقول لك، ويجب ان تعرفي ذلك جيداً: لن تتحركي ابداً منذ الآن وحتى نعود الى هنا مرة اخرى» ولا اعرف لماذا شعرت بالزهو وانا اضيف مخاطباً السبابة «وسوف اصنع لك، ذات يوم، تمثالاً من ذهب!».

الضجة لا تزال حولي لكن لم تصلني بعد. انفتح باب، ربما باب السرداب. الضجة اعلى من قبل والأصوات اكثر وضوحاً. بصعوبة ميزت صوت الشهيري او اخر يشبه صوته: «ركبوه».

الى ما قبل هذا اليوم كنت اسمع اصوات المجلودين عن بعد. كانت تفصلني عنهم مسافة أما اليوم فان الشهيري يريد ان يلقنني درساً جديداً.

حين بدأت الكابلات تنهال على القدمين، على الساقين، واشتعلت معها الصرخات، قبضت على نفسي في حالة من الخوف لا يمكن ان تخفى، او ان يسيطر عليها: انكمش جسدي كله واخذت ساقاي بالارتجاف، وزادت دقات قلبي ايضاً! لقد حصل ذلك دون ارادة. ورغم اني لمت نفسي كثيراً، وبقسوة، مرة بعد اخرى، وجدت ان لجسدي ردود فعله الخاصة به، وغير العاقلة. كان يتقلص مع كل ضربة تنهال، كان ينتفض لكل صرخة.

مرّ وقت طويل والضربات تتوالى والصراخ يعلو، وفي لحظة من اللحظات سمعت صوت الشهيري يطغى بفرح على جميع الأصوات:

- وقفوا . . . وقفوا . . . على مهلكم، الرّجال يريد يعترف!

واختلطت الأصوات وتداخلت، لكن لم اعد قادراً على متابعة ما يدور، وان

ظللت مشدوداً متنبهاً.في وقت ما سمعت خطوات تقترب، قلت لنفسي: جاءوا! ضربة قوية على الباب، ثم الصوت:

- عصب عينك.

وضعت العصابة وتهيأت. انفتح الباب. من الصوت عرفت انه الشهيري:

- كيف حالك يا ابن العريفي؟

- مثل ما تشوف عينك!

- اريد ان اسمع منك.

- ما عندي شيء.

- يباسة الراس ما تفيدك يا طالع...

وتغيرت اللهجة، اصبحت ساخرة ومتكبرة:

- وهذا خويك، وظني انك سمعته اعترف عليك وعلى غيرك وقال كل شيء!

رددت بسخرية:

- ما عندي شيء حتى يعترف عليّ هو او غيره!

- حزين وواعي، يا ابن الحرام، وتعرف كيف تفتي وتدافع عن روحك، لكن مزاميرك هذي، يا ابن العريفي، تقراها على واحد غيري، ما هو عليّ.

قلت بمسكنة مخاتلة:

- ماعندي،الله يسلمك، مزامير او اناشيد، وانا متأكد انكم مشتبهين، واللي تريدونه واحد غيري!

- ما نريد الا انت، واذا ما اعترفت اليوم تعترف باكر او اللي عقبه، واذا كنت رجال احمل!

وبعد قليل وبغيظ:

- احذر وتوق يا ابن العريفي ترى البيضة ما تلاطم ' لحجر!

وانسحب!

هل وجدني لا احتمل ولذلك اجّل تعـذيبي الى فترة لاحقـة، ام انه يـريد مراكمة الدروس لكي اسقط في النهاية كالتمرة الناضجة؟ ولماذا كان واسع الصدر، خلافاً لمرات سابقة، واخذ يحاورني بهذه الطريقة؟

قلت لنفسي في محاولة اخيرة لحسم التساؤلات «ربما لا يريد ان يفقد متعـة النصر التي حققها في السرداب مع واحد غيري، ولذلك اتبع هذا الاسلوب. . ثم ان للمحقق عشرات الأساليب. ومن الغباء اعتماد اسلوب واحد».

ولكي لا يفقد الشهيري المبادرة لم يغب طويلاً.

في اليوم نفسه، او بالأحرى في الليل، اذا افترضت ان الجولة الأولى جرت في النهار، سمعت الضجة والأصوات في السرداب، ظننت ان دوري جاء، لكن حين استمرت الحركة قدرت ان الضحية واحد آخر، ومع ذلك بعث يطلبني هذه المرة.

دقات قوية على الباب ثم الصوت.

ـ عصب عينك، واستعد!

عصبت عيني، ولأني اضطررت خلال اليومين الأخيرين الوصول للمرحاص مستنداً الى الجـدار، ومستخـدمـاً كعبي القـدمـين، دون ان يـلامس بـاطن القـدم الأرض فقد فعلت كذلك هذه المرة. انفتح الباب ومُدت اليّ العصا. امسكت بها، لكن ايقاع الخطى اختلف بيني وبين الذي يقودني. سقطت، وخـزني بقوة في ظهـري وصرخ:

ـ تقوم والا اكسّر راسك؟

بصعوبة نهضت. امسكت بالعصا مرة اخرى، حاولت ان امشي على ايقاع مشيته، كانت الخطوات العشر الى السـرداب اطول واصعب رحلة في حياتي! كنت كمن يدوس جمراً او زجاجاً مكسوراً، كمن يمشي على شفرات حادة وغير منظمة. كـدت اصرخ، كـدت اتوقف، لكن حـزم العصـا الممتـدة وضجـة الآخرين في السرداب، لم يتركا لي اي خيار، ثم ماذا تعني هذه الآلام قياساً لما ينتظرني بعـد لحظات؟

طُلب مني الجلوس، فجلست. سمعت صوت الشهيري، قال يخاطبني دون ان يذكر اسمي:

ـ لأنك عزيز علينا قلنا لأرواحنا لازم تشاركنا هذه الحفلة!

وتغيرت نبرة الصوت:

ـ ومثل ما قلت لك: اذا اردت ان تعترف وتقول كل شيء ترفع السبابة!

كان الأمر شديد الالتباس بالنسبة لي: المشاركة، الحفلة، واخيراً السبابة. الحفلة لي ام لغيري؟ وكيف ستكون هذه المرة؟ وجاء صوته من جديد:

ـ توكلوا على الله!

وبدأت الكابلات، لكن على رجلي واحد آخر مربوط الى الطاولة. لم تكن تهوي على رجليه او ساقيه فقط، كانت تهوي في باطن عيني، فكل ضربة احسها مثل سيخ النار داخل العين، وسط القلب تماماً. أما حين بدأت تتوالى صرخاته فقد شعرت ان مجنوناً اعمى وبيده زجاجة مكسورة يطعن كل ما يجده امامه، وكنت الوحيد الذي ظفر به واخذ يوجه اليّ كل الطعنات. تمنيت ان اكون المجلود ولا اسمع الضربات تنهال عليه ثم تليها الصرخات، فالذي يُضرب يمكن ان يغمى عليه، ويستطيع ان يشتم، أما الذي ينتظر دوره، الذي يشهد التعذيب رغماً عنه، فانه يعاني اضعاف ما يعانيه المجلود ذاته.

كانت الضربات تتوالى كمطر غزير، وكانت الصرخات تزيد عليها. كانت الصرخات ترتفع وتتنوع. الى ان اخذت وقعاً: «آخ، مظلوم، والله مظلوم. آخ، مظلوم، والله مظلوم» ولا يسمعون، ولا يهدأون، ولا يتعبون.

ظلوا كذلك وقتاً طويلاً. لم اشعر طوال حياتي ان الزمن يمكن ان يكون عدواً كما شهدته في هذه «الحفلة». ولم اشعر ان الانسان قادر على الحقد مثلما شعرت الآن ورغم ان سنوات مرت فلا اعرف لماذا كنت رخواً وجباناً ولم افعل شيئاً سوى ان اكون الشاهد الأخرس. لماذا لم اصرخ؟ لِمَ لم ادخل معهم في معركة؟ وهل كنت عاقلاً الى درجة ان ابقى جالساً مثل سعدان مذعور ارقب الأشياء دون اية قدرة على الاحتجاج او الصراخ؟

هل رفع هذا المجلود اصبعه وقرر ان يعترف ام انها مسرحية جديدة للشهيري؟ كنت متأكداً ان شيئاً ما يدبر لي، ولذلك يجب ان اصمد، ان اقاوم، ويجب ان اشكّ بكل شيء.

قال الشهيري بطريقة فخمة:

- العاقل اللي يعترف حتى يخلص، لأن يياسة الراس ما تفيد. . .

وضحك بقهقهة، ثم اضاف كأنه يخاطب نفسه والفريق الذي معه:

- هنا الدجاجة تطير وتعلّي، والصقر، ابو القوادم والجناحين، يهوي ويركع، ومثل ما تشوفون!

وبعد قليل وبلهجة مختلفة:

- لكن، سبحان الله، الواحد ما يعرف حتى يجرّب. نقول له هذي نار، يا ابن الحلال، لكن ابد ما يصدق، فاذا انكوى، اذا مسته، صاح. قال ان الله حق! والواحد ابد ما يتعظ، ومثل ما قالوا: الله بالعين مانشاف لكن بالعقل انعرف، لكن الواحد منهم يلزمه يشوف حتى يعرف وبعدها يعترف!

ولا بد انه اعطى اشارة، لأن الموكل بي وخزني بعصاه وقال:

- انهض!

كانت رحلة العودة من السرداب اطول واكثر قسوة، اذ بالاضافة الى سرعة الذي يقودني، فان حالة من الهياج، الأقرب الى الاثارة، استبدت بهذا «القائد»، اذ ما كدت اهوي على وجهي بعد خطوتين او ثلاث خطوات، حتى وجدته يدوس فوق كتفي بثقله كله ويشتمني:

- نازك مثل الشكولاتا يا ابن القحبه، خطوتين ما تقدر تمشي، ها؟

ويدوس اكثر، وبعد قليل يصرخ:

- قم يا ابن الكلب، قم!

بصعوبة نهضت، وخزني بالعصا، طالباً ان امسك بها. مشينا مرة اخرى، عند باب الزنزانة وقعت. فتح الباب، وقال بسخرية وهو يدحرجني بيديه ورجليه الى الداخل:

- داده يا الله ويا الله، داده ويا ما شا الله. . .

وبعد قليل وبغيظ:

ـ كأنه ، ابن الحرام، بعده ما انفطم: انت لازم توكله، وانت لازم تدرّجه؛ ما باقي الا ان نحفظّك يا ابن ستين كلب.

وتفل علي وخرج!

تركني الشهيري تلك الليلة لكي استوعب الدرس جيداً، ولكي اقدر ما ينتظرني فيما لو استمرالإنكار. ولكن لم يتركني طويلاً، اذ يريد ان يستثمر النتائج الجسدية والنفسية التي تحققت حتى الآن.

في اليوم التالي، بعد الظهر جاء ومعه عدد من جلاوزته، جاءني الى الزنزانة بنفسه:

ـ كيف انت يا ابن العريفي؟

ـ مثل ما تشوف.

ـ اشوفك أصفر ومعلول!

ـ من بركات الله وبركات الاجاويد!

ـ خير الله كثير وابد ما راح نقصر معك. . .

ضحك بسخرية وسأل بلهجة جديدة:

ـ وهالحين. . تريد تتكلم وتعترف ام تريد تشوف ما قسمه الله؟

ـ اللي قسمه القسام مكتوب على الجبين ولازم تشوفه العين!

ـ هذا الكلام ما يفيدك، وما يوكل خبز، يا ابن العريفي، والأخير ان تعترف.

ـ اعترفت بكل شيء.

ـ والله ، يا ابن الحرام، لاخليك تزّوع مصارينك وتقول ان الله حق!

وصرخ مثل ذئب:

ـ قم يا ابن الكلب!

وتلقيت عدة ضربات متوالية. ضربات بكابل، بعصي، بالأرجل. كنت معصوب العينين ولا اعرف من اين تأتيني الضربات. وقفت . وقفوا. قال الشهيري:

ـ تعال وخذ ما قسمه الله، والمشي هرولة!

اخذوني لا اعرف الى اين، كنت خلال هذه المسافة لا امشي على قدمي وانما على عيني بالذات، لأن الضربات التي كانت تتوالى وتتسارع لم تترك لي حتى فرصة السقوط. كانت تنهال كالأمطار الغزيرة، كالصواعق، وكانت تتناسب مع معدل السرعة، فاذا اسرعت تقل واذا تباطأت تزيد، اما اذا وقعت على الأرض، وكثيراً ما كنت اقع، لأني لا ادري كيف اتحرك او الى اين، فان الصرخات والضربات تتسارع الى درجة توقعت ان اموت بين ايديهم. كنت احاول حماية رأسي بيدي، لكن الضربة التي تنزل كالمحراث في الجانب الأيمن او الأيسر، عند الكليتين، تجعلني على يقين ان من يضرب بهذه الطريقة يريد ان يقضي عليّ، ثم الصرخات المجنونة التي تطلب مني ان اقف، ان اتابع الركض، تضطرني لأن افعل ذلك، على وهم ان محاولة مثل هذه قد تنجيني من ضربات اضافية.

استمرت هذه «الحفلة» دهراً، لأن الثانية الواحدة، الجزء من الثانية، هنا، اضعاف زمن البشر الآخرين. هنا لا يثبت هذا النوع من البشر انه مجرد حيوان دنيء، وانما لم يصل الى المملكة الحيوانية بعد. لأن الحيوانات، الكبيرة والصغيرة، وحتى الدنيا منها، حين تتقاتل فمن أجل امور حيوية، لأهداف محددة تماماً، ولوقت محدود، لكي تؤمن حاجاتها للبقاء والاستمرار. أما ان يتحول الضرب الى متعة، الى نشوة، وان يكون مقصوداً لذاته، فلا اتصور ان هناك مخلوقات يمكن ان تكون حمقاء بهذا القدر!

في وقت ما تهاويت ولم اعد قادراً على الوقوف. انهالت الضربات اكثر من قبل، ومعها صرخات مجنونة، لكن قررت ان لا اقف، او بكلمات ادق: اصبحت عاجزاً عن الوقوف حتى لو اردت. وحين اصبح الموت وشيكاً وحالاً، وفي لحظة وعي براقة، ومن خلل الدماء صرخت:

ـ سوف اموت، لكن حذائي سيبقى اشرف منكم، ايها القتلة!

هل قلت هذه الكلمات؟ توهمتها؟ وصلت اليهم؟

اتذكر ان صمتاً خيم على المكان، ربما نتيجة الكلمات التي قلتها او باشارة من الشهيري، لأن بعد ذلك الصمت جاءت كلمات الشهيري:

- والله يا ابن الحرام لاموتك الف موتة قبل ما ادفنك، ولاخليك تحكي مثل الببغاء!

وبعد قليل وبحزم:

- رجعوه هالحين الى مكانه!

ولكنه استدرك:

- لا.. خذوه للعشرين

وضعوني ببطانية، كما توضع الجثة، واخذوني الى حيث امرهم!

احتجت الى وقت غير قصير لكي ارمم ذاكرتي ومعرفة كيف تتابعت الأمور منذ ان أُلقي بي في الغرفة عشرين. واذا كنت قد حشدت نفسي لكي اقاوم حينها كانت تنهال عليّ ضرباتهم، وحاولت ان ابقى ممسكاً بما قد يذّكرني، ربما لاكون شاهداً، يوماً ما، على ما يفعلون! فقد غبت عن كل شيء منذ اللحظة التي اصبحت فيها مثل كومة داخل البطانية. لا اتذكر كيف حملوني، وكم ساروا بي، والى اين أُخذت. كانت تمر بي لحظات، وان تكن متواصلة ومضطربة، اسمع اصواتاً من حولي، لكن لم اكن قادراً على التمييز او التركيز. أما محاولات اطعامي فكنت اقاومها او استسلم لها، وكأنها تجري في الحلم!

لا اعرف كم من الأيام مر وانا في وضع اقرب الى الغياب، لأن التهدم الذي حلّ بي لم يتوقف، فما اخطأته ضربات الكابلات والعصي والركلات، تولته الحمى ثم الالتهابات. اذ ما اكاد افيق من التماعات الألم حتى تمسكني الحمي. احس نفسي وقد تحولت الى خرقة ممزقة في ريح عاتية. كنت اسمع لاسناني دوياً وهي تصطك، وكانت نوبات الحرارة والبرودة تتلاحقان في سباق لا نهاية له. اما اذا نمت فان الأشباح والصرخات كانت تتعقبني، تتشبث بي، كانت تنفجر في كل لحظة، تظهر وتغيب في تناوب لا يتوقف، فكنت اهذي ، وكنت ابكي الى ان تأتي امي، كانت تحتضنني، تمسح على رأسي، تطلب مني السكوت، فاسكت، واطمئن. لكن حين تريد ان تغادر اصرخ واتشبث بها، فتضطر لأن تأخذني معها، وهكذا نذهب سوية لا اعرف الى اين، وبعد ان نمشي ونمشي، فجأة تغيب، ابحث عنها، انادي، اصرخ، لكن لا احد، وحين اصرخ اكثر من قبل افيق!

كان ذلك يتكرر كثيراً، في الليل والنهار، ولا اتذكر انني نمت مرة واستيقظت الا على فراق امي! في احدى المرات، بعد ان اضعت امي واستيقظت وجدته امامي!

لا اعرف من هو او لماذا هو موجود هنا. حين التقت نظراتنا، واستطعت ان اميز وجوده، ابتسم لي. لم اصدق ان انساناً معي في نفس المكان، وانه يبتسم، ولم يكن مقنّعاً! ربما هو الانسان الأول، بعد المصور، الذي اراه منذ شهور طويلة!

اغمضت عيني لأني لا اريد ان اصدق. في العتمة والصمت سمعت تنفسه؛ اذن هو انسان حقيقي! انسان من لحم ودم، ويختلف عن الآخرين الذين حولي!

فتحت عيني من جديد ونظرت اليه، ابتسم، حاولت ان ابتسم له. قال لي بهمس:

- هل تحتاج الى شيء؟ ماذا استطيع ان افعل؟

هززت رأسي. ابتسم لي وقال:

- انت الآن افضل، كيف ترى نفسك؟

هززت رأسي موافقاً لأشعره انني افضل من قبل. ظللت احدق اليه بتساؤل. ابتسم اكثر من قبل، اقترب مني وقال بهمس لا يكاد يسمع:

- انا موقوف واسمي حمد.

تطلعت حوالي، تطلعت الى نفسي. الغرفة واسعة، قياساً للزنزانات، الضوء الكهربائي يشع، وفي الزاوية المرحاض، وهو دون باب، وجداره في مواجهة الغرفة. كنت مستلقياً على فراش هو عبارة عن قطعة من اللباد والغطاء بطانية ربما لونها اسود. الجروح تغطي اجزاء عديدة من جسدي، الساعدين والساقين وبالتأكيد الظهر. الورم في رجليّ اكثر من السابق، وان كمد اللون واصبح يميل الى الزرقة الحائلة. الأقدام، بمقدار ما استطعت ان ارى، لا يمكن تحديد ما حل بهما، او كيف اصبحتا الآن، لأن الألم يمنع حتى من تدقيق النظر!

قدّرت ان رفيق الغرفة اعتنى بي طوال الفترة الماضية، لأن بقايا الخرق الملطخة بالدماء لا تزال قريبة من الفراش، اضافة الى بعض الأربطة للساعد اليسار، واخرى لكاحل الرجل اليمنى.

بعد هذه الجولة السريعة، وحين تأكدت ان من اراه امامي رجلاً حقيقياً، سألته وخرج صوتي متعباً ومخنوقاً:

- هل ضربوك؟

- ضربوني مرة واحدة ثم توقفوا لأني مريض.

- كم مضى على وجودك هنا؟

ومثل الصاعقة المفاجئة سمعنا اقدامهم تملأ المكان خارج الغرفة، ثم الصوت:

- حمد.. عصب عينك واستعد!

واخذوا حمد. انتزعوه بقوة وقسوة كما تنتزع رؤوس الذرة، كان عددهم كبيراً وكانوا مقنعين ايضاً، اذ لا تظهر الا عيونهم. وغاب حمد نهائياً!

في وقت لاحق ساعرف ان هؤلاء القتلة، اذا لم ينته الانسان بين ايديهم، او لا يستحق ان يرسل الى المستشفى لاعادة ترميمه، يوكلون لاحد الموقوفين العناية به، لأنهم يستنكفون عن القيام بمثل هذه المهمة، وحالما يستعيد المجلود القدرة للعناية بنفسه، ولئلا يحصل على اية معلومات، يفصلونه عنه، وهم يعتمدون، بالاضافة الى المشاهدة اليومية، على مراقبة الحرس، ويسترقون السمع، وقد تكون لديهم وسائل حديثة ايضاً!

في اليوم التالي، بعد الظهر، جاءوني بشخص آخر. سمعت الجلبة اولاً. كانوا يصرخون ويشتمون اكثر من المعتاد، وكانوا يضربون ايضاً، ثم فتحوا البوابة ودفعوه بقوة، وذهبوا. نزع عن عينيه العصابة وجلس، ولفترة غير قصيرة لم يرني او لم يلتفت نحوي، ولما اكتشف وجودي قطب جبينه ونظر اليّ بعداء، وبعد قليل اخذ يشتم ثم انخرط في البكاء! كان بكاؤه اجشاً، لكن لا يصل الى حد النحيب، ولم يكن حزيناً!

في لحظة فراغه من البكاء او توقفه، قلت له:

- البكاء لا يناسب السجين...

كنت اريد ان اتابع، رغم الارهاق الذي يسببه لي الكلام، ولكن رده كان سريعاً وجاهزاً:

ـ وماذا يناسبه. . . ان يموت من الضرب؟

ـ وهل ضربوك كثيراً؟

ـ الم تسمعهم؟ انهم يضربون بلا رحمة حتى لو ادى الضرب الى الموت.

نظرت اليه ونظرت الى ساقيّ لاقارن. لم استطع ان اصل الى نتيجة ! قلت لنفسي «لا يُفترض ان تظهر الآثار كلها، كما ان قدرة الناس على الاحتمال تتفاوت، وربما وضعوه في جو نفسي اثر عليه».

لم اكن في وضع يمكنني من المتابعة ، قلت في محاولة لأنهاء اية مناقشة:

ـ سوف نتحدث في الموضوع في وقت آخر. . .

وبعد قليل استدركت:

ـ الا اذا اخذوك كما اخذوا الذي كان قبلك!

سأل بذعر:

ـ الى اين اخذوه؟ وماذا فعلوا به؟

وحين صمتُ، وربما صدرت عني حركة تشير الى عدم المعرفة، قال بانفعال:

ـ بالتأكيد قتلوه، فهؤلاء يقتلون الانسان كما يشربون الماء. .

وبعد قليل وبذعرٍ أقلّ:

ـ رأيتهم يقتلون الكثيرين. نعم يذبحونهم كما تذبح الغنم، انت لا تعرفهم، اسألني انا. . .

كان يريد ان يتابع، لكن قطعت عليه الطريق:

ـ لا يموت الانسان الا اذا جاء اجله!

رد بانفعال:

ـ انت لا تعرفهم ، ثم انك في سجن العبيد، وهنا كل شيء مسموح به!

قلت برخاوة،

ـ الحياة والموت بيد الله!

هز رأسه اكثر من مرة وهو يبتسم بسخرية. كان واضحاً انه لا يتفق معي، وكان يريد ان يتابع، لكن حالة من الأرهاق والألم جعلتني غير قادر على الاستمرار، كما انتابني شعور ان في داخل الرجل شخصاً آخر يتكلم، قلت بتعب:

- الصباح، رباح، وسوف نتكلم!

سحبت البطانية الى أعلى الصدر استعداداً للنوم، تساءل بخوف وسخرية معاً:

- ومن يضمن اننا سنبقى حتى الصباح؟

- وكلّ الله يا رجل، فالله اكبر واقوى من الجميع، وقد تتغير الدنيا بين غفلة عين وانتباهتها.

استدرت قليلاً، او لم اعد انظر اليه، استعداداً للنوم، قال، وخرجت الكلمات من بين اسنانه:

- طبيعي، الناس الذين لا يحسون، الذين لا يهمهم: عاشوا او ماتوا، لا ينظرون الى غيرهم!

لم اجب لكن لم انم تلك الليلة.

لا استطيع ان افسر الأمور، اذ بالاضافة الى الوجع الذي لا يغيب لحظة واحدة، فان هاجساً ملعوناً ركبني وسيطر عليّ: هل جاء هذا الرجل ليكسرني؟ هل جاء ليختبر مدى قدرتي على المقاومة والتحمل؟ واذا كان هكذا، جباناً خائفاً، فماذا يعنيني من امره؟ هل انا مسؤول عن نفسي ام انا اب لجميع البشر؟

السجين انسان مليء بالشك والحذر، لا يأمن لآخر بسهولة، ولا يثق بامر، لأنه يتوقع، بين لحظة واخرى، ان يتغير الانسان، او يتغير الموقف منه، وعند ذاك عليه ان يبدأ من جديد. اما من يكون او يبدو قوياً وثابتاً في مكان آخر، فانه في سجن العبيد عرضة للتغير في كل لحظة. وهذا ما سيتأكد لي في وقت لاحق، حين تتوالى السنين وانا في هذا السجن واتعرف على تفاصيله وخفاياه!

لم انم، نتيجة الألم والشكوك؛ امّا حين خيم الصمت، ووجد انني غير قادر او غير راغب في ان نتحدث اكثر مما فعلنا، فقد نام. وخلال فترة قصيرة اصبح شخيره قوياً حاداً، وكأنه في اقصى حالات الطمأنينة! حتى التنفس، اذا اختفى الشخير، نتيجة انقلابه من جهة الى اخرى، كان تنفس انسان غير متعب ولا يشعر بالقلق!

في صباح اليوم التالي، حين استيقظ، وكنت اتظاهر بالنوم، تطلّع الي ليتأكد انني لا زلت حياً، وبعد قليل ارتفع صوته:

- طالع.. يا طالع..

فتحت عيني ونظرت اليه، قال دون ان ينتظر:

- الحمد لله ان الليلة انقضت على خير ولم يذبحونا..

وتغيرت لهجته، اصبحت خائفة:

- وانا اعرف دعاء اذا رددناه ثلاث مرات سيكشف الله كربنا ويفك اسرنا.
ولكي لا يترك لي مجالاً اضاف:

- سأقوله وتردّد ورائي!

وبنغم حزين وخائف بدأ:

- «يا من تحل به عقد المكاره، ويفل حد الشدائد، ويا من يلتمس به المخرج، ويطلب منه رَوْح الفرج، انت المدعو في المهمات، والمفزع في الملمات، لا يندفع منها الا ما دفعت، ولا ينكشف منها الا ما كشفت، قد نزل بي ما قد علمت، وقد كادني ثقله، والّم بي ما بهظني حمله، وبقدرتك اوردته عليّ، وبسلطانك وجهته اليّ، ولا مصدر لما اوردت، ولا كاشف لما وجهت، ولا فاتح لما اغلقت، ولا ميسر لما عسرت، ولا معسر لما يسرت، فصل اللهم على محمد، وعلى آل محمد، وافتح لي باب الفرج بطولك، واحبس عني سلطان الهم بحولك، وانلني حسن النظر فيما شكوت، واذقني حلاوة الصنع فيما سألت، وهب لي من لدنك فرجاً هنياً عاجلاً، وصلاحاً في جميع امري سنياً شاملاً، وأجعل لي من عندك فرجاً قريباً، ومخرجاً رحباً، ولا تشغلني بالاهتمام عن تعاهد فروضك، واستعمال سنتك، فقد ذقت ذرعاً بما عراني وتحيرت فيما نزل بي ودهاني، وضعفت عن حمل ما قد اثقلني هماً، وتبدلت بما انا فيه قلقاً وغماً، وانت القادر على كشف ما قد وقعت فيه، ودفع ما منيت به، فافعل بي ذلك يا سيدي ومولاي، وان لم استحقه، واجبني اليه وان لم استوجبه، ياذا العرش العظيم»[1].

---

(١) التنوخي، الفرج بعد الشدة، الجزء الأول، دعاء الفرج، (٤) تحقيق عبود الشالجي، دار صادر بيروت ١٩٧٨.

حين انتهى بدا متعباً، ولما وجدني لا اردد وراءه اكتفى بالدعاء مرة واحدة!

لم أجد ما اقوله له، خاصة وقد اصبحت اكثر شكاً: «من اين عرف اسمي، علماً بأنه لم يسألني؟» ربما قرأ شكوكي او احس بها، ظل فترة صامتاً، نظر اليّ عدة مرات وابتسم. واذا كانت العادة بين السجناء ان يحتفظوا بمسافة بينهم وبين القادم الجديد، الى ان يتأكدوا، فقد كان مختلفاً:

ـ لماذا انت موقوف؟

هززت كتفي وقلت دون اهتمام:

ـ لا اعرف!

ـ لا تعرف؟ ما هي التهمة؟

ـ علمي علمك، ولا اعرف لأي سبب اوقفوني!

ـ لا بد ان احداً اعترف عليك..

وبعد قليل وبلهجة مختلفة:

ـ اذا كانت هناك اعترافات الواحد ما يخلص مهما انكر؛ والله يساعد اللي عليه اعترافات!

لم اعلق. بعد فترة من الصمت تابع وكأنه يحدث نفسه:

ـ هذا، يا عمي، اسمه سجن العبيد، الداخل مفقود والخارج مولود، ويا ما مات ناس وناس في هذا السجن، لأنهم لم يعترفوا...

وانخرط في موجة من البكاء. بدا لي انه اجبر نفسه عليها، اذ التفت الى الجهة الأخرى فجأة وارتفع صوت البكاء، وكأنه لا يريدني ان ارى دموعه!

لا اعرف لماذا اصابتني حالة من القسوة واعتبرت بكاءه، سواء اكان صادقاً ام كاذباً موجهاً ضدي، وان هذا الرجل ارسل اليّ بشكل مقصود.

وتأكدت ظنوني اكثر وانا احاول الزحف لأصل الى المرحاض، اذ لم يكلف نفسه مجرد كلمة للمساعدة، رغم انه التفت بذعر حين رآني اتحرك. ربما اقنع نفسه انه حزين ومنصرف الى البكاء، وامر مثل هذا لا يعني له شيئاً اما حمد فقد فعل من اجلي الكثير، لا اتذكر، لكن ما اراه حولي يؤكد لي ذلك.

لما حملوا الينا الطعام امتنع عن الأكل، اول الأمر بحجة انه يريد ان يموت. لم اسأله ولم اطلب اليه ان يأكل، ولكن حين رآني اكل بشهية، وحين تساءلت عيناي، قال بمرارة:

ـ الموت اهون من هذا السجن. . .

وبعد قليل.

ـ وكل ما مر الزمن تصبح القضايا اكثر تعقيداً، لأنهم اذا لم يقضوا عليك بالضرب فانهم يصلون الى نفس النتيجة بالنسيان. ولا بد انهم نسوني!

قلت وانا انظر اليه بطرف عيني:

ـ لا اظن انهم نسوك، والا لجاءوا بواحد آخر الى هنا!

اقتنع واخذ يأكل! صحيح ان الطعام في منتهى السوء، اذ لا يزيد عن بضع حبات من الفاصولياء مع كمية من المرق، ونصف رغيف من الخبز، الا ان شروط الجائع محدودة جداً، خاصة حين يكون سجيناً وفي سجن العبيد بالذات!

واذا كان قد اخذ يسألني عن الاحتمالات التي يمكن ان اتعرض لها، والأحكام التي ربما تصدر فيها لو اعترفت او لم اعترف، فقد تأكدت، اكثر من قبل، ان مهمته دفعي الى السقوط.

في لحظة ما افترضت سوء النية، قلت لنفسي: «اذا كانت اقدامي تشققت من كابلات الشهيري واصبحت ازحف لكي اصل الى المرحاض، وبعد ان قضيت شهوراً طويلة في الزنزانة المنفردة، ولم اتكلم فلماذا اصبح غبياً واتكلم امام هذا البكّاء الضعيف حتى لو كان انساناً بريئاً؟ ربما استغلوا ضعفه لكي يعديني، وارسلوه لهذا السبب، ولذلك يجب ان اتحول الى صخرة!»

بعد الغداء، ورغم انني حاولت النوم، فقد ظل يترصدني. ما ان رآني اتململ وافتح عيني حتى بدأ:

ـ اسمعت يا طالع؟

هكذا سألني بخوف، واضاف:

ـ كانوا يحومون حولنا، وربما يريدون قتلنا!

نظرت اليه بلوم وزفرت، تابع دون اهتمام:

- كانوا كثيرين، وقفوا وتشاوروا ثم ذهبوا راكضين، الم تسمعهم؟

قلت بنفاذ صبر:

- ليركضوا الى الجحيم، المهم ان تكون انت قوياً.

صرخ بحدة:

- ماذا تفيد قوة واحد في مواجهة الف؟

- واية شجاعة في ان يقتل الألف واحداً الا اذا كانوا جبناء ويخافون منه؟

- انت مجنون يا طالع!

قال هذه الكلمات وهو ينظر الى عيني. كانت كلماته بين الخوف واللوم، ولم اكن واثقاً ما اذا كان خائفاً او لئيماً، وماذا يهدف من هذا الكلام. قلت بحدة:

- امسك الأرض يا رجل. صحيح انهم اقوياء، ويمكن ان يقتلوا، لكن المسألة اكبر من القتل واخطر!

- انت تريد ان تموت وانا غير مستعد للموت!

صرخت:

- اخرس.. كفى!

في ذلك اليوم، ثم في الأيام الثلاثة التالية، لم نستطيع ان ندخل في اي حوار. حاول، حاول كثيراً وبوسائل متعددة، لكن كنت عازفاً عن اي حديث، واقتنعت اكثر من قبل ان السلاح الذي استطيع به مواجهة الاخرين، وربما الانتصار ايضاً هو: الصمت!

في اليوم الرابع، منذ الصباح، اخذوه.

جاءوا، مثل المرة السابقة، لكن لم يذكروا اسماً، اذ بعد ان دقوا الباب، صرخوا:

- عصبوا عيونكم.

عصبنا عيوننا. وخزني احدهم وسألني:

ـ ما اسمك؟

ـ طالع العريفي.

ـ انت راح تخّ وتموت في سجن العبيد!

قال هذه الكلمات مع مداعبات قاسية: ركلات وضربات بالأيـدي وكمية كبيرة من التهديدات والشتائم، وتوجهوا اليه:

ـ انت.. نعم انت، امش معنا!

واخذوه!

تركوني بضعة ايام ثم جاءوا. سمعت اصوات اقدامهم، كانوا كثيرين. أما حين وصلوا وتوقفوا فقد عم الصمت، وما عدا حزمة المفاتيح التي خشّت وحدها، فان الصمت كان قوياً ثقيلاً.

لم يطلبوا مني ان اعصب عيني، او ان استعد!

فُتح الباب، ودخل الشهيري وحده!

دخل بهدوء وثقة. كان اقرب الى المرح المشوب بالزهو. اجتاز الغرفة اكثر من مرة، وهو يتطلع بعناية وكأنه يتفقدها ثم تطلع اليّ:

ـ ها، يا ابن العريفي، بعدك ميّبس راسك ام تريدنا نصير اصحاب؟

لم أجب. كنت مستلقياً. البطانية تغطي القسم الأكبر من جسدي، حتى الصدر، والآلام مثل بقعة الزيت: ممتدة، شاملة، لكن لم تكن حادة. كنت، في تلك اللحظة، افكر بذلك الشخص الذي مرّ مثل طيف: لماذا ارسلوه اليّ، ولماذا لم اسأله حتى عن اسمه؟ وهل هو فخ ام ضحية؟

لم اجب الشهيري لكني تأملته: كان سميناً الى درجة انه يزن اثنين او ثلاثة مثلي. صحيح انه قصير بعض الشيء، لكنه هذا النوع من القصر الذي تضخمه السمنة. الذراعان عبلان، وكأنهما ذراعا امرأة في منتصف العمر، والوجه قوي، مرتاح، مشدود، مما اكد لي انه يأكل جيدا وينام نوماً عميقاً دون قلق. لون البشرة ناصع، اما اللحية فكانت مشذبة ولا تخلو من جلال، وهي بالتأكيد معطرة، ومرّ تحتها البخور!

الشيء الوحيد الذي يستوقف النظر في هذا الوجه : العين اليسرى!

هل كانت بيضاء؟ مطفئة؟ ليست موجودة؟

لأول مرة ارى الشهيري هكذا!

لما وجدني صامتاً، بعيداً، غارقاً في تأمله، او في تذكّر اشياء بعيدة، سألني، لكن بطريقة لا تخلو من مظاهر الود:

ـ لازم تعرف، يا ابن العريفي: ترى للصبر حدود، ولولا اني حريص عليك، وما اريدك تروح بول بشط، مثل ما يقولون، ماجيتك ولا شفتك، فما اريدك تخيبني.

تململت، تحركت ثم قلت:

ـ انت متوهم وتبحث عن واحد غيري....

وتابعت بلهجة غير عدائية:

ـ انت، الله يسلمك، تتصورني سياسي وشخص مهم، وانا انسان بسيط، على باب الله، لا اهتم بالسياسة ولا اشتريها بفلس، ولذلك تعذبني وتعذب نفسك!

رد بحقد، وهو ينظر الى عيني تماماً:

ـ انت تكذب..

وبعد قليل، وبحقد ومكر:

ـ اسمع، يا ابن العريفي...

وضحك لكي يبعد نظراتي عن عينه، وليركزها على الاسنان، والتي كانت قوية:

ـ الصمت ابد ما كان شجاعة، وتتوهم اذا تصورت ان الذي يصمت شجاع...

ضحك اكثر من قبل واضاف:

ـ ولو ردت اتحاور معك كمحقق لعرفت كيف اجيلك، لكن، هذي المرة، ويجوز الرأفة دخلت قلبي، قلت لروحي: طّول بالك يا رجل، وحاول تتفاهم...

تنفس بعمق وسأل:

ـ فما قولك؟

تركت فترة تمر وسألت ببراءة:

ـ قولي باي شيء؟

ـ اريدك تعترف عن مسؤولياتك في التنظيم . . .

ابتسم ثم تابع بمكر:

ـ معلوماتنا تؤكد ان لا علاقة لك بالجناح العسكري، وهذه وحدها خلّصتك من الأعدام، فاذا تعاونت معنا واعترفت، فالمدة التي قضيتها بالتوقيف تكفي وتوفي، وبعد كم سؤال وجواب نغلق القضية ونقول لك: في امان الله. أما اذا بقيت معند وميبّس رأسك ترى لا تلوم الا روحك، يمكن نعدمك على الشبهة، وانت تعرف: عندنا قدرة وعندنا صلاحية، ولا احد يقدر يخلصك، فاعقل يا ابن الحلال وخلصنا!

ظللت صامتاً، مرت، كبرق، صور كثيرة، صور الذين اعرفهم: الأصدقاء الذين وثقوا بي، الذين اعتمدوا عليّ، صور بيوتهم واطفالهم. هل اخون كل هؤلاء واعترف عليهم، لكي يأتوا بهم الى هنا، بعد ان ينتزعوهم من فراشهم؟واذا اعترفت على احد، على شيء، هل يكتفون بذلك، ام انها سلسلة لا تتوقف، ولا بد ان تمتد وتتواصل الى النهاية؟ وهل يعني الاعتراف انني سأخرج من سجن العبيد، واذا خرجت كيف ينظر اليّ الناس وماذا سيقولون؟

ربما تكلم وجهي او تكلمت عيناي، لأن الشهيري اصبح عيناً كبيرة مشرعة فوقي كأنها المظلة، تنتظر كلمة، مجرد كلمة. فلما وجدني صامتاً تحرك، اقترب مني اكثر، وقال:

ـ وانا،يا طالع، وخذها من هذا الشارب، راح اساعدك، تقدر تعتمد عليّ، ومن هنا الى بيتك! -

لم اتكلم، قدّر ان صمتي يحمل موافقة ضمنية، وان كلامه ووعوده اثرت عليّ؛ واصل:

ـ والكلام اللي يجري بينا ما يطلع من هنا، وهنا يندفن، لا احد سمعه، ولا

احد يدري به . .

وتغيرت النبرة، كوسيلة اضافية للضغط :

- ولازم يكون ببالك : كلهم اعترفوا، كلهم تكلموا، واذا تريد اخليك تقرأ كل اللي قالوه عليك!

قلت برخاوة :

- اللي عندي، الله يسلمك، قلته، وما عندي اي شيء اضيفه!

- الله لا يسلّم فيك عظم يا ابن الحرام . . .

وبعد قليل وبغيظ لم يستطع ان يخفيه :

- يعني هذا قولك الأخير؟ ما عندك شيء تقوله؟

قال وجهي وهزات رأسي ان لا جديد. صرخ بحدة :

- والله، يا ابن الحرام، لاخليك تشتهي الموت وما تحصله؛ وهالحين حضر نفسك!

طلبوا ان اعصب عيني، فعلت ذلك بسرعة وتحدٍ، فقد اصبحت على يقين ان هذا اليوم سيكون الأخير، ولذلك يجب ان اثبت لهم من يكون طالع العريفي!

هناك لحظات وحالات. يصبح معها الموت شغفاً ورغبة، يفقد الانسان الخوف ويتحول الى حالة من العناد اقسى من الصخر. قلت لنفسي وانا اشد العصابة الى اقصى حد : «الموت سيطال كل انسان ولا يمكن لاحد ان ينجو منه، لكن أجمل موت، اذا كان هناك جمال من اي نوع، ان يجعل الواحد اعداءه تعساء، ان لا يحسوا بالفرح عندما يموت، وهذا لا يتحقق الا اذا عرفوا ان الموت لا يعني له شيئاً، وانه ليس عقوبة ايضاً، وهو ما سأحاوله، وهذا ما أريد الوصول اليه».

لا اعرف كيف اشتدت ساقاي، وانا اقف متأهباً ومنتظراً مجيئهم، دستُ بقسوة وقوة على الأرض بباطن القدم. للحظات شعرت ان الدنيا اشتعلت، وان الألم مثل اسياخ النار انفجر، صرخت، لكن ضغطت اكثر، لعل هذا الجنون الذي تسببه القروح يدمرني او ينتهي. كنت ارفع قدماً بعد اخرى بسرعة تفوق سرعة البرق، لأن كل ثانية على تلك الأرض تشبه الوقوف على محمي . محمي كنت اتصور ان رائحة

الشواء ستملأ الغرفة، وان الـدخان سيحجب كـل شيء. تأخروا. بدأت انقّـل القدمين بجرأة رياضي لا يعرف الهزيمة ولا يقبل بها. لما تعبت، وتـأخروا اكـثر، جلست. ولكي لا اترك الرخاوة او البرودة تتسلل اليّ تعمدت ان أجلس مقابـل الحائط، وان اضغط بكل قوتي. كنت اتألم، أصرخ، لكن حالة من التحدي سيطرت عليّ!

جاءوا اخيراً. مشينا في الطريق الى السرداب. ودون ان ارى، لكن قدّرت. كنت مثل الغراب بتلك المشية المتكبرة، غير الموزونة، وانا انقل خطواتي بسرعة، او مثل المحكوم عليه بالأعدام يمشي وسط ثلة التنفيذ ، حيث يكون وحده الأكثر جرأة وتميزاً، او الأكثر غياباً، ويكون الآخرون خائفين مرتبكين من هذه المهمة غير المريحة.

لم يعد الطريق ، من اين مشينا، اوكم مشينا، يعني لي شيئاً. لكن إحسست، وقبل ان نصل السرداب. ان له رائحة لا تخطىء: القيء والدم والآهات ، وايضاً انفاس المجلودين الذين احتملوا اكثر من الآخرين. قلت لنفسي : «ساحة معركة؛ وفي ساحات المعارك لا مجال للندم، لأن الانسان يحاول اقصى ما يستطيع، لكنه ليس متأكداً ولا يضمن النتيجة» ولا اعرف كيف تذكرت فجأة مفردات اخرى لعدد من المعارك، قلت لنفسي بتحدٍ: «انا مثل طارق بن زياد: حرقت سفني كلها، وليس امامي الّا ان احارب!»

ومثل المرة السابقة، واكثر قليلاً: صحن من الرز وفوقه فخذ من الدجاج، ثم ذلك الدورق من الماء:

- بدون سين جيم: تأكل هذا كله، وتشرب هذا كله!

بذلت جهداً خارقاً كي اكمل الصحن، اما الماء فقد شربت معظمه. نظروا اليّ بحقد، وبصعوبة وافقوا.

لما انتهيت قال لي الشهيري، الذي كان يجلس على العرش:

- اذا عندك، اليوم وصية او شيء تريد تقوله، فالأحسن هالحين، لأنك اذا ما اعترفت راحت عليك، فانت اليوم مودّع.

وتغيـرت لهجته، وكـان يخاطب الآخرين ، بعـد ان طلب اليّ ان اعصب العينين:

- ركّبوه!

ومثلما فعلوا في المرة الماضية ركبت، وبدأوا!

كانت جروحي لا تزال طرية، ورغبتي في الغياب كانت اقوى. فما كادت الكابلات تنهال على قدمي ثم الساقين حتى تفلّعتْ. طش الدم وتبعه القيء، وتتابعت الشتائم. كنت اريد ان انتقم من الشهيري بشكل خاص قبل ان اغادر لذلك لم اترك شتيمة او وصفاً، الا وتحرك به لساني. والشهيري الذي تعوّد على حالات مثل هذه لم ينفعل الا في وقت متأخر. فقد صرخ اكثر من مرة، طالباً وقف الضرب، لأني اريد ان اعترف! وبعد ان يتوقف الضرب للحظات ويسألني، واقابله بالصمت او بالرفض الصريح، يعود الضرب اقوى من قبل.

في لحظة ما نزل الشهيري عن عرشه! امسك بالبطانية التي كانت عادة توضع فوق هذه الطاولة، وكمم بها رأسي. ثم استعان بطرف منها وحاول ان يخنقني. كنت احس غيظه مثل طوفان. كان في لحظات معينة يصرخ:

- نهايتك، يا ابن الحرام،على يدي. راح تموت فطيس مثل كلب، لا من شاف ولا من سمع، واذا ما كان اليوم غير يوم، لكن ابداً ما راح تخلص!

كان يحاول بيديه الاثنتين، وكانت الكابلات تنهال كالمطر، ومعها الشتائم مني ومنهم، الى ان اغيب. كان الغياب جميلاً وجليلاً، لكن المياه الباردة، رائحة الأدوية المنبهة، تعيدني من بعيد، من حيث كنت. وتتواصل الأسئلة ثم الضربات.

في وقت ما، وكنت بين الصحو والغياب، توقفوا. اتذكر انهم فعلوا ذلك بعد ان طلبوا اليّ التنفس من الأنف، وقد كمّ واحد منهم حلقي، وحين عجزت عن التنفس، وكدت اختنق تماماً، توقفوا. فكوا الحبال عن ساقي وعن ظهري، وابقوا الجامعة (تصوروا هذا الاسم!) في يدي اليمين، وتقابل اثنان لكي يرفعاني عن الطاولة اولاً ثم ليجراني الى زاوية في السرداب؛ ومثلما تعلق الذبائح، رُفعتُ، وربطتْ الجامعة الى حلقة في الجدار، وخلال ثوانٍ قليلة غابوا!

في لحظات الصحو، والتي كان يفجّرها الحريق والعطش، كنت اتصور نفسي اطير، ومما يجعل هذا التصور طاغياً ان رجلي لا تلامس الأرض الاّ خطفاً. كانت الملامسة خفيفة تشبه النسيم! وكان جسدي يتأرجح على محور نصف دائرة، تماماً مثل

بندول الساعة، اذ ما يكاد يبلغ نقطة معينة حتى ينوس، للحظة او اثنتين، ثم يبدأ بالعودة مرة اخرى، ويصل، في الجهة المقابلة، الى نقطة مماثلة ثم ينوس عندها لكي يعاود الرجوع من جديد.

كنت في تلك اللحظة، لحظة الاقتراب من الصحو، اريد ان اشرب، اريد ماءً، ولا شيء غير الماء. كنت راضياً ان ابقى هكذا معلقاً الى الأبد اذا حصلت على الماء! كنت اريده ماء بارداً مثل ذاك الذي كنا نغّمس فيه رؤوسنا ذات يوم في عين الصفا، ونتبارى في اي منا يستطيع ان يبقي رأسه فترة اطول من الآخرين. لو اني في عين الصفا الآن لما تركت رأسي يرتفع من النبع ثانية واحدة، وهناك يطيب لي ان احيا او ان اموت!

الحريق يمتد، يتسع، يصبح قوياً مستبداً، فيتردد في صدري خوف وحيد: ما ابشع ان يموت الانسان محترقاً. ويندلق القيء، يملؤني، يملأ الأرض، واحس لساني جافاً كأنه حطبة تملأ الحلق، ويكاد يخنقني، واغيب!

وفي الغياب، الذي ليس له وقت وليست له حدود، اعاود الطيران والبكاء والصراخ حتى تأتي امي! كانت ترفعني قليلاً عن الأرض، لأنها لم تعد قادرة على حملي مثلما كانت تفعل لما كنت صغيراً. وحين تتعب تضع راحتيها تحت اصابع قدمي لكي تسندهما، ولما ترى الدماء تسيل من بين الأظافر تحاول ان تمسح هذه الدماء فاتقيأ ويصيب الرشاش صدري ورأس امي والأرض، لكنها لا تأبه، تواصل مسح الدماء بيد وتسندني بيد، فاصرخ طالباً منها ان تترك كل شيء وان تأتيني بالماء، وحين تهّب لحمل الماء اعود الى الصحو من الغياب!

الصمت، الصمت، ولا شيء غير الصمت. لكنه صمت محسوس، له دوي، شديد الثقل وله انياب حارقة. وحين يكون كذلك يصبح عدواً لئيماً.

اتذكر اني صرخت: «يا ظلّام. عطشان، أريد ماءً!»

ارتد الصوت وتبعه الصدى، ولا احد. لساني يتدلى كلسان الكلب، الحريق يبدأ من اظافر القدمين ويمتد ويمتد، ومع كل شبر يزداد التهاباً، حتى اذا وصل الى الوجه والعينين والشعر احس ان جلدة الرأس بدأت تقبقب وتتحرك، ولا بد ان تدخن ثم توجّ. فاهز جسدي في محاولة لمنع الحريق، لتأجيله، واصرخ من جديد: «ماء، ما اريد غير الماء، يا ظلّام» لكن لا احد.

ويأخذني الغياب بعيداً. اغيب، اتيه، لا اعود الا على صفعاتهم:

ـ افتح حلقك يا خنزير، يا كافر.

ارى اشباحاً، ارى سواداً، واسمع اصواتاً تأتي من بعيد:

ـ لازم تأكل!

واراهم يقتربون ويبتعدون. يقتربون لاداء هذا الواجب الثقيل، ويبتعدون من الرائحة والقيء والدم الذي تخثر تحت قدمي.

في لحظة صحو، وبطريقة غريزية اصرخ، واسمع صوتي كأنه ينبعث من باطن القدمين!

ـ اريد ماء، بس ماء، يا ظلّام، يا اولاد الحرام!

ويفتحون فمي بالقوة، يدسون البيضة، وتندس وراءها اصبع لكي تدفعها؛ انتفض كما ينتفض طير على وشك الذبح، تنخلع يدي المشبوحة وتهتز القدمان كالمشنوق، وبهذه الحركة غير الارادية تنزلق البيضة الى الداخل، ازدردها كما الحية حين تبتلع عصفوراً، اتلوى، احرك جسدي في محاولة اخيرة قبل الاختناق لكي تواصل طريقها فلا اموت!

ومع الحركة تصرخ الآلام كلها، تتفجر، حتى اذا بلغت حداً معيناً اغيب.

تناوب عليّ الصحو والغياب كما تتناوب الفصول وكما تتداخل. كان يأتي الصحو على شكل آلام حادة، كأنها المسامير تُدّق بالعظام، ويأتي من القيء حين احس معدتي تريد ان تغادرني، ان تفر مني، ويأتي من اللطمات القوية المفاجئة لكي اتناول وجبة جديدة!

وبين صحو وصحو يكون الغياب، لااعرف كيف ادخله، او كيف ينزلق عليّ. كان في حالات معينة يتسلل كالمياه الخفية، كالهواء، وكان في حالات اخرى قوياً صاعقاً كأنه ضربات مطرقة، خاصة حين يلتوي الجسد في محاولة للبحث عن شكل للوقوف او الاستناد اقل عذاباً، اذ فجأة ادخل في غيبوبة كما يدخل الهواء في الرئتين. لا اعرف كيف يحصل هذا او بأية سرعة، لكن احس ان الخدر تكاثف ثم عبق في عيني وانفي الى ان افقد صلتي بكل ما حولي.

جسد الانسان صخرة، طاقة لا تنضب ولا تعرف الانتهاء. والارادة، رغم انها تبددت وخبت، الا ان ذلك الفتيل الباقي يجعل كل شيء قابلاً للاشتعال من جديد. لا اعرف ماذا سأفعل لو انهم جاءوني في لحظة التبدد والتلاشي هذه، هل ساعترف لو انهم اعطوني ماء؟ هل سأتكلم لو انهم فكوا معصمي وتركوني اتداعى على الأرض لكي أغرق في نوم ابدي؟ وهل اقوى على الاحتمال اكثر مما احتملت؟

جاءوني في احدى المرات. لا اعرف ان جاءوا في المواعيد التي حددوها لأنفسهم ام جاءوني لكي ينتهوا من هذا الصراخ والأنين.

فمثل مرات سابقة، وبعد ان ملأت السرداب صراخاً وشتائم، في طلب الماء، ولم يستجيبوا، لا اعرف كيف غرقت في ذلك الدعاء الأبدي: «آخ يمه، آخ يمه، تعالي يا يمه وشوفي هذول الظلام، تعالي يا يمه» وجاءوا!

فكوا القيد وسقوني كأساً من الماء. ارتويت ولم ارتو. كان الحريق لا يزال يملؤني ، والجفاف يقّشر جسدي. كنت فارغاً وممتلئاً في نفس الوقت. ما كدت ارتاح دقيقة واحدة حتى شعرت اني اذا لم اصل المرحاض فسوف اتبرز وابول في مكاني. خرجت الكلمات من بين اسناني طالباً ان اذهب الى هناك. اشاروا الى المرحاض. ومثل الفقمة المسنة الزاحفة على الجليدزحفت،لكن قبل ان اصل انتهى كل شيء!

ظللت، للحظات، في مكاني. ظللت فوق بقاياي، الى ان سمعت الشتائم. ومثل كلب يشعر بذنبه عدت، تراجعوا بقرف، لطموني بأرجلهم، وبسرعة ربطوني كما كنت، وذهبوا.

لم اخجل مما فعلت، اكثر من ذلك شعرت انني اهينهم بهذه الطريقة، واقول لهم، من خلال هذا التصرف ، من هم وماذا يعنون بالنسبة لي!

ربما اتوهم، او هذا ما فكرت فيه خلال فترة لاحقة، لأن الأمر وقد اخذ يتكرر في الأيام التالية، لم يعد يعني لي شيئاً، فما داموا قد فعلوا بي هكذا، ولم اعد قادراً على المشي او الانتقال الا كما تفعل بعض الحشرات ذوات الأرجل القصيرة، فقد اصبحت اتدحرج مثل برميل من أجل الوصول الى المرحاض، وأصل، ولا اصل في بعض الأحيان!

ثلاثة ايام قضيتها بين الأرض والسماء. اطراف اصابعي تلامس الأرض

ويدي تمتد الى السماء. اتذكر انها ثلاثة ايام من وجبات الطعام والصفعات. وحين تركوا يدي ترتخي لاذهب الى المرحاض، وبعد ان عدت، صرخوا بي لكي اتدحرج الى مكان آخر، ربطوني الى ماسورة مياه، وذهبوا!

هل فعلو ذلك لأن المكان الذي كنت فيه تحول الى زريبة من الدم والقيء والبقايا، ام لأنهم رأوا الزرقة الداكنة ملأت جسدي من الرأس حتى باطن القدمين، وأي تعليق اضافي سيؤدي الى الموت، وهم لا يريدونني ان اموت الآن؟

ربما ساجهد نفسي لتفسير هذه التصرفات في وقت لاحق، أما في اللحظة التي ربطت الى ماسورة المياه فقد غرقت في النوم. لقد انقضت دهور لم يلامس جسدي الأرض وحين لامسها شعرت بحنان الأرض، بحب لها لا يوصف، كنت اريد ان امتزج بها، ان اكون، مرة اخرى، جزءاً منها، واغرق.

اتذكر ان وقتاً طويلاً مرّ منذ ان رُبطت الى تلك الماسورة. لست متأكداً، ولا يمكن ان اتذكر، فالنوم امتزج بالغياب، بالألم، وامتزج ايضاً بتلك الرغبة في ان امضي بعيداً والى الأبد. كانت تتراءى لي، في بعض اللحظات وجوه، وتتناهى اليّ اصوات، لكنها من التداخل والسواد أو لأني غير قادر على التمييز، بحيث كانت اقرب الى الغياب، ولا تحدد شيئاً أبداً.

ظل الحال كذلك وقتاً.

في احدى المرات احسست دبيباً، ثقلاً، فوق ساقي، فتحت عيني، وجدت الشهيري بكل ثقله يقف فوق الساق، ويهتز. قال لي لما رآني اعود من النوم او الغياب البعيد:

ـ غريب، بعدك حيّ؟ بعدك ما مت؟

نظرت اليه ولم اجب. نزل. اخذ يتمخطر امامي، ذهاباً واياباً، ولا يكاد يرفع عينه عني. وبمقدار ما كنت اميز رأيته قوياً وحائراً معاً. لم يكن يريد ان يتكلم، ولم يكن قادراً على السكوت. في لحظة ما قال، وخرج صوته مغيظاً حانقاً:

ـ وبعدين معك يا حيوان، راح تظل متّعب روحك ومتعب الناس معك؟

بصعوبة استطعت ان اجمع كلماته واعطيها معنى ودلالات. لم يتوقع جواباً مني، او هذا ما كان يرجحه،تابع بنفس اللهجة:

ـ وشنهو قصدك او اللي رايد تصله من هذي الحيونة ويباسة الراس؟

ولم ينتظر، اضاف بسخرية:

ـ تريد تصير بطل؟ مشهور؟ تريد الناس يقولون ان ابن العريفي دوخ جماعة سجن العبيد وما قدروا عليه، وانه طلع مرفوع الراس؟

في لحظة صمت قلت، وخرج صوتي مخنوقاً.

ـ كل ما اريده. . . الماء. عطني ماء!

ـ حنا يا ابن الحرام نريد نخلّصك، نريدك تدوّر دربك واهلك، وانت تريد زق، وما عندك الا : عطني ماء!

الله يخزيك، لكن مثل ما قالوا: من به طبع ما تركه!

قلت لاغاظته اكثر، او ربما لم اكن ارى او اشتهي سوى الماء:

ـ عطني ماء، وبعدها نسولف!

صاح ، وكان صوته كالدوي، اذ تردد في السرداب، وربما هزّه:

ـ هات الماء ، يا ولد!

وجاءوني بالدورق اياه او اكبر منه. وضعوه امامي، قرفص الشهيري مقابلي، اخذ ينظر اليّ كما ينظر الى حيوان غريب. قال بسخرية وتحدٍ.

ـ تريد الماء. . ها؟ دونك، وما راح اقول لك، هذه المرة، اشربه كله، اشرب الى ان ترتوي، وبعدها اريد اشوفك شلون راح تسولف.

لأول مرة اشرب قدر ما اريد او اكثر قليلاً ، لكن برغبة. وزيادة في التمتع تركت مقداراً منه يسيل على لحيتي، على صدري. كان ناعماً لذيذاً. وكان الشهيري ينظر اليّ باستغراب. ربما قال لنفسه: ما اصغر رغباته وما احمض نفسه. ما اقواه وكم هو هش وضعيف. وربما قال اشياء اخرى او فكر فيها!

ولا اعرف كيف تملكتني الرغبة لأن اغسل وجهي، خاصة العينين. بعد ان وضعت الدورق الى جانبي، حاولت ان املأ كفي بالماء، لكنه دفع الاناء برجله فانسكب على الأرض كل ما فيه، قال بسخرية وغيظ معاً:

ـ احك . سولف هالحين!

وجاء صوت من بعيد، وكأن واحداً في داخلي يتكلم نيابة عني:

ـ ما عندي شيء!

قال وخرجت الكلمات من بين اسنانه:

ـ لحد اليوم، يا ابن ستين كلب، كنت تخّوض ببولك وخراك؛ لكن والله لأخليك اليوم تخّوض بدمك، وتشوف.

ركلني على خاصرتي بقوة، وتفل عليّ، ثم غادر!

ولم يتأخروا كثيراً:

فكوا يدي المربوطة الى الماسورة وعصبوا عيني.

سمعت اقداماً كثيرة تقترب، ربما اكثر من اية مرة سابقة؛ كانت خطوات واصداء، ربما نتيجة الفرق في المسافة،وهي بسبب الرتبة والأهمية بكل تأكيد!

اذ بعد ان خيّم الصمت، جاءني صوت اجش ومختلف:

ـ اسمع يا طالع العريفي.

بعد ان تأكد لمجلس الشرع، بالقناعة والبينة، انك كافر ومرتد، وانك كذبت على المحققين ولم تصدق، وبعد ان اعطيناك فرصاً كثيرة لتتوب وتعود الى رشدك ولم تفعل، فقد خولنا الأخوة المحققين، وفوضناهم، باسم الشرع والدين، ولمصلحة المسلمين، ولاعلاء كلمة الحق، ولمحاربة الكفار والزنادقة والملحدين، خوّلنا الأخوة المحققين ان يتبعوا معك كل الوسائل حتى لو ادت الى الموت، فاما ان تتوب وتعود الى الحق او اصبح دمك مباحاً.

وصمت قليلاً ثم اضاف بلهجة جديدة:

ـ هل سمعت وفهمت وتبلغت يا طالع العريفي؟

وحين لم أجب تابع، وجاء صوته على شكل دعاء:

ـ «ما شاء الله قضى، ليس وراء الله منتهى، توكلت على الله ربي وربكم، ما من دابة الا وهو آخذ بناصيتها، ان ربي على صراط مستقيم. اللهم ان هذا عبد من عبيدك، خلقته كما خلقتني فاكفني شره، وارزقني خيره، واقدح لي في قلبه المحبة،

واصرف عني اذاه، لا اله الا انت سبحان رب العرش العظيم، وصلى الله على النبي الكريم».

وجاءني صوت الشهيري:

- اسمعت ما قاله شيخنا، يا طالع العريفي، ووعيته؟

لم أجب، تابع الشهيري:

- بارك الله فيك يا شيخنا، وسوف نتولى امر هذا الزنديق كما امرنا الشرع وكما امرتنا، ونطلب من الله، جل شأنه، ان يصلحه او ان يأخذه!

ولا بد ان الموكب غادر كله، فقد استدارت الخطوات واخذت تبتعد، وخيم صمت لم احسس بمثله من قبل.

لقد امتلأت، في تلك اللحظات، بمشاعر كثيرة، لم يكن الخوف واحداً منها. شعرت بالغيظ والفرح واللاجدوى، وشعرت بالظلم.

من اعطى الحق لهؤلاء في ان يقتلوا البشر؟ في ان يذلوهم؟ وحياة الانسان، هل هي رخيصة لهذه الدرجة؟ وهذا الذي كرر عليّ الخطب والأدعية، ومضى، الا يعتبر موبوءاً مثل بقة؟ اليس هو الذي يجّمع النساء الصغيرات كما يجّمع النمل الغذاء لأيام الشتاء؟

آه لشد ما في الحياة من قسوة ومفارقات!

وحين استمر الصمت قوياً شاملاً، وفي لحظة قشعريرة، احسست يداً حانية رطبة تمسكني عند الساعد. لم اشك ابداً انها يد امي. وسمعت صوتها، كان بعيداً وله اصداء«انا انتظرك وستأتي اليّ يا طالع. لا تصدق ما يقولون. انهم لا يعرفون الصدق ابداً. فابق رجلاً. واعلم ان موت الرجال تغني له الصبايا وتبكيه العجائز ويهز الرجال رؤوسهم لوعة ويتذكره الصغار لآخر ايام العمر. فما أجمل ان القاك وسط الزغاريد وغناء الصبايا، وما اقوى ان تبقى ذكرى في قلوب كل الذين سيظلون احياء بعدك.. فلا تنس ما اقوله لك، يا ابني، يا طالع».

ولا اعرف كيف بدأت تهل عليّ الوان زاهية، كانت تتساقط كالمطر، واللون

التنوخي صفحة ١٨٠.

الأبيض يغلب عليها كلها. كانت الألوان تمتد مثل جدول لا نهاية له، كان الجدول بارداً ولا يتوقف لحظة واحدة عن الغناء!

ظل الصمت، وظلت هذه المشاعر تتلاحق وتتراكم، وحين سمعت وقع اقدامهم ثم اصواتهم، عدت من الأمكنة البعيدة التي كنت فيها. أما حين انفتح باب السرداب ودخلوا مثل الجراد، فقد شممت رائحة الموت. ارتجفت، لكن لم اشعر بالخوف. بعد ان اصطفوا بشكل ما، هكذا قدّرت، وخيم سكون ينذر بالانفجار، سمعت الشهيري يخاطبهم، لكنه يريدني ان اسمع:

ـ وهذا ما ينراد له لا غسل ولا تكفين؛ وحتى القبر لا تتعبوا بحفره؛ فبعد ما يموت تلحقوه بالفلا، واللي ما تاكله كلاب الارض تتناوشه نسور السماء، وهذي نهاية كل ملحد زنديق!

تنحنح الشهيري وقال بصوت قوي، ليشعرني ان ما قيل من قبل لم اسمعه:

ـ لا بد وسمعت اللي قاله الشرع، يا ابن العريفي...

توقف قليلاً، جر نفساً وتابع:

ـ وحنا، اليوم، راح ننفذ كلام الشرع، تسمعني؟

لم احر جواباً ولم انطق بكلمة، تابع:

ـ فاذا عندك كلام، وحتى ما نتحمل خطيتك، اعطيك آخر فرصة حتى تعترف، وقد اعذر من انذر..

واستمر الصمت. كان صمتاً مشحوناً دبقاً، وكان الجميع يحسونه ثقيلاً ويريدون ان ينتهي، سأل الشهيري:

ـ عندك شيء تريد تقوله يا طالع؟

وحين لم أجب قال:

ـ ركبّوه!

ولا اعرف من اين واتتني القوة والجرأة وانا اسابقهم واسبقهم في ركوب الطاولة. ربما ظهرتُ كعفريت اشعث الشعر وانا اتخبط في طريقي اليها. لاحظ الشهيري، وربما خاف، فقد صرخ:

ـ وين رايح يا ابن الكلب، رايح على عرس امك؟

ـ رايح على ديرة ما تحلم تشوفها يا عدو الله!

ـ الكفار ابد ما يشوفون الجنة.

ـ الكفار انت وامثالك، ويجي يوم تدفع ثمن دمي. وتذكّر!

ـ تخسا.

ـ اللي يخسا انت وامثالك ويجي يوم تكون فيه اذل من ابليس يوم عـرفه، وتشوف!

ـ ركبّوه وخلونا نخلص منه ومن جعيره!

شعرت ، وانا اركب، كأني عدت سنيناً الى الوراء، الى ذلك اليوم الذي لم يُسمح لي بركوب الحصان، فهيأت لي امي من بقايا المهد حصاناً خشبيـاً، بدا لي آنذاك اجمل من الخيول الأخرى. الآن، وانا اعتلي حصان الشهيري، اشعر اني اقوى من كل الذين حولي، وانهم يخافون مني بشكل ما، وايضاً يخافون مـوتي. كانـوا يتمنون، في اعماقهم، لو اتكلم، لو اكف عن العناد، لأني بذلك ساريحهم،لكن القاعدة التي تعلمتها من امي، في ذلك اليوم البعيد، وهي تقول بطريقتها الخاصة: حياة تسّر الصِديق او موت يفري اكباد العدوين، انفتحت امام ناظري، ملأتني، ولذلك كنت متعجلاً لكي اغيظ هؤلاء المنهمكين بالتقييد والتربيط، واولئك الذين يستعدون للضرب، وذاك الذي ينتظر على عرشه: الشهيري.

الضربات الأولى كانت على باطن القدمين، وما كادت القدمان تتفلعان، وتنزان دماً وصديداً واصبح رشاشهما يطال الوجوه والأرض، حتى توقف الضرب، وبالتأكيد بايعاز من الشهيري، توقف قليلاً، ويبدو انه تم تبادل الاتفاق بالاشارات، اذ ما كدت اجرّ نفساً استعداداً لما سيأتي، حتى هوت على ساقي، عنـد القصبة، ضربة بخشبة كبيرة. خلال ثوان قليلة، وبعد ان قذفت النفس الذي كنت اجره، واستوعبت الصوت، وسرى الألم مثل دورة كهربائية من مكان الضربة ليعم الجسد كله، حتى غبت عن الوعي نهائياً. ولم اعد اتذكر شيئاً مما حصل بعد ذلك.

لا اعرف كم مرّ عليّ وانا في حالة من الغياب، لكن حين استعدت وعيي، او اقتربت من ذلك، اكتشفت، شيئاً فشيئاً، انني في مكان جديد.

لفترة غير قصيرة ظللت احاول التمعن والتدقيق، لأنني لا اصدق: هل انا نفسي؟ الاازال حياً؟ وما الذي حصل لي بعد تلك الضربة؟

الخدر، والذي يشبه حالة من التلاشي، يجعلني غير قادر على الاحساس او التركيز. العينان اللتان تحاولان الاكتشاف تنطفان وتصمتان بتناوب يشبه الشهيق والزفير، اذ تتراوح الصور التي تعكسها بين السواد المنطفىء والبياض الهش، فلا اعرف هل انا في حقيقة ام في غياب، وهل ما اراه، او احاول ان اراه، شيئاً مادياً ام طيفاً من الاطياف، خاصة وان الخيالات لم تكن تفارقني خلال الفترات الأخيرة؟

حتى الصوت الذي يمكن للانسان ان يشق من خلاله الطريق، حين تعجز الأعضاء الأخرى، لم يعد يطاوعني، اذ اصبحت غير قادر على التحكم به. هل استطاع الشهيري ان ينتزع مني آخر الأسلحة التي كنت أحارب بها؟ حاولت ان احرك لساني، ان اتكلم، لكنه خذلني، خانني، فما اكاد ادفع الصوت الى الخارج حتى يصطدم بلهاتي ويرتد، كان يتراجع مثل كرة، ليسقط في داخلي.

لماذا لا اكون ميتاً؟ وهل انا متأكد ان الموتى لا يكونون كما أنا الآن؟ لم اجرب الموت من قبل، ولا اعرف كيف يصبح الانسان حين يموت، لكن على الأغلب لا يختلف عن وضعي في هذه اللحظة. اليس الموت هو حالة التوقف او العجز؟

لم استطع ان استمر، ضعت، ثم غبت!

في وقت آخر، لا اعرف متى، بدأت الصور تتضح اكثر من قبل: انا الآن انام على سرير حقيقي. الرائحة التي تطوقني تختلف عن الأماكن الأخرى. اربطة تلفني من قمة رأسي الى باطن القدمين، وكأني اصبحت مجموعة من القطع اذا لم تُربط بعناية يمكن ان تتساقط وتتبعثر. الرجل الذي يقف مقابلي وينظر اليّ لا يشبه الذين كانوا حولي. التفت، ارى الى جانبي سريراً ثم سريراً ثانياً. الغرفة تختلف عن الغرف التي كنت فيها خلال الفترات السابقة!

-. . . واخيراً، اكتشفت انني في مستشفى السجن!

يبدو انهم استعادوني من الموت، مؤقتاً ، وهذا ما سوف اتأكد منه في وقت لاحق. فالجهود التي بُذلت من أجل انقاذي كانت كبيرة، وظلت متواصلة حتى وقت خروجي. تبينت ذلك بنفسي ، اضافة الى بعض الملاحظات، والتي كانت على شكل اسئلة بين الأطباء، وهم يتشاورون، او على شكل دهشة حين يفكون جرحاً من الجروح. وفي وقت لاحق من تعليقات الدكتور زياد.

لا استطيع، الآن ، ان احدد كيف حصلت الأمور وكيف كانت ردود فعلي، فبعد الضربة التي انهالت عليّ تلك اللحظة، ولا اعرف ان كانت ضربة خشبة ضخمة، ام ضربة فأس او بلطة، وكان لها رنين يشبه وقوع قدر هائلة، وبزاوية تجعلها في حركة لفترة طويلة، حيث سمعت صوت الشرخ الذي حلّ بي، فمزقني تلاه ذلك الرنين المتوالي، بحدة، اول الأمر، انطلاقاً من المركز، ثم المتناقص تدريجياً الى ان تلاشى تماماً؛ بعد تلك الضربة، وذلك الرنين، غبت، ولا اعرف اي شيء حصل بعدئذٍ.

الآن، وانا اكتشف انني ما زلت حياً، لا اعرف حقيقة مشاعري، هل انا راضٍ ومقتنع؟ وهل ما يفعله الشهيري حالياً ، اذ يريدني ان ابقى على قيد الحياة، محاولة لانقاذي ام عقوبة اضافية يوجهها اليّ؟ لماذا يصرّ على ان ابقى حياً، الا يزال يؤمل ان ينتزع مني كلمة؟ ان يواصل ساديته فيجعلني اشتهي الموت ولا ادركه؟ الا يحتمل ان الندم نغّص لياليه، ويحاول اصلاح اخطائه من خلال اصلاحي؟ لا اعرف كيف كنت، وما هي حقيقة المشاعر التي كانت اقوى من غيرها، لكن ذلك الحرص المبالغ فيه لم يعجبني، او بالأحرى جعلني انظر الى الأشياء بشك اقرب الى الخوف.

سأعرف يوماً بعد آخر ان عدة عمليات اجريت لي خلال الفترة الأولى.

وسوف اكتشف ان الاصابات التي اوقعوها بي في «الحفلة» الأخيرة تفوق اية اصابات سابقة، وانهم كانوا يضربون ليس انساناً بهدف حمله على الاعتراف وانما يضربون جثة، والا من اين اتت تلك الاصابات في الرأس والساعدين والاصابع، بما فيها سبابة اليد اليمنى؟ وحين ارى الأطباء وهم يعالجون الجروح، في باطن القدمين والأظافر ثم الساقين، وحين إسمع تعليقاتهم القصيرة السريعة، أعجب من قوة الانسان وقدرته على التحمل، وابتسم، بحزن، من قسوة هذه المخلوقات التي لم تتوقف عن ضربي الى ان تأكدت انني وصلت الى الضفة الأخرى: الى الموت!

كنت، في بعض الأحيان، ارى جروحي في عيون الأطباء. كان الدكتور زياد، وهو يضمّد القدمين، يقول لنفسه، وربما يريدني ان اسمع:

ـ حتى الوحوش لا تصل الى هذه الدرجة من القسوة!

ويوجه اوامره الى عاشور بحزم اقرب الى العداء:

ـ والكمادات الباردة تتبدل كل عشر دقائق، أتسمعني؟

وبعد قليل:

ـ واذا ارتفعت حرارته، فوراً تتصل بي، مهما كان الوقت!

وحين يتجمع الأطباء حولي، ويتبادلون المعلومات والتقديرات، فغالباً ما يكونون اقرب الى الدهشة والاستغراب، كيف ان الساقين لم تقطع، وان الالتهابات توقفت عند هذه الحدود ولم تواصل تقدمها الى اجزاء اخرى من الجسد!

كنت اسمع، وبعض الأحيان ارى، واغيب.

ويعاودني السؤال: هل لا زلت حياً او راغباً في الحياة؟ وهؤلاء القتلة ما هي الفلسفة التي تجعلهم يقتلون، او يبلغون حد القتل، ثم يحرصون، كل هذا الحرص، من أجل استعادة اولئك التعساء الذين بعثوا بهم الى الموت؟

كان يتناوب الجلوس على كرسي مقابلي اثنان، عرفت بمرور الوقت اسميهما: عاشور ومسعد، مهمتهما: كمادات الثلج والماء البارد، ربما ليس كما امر الدكتور زياد، ولكنهما لا يتوقفان عن تغييرها. احس ذلك من خلال تفاوت الحرارة، ثم من يد مسعد الثقيلة، والتي تحمل بغضاً لا تستطيع ان تخفيه وهي تمر على جبيني. هل هما

ممرضان ام حارسان؟ وهل ينفذان اوامر الأطباء ام اوامر الجلاوزة، خاصة الشهيري؟

عندما بدأ يتراجع الخطر، ثم حين زال ، اخذ الاثنان يغيبان فترات ليست قصيرة!

واذا كنت خلال الأسابيع الأولى عاجزاً عن الالتفات الى النزيل الآخر في الغرفة او الحديث معه، فقد اصبحت الآن في وضع افضل، لكن ذلك الحذر الغريزي من اي غريب لم يفارقني. ومع هذا بدأت كما يبدأ الخائف او كمن يسير في الظلمة. فبعد ان سألني اكثر من مرة ما اذا اصبحت افضل، وكنت اجيبه باختصار، وبعض الأحيان بطريقة مبهمة، وازاء حذري المبالغ فيه، فقد انكمش تاركاً لعينيه ان تتكلما. . .

وحديث العيون يتعبني واخشاه كثيراً، وربما ترسبت اولى دروسه اليّ من أمي، اذ كانت تستطيع ان تقرأ في العيون كل شيء: الحب والفرح، الحزن والقلق، وكانت تعرف ما اذا قلت الحقيقة ام لا، وتذكر ما حصل لي قبل ان اتفوه بكلمة! هذه الصفة من امي جعلتني اخاف عيون الآخرين واتجنبها، او احاول وضع حاجز بيني وبينها. ولشد ما احسست بالقوة وهم يحققون معي، لأن عيوننا لم تلتق. كانوا يلفعوننا بالعصابات، او يتوارون منا وراء اقنعتهم المضحكة، لكي لا نراهم، وكانت هذه احدى وسائلي في الدفاع!

الآن وزميل الغرفة ينظر اليّ بهذه الطريقة يربكني. احس في عينيه الدفء والحنان، واحس ايضاً رغبة الكلام، لكن الحذر، ثم ذلك الانقطاع الطويل عن البشر، والغباش الذي ولدته العصابة والظلمة، اضافة الى الآلام التي توالت عليّ، فقد اصبحت في شك، واصبح الغرباء، أياً كانوا، الكمين الباقي ، وربما الأخير، الذي يريد الشهيري ان يوقعني فيه، ولذلك كنت احرص على هذه المسافة بيني وبين اي انسان آخر.

لكن العيون بمقدار ما تتكلم فانها قادرة على الاستماع، اذ ما كاد يراني منزعجاً متضايقاً، وكنت في الحقيقة انتظر مجيء عاشور لكي يساعدني في الوصول الى الحمام، وقد تأخر كثيراً، ما كاد يراني هكذا حتى يسأل بقلق:

- هل استطيع ان اساعدك بشيء؟

رددت بغضب:

- حين يكون الانسان سجيناً وفقيراً يجب ان يتبول في فراشه، لأن الممرضين يغيبون في الوقت المناسب.

قال والابتسامة تفترش وجهه:

- ليتهم يغيبون الى الأبد، وعندها سنكون بالف خير!

- ولكن هذه مهمة الذين يتقاضون الرواتب في نهاية الشهر، وهم يتقاضونها لكي يساعدوا المرضى!

- حط بالخرج، يا صاحبي، واعطني يدك.

بصعوبة اجلسني على العربة. دفعها نحو الحمام، ولما اصبحت في وضع يمكن ان انتقل، غادر، اغلق الباب وراءه، وظل ينتظر.

كانت هذه البداية لعلاقتي بهلال معتوق!

وان تقوم علاقة من هذا النوع، وان تتوطد، بمقدار ما تولد الثقة والاعتزاز، فانها تثير الأسى، بل ويتمنى الانسان لو انها لم تقم، او على الأقل لم تستمر!

اصبح هلال بالنسبة لي، رغم انه اصغر مني سناً، اباً واخاً وصديقاً، ولا ابالغ اذا قلت انه الذي شفاني، وجعلني اكثر قوة، ربما دون ان يدري!

فعاشور الذي اكتشف افلاسي في وقت مبكر، وتأكد انه لن يستطيع ان يحصل مني، او عن طريقي، على اي شيء، وبعد ان خفّت الرقابة، نتيجة زوال الخطر المباشر، لم يعد حريصاً على رؤيتي او الوصول الى غرفتي. أما مسعد، وكان بليداً قاسياً ومخبراً ايضاً، وغالباً ما تكون نوبته في الليل، فحين يجيء تسبقه وترافقه كمية كبيرة من النصائح والتهديدات، اضافة الى الشتائم:

- يا عيني على سياسين آخر زمان: شوفة حالة ويباسة راس، والعشرة منهم ما يسوون نواة!

يضحك، يقهقه لنكتته، ويضيف:

- الواحد منكم يحب العلية ولو على خازوق!

يتوقف قليلاً وكأنه اضاع الفكرة، او لا يعرف كيف يواصل، فقد قيلت له

افكار، وطلب منه ان يوصلها، لكنه يفضل طريقته الخاصة، وها هو بعد ان بدأ بداية حسنة، كما يفترض، لا يدري كيف يتابع. حين يرانا نتطلع اليه، نستمع، يضرب طرف السرير، كما لو انه يجلد مسجوناً ويصرخ:

- ليش تناظروني كذي، ما عاجبكم، ما مالي عيونكم؟

وحين لا نجيب، ويفترض ان هذا الاختراق امده بالقوة، تتغير لهجته وهو يتابع:

- حمير، تيوس، فسافس، صيّع، مجانين، اولاد حرام، سرسرية، وبعد شنهو؟

وتتغير اللهجة، تصبح ساخرة:

- وأيضاً سياسيين، وأيضاً تفكرون بالثورات والانقلابات، لكن تخسون!

ويضرب السرير بقوة:

- والله العظيم، والله العظيم، لولا انكم نصف موق لما خليت فيكم عظم صاغ، لكن بسيطة باكر او اللي عقبة تتعافون وتشوفون!

وتراوده نفسه، من جديد، ان يلجأ للعنف، لكنه غير مفوض، ويخشى النتائج، يقول بسخرية:

- من انتم حتى يتنازل مسعد، ابو فتيخان، ويسولف وياكم؟

وتتغير النبرة:

- لكن الله بلاني بكم ورماكم عليّ!

بهذه الطريقة تناقصت «خدمات» مسعد، ابو فتيخان، الى ان توقفت، تقريباً.

الكسور في ساقي وفي الأضلاع، وحاجتي الى المساعدة اقل من السابق، لكن دون المساعدة لا استطيع شيئاً. ورغم ان هلال يقوم بهذه المهمة برحابة صدر ومودة تزيد يوماً بعد آخر، الا اني اشعر بالحرج. قلت للطبيب ذات يوم:

ـ لو توصيهم، يا دكتور، لأنهم توقفوا تماماً عن مساعدتنا!

ـ سوف احاول، لكن هذول شورهم من راسهم او من المعلمين فوق، ولا احد يقدر عليهم!

وبعد قليل وهو يبتسم:

ـ يلزم تحطون بايديهم كم قرش!

وتستمر عمليات الترميم، بالنسبة لنا نحن الأثنين؛ فهلال الذي كسرت قدمه، وهو، بالأساس، معطوب الكلية، كان يستعمل العكاز في تنقلاته، ويريد ان يبقى اطول فترة في مستشفى السجن، ربما من اجلي؛ وهم لا يكتفون بالقاء نظرة علينا كل يوم، لكي يتحققوا من مدى شفائنا. كانوا يلاحقون الأطباء ايضاً. حتى مسعد الذي يبدو، في احيان كثيرة، نكرة، ولا تتجاوز مهماته تنفيذ ما يطلبه منه الأطباء، اخذ يتنمر، قال للدكتور زياد بلهجة لا تخلو من تكبر وسخرية، لما طلب منه أخذي لقسم الاشعة. لتصوير القفص الصدري:

ـ ولازم ناخذه، يا دكتور، الى حمام السوق والى المزّين، ما دام هي روحة روحة!

نظر اليه الطبيب طويلاً، جر نفساً عميقاً، ولم يتكلم. أما حين رأى ابتسامته وقد اتسعت، فقد قال له:

ـ انا المسؤول عن صحة المريض، وانا الذي اقرر ما يلزمه، اما اذا كنتم تنظرون اليه باعتباره مجرد سجين فسوف ارفع يدي، وعندها تتحملون المسؤولية!

رد مسعد، وهو ينسحب:

ـ لازم اتلقي الأوامر من الملازم غانم، وبعدها يفرج الله، أما قبلها فيفتح الله!

رد الطبيب بقرف وحقد، وبصوت خافت ايضاً، بعد ان انسحب مسعد:

ـ وقح، ادب سيز، وفوق هذا جلاد ومجرم!

قال لنا الدكتور زياد، بعد ان تأكد من غيابه، واغلق الباب بنفسه:

ـ من اسابيع وهم يضغطون عليّ لكي اخرّجكم...

زفر مثل حوت واضاف:

- الله بلاني وكانت قسمتي في هذا «المستشفى» المنكود. . .

وبعض لحظات ، وبحزن:

- المنكود بالنسبة لي ولكم. . .

واضاف كأنه يخاطب نفسه، لكنه يريد ان تصلنا الرسالة:

- لكن ما لنا الا الصدق والصبر. . . وفرج من رب كريم!

ولم اصل الى قسم التصوير، وظلت اضلاعي ، رغم مرور شهور طويلة، لا تؤلمني فقط، وانما احس ان روحي تخرج مع كل نفس. وفي محاولة لكي يخفف عليّ الدكتور زياد، وايضاً ليبرر موقفه، فقد قال لي بعد ايام:

- الأضلاع لا يمكن تجبيرها، فاذا كان فيها كسور او رضوض، فاصبر وتحمل، وهي وحدها ستلتحم!

وبدلاً من ان اصل الى قسم التصوير، فقد جاءنا الشهيري!

كان مرحاً وقوياً ، وكان ساخراً:

- اخاف صدقتّم انكم وجعانين وان عندنا اجزخانة تداوي المفاليس!

كنا في وضع محايد تقريباً، كنامضطجعين ونفكر بأشياء كثيرة، وقد تبادلنا انا وهلال الأفكار والأحلام ، والحيل ايضاً، وبالتالي كيف نواجه الأيام القادمة، ولذلك لم نكن مستعدين لأن نخاف او ان ننفعل.

حين رآنا هكذا، طلب من هلال ان ينهض وان يسير في الغرفة. لم يتردد هلال، نزل، التقط عكازة ومشى مرة واخرى، قال الشهيري بفخامة:

- زين. . زين، صرت صاغ سليم، وهالحين يمكن تتزوج، ولازم نفرح بك!

وطلب مني نفس الطلب، لكني لم استطع ان اؤدي الدور، اذ بالاضافة الى الرجل المكسورة، فاني لا استطيع التحرك بسهولة، فلما رآني هكذا، وكان مستعداً للانتظار، فقد قال بنزق وبسخرية:

- كل شيء بوقته حلو، فراح اتركك كم يوم وارجع، وعسى ان القاك بخير وسلامة!

قبل ان يخرج قال لهلال:

- حضر روحك يا هلال، لأن على وجهك يمكن نشوف هلال العيد!

كان لدى هلال بعض الدراهم، استخرجها من جيب بنطاله، حاول ان يقنعني بأخذها، وحين تعذر عليه ذلك، وضعها تحت الوسادة بقوة اقرب الى القسوة وهو يقول:

- أنا متأكد انك ستحتاج اليها، حتى تخلص من الترجي وبذل ماء الوجه!

وبعد ذلك، وفي محاولة لتوضيح الموضوع، قال، وكان صوته حزيناً:

- انت تعرف، هؤلاء الجلاوزة: الفلس او الضرس، اما تعطيهم او تطعميهم، حتى تأمن شرهم... وعسى الله يكفيك غدرهم.

واخذوا هلال!

لم يقتنع عاشور ان يصبح مفيداً الا بعد يوم طويل وشاق، وحين تأكد انني املك مالاً! أما مسعد ابو فتيخان، فلم استطع ان اصل معه الى اية لغة للحوار. ظل واعظاً غبياً ومتعباً:

كان يأتيني بعض الليالي، ورغم الآلام والضيق، والحاجات الانسانية، فهو يريد ان يتكلم، ان يخطب:

- وجهك، هذه الليلة، بارد، مثل طيز السقا، ويعلم الله كأن اجلك جا وراح تموت!

وحين اهز رأسي بعدم اهتمام يتابع بلهجة ناصحة:

- لك، يا حمار، يا ابن الأوادم، احسن لك تعترف وتقول، بدل ما تظلي معاند وميبس راسك!

واصمت، لا اعتبر ان كلامه يستوجب الرد، يقول بحقد:

- يا ابن الحرام...

ولا يعرف كيف يتابع او ماذا يقول. يضرب السرير مرة، ومرة ثانية، ويضيف:

- مية مرة قلت لكم: بطّلوا السياسة. صيروا اوادم. صيروا ناس وعالم، لكن الواحد منكم بطيزه دودة...

ويضحك، يهز رأسه. يتطلع اليّ بريبة، يفكر، ثم يضيف:

- بعدك، يا ابن الحلال، باول عمرك، يمكن تتاجر وتكسب، يمكن تتزوج وتخلف، ويمكن تصير واحد زين وابن حلال، فشنهو اللي دهاك؟

وحين لا اجيب، او لا اجد ما يستحق الرد، ويتأكد من ذلك، ينظر اليّ بحقد، ويقول:

- انت حيوان. جمل اجرب، حمارمدبّر، ثور مطلوق؛ انت واحد صايع وحرام فيك الخبز اللي تأكله، وعلم الله اذا حرّجوا عليك ما احد يسومك بقرش او قرشين، وفوق هذا وذاك متّعب روحك ومتعبنا معك، لكن والله لاكسر خشمك واسوي بك اللي ما يتسوى الى ان تتوب وتصير مثل الخلق والعالم، بس اصبر عليّ كم يوم!

وأساله بسخرية:

- كم يوم يا ابو فتيخان؟

- وتعرف القشمرة ها؟

ويهجم عليّ، وحين يصلني يتذكر ان ضربي ممنوع في هذه الفترة، ومع ذلك لا بد ان يؤذيني بشكل ما، فيعضني. كانت العضة قوية الى درجة انه فزع من صرختي، وظلت علامة فارقة عند الكتف شهوراً طويلة!

وعاشور الذي تأكد من وجود النقود يريد ان يستولي على «الثروة» بأسرع وقت، فبدل الزيارة الواحدة عدة زيارات في اليوم. وحين تأكد انني انقل «الثروة» معي الى الحمام، وقد بحث عدة مرات في الفراش ولم يجدها، بدأ يفاوضني على رؤية النقود فقط، مع ايمان غليظة انه لن يمد يده الى قرش واحد منها! وحين اذكر له رقماً يقول بلهفة:

ـ انا اصدق كل ما تقوله، بس اصدق عيوني اكثر!

ـ وماذا لو رأيتها؟

ـ قلبي من جوا يفرفح، وافرح واجد اذا شفت الفلوس!

ـ هي لك ولغيرك اولها وتاليها!

ـ لغيري؟ من هو ابن الحرام التي يقدر يمد يده وعاشور حي؟

ـ اتفقنا، هي لك وحدك، لكن تأخذها على أقساط، كل يوم اللي يقسمه الله.

ـ بس لو تخلي عيوني تشوفها، يا عمي!

قلت وانا لا استطيع ان اخفي سعادتي:

ـ الله يلعن الزمان اللي صرت فيك عمك يا عاشور!

ينتبه لموقعه وللدور الذي يستطيع ان يقوم به، تتغير هيأته ولهجته معاً:

ـ اسمع يا ابن العريفي.. ترى اذا صار معك قرشين لا ترفع خشمك، ولا تقول فلاني وتركاني، لأن روحك بيدي، وانا اقدر اسوي اللي ما يتسوى، وفلوسك كلها ما تفيدك...

ـ هي لك يا ولد العم!

ـ لا والله، هي للي تبرد كبده وتدفي قلبه!

ـ تعرف يا عاشور ما بيننا فرق، واذا كانت معي اليوم فهي لك ثاني يوم!

ـ اذا شوف ما تشّوفني فكيف تريدني اصدق وآمن؟

وينتهي هذا الحوار بأن اعطي عاشور مبلغاً اضافياً زيادة على ما قررته لقاء المساعدة التي يقدمها لي. يقبل على مضض، مع تأكيد يردده باصرار:

ـ اذا وافقت معك اليوم تراها واقعه بينا باكر اذا ما ناظرت الفلوس بعيني!

لم اكن بارعاً في التعامل بالنقود او كيفية التصرف مع الأخرين، لكن كلمات هلال قبل ان يغادرني بدقائق قليلة، وقد بدأت دموعه تتساقط بغزارة للفراق، فقد قال، وكان صوته مثقلاً بالحزن والدموع:

- ترى هذول ما يتأمنون، يسرقون الكحل من العين، فلا تعلمهم بالفليسات اللي معك، وعطهم قرش ورا قرش، والا اخذوها لهف، وبعدها ما يبولون على يد مجروح، فاحرص منهم وتوق!

ولأن المبلغ بذاته قليل (الا انه في عالم السجن يبدو كبيراً وخطيراً) ويذوب يوماً بعد آخر، وقدّرت ان الاقامة هنا لن تطول، بعد تهديدات الشهيري، فقد بدأت اهيّيء نفسي لاحتمال الانتقال. بعد اسبوعين على مغادرة هلال جاءني الشهيري مرة اخرى:

- ها، يا ابن العريفي، جاك عقل الرحمن ام بعدك متّور؟

نظرت اليه وحاولت ان ابتسم، وفي محاولة لاغاظته قلت:

- انا متأكد انكم تدوّرون على واحد غيري، ومشتبهين بي، ويوم من الأيام راح تكتشفون الحقيقة وبعدها تندمون!

صرخ وقد اصبح كتلة من الغضب:

- اخرس، وكل خرا...

وبعد قليل وهو يتقدم نحوي:

- تريد تضحك عليّ؟ انا اضحك على اجداد اجدادك!

صمتُ وهززت رأسي، انتقل الى الجهة الأخرى وجلس على سرير هلال، قال وخرج صوته مختلفاً:

- اسمع يا ابن العريفي...

كل هذي الأيام التي تعيشها زايدة، وانت تعرف ان الحكم باعدامك صدر، وسمعته باذنك من شيخنا، وهذا الحكم راح ينفذ اذا ظليت ساكت مثل البومة، أما اذا حكيت فلكل حادث حديث، ومن رأيي ان تتكلم...

وبعد قليل وهو يبتسم:

- ومن قبلنا قالوا: اقطع راس تموّت خبر، وانا الى هالحين مطول بالي، واقول لنفسي اصبر يا رِجّال، لأن العناد يوم والعقل كل يوم، ولا بد ابن العريفي يرده

حليبه ويصير عـاقل وادمي ويعتـرف، أما اذا ظليت كديش ومحّرن فـلا تلوم الا روحك. . .

ولكي لا يدخل معي في مناقشة سريعة، نهض وهو يقول:

ـ اعرف انك مقّرم، وما تقدر هالحين تحك راسك، فراح اخليك بعد كم يوم تفكر وتداش روحك، وبعدها اذا جيتك راح نذبحها على قبلة!

واقترب مني، قرصني من خـدي بقوة لا تقل عن عضة مسعد، ابو فتيخان، وكأنه يريد ان ينتزع قطعة من الخد، وقال قبل ان يغادر:

ـ يجوز بعد ما عرفتني يا ابن العريفي. . .

وحين ابتسمت بامتعاض، نتيجة قرصة الخد، وايضاً استخفافاً بتهـديده، اضاف:

ـ خذ بالك زين يا طالع: لقد عرفت شيئاً وغابت عنك اشياء، كما يقول الشاعر، فاحذر وتوق. . . والا!

قلت لنفسي بهمس، ثم بصوت عالٍ بعد ان خرج:

ـ اللي يطلع بيدك يطلع بطيزك، واكثر من القرد الله ما مسخ!

اكتشفوا، ذات ليلة، انني اصبحت قادراً على ترك العربة بمفردي واستعمال العكازتين! فبعد ان اصبحت على يقين ان اقامتي في المستشفى لن تطول، اخذت أتدرب واهيّىء نفسي للمرحلة القادمة. كنت اختار وقتاً اقدّر ان لا احد سيجيء فيه، وغالباً ما افعل ذلك ليلاً، الى ان كانت تلك الليلة، اذ فتح مسعد الباب، مثل لص، وما كاد يراني انقل خطواتي بصعوبة وبطء حتى شهق ثم جاءت كلماته الباردة:

- تاري المي جارية جوانا وحنا ما ندري!

وبعد قليل، وحين التقت نظراتنا:

- صار الفلو يسابق امه ويسبقها! ها؟

وهز رأسه عدة مرات، ثم غادر.

في اليوم التالي جاءني الشهيري:

- عسى ان الله هداك؟

وحين صمتُّ تابع وهو يهز رأسه بأسف:

- انك لا تهدي من احببت ولكن الله يهدي من يشاء وهو اعلم بالمهتدين، صدق الله العظيم.

ثم فجأة تغيرت لهجته، وكأن انساناً آخر، في داخله، اخذ يتكلم:

- وبعدين معك يا ابن العريفي، تحسبني ما أقدر اذبحك؟ تصور نفسك قوي ولا احد يقدر عليك؟

لأول مرة ارى الشهيري مغتاظاً وحائراً هكذا. قدرت انني اذا بقيت صامتاً لا بد ان يرتكب حماقة اكبر من كل المرات السابقة، ولذلك لجأت الى المداورة:

- والله، يا ابن الحلال، لوكان عندي شيء لقلته وخلصت، وما كان عذّبت روحي ولا عذبتك، بس انتم تريدون اعترف بشيء مالي علاقة به!

- لا تقول إلا اللي تعرفه، اللي لك به علاقة.

- اللي اعرفه، الله يسلمك، قلته.

هجم عليّ، لطمني بقفا يده على خدي لطمة قدحت الشرر من عيني، كنت جالساً في سريري فارتميت. قدّر اني لا احتمل، ويمكن ان اموت بين يديه، وهو لا يريدني ان انتهي في هذه المرحلة، اذ سوف تفشل جهوده كلها خاصة بعد هذا الترميم؛ تراجع الى الخلف وهو يسحب نفساً عميقاًوحاقداً. قال وكأنه بيّت امراً:

- انت اكبر كذاب مرّ عليّ، لكن ما يخالف، انا وياك والزمن بيننا. . .

وبعد قليل وهو يهز رأسه!

- حضّر روحك وعصب عينك!

بعد فترة قصيرة وضُعت على العربة ودُفعت. سارت العربة في دهاليز، قطعت مسافة طويلة، وصلت الى مكان، فُتح باب، ومثلما تلقى القمامة، : أمالوا العربة الى الأمام والقوا بي، ثم القوا ورائي العكازتين، اغلقوا الباب، وغابوا!

هذه الزنـزانة لا تختلف عن غيـرها سـوى انها اكبر قليـلاً، وفيها فـراشان متقابلان. بصعوبة زحفت حتى وصلت الى الفراش القريب، وكان لا يتعدى قطعة من اللباد وبطانية شديدة القذارة ومليئة بالثقوب. الرائحة القديمة ذاتها، والضوء الكهربائي الذي لا ينطفيء ابداً.

كنت على يقين ان الشهيري اختار لي هذه الطريقة لكي اموت. سوف يتركني هنا بضعة ايام، ولأني عاجـز عن القيام بـأي شيء بمفردي، فـلا بد ان اجّف، وسأنتهي. قلت لنفسي: «هذه الطريقة للموت ارحم من غيرها» وتذكرت موتي السابق، قلت: «ساجبر نفسي على النوم، لأن الموت اذا جاء خلال النـوم يكون اسهل واكثر راحة!»

اضطجعت استعداداً للموت. اثناء الاستعداد تذكرت أشياء كثيرة، ولا ابالغ

اذا قلت انني تذكرت كل شيء، منذ ان كنت طفلاً صغيراً وحتى اللحظة التي غادرت فيها المستشفى. ابتسمت عدة مرات وانا اتذكر، وحزنت عدة مرات ايضاً. لا اعرف كم مرّ من الوقت حين سمعت الضجة. انتبهت وتحفزت، كانت الأصوات والشتائم وبعدها فتح باب زنزانتي وأُلقي فيها بشخص. نظرت اليه بامعان، فتحت عيني اكثر لأتأكد، اكتشفت، اخيراً، انه هلال معتوق!

ان علاقات الناس داخل السجن تختلف عن اية علاقات غيرها. واذا قدر لأثنين ان يصبحا اصدقاء فان لهذه الصداقة جبروتاً يجعلها حالة من الوجد، واقرب ما تكون الى الاتحاد. حتى حالة الضعف التي يمكن ان تدّمر الانسان في عالم الناس العاديين، فانها في السجن تتحول الى قوة خارقة. فانا الذي اضطجعت منتظراً الموت، لم البث ان اكتشفت في داخلي قوة لا اعرف أين كانت ثاوية، وهي التي ساعدتني على تضميد جراح هلال اولاً، وساعدتني ايضاً لكي اتماسك واصبح انساناً اقوى من قبل!

وهلال الذي ضربوه على ساقه السليمة، وجاء ينزف، وقد تورمت هذه الساق، لم يتأخر لكي يستعيد قوته، حين عرف انني شريكه في الزنزانة!

قد يكون صحيحاً ما قيل من ان الانسان في السجن يولد ويموت كل يوم، والولادة والموت قدر ما فيهما من مشقة ومعاناة، فانهما يساعدان على الصمود والتحمل، لأن الخلايا الجديدة تكون في حالة من العنفوان تستطيع معها ان تقاوم، ان تتعامل مع كل طارىء، وتستطيع ان تطرد الخلايا التي هدمت ولم تعد قادرة على الاستمرار.

اصبحت يدا هلال السليمتان لنا نحن الاثنين، واصبحت ارجلنا السليمة، أو ما تبقى فيها من قوة، كافية لأن توصلنا الى «الحمام». اذ حين تتماسك الأيدي ونبدأ تلك الرحلة الشاقة والطويلة، وكانت اقرب الى رقصة العميان والعرجان معاً، اذ كنا نحجل، نقفز مثل الطيور، نستعين بالجدار، فقد كنا قادرين على الوصول. ولو قدّر للشهيري ان يراقبنا ـ ولا بد انه يفعل ذلك ـ فسوف يضحك كثيراً، ويغيظ، حين يرانا هكذا!

وان يكون الى جانبك احد في السجن تزداد قوة وذكاء مئات المرات، خاصة اذا كان ذلك الشريك من نفس القناعة وبنفس التماسك. كما ان خبرة الانسان تزداد

بوجوده مع الأخرين.

وضع هلال خلال اليوم الأول، وحتى منتصف اليوم التالي، كان صعباً، فلم يتكلم؛ لكن حين فعل، في الليل المتأخر، اكتشفت انه اجلّ ذلك بشكلٍ متعمد. فقد كان على يقين انهم يتنصتون علينا، ولا بد ان يقول لي اشياء ربما تكون وسيلتهم للدخول والانقضاض!

انها الرسالة الأولى اذن، او بالأحرى الثانية، وربما الثالثة:

فان يختار الشهيري هلال ليكون رفيقي في المستشفى، وان نبقى معاً فترة، وقد تأكد من المساعدة التي قدمها اليّ، ثم العلاقة التي قامت بيننا، وان ينتزعه قبل شفائه.. ثم يعيده الى هكذا!

وان يتركز التحقيق معه حول هذه الفترة وحولي: من اكون واية افكار احملٍ وما دار بيننا من احاديث، ماذا قلت له، وعن اي شيء سألته، لعل اجاباته او واحداً منها يفتح الطريق...

وان يُجلد بسببي، وهو المريض وبهذا الوضع، ثم ان يؤتى به، مرة اخرى، الى نفس الزنزانة، فلا بد لواحدٍ من هذه الطعوم ان يلقط ويصيد.

هكذا خطط الشهيري، وهو الآن ينتظر!

كانت اجابات هلال على اسئلتهم انه كان مريضاً موجوعاً، وانني كنت معظم الوقت نائماً، وفي لحظات الصحو ليس لدي سوى الأنين، نتيجة الآلام، ولذلك لم نتبادل اكثر من التحية، ولولا مسعد لما استطاع ان يعرف حتى اسمي... ان اجابات من هذا النوع، رغم براءتها، لا يمكن ان تقنع احداً، او كما قال له الشهيري:

ـ هذا الكلام تقنع به الأولاد الصغار وليس رجالاً شابت قلوبهم ورؤوسهم مثلنا!

ولم يُتعب الشهيري نفسه كثيراً: بعد الجلد، وان نكون في نفس الزنزانة، لا بد ان يؤدي الى شيئين اثنين: الحقد والشك، وان واحداً منهما فقط يكفي! اذ لا بد ان يمتلىء هلال حقداً عليّ، لأني كنت السبب في ما ناله من اذى، وسوف ينتقم بشكل

ما. وأن ابقى انا في حالة من الشك يمكن ان تخلف فجوة قد يستطيع الشهيري ان يتسلل منها!

تركونا فترة، فقد كنا اقرب الى الجثث، لا نتحمل اية «حفلات» جديدة، وربما كانت لدى الشهيري اعمال اخرى شغلته عنا! وما عدا التهديدات التي كان يتبرع بها الحرس، او يكلفون بنقلها، وكانت تقترن، بعض الأحيان، بالنصائح ايضاً، فانها احدى فترات النقاهة التي مرت علينا في سجن العبيد.

وان نشعر بهذا المقدار من الراحة، وان يكون لدينا هذا الوقت الطويل، لا بد ان نجد ما نتحدث فيه.

ذات ليلة بدأتُ حديثاً عن قضية. كنا مضطجعين ووجوهنا متقابلة، وما كدت اسمّي بعض الأسماء، واذكر بعض التفاصيل، حتى اعتكر وجه هلال واحمرت عيناه، هكذا رأيت، او هذا ما افترضته في وقت لاحق، اذ صرخ وهو يضرب الأرض بقبضته:

- كفى!

للحظات لم استوعب هذا الموقف. جفلت. تطلعت الى الباب وتطلعت حوالي، قال هلال، وخرج صوته من بين اسنانه:

- هذه الأحاديث مملة ولا تعجبني!

وساد بيننا صمت ثقيل.

لأول مرة اشعر انني غير مفهوم، خاصة من قبل رجل افترضت ان اشياء كثيرة تجمعنا، واثق به الى هذه الدرجة. حين رآني هكذا ابتسم ابتسامة صغيرة، وقال، وخرج صوته همساً:

- من الأفضل ان نتحدث عن امور مسلية، حتى نستطيع ان نوازن عالم السجن بعالم الأفراح الخارجية والا ضاعت علينا الدنيا والآخرة!

ظللت حائراً، ماذا يريد ان يقول هلال، واي شيء حصل لكي يتكلم بهذه الطريقة؟ اقترب مني اكثر، لم تعد تفصل بيننا الا مسافة قصيرة. تنصت جيداً، لما تأكد، قال:

ـ اسمع يا طالع: لدي من الهموم ما يكفيني ويزيد، ولذلك اما ان تصمت او ان تغير الموضوع، لأني لا اطيق!

ولكي لا ابقى في نفس الدوامة ضرب كتفي بمودة وقال:

ـ ما رأيك لو نغني؟

واخذ يغني. كان صوته جافاً، لكنه لا يخلو من حنان وحزن، ولم يكن حافظاً كلمات الأغنية بدقة، او ربما كان يحوّرها متعمداً لكي تبدو اكثر مرحاً!

بعد فترة، وحين رآني بعيداً، وقد امتلأت بالتساؤلات والظنون، قال، وكأنه يخاطب نفسه:

ـ افضل شيء ان ننام، والصباح رباح!

ولم يمهلني، التفت الى الناحية الثانية، وخرجت الكلمات من فمه بشكل آلي:

ـ تصبح على خير!

انقضت سنوات طويلة، وقد تنقضي اخرى، ووجه هلال، عيناه بشكل خاص، لا تفارقني. كان صغير الحجم، لكنه يحمل نبالة الانسان وقوته وجدارته. يعرف كيف يتكلم، كيف يوصل فكرته، ومتى يجب عليه ذلك. لا يتعب، والابتسامة دائماً على شفتيه، لا يعرف الملل؛ يفعل من أجل الآخرين كل شيء ويشعرهم انه لم يفعل شيئاً ابداً!

هكذا كان هلال، ولا ادري لماذا اتكلم عنه الآن بصيغة الماضي، فهو شديد الوجود، حاضر ابداً، وكأنه جبل لا يغادر مكانه.

المهم اننا نمنا تلك الليلة، وفي الصباح لعبنا لعبتنا اليومية بكفاءة اعلى من الأيام السابقة، اذ اصبح الواحد منا بحاجة الى الحد الأدنى من مساعدة الآخر. ولا اعرف لماذا فضّل الصمت طوال فترة الصباح، أما بعد ان وزع علينا الغداء، وقبل ان تمتد يده الى صحنه بدأ يتكلم:

ـ ربما يكون هذا الوقت انسب الأوقات للكلام، فالجميع مشغولون بالأكل او بما له علاقة بالأكل..

وبعد قليل وبهمس:

ـ لديهم قناعة انك شخص مهم، ولديك معلومات كثيرة، وهذا ما جعلهم يحرصون عليك الى الآن. انها مجرد تقديرات وشكوك. هذا ما لمسته من خلال التحقيق، ولذلك اريدك ان تبقى صامتاً، كما كنت حتى الآن، سواء اكنت كذلك ام لا.

تطلعت الى هلال باستغراب مازجه بعض الشك، هل يحتمل ان يكون قد أجّل لعبته حتى الآن، ويريد ان يعرف رد فعلي؟ كيف سأتصرف ؟

ولم يتأخر:

ـ حتى الآن لم يستطيعوا ان يأخذوا مني شيئاً، لكني ابقى انساناً، ولا اعرف الى اي حد يمكن ان احتمل، ولذلك لا اريدك ان تقول لي ما تعرف، لكي لا احمل عبئاً جديداً، هل فهمت سبب غضبي امس؟

وهكذا تعلمت درس الصمت مرة اخرى، وكان بالنسبة لي اهم الدروس على الاطلاق!

لم تمض ايام حتى جاءوا:

ـ طالع العريفي عصب عينك وحضّر نفسك!

وضعوني في عربة المعوقين، واخذوني الى السرداب.

الرائحة ذاتها، والصمت خشن ومختلف عن المرات التي خلالها كنت في السرداب وحدي، اجلسوني في مكان، وتكررت تحذيراتهم:

ـ ابداً لا تتحرك ولا تلتفت!

بعد ان غابوا احسست انني لست وحيداً، قدرت ذلك من الأنفاس، من الحركة، وايضاً من آهاتٍ صعدت بلوعة ثم تبعها دعاء بصوت صاخب:

ـ يا من تسمعون. «نحن الآن في منازل البلوى وقبور الأحياء وتجربة الصديق وشماتة الاعداء»[1] فاصبروا، لأن الحق معنا والشعب معنا والله معنا!

وبعد ان هلل وكبّر، وكاد يتابع، سمعنا الركض والهياج والصراخ: لقد وصل

---

(١) الدينوري ـ عيون الأخبار ص ٥٩.

الجلاوزة! وقبل ان يتأكدوا مما حصل انهالوا بالعصي والكرابيج، وبكل ما وصلته اليه ايديهم، على هؤلاء الجالسين المعصوبي الأعين. كانوا يضربون ويصرخون كالوحوش: لم يوفروا احداً، ولم ينج احد، وبعد ان تعبوا وهدأوا قليلاً وصل الشهيري.

لا اعرف ما اذا أُبلغ بما حصل ام لا، فالصمت الذي انفجر رأسا اعطى للسرداب قوامه كاملاً واعطاه الرائحة اياها. أما عندما بدأ صوته، فكان كالقائد الذي يستعرض غنائمه، او كالمفتش الذي يداهم مدرسة ابتدائية:

ـ هذول اللي ما يجون بالكلمة الزينة والمرحبا راح يشوفون شيء ما شافوه بحياتهم كلها، وراح الواحد منهم يقول: ليتني مت قبل هذا!

هل كان يوجه اليّ الكلام؟ يعنيني بالدرجة الأولى؟

دون كلمات، ولا بد انه اشار، اقتادوني الى الطاولة اياها. ربطوا قدمي، لكنهم فعلوا ذلك بطريقة مختلفة عن اية مرة سابقة، وتركوا يدي دون قيود!

ما كادت اولى الضربات تقع على قدمي، حتى صرخ الشهيري بطريقة مسرحية غاضبة:

ـ هذا ما جاء دوره، يا اولاد الحرام، خلوه، هالحين!

فكوني عن الطاولة، وفكوا العصابة عن عيني.

كان في السرداب اربعة رجال وامرأة. رأيتهم جميعاً، ورأيت الجلادين، ورأيت الشهيري ايضاً!

سوف احتاج الى ملكة خارقة لاعادة رسم البشر الحقيقين، والمخلوقات الشائهة، والملوك المزيفين. اعترف انني غير قادر، لأن اشياء بهذه الكثافة، بهذه القباحة، وبهذه القسوة لا يمكن ان تُصّور او ان تنقل، ولو بشكل تقريبي، فقد كانت حالة من الجنون لا تتوقف، ولا يمكن ان توصف!

كنت متلهفاً لمعرفة صاحب الدعاء. حاولت ان اقدر، كانوا متشابهين الى درجة استحال عليّ معرفة اي منهم، وتأكدت هذه الاستحالة، اصبحت مطلقة، بعد ان ربُطوا، الواحد بعد الأخر، وانهالت عليهم الكابلات.

والمرأة.. هل يمكن ان يجلدوها ايضاً؟ وبنفس الطريقة؟ كنت خائفاً من هذا الاحتمال الى درجة الرعب!

كـان وجهها بـين الأحمر القـاني والبنفسجي، لكثـرة مـا تلقت عليـه من الصفعات. كانت فتية، عبلة، وكان صوتها قوياً كالجرس.

اذا قُدّر لي ان ارزق يوماً ما بابنة فان اسمها جاهز : سلوى.

لا استطيع ان اقـول الكثير عن المجلودين. الأول كـان قويـاً كأنـه سمكة طازجة. ساعدته صحته لكي يحتمل الكثير، وكانت ارادته جزءاً من هذه الصحة. حين انزلوه عن الطاولة كان بين الحياة والموت، جروه من يده كما تجر الجثة.

الثاني، وبعد الجلدات الأولى، هرّ كثمرة لم تجد اي مبرر للبقاء فوق الشجرة، فسقطت مع اول ريح. قال الشهيري بفرح لم يستطع ان يخفيه:

ـ اذا جاك العقل وتريد تعترف فخذوه، وانا ، بس اخلص مع الجماعة، وراكم!

قام مفزوعاً يبحث عن طريق لكي يهرب. مدّ يديه، على طولهما، في الهواء، طالباً ان يقبضوا عليه، وان لا يخطئوا، فهو يريد ان يصل الى هناك!

أما عندما جاء دور المرأة، وكانت تعرج قليلاً، فقد شعرت ان الدنيا تشتعل. لم يبق كوكب في هذا الكون الا وتزلزل، ولم تبق نجمة الا هوت وتفحمت. كانت الدنيا ترتج وتصطخب، وزادها اكثر ذلك الكبرياء الذي شق الهواء مترافقاً بصلابة لا يعرفها الا الشجعان.

حين بدأت تمشي زادها العرج في رجلها حزناًوبهاء. والعنفوان الذي ارادوا كسره واذلاله بدا شامخاً مليئاً ومعافى. سارت معهم قوية وكأنها الحياة.

ربطت مثل الآخرين على الطاولة.

كنت، في تلك اللحـظات، انظر اليهـا وانظر اليهم. كنت اتمنى، في تلك اللحظات، لو امتلك قدرة خارقة للتدمير، ان ادمرهم او ان ادمر نفسي، واذا لم استطع فلا اقل من ان تمتلك عيناي وذاكرتي طاقة على رصد ذلك الذي يجري، وامكانية استعادته دون توقف والى الأبد!

كنت وانا اراها تُرفع الى الطاولة هكذا، وكأن ذلك العظيم يمتطي البراق، او تشبه الخضر علىحصانه،ولا تختلف ايضاً عن متعب الهذال وهو يعتلي ناقته ويمضي!

سوف تمر الف سنة والسؤال الذي لا يبرح خيالي، والـذي يجعلني مسلوباً حائراً، ومملوءاً بالذنب الى آخر الأيام، هو: كيف استطعت ان ارقب كل هذا الذي جرى امامي ولم انبس بكلمـة؟ كيف بقيت صامتـاً ومذعـوراً طوال تلك السـاعة السوداء؟ كيف لم اصرخ؟ لم ابك؟ كيف . .

وهؤلاء القتلة لم يكونوا يضربون ساقين، قدمين، جسداً. . كانوا يجامعون، يستمنون، كانوا يشعرون بلذة لا يخفونها. رأيت ذلك في عيونهم، وكانوا كثيراً ما يلتفتون، وكانوا ايضاً يمدون شفاههم، فتبدو مثل المجاديف! وكان جسد سلوى، وقد عرفت اسمها حين نادى عليها الشهيري اكثر من مرة، كان جسـدها يهـتز، يتحرك، يتغير كما هي الحياة. كانت سلوى تصرخ، كـانت تصرخ، مثـلي: «آخ يمه. . . آخ يمه».

آه كم كنت جباناً، ولا اريد ان اقول نذلاً. كانت الضربات مثل الصعقات الكهربائية. كنت اغيب، اشعر باقتراب الموت، برغبة التقيؤ. وكانت وجوه القتلة، خاصة الشفاه، كالاعضـاء الجنسية. وكـان ذلك الملك الأشـوه، العربيـد، يشير بيده، وكأنه نسيني تماماً، بأن تُضرب على ردفيها، وضربة من هذا النوع تجعلها تهتز كحية، كزلزال، ويبدو ان ذلك يجعله يشعر بلذة اكبر!

يجب ان امتلك قدرة استثنائية ليس لتصوير ما حصل، وانما لاستعادته. فكلما تمثلت لي سلوى احس ان الدنيا توشك ان تنتهي.

كيف يمكن لانسان، لحيوان، لمجرد كائن، ان يتعامل مع امرأة بهذه الطريقة؟ كانوا اربعة جلادين، اثنين يتقدمان واثنين وراءهما، لكنهم كالنسور، كنت ارقب ارجل اللذين في الخلف، تحفّزهم، انتظارهم للدور.

وسلوى، حبة العين وروح القلب، وكل الأمل، سوف تمر دهـور قبل ان تتمخض الحياة عن امرأة مثلها. كانت قـوية كصخرة، كانت صـامدة كجبـل، وكانت ايضاً امرأة تبكي. كانت تصرخ بحزن ، بفرح: آخ يمه آخ يمه.

بعد ان سال الكثير من دمها، وملأت الأرض قيئاً، وحـين قدر الشهيـري احتمال موتها، او حين انتهى من استمنانه عليها. امر بأن تُفك عن الطاولة.

كيف استطيع ان اصل الى بعض الكلمات التي تقول اي هول اصابني، اية آلام نزلت بي، واي جنون؟

واذا كنت قد حفظت بعض الدروس، ليس من المعلمين الرسميين، وانما من امي وجيراننا، من اولئك الناس الذين غابوا، من الحياة، ثم من هلال معتوق، واخيراً، لا . . لن يكون هذا الدرس الأخير، من سلوى، فكيف استطيع ان ابقى بعد ذلك صامتاً دشيطان أخرس، او ان ابقى عاقلاً كما لو اني اقرأ كتاباً أصفر او استعيد حلماً قديماً خابياً؟

لتهبط السماء بكل ثقلها وغضبها على هذه الأرض الصفراء الكابية، لتجعلها رماداً؛ لأنها لم تتعلم كيف تنتفض بين مدة واخرى وتجدد نفسها.لتحل اللعنة على ناس هذه الأرض لأنهم ترددوا وخافوا من قول لا للظالم، للمجرم، لذاك الذي يقتل البشر دون ان يرف له جفن؛ لينقطع المطر سنة وراء سنة عن هذه الديار حتى يهجرها ساكنوها ويهيموا، من جديد، في البلاد الغريبة .لأنهم لم يعرفوا كيف يحافظون على كرامتهم، وكيف يدافعون عن انفسهم.

لكن كل ذلك، تحقق او لم يتحقق، شأن يخص الله والمستقبل، أما انا فقد ظللت كسلحفاة خائفة احاول ان أتقي نظرات الشهيري، واذا تجرأت فاوجه اليه الشتائم بصوت لا يخرج من اللهاة، وادعو الله ان يحل المشكلة نيابة عني وعن جميع البشر، واشارك، بالقلب وحده، سلوى وهي تتلوى، ثم وهي تُسحب، وحين قال الشهيري، كإله سومري، «اعيدوه» شعرت بالفرح لأني نجوت!

ما كادت بوابة الزنزانة تُغلق ورائي حتى غرقت في موجة من البكاء لم تنته الى الصباح. وهلال الذي كان لابداً في فراشه مثل قط، منتظراً عودتي، ما كاد يراني في هذه الحالة حتى اصيب بالخوف، وبدل ان يسألني ماذا حصل معي اخذ يقلبني كما يقلب خروفاً، في محاولة لتضميد جراحي، لرتق الشروخ وسد الثقوب . لقد تركز اهتمامه حول جسدي، أما روحي التي كانت تطير في كل مكان، ولا تعرف كيف تتوقف او تستقر، لأنها تحس كل شيء حولها، تحتها، حجراً فانه لم يكتشف هذه الروح الا في وقت متأخر!

من بين دموعي والنحيب عرف ان الذي يجعلني مجنوناً حزيناً، ولا اكف عن البكاء، هو اني رأيتهم يجلدون امرأة، وبنفس الطريقة! وكيف ان المرأة صمدت واحتملت، في الوقت الذي سقط رجل ربما كان عمره ووزنه ضعف عمرها ووزنها. لما عرف صرخ، ربما في محاولة ليعيدني الى حالة طبيعية:

ـ انت بسيط، ولا اريد ان اقول كلمة اقسى، اذا افترضت ان «الشباب» يفرّقون بين رجل وامرأة. انهم جلادون. . .

وربما ضحك وهو يحاول ان يوضح اكثر:

ـ ولا تستغرب ابداً اذا رأيتهم يجلدون بعضهم، وربما بقسوة اكبر. انهم يفعلون ذلك كاوامر، في البداية، ثم كواجب، واخيراً يحترفون!

ولأني لم اكن في حالة يمكن ان اناقش هلال، بالاتفاق او الاختلاف، فقد تابع وحده وكأنه يلخص افكاره كلها:

ـ اكثر هؤلاء اصبحوا مرضى، ومعطوبين، ولذلك يجب ان نتعامل معهم بالفضح والتحدي، وأيضاً بحقد انساني، اذا صحّ مثل هذا التعبير.

وبعد قليل وكأنه يحدث نفسه:

ـ لقد كان هؤلاء ادوات لغيرهم، ولكنهم شيئاً فشيئاً بدأوا يعملون لحسابهم ايضاً!

في وقت ما، وبعد ان تأكد هلال ان المشكلة غير عضوية، فقد قال بطريقة لا تخلو من استفزاز:

ـ طالع . . . القضايا التي تشغل البشر اكثر اهمية وصلابة من مجرد جلد امرأة. . فتماسك!

وبعد قليل وبمحبة:

ـ طالع، يا عيني، يا حبيبي، إسأل اية امرأة كم تلاقي من الجلد في هذه الحياة، وفي كل يوم. انها تُجلد منذ لحظة الميلاد، اللحظة التي يقال فيها: «بنت» ثم من طريقة المعاملة، واخيراً من خلال اعتبارها مجرد مجالٍ حيوي او صيغة للخدمة المجانية والمتعة!

ربما كانت افكار هلال جديرة بالاهتمام، بغض النظر عن مدى صحتها، لكني كنت في عالم آخر: هل يمكن ان تبلغ القسوة والخسة ببعض الناس ليصلوا الى هذا المستوى؟ هل هم مرضى؟ اليس لهم اخوات وزوجات، وهل يرضون ان يعاملن بهذه الطريقة؟ والى متى ستبقى الأمور هكذا؟ حين رآني ملتاعاً حزيناً، والدموع في عيني، قال لي بنزق:

ـ طالع . . اذا بقيت هكذا سوف تهزم اية فكرة وكل شجاعة في نفسك ولدى الآخرين. . .

وحين نظرت اليه باستغراب، قال، وهو ينظر الى الجهة الأخرى:

ـ المنطق، العدالة، الانسانية، والمثل التي تفكر فيها، رغم اهميتها، وأيضاً ضرورتها، فانها لا تعني هؤلاء ، ولذلك يجب ان نفكر بطريقة اخرى. .

وحين صرخت بانفعال، وكانت في صرختي بقايا دموع، فقد رد:

ـ الأفضل ان نناقش هذا الموضوع غداً. .

ولم يترك لي مجالاً ، قال بحدة:

ـ تصبح على خير!

ـ اي خير نترجى او ننتظر يا هلال!

ولم يجب!

كنت خلال هذه الفترة اكثر رغبة في الموت، او بكلمات ادق، لم تعد الحياة تعني لي شيئاً مهماً وخطيراً، خاصة بعد العذاب الذي عانيت منه، وبعد الذل الذي سحقني.

كما اصبحت مشغولاً بهؤلاء الجلادين: اي بشر هم؟ هل يمكن ان يأكلوا بالأيدي ذاتها التي كانوا يضربون بها؟ وكيف تخرج الضحكات من نفس الأفواه التي قذفت هذا الكم الهائل من الشتائم البذيئة؟ وتجاه من؟ تجاه اناس ممزقين، غائبين عن الوعي: رجال بائسين وامرأة عرجاء توشك ان تموت؟ بعد ان يقوم الجلادون بمثل هذه الأعمال، كيف يمكنهم ان يغازلوا نساءهم، ان يهدهدوا اطفالهم؟

كانوا يبدون لي في احيان كثيرة بشراً مشوهين مخترقين، السوس نخرهم والعطب اتى عليهم فاصبحوا رجالاً من التبن: ضخام، بأصوات عالية، لكنهم في الداخل مجوفون، يحتقرون انفسهم، وربما جبناء ايضاً، والا كيف لا يجرأون على ضرب اي واحد الا بعد ان يقيدوا يديه وساقيه؟ واية بطولة او شجاعة في قتل البشر بعد ربطهم!

كانت الصور وهي تتبدى لي، وهي تتلاحق، تجعلني احس بالغيظ الى درجة البكاء، فاذا قدر لي ان اعيش، ان اصبح حراً مرة اخرى، فسوف اقول لجميع الناس، بصوت عالٍ، وربما ببعض القسوة واللوم: الجلاد لم يولد من الجدار، ولم يهبط من الفضاء، نحن الذين خلقناه، نعم نحن الذين فعلنا ذلك، وباصرار ابله، تماماً كما خلق الانسان القديم آلهته! خلقناه، في البداية، رغبة في النظام السهل، ثم تواطأنا معه لاخافة الصغار والغرباء والاعداء، الى ان اصبحنا نتساءل عن مدى

قدرته، ومدى الحاجة اليه، وعند ذاك بدأنا ننظر اليه بحذر ونصمت، ثم بدأنا نخاف منه ونعلن، الى ان وصلنا الى الامتثال والطاعة والرضا واخيراً الى التسليم!

ومثل الإله، بعد ان خُلق استقل وابتعد. ثم اخذ يخلق لنفسه رموزه وشخوصه وطريقته في التعامل مع الآخرين، اصبح وحده الذي يمنح البركة، ووحده الذي ينزل العقاب. وكل من يتساءل او يعترض فهو الآبق المارق الهرطوق؛ وهكذا توالت التقدمات له، ثم الاضاحي والنذور، ومنه تطلب المغفرة ثم الرضا فالبركة، ومن لا يمتثل او من يختلف فلا بد ان يُقاطع، ثم يرجم، ثم يحجر عليه، وهكذا ولد السجن!

ومثلما بنى الإله اول سجونه دون اسوار، فان الإله الجديد بنى سجوناً لا عد لها وسوّرها.

وتماماً مثلما الاله سخر هذا الكم الهائل من الملائكة لكي تتجسس على البشر، وتنقل اليه ليس فقط ما حصل، وانما ما يدور في القلوب والعقول من رغبات وافكار، وقبل ان تصبح فعلاً، هكذا تعلّم الأقوياء انهم بهذه الطريقة وحدها يمكن ان يحموا انفسهم، وان يواجهوا اولئك الذين يريدون هدم ما شُيّد خلال فترات طويلة! ولذلك بدل السجن الواحد اقيمت مئات السجون، وبدل قوي واحد وجد اقوياء كثر، وحسب حجوم تتلاءم مع اهميتهم. بهذه الطريقة توالت السجون واتسعت وامتدت، فطغت على المدن وتجاوزتها الى ما ورائها، وتزايدت الى درجة بنى كل انسان لنفسه سجناً صغيراً يذهب اليه يومياً، وبمحض رغبته، للتعبد والتعود، ولكي ينتهي من هذا الواجب الذي يثقل ضميره!

ومثلما للحارس حارس آخر، وللاثنين آمر للحرس، فقد زاد الحراس الى ان ملأوا المدينة. وكان هؤلاء يتقاضون اجورهم من المحروسين. من الطحانين ودباغي الجلود وبائعي الدجاج والباحثين عن عمل، وايضاً من الزّراع والحاصدين والذين يبنون المراكب، ولم ينسوا الرعاة والصباغين ومرممي البيوت والذين يعملون في الخراج. كانت الأجور على شكل اموال ومواد. ويمكن ان تقبل الخدمات ايضاً، لكن يوماً بعد آخر اصبح الحراس هم الذين يفرضون ما يريدون، فملأوا المدينة صمتاً وضجيجاً، وملأوها طرباً وبكاء، واصبحوا وحدهم الذين يحسب لهم كل حساب!

حين وصلت الأمور هذا الحد، قال الناس: وصلت النار الى بيوتنا! وبذلوا

كل ما يستطيعون من اجل اطفاء النار وارضاء الذين يوقدونها في الليل لكي يوجهوها الى اماكن اخرى، الى جهات اخرى، لعل الحظ يسعفهم فلا تصل الى بيوتهم. لكن اذا وافق الذين يشعلون النار، فان الريح قوية وعصية على اي ترويض، وهكذا بدأت النار تصل الى كل البيوت، واغلب الأحيان بشكل مفاجىء، لأن لا احد يحزر على الزوابع او يتحكم بها، ولأن هؤلاء الذين يوقدون النار تتغير امزجتهم مع شروق كل شمس!

ثارت حرائق كثيرة ، قتلت اناساً لا عَد لهم. وأُطفئت حرائق كانت كبيرة، وقيل ان امطار السماء تدخلت في الوقت المناسب وساعدت على اطفائها! ووقعت حوادث كثيرة نُسبت الى مجهولين، وطويت؛ وقيل ان حوادث غيرها وقعت، وحين لم يُعرف فاعلوها نسبت الى من يحتمل ان يكونوا «الفعلة او المحرضين» واقتص منهم!

وهكذا اصبحت موران مدينة الحرائق والمغدورين!

لا بدّ ان اتوقف. يجب ان اصبح حجراً، او صندوقاً فارغاً، او اتحول الى قنفذ يعرف جيداً كيف يخبىء نفسه لحظة الخطر، واذا تجرأت اكثر مما ينبغي فلا بد ان اتعلم كيف يتحول الانسان الى مخلوق أخرس او فاقد للذاكرة؛ واذا اضطررت للكلام فعلي ان أتكلم كالخرفين الذين هدتهم الأيام ومتاعب العمر ونقص التروية!

لقد نظّرت لما يكفي جيشاً مهزوماً قوامه خمسون كردوساً، وفيه قادة كبار، واصحاب نياشين كثيرة؛ وقلت ما يزيد او ما يحتاجه ثلاثة اجيال، من عصور مختلفة.

هل انا الذي رأى، كما قال جلجامش؟

اغلبنا رأى وجميعنا نعرف، لكن الخرس اصابنا والجبن هدنا، ولذلك لا بد من الطفل الذي رأى عري الملك فصرخ، لا بد ان نصرخ، ان نحّتج.

والا كيف خرستُ كثعلب لا بدٍ للفريسة، كدب ميت، كعنقود جاف، ولم اقل كلمة، كلمة واحدة، وهم يجلدون سلوى؟

لأصبْ بلعنة لا تفارقني؛ لأصب بالبرص وبالجذام، وايضاً بالسعال طوال كل الليالي؛ ولترافقني الكوابيس حتى آخر ايام العمر، انا الذي حاولت ان اهرب

من الموقف الحقيقي. وليمتلىء جسدي كله بالبثور وبالحك الدائم، ولا استطيع ان استعمل اظافري، لعلّي اعوض، انا الشقي، او لعلّي الآن اكفّر، بان اكون شجاعاً، ولو مرة واحدة في العمر!

كانوا يجلدون سلوى وانا صامت. كانوا يجلدونها وانا لا اتحرك. كانوا يفعلون ذلك دون خوف دون تردد، لأنهم لم يجدوا احداً يخافونه، لم يسمعوا كلمة، نأمة، نظرة غاضبة!

يقول لي عادل الخالدي: اكتب.

ارد عليه بمداعبة: الكلمة الأصح: اقرأ

يهز رأسه ويجيب: اكتب لكي يقرأوا!

ماذا يمكن ان اكتب يا عادل؟

اتريد ان تمزقني اكثر مما انا ممزق؟ ان تجعلني راية قديمة، حذاء لم يكلف احد نفسه النظر اليه؟

اذا تحّول الانسان الى شاهد اخرس، الى شاهدة قبر، الى شيء عقيم، فعندئذٍ يفقد مبرراته كلها!

هل انا فيلسوف او منظّر؟ وماذا اريد ان اقول لكم؟

يجب ان تمتلكوا مقداراً كافياً من الشجاعة، وان تقولوا لي: اخرس ايها الجرذ المسكون بظلمة الخوف، لأنك لم تتكلم في الوقت المناسب، والآن تحاول ان تبيّض صفحتك وتبيض علينا!

هل احب التنظير واعطاء المواعظ والدروس؟ وهل وصلت بي الوقاحة لأن افعل ذلك؟

الحق اقول لكم: كنت جباناً الى درجة لا اغفرها لنفسي، واذا اردت ان اشعر بالعزاء والأمل، فلا بد ان اطلب منكم شيئاً واحداً: لا تكونوا مثلما كنت. اقهروا الخوف في داخلكم، واذا استطعتم اكثر من ذلك فاقتلوه!

ومع ذلك، يجب ان تعرفوا، يا ايها الناس: آدم من ضلعه خلق المرأة، لأنها وجهه الآخر، خياله في الظل والمرآة. اما نحن، ابناء المتوسط، في هذه المرحلة، وفي

محاولة لأن نقلد ابانا القديم، فلم نستطع ان نخلق سوى الجلاد، فتحنا له الطريق وتلقيناه بكل الرضا.

والآن كثيراً ما اقول لنفسي: حين يتغير البشر، حين تتغير الحياة، يختفي الجلاد!

مرة اخرى احاول ان اكون منظّراً لكن رغم أنفي، وكصيغة من صيغ الحرية التي تسري في عظامي؛ احاول ان افسر، نظرياً وكامنيات، وجود الجلاد، وربما طريقة التخلص منه، لعلي اصل الى حالة من التوازن مع هذا الواقع الذي لا يتوقف لحظة واحدة عن التغير!

احتملتم مني الكثير، اعرف ذلك، ولنبقي على قدر من الثقة والود، اذا امكن، فاسمعوا ما حصل في اليوم السابع بعد جلد سلوى، لتعرفوا سبب جنوني:

كان يوماً ربيعياً، اقدّر ذلك فيما لو حسبت المدة التي قضيتها في تلك الزنزانة، ثم ما تلاها من ايام، بما فيها فترة المستشفى؛ واقدر ذلك ايضاً من تلك النضارة الطافحة على وجه الشهيري وهو يدخل الزنزانة. كان متألقاً، ولا بد انه خرج قبل وقت قصير من حمام دافىء، اذ كانت تفوح منه رائحة عطرة هي مزيج من الصابون وزهر الليمون وربما البخور ايضاً.

اتذكر، كان اليوم سبتاً، دخل يلّوح بمسبحة صغيرة لونها احمر مقتول، والأغلب انها من المرجان، تطلع الينا في محاولة قراءة اخيرة. هز رأسه عدة مرات وسأل:

- ها.. صرتم اوادم ام بعدكم حمير؟

صمتنا، لم نجب، ولا اعرف ما اذا ابتسم هلال تلك اللحظة ام تراءى ذلك للشهيري، او ربما ادعاه لكي يستفزه ويجد مبرراً. تقدم نحوه بغضب وسأله:

- وتضحك، يا ابن القحبة، ما عاجبك، ها؟

وبكل قوته ضربه بكعب رجله على صدره، فاصطدم رأسه بالجدار. دوى الجدار واضاء لقوة الضربة وارتدادها. هز هلال رأسه اكثر من مرة، وكأنه يستعيد نفسه من مكان بعيد، وحين تمالك نفسه من جديد، قال، وكانت الكلمات راجفة وغاضبة:

ـ انا امي شريفة، يا شهيري، وانت تعرف من هو ابن القحاب.

ـ وعندك لسان تحكي، يا منافق، يا كذاب، ها؟

وهجم عليه، لكنه توقف في اللحظة الأخيرة، اذ التفت نحوي فجأة، وكأنه لم يتوقع وجودي، او ربما صدرت عني حركة فجفل وتحسب!

تراجع قليلاً ويحرج. فتح الباب الذي كان نصف مغلق، وصاح:

ـ يا دريبي، يا فتّيح ، تعالوا.

ومثلما تسري الكهرباء سرت نداءاته وطلباته. وخلال ثوانٍ قليلة كانوا يسدّون بوجوههم باب الزنزانة! ومثل الديك الذي يتبختر بذّلٍ وغوى بين دجاجاته، قطع الشهيري الزنزانة مرةواخرى.كان يوزع نظراته بيننا وبين رجاله. يبدو بعيداً وقريباً في آن واحد. وهو بمقدار ما يريد ان يفاجئنا يريد ان يدهش الذي يرقبونه. في لحظة ما توصل الى ما يعتبره المفاجئة المدهشة:

ـ هالحين صار لك لسان. يا ابن معتوق، وتشتم ، ها؟

ابتسم بسخرية واضاف:

ـ تتصور انك اذا ما حكيت، اذا ما نطقت: خبر ومات؟ لا مَن حَسّ ولا من دري؟ ما تعرف ان جماعتك، مثل طير الهدهد، يأخذون خبر ويردون خبر؟ هالحين تشوف بعينك..

والتفت الى رجاله وطلب بجفاء:

ـ هاتوا لنا محيسن!

ولم يتأخر محيسن، كان اصفر، مسلوباً، اقرب الى الدمية. ما كاد يرى الجمع حتى بدأ يرتجف. طلب منه الشهيري ان يجلس مقابلنا وغير بعيد عنا. بعد تردد جلس: عيون زائغة، والعطش يكاد يقتله، وظل يرتجف ايضاً. سأله الشهيري:

ـ من هو هذا؟

واشار الى هلال

ـ هلال معتوق ، سيدي؟

ـ متأكد!

ـ اي نعم، سيدي!

ـ زين. . زين وهذا هلال معتوق شنهي وظيفته بتنظيمكم الزق؟

ـ كان مسؤول منظمة الأطراف.

ـ وشنهو يعني الأطراف، يا محيسن؟

ـ الأطراف، سيدي، المنظمات الموجودة خارج مدينة موران!

ـ وعلاقتك به؟

ـ كنت عضو ارتباط ، وكان يكلفني بمهمات.

ـ ما قولك، دام فضلك، يا ابن معتوق؟

ـ . . . . .

ـ وهذا الاعتراف اللي قلته هالحين يا محيسن قلته بمحض ارادتك ورغبتك ودون ضغط او اكراه، ام ان احداً فرضه عليك؟

ـ بارادتي، سيدي!

ـ سمعت يا ابن معتوق؟ هذا خويك، وناظره زين، اعترف وقال، ومثله مثايل. .

وبعد قليل وقد تغيرت لهجته:

ـ شنهو قولك هالحين، تعترف ام تظل ثور متنّح؟

ـ . . . .

ـ زين. . زين، تقّرب منه يا محيسن وتفاهم معه بالتي هي احسن، واذا تريد نتركك انت وهو، وحدكم!

التفت محيسن الى الشهيري برجاء عبرت عنه العينان المتوسلتان والصوت الكابي ان لا يتركه على انفراد مع هلال. قال، وفهمت كلماته بصعوبة:

ـ بوجودكم سيدي، لأنك لا تعرف شنهو اللي يوسوس له الشيطان!

هز الشهيري رأسه اكثر من مرة، ثم فجّر مفاجأته:

ـ عندما كان رئيسك لا بد انه اهانك، شتمك، سوّى بك اللي ما يتسوى؛ فاريدك ، هالحين، تنتقم منه، فقم وسنّعه: بكف، بدفرة، بتفلة، حتى يعرف قيمته ويحصد اللي زرعه!

وحين ابدى خوفاً وتردداً صرخ فيه صرخة شقته تماماً، قام كما يقوم السكارى، وتفل وهو يقول:

ـ كله منك يا هلال!

كانت البصقة جافة، سقطت في حوض هلال، الذي تحول الى صخر كتيم اصم، كان لونه بلون النحاس المحروق، وعيناه بلون الليل الحزين.

في يوم ما، اذا خلق فنان في بلادنا، وعرف معنى القهر والغيظ معاً، ولحظة التحدي ايضاً، فسوف يجسد لحظاتٍ لا يمكن ان تتاح لأي فنان آخر في العالم!

بعد هذا المشهد اخذ محيسن يرتجف، وبدا شديد الحيرة والخوف معاً، فهو لا يعرف ما اذا انتهت مهمته ام لا، لا يعرف مدى رضا الشهيري ومدى اكتفائه بما تم ام انه يريد منه المزيد، ولايقوى،في نفس الوقت، على مواجهة هلال.

انتهى المشهد بأن قهقه الشهيري، وقال بثقة ورخاوة معاً:

ـ الله يعطيك العافية، يا محيسن، وهالحين رح، في امان الله، وخلنا نشوف تاليها مع ابن ها الحرام، خويك، ابن معتوق!

يجب ان اتوقف، ان اخترع وسيلة للتعبير جديدة ومختلفة عن كل ما هو موجود، لأن اللغة، هذه العاهرة التي يتداولها الجميع، لا تسعفني، لا تقول، ابداً، ما حصل.

ومع ذلك، لأحاول ان اقول شيئاً، وان يكن كسيراً بائساً شديد الفقر:

بعد ان سُحب محيسن، كما يسحب المتسول، وبقى الباب مفتوحاً، ويملؤه الجلاوزة، ضحك الشهيري فجأة، وقال بطريقة مسرحية:

ـ هالحين اريد اعطيك الفرصة الأخيرة يا هلال.

ظل هلال مطرقاً، غائباً، بعيداً، عصياً، وكأنه تمثال من عصور قديمة. لم يتحرك، لم يلتفت، لم يهتز.

تابع الشهيري بنفس اللهجة:

- صرت بالنسبة لنا مثل راحة الكف: مكشوف؛ وحقك، هالحين رصاصة لكن الرصاصة بك حرام، وما اريد اوّسخ يدي بدمك..

وقهقه، كما لو ان احداً يكركره، وبعد ان استراح اضاف:

- وهذا خويك الثاني، ابن العريفي، حطّينا بظهرك حمل حمار حتى تحكي عليه كلمة فرفضت، فتخير واحد من اثنين: اما تشتمه وتطّلعه من طيز كلب، او تسطره بكف والثاني، وبعدها، وخذها من هـذا الشارب، اخليك تعيش العمر كله...

استراح قليلاً ثم اضاف:

- يمكن ان انساك، افترض انك مثل حجر، اخليك بمكان وارجع بعد سنة او ميّة، والقاك، فشنهو قولك؟

ظل هلال على حالة، لم يتحرك ولم يتغير.

والشهيري، اذا تعلمت شيئاً عنه خلال الفترة الماضية، فان الصمت يستفزه، يقتله. سأله من جديد:

- اسمع مني زين.. زين، يا ابن معتوق: اذا انت عنيد شبر انا عنيد ذراع، واذا تصورت روحك جمل فاللي قدامك جبل، فخلنا نفّضها على خير...

وتغير، اصبح عصبياً اقرب الى الهستيريا:

- قم، يا ابن الحرام، قم وسنّع هذا المطي، اللي تتصوره خويك، كف والثاني، وعفا الله عما مضى. واذا ما سويتها، والله لاسويك خبر بعد اثر، ولاخلي كل من يصل سجن العبيد يتذكر معتوق مثل ما يتذكر اسمه!

في وقت متأخر، وفي محاولة لاختراق هذا الجدار الأصم، افترضُ ان هلال. اثناء هذا الحديث، كان ميتاً. فلم يتحرك ولم يتغير. والا فان شيئاً ما كان يمكن ان يحدث!

لكن هذا الظن البائس، وربما لشفاء علّةٍفي داخلي، لا يقوى على الصمود، ويعجز عن الدفاع. فحين اشهر الشهيري مسدسه، ثم حين عمّره، ظل هلال على

حاله، لم يتحرك ولم يتغير. أما وهو يتقدم نحوه، ولما وضع فوهة المسدس عند صدغه، ولا بد انه ضغط بقوة، فقد رفع اليه عينين لا يمكن لأية كلمة في الكون ان تقولها، ان تعبر عنها. كانت النظرة احتقاراً، استهتاراً، تجاوزاً، وكأنها لا تراه!

في هذه اللحظة بالذات تأكدت ان هلال معتوق لم يكن حياً فقط، كان مملوءاً بقوة البذرة التي تعرف انها تواجه الشتاء لكن لا ترى سوى الربيع. وايضاً بتفاؤل شجرة التين التي تترك اوراقها تتساقط، لأن اوراقاً اخرى، فتية وشديدة الخضرة، تنتظرها وستأتي!

ان نظرة هلال الخاطفة، الساخرة، المتسائلة، الفتيه، وخلال ثوانٍ، او اقل من ذلك بكثير، قالت كل شيء. كانت ثابتة، مستقرة، وشديدة اللمعان. وقالت ما لا يمكن ان يقوله اي شيء على هذه الأرض.

الشهيري لم ير، لم يستوعب. كان مثل ديك مخصي، يرفع رجلاً ويضع الأخرى، وينظر الى جلاوزته، الى اعماقه، ويريد ان يفعل شيئاً. وحين ظل هلال صلباًكعود الرمان، قوياً كخيط الحرير، وثابتاً كالأرض او الجبال، ومسترسلاً كالأنهار، فقد اعتبر الصمت تحدياً اكبر من كل الكلمات، ورأى هذا الصامت امامه مثل مسلة في عينه.

فجأة صرخ مثل امرأة على وشك الوضع:

ـ اسمع يا ابن معتوق: اعطيك هالحين، آخر فرصة، اما ان تصير آدمي، او...

وبعد قليل وهو يرتجف.:

ـ راح اعّد للثلاثة، فاذا ظليت معنّد، والله لأخلي دماغك يفرش الحيط كله!

ومط «ثلاثة» كما يمط اللعاب في حلقه الجاف، وهو يعد، لكنه فجأة انفعل..

ولا اعرف اي شيء حصل بعد ذلك!

اتذكر ان طلقة، ثم ثانية. واتذكر ان شيئاً انفجر، وكان اقوى من الطلقة، ثم انحنى جسد هلال، انطوى، كما لو انه يركع للصلاة، كما لو انه يوشك على النهوض، و مثل ضوء يملأ الفضاء. اتذكر انشيئاً مثل هذا وقع، واتذكر ايضاً ان

الشَهيري بعد ان دوت رصاصاته، غادر بسرعة، وربما كان يركض، وربما فعـل الآخرون مثله.

غبت بعد الطلقات، وبعد ان هرب الجلاوزة. وحـين افقت في وقت ما، وجدت ان الباب كان مردوداً ولم يكن مغلقاً. لكن وجدت ايضاً ان هلال لم يكن موجوداً. وكانت بدلاً عنه كومةمن الفراش وآثار من المياه، وعلى الحائط بقايا من دماء واشياء اخرى!

ليس لدي الا القليل لاقوله بعد هذا!

صحيح ان فترة السجن استمرت لعدة سنوات اخرى، وكان بعضها قاسياً صعباً، لكن لم تعد شيئاً بالنسبة لي منذ اللحظة التي قررت فيها التحدي من خلال الصمت.

اتذكر ان الشهيري جاءني بعد شهر من اغتيال هلال. لم يأت وحيداً، كان يحيط به عدد من رجاله، ومع ذلك كان مرتبكاً:

- ها، يا ابن العريفي، فتح الله عليك ام بعده عامي قلبك؟

نظرت اليه بسرعة ولم أجب، تابع:

- الظاهر بعده: الحصان خالك، وظني انك ابد ما راح تصير آدمي . . .

ابتسم ثم اضاف وهو يهز رأسه.

- اذا ظليت ميبس راسك ترى دواك عندي، والدوا، هـذه المرة، مـا هو فشكة، وكفى الله المؤمنين القتال. . لا، راح اموتك الف موتة، راح اموتك كل يوم!

رددت بسخرية مبطنة:

- تقدر تسوي كل شيء، بس انا اللي عندي قلته، واعتبر نفسي مظلوم.

- كلكم ترددون نفس الاسطوانة، لكن يجي يوم تبيّن فيه القرعة من اللي عندها شعر. والعجلة من الشيطان. .

وبعد قليل، وهو يبتسم:

- وحنا، الله يسلمك، بالنا طويل!

هز رأسه عدة مرات وكأنه استعاد لحظات انفعاله آخر مرة، قال، وبدا اقرب الى الناصح.

- حتى ذاك المسكين جنى على روحه، وعناده هواللي قتله. . .

زفر وصدرت عنه اصوات اقرب الى التأوهات، ثم تابع:

- اي نعم، عناده اللي قتله، وانا ابد ما كان ببالي ان اذبحه، لكن بعدما اعترف عليه خويه، وانت سمعت وشفت بعينك. وبعد ما انكشف السر كله، ظلت عينه مثل عين القحبة لا ترف ولا تنكسر، ولو انه قال كلمتين ثلاث كان عفينا عنه، وكان إلى هالحين حي يرزق. لكن. .

وحين لم يجد لدي اي تعليق تغيرت لهجته:

- وهالحين شنهو قولك يا ابن العريفي، تريدني اساعدك ام تريد تموت موتة كلب؟

نظرت اليه ولم أجب. هز رأسه وقال بنفاد صبر:

- هذا آخر كلام اقوله لك يا طالع، واسمع مني زين: اذا عندك شيء تقوله فانا كلي آذان، اما اذا لا فحضر روحك، لأنك من هنا تروح لزنزانة الموت!

أُخذت الى زنزانة الموت، وهي اصعب من الزنزانات التي قبلها؛ قضيت هناك سنة وثلاثة شهور، ولكني احتملتها، وخرجت.

أُعدت مرة اخرى الى سجن العبيد، اجروا معي تحقيقاً جديداً، لم يكن الشهيري المحقق هذه المرة، كان واحداً آخر. وقرروا في النهاية ان أُرسل الى المهاجع.

حين اعطوني ملابس السجن، واصبح لي رقم، ثم حين دخلت الى المهجع واصبحت مثل السجناء الآخرين، شعرت انني اولد من جديد!

قضيت في المهاجع خمس سنين، عرفت خلالها الكثير وتعلمت الكثير. عرفت ان الشهيري قتل في حادث سيارة، وقيل انه انتحر! وعرفت اشياء اخرى كثيرة جعلتني انسى غيرها واتيه بعيداً، نسيت لحظات العذاب التي وقعت عليّ، وتذكرت

ان الآخرين تعذبوا اكثر مني، وبعضهم مات تحت التعذيب. تذكرت سلوى اكثر من اية فترة سابقة، وتذكرت هلال، وكنت، كل ليلة، قبل ان انام، اغنى لهما الأغاني التي تعودت امي ان تغنيها لي لما كنت طفلاً صغيراً!

وفي هذه الفترة بدأت تقلقني الأخبار التي تصل من الخارج: الخلافات، الصراع، الانقسامات! ولذلك بذلت، مع الكثيرين، اقصى الجهود، لكي نحافظ على انفسنا اقوياء، وان نبقى بعيدين عما يجري خارج السجن، ما دمنا غير قادرين على تغييره.

انقضت خمس سنين نُسينا خلالها. لكن موران تلك المدينة التي تعرف كيف تصبر وتتحمل، جاءتها في ذلك الربيع نوبة من نوبات الجنون، ولذلك اضطرت ادارة السجن ان تضاعف نزلاء كل مهجع، وحين لم تكف المهاجع لاستقبال القادمين بعثت بعدد كبير الى السجون الأخرى، وكنت من الذين ارسلوا اول الأمر الى السجن المركزي، ثم الى سجن الأجانب؛ وفي هذا السجن قالوا لي:

ـ انت بالأساس لست من موران، لم نجد لك قيداً، ولم نجد لك اصلاً، ولا يشرفنا ان تبقى بيننا، ولذلك سوف تُسّفر!

وهكذا سُفّرت. طوفت في اماكن عديدة، الى ان وصلت الى هنا!

لم أفكر بالكتابة، ولست متأكداً ما اذا كانت مفيدة ام لا، خاصة بعد ان تردت الأحوال الى هذه الدرجة، ولكن عادل الخالدي، هذا الفأر القارض، الذي لا يعرف الراحة، والمملوء باوهام الكلمة، يتصور اننا اذا تكلمنا جميعاً، اذا كسرنا جو الصمت، وعرف الناس ما يجري حالياً، وما قد يجري لكل واحد منهم غداً، فلا بد ان تتغير الأمور!

استطاع عادل الخالدي ان يقنعني باوهامه وحملني على الكتابة؛ عدت الى ايام وحالات كنت اتمنى لو انساها، ان اتجاوزها، لكن ما ذنبي اذا كانت هكذا؟ واي عيب فيها لو رأى الناس جروحي وملابسي القذرة؟ وماذا لو سمعوا الصرخات والآهات؟

في محاولة لأن اتوقف اقول لنفسي: «يجب ان نتحرر من اسر الماضي، وان ننظر الى المستقبل، أما ان نظل نقتات من الذكريات، وان نعرض عيوبنا وتشوهاتنا امام المارة، وكأننا نستنجدهم. فإنه لا يليق برجال يحترمون انفسهم».

حين اقول لعادل شيئاً قريباً من ذلك يصرخ:

ـ ولكن ما هو الانسان اذا لم يكن له تاريخ وذاكرة؟

يصمت قليلاً مفكراً حزيناً، ثم يتابع:

ـ اهم صفات الانسان انه حيوان له تاريخ، وانه الوحيد من بين المخلوقات الذي يتعلم الكثير من تاريخه، معتمداً على ذاكرة يمكن ان يورثها للآخرين؛ ومن الجنون ان يُدفع ثمن ما هو مدفوع سابقاً...

وبعد ان يتمشى في الغرفة يجلس على طرف سريري، ينظر اليّ بعينين مليئتين باللوم، ويتابع:

ـ اذا كتبنا عن معاناتنا، عن ذلك الوكر الاسود المشؤوم، فلا لكي نظهر بطولاتنا، وانما لكي نساعد الآخرين، ونجنبهم ما عانيناه، فنحن على وشك ان نمضي، وهمسيبقون بعدنا، وهذا ما يدعونا لأن ننبه، لأن نحذر، قبل فوات الآوان، وانت تعرف ان الحياة دون حرية، دون كرامة، لا تستحق ان تعاش.

واهز رأسي موافقاً، لكنه لا يقتنع، يؤكد باصرار:

«اذا سُجّلت تجارب البشر بصدق، وعرفت البدايات والنهايات، فلن يجرؤ اي انسان، نعم اي انسان، لأن يكون جلاداً او سجاناً، اذ سيعرف ماذا يمكن ان يحل به اذا اسقطه جلاد او سجان آخر.

ورغم قناعتي بما يقوله عادل، فأنا اخاف من الوجه الآخر:

ـ وماذا لو خاف الناس وتحسبوا بعد ان يروا هذا الكم الهائل من الموت والقيء والدماء؟

ـ يجب ان يروا ذلك وان يعرفوه جيداً لكي يعملوا من أجل وقفه، من أجل منعه!

ـ وهل يستطيع ذلك الخائفون؟

ـ الخوف، اغلب الأحيان، لحظة وينتهي، وبعد ذاك يبدأ الغضب.

ـ ولكن الخوف، يا عادل، في احيان كثيرة، يشل الناس، يمنعهم من الحركة، وفي احيان كثيرة يبالغون فيها ينتظرهم وربما هذا ما يريده الجلاد!

ـ يمكن ان نتفلسف الى ما شاء الله يا طالع، ومقابل كل حجة تأتيني بمثلها،

وينتهي العمر ولا نفعل شيئاً سوى الندم!

- لا اعرف، لست متأكداً، ربما لأني متعب، واقرب الى اليأس!

- هل بدأنا نتبادل الأدوار؟

وبعد قليل غام وجهه، سافر بعيداً، وجاءني صوت وكأنه لم يكن صوته:

- نخطىء كثيراً يا طالع اذا تخلينا عن آخر الأسلحة التي نملكها، الكلمة، ولا بد أن نحسن استعمالها؛ اذ ربما تكون وسيلتنا الأخيرة، وقد تستطيع أن تفعل ما عجزت عنه الأسلحة الأخرى، ولذلك فان المهم ان تكتب، أن تقدم شهادة، ان تقول أي شيء كان السجن، لكي يعرف الناس ماذا ينتظرهم غداً او بعده اذا لم يبادروا ويفعلوا شيئاً!

هوامش ايامنا الحزينة

استسلمت اخيراً، استجبت لما اراده عادل، لكني لست راضياً، ومع ذلك سأسمع ما يمكن ان يقوله عن هذه الأوراق، سوف نتناقش طويلاً، وفي كل الأمور، وعندما تبدأ رحلة الجبل، وفي فترة النقاهة سوف اعيد الكتابة مرة اخرى، وربما ثالثة، لكي يعرف الناس ما هو السجن، وحين يعرفون لا بد ان يفعلوا الكثير من أجل ان ينتهي عصر السجون!

ولكن ماذا عن السجون الأخرى، السجون التي في داخلنا، والتي نحملها معنااينما ذهبنا؟

عليّ ان استريح، اشعر بالتعب، واشعر بالمرارة، ولا بد ان استريح الآن!

«لقد آن اوان القول»

وانا المثقل بالحزن والهم حتى حواف الروح، آن لي ان اقول، ان اتكلم. قد اخطىء، وربما لا اكون واضحاً، قد يساء فهمي، وربما تدور حولي الظنون، لا يهم، اذ لم يعد هناك شيء احرص عليه، ولم يبق لي شيء، ولم يتبق مني، فلماذا اظل صامتاً؟

لست متشائماً، رغم الحزن الذي يحاصرني، احاول ان اجد قمراً او نجمة، ابحث عن امل وعن بشر، ولا بد ان اجد وان اصل، وقبل ان امضي لا بد ان اعضّ، كما يقول رامبو، على بنادق الجلادين القتلة. اعرف انهم اقوى مني، اكثر شراسة، وسوف لا يترددون في ان يطلقوا عليّ الرصاص، اذا تلقوا الأوامر، وقد يفعل واحد منهم متبرعاً، بحجة اني شتمت الدولة، او بدون حجة، لكن لا بد ان يأتي من يأخذ بثاري، من ينتقم. والى ان يصل الآخذون بالثأر، المنتقمون، يجب ان اقول، ان اتكلم!

ولكن ما فائدة الكلام؟ وهل لا يزال هناك متسع من الوقت؟

اسأل نفسي السؤال الذي طرحه عليّ طالع، وأجيب كما اجاب هملت:

«آه، ليت هذا الجسد الصلد يذوب
وينحل الى قطرات من ندى
يا ليت الأزلي لم يضع شريعته
ضد قتل الذات، رباه، رباه.
ما اشد ما تبدو لي عادات الدنيا هذه

مضنية، عنيفة، فاهية، لا نفع فيها

ألا تباً لها، تباً، تباً لها».

لا اريد، على الأقل الآن، ان اقتل نفسي، رغم تعب الجسد وسأم الروح، ولا بد ان أُحسن التصرف بما تبقى لي من قوة ومن أيام، ويجب ان استفيد من وجودي في هذه المدينة.

حلمت كثيراً، حلمت طويلاً ان آتي الى باريس. كنت في ليالٍ كثيرة، اغافل الحرس وانسلّ، دون حقائب وبلا جواز سفر، واتنقل بين مدن العالم التي قرأت عنها. كنت احرص على ان تكون باريس محطة لي في الذهاب والعودة. كنت اريد ان احمل مقداراً كبيراً من جنونها وجرأتها، وان اتعلم منها كيف استطاعت، وبوسائل لا حدود لها، بالقوة مرة، وبالمكر مرات، ان تروّض حكامها، ان تفتح ثغرات في عقولهم وقلوبهم. أما الذين لم يستجيبوا، الذين ابوا واستكبروا فكانت ترسل بهم الى المقاصل والمنافي ليتعلموا. هناك آخر الدروس، ولقد تعلّم غيرهم اكثر مما تعلموا!

وكنت ايضاً اريد ان اتعلم من بشر هذه المدينة: كيف يفكرون، كيف يتصرفون، ولماذا اصبحوا هكذا، ولماذا ظلت عمورية مدينة للصمت والموت والانتظار، وناسها احترفوا الصبر وهجروا الحياة وامتلأوا حنيناً الى جنة السماء!

هكذا كنت احلم وهكذا كنت افكر.

الآن تبدو لي باريس مدينة مثل باقي المدن: مغلقة، قاسية، ولا تخلو من سخرية مترفعة. صحيح انها لا تمانع في استقبال الغرباء، بمن فيهم المهزومين، لكنها تفعل ذلك بعدم اهتمام، او تفعله بوقار يصل حدود الجلال، ولا تتردد في ان تستفسر او تتساءل، وببرود غالباً: لماذا انتم هنا والى متى؟ وتسأل ايضاً بسخرية ودون ان تنتظر الجواب: وماذا تستطيعون ان تفعلوا هناك من هنا؟

والسؤال حين يكون جافاً، او وهو يلقى دون اهتمام، يصبح عدواً وساخراً. والغرباء، خاصة اذا كانوا من المرضى او اليائسين، حين يسألون هكذا، او حين لا يجدون من يستمع اليهم، يشعرون انهم ثقلاء وزائدون. أما اذا كانوا، فوق ذلك، من الفقراء، او الباحثين عن عمل، ولا يملكون من المواهب سوى شهادة السجن، فعندئذٍ يصبحون مكروهين وغير مرغوب فيهم!

وفي اية مدينة غريبة، لكي يكون الانسانمقبولاً او مرغوباً، يجب ان يكون قوياً او غنياً، لا يهم مقدار الغنى او حجم القوة، الأكثر اهمية ان يحسن اظهارهما، وان يعرف كيف او متى يستعملها!

وهكذا اصبحت في باريس اكثر ضياعاً!

لكن انيس لم يترك لي فرصة للتردد:

- المهم الآن ان تشفى.

- والمهم ايضاً ان تبعدني عن مستشفيات الدرجة الأولى، كما احب ان اكون في الغرفة مع آخرين، لأني سئمت الوحدة.

- لك ما تريد!

- ثم ان ما تدفعه اعتبره ديناً، ولا بد ان اسدده، وفي اقرب فرصة.

- موافق.

قالها وهو يبتسم ويتطلع اليّ بنوع من العتاب. ولان دروس الماضي، خاصة ايام السجن، اعطته فكرة كافية، فقد تصرف بحصافة، وهكذا توصلنا الى معادلة مقبولة.

لكن باريس، هذه المدينة الآكله، فانها بمقدار ما تعطي نفسها، فانها تبقي بينها وبين الغرباء مسافة، ولا تتردد، بعض الأحيان، ان تكون جافة وشديدة الخيلاء، خاصة حين يتأبط الغرباء احزانهم وهمومهم ويدورون في الشوارع وكأنهم يعرضون انفس ما يملكون!

كنت وانا اتيه في شوارع المدينة، وينظر اليّ الناس ولا يرونني، اشعر بالتعاسة والحزن، لكن اكتشفت، بمرور الأيام، ان الناس لا يرون الا ما يريدون، وهم ليسوا معنيين بهموم الآخرين واحزانهم، لأن عندهم، ربما، ما يكفيهم منها او ما يشغلهم عنها، وهكذا فرض الحل المنطقي نفسه:

عالمان وامتان. فعمورية تبقى هناك وباريس هنا، وعلى اهل عمورية ان ينتزعوا اشواكهم بايديهم، لأن ليس من ينتزعها لهم!

وبمقدار ما احاول نسيان الماضي، والبدء من جديد، فان الماضي يطاردني، يتلبسني، يضع يده في يدي، كعاشقين، ويجبرني على ان نرتحل معاً كل يوم!

احاول ان اهرب منه، ان اضيعه في ازقة الحي اللاتيني، لكن ما اكاد اخطو بضع خطوات، الا واراه كامناً لي في واحد من المنعطفات! كان يمد لي لسانه بسخرية وتشف كاي صبي قليل التهذيب، ونترافق من جديد في شارع او اثنين، وفجأة التفت اليه، واقول له بنزق اقرب الى الشتيمة: «اتركني يا اخي، حلّ عني» وما نكاد نفترق ،متخاصمين، وقد شعرت ببعض الحرية، لأني تخلصت من هذا العبء، حتى اجده ينتظرني على كرسي في الحديقة العامة التيقررت ان استريح فيها، وحين تلتقي نظراتنانبتسم لبعضنا، نشعر بضعف، بشوق لا يوصف، وخلال ساعة او تزيد نستعيد الأحزان والذكريات، ولا نترك يوماً من الأيام القديمة الا ونجره من شعره ليكون ضيفنا، فاذا انتبهت اقول لنفسي بقسوة: «احذر ايها الرجل الهالك، يجب ان تنسى، ان تقطع. كن حازماً، ولو لمرة واحدة، كي تستطيع ان تبدأ من جديد، والا اصبحت مستودعاً للأحزان والشؤم والخراب». واقتنع، وابذل جهداً لعلّي انسى الماضي، ان اخلفه ورائي، لكنه، بمقدار الوداعة التي تميزه وهو يوافق على كل ما اطلب واقول، فانه شديد البراعةوهو يموه نفسه بأشكال وصور لا حصر لها، فقط لكي يبقى معي. انه مثل الهواء او مثل ملامح الوجه، لا يمكن ان ينتهي. ربما لا اراه في بعض اللحظات، وقد يسهو او يغيب، لكن لا بد ان يعود. واذا استطعت طرده او نسيانه خلال النهار، فانه في الليل، وبحجة انه يخاف الظلمة والأمكنة الغريبة، لا يتركني،يتشبث بي كطفل طالباً مني ان اهدهده وان احميه ، فاوافق!

اتذكر انني قلت لنفسي وانا اضع قدمي على سلم الطائرة مغادراً براغ: «وداعاً ايها الماضي، وداعاً لا لقاء بعده». كنت اعني الكلمات في تلك اللحظة، كنت صادقاً ومصمماً، وكنت حزيناً ايضاً. وشمخت وجوه اصدقاء المستشفى واصواتهم: جوليا ومايا ورادي، الدكتور ميلان ورادميلا، تذكرت كوبكا، صرخت: «انسى يميني ان نسيتك ايها الرجل - الأرض، يا من تعطي الآخرين اغلى ما تملك» وتساءلت: كيف يمكن للانسان ان يتخلى ويقطع بهذه الحدة؟ واذا اراد هل يستطيع ؟ والأشياء الصغيرة التي ساهمت في ان اكون هكذا، والتي تراكمت عبر آلاف الأيام والليالي، الأفكار والأحلام والذكريات، وذلك الدفء الانساني الذي كان في فترة ما، وايضاً الجنون الذي عربد في رأسي خلال سنين وسنين، هل يمكن ان ينسى كل هذا او يتم التخلي عنه؟

وبين محاولة نسيان الماضي، والبدء من جديد ، ضعت. صحيح ان المدينة

الجديدة سيطرت عليّ وسحرتني، وتهت في معالمها وتاريخها، لكن كنت احس دائماً انها مدينة الآخرين، مدينة الذين ولدوا فيها وتوارثوها اباً عن جد، لأنهم هم الذين صنعوا كل شيء فيها، وبالمقابل كانت عمورية البعيدة الغارقة في احزانها لا تفارقني. واذا كانت عمورية هكذا الآن، فلا بد ان تأتي ايام وتتغير، تصبح اكثر رحمة بابنائها والذين يأتون لزيارتها او يلجأون اليها، لأن المدن، بالنتيجة، وبالدرجة الأساسية: البشر. وما دام بشر عمورية الآن يحملون هذا المقدار الهائل من الأحزان والقهر والمذلة، فان الروح غائبة او هامدة، والأجساد متعبة، والهواء الثقيل لا يزال يملأ جنباتها كلها، لذلك لا تقوى عمورية على اعطاء انبل ما عندها.

واكتشف باريس اكثر، اتعرف عليها، ولكن اظل اتذكر عمورية باستمرار. آه يا مدينتي، كم قسا عليك البشر، وبشرك بشكل خاص، كانوا ينتقمون من انفسهم وهم ينتقمون منك، وكانوا يوجهون اليك السهام في الوقت الذي كان يفترض ان توجه لصدورٍ بذاتها، لأنها هي التي اذلت المدينة والناس، لكن «الناس في بلادي» لا يعرفون، لا يدركون الا في وقت متأخر، وهم كثيرو التسامح حتى تجاه من اساء اليهم! يفتخرون بهذه الميزة الرديئة، يفلسفونها، ولا يترددون، بعض الأحيان، في ان يعتبروها شعاراً!

اذا قدر لي ان استعيد صحتي، كما اكدّ الدكتور ميلان، «سوف تتحسن، لكن يجب ان تعرف: لن تعود كما كنت، وعليك ان تتعايش مع الحالة الجديدة» فلا بد ان اكرس جزءاً من وقتي واهتمامي الى دراسة: علاقة الانسان بالمدينة!

هل معنى ذلك ان اتخلى عن السياسة؟ لا ولكن عليّ ان افهم السياسة ضمن منظور مختلف. فهذا الهيجان اليومي، وتلك النظرة الحالمة، من وراء دخان السجائر، وهي تعيد رسم الكون، والأوامر الصارمة، وكأن الثورة على الأبواب، والسوقية في كل شيء، في الألفاظ والأكل والسباب والثياب، في محاولة لأن نكون اقرب الى الشعب، هذه النظرة جعلت عمورية مدينة مسبية يتعاقب عليها الأقوياء والماكرون، ولذلك لا بّد ان تتغير، وان نتغير قبل ذلك.

ولكن من انا حتى اتصدى لمهمة بهذه الأهمية وبهذ الحجم؟ وكيف اعطي لنفسي الحق لاصدار احكام ليس على انسان اعرفه وانما على مدن وبشر وتاريخ؟ يجب ان اتحلى بالتواضع واعرف ما استطيع القيام به دون ادعاء، لا ان اصبح مثل القادة الذين يحسنون كل شيء الى درجة الاتقان وتعليم الآخرين!

هأنذا اسلي نفسي لكي انسى الماضي، لكي أهرب. لكن في اللحظة التي تذكرت فيها عبقرية القادة تذكرت ايضا عبقرية زكي اثناء زيارته الأخيرة لي في المستشفى، ثم ذلك الفرمان الذي اصدره بعد ايام قليلة. كيف استطيع ان الوم الآخرين ما دام قائد المعارضة في هذا المكان البعيد، وفي هذا الحيز الضيق، والذي اسمه براغ، لم يحتمل بضع كلمات، وهذه الكلمات لم اقلها انا وانما قالها رجل قبل الفين من السنين؟ لم يقتصر الأمر على ذلك، كان زكي يضحك، يمزح، وطلب ايضاً الحصول على كتاب لوقيانوس لكي يقرأه!

لدي افكار كثيرة يجب ان ادوّنها؛ لا ادعي انها ثمرة الدراسة والغرق في الكتب والمدونات، ولكنها نتيجة المراقبة، واغلب الأحيان دون ان يحس الطرف الآخر، وقد تحصلت من السجن بالدرجة الأولى ثم من المستشفى، وقبلهما من الحياة. كنت شغوفاً بمراقبة الناس، بمعرفة طريقتهم في التصرف وردود افعالهم تجاه اشياء الحياة اليومية. تكونت لدي ملاحظات، معرفة، وأيضاً توصلت الى نتائج، وهذه تستحق ان تدون، ان تناقش، وسأحاول ان افعل ذلك يوماً ما!

وعليكم ان تنتبهوا هنا، فانا الانسان المضطهد، السجين سابقاً، المريض حالياً، الحائر بين الماضي والمستقبل، ماذا كنت افعل خلال فترة طويلة، وفي اماكن عديدة: في السجن والمستشفى وفي الحياة عموماً؟ كنت اراقب الناس!

هل استغرب اذن ما وصلت اليه الأمور؟ انه مجرد سؤال!

ثم من اكون حتى اضع مدونة تتناول سلوك البشر وامزجتهم وطريقتهم في التصرف؟ ماذا املك من المعارف والمعلومات لا لوضع مثل تلك المدونة، وانما لمجرد التفكير بحماقة من هذا النوع؟

يبدو ان ارتداءنا للعباءة لم يذهب عبثاً فقد ترك آثاراً عميقة، ولا أريد ان اقول: لا تنمحي؛ يظهر ذلك في العقل والسلوك، في هشاشة الفكر ورخاوته، وفي الخفاء الذي يميز الكثير من التصرفات، والا كيف يمكن ان تجري أشياء كثيرة دون ان يُحسّ بها ودون ان تُرى؟ وكيف تسوء الأحوال الى هذه الدرجة، ويعم الفساد والظلم دون ان يكون هناك أي رد فعل؟ دون ان يجرؤ الناس على الشكوى والاحتجاج، اذا لم اقل لِمَ لا يثورون؟

وهؤلاء الذين يحكمون، ابناء الفقراء، وقد كانوا الى الأمس القريب

مضطهدين ملاحقين، ثم بين يوم وليلة، ولأسباب لا تزال بالنسبة لي غير واضحة، قفزوا، وصلوا، وبدل ان يغيروا ما كانوا يشكون منه، تغيروا! اصبحوا هم الجلادين الذي يضطهدون الناس، يعذبونهم، وبقسوة تفوق الجلادين الذين سبقوهم، ودون مبرر وبلا اسباب، اغلب الأحيان. واصبحوا ايضاً يستبيحون كل شيء: المال والاعراض، ولا يترددون في ان يسرقوا جهاراً نهاراً! فماذا حصل لهذه الدنيا؟ كيف تغيرت بهذه السرعة وبهذا المقدار؟ وكيف تغيرت النظرة والمقاييس والسلوك؟

اتذكر. . .

اترون كيف لا استطيع من الماضي فكاكاً؟ ما كنت اريد ان اتذكر عمورية وحكامها، ولم اكن انوي تذكر سجونها بشكل خاص، لكي وجدت نفسي اتزحلق، وتدهمني الوقائع والوجوه، وتأكلني الخيبة.

وماذا اذا تذكرت او لم اتذكر؟ وهل انا اب لجميع البشر، كما يقول شاعر ابله؟ تكفيني السنوات العشر التي قضيتها في سجون عمورية، ومجموعة الأمراض التي ستلازمني الى آخر ايام العمر. لم اترك سجناً يعتب عليّ، زرتها جميعاً، او بالأحرى زوّروني، مع كثيرين، تلك السجون الواحد بعد الآخر، تماماً كما يفعلون مع كبار الضيوف، بفارق بسيط: اذا كانت للضيوف رغبات يمكن ان تعدل البرامج المعدة سابقاً، فقد اعفونا من هذا العبء، اذا كانوا يتولون وضع البرامج وتنفيذها بدقة، وكنا شديدي الاستجابة والطاعة! كنا نُقل من سجن الى آخر تأديباً او حين تنتهي فترة التأديب؛ كنا نُنقل الى الشمال في الشتاء، ونُرحّل في الصيف الى الجنوب، عكس رحلة الطيور! وكنا نُجلب، افراداً او مجموعات، من أجل محاكمات عاجلة، بعد ان تظهر ادلة جديدة او بعد الاعترافات، لكي تلقى على اكتافنا مجموعة من السنوات الاضافية، في الوقت الذي كان من السهل ان يوفروا على أنفسهم هذه الأعباء ويمنحونا تلك السنوات دفعة واحدة، ودون حاجة لأية محاكمات!

لقد انزلقت الى موضوع السجن دون تخطيط ودون قصد، في الوقت الذي كنت مصمماً على النسيان! ولكن ماذا في عمورية غير السجون والجوع والمذلة والآلام؟

اين ضاعت عمورية التي نحبها، عمورية الحمامة، ليالي القمر، اغاني الأعياد، عمورية المحبة والأيدي الدافئة والمسافرين العائدين؟

عندما كنا صغاراً، وفقراء ايضاً، كان يهجم الربيع ويحمل معه نباتات الأرض وروائح الصيف، ورغم انّا لم نكن نشبع، فقد كان للأكل مذاق لا ينسى، وكانت هدايا السماء لا تتوقف، حتى اذا دخل الصيف الكبير تمتلىء البيوت، كل البيوت، بالضحكات والأغاني والأطعمة، وتبدأ الصباحات بالحصاد وجمع المحاصيل، وتصّبح الليالي بالأعراس والأغاني، ونظرات العشق الأولى.

هكذا كانت عمورية فترة طويلة من الزمن. صحيح ان اشياء سوداء كثيرة كانت تقع بين فترة واخرى، وكان الأقوياء والأغنياء يحصلون على الكثير، ولكن القليل الذي يبقى يكفي الفقراء او يمنع عنهم الموت، وكان الفقراء يعرفون كيف يساعدون بعضهم، وكيف يقاومون ويستمرون.

عمورية هذه انتهت الى الأبد. قامت اخرى مكانها، تحمل نفس الأسم ولها نفس الملامح، لكن عمورية الجديدة تختلف عن التي كانت: البشر، والحياة، حتى طعم المياه اختلف. المتفائلون، وانا لست منهم، يقولون: لقد اتسعت عمورية وامتدت؛ امتلأت بالعمارات الكبيرة والشوارع الدوّارة، وفيها من المطاعم والفنادق ما يكفي لاستقبالالآلاف المؤلفة... ولا بد ان يتذكروا عمورية القديمة: «وتتذكرون: لم يكن في عمورية كلها فندق يليق باسمها، ويمكن ان ينزل فيه السائح دون ان يشتمنا الف مرة، اما المطاعم فكانت..» ويضحكون، لأنهم لا يجدون وصفاً يفي بما يريدون!

لا شك انكم لاحظتم كيف انتقل من موضوع الى آخر، وليس بين هذه الموضوعات صلة، وهي اقرب إلى الثرثرة، وكأني اخاف من الصمت، او أخشى ان يقودني الى مزلق كنت أحاول الابتعاد عنه.

قد احتاج الى من يحرضني للتركيز على موضوع معين، كما كنتبالنسبة لطالع، وعند ذاك قد اكتب شيئاً مفيداً، أما ان ابقى كالعصفور اتنقل من غصن الى ثانٍ، موهماً نفسي انني اقوم بعملٍ نافع، فلا ازيد عن كوني ادحرج البرميل، ولن اصل الى اية نتيجة، وقد اسيء ايضاً لطالع العريفي فيما لو اعتبرت هذا الهذر يستحق ان يقرن بما كتبه، او ان يكمله. ومع ذلك اريد ان استرسل، ان ابقى دون قيود، وبعد ان انتهي يجب ان اقرر، وربما اعفيكم من شتمي، لأنكم لن تعرفوني، ولن تروا صورتي، وسوف لن تمر عيونكم فوق هذا الكلام الذي اسجله الآن.

لكي اصل معكم الى نقطة اتفاق، اوعلى الأقل لكي تفهموني دون اخطاء، او بأقل قدر من الأخطاء، لا بّد ان اقول دون خوف، ودون تبجح ايضاً، انني اشعر بخيبة تصل الى حدود المرارة، وهـذا الشعور لم يـولده السجن وسنـوات العذاب الطويلة، وليس نتيجة التشرد والبحث عن مكان للاقامة ومصدر للعيش، وانما، وبالدرجة الأساسية، لأني اكاد افقد اليقين، او بالأحرى لأن اليقين الذي امتلأت به طوال سنوات العمر، الحياة كلها، يوشك ان يغادرني، ان يفلت مني. احس في لحظات كثيرة وكأني وحيد، وسط العراء، في مواجهة كل الرياح، دون قدرة على المقاومة او الرغبة في البدء من جديد، وان هؤلاء الساسة الذين اسلمت لهم قيادي خدعوني، تخلوا عني، او كما قال شاعر في الغربة: «الساسة المحترفون ينجـرون خشب التابوت، وانت في الغربة لا تحيا ولا تموت» ؛ فهل اتركهم يواصلون ذلك؟

لست متأكداً ماذا ستصنع الأيام القادمة، اريد ان ابقى عنيـداً، واذا مت فاجمل موت ان يموت الانسان واقفاً، والأفضل ان يفعل ذلك وهو يبتسم بسخرية ايضاً!

من المعالم الأساسية التي حرصت على زيارتها خلال الأيام الأولى لوصولي الى باريس: الباستيل! اريد ان ارى السجن الذي صنع الثورة، وغيّر معالم الكون، وربما لا يزال!

وانا استعد للنزول في محطة المترو التالية، محطة الباستيل، قلت لنفسي، وكنت ابتسم بحزن:

«لا اعتقد ان في العالم مكاناً يحوي عدداً من السجون كما هو الحال في ضفتي المتوسط، الشرقية والجنوبية؛ ولا اعتقد ان في العالم عدداً من السجناء كما في هاتين الضفتين؛ وثورة الباستيل التي تجاوزت فرنسا لتعم العالم كله، يبدو انها لم تصل بعد، ولم تصل اصداؤها واخبارها ايضاً الى هذه البقعة من الأرض، والا كيف نفّسر السجون التي تشاد يوماً بعد يوم؟»

لم ار من السجن الا اسماء شهدائه وابطاله؛ كانت الشمس الساطعة تملأ جنبات الساحة الكبيرة، وكان العمود، وسطها، يحكي تاريخ سجن كان هنا وانتهى الى الأبد.

وتذكرت تلك الصورة المخيفة عن سجن الباستيل: خلال اربعة قرون، من تاريخ بنائه، وحتى لحظة سقوطه، لم يزره سوى ستة آلاف! وفي ذروة الجبروت الملكي، ايام لويس الرابع عشر، لم يكن فيه ما يزيد عن ثمانمائة سجين! اما الذين لم يقضوا فيه اكثر من ستة شهور فهم نصف العدد! وحين اقتحمه الثوار لتحرير السجناء لم يكن هؤلاء النزلاء يزيدون عن السبعة!

وتذكرت فولتير، كان وجهه قوياً كأنه الفولاذ وقد خرج لتوه من يدالنحات حين وصل الباستيل، أما وهو خارج منـه فكان الوجه اقرب ما يكون الى الرغيف الساخن!

قلت لنفسي بأسى: «اراهن، وادفع حياتي مقابل هذا الرهان: في اي وقت، خاصة وقت الاستقرار، وفي اية عاصمة عربية، اذا لم يكن في سجونها اضعاف ما كان ايام لويس الـرابع عشـر! وافحصوا اي سجـين خرج من تلك السجـون، كم من العاهات والعلل يحمل؟»

وأنا اتجول في ساحة الباستيل، ثم في الشوارع المتفرعة عنها، حلمت كثيراً وتذكرت وتساءلت، ولا اعرف لماذا تشبثت بعقلي الأفكـار الصغيرة: سجـون عموريـة، معظمها، كلها، تنفتح على الغرب والشمال، وكان الباستيل ينفتح على الشرق والجنوب، فهل هذا يعني شيئاً؟ وسرداب التعذيب في سجن عمورية المركزي اول ما يطالع «الزائر» ، وكـذلك المشنقـة، في الوقت الـذي كانت زنـازين التعذيب في الباستيل، في القسم الخلفي، والمقصلة كانت في الباحة الداخلية!

وتذكرت وردة، الكلبة الجعارية، وقد وضعت جراءها خلال فصلين مختلفين في الخرابة المجاورة لبيتنا: في الصيف وضعت في الجهة الشمالية الغربية، واثناء فصل الشتـاء وضعت بمواجهـة الجنوب الشـرقي، فمن اين اعتمدت عقـول الجلادين العموريين اتجاهات مخالفة للطبيعة؟ قلت لنفسي بغيظ ، وكانت اسناني تصرك: «ستبقى السجـون وسوف تتسـع اذا ظـل النـاس في بـلادنـا يفخـرون بصبـرهـم واحتمالهم، وان من يعاني اكثر في الدنيا لا بد ان يجازى في الآخرة؛ واذا استمروا ايضاً ينتظرون طيور السماء لكي تنقذهم!»

واتذكر...

بعد عدة شهـور في المنفردة والتحقيق، ولأني لم اعتـرف، لفقوا لي محـاكمة وشهوداً وخطوطا نسبوها اليّ، واثنين اعترفوا عليّ؛ والنتيجة: حكم بسبع سنوات، وارسلت الى السجن المركزي.

كان الاستقبال يليق بسجين محكوم، ومزود ايضاً بتوصية المخابرات: «عنصر خطر، ولم يعترف؛ نوصي بمعاملته بما يتناسب مع خطورته واهميته، وموافاتنا بتقارير دورية عنه».

ما ان تم استلامي، وبعد ان قرأ رئيس القسم الحكم مع التوصية حتى نظر اليّ طويلاً وقال بسخرية:

ـ انت هو عادل الخالدي . . .

وبعد قليل:

ـ اذا الجماعة هناك ما عدّلوك، فدبارك، يا عادل افندي، عندي!

قيدوا قدمي بسلسلة طويلة، وقيدوا اليدين. استغرقت العملية وقتاً، خرج رئيس القلم اكثر من مرة، وبعد ان اطمأن الى ان كل شيء على ما يرام، تطلع اليّ وهز رأسه، واصدر اوامره:

ـ الى السرداب، ومعاملة اكسترا!

بعد ان اجتزت الباب الأول، ووصلنا الى الباحة الداخلية، كانت المشنقة ناحية اليمين، وكان درج السرداب ناحية اليسار، وبينهما كان الباب الذي يؤدي الى السجن، قال لي آمر الحرس وهو يشير ناحية اليمين:

ـ خذ لك شّمة او نظرة يا عنتر!

كانت السلاسل، وهي تنتقل مع الخطوات، تُحدث ضجيجاً اقرب الى الموسيقى! كنت مشغولاً بالحالة الجديدة، بدءاً من وضع القيود، ثم وقوفي بعد ان انتهوا من وضعها، الى التساؤل عن كيفية التصرف بعد ان وضعوها، وما هي الآثار التي ستترتب على وجودها، واخيراً صوتها وهو يتغير ويضطرب حسب طريقة نقل الخطوات واتساعها.

هكذا كنت وهو يستوقفني ويسألني. فوجئت بالسؤال . تطلعت الى حيث اشار. عرفت ولم اعرف. هززت كتفي دلالة اني لا اعرف. ابتسم، وقال بسخرية وهو يشير الى المشنقة.

ـ اذا واحد الله غضب عليه، ويريد ياخذ روحه، فهذه يد عزرائيل، تخلّص عليه وتخلصنا منه، فشوفها احسن ما تغلط!

ومشينا من جديد. كنا ونحن ننزل الدرج، اشبه بالجنازة: الصمت، ما عدا رنين السلاسل، والارتباك، خاصة مني، اذ لا اعرف كيف انقل خطواتي، وهم يتقدمون وينظرون، والظلمة تزداد وتتكاثف خطوة بعد اخرى. أما حين دخل

المفتاح الكبير بالباب الحديدي فكان اشبه بصوت مساعد الشيخ وقت الدفن، اذ نبه الجميع وجعلهم أكثر استعداداً وتحفزاً. مع انفتاح الباب هفّت رائحة من الداخل لا يمكن ان تجد وصفاً او اسماً يحددها او يقربها، فهي مزيج من العفونة والرطوبة ورائحة البول وروث الدواب والمطهرات القاسية والفطائس، ولا اعرف اي شيء آخر!

كانت الظلمة شديدة، رغم اننا كنا في منتصف النهار. ومن نوافذ صغيرة جداً ومواربة، كانت تتسرب اضواء لا ترى الا بعد فترة من التعود على الظلمة!

اوقفني آمر الحرس في زاوية، واصدر امراً مثل اوامر كثيرة تعوّد على اصدارها!

ـ يا الله يا شباب: المربط رقم ثلاثة!

وبطريقة آلية فك الجنود الأربعة سراويلهم وبدأوا يعصرون ويبولون حيث امرهم. كنت حتى تلك اللحظة لا اصدق عيني. الا تكفي رائحة البول، والروائح الأخرى، التي تملأ المكان؟ وكيف يستطيعون ان يبولوا عندما يطلب منهم ذلك؟ واية نتيجة يمكن ان يؤدي اليها هذا البول؟

يجب ان اعترف، ويجب ان اظل اعترف، انني شديد البساطة، وربما اقرب الى البلاهة. كنت اتصور انهم يريدون ان يعطروا المكان اكثر مما فيه من عطر! كنت اتصور اهانة اضافية توجه الى السجين. وتصورت، للحظة، ان هذا المكان هو الذي يبول فيه الحرس! أما حين انتهوا، وبعد أن تركوا بقعة كبيرة من البول، فقد جُررت الى المربط رقم ثلاثة. ربطت الى الجدار، وكانت المساحة التي يمكن ان اتحرك فيها لا تزيد عن طول السلاسل. هنا يجب ان اكون! ليس فقط للوقوف، وانما للنوم والأكل، واي شيء آخر!

انتهوا من مهمتهم بسرعة، لأنهم لا يطيقون ان يبقوا هنا فترة اطول، اغلقوا الباب، وذهبوا، بعد ان ادوا هذا الواجب الثقيل!

ثلاثة ايام في نفس الموقع، هل اكلت؟ هل نمت؟ اين تبرزت؟ لا اريد ان اتذكر!

بعد الأيام الثلاثة اخرجوني. قال رئيس القلم، وهو يضع اصابعه على انفه:

ـ هذا مجرد استقبال، قهوة اهلاً وسهلاً؛ فاذا صرت آدمي، وحلبت معنا صافي، تقضي محكوميتك وتمشي، أما اذا تحيونت، اذا تصرفت تصرف خطأ، واذا

قلت يصير وما يصير، فترى السرداب ينتظرك، والله يخلصك المرة الثانية!

فكوا قيودي في وقت قصير. كانوا يريدون ان يخلصوا من رائحتي، مما علق بي من اوساخ، كانوا ينظرون الى الجهة الأخرى وهم يفكون القيود. اما حين دفعوا اليّ الملابس والبطانيات الثلاث، فقد قال لي رئيس القلم، الذي خرج طوال فترة العمل:

- الملابس والبطانيات عهدة، ولو كنت مؤبد لازم مثل ما استلمتها تسلمها، تسمعني؟

هززت رأسي دلالة الفهم والموافقة. اضاف بحزم:

- بوجهك للحمام..

وابتسم واضاف:

- لكن انتبه، واذا نسيت السرداب، فعلى يمينك، وانت داخل، عزرائيل، وهذا لا ينسى احداً، فخلنا اصحاب من اول يوم، والأحسن الا تريني وجهك.

والتفت الى آمر الحرس، اياه:

- ابو سمير، المهجع رقم ١٧

السجن المركزي في عمورية عالم من الصخب والعجب والجنون، وهو اشبه ما يكون بمركب كولومبس او سفينة نوح!

نماذج لشتى انواع البشر والمخلوقات: القتلة وكبار اللصوص، اللواطيون ومزيفو النقود والأوراق الرسمية والآثار، المتقاعدون والباحثون عن عمل! وفيه ايضاً اعداد كبيرة من السياسيين، يمثلون جميع الأحزاب والأفكار. فيه الواقعيون الصارمون الذين يعرفون، نظرياً، ما يريدون بدقة متناهية، ولكن يعتبرون ان حظهم العاثر هو الذي اوصلهم الى هنا، ويهزون رؤوسهم،اذا سئلوا، ويؤكدون انهم لن يقعوا في نفس الأخطاء في المرات القادمة، والأغلب ان هذه المرات لن تتاح لهم! وفيه ايضاً من السياسيين الحالمين عدد وفير، وهؤلاء يعرفون شيئاً واحداً: «هذا العالم شديد السوء والتعاسة ولا بد ان يتغير»، ولا يعرفون اكثر من ذلك!

وفي السجن المركزي ناس متدينون اقرب الى الدروشة، يفخرون انهم احفاد الرفاعي والبدوي وعبد القادر الكيلاني، دماً او انتساباً، ولا يترددون في اقامة الطقوس والشعائر، وفي احياء الليالي المباركة، والتبشير ان هذه الدنيا دار عبور وانها زائلة!

وغير بعيد عن هؤلاء : الزنادقة والهراطقة، وهم لا يتعبون من الحديث عن المادة واصل الخليقة، ولا يترددون في القول ان الدين افيون الشعوب، ويبذلون جهداً من أجل اقناع أبي عبد الله دركل زعيم المتصوفه بذلك!

ويوجد في السجن الأغنياء، ومن كانوا كذلك، ومن لا يملكون اي شيء في

هـذه الحياة، وليس لهم اهـل او اصدقـاء، ويعتبـرون السجن منـزلهم ووطنهم، والمسجونين اخوتهم الوحيدين.

أما اصحاب الشهادات العالية، وغالباً ما يخطىء السجناء في تسميتهـا او تحـديد تـرتيبهـا، وان كـانـوا لا يشكـون بـأهميتهـا، ان هؤلاء من حيث العـدد والاختصاصات، يتفوقون على اي تجمع بشري يماثله في العالم. اذ تجد الضليعين في الفيزيـاء والذرة والطب والتاريخ، الى جانب كبار المحامين والقادة العسكريين. يقابل هؤلاء عدد كبير ايضاً، تقتصر مؤهلاتهم على شهادتين فقط: شهادة فقر الحال المصدقة والممهورة بالاختتام والتواقيع، وشهادة خلوهم من الأمراض السارية!

ومن حيث الأعمار، فان المسنين الذين لا يروق لهم الحديث الا عن العسكر العثماني والحرب العمومي والسفر برلك، يجاورون الشبان الذين لم تظهر شواربهم بعد، رغم ما يبذلون من جهد لاستنباتها!

وفي السجن عدد غير قليل من المرضى، وقد مات بعضهم نتيجة تأخر الطبيب او اخطاء الممرضين.

ولم ينس الأجانب، المقيمون والعابرون، ان يبعثوا، ولو رمزياً، بمن يمثلهم او ينوب عنهم! اما المجانين فهم كثر، وكان عددهم يزيد فترة بعد اخرى!

وللنساء جناح في السجن المركزي، له باب جانبي، ولم نكن نعرف عن هذا الجناح الا القليل، عدا الأصوات التي تصل، خاصة في بعض الليالي!

وفي السجن مجموعة كبيرة من الحيوانات: الكلاب والماعز والـدجاج. أمـا القطط فلا يمكن اعتبارها من ممتلكات السجن، رغم وجودها، اذ كثيراً ما تغادره مؤقتاً او تهجره تماماً، مع توفر الأكل والعطف، لأن هواية عدد من النـزلاء التفنن بتعذيبها، وقيل انها كانت واسطة لنقل الرسائل ايضاً! ولقد تسبب وجودها او غيابها بمعارك كبرى بين السجناء، او مع الادارة!

بالقرب من المكاتب، في الباحة الخارجية للسجن، يقوم قفص كبير لطيور متعددة الألوان والأصوات، وكانت اصـوات هذه الـطيور تسمـع في الصباحـات المبكرة! وكان لدى آمر السجن غزالان، ذكر وانثى. وقد بذل جهوداً خارقة ليحملها على الأنجاب، لكنها لم يفعلا، فقال ابو عبد الله دركل «ارادة الله» وقال دواد شيا

البيطري: «بعض الحيوانات لا تنجب في الاسر!»

أما المخلوقات الأدنى فلا احد يستطيع ان يحصي اعدادها او انواعها، لكن اكثر المخلوقات وجوداً وكثافة في السجن المركزي: القمل! حتى ان نزلاء السجون الأخرى كانوا يطلقون عليه «سجن القمل وملحقاته»، وكانوا يبالغون في وصف احجامها وشراستها، ويؤكدون ان لهذه المخلوقات اسناناً قاتلة، مما يجعلهم لا يوافقون على استقبال أي زائر جديد آت من السجن المركزي الا بعد ان يخلص من مرافقيه!

الجدران هي التي تجمع هذا الخليط من الناس، ويجمعهم ايضاً، في بعض الأحيان، الموقف تجاه الادارة. وما عدا ذلك فانهم مجموعة من الجزر، وكثيراً ما تنقطع المواصلات ما بين هذه الجزر!

اذا تجاوز القادم الجديد الباحة الداخلية، لا بد ان يأخذ واحداً من ممرين: اليسار وسيؤدي به الى القسم السياسي (تصوروا هذا الحرص وهذه الدقة) واليمين لذوي الجرائم العادية!.

بعد ان وقّعت على استلام «العهدة» وهي ملابس السجن والبطانيات، واستحممت، أخذت ممر اليسار، وقبل ان أُدخل المهجع رقم ١٧، وعلى طريقة الحرس في الاستعراض واظهار القوة والنفوذ، طلب مني ابو سمير ان أجلس في زاوية من النظارة، وهي المكان الذي يطلق عليه السجناء المطهر أو المصيدة، حيث تجري عمليات الجلد والنقل والتفتيش، وقد يطول الانتظار قبل السماح بالدخول، ويتوقف ذلك على مجموعة من العوامل يقررها آمر الحرس.

في هذا المكان، وقد بقيت من الضحى الى ما بعد العصر، التقيت باقدم سجين سياسي في السجن المركزي: مصطفى اوغلو!

وهذا السجين كان ضمن مجموعة من الثوار او قطاعي الطرق، وقد استطاع وحده اجتياز حدود عمورية، بعد ان قُتل افراد مجموعته او اسروا، وباعتبار انه اجتاز الحدود فقد ظن انه نجا، لكن حكومة عمورية اعتبرته مخالفاً، فقررت معاقبته، ثم تسليمه، ولكن الأمور سارت بشكل مختلف تماماً!

لقد حصل ذلك قبل ثلاث وعشرين سنة! وآمر السجن آنذاك، وقيل انه كان

رجـلاً متديناً، لاحظ ان مصـطفى أوغلو مصـاب بكسـرين، الأول في القفص الصدري، والآخر في اصبعين من رجله اليسرى، ولا يليق ببلد مثل عمورية ان تتهم بمثل هذه الاصابات فيها لو سلمته، وهو على هذه الحال، ولذلك قرر احالتـه الى مستشفى الغرباء لمعالجته قبل ان يُسّفر!

ما كاد يصل الى مستشفى الغرباء حتى اعتبر الطبيب المسؤول ان «ابن اوغلو» كما كتب اسمه، ثم كما وصفه «رجل مختل، ولا يمكن اجراء معالجته في مستشفانا، نظراً لخوفه غير الطبيعي من الأجهزة الـطبية، الأمـر الذي يستـدعي احالتـه الى مستشفى الأمراض العقلية، لتجري معالجته هناك».

في مستشفى الأمراض العقلية عولج من الكسور، واصبح اقـل خوفـاً من الأجهزة الطبية! لكن لاحظ اطباء المستشـفى «ان الوضع الصحي لابن اوغلو يؤهله لاعطاء كميات من الدم بين فترة واخرى، ونظراً لحاجتنا الماسة لذلك، فقد قررنا استبقاء المريض لدينا، خاصة وانه بحاجة الى معالجـة عقلية قـد تمتد الى بضعـة شهور».

وهكذا بقي مصطفى اوغلو كل تلك المدة، تحت المعالجة، والمراقبة! وربما ايضاً نتيجة النسيان، وكانت الفترة تمدد مرة بعد اخرى، لاسباب صحية!

وخلال فترة بقائه في مستشفى المجـانين حصـل مصطفى اوغلو عـلى لقب «حاج»! لا يعرف من اطلقه عليه او لماذا، ولكن اللقب غلب على الكنية، واصبح لا يعرف الا بالحاج مصطفى! واكتسب ايضاً هوايات جديدة: تعلم كل الشتائم، خاصة البذيئة، مع اشارات توضيحية شديدة التعبير، وتعلم التحشيش، اذ اصبح لا يعرف الراحة او الهدوء الا اذا حصل على الكيف، وكان، بوسائل شديدة المكر، يحصل عليه؛ وتعلم أيضاً ان يحب وطنه اكثر من اي شيء في العالم، وتمثل له هذا الوطن في العلم.

انه اول سجين اقابله في السجن المركزي!

ما ان التفت ورآني حتى ابتسم وغمز لي بعينه: ان انتظر؛ وقد قالت حركاته وتصرفاته انه رجل مهم!

كان الى جانبه موقوف آخر، بدا وكأنهما يتسـامران، يتبـادلان معلومات خـاصة، وكانا بين فترة واخرى يضحكان، وكأنهما تذكرا شيئاً او احداً. كنت، اغلب الوقت

مشغـولاً عنهما، افكـر بما ينتـظرني، فاذا ارتفعت اصـواتهما التفت، التقط بعض الكلمات، ثم انشغل عنهما من جديد.

في لحظة ما، وبشكل مفاجىء ، نهض الحاج مصطفى بغضب، ركض الى الجانب الآخر، نزع حذاءه بسرعة وقذفه باتجاه صديقه .لم يصبه، نزع الحذاء الآخر، لكن الحرس نهروه، صرخوا بقوة فتوقف في آخر لحظة. كان يرتجف وقدبلغ اقصى حالات الانفعال، واخذ يصرخ وهو يشير:

ـ كافر، دين سز، يا جماعة. .

وبعد قليل وباستغاثة:

ـ هذا قتله حلال لأنه كافر.

وحاول ان يضربه بالحذاء من جديد، لكن الحرس الذين اقتربوا منه اخافوه، قال ودموعه تتساقط:

ـ يسكر ويخمر وتدافعون عنه؟

ـ والحشيش، يا حاج مصطفى؟

هكذا سأله واحد من الحرس. رد وهو يمسح دموعه:

ـ أنا مذنب وسيعاقبني الله، هذا شيء مؤكد، لكن الفرق كبير بين الحشيش والعرق، لأن الحشيش مكروه والعرق حرام!

بعد فترة قصيرة أُخذ «السكران» الى غرفة جانبية في النظارة، لأن العادة اجراء «تحقيق احترازي» مع اي موقوف، ومهما كانت الأسباب، من الناحية السياسية، ويكون عادة مجموعة من الأسئلة: الجريدة التي يقرأها، اي الاحزاب التي يفضلها على غيرها، ما اذا كان له سجناء اقرباء او اصدقاء، وغير ذلك من الأسئلة التي تحدد وجود علاقة او ميول للموقوف، وبعد ذلك يقُرر مصيره!

اقترب مني الحاج مصطفى:

ـ السلام عليكم.

ـ عليكم السلام.

ـ سياسي؟

- . . . .

- محكوم؟

- . . . .

- انطق احسن لك، لأني افيدك قبل ما تتورط!

- ما عندي شيء!

- انت خنزير وادب سز. انت طيزي. انت تستاهل الاعدام!

نظرت اليه وانا ابتسم، فقدبدامنفعلاً، وخشيت ان يتصرف معي بنفس الطريقة التي تصرف بها مع صديقه السابق، قلت برجاء، وبصوت خافت:

- الله يخليك اتركني ودوّر على غيري!

- لك. . اكبر شرف ان الحاج مصطفى يتنازل ويكلم واحد مثلك، تفهم؟

هززت رأسي موافقاً، لكن هذه الموافقة لم ترق له، صرخ:

- اذا تنازل الحاج مصطفى وتكلم، لازم تأخذ تمنّي، لازم تقف مثل مسمار، لازم ما ترف عينك، تفهم؟

انتظر ان اجيب، ان اعلّق، لما وجدني صامتاً، وقف، وصرخ:

- قف!

لم اقف، نظرت اليه، كان يبدو مثل هرم من رماد. كان ضخماً، لكنه شديد الصفرة والهشاشة. والحرس الذين كانوا يرقبون المشهد بلذة، توقعوا انيعتدي عليّ، صرخ واحد منهم لثنيه او لتحريضه:

- حاج مصطفى . . . هذا سياسي ما هو سكران!

- هذا أخرا، لأن السكران يلوّص بروحه وبخراه، وهذول يلوصون بأرواح غيرهم، وهذول. . .

وتوجه الى المكان الذي كانت فيه فردة الحذاء. تحسب الحرس، قال أحدهم بحدة:

- اسمع يا حاج مصطفى، والله لأخّلي المعلم يسويك شاويش!

ـ دخيل أبوك، اشتغل كناس ولا اصير شاويش!

هكذا رد الحاج مصطفى، وهو يتراجع، ولأنه لم يعرف من الذي هدده من الحرس، وكانوا كثيرين، ويجدون متعة في مداعبته، فقد قال احدهم:

ـ نريد تقول لنا يا حاج، اي احلى عمورية او استانبول؟

ضحك بسخرية، هز رأسه اسفاً لجهل الذين يسألونه، فلما وجد العيون تتابعه قال:

ـ استانبول، افندم، بحر وشختورة، بوسفور وسمك طازا، عسل ولبن غير مغشوش، استانبول ايا صوفيا وسركجي وشنق قلعة، في الدنيا كلها مثيل لها يوك، استانبول، افندم، تشوك غوزال، وعمورية...

ضحك بصخب، وكأن احداً يكركره، وبعد ان استراح قليلاً قال:

ـ الله بلا ورسن، عرب يلزمه وقت، وقت طويل، حتى يصير مثل الناس!

سأله واحد من الحرس بخبث:

ـ معنى كلامك انك تهاجم عمورية وأهل عمورية، ها؟

ـ افندم، الكلام الصّح احسن من كلام الكذب، وانا، الله في السما محمود، يعرف كلام واحد، هذا هو حاج مصطفى، عجبك ما عجبك بلط بحر.

ـ شايف حالك كثير، يا حاج مصطفى، وكأن اولاد العرب ما هم مالين عينك؟

ابتسم وقال بسخرية:

ـ افندم، الخشب لا يصير ملقط، وابن العرب لا يصير باشا!

والتفت اليّ وقال يخاطبني ويخاطبهم معاً:

ـ وهذول اللي يشتغلون سياسة افهم مني ومنك وانا اوافق ان يكون القاضي!

قال واحد من الحرس لكي يحرضه:

ـ لكن قبل دقيقة انت قلت له طيزي، تسيت؟

هز رأسه بأسف ورد:

- انتم عرب ما بيعرف الا الفتنة، ومجنون اللي يتدخل بينكم!

وبدأ يغني، فلما تعب افترش الأرض ونام!

كان الحاج مصطفى من ابرز معالم السجن المركزي، وهو الوحيد الذي يحق له الانتقال بين اقسامه دون اعتراضات اساسية، ففي النهار لا بد ان يزور قسم المجرمين العاديين، رغم ما يتعرض له هناك من اذى، فقد كان السجناء يطوقونه، يسخرون منه، ولا يترددون، في احيان كثيرة، من ضربه بقشور البطيخ او الأحذية. كان يزور هذا القسم ويقضي فيه وقتاً طويلاً، وكان ايضاً يوافق على كل شيء يغني للسجناء، يرقص لهم، يشتم، فقط لكي يحصل على الحشيش! يصل مرة ويفشل مرات، وحين يرجع الى النظارة، ثم الى القسم السياسي، يقول وجهه، وتقول تصرفاته، دون كلمات، فيما اذا وصل الى ما يريد ام لا!

كانت اغانيه، بعض الأحيان، تسبقه، وتقول انه في واحد من احسن حالاته. والسياسيون الذين يتعاملون معه بطريقة مختلفة، بالفهم والعطف، كان يروق لهم ان يمازحوه:

- عمّرتها حجي؟

- الله اللي يعمّر كل شيء ويعطي كل واحد على نيته!

- ولكنك تخالف الدين بهذه الطريقة.

- الله غفور رحيم.

- الله شديد العقاب!

- الله يعرف ما في القلوب!

- ويعرف كم مجّة سحبت.

يتطلع في الوجوه، ويتطلع حواليه بحذر، ثم يجيب:

- اعرف ان الله كبير، ويعرف كل شيء، لكن الله ما عنده الا حجي مصطفى؟

ـ عنده الحاج مصطفى وعنده غيره!

يضحك بلذة، يهز رأسه موافقاً ويقول:

ـ اذا وصل اليّ الدور اناجاهز. سوف اقول له: يا رب يا قوي يا عارف ما في القلوب، وما في الجيوب، انت تعرف كل شيء، فحاسب الناس قدر ذنوبهم...

ويضحك مثل حصان يصهل ثم يضيف:

ـ عشرين سنة واكثر بلا ذنب، وانا ساكت يا رب، فسامحني اذا اخطأت، اذا لوصّت، واحسب لي هذي السنين!

لقد عرفت الكثير من التفاصيل بعد ان اصبحت واحداً من نزلاء السجن المركزي، أما في ذلك اليوم، وبعد ان نام الحاج مصطفى وقتاً طويلاً، ولم توقظة الأصوات والحركة الدائبتين حوله في النظارة، فقد استيقظ على رائحة الأكل. فتذكرت قصة الحداد والكلب: كان الكلب ينام ملء جفونه لا يزعجه ولا يوقظه ضرب المطارق، أما المضغ الخفيف فانه يجعله في منتهى الصحو والاستعداد!

لما انتهى ابو سمير من امور كثيرة داخل السجن، او لأنه تذكرني، ولا اعرف لماذا عنّ له، وقد رأى الحاج مصطفى ، ان يداعبني قبل ان ادخل المهجع:

ـ يا الله يا حاج.. الآن جاء دورك

تطلع اليه الحاج مصطفى بتساؤل ابله، تابع ابو سمير، ولم يكن يستطيع ان يخفي ابتسامته:

ـ هذا من الأفندية، يتصور ان الصرماية ما تطول راسه، شايف حاله كثير، فاريدك تقول له كم يسوى. فقم اضربه كفين ثلاثة!

خاف الحاج مصطفى ، تراجع مذعوراً وكأنه لم يفهم او لم يصدق ما طلبه منه ابو سمير. صرخ فيه من جديد:

ـ يا الله، قم واضربه

ـ اعوذ بالله من الشيطان الرجيم

ـ قم احسن لك

ـ حاج مصطفى لا يضرب بدون سبب، بدون ذنب!

ـ هذا امر.

ـ امر لمأمور افندم، وانت عندك مأمورا!

واشار الى الشرطة، وكأنه يعدّهم. صرخ ابو سمير بغضب:

ـ يعني ما عندك نيّة تنفذ الأوامر، ها؟

ـ الله امان افندم، وحاج مصطفى امره هذا وهذا. . .

وضرب على صدره، موضع القلب، ورفع يده الى فوق، اشارة للسماء!

قال له ابو سمير، وخرجت الكلمات من بين اسنانه:

ـ اذا كان هيك بسيطة، الظاهر ان جلدك يحكك ولازم لك كم خيرزانة، وحتى اخلص من هذا الجحش ارجع لك ونشوف. . . .

وصرخ بي ان امشي امامه، والتفت الى الحاج مصطفى وقال له:

ـ والى ان ارجع وقف على الحيط ارفع يديك ورجلك اليمين.

وبهدوء واقتناع، ربما نتيجة العادة، وقف الحاج مصطفى بالقرب من الجدار رافعاً يديه ورجله اليمنى، وفي اللحظة الأخيرة، وابو سمـير يديـر المفتاح داخـل الباب، التفتُ. كان الحاج مصطفى يبتسم بسخرية، وربما رأيت ايضاً عينه وهي تغمزني، ودفعني ابو سمير، واصبحت واحداً من نزلاء السجن المركزي!

المهجع رقم ١٧
عش للدبابير العمياء، للحقد، ولا يخلو من كوى صغيرة للأمل بعض الأحيان.

لقد اختاروا لي هذا العش كبداية لعلاقتي بالسجن المركزي. فبعد التحقيق والتعذيب، ثم المحاكمة الصورية، حملت سنواتي السبع التي حكمت بها وتوجهت الى السجن المركزي. وباعتبار انني سمعت من الكثيرين الذين سبقوني ان الموقوف بعد الحكم، وفي السجن، يعد اياماً بانتظار الافراج، ولا يمكن مقارنة حياة السجن بحياة اقبية المخابرات والزنزانات المنفردة، الا ان استقبال جودت يعقوب، رئيس القسم، جعلني اشك انني غادرت المخابرات! أما حين استلمني ابو سمير، وكان رجلاً مختزلاً، وكأنه حبل، نظراً لضموره، ولأن كل شيء فيه له شكل طولاني، فقد افترضت ان الرجل من الضعف الى درجة يفضل السلامة والغياب، وانه لا يقوى على فتح باب السجن او حمل مفاتيحه!

للحظة تبادل الرجلان النظرات، تماماً مثل كرة ترتد بسرعة اذا اصطدمت بسطح قاسٍ.

الشيء الوحيد الذي يوازن هذا الطيف الجسدي والحركة العصبية: الصوت. كان صوته خشناً ابحاً مليئاً بالخدوش، حتى يبدو وكأنه مجموعة اصوات لم يحسن جمعها وتنسيقها، وقد أُعطي اليه كما تعطى جوائز الترضية في مطلع كل عام جديد!

حين استوقفني اول مرة، وهو يشير الى المشنقة، ظننت ان واحداً آخر هو الذي يخاطبني، اذ لم اتصور ان هذا الصوت يمكن ان يصدر من هذا الجسد. أما حين اصدر اوامره بأن يبول الحرس في المربط رقم ٣، فقد تأكدت ان ذاك الصوت يخرج من هذاالاهاب. واصبح تأكدي يقيناً لما طلب من الحاج مصطفى الوقوف مقابل الحائط رافعاً يديه ورجله اليمنى. أما وهو يدفعني في المهجع رقم ١٧، بتلك اليد التي تشبه المسلة، فلم يستطع ان يخفي فرحه:

ـ افرحوا بعبكم، يا اولاد الكلب، جاكم رزق من السما!

استراح قليلاً تاركاً لهم ان يتفرسوا بوجهي، ثم اضاف بنبرة مختلفة:

ـ هذا لغداكم وعشاكم.. وعشا حميركم، والباقي تسلوا به!

ودون هذه التوصية وُجد في المهجع من عرفني. وباسرع من البرق، وقبل ان يزول ارتباكي، انتشر بينهم خبر من اكون!

ظلوا صامتين، نظروا اليّ، رأوني ولم يروني. لم يحركوا ساكناً. قال ابو سمير، وهو يغلق باب المهجع، ولكي لا يترك اي شك عمن اكون:

ـ انت الآن، يا ابن الخالدي، في احضان امك وابوك، انت بأيدٍ امينة وحنونة. وذهب.

للحظات طويلة ظل الصمت يدوي. وتحولت النظرات من الاكتشاف الى التساؤل، الى السخرية فالعداء. قالت عيونهم الكثير. أما حين رفعت وجهي وبدأت انظر اليهم، فقد رأيت احتقاراً اقرب الى الحقد. ولكي يضعوا حداً لنظراتي، وكما بدأ الصمت فجأة، وهم يستقبلونني، بدأ الدوي، وكأن طاحونة اوقفها عطل مفاجىء عادت مرة اخرى للدوران. ظلوا مثلما كانوا، لم يغيروا مواقعهم، لم يتحركوا، وظللت عند الباب، قريباً من تل الاحذية والقباقيب، واقفاً.

لم يفسحوا لي مكاناً، لم يتكلموا، اكثر من ذلك افترضوا انني زائد وغير مرغوب فيه. وحين بدأت ازيح تل الأحذية قليلاً، لاجد لنفسي فرجة، ولا محدودة، سمعت همهمة اقرب التساؤل: «ضيف وبيده سيف». تظاهرت اني لم اسمع. استطعت ان اوسع الفرجة لكي تصبح فسحة صغيرة، تراخيت فوقها، بعد ان وضعت البطانيات، واصبحت واحداً من النزلاء!

دارت الطاحونة مرات كثيرة، وفجأة ارتفع الاذان!

خلال فترة الصلاة، رتبت وضعي افضل من قبل، ابعدت الأحذية ووسعت المكان، اصبح اكثر ملاءمة واكثر اتساعاً!

بعد ان انتهت الصلاة نظروا اليّ بازدراء: كيف اجرؤ فلا استجيب للصلاة اولاً، ثم كيف تبلغ الوقاحة بهذا الوافد الجديد ان يستغل صلاتهم وفترة انشغالهم ليغير في مواصفات المهجع؟

بصمت، لكن بتصميم، بدأوا حربهم: بالمقاطعة، بالتجاهل، بنظرات التحدي والسخرية، ثم بالتعريض، الى ان وصلنا الى المجابهة.

كلما استعيد تلك الأيام اقول لنفسي، وبصوت عالٍ: «الله كم لدى الناس من الحماقة!» كنا، جميعاً، صغار العقول الى درجة يرثى لها. كنا نُجّر للتفاهات واستفزاز الحرس وللوشايات الكاذبة. كنا نملك، تجاه بعضنا، مقداراً من الحقد يكفي لتدمير ممالك. أما ردود افعالنا لكلمة، لنظرة، فلم يكن يوازيها الا تصرفات المجانين. كيف غاب العقل خلال تلك الأسابيع او اين اختفي؟

كان ذلك القزم، ابو سمير، الرفاس، كما اطلق عليه نزلاء المهجع ٣، مثل مربي الديوك، اذ ما يكاد يوعز بكلمة، بتصرف ما، حتى ننطلق، تماماً كالخيول المحبوسة، وكان يعرف متى وكيف يثيرنا، ونحن مستعدون للاستجابة!

قد لا يكون من المناسب ان اعدد المرات التي تعرضت فيها للقتل، اذ لو مت في تلك الفترة فلن يتعدى الأمر: تخلّص الحمقى من واحد زائدٍبينهم!ولا اعرف من اين تولدت لدي هذه الروح الشريرة لكي اتحدى اكثر من عشرين دفعة واحدة. لم يكونوا عشرين فقط، كانوا شديدي التعصب، لا يتحملون رأياً آخر، رأياً مخالفاً.

في وقت ما، ولا اعرف ان حصل ذلك نتيجة لحظة صحو ام لحظة جنون، قررت ان اغيب. هل حصل ذلك بسبب الخوف او التعب؟ هل له علاقة بنبل يغفو في داخل كل واحد منا؟

قال لي ابو سمير، بعد ان مرت بضعة ايام توقفنا خلالها عن العراك، ولم تعد تستهوينا المناقشة:

ـ الظاهر ان الجماعة كسروا راسك، وصرت مثل الأرنب!

ـ افضل من ان يكسره غيرهم!

ـ وتعترف انك صرت حريمة؟

ـ صرت سيد نفسي وما عدت عبد لغيري!

ـ سمعتم يا جماعة الخير؟ شفتم بعيونكم؟

سمعت همهمة وانكسرتْ. لم يستطع ابوسمير ان يواصل لعبته هذه المرة، تراجع ثم انسحب انتظاراً لفرصة مناسبة. كنت، تلك اللحظة، مصمماً على ان احرمه من الظفر، الا اجعله يفرح، فقد بدا بنظري ان اقصى فرح يمكن ان يحققه مربي الديوك حين يراهن على بعض الديوك وتظفر!

تحملت الآخرين كما تحمل ايوب ديدانه. كنت اقول لنفسي بحزن اقرب الى الأسى: «نحن السجناء، كلنا معذبون واذلاء، وهؤلاء الذين وضعونا هنا جميعنا هم الخصوم، خصومنا كلنا، فكيف نكون حمقى بهذا المقدار ونتشغل ببعضنا عنهم، وننساهم؟»

الآن وبعد ان ابتعدت تلك الأيام، اشعر بآلام لا حدود لها. لقد كنا مجموعة من الحمقى. مخدرين وسريعي الاثارة، وكنا مستعدين ايضاً لكي نساق كما يريد الآخرون. ومن هم هؤلاء؟ الحثالات، الذين يريدون رؤوسنا، والذين عُجنوا على كراهيتنا كلنا، لكنهم برعوا في اخفاء هذه الكراهية، في توزيعها على من يريدون ومتى يريدون. وكنا نحن المحصورين في هذا المهجع، وربما في المهاجع الأخرى، مع اختلاف بسيط في التفاصيل، والخصوم، شديدي الانقياد والاستجابة، تذكرت كلب بافلوف، وتذكرت القصص التي تروى عن الناس المضبوعين، قلت لنفسي في البداية، ثم قلت لناس المهجع:

ـ ايها الأخوة، وارجو ان تنتبهوا لما ساقوله...

بعد هذه البداية ارتبكت، رغم اني هيأت نفسي، وكنت اعيد ما اريد قوله في الليالي السابقة. لما رأيتهم يتطلعون اليّ بتساؤل، اضفت، وكان صوتي متلجلجاً:

ـ لا اعرف كيف اقول ما افكر فيه، ولكن علينا ان نتذكر دائماً اننا سجناء، وان ابو سمير وغيره هم السجانين. قد تختلف آراءنا، لكن اذا كنا شجعان واذكياء

فيجب ان نؤجل هذه الخلافات الآن، لأن ليس هنا مكان حلها، وانما تحلّ في ظل الحرية وبين رجال احرار.

رأيت استجابة، او ما يشبهها، في العيون، تابعت بحماس اكبر:

ـ واعطيكم عهداً، وهذا ليس نتيجة الخوف، وانتم تعرفون، انني لن اكون ضد اي واحد منكم. ولن اسيء لأحد، اي كان، ما دمت سجيناً وما دام هو في السجن مثلي، لأن الآخرين يريدون تصفيتنا جميعاً، والجوائز التي تعطى، اذا صفى احدنا الآخر، هي جوائز وهمية، وعلينا الا ننخدع!

لا اعرف الى اي حد اوصلت ما اريد، لكن شعرت ان الجدار الذي بيننا فُتحت فيه كوى صغيرة. كانت عينا خالد، وكان ينام غير بعيد عني، تضحكان، وان بتحفظ، وتقولان لي: اصبر، تحمل. كنت ابادله النظرات، وارجوه، دون كلمات، ان يجنبني هذا الحقد الذي يطوقني من كل الجهات.

في الليل، ورائحة الأحذية تزكم انفي، كنت اقول لنفسي بحزن: «افضل طريقة لبقاء السجن وان يظل السجان هو الأقوى، ان يكون هناك من هم مستعدون لأن يتعاركوا بلا سبب، وان يعطوا الجلاد الحجة لكي يكون حكماً ثم قاضياً ثم سجاناً». وتذكرت بعض قصص كليلة ودمنة قبل ان انام، وحلمت بعدد منها في تلك الليلة ثم في الليالي التالية!

بعد ان انقضى اكثر من اسبوع دون خلافات، وقد تأكد جودت يعقوب من الحرس، قرر ان يطلق سراحي من هذا المهجع.

أربعة اسابيع وعدة أيام ونحن، كما يقولون، نخض الماء ونجرب. لم نتأكد انه ماء الا في اللحظات الأخيرة، مع ان الأمور كانت واضحة لحظة لقائنا، قبل ان نلتقي، لكن يبدو ان هذا الكم من الحماقة الذي يرقد في قلب الانسان يجعله يفكر بطريقة حمقاء اولاً، ويدفعه لأن يتجاوز البديهيات بعد ذلك. والى ان يقتنع، وبعد ان يدفع ثمناً، وغالباً ما يكون كبيراً، وفي بعض الأحيان حياته، يتعلم، لكن الوقت يكون متأخراً!

في اللحظات الأخيرة، وانا اغادر المهجع ١٧، شعرت انني اولد من جديد.

فشفيق ساعدنا، ولا اعرف ان كان هذا اسمه الحقيقي ، ام انه لقب اكتسبه في السجن اويضفيه عليه اتباعه، وكان يجلس دائماً في صدر المهجع، واغلب الأحيان صامتاً، يسبح ويهز رأسه، وشفتاه تتمتمان، لا يعرف بأية ادعية، وقد شعرت، في بداية وجودي في المهجع، ان اي موقف تجاهي لا يكون الا بايعاز منه، او على الأقل بموافقته، ثم بتغاضيه، حيث كان يغمض عينيه ويغرق في الأدعية... شفيق ساعدنا، بعد ان اخذت الأمور نسقاً مقبولاً في الاسبوع الأخير، وحين شعر اني سأغادر، بعد ان جاء ابو سمير وطلب مني ان استعد، ترك شفيق مكانه، ربما لأول مرة، وجاءني:

- ليغفر الله خطايانا وليساعدنا

وبعد قليل وبحزن:

- الانسان ضعيف ومعرض للزلل. ربما اخطأنا معك، يا ولدي، وسبحان من لا يخطىء، فسامحنا...

بدأت دموعه تتساقط، واضاف بصوت متهدج:

- اعرف انك بعيد عنا، لكن الله يهدي من يشاء. ربما اسأنا اليك، ربما ظلمناك، لكن كنا نريد ان نهديك، ان تكون واحداً منا، ولا نعرف ان ستحمل ضغينة علينا امستسامحنا، كل ما نأمله ونرجوه ان تسامح...

ولم يستطع ان يتابع. قبلني على رأسي عدة مرات، وقال وهو يتراجع، تاركاً لاتباعه فرصة وداعي. :

- ليبارك الله الناس الشجعان، وليهدهم الى سواء السبيل!

وتبارى الآخرون في وداعي. كانوا يقبلونني بطريقة حازمة جداً، لكنها شديدة اليأس ايضاً، فعلوا ذلك لكي لا يبدوا ضعفاء، ولكي يخفواالقسوة التي بدرت منهم في وقت سابق.

حين ودعني خالد قال لي بصوت خفيض، وكأنه يبلغني سراً:

- الرجال، مهما كانت الخلافات، يلتقون، أما الجبال فانها لا تغادر اماكنها!

قال ابو سمير، وهو يشهد الجزء الأخير من الوداع:

ـ الله . . الله . . على هذا الزمن الخرا .

هز رأسه عدة مرات ثم اضاف :

ـ الظاهر ان الدنيا في نهايتها، فاذا صار يرعى الذيب مع الغنم، وصار الأخوان مع الشيوعيين فدبر راسك يا ابو سمير!

ظل يراقب ويتابع ، وكأنه نسي مهمته . وحين رأى بعض الدموع ، وتلك القبل والوداع الحار صرخ :

ـ إلحق حالك يا جودت افندي . . .

وبعد قليل ، وكأنه يخاطب نفسه :

ـ اولاد الكلب : بوس وبجق ، وكأن كل اثنين منهم توم ، نسوا كل شيء ، وتعال ضبط السجن يا ابو سمرة!

صرخ في محاولة لأن يعيد للسجن هيبته :

ـ يا الله يا ابن الخالدي ، لأن ايام السرور قصار ، والسرداب بعده في محله ما طار!

وحملت امتعتي ، مع حبتين من البرتقال ، واتجهت الى المهجع رقم ٥ .

ما كادت ايام قليلة تنقضي على وجودي في السجن المركزي، وفي المهجع رقم ١٧، حتى عرف الخبر. لا ادري من نقله او كيف تسرب. ان ذلك جزء من حياة السجن الداخلية! وانتقال الأخبار لا يتعلق بوصول احد من السجناء او الافراج عنه فقط، وانما يتجاوز ذلك الى معرفة اشياء كثيرة تخفى على الكثيرين. ولا يقتصر الأمر على ما يدور في هذه المساحة المعزولة من عمورية، وانما يتسع ويمتد الى ما يجري في العالم الخارجي من اخبار واحداث، غير تلك التي توردها الاذاعات والصحف. صحيح انها تصل ببطء، او متأخرة، وربما بعض الأحيان على شكل أجزاء صغيرة، لكنها في النهاية تتجمع لتصبح قصصاً تُروى، تماماً كما تتجمع قطرات المطر لتصبح سيولاً!

هذا الجانب من حياة السجن لم يحن الوقت لأن يخاض فيه او لأن تُكشف اسراره، فما دامت سجون المتوسط تزخر بهذه الأعداد الهائلة من البشر، فيجب ان تكون لهؤلاء الفرصة والقدرة للدفاع، وان يمتلكوا وسائل لا تستطيع الادارة ان تكتشفها بسهولة، خاصة وان تلك الوسائل يتم تعلمها داخل السجن، وبشكل عملي، تماماً كما يتعلم الطفل لغة آبائه.

المهم ـ وهذا التعبير الذي سيتكرر على لساني كثيراً، تعلمته من المهجع رقم ٥، ومن رضوان فرج! لما غادرت المهجع رقم ١٧، ومعي كمية من الأسى والتساؤلات وحبتان من البرتقال، التقيت بالحاج مصطفى. كان مثل عادته ينتقل من مكان الى آخر. لما رآني ابتسم، لكن بطريقة مختلفة عن المرة السابقة، توقفت

لحظة، ريثما اتمكن من وضع البرتقالتين بين يديه، رفض ان يأخذ اول الأمر، ونتيجة الحاحي، وبعد ان التفت الينا ابو سمير بنظرة غاضبة، اكتفى بواحدة، وساعدني في حمل البطانيات مرة اخرى، وشد على يدي عند الساعد!

ما كدت اصل المهجع رقم ٥، وبعد ان فتح ابو سمير الباب، وهو يقول:

- اللي ترميه السما تتلقاه الأرض...

وبعد قليل، وكان يبتسم بسخرية اقرب الى الهزء:

- هاكم ابن الخالدي، رفيقكم وحبيبكم، سولفوا معه وعيشوا بالكلام، والأوهام الى الصبح، الى ان تنشق طيازكم، بكرى راح تتندمون، والأيام بيننا!

سُمع كلامه او لم يسمع، لأن الاستقبال الذي مازجه الفرح والمرج طغى على كل شيء. وخلال وقت قصير، وجدت نفسي في صدر المهجع، في مكان يشابه الذي كان فيه شفيق ساعدنا، والجميع يسأل، ينظر بلهفة، يبتسم، وانا بين الاجابة، والرد على الابتسامات، ومحاولات تذكر الوجوه والأسماء، لا اصدق ما يجري داخلي وما يجري حولي!

ان الفرحات الصغيرة التي قد لا تعني شيئاً بالنسبة للناس في الخارج، هي وحدها التي تجعل السجناء، هؤلاء التعساء المنسيين، يتماسكون ويستمرون، وتجعل لحياتهم معنى وجدوى.

في الليل وانا احدثهم عن مراحل التحقيق والتعذيب، وقد حاولت ان اختصر كثيراً، واتجاوز بعض المواقف، كنت ارى في عيونهم فرحاً يفيض على كل شيء، وكانوا يكتشفون صمودهم في صمودي، وآلامي هي آلامهم. ولكي لا يطغى هذا الموضوع ويغرقنا، فقد ارتفع في لحظة مناسبة صوت بالغناء، وارتفع صوت ثانٍ، ثم اندمج وشارك الجميع. كانت الأغاني فرحة سريعة، ونتيجة التحوير، لم تخل من دعابة ومزاح. انها نفس الأغاني التي تردد في الخارج، في الأعراس وايام الحصاد، حتى يظن من يسمعها وكأن الفرح يفيض من قلوب هؤلاء الناس، وانهم لا يعرفون الهموم!

بعد ان قضينا وقتاً في الغناء، ثم في احاديث متنوعة، واستعدنا تذكر الكثيرين، وكان طابع تلك الأحاديث السرعة وتتخللها الدعابة، ولم ننس ايضاً

تقليد المحققين والحرس، لا اعرف لماذا ملأت رأسي شخصية الحاج مصطفى، سألتهم عن هذا الرجل من يكون ولماذا هو هنا؟

ذُكرت عنه اشياء كثيرة، الى ان قال ابو مكرم، وكان من اقدم السجناء في السجن المركزي:

- «اتذكر انني رأيت الحاج مصطفى، بعد وصولي بشهرين او ثلاثة، اي قبل اربع عشرة سنة. جاءوا به الى السجن المركزي لكي يسفّر، واعتقد انها كانت المحاولة الأولى لتسفيره...

«في تلك المرة قلب السجن بصياحه وشتائمه وتحديه. كان قوياً ومجنوناً، ولكم ان تتصوروا كيف كان يتعامل مع الحرس، وكيف يتعامل معه الحرس...

«وباعتبار ان اختلاله كان نتيجة الضرب والتعذيب، بعد ان اجتاز الحدود، ولأنهم ضربوه بقسوة في المرة الثانية، فربما تذكر، اذ فارقه هدؤوه ووداعته وتحول الى وحش! اتذكر ان الحرس هربوا، اغلقوا الأبواب ولم يتجرأوا على الاقتراب، ومن خلال مكبرات الصوت، وبالاستعانة ببعض المجرمين العاديين استطاعوا الاحتيال عليه وتقييده مرة اخرى...

«كانت ايام مشهودة في السجن. وبعد ان وضع في السرداب مدة شهر، وباستعمال بعض المخدرات في الطعام اولاً، ثم بالحقن، امكن تهدئته، واعيد من جديد الى مستشفى الأمراض العقلية!

«وبعد سنة او اكثر قليلاً جاءوا به للتسفير من جديد، وسُفّر فعلاً، لكن نقطة الحدود التركية رفضت استقباله او استلامه، لأنها لا تعترف به ولا تريده، وهكذا اعيد، مرة اخرى، الى عمورية، والى السجن المركزي، لكن لم يبق فيه الا اياماً، اذ استعادته مستشفى الأمراض العقلية للمعالجة وللتبرع بالدم ايضاً! كانوا يعلفونه كما تعلف الدواب، لكي يأخذوا منه اكبر كمية من الدم. كان آنذاك شاباً وقوياً، وظل مفيداً بالنسبة لهم.

«أما بعد ان اصبح متعباً ومسناً، واصبحت تكاليفه اكثر من الفائدة التي تجنى منه، فقد اصبح الاستغناء عنه ضرورياً، وهكذا رأيته في السنين الأخيرة يأتي مرة او مرتين في السنة الى السجن المركزي، لكي يُسفّر. كانوا يأخذونه ويعودون به، وانتم

كما ترونه الآن: بحاجة للأكل لكن لا يعطى الا الفضلات، وهو بحاجة لمن يتبرع له بالدم، اذ كثيراً ما يغمى عليه، خاصة وان المخدرات استنزفته، لكن لا حياة لمن تنادي...»

وانتهى ابو مكرم وهو يقول: «ولا تستغربوا اذا وجدتموه في يوم قريب ميتاً»، فالادارة تعمل بكل الطرق لكي تتخلص منه، بما في ذلك تحريض المجرمين على قتله!

قال احد السجناء بمرارة:

- انه يغني وينتظر العودة للوطن، ولا يدري شيئاً عن الخازوق الذي يهيأ له!

وتتابعت التعليقات حوله ثم اخذ الحديث مساراً آخر!

في اليوم التالي بدأنا نتأقلم مرة اخرى مع جو السجن. فالقدامى استمروا ضمن منطق العادة، والجدد لا بدّ ان يتعودوا، خاصة اذا زال الاستفزاز، واذا خيمت على السجن حالة من الاسترخاءوالتسليم، الى ان يحدث ما يغيرها، كاستقبال افواج جديدة، او نقل بعض السجناء تأديباً، وربما جاءت بعض المناسبات لكي تخفف الأحكام، ويطلق عدد من السجناء، خاصة من القسم الآخر!

هكذا كانت الحال، وهذا ما كان متوقعاً. لكن لم يكد يمر اسبوع على وصولي الى المهجع رقم ٥، حتى بدأت في الليل المتأخر، قبل الفجر بقليل، واحدة من حملات التفتيش المفاجئة.

صحيح ان مثل هذه الحملات كانت تجري بين فترة واخرى، وليس لها في الغالب مواعيدثابتة،لكن ما رافقها من ارهاب وتحدٍ هذه المرة، اضافة الى ان الحملة التي سبقتها لم يمر عليها اكثر منشهرين،اشعرت الجميع ان في الأمر ما يتطلب التنبه والحذر.

فالنقيب جودت الذي لا يصل المهاجع الا نادراً، اذ يفضل ان يستدعي ضحاياه الى عنده، كان على رأس الحملة. ولكي يكون فياحسن حالاته شرب تلك الليلة كمية اضافية، حتى يستعمل يديه، اذا اقتضى الأمر، لأنه في الأحوال العادية يعتبر لسانه كافياً، ويقرف من اقتراب السجناء، او من «معالجتهم» بنفسه.

أما ابو سمير فقد لبس بذلة جديدة، والعصا الخيزران التي كان يحملها

باستمرار استبدلها باخرى رسمية. وهي عصا سوداء مفضضة الـرأس، وثخينة، اضافة الى السير الذي يدخل الى اليد كسوار، بحيث يصعب سحبها منه. وكان ايضاً يلبس حذاء كعبه اعلى من الأحذية العادية، بحيث يبدو طويلاً ومائلاً باستمرار الى الأمام، كما يرفع ذلك الحذاء ردفيه بشكل معين!

والى جـانب هذين كـوكبة كبيـرة ومختـارة من جنـود السجن: الأقـويـاء، الشرسين، البذيئي اللسان والشرهين ايضاً!

وفي محاولة لتأكيد الأرهاب، ولكي يدللوا على مدى الظفر الذي حققوه في جولتهم، فقد جروا معهم اسراهم. كان ضمن الأسرى: شفيق ساعدنا واثنان من رجاله، وثلاثة من مهجع آخر، اضافة الى الحاج مصطفى، وقد كانت شفته السفلى مدماة وربما مشرومة.

والتفتيش يعني ان يغـادر جميع النـزلاء مهجعهم، وان يصطفـوا قريبـاً من الجدار، ويبقوا صامتين، الا اذا سألهم النقيب او ابو سمير. وغالباً ما يسألون عن «الممتلكات والأدوات الجرمية»!

امتثلنا للأمر. خرجناالى الباحة المقابلة للمهجع. وقفنا قرب الجدار صامتين. دخل الجنود. قلبوا محتويات المهجع كلها. اخرجـوا «الممنوعـات»: الراديـوات، العاب التسلية، عدداً من الكتب، اضافة الى حبل وعدداً من ادوات الطبخ واثنين من بوابير الكاز!

قال النقيب جودت، وكانت كلماته تخرج ثقيلة:

ـ لن نسألكم من هو صاحب الراديووالكتب، فانتم سرسرية وكذابين، وكل واحد منكم راح يقول هذا لي، وانا ما عندي مكان في السرداب الا لكم واحد منكم يا حلوين، فمن يحب ان يشرف معنا؟

ولما خيم الصمت، اشار وهو يقهقه: انت.. وانت. اشـار لحامـد زيدان وسامي وردة. وحين تقدما خطوة، وقبل ان تكتمل تلك الخطوة، تقدم الآخرون. قال النقيب وهو يتراجع ويضحك:

ـ ما شاء الله كلكم فدائيين...

وبعد قليل:

ـ انا قلت انت. . وانت، يا الله معنايا شباب. . .

واستدرك وكأنه يعتذر:

ـ الشاب واحد، هذا، وامسك بثياب ابي مكرم، اختيار كرنيب، او انا غلطان عمو؟

صرخ ابو سمير، وقد اخافت صرخته الكثيرين:

ـ خلال دقيقة، الجميع داخل المهجع، عدا اللي شخّصهم سيادة النقيب!

والتفت الى جنوده:

ـ قيدوهم!

وبدأت عصاه، كعصا الراعي، تتلاعب، وبدأ الجنود يدفعون السجناء الى داخل المهجع. كانت هناك مقاومة، لكن لم تصل الى حد الاصطدام، وكان ابو سمير يريد ان يتجنب ذلك ايضاً، وحين دخل معظم السجناء، بدا الشرطة اكثر شراسة وحدة. والحاج مصطفى الذي كان مقيداًومدمى، وبدا شديد الحزن ولم يفطن لأمور كثيرة، انتبه في لحظة من اللحظات، خاصة حين تبدت شراسة الجنود، وكأن وعياً مفاجئاً اجتاحه، صرخ، موجهاً الكلام للنقيب:

ـ افندم. . . انتم حكومة، انتم قوة، وانا حاج مصطفى. . .

اخرج احد الجنود صوتاً من بين شفتيه دلالة الاستهزاء. سمعه الحاج مصطفى، التفت اليه بطرف عينه لكنه تابع موجهاً الكلام الى النقيب:

ـ يمكن تقتل، يمكن تعدم، لكن الحق حق. .

تعثر قليلاً، لم يستطع ان يعبر. صرخ مثل ثور:

ـ الله امان يا ربي!

سُمع الصوت مرة اخرى. تطلع الحاج مصطفى الى مصدر الصوت، هز رأسه عدة مرات وقال:

ـ اسمع افندم: إذا انت شايف حالك كبير الله اكبر، الله اقوى.

والتفت من جديد الى الجهة التي خرج منها صوت الاستهزاء:

ـ انت دودة. انت كلب اعور. انت ششمة...

تلقى ضربة من ابي سمير، ثم صرخ به:

ـ اخرس يا مجنون.

ابتسم الحاج مصطفى بحزن، وخرج صوته واثقاً:

ـ الحاج مصطفى مجنون، تمام، لكن انت طيزك مدود، انت جحش، تيس بلون واحد، قط شباط، انت لا تساوي بشلك، وتشوف!

تركه ابو سمير ريثما اغلق باب المهجع، فقد كان خائفاً من ثورة السجناء، من ردود افعالهم. لما اطمأن، هجم عليه، وهجم معه بعض الجنود، وبدأوا يضربون الحاج مصطفى، بالأرجل، بكل ما وصلو اليه من ادوات. وكان هو لا يتوقف عن الشتيمة والصراخ. كانت شتائمه بذئية، ولم تترك احداً او شيئاً، وكان يحاول الدفاع عن نفسه بيديه المقيدتين وبرجليه.

حين اشتد الهياج ورافقه صراخ السجناء، خاف النقيب وتحسب للنتائج، صرخ بأعلى صوته:

ـ قف انت وهو...

وحين خيم الصمت في الباحة، وكانت الدماء تنزف من الحاج مصطفى، وكان يرتجف، التفت الى النقيب وصرخ:

ـ وانت، ضابط افندي، كس الكلبة اشرف منك، كيف تخليهم يضربوا ناس مساكين؟

ـ بسيطة حاج مصطفى، بسيطة، امس قدامي وراح تشوف.

ـ انتم عرب يقول: الله اكثر من القرد ما مسخ، والحاج مصطفى ما يخاف الا من الله!

اخذوا الأسرى، أخذوا الممنوعات، وانسحبوا!

تركونا مع اول اضواء الفجر.

كان ذلك اليوم من اصعب الأيام في حياتي. فالعذاب الذي عانيت منه طوال شهور في اقبية التعذيب لا يعادل لحظة من هذا العذاب. والذل الذي احسه الآن اقسى واشد من اي موقف واجهته. أما الهياج والصراخ اللذان بدرا من السجناء فقد تطامنا مع شروق الشمس ثم مع ارتفاعها. وبعد ان زال الانفعال او تراجع، قال

رضوان فرج ،وكان يوجه الكلام الى الجميع ، لكنه يقصد هشام زينو:

ـ المهم . . بعد اليوم كل يوم لازم تصير حفلة مثل هذه او اكبر منها. . .

ولأن أحداً لم يجبه ، لم يعلق ، فقد تابع بلهجة منفعلة :

ـ كان رأيي ان نقاوم. ان نحرق السجن ، لكن اول اللي غابوا عن القيادة القادة!

تطلع اليه هشام بنظرة عتاب وقال :

ـ طوّل بالك يا رضوان ، وهذه ما هي آخر معركة.

ـ اول معركة هي اهم معركة ، لأن خطط الادارة ستبنى على رد الفعل ، وراح تشوف!

ـ راح نشوف اشياء كثيرة يا عم رضوان!

انفعل رضوان اكثر من قبل ، فقد احس ان هشام يعرّض به :

ـ طبيعي راح نشوف اكثر ، اذا حضراتكم قيادتنا. . . المهم.

وبعد قليل وكأنه يخاطب نفسه :

ـ لكن الحق عليّ ، لو قاومت ، لو رفضت الدخول الى المهجع ،لاخذت الأمور مجرى آخر.

قال واحد لم يظهر وجهه :

ـ اتركونا من الردح ، المهم الآن ما هي الخطوة التالية؟ كيف سيكون ردنا؟

رد رضوان بحدة :

ـ اذا كان هذا ردح فمعنى ذلك ان نستسلم لكل شيء ، لكل ما تريده الادارة ، واليوم ضربوا الحاج مصطفى امام اعيننا حتى يعطونا درساً ، حتى يقولوا ماذا ينتظرنا ، ماذا ينتظر كل واحد منا غداً ، فإذا كان حضرتك لم تفهم الدرس افهمه!

قال نجيب :

ـ يجب ان نرد ، وباسرع وقت ممكن.

قال احمد :

ـ يجب ان نعلن الاضراب عن الطعام.

قال صابر

ـ من المبكر اتخاذ قرارات الآن، يجب ان نعرف دوافع الادارة اولاً، وماذا حصل للجماعة ثانياً، وعلى ضوء المعلومات نحدد الخطوات التالية.

سأله رضوان بسخرية:

ـ المهم.. وحسب رأيك، هذه المعلومات المطلوب الحصول عليها تحتاج الى شهرين ام ثلاثة شهور؟

قال هشام بحزن:

ـ الأفضل ان نهدأ ونفكر بما يجب اتخاذه من خطوات!

تابع رضوان بنفس السخرية:

ـ استرخوا يا شباب، حطوا ايديكم على خدودكم واصفنوا، يمكن الله يفتح علينا، ونصل الى الحل النموذجي. والحل النموذجي، حسب قناعتي، لن يرضي احداً ولن يحل اية مشكلة!

كادت الأمور تفلت حين اخذ النقاش هذا المسار، فقد بدأت تغلب عليه الحدة والسخرية، قلت في محاولة لوقف هذا التدهور:

ـ ربما ليس من حقي التدخل، باعتباري جديد في السجن، ولا اعرف طبيعة الادارة والناس، لكن اقترح ان يتم التشاور مع المهاجع الأخرى، خاصة المهجع رقم ١٧، لأنهم اخذوا ابرز شخص في ذلك المهجع، شفيق ساعدنا، ويحتمل ان يكون لدى الجماعة هناك مواقف او اقتراحات مناسبة.

تمت الموافقة على الاقتراح، وبدأت المحاولات للاتصال بالمهاجع الأخرى، خاصة المهجع رقم ١٧، والمهجع رقم ٩، وبدأت ايضاً الشبكة الداخلية بتقصي اخبار الادارة، واخبار الذين أخذوا الى السرداب، ولم ننس بطبيعة الحال الحاج مصطفى.

في الليل، قبل ان ننام، وقد اضطررنا، خلافاً للعادة، ان ننام مبكرين، ربما لتجنب المناقشات، او لأن الحزن كان ثقيلاً كثيفاً، ولم يشأ اي منا ان يبدو حزيناً امام

الآخرين. . . في الليل وانا اغطي رأسي تبدى لي وجه حامد زيدان، وتبدت وجوه الآخرين، قلت لنفسي، وانا اخاطب تلك الوجوه «انت يا ابا مكرم زيتونة، والزيتون دائم الخضرة ودائم العطاء، آمل ان تبقى قوياً وان تحتمل السرداب، لأننا نستمد القوة من الجذور، ممن هم اكبر منا.» وقلت لسامي وردة «اعرف انك لن تبتسم هذه الليلة مثل الليالي الماضية، لكنك قوي وكل شيء فيك قوي ومضيء!»

وبدا لي وجه شفيق مضيئاً قلت له: «يجب ان يؤمن الانسان بشيء ما، لأن الايمان جذر القوى كلها، وبدونه لا يستطيع الانسان ان يفعل شيئاً او ان يستمر الى النهاية» وحين تراءت لي دماء الحاج مصطفى، ثم دوي صراخه، قلت لنفسي بحزن، وربما سقطت دموعي ايضاً «لا بد من وجود الأطفال والمجانين، لأن هؤلاء لا يعرفون الخوف، ولا تعني لهم شيئاً الحسابات التي تقيد الكبار والعقلاء، ويمكن لمثل هؤلاء الناس ان يعلموا الآخرين الكثير: الشجاعة، والتحدي، والنظر في عيون الجلادين مواجهة».

وقبل ان اغفو قلت، وربما سمع الذين حولي الكلمات التي قلتها:

ـ وانت، يا من اتيت من بعيد، كنت اليوم قوياً كوتد، حاداً كنصل، حراً كالغزال، فهل يتاح لك ان ترى وطنك وأهلك مرة اخرى؟

لا اريد ان اكتب تاريخاً للسجن المركزي، فتاريخ من هذا النوع يجب ان يكتبه الغضب وان توشيه الـدماء. واذا تـذكرت بعض احـداث ذلك السجن، فلكي استعيد اول معرفة لي برضوان فرج. كيف تعارفنا، ثم تزاملنا وكيف انتقلنا، اكثر من مرة، من ذلك السجن، ثم عدنا اليه، الى ان افرج عنه.

بعد شهور من ليلة التفتيش، ولأن الادارة اخذت تتشدّد وتحرم السجناء من ابسط الحقوق التي كانوا يتمتعون بها: حقهم في الزيارة الشهرية، وتلقي رسائـل الأهل، وحقهم في الاستحمام كل اسبوع، ومراجعة الطبيب عند الضرورة، ولأنها قلّصت فترة التنفس الى النصف، وساء الأكـل ايضاً، فقـد بدأ التفكـير باعـلان الاضراب عن الطعام.

قال ابو مكرم، عندما سئل عن رأيه في الاضراب، وكان يتطلع الى الأعلى ويبتسم:

ـ سامحونا، يا جماعة الخير، اذا حكينا مثل الاختيارية. . .

وتحولت الابتسامة الى قهقهة قصيرة ومحببة، ثم اضاف:

ـ كلما تقدم الانسان في العمر تصبح القضايا الماضية بالنسبة له مغرية اكثر، وتكتسب معاني ودلالات لم تكن لها حينها. . .

اهتز رأسه بطريقة حكيمة، وكأن حشد الذكريات يزحمه تماماً:

ـ اول اضراب عن الطعام كان في السنة الثانية لوصولي الى السجن المركزي. كان اضراباً مجيداً، لأن السجن كله، بقسميه، شارك فيه، ولأن السجون الأخرى

سبقت السجن المركزي او رافقته في هذا الاضراب. . . .

وبدا وجهه فرحاً وهو يتذكر:

ـ والناس، نعم، الناس خارج السجن، كانوا معنا في الاضراب، بالضغط بالعرائض،بالاحتجاجات. كل يوم الامهات والزوجات في وجه وزير الداخلية، في وجه رئيس الوزراء: قتلوا اولادنا، قتلوا ازواجنا، وانتم تتحملون المسؤولية. الدولة كلهاانخضت، وبعد ثلاثة او اربعة ايام استجابوا لجميع المطالب!

توقف قليلاً، هز رأسه عدة مرات، وتابع بصوت مخدوش:

ـ والكثير من المكاسب التي تحققت لسجون عمورية من ذاك الاضراب. اي نعم، كان اضراب يرفع الراس. . .

وتذكر اشياء اخرى، قال بحدة:

ـ الاضراب، يا جماعة الخير، اذا كان بوقته، والناس معه، اقوى سلاح، يمكن يسقط حكومة ويغير نظام. . .

وتغيرت اللهجة:

ـ اما اذا كان فشة خلق، او كان للتهديد، ويُرفع كل ما دق الكوز بالجرة، ترى يفقد قيمته واهميته، وبلاه احسن!

ويبدو انه تذكر شيئاً خاصاً، غيّر جلسته وهو يتابع:

ـ واتذكر دعوات الدريسي للاضراب. . .

هز رأسه وقال:

ـ الدريسي اليوم، مثل ما سمعت، قنصل او سفير لعمورية في واحدة من الدول الأوروبية. . .

اخذ نفساً عميقاً وحزيناً، وتابع:

ـ أما عندما كان معنا، في هذا السجن بالذات، فكان الاضراب على لسانه مثل التسبيح: إذا ضرب اي سجين عصا، او قضى ليلة في السرداب، اذا تأخروا في الأكل او وجد سوسة في حبة الفول، اذا صرخ في وجهه نجم ـ وكان نجم مثل ابو

سميرنا ـ او وضعه في النظارة: يا الله يا شباب: اضراب عن الطعام. راح يوم وجاء يوم، اصبح الاضراب مسخرة!

وبدا ابو مكرم حزيناً مهموماً؛ وبعد قليل:

ـ بالحقيقة هو الذي افسد فكرة الاضراب، وعلى الأغلب بالاتفاق مع الادارة، وما استطعنا نعيد للاضراب اعتباره الا بعد عدة سنوات، وبعد ما ترك السجن.

وانتهى ابو مكرم، وقد عاود وجهه الابتسام:

ـ لذلك، يا جماعة الخير، انا ذكرت لكم بعض الوقائع حتى تستفيدوا منها، وانتم قرروا!

سأله نجيب:

ـ ذاكرتك قوية يا ابو مكرم، بس مثل ما قالوا من قبل: اذا ردت تحيّره خيّره، وانت بدل ما تفيدنا بخبرتك وتجربتك تحكي لنا قصص، ونحن نريد رأيك.

ـ انا قلت رأي يا استاذ نجيب!

قال رضوان بحدة:

ـ عليّ الطلاق ما فهمت اي شيء، كلها سوالف وحكايات: قبل عشر سنين، قبل عشرين سنة، وتعال افهم! لازم نجيب منجم مغربي حتى يفك هذه الطلاسم!

رد ابو مكرم وهو يقهقه بتلك الطريقة المحببة:

ـ النجار المضبوط، يا رضوان، يقيس سبع مرات ويقص مرة واحدة، وانا، لما حكيت عن الدريسي، فحتى اقول لكم ان الاضراب شيء ما هو سهل.

ـ يعني انت ضد الاضراب؟

ـ انا لم اقل هذا الشيء!

ـ يعني انك معه؟

ـ ولم اقل هذا!

ضحك رضوان بسخرية وضرب الجدار بقبضته وقال موجهاً الكلام الى الجميع، بعد ان هز رأسه عدة مرات:

- مثل ذاك المثل، يا جماعة: مقسوم لا تاكل، صحيح لا تقسم، وكل حتى تشبع! هذا رأي ابو مكرم، او انا غلطان؟

رد ابو مكرم بثقة:

- غلطان، يا سيدي!

قال رضوان، ولم تزايل كلامه السخرية:

- فهِّمني غلطي، عليك نور!

- الغلط والصح يا رضوان اشياء نسبية. غلط اليوم كان في يوم سابق، او عند ناس آخرين، منتهى الصحّ، والعكس صحيح!

- وبرأيك الا نحتاج الى منجم مغربي؟

- نحتاج الى عقل يفرز ويقدر ويتخذ موقفاً!

- عليك نور.. وهذا ما نسألك عنه!

- هذا الموضوع لا ابّت فيه، للمهجع مسؤولين، وله لجنة، وهذول عندهم معلومات، واتصالات وعليهم تقدير الموقف واتخاذ القرار، وانا اول من ينفذ القرار، اما اذا كنت تريدني انوب عن الآخرين حتى اقف معك، حتى اؤيدرأيك،فهذا لا تتوقعه!

قال نجيب بحدة:

- نحن الآن، وقبل اتخاذ القرار، متساوون، ولكل واحد منا رأيه، وما يجري بيننا مجرد تشاور ومن حقنا ابداء الرأي، لا ان نكون مثل الغنم ننفذ ما يريده الراعي!

قال رضوان، وكأنه يحدث نفسه:

- انا مع الاضراب ولازم نضرب...

وبعد قليل وبتحدٍ:

ـ وانا مستعد اضرب حتى لو كنت وحدي!

وأُتخذ قرار بالاضراب. اضرب قسم من السجن المركزي، استمر الاضراب سبعة عشر يوماً، ولكنه انتهى، دون ان يحقق النتائج. اكثر من ذلك، رُحّل القسم الأكبر من نزلاء المهجع رقم ٥ ورقم ٩ الى سجن العفير.

الرحيل حالة قلما يعيش السجن مثلها. فالعداوات التي كانت تظهر بين السجناء وبين المهاجع لأقل الأسباب، وكانت في احيان كثيرة تسمم الجو وتجعله اقرب الى التوتر، تراجعت هذه العداوات او زالت تماماً، لتحل بدلاً عنها حالة من الحزن الشفيف الأقرب الى الأسى. والعواطف التي خفيت فترة طويلة، حتى على من كانت في صدورهم، واولئك الذين تجلدوا وتكتموا على ما في قلوبهم متعمدين، لم يستطيعوا ان يستمروا كذلك. كانت لحظات الصمت منذرة، والحركات عصبية، والعيون تهرب وهي تلتقي، وشابت الأصوات رجفة واضحة، شديدة الدلالة، وكأنها تسبق لحظة البكاء.

أما عندما أصبح الانتقال قريباً ومؤكداً، فقدطغى الحزن، وكان اشبه بحبل او بيد قاسية تطبق على الرقبة.

ورغم ان المنقولين كانوا اكثر انشغالاً، واكثر حزماً، الا انهم لم يستطيعوا ان يقاوموا طويلاً، اذ ما كادت الأيدي تمتد، ويتبادل المقيمون مع الراحلين تحيات الوداع والقبل، حتى هجم البكاء، وقد احرج ذلك الكثيرين، فارتفعت الأناشيد، وشاب لحظات وداعٍ اخرى المزاح، أما عندما بدأ مكبر الصوت يدوي منادياً على المنقولين، وطالباً منهم التجمع خلال دقائق في النظارة، فقد خيم شعور قوي بالموت.

انها لحظات تشابه تلك التي يُحمَل خلالها الميت لمغادرة البيت، اذ رغم الاعتراف بالموت، بمشاهدته، فلا احد يستطيع ان يوقف انفجار الأصوات الرافضة والمتحدية، ومعها الأصوات المنكرة التي لم تعترف بما حصل، وأيضاً الأصوات المستسلمة الباكية، والتي تبكي نفسها من خلال بكاء الآخرين، وكأن حالة من التخلي، الأقرب الى الخديعة، ما يقع تحت الأنظار وامام العيون!

لكن في اللحظة التي غيبت بوابة السجن اخر المنقولين، ارتفعت الأناشيد

الحماسية وملأت الفضاء كله، وشكلت ما يشبه المظلة التي تحمي الذين بقوا والراحلين!

بدأت المسيرة بعد ان انتصف الليل، في واحدة من ليالي شباط الباردة والصاحية. كنا محروسين بعدة سيارات مسلحة، وكانت حركات الحرس محاذرة وخائفة في آن واحد، وبدت الأجواء مشحونة الى درجة ان اي خطأاو تحدٍ يمكن ان يفجّر الوضع كله.

قال لي رضوان، وهو يحاول ان يتقي الريح الباردة، بأن يخفض رأسه اقصى ما يستطيع:

- اذا كان برد عمورية بهذا الشكل فان برد العفير سوف يقتلنا!

وبعد قليل، وقد مال عليّ، وبهمس:

- سأهرب، لقد قررت، وسوف اقنز من السيارة في اول فرصة، ومهما كانت النتائج!

لم استطع ان اميز وجهه في الظلمة لاتبين مدى جدية الكلمات التي قالها، قلت وخرج صوتي حاداً:

- مجرد التفكير بالهرب جنون، فلا تحاول، ولا تعرض المجموعة للخطر!

خلال اقل من ساعة دخلنا الجحيم: بدأت الصحراء.

والصحراء في مثل هذه الليالي، ليست انذاراً بالموت، هي الموت بعينه، فالمدى المفتوح، وتلك السماء البعيدة لا ينفثان برداً، بل روح البرد، خلاصته المصفّاة الكاوية، حتى ليحس الانسان، وكأنه اصبح مجموعة من الأعضاء المنفصلة، لا يمكن لأية حرارة ان تلحمها مرة اخرى.

وسجن العفير لم يكن سجناً، كان قلعة وسط الصحراء، كان مخفراً متقدماً لمنع تهريب الأسلحة، لفض خصومات العشائر، لجبي الضرائب، وقيل انه كان معبداً للجن في تاريخ قديم! لكن عبقرية الساسة في عمورية جعلته مكاناً للتأديب، ثم سجناً للخطرين من الخصوم السياسيين، الى ان اصبح مزاراً يجب ان يصله كل من تسّول له نفسه معاداة النظام في عمورية او تغييره! ولذلك كان يُرسل اليه السياسيون لكي يزوروه ويقضوا فيه اياماً، او ليبقوا فيه سنيناً متتالية، الى ان ينسوا ما كانوا

يفكرون فيه، وتختلط احلامهم مع يأسهم، وخلال ذلك ينساهم الناس ايضاً!

ظل البرد حاداً خطراً، الى ان بدأت الشمس بالظهور، ثم لما ارتفعت في السماء. أما حين ظهرت قلعة العفير، فقد بدت من بعيد وكأنها دملة متقيحة، بلونها الأصفر الكامد، واقرب ما تكون الى مربع متسخ لفرط ما مرّ عليه الزمن، مع نتوءات اضيفت على عجل.

رغم الصورة المنفرة التي كانت في ذاكرة كل من يعمل في السياسة، او له صلة بها، عن العفير، فان صورته وانت تراه في هذا المدى يبعث على الرهبة. من شيده؟ كيف جاءت حجارته ومن أين؟ من يستطيع ان يعيش في هذا المكان المعزول؟ وعشرات الأسئلة الأخرى!

كنا في موكب من ست سيارات، وكان عددنا حوالى الثلاثين. ما ان اقتربنا، وبدأنا نميّز الأماكن والبشر، حتى بدت القلعة اكثر قسوة ودمامة. كان يروح ويجيء حولها اشخاص اقرب ما يكونون الى الزواحف او النمل ذوي اللونين: الأسود والبني. تطلعنا الى القلعة، وتطلعنا الى بعضنا. كانت القلعة تكبر وكنا نغيب تحت ذرات الرمل التي لم تكف تتراكم طوال الطريق الصحراوي، فغطت وجوهنا بكاملها، وبدت العيونُ، وهي تنفتح وتنطبق، وكأنها سلاحف صغيرة ترفع رؤوسها دلالة الحياة كلما شعرت بالأمن!

توقفت السيارات على مسافة من القلعة. رأينا صفين من الجنود عند الأسلاك الشائكة، قال الضابط الذي كان يقود الموكب:

ـ تفضلوا يا شباب...

قالها بطريقة مليئة بالسخرية، وبعد قليل:

ـ تغبرتم كثير في الطريق ولازم لكم تنفيض!

كان صفا الجنودمنتظمين، ويمتدان من البوابة الى ظلال القلعة، وكان علينا ان نسلك الطريق الوحيد المؤدي الى هناك. حين رأى الضابط ترددنا، صرخ:

ـ اتركوا الأغراض وهرولوا

ومثلما يقود الكبش الغنم، كان رضوان اولنا الذي يدخل الدهليز، وكنا وراءه على مسافات متقاربة. ما كدنا نقع بين الصفين حتى بدأت تنهال علينا الضربات من كل مكان. بالعصي، باعقاب البنادق، بالاحزمة العسكرية، بالأرجل، كانت تنهال

كالأمطار، كالشهب. على الرؤوس على الأكتاف، على قصبات الأرجل، على الظهور. فاذا زدنا سرعتنا قليلاً يضيق الدهليز ليحّد من هذه السرعة، ليمنع تدفق البشر، فاذا ضاق اكثر مما ينبغي، وحدّ من امكانية الضرب او قوته، انفرج قليلاً ومع الضرب الشتائم، الأصوات الغاضبة ، التحدي!

لقد كان دهليزاً للموت، اكثر منه طريقاً الى القلعة فالسجن. وما كدنا نجتازه حتى بدأت الآلام تدوي، تنبع من الجروح، من الكدمات ؛وربما حتى الآن استغرب اننا نجونا. صحيح ان الآثار ظلت اسابيع وشهوراً بالنسبة لعدد غير قليل من السجناء، الا ان السؤال: كيف قدر لنا ان نبقى احياء، وان نشفى؟

كان في العفير عدد قليل من السجناء، من اولئك المنسيين. والى ما قبل وصولنا كان عدد جنود البادية يفوق عدد السجناء، وكان هؤلاء الجنود من المبعدين، المغضوب عليهم، ولذلك اكتسبوا اضافة الى ما كان عندهم، شراسة وسوءاً لا يمكن ان يوصفا. كانوايتفننون في ايذاء السجناء، في اهانتهم، وكانوا شديدي القسوة، وكأنهم ينتقمون من كل شيء، من رؤسائهم، والمجتمع والآخرين، في محاولة لاظهار اهميتهم وتفوقهم، ولم يكونوا ايضاً يخضعون لأي حساب.

فاذا تأخرت رواتبهم يوماً واحداً، فالسجناء هم المسؤولون عن التأخير، ولا بد ان يضاعف ذلك في حجم الأذى الذي يقع عليهم. وكذلك الحال اذا تأخر المطر! أما اذا هبت عاصفة رملية، وحملت معها خيرات الصحراء، فالسجناء هم السبب، لأن وجوههم حملت الشؤم من كل عمورية الى هذا المكان! واذا مرض احد الجنود فلا بد ان تكون عين شريرة لأحد السجناء هي التي امرضته، وعلى الجميع ان يدفعوا الثمن!

أما اذا قلّ الطعام، فان اية كمية تكفي السجناء، ولا حاجة للقلق او البحث عن كميات اضافية!

أما الحفر التي حُفرت في هذه الصحراء اللعينة، ثم رُدِمَت، ليطلب منا حفرها من جديد، وردمها مرة اخرى، فان عددها يزيد يوماً بعد آخر، ويتضاعف شهراً بعد شهر.

من أين اكتسب هؤلاء الجنود القسوة والسادية وهذا الكره للآخرين؟ وكيف تحولوا الى مخلوقات شوهاء لا تعرف الرأفة او الرحمة؟ وهل يمكن استعادة الانسان

الذي خبا او مات في داخلهم؟

يكـرهون القـراءة، الكلمة المكتـوبة، النبتـة الخضراء، المكـان النـظيف؛ يكرهون ان يضحك انسان، ان يتحدث الى آخر، ان ينـظر اليهم، ان ينظر الى شيء؛ يكرهون ان يُسألوا، ويكرهون اكثر الجـواب! كيف تعلموا هذا الصمت كله، اين تعلموه؟ وهذا السواد المشرئب الذي يبرز في العيون والهيئة ورد التحية من أين اتاهم؟

يقول ابو مكرم، حامد زيدان، الذي وصل الى العفير ست مرات، وقضى فيه اربعين شهراً:

ـ لا املك تفسيراً موثوقاً لتصرفات هؤلاء الجنود، واعتقد ان اي تفسير بعامل واحد، او نتيجة سبب محدد، لا بد ان يؤدي الى الخطأ. . . .

يمكن ان يكـونوا حثـاله، انـاساً منبـوذين، ويحملون عقـدهم وعقـد اجيـال من العبيد، لكن هذه الصفة في البشر يجب ان تدفعهم الى التضامن مع الآخرين الذين يعانون مثل معاناتهم، والى مساعدة المظلومين والمهانين مثلهم. . .

يمكن ان يكونوا معاقبين، نتيجة اخطاء ارتكبوها، او نتيجة قسوة الرؤساء وفساد النظام، لكن المعاقب لا يصل الى حقوقه بمعاقبة الآخرين، خاصة الذين لم يكونوا سبباً فيما وقع عليه، فلماذا يتركون الأعداء الحقيقيين ويتجهون الى الضعفاء؟

كما ان الجهل ليس سبباً؛ فالذي كان غارقاً في الصحراء، ولم ير البشر والمدينة، يبدي استعداداً للمعرفة وللتعلم. أما هؤلاء فقد انقطعت صلتهم بالصحراء منذ وقت طويل، واصبحوا مدنيين او اقرب الى المدينة، بالسكن والعلاقات والمعرفة، لكن يبدو انهم لم يكتسبوامن المـدينة الا اسـوأ ما فيهـا: خدمـة الضباط، وطلب رضاهم، اضافة الى تعلم شتائمهم، وشـرب بقايـا الويسكي الـذي يتركـونه في الزجاجات المرمية . .

وانتهى ابو مكرم، وهو يقول باستغراب واسى :

ـ اعتقد ان هؤلاء الجنود نمط خاص من البشر، وهـم نتيجـة اسبابكثيـرة متداخلة ومعقدة، وربما اصبحوا مادة لعلماء النفس العرب : دراسة النفس المشوهة نتيجة عدم التوازن. لأن الأمر لا يتعلق بصدمة الحضارة، ولا يمكن ان يُفسّر بعقدة

الدونية، كما انه يتجاوز عقدة الاضطهاد، انها عقدة بدماتولوجيا، اي عقدة البدو والموت والتكنولوجيا.

وقبل ان ينتهي، قال ابو مكرم.

ـ قد تحسبني ساخراً، لكني اعني هذه التشوهات، ولا اعرف متى يتصدى العلماء لدرسها، تمهيداً لمعرفتها... ثـم حلها، اذا استطاعوا ان يجدوا لها حلاً!

من عرف سجن العفير لا بد ان يتفق مع حامد زيدان، او على الأقل يشاركه جزءاً من افكاره، فهؤلاء الناس، بدل ان يتغيـروا، اصبحوا قـادرين على تغيـير الآخرين!

يمكن للبدوي ان يقسو على النبتة الخضراء، اذ ربما لا يعرفها، او لأنه محروم منها، ولذلك ينظر اليها بطريقة شديدة التعقيد، فهو بمقدار ما يحبها ويشتهيها، فانه شديد القسوة عليها، ليقينه انه سيفقدها، او لن يجدها مرة اخرى، ولذلك يحاول ان يصفي حسابه معها مرة واحدة والى الأبد، تماماً كمن يحب امرأة، ويعرف ان لقاءه معها سيكون الوحيد والأخير، ولذلك يريد انيترك اثره فيها وعليها حتى لو كان بالموت!

لقد ابتعدتكثيراً، فانا اسرح، في هذه الصحراء وحدي. احفر واردم. ابني ممالك واهيّء جيوشاً لاجتياحها. ارقب النجوم واعد اياماً، واعـدّ ظهري ايضـاً لاستقبـال الضربات العميـاء وهي تنهال عليـه اثناء ذهـابي للحمام، لاستقبـال الأرزاق، للتمشي. واعود لاقرأ بعض الكتب الصفراء التي سمحوا لنا بها، بعد الكثير من الرجاءات والتنازلات.

وماذا لو صـارحتكم بشيءغريب: كنت افكـر ان تطول اقـامتي في سجن العفير، لكي ادرس ظواهر عديدة تلفت نظري: ابن القرية، والذي يعيش على ما تنتجه الطبيعة، بالدرجة الأولى، يتحول الى معادٍ الى الخضرة والطبيعة!

كان سالم العطيوي (تصوروا الاسم) ابن قرية طيبة الوادي، معادياً لكل ما هو اخضر! فنحن السجناء ليس لدينا الا الوقت، وكنا نحاول ان نتعامل معه بشكل عقلاني: ان نقرأ ان نغسل ملابسنا، ان نزرع.

كنا نقضي الأيام، تتلوها الأسابيع، ونحن ننقل التراب، نبعد الحجارة، نمهّد

الأرض لكي نزرع بعض النباتات. ما تكاد هذه النباتات ترتفع قليلاً حتى يسّرح سالم الغنم فيها. ما تكاد حبات الفول تكتنز وتبشر بموسم، ويكون للجنود فيه الحظ الأكبر، نعم الجنود، ثم السجناء، حتى يدوسها بقدميه، كان يطحنها، يحولها الى ركام تأنف حتى الغنم من الاقتراب منها او اكلها.

كنت افكر ان ادرس هؤلاء البشر. ان اعرف الأسباب والدوافع التي تجعلهم هكذا.

حتى الآن لا أجد تفسيراً. لا اعرف لماذا يفكر هؤلاء الناس بهذه الطريقة، واية فائدة او متعةيجنونها. ان في الأمر مايستعصي، كما يقول حامد زيدان، على التفسير الواحد او السريع. ولذا كنت اتمنى ان اقضي فترة اطول، لكن «امنية من هذا النوع ليست متاحة». انهم يقررون كل شيء!

ولأني لا انوي ان اكتب عن العفير، فقد تأكدت ان ثلاثة او اربعة من رفاقنا سوف يفعلون ذلك، فاريد ان اقول: عمورية منطقة موبوءة. انها خليط من الثقافات والحضارات، لم تستطع، او ربما لم يتح لها،ان تجد شخصيتها، ان تكون هي: بنت المكان،والجذور، والعصر، لكي تدب فيها الحياة. واذا ظلت كذلك فان الموت ما ينتظرها، سوف تتآكل وتتداعى ثم تسقط، لتصبح كتلة من المواد غير المتجانسة، غير القابلة للهضم، ثم تعصف بها رياح الموت فالنسيان!

كان رضوان يقول لي بنوع من العتاب الممزوج بالمرارة:

- من الخطأ ان يذهب الانسان بعيداً في تفسير الأشياء. فهؤلاء الناس ابناء اليوم، وليس لهم علاقة بالتاريخ والجغرافيا، فاذا حاولنا ان نبحث عن الأصول، كالأثاريين او علماءالأجناس،نتعب ولن نصل!

وحين اقول له:

- وكيف نفسر تصرفات هؤلاء البدو المساكين،واولئك الذين جاءوا من القرى الفقيرة؟

يتطلع اليّ بنظرة مشفقة ويجيب!

- انها تصرفات مساكين، وبدو ايضاً، ولا حاجة لأن نبحث اكثر من ذلك، لكي نصل الى قوانين!

- والطريقة التي يجب ان ننقذ بها هؤلاء الناس، لأننا بانقاذهم ننقذ انفسنا ايضاً؟

يميل عليّ، يلامسني تماماً، رغم اننا نحفر ونردم بعيدين على الآخرين، ويقول:

- تريد رأيي الحقيقي؟

اهز رأسي ان هذا ما اريده تماماً، فيتابع:

- فالج لا تعالج...

وبعد قليل:

- هؤلاء الناس لا فائدة منهم. اغسل يدك تماماً. لا حياة لمن تنادي. لا فائدة... نعم لا فائدة!

- ولكن كيف؟ هل نتركهم؟ واذا تركناهم هل سنتخلص من شرورهم، هل تنتهي المشكلة؟

- يا سيدي...

ويضحك بحزن ثم يضيف:

- نحتاج الى عشرة اجيال، وربما اكثر، حتى يتغير بشر هذه البلاد، ولذلك لا تتفاءل ولا تتوقع!

وبعد ان يخيم الصمت فترة غير قصيرة، يخرج صوتي حزيناً مشروخاً!:

- لو افترضنا جدلاً اننا مضطرون للانتظار عدة اجيال، فهذا الجيل البعيد الذي تبشر به، هل يأتي وحده، اليست نواته في ظهور وارحام رجال ونساء هذه الأيام؟

- انه جيل آخر مختلف، مغاير تماماً، ولا اتصوره انه سيولد من اصلاب هذه المخلوقات الشائهة التي تراها تدب حولنا الآن.

ولم نصل الى نتيجة، لكن احسست ان رضوان ينوس بين التعب والتشاؤم. قلت لنفسي «ان مجرد بقاء الانسان حياً في هذا المكان بطولة، ولذلك نكون مبالغين، وايضاً غير واقعيين، اذا طالبناه بالتفاؤل».

ذات مرة، كنا نتحدث هكذا، مرّ سالم لكي يتفقد انجازات الحفر والردم، وخز رضوان بعصاه وقال بسخرية:

- والله حرام فيك الأكل، ولو كنت محل ابوك لذبحتك بيدي قبل ما اخلي

العفير يخلص عليك، لأنك لا للخل ولا للخردل، لا رفعت راس العائلة ولا تعرف تشتغل!

والتفت اليّ وقال:

ـ الظاهر ان مستقبل العالم شاغلكم تماماً، ومن اليوم راح نشغلكم بالقطعة، لأن شغل الساعة لا يناسب هيك اوادم!

هز رأسه عدة مرات، واضاف:

ـ وبدل حفرة بحش وحفرة ردم، لكم اكرامية اليوم، كل واحدبدل الواحدة ثنتين، سامعين؟

وصرخ على العسيلي، فلما اقترب منه جندي البادية قال له:

ـ اعطينا الجماعة اليوم علاوة، بدل الواحدة...

واشار باصبعيه الى المطلوب، وتابع:

ـ واريدك تلعّب عصاتك على كتافهم اذا تراخوا، اذا قصّروا، أما اذا نسيوا فاذبحك اذا ما ذبحتهم، سامع؟

ولم يكن العسيلي بحاجة الى اية توصية، فقد كان اشرس الجنود واكثرهم بذاءة، اذا ما كاد العطيوي يمضي مواصلاً تفقده للآخرين، حتى تلقينا عدة ضربات من خيزرانته. كان يضرب بالذهاب والعودة، تماماً مثلما يضرب بوجه اليد وبباطنها، وكان العسيلي يفخر انه بارع بهذه الطريقة، واتبع الضربات بالتهديد:

ـ والله لاقعد لكم ركبة ونص، يا اولاد الكلب، واللي يخلصه غيركم بساعة لازم تخلصوه بدقيقة، سامعين؟

وانصرفنا بحمية كبيرة لانجاز ما طلب منا!

اذا كان لجميع السجون «قوانينها» بغض النظر عن مدى قسوة هذه القوانين، فان العفير يترفع ان يكون له أي قانون! وحتى الأعـراف التي يمكن ان تسود نتيجة العادة، او لأن السجناء السابقين فرضوها، فان أي نفر من جنود البادية قادرهنا على تجاوز اي عرف وفرض ما يريد!

كان ذلك يجري كل يوم، حسب المزاج، تبعاً لاحلام الليلة السابقة، وربما نتيجة اسم السجين او شكله، او لأن رقمه كان فردياً، او مزدوجاً اثناء التعداد!

احد الأيام، بعد انقضاء شهور، وكنا في طريقنا الى الورشة، اذ حُوّلنا الى عمال ننقل الرمل والاسمنت من أجل بناء جناحين جديدين، وكان العمل شاقاً الى درجة كبيرة، خاصة وان جنود البادية كان يروق لهم ان يتحولوا الى مراقبي بناء شـديدي الانتبـاه والنشاط، فتخلوا عن الكـلام الى العصي ! اصبحوا انـاساً لا يطاقون. قال لي رضوان وكنا نقترب من الورشة وكان صوته مليئاً بالقهر والمرارة:

- ساهرب اليوم او غداً.

- ستهرب؟

- أي نعم، لأني لم اعد احتمل!

- ولكن كيف ستهرب والى اين؟

- سأدبر امري!

- انت مجنون، لأنك ستموت في الصحراء!

- لا تخف، اتفقت مع احد الرعاة على مبلغ من المال وسيتكفل بي!

نظـرت اليه بامعان لاكتشف ما اذا كان يعني ما يقوله . كانت عيناه شديدتي الحزن واليأس . وكان مرهقاً. قدّرت ان توصيات العطيوي تنفذ بدقـة ، وان جنود البادية حولوا رضوان الى هدف ، باعتباره ابن عائلة مرموقة ، وكان ابوه واخوته يرون في عمله السياسي نزوة وسبة ، ولا بد ان يتوقف ، وفي اقرب فرصة ، لذلك تواطأوا ، بشكل ما ، مع السلطة في ان تقسو عليه ، لبعض الوقت ، لعله يتوب ويتراجع !

قلت ، بعد ان تأكدت من تصميمه :

ـ اسمع يا رضوان : العفير صعب ، لكن الصحراء اصعب . الآلاف الذين وصلوا الى هناعادوا ،أما الصحراء ، فان الآلاف الذين حاولوا تحديها ابتلعتهم ، ولم ينج الا كل طويل عمر ، ولذلك ارجوك ان لا تفكر ابداً بهذه المغامرة .

قال بتحدٍ :

ـ لا بد ان افعل !

رددت بنزق وضيق :

ـ وما يدريك ان يكون الراعي جندي بادية متنكراً؟

للحظة ، وكأن هذا الهاجس لم يخطر بباله ، نظر اليّ بتساؤل ، فتابعت :

ـ هؤلاء البدو ، خاصة الرعيان ، على فرض انك رتبت امـورك مع واحـد منهم ، العن من الأبالسة : يأخذ منك ويأخذ ممن يسلمك اليه ، فلا تغلط ولا تتورط !

ضرب على كتفي بمودة زائدة ، وليؤكد بساطتي ايضاً ، وقال :

ـ اخوك ابو فرج دبر الأمور فلا تقلق ولا تخف !

ـ انا خائف يا رضوان ، وارجوك ان تؤجل الموضوع على الأقل . .

كان سالم العطيوي لابداً في احدى الزوايا . رآنا منهمكين في الحديث ، برز لنا كما تبرز الأرانب تحت الأضواء . حين تأكد انّا رأيناه تقدم خطوة اضافية وابتسم . لما اقتربنا وكدنا نلامسه قال باستهزاء :

ـ انشاء الله انّحلت معكم مشاكل العالم؟

لم نجب ، حاولنا المرور ، وخز رضوان بعصاه وقال :

ـ اللي يشوفك يقول : يستحق الصدقة . . .

وبعد قليل وبنبرة مختلفة:

ـ تركت العز والنومة الهنية ولحقت الزعران والسرسرية!

ولأني أُحتجرت وراء رضوان، فقد التفت اليّ وقال بسخرية:

ـ انت داشر، أباً عن جد، كلكم سرسرية، وما في العائلة، حتى عاشر جد، واحد يرفع الراس...

وضحك بصخب، واضاف، وكأنه اكتشف امراً خطيراً:

ـ ومخول، يا ابن الكلب!

وبدل ان يضربني بالعصا ضربني برجله. كانت الضربة كأنها حد السيف، فقد تركزت على قصبة رجلي اليسرى، وحين تقدم رضوان خطوة، وتبعته، وان يكن بصعوبة، فقد جاء الشلوت الثاني على طيزي، بين الإليتين، وقارب الخصى. شعرت، للحظات، وكأني كرة، واني اطير، لكن من الألم!

صرخ بنا ونحن نهرول باتجاه الورشة:

ـ دواكم عندي يا بشوت يا اولاد ستين كلب!

في ذلك اليوم، وفي تلك الليلة، لم يحصل شيء غير عادي.

في اليوم التالي غاب رضوان.

أُكتشف غيابه عند العد المسائي. لم افطن للموضوع طوال النهار، فقد كان معلم البناء جندياً سابقاً في سلاح البادية، وكان احرص من الجنود على الانتهاء من بناء جدران المهجعين، ولذلك ملأالدنيا ضجيجاً، الأمر الذي فوّت عدداً من «الأعراف» التي كانت سائدة في العمل.

في المساء، وحين استلمت دورية الليل من دورية النهار، اكتشفت اول الأمر وجود النقص. واكتشاف من هذا النوع مثير للخوف والقلق، حتى قبل ان يُعرف من الذي هرب، وكم عدد الذين هربوا!

كانت امسية، ثم ليلة، شديدة القسوة. اذ بمجرد اكتشاف النقص تحوّل السجن الى خلية نحل: الركض، الانذار، التحفز، تعمير الأسلحة، والتردد لآخر لحظة والخوف من ابلاغ الادارة! إذ يمكن ان يكون مجرد خطأ عددي، ويمكن ان

يتأخر احد في المراحيض! ويحتمل ان يكون احد السجناء ـ العمال نام في الموقع، او تأخر في مكان ما!

بعد ان جرى تعداد السجناء اكثر من مرة، وتبين ان النقص موجود، جيء بالسجل، ونودي على السجناء بالأسماء. ورغم ان هذه الطريقة لا تخطيء، فان مساعد الضبيان، آمر الحراسة الليلة، لا يصدق،لا يعترف. لجأ الى العد مرة اخرى، والى المناداة على الأسماء مرة اخرى. كانت حالة من الارتباك لا يمكن ان تنسى، ولا يمكن ان تتكرر!

كنت متأكداً، بمجرد ان تسرب الخبر، ان رضوان نفذ تهديده ، وهرب!

لم اكن مهتماً فيما اذا كان العدد صحيحاً ام لا . واعتبرت ان مساعد الضبيان اقرب الى البلاهة وهو يجمعنا في الساحة، وهو ينادي على الأسماء. كنت اتخيل رضوان في رحلته الصحراوية. هل يستطيع ان ينجو؟ هل يكون البدو والرعيان الذين وثق بهم صادقين ويمكن ان يساعدوه فعلاً في رحلته الصعبة؟ وهل يستطيع ان يبقى حياً؟

قبل عصر اليوم التالي قبضوا على رضوان فرج وجاءوا به من جديد!

واذا كان العفير جحيماً دون اية اسباب، فان هرب احد السجناء سبب كافٍ لأن يحوله الى جحيم مجنون! «فالاستقبال» الذي اعد لنا لحظة وصولنا لا يعتبر شيئاً قياساً للاستقبال احتفالاً بوصول رضوان! لم يتركوا واحداً منا الا وخلّفوا في جسده علامات دائمة، وفي روحه ذكريات لا تزول. ولم يبق احد، حتى معلم البناء والرعيان، الا وساهم في هذا الاحتفال! واكتشفنا احقاداً جديدة لم نكن نتصور وجودها، خاصة عند اولئك الذين بدوا لنا في فترة سابقة اكثر طيبة!

كيف جُررنا الى المهاجع؟ من فعل ذلك؟ متى؟ لا ابالغ اذا قلت ان لا احد يتذكر. نُقلنا وكنا بين الموت والحياة؛ وربما انقضى اكثر من يوم حين بدأنا نصحو ونستعيد بعضاً من الوعي والقوة. أما حين اصبحنا، او اصبح بعضنا، قادراً على الاجابة عن الأسئلة التي توجه الينا فقد بدأ التحقيق: كيف يمكن ان يهرب احد السجناء ولا ندري؟ كيف لم نبلغ عنه؟ وهل يُعقل انه هرب دون موافقة او ترتيب؟

كان سالم العطيوي ديكاً، ولا بد ان يعرف كيف دُبرت المؤامرة، ومتى، ومن

هم الشركاء. وحين يقسم السجناء بأغلظ الايمان انهم لا يعرفون، يضحك، وكأن احداً يكركره، ويقول:

- لا اصدق هذه الايمان كلها، لأنكم زنادقة، ولا تعترفون بها!

فاذا سأله احدهم:

- بماذا تريدني ان اقسم حتى تصدق؟

يرد بسخرية:

- القسم الوحيد الذي يقنعني هو الاعتراف، ولا شيء غير الاعتراف!

وحين يقول السجين انه لا يعرف شيئاً، وليس له علاقة بعملية الهرب، ولم يسمع بها الا بعد ان انكشفت، يرد سالم:

- هذه العملة تصرفها في بنك المفلسين؛ واذا عبّرتها على غيري، مع محقق غبي، ما راح تعبرها عليّ!

لما جاء دوري نظر اليّ وابتسم. هز رأسه عدة مرات، وقال:

- ستقول مثل الآخرين: لا اعرف، ها؟

واكدت له انني فعلاً لا اعرف، والا لهربت معه او منعته من الهروب، فرد عليّ بسخرية:

- يمكن اللي منعك تهرب ان بيضك ارتخى من شلوت البارح، ولأن عظمك فارغ ولا تحتمل المشي!

بعد هذا التحقيق فرز اربعة: هشام زينو، رضوان فرج، حامد زيدان وانا.

قال سالم العطيوي لمساعد الضبيان، وكان يهز عصاه:

- الليلة انفرادي، وبكرة المحرقة!

الانفرادي كان سهلاً، فقد بلغ بنا الانهاك درجة كنا مستعدين لأن ننام في أي مكان، دون اعتراض وبلا اية شروط!

في اليوم التالي، واتذكر انه كان الخميس، ساقونا مع شروق الشمس.

الهواء الرطب، الخفيف، يملأ الصحراء. مشينا الى مسافة تزيد قليلاً عن الثلاثمائة متر، قرب الأسلاك الشائكة التي تحيط القلعة، من ناحية الشرق. كانت هناك مجموعة من. . .

لا اعرف ماذا اقول او كيف اصف تلك الأشياء. ليست بروجاً للمراقبة، اذ لم تكن تتعدى قامة الانسان. ليست مراحيض، فالناس هنا يبولون ويتبرزون في اي مكان، وبالتالي لا يبحثون عن السترا وليست ايضاً غرفاً من اي نوع، ولكنها موجودة. لم تلفت نظري في وقت سابق، وان كنت قد رأيتها، ولا اعرف كيف اقنعت نفسي انها صناديق وليست اي شيء آخر.

الآن، ونحن نساق تجاهها، بدت لي بشكل مختلف: انها من الزنك القوي، مسقوفة، لها ابواب، او بالأحرى احد جوانبها بمثابة باب، وهي على مسافات متقاربة، اذ لا يزيد بُعد الواحدة عن الأخرى اكثر من عشرين متراً.

وُضع كل واحد منا داخل علبة من هذه العلب. المكان يكفي للوقوف، واذا اراد الانسان ان يجلس على الأرض ويمد رجليه قليلاً فانه يستطيع اذا لم يكن طويلاً، ولم يفرط في فرد الساقين. وضعونا هناك وذهبوا!

قلت لنفسي بنوع من التعزية «ليست المرة الأولى في الانفرادي، ومهما تكن ستنقضي».

كانت الوقفة فرصة للتفكير والتذكر واستعادة المرحلة الماضية. كان الجو منعشاً، اقرب الى الاثارة، فقد انقضت شهور طويلة لم اختلِ بنفسي، لم اكن وحيداً، والانسانُ مع الآخرين، وبشكل دائم، يصبح له سلوك وطريقة في التعامل تفتقر الى العفوية، وتجعل ردود فعله آلية، ولا تخلو من خشونة. فكرت في اشياء كثيرة: رفاق العلب، الذين في المهجع، ووصلت الى السجن المركزي. تذكرت الحاج مصطفى، قلت لنفسي «لو تعرض لهذا الضرب لقضى بين ايديهم، لكن قبل ان يمضي لا بد ان يكيل لهم شتائم لا ينسونها طوال العمر!» وتذكرت ابا سمير، بدا لي وكأنه لا يحسن المشي، انه يقفز كالغراب. وتذكرت الأهل والأصدقاء في عمورية. قلت في نفسي «هل يعرف هؤلاء الناس ما نعاني؟ هل يتذكروننا مثلما نتذكرهم؟» وكدت استسلم لتلك الهواية الملعونة: السفر، ولولا ان هبت ريح فسفّت الرمل من

اسفل وهزت العلبة قليلاً لسافرت! لأول مرة اكتشف ان العلبة تنهض على قوائم، وليست مغروسة في الأرض، فقدرت للذين صمموها بهذا الشكل بقايا النبل في قلوبهم حين تركوا مسرباً للهواء!

ما كادت الشمس ترتفع ذراعين او ثلاثة في السماء حتى بدأت الحرارة تدفىء العلبة، أما بعد ان مرت ساعة فقد اصبح الدفء ثقيلاً، وتحول الى لزوجة، وحين حلّ الضحى وصل الدفء الى درجة القسوة، ثم، وبمرور الوقت، دقيقة فاخرى، فقد اصبحت الحرارة أنصالاً تتهاوى من كل الجهات وتنبع من كل مكان.

لم اسمع، او لم اهتم حين سمعت كلمة «المحرقة» التي نطق بها العطيوي امس. افترضت انها كلمة مثل كلمات كثيرة تعّود مثل هؤلاء الناس ان يطلقوها، كوسيلة للضغط. أما الآن والحرارة تتفجر وتتدفق لا اعرف من اين، فقد شعرت انني اتخاذل، اذوب، اتلاشى. وحين ادور من جهة الى اخرى، في محاولة لاتقاء هذا الجحيم، احس ان الجهة السابقة، التي تركتها، اكثر رحمة، لأن الوهج الذي كان ورائي يتحول في هذه الجهة الى جمر.

افترضت ان الجلوس يمكن ان يبعدني عن السقف الذي تنصبّ منه تلك الحمم. جمعت نفسي وهبطت الى الأرض. مست يدي جدار العلبة فانكوت، سحبتها لا شعورياً واتكأت على الجدار الآخر، ونظراً للعرق الذي يزّخني والذي كان يفيض من كل المسامات، فما ان اتكأت على ذلك الجدار حتى شعرت ان يدي تلتصق بالصفيح، واشم رائحة احتراق اللحم. أما وانا اتداعى على الأرض وتلامس الأليتان الرمل، فقد تأكدت انني فوق صاج محمى، قفزت في محاولة لاتقاء الحريق، لكن الجوانب لدغتني من هنا ومن هناك. قلت وانا اشتم: «لا اتصور ان هناك مجرماً عبقرياً يفوق من اخترع هذه العلب ووضعها في هذا المكان».

ادور من هذه الجهة الى الجهة المعاكسة، الى الجهة الجانبية، لكن الفرن بحرارة واحدة من كل الجهات. العرق يتساقط، وداخلي يغلي. بدأ الونين في الأذنين واليباسة في الحلق. شعرت انني امتلىء تعباً واتهاوى. قلت لنفسي «لا يمكن ان احتمل واصل الى الظهر، حين تصبح الشمس عمودية، وتنصبّ منها شلالات الجحيم» تساءلت عن وضع رضوان وحامد وهشام تجرأت وصحت:

ـ رضوان. . يا رضوان، كيف انت؟

رد بصوت، حاول ان يجعله صلباً:

ـ ماشي الحال، وانت يا عادل؟

ـ ماشي الحال بصعوبة، شاعر اني اختنق واحترق. . . .

وبعد قليل:

ـ يا ابو مكرم، يا ابو مكرم.

ـ ايوه!

رد بثقل وصعوبة.

ـ كيفك. . . كيف وضعك؟

ـ قادر اتحمل بعد شوية.

حاولنا، قاومنا، لكن وصلنا في لحظة من اللحظات الى حالة من التلاشي. بدأ الدّق، بالأرجل، على الجدران. كانت دقاتنا، في البداية، قوية صاخبة. بدأنا نصرخ طالبين الماء. كنا نضرب ونصيخ السمع، هل جاء احد؟ هل وصلت صيحاتنا ويمكن ان يستجيبوا لها؟

ان الزمن في مثل هذه الحالات لا يعُدّ بالدقائق والثواني، بل باجزائها، لأن اللهيب الذي يزداد ويتكاثف ثانية بعد اخرى له مفعول المخدر، اذ تتراجع القوى بسرعة، ويفقد الانسان قدرته على التحكم، وتصبح للاشياء اشكال والوان مختلفة.

وما يكاد واحد منا يبدأ الدق الا ويتبعه الآخرون، ومع دقات الأرجل الصياح، ثم الصمت. وحين يمتد الصمت، املاً بجواب، ولا يعقبه شيء، تعاود الأرجل الدق من جديد، ومعها فقط طلب الماء، ولا جواب، فتبدأ الشتائم والمناداة، لكن لا احد ولا جواب!

انهكنا الدق والصياح، قال صوت لا يكاد يُسمع، وكأنه استغاثة:

ـ يا جماعة راح اموت.

قالها ابومكرم وخبا صوته. واصلنا، نحن الثلاثة، الدق والصياح اكثر من

قبل، مرت فترة والحرارة تزداد واللهب يعبق ويتكاثف من الداخل والخارج. تأكدت، او بالأحرى كان هذا شعوري، ان الموت سيقتحم العلبة في اية لحظة، ولا بد ان يطبق على الرقبة. مددت لساني لاثبت لنفسي انني لا زلت قادراً على التحكم بقواي، بجسدي. بصعوبة طاوعني اللسان، كان ثقيلاً رخواً. حاولت ان ابتلع ريقي، لم استطع، شعرت ان في داخلي شيئاً يتمزق. ارتميت على الأرض في محاولة لأن اجعل موتي هادئاً!

اتذكر انني كنت في لحظة اقرب الى الغياب حين انفتح الباب. رأيتهم ينظرون اليّ من فوق، مدوا لي خرقة مبلولة، وسمعت او تخيلت انهم يقولون: خذ لك قطرة. حين لم استطع تقدم مني احدهم وعصر القطعة فوق وجهي، على شفاهي، تحرك فيّ شيء واهتز، امسكت بالقطعة المبلولة، قربتها الى وجهي، وضعتها في فمي، شعرت ان في داخلي شيئاً يقفز، يتمزق، يستجيب!

حملوني الى سيارة قريبة، بصعوبة استطعت ان اميز الآخرين. كان رضوان مجرد عينين. كانت عيناه بارزتين، وكأنهما على وشك ان تغادرا موضعهما، وفيهما فقط يمكن ان تُميّز الحياة. أما ابو مكرم فكان غائباً عن الوعي، وكان هشام كالمذهول.

ألقت بنا السيارة قرب بيت الشعر، والذي كان يسمر فيه الجنود ويشربون القهوة، وكانت تظلله شجرة كينا زرعها في وقت بعيد سجناء سابقون. جُررنا الى داخل بيت الشعر. كنا فقط نريد ماء ولا شيء غير الماء. نظروا الينا دون اهتمام، مرت دقائق كانت اطول من دهور، قال رضوان بصعوبة، وقلت: ماء، ماء.

بتهمل زائد، وكأنهم مخلوقات آلية شديدة البطء، ولا تعرف الاستجابة، قدموا لنا كيلتين من المعدن فيهما قليل من الماء، وفوق الماء كمية من التبن. بصعوبة، وبعد جهد وصل الماء الى الحلق فالحنجرة، كانت العملية شديدة التعذيب، ولا يمكن ان تروي؛ مددت يدي الى داخل الكيلة، جمعت التبن ورميت به، لكن بقيت اعواد منه. شربت، شربت كل ما في الوعاء، وظل العطش مسيطراً مستبداً.

فعل رضوان مثلما فعلت وكذلك هشام، أما حامد زيدان فقد نقطوا في حلقه الماء، الى ان بدأ يستعيد وعيه شيئاً فشيئاً. كان متعباً الى درجة الارهاق، بعيداً الى درجة الغياب. لما افاق تطّلع الينا وابتسم. قالت ابتسامته: لا زلنا أحياء!

جاء العطيوي

- كيف كان الحمام الشمسي؟

لم نجب، لم نكن قادرين على الاجابة حتى لو اردنا.

- هذا الدهليز، والموت بعدكم ما شفتوه.

لم نتكلم ولم نتطلع اليه. تغيرت لهجته:

- كلّه منك يا شيبة النحس، ما عندك الا تقرا على روس هالصبيان، تقرا وتجوّد، وهم عقولهم مثل العصافير، جوزتين بخرج...

وتغيرت اللهجة من جديد، اصبحت تمثيلية تماماً:

- وفي سنة كذا، وفي المكان الفلاني، قامت الثورة، وكان يقودها الفقراء، وبعد ان قتلت الحكام واستولت على القصر، رفعت راياتها وانتصرت... وهكذا انتصر الحق وزال الظلم!

وعاد الى اللهجة الأولى:

- هذا اللي تقوله صبح وعشية، والا انا غلطان؟

ولم يرفع اليه ابو مكرم نظره، وربما لم يسمعه، فالتفت الى رضوان:

- وانت يا خنزير، تتصور الهريبة من قلعة ابو مهند مثل الهريبة من المدرسة: لا من حسّ ولا من دري؟ تتصور انك من هنا الى بيت امك وابوك بدون سؤال بدون دستور؟

اخذ نفساً عميقاً، وصمت قليلاً ليختار طريقة لائقة يواصل هجاءه:

- كان الحق علينا ونحن نركّض وراك طوال الليل، كان لازم نتركك للضباع والذياب تتغداك او تتعشى بلحمك المربرب اللي تعب ابوك وهو يسّمن، وعلى ظنه ان ابنه يصير براسه خير، ماعرف ان ابنه سرسري..

وابتسم وهز رأسه عدة مرات وتابع:

- لو اكلك ذيب او ضبع كان دعا لنا بالخير، وطول العمر...

وبعد قليل بلهجة اقرب الى السؤال:

ـ وتتصور انك اذا افلت من وحوش الفلا تخلص من قيظ السما؟ فاذا ما مت من ضربة شمس تموت من العطش، واذا لا هذي ولا هذي تموت تايه، لكن عقلك عقل افندية!

ربما تعب من الوقوف ومن القاء الدروس، جلس، قال لأحد الجنود:

ـ صب قهوة.

صب له وحده، شرب الفنجان الأول، ثم الثاني، التفت اليّ:

ـ ها يا خالدي . . . راسك بعده يابس او لينته المحرقة؟

لم أجب، مد رجليه وقال:
الجماعه وصّوا بك يا عادل، قالوا : نبعث اليك عادل فاعدله او اقتله، قلنا لهم سمعاً وطاعة، ولا بد ان ننفذ الأوامر!

وتغيرت اللهجة تماماً:

ـ اذا اجبت عن سؤال واحد، وهذا رضوان موجود، ارجعك الى المهجع، وعفا الله عما مضى، أما اذا بقيت ميبس راسك، فهذه الشمس اللي شفت طرفها اليوم، راح اخليها تسوّح دماغك، وتسّويك خبر بعد أثر. .

توقف تاركاً لي الفرصة لاستيعاب ما قاله ثم تابع :

ـ والسؤال: اعترف ان رضوان خطط للهرب وبحث معك الموضوع؟

قلت بحدة لأقطع الطريق تماماً:

ـ لا اعرف اي شيء عن الموضوع، وليست لي علاقة!

ـ متأكد؟
نظر اليّ بتحديد ليقرأ في عيني الجواب قبل ان يقوله لساني. أجبت، وربما بدا صوتي مرتجفاً:

ـ اي نعم متأكد!

ضحك بصخب، وقال كأنه يكلم نفسه:

ـ مجنون يحكي وعاقل يفهم. انت ورضوان طيزين بلباس واحد، لوريل وهاردي، الواحد وظله، وبعدين.. يمكن تقنعني انك لا تعرف ومالك علاقة؟

والتفت الى رضوان وسأله:

ـ موافق على كلامه يا سيدنا؟

ـ موافق!

ـ قل موافق على كلامه وعينك بعيني، لا تدفن راسك بالرمل مثل النعامة!

صرخ رضوان موجهاً كلامه الى احد جنود البادية:

ـ اعطونا ماء وخلصونا!

ضحك سالم بمرح وعلق:

ـ طبيعي الكذب ينشف الريق، فاعطوه ماء وخلنا نشوف!

وقدمت الينا وجبة من الماء دون قش. بعد ان شربنا، وشربنا كمية كبيرة، تابع العطيوي بسخرية:

ـ لا تملّوا بطونكم ماء يا شباب لأن بعد وراكم الأكل!

وبعد قليل، موجهاً الكلام لرضوان:

ـ رأيك، سيدنا، تعترف او ترجع مرة ثانية للمحرقة؟

رد رضوان بحدة:

ـ انا وحدي المسؤول ولا احد له علاقة!

ـ اعرف انك المسؤول، وراح تنال علاوة سنتين، او ثلاثة على عملك، ويجوز يمنحك الجماعة وسام الشجاعة لأنك حاولت ان تقطع الصحراء! لكن سؤالي هو: هذا الداشر السرسري ـ واشار اليّ ـ على علم بالهرب ام لا؟

ـ انا وحدي المسؤول، ولا احد له علاقة!

ـ لا ترفع صوتك يا كلب!

وخيم الصمت.

قام سالم، وقال موجهاً الكلام الى مساعد الضبيان:

ـ للانفرادي!

انقضت الليلة وانقضى القسم الأكبر من اليوم التالي، وكدت افترض ان لا شيء يمكن ان يحدث، لكن حين مالت الشمس قليلاً نحو الغرب جاءوا:

ـ يا الله!

طلبوا منا ان ننزع احذيتنا وان نتركها في مكانها، وما كدنا نفعل حتى طلبوا منا التوجه الى العلب ذاتها!

ومثلما يتفتت الزمن الى ذرات لا نهاية لها، فقد بدت المسافة بيننا وتلك العلب غير قابلة للاجتياز ضمن اي مقياس. فاللهب الذي ينبع من الرمل يجعل السير شاقاً الى درجة الاستحالة. كان اللهب فيضاناً بلا انتهاء، اسياخ نار تندفع بسرعة الطلقة بدءاً من باطن القدم حتى قمة الرأس. كنا نصرخ كالقطط المخنوقة، نقفز كالجراد، وكنا نرتمي على الأرض في محاولة للاستراحة، او لتوزيع الألم على مساحة اوسع لعله يكون محمولاً اكثر، لكن ما تكاد الأيدي او الأجساد تلامس الرمل حتى تتبعها الشهقات، وكأن مسامير دقت فيها!

تلقينا ضربات العصي، في محاولة لانهاضنا، اكثر من وقعاتنا!

لم اكن خائفاً على نفسي قدر خوفي على حامد زيدان، فالسنين التي يحملها فوق كتفيه، ثم عذاب اليوم السابق، جعلاني اقدر ان الأمور ستكون سيئة، وكنت احس، لا شعورياً، ان علي بذل اقصى ما استطيع من أجل حمايته. وكنت اقدر، في نفس الوقت، ان رضوان، رغم تعب الرحلة الصحراوية، وما خصّوه من امتياز اثناء حفل الاستقبال، اقدر على التحمل، وكذلك حال هشام.

في لحظة ما، بعد ان قطعنا نصف الطريق الى العلب، صرخ ابو مكرم بطريقة استفزازية:

ـ اركضوا يا جماعة!

ركضنا كالجمال الهائجة، اذ ما دمنا مضطرين لقطع المسافة والوصول الى تلك العلب، فان قطعها ركضاً انسب الحلول رغم صعوبته.

كنا نركض فوق المسامير، فوق زجاج ملتهب، على اجفاننا، الى ان وصل كل واحد منا الى علبته!

وقفنا الى ان وصل الجنود. كانوا مسرورين الى درجة الغبطة. تطلعوا الينا، وقال مساعد الضبيان، وكان مرحاً:

- حتى تقولوا ان الله حق!

وما كاد يمد يده الى القفل ليفتح الباب حتى سحبها، وكأن احداً ضربه عليها، صرخ:

- والله لالعن والديكم يا اولاد الكلب!

وتفل على رضوان، كأنه ينتقم منه لما اصابه، ثم اخرج من جيبه خرقة طويلة، ولا يُعرف ان كانت منديلاً ام حبلاً سابقاً، طواها عدة مرات وامسك القفل، وبعد ان فتحه دفع كل واحـــدمنا داخل علبة وذهب والذين معه!

منذ ذلك اليوم، ولسنوات لاحقة، وربما الى نهاية العمر، سوف تبقى تلك الصورة محفورة في ذاكرتي: العلبة مثل موقد ينفث ناراً، انها اكثر من فرن، واصعب من حالة الاختناق، انها حالة الموت!

ولكي تكتمل الصورة وتظل راسخة في الذاكرة الى الأبد: ما ان زال وهج الشمس وتلاشى سراب الرمال، واصبحت العين قادرة على التمييز، حتى فوجئت بعدد من العقارب الموجودة داخل العلبة. كانت تتحرك تلك الحركةالمجنونة، لأن احداً افسد عليها قيلولتها. ما ان رأيتها حتى شعرت ان كل ما فيّ من قوة او قدرة على المقاومة ينهار ويتلاشى!

هل جاءوا بها الى هذا المكان لتنجز ما عجزوا عن انجازه؟ هل يمكن جمع هذا العدد من العقارب ووضعها في مكان واحد؟ أم انها جاءت الى هذا المكان وحدها، باعتباره ارحم الأمكنة الموجودة في هذه الصحراءالملعونة؟

لا يمكنني ان أجيب، وحتى فترة متأخرة كنت عاجزاً عن استيعاب هـذا المشهد!

والانسان حين يقع بين مجموعة من الأعداء فانه يواجه اخطرها، فاذا تمكن من قهر هذا الخطر، فان الأخطار الأخرى تبدو اقل صعوبة.

بعد ان استعملت كعبي في الضرب على القريب منها، واستعملت المشط في تعفير الأخرى، ولأن الحركة المفاجئة والسريعة افـزعتها، فقـد تراكضت، وكـان

ركضها الأعمى اكثر ما يثير الرعب. لقد تراجع جحيم السماء، قليلاً، لمواجهة جحيم الأرض، ونسيت الشمس والحرارة فقط لانجو من هذه المخلوقات العمياء الكريهة. كان سوادها المغبر، وحركتها اللولبية، ثم قفزاتها غير المتوقعة، تجعل الانسان مجرد قدم. تتركز حواسه وقواه هناك، وتتفجر فيه قوى لا يعرف اين كانت كامنة، او كيف كان يمتلكها!

في وقت ما، بعد ان قضيت على عدد من العقارب، وهرب عدد آخر، تحولت عيناي الى عيني صقر تمسحان العلبة في كل ثانية، لمواجهة اي غزو جديد محتمل. واصبحت حواسي كلها كالرادار لا تتوقف عن الدوران. وفي وقت متأخر اكتشفت انني كنت خائفاً، وان قلبي تضاعفت دقاته، ولو رآني احد لما تردد في ان يعيد عيني الى محاجرهما، ويؤكد لي انني مصاب باليرقان، لأن مرضى اليرقان وحدهم يملكون وجهاً أصفر كالذي كان فوق كتفي!

لقد كان الذين صنعوا هذه العلب عباقرة وحكماء، لأنهم تركوا جوانبها مفتوحة، وهذا ما سمح بهرب عدد من العقارب! وسوف اقول لنفسي، في وقت لاحق، ولا اعرف ان كنت ساخراً ام لا، ان هذه الجوانب المفتوحة بالذات هي التي جاءت بهذه المخلوقات، لأنني لا استطيع ان اتصور امكانية جلب هذه العقارب ووضعها في هذا المكان وان تبقى كما يريدون!

وسوف اشعر بالغبطة في وقت لاحق ايضاً، لأن الجلادين، ومن خلال الفلقه بالذات، صلّبوا قدمي، خاصة الكعبين، وافترضت انني اتفوق على آخيل من خلال هذه الميزة!

عندما بدأت الشمس تنحدر ثم تنطوي قلت لنفسي: «هؤلاء الذين عبدوا الشمس، في يوم من الأيام، لا بد ان يأتوا الى هنا، لا ليعيدوا النظر، وانما لكي يكتشفوا كم كانوا اغبياء» لكن ما ان بدأ الظل يتحول الى غبش، وبدأت معه الواح الزنك ترتاح من الاضطهاد الذي لم يتوقف خلال ساعات النهار، ثم تحول الغبش الى مايشبه بداية الظلمة، فقد بدأت احس ان قدمي تتحولان، من جديد، الى مجسات شديدة الحساسية. وبدأ الخوف وبدأت معها التساؤلات: هل تعود العقارب مستغلة الظلام؟ وكيف يمكن ان اراها او ان اميزها؟

ومثلما كانت ظلمة العلبة المفاجئة الأولى مع هذه المخلوقات، فقد احسست ان كل شيء يتحول الى نوع من الخصومة. اذ بمقدار ما كانت الشمس عدواً فان الظلمة

لا تقل عن ذلك. واذا كانت الشمس تحمل هذا المقدارمن العداء، فان الظلمة تجعل الانسان عاجزاً، مسلوباً، منتظراً، وايضاً عبداً لقوة مجهولة. قلت لنفسي في محاولة لأن اصل الى توازن من نوع ما: «متى يصل الانسان الى الحرية». ضحكت بسخرية وقلت: «الحرية لا تأتي وحدها الحرية ذهاب دائم، واغلب الأحيان الى المجهول، وهي حالة بحث لا تعرف التوقف او الهدوء، وكل وصولٍ ليس اكثر من محطة يعقبها سفر آخر الى نهاية الحياة!»

في وقت ما استخرجونا من العلب. أُخذنا مرة اخرى الى المضافة. كان العطيوي مرتدياً ملابس البدوهذه المرة، خلافاً لجميع المرات السابقة. وكان يستند على ركاب فوقه مخدة. بدا مسروراً وواثقاً وهو يستقبلنا. ما ان استقر بنا المكان، وقد اجلسونا في بداية الخيمة، ونظرت الى رفاقي حتى خفت. كانت العينان جاحظة والوجوه شديدة الشحوب، وكان شيء ما لا يبدو طبيعياً في نظراتهم وحركاتهم.

قال العطيوي، بعد ان امر لنا بالماء:

- غريبة...

وبعد قليل:

- الظاهر ان حظكم من السماء، لأنكم عدتم جميعكم سالمين. كنت متصور ان واحد او اثنين منكم راح يفطرز اوعلى الأقل ينتفخ مثل القربة بعد لدغة عقرب او حية.

وضحك واضاف بصوت مختلف:

- لا بد ان لكم حسنة عند الله، ولا بد ان الواحد منكم مسوي خير في يوم من الأيام، والا كنا الآن نقول: الله يرحم فلان.. والله يرحم فلان.

بقينا صامتين، وكأن الكلام موجه الى غيرنا ولا يعنينا، وكانت نظراتنا اذا التقت نشعر اكثر من قبل بالخوف.

في لحظة ما تطلعت الى هشام فرأيته يضحك! تطلعت اليه من جديد لاتأكد، رأيته يضحك اكثر من قبل، ثم بعد فترة قصيرة انكمش بحدة وكأنه يعاني ألماً داخلياً لا يقوى على مقاومته، تماماً مثل معاناة مريض الكلية اثناء سقوط البحصة. استمر ذلك فترة. تطلع اليه العطيوي وتطلع الى رجاله وكأنه يسألهم دون كلمات. قال مساعد الضبيان:

ـ لا تخف، طال عمرك. لو انه ملدوغ كان بيّن عليه، لكنه مشموس!

هز سالم رأسه موافقاً وتطلع الى ساعته، بدا وكأنه ينتظر ضيوفاً غيرنا، واهم منا، لكن لئلا يشعرنا انه غير مهتم، قال:

ـ الليلة راح نخليكم ترتاحون، تتعشون وتنامون. . .

وضحك وهز رأسه اكثر من مرة وتابع:

ـ وباكر، بالخير والسلامة، تسولفون بين بعضكم، وموعدنا اللي عقبه، فاذا ما اعترفتم ترى نهايتكم بالمحرقة. . . هناك تظلون الى ان تجيفوا ، سامعين؟

والتفت الى مساعد:

ـ المهجع الشمالي. . .

وبعد قليل وبدعابة:

ـ ولا تنس تعشوهم زين يا مساعد!

القينا اجسادنا المنهوكة على البطانيات القذرة في محاولة للنوم، لكن لم ننم الا في وقت متأخر، ولم نتكلم أيضاً، كان لدينا الكثير لنقوله، لنسأل عنه، لكننا لم نفعل. فحالة الذهول الأقرب الى الغياب جعلت كل شيء دون جدوى. وكانت هذه الحالة تتبدى اوضح ما تكون في وجه هشام وتصرفاته!

قلت لنفسي، وربما كل واحد منا قال ذات الشيء: «هذا النوع من التعذيب لا يقصد منه الوصول الى المعلومات قدر ما يهدف الى اذلال الانسان، والانسان الذليل لا يعرف الا الامتثال والاستجابة وهذا ما يريدونه».

عندما سقطت في النوم، ولا ادري متى حصل ذلك، بدأت العقارب تطاردني من جديد. كانت كثيرة مختلفة الاحجام، وبألوان متعددة. كنت اسمع دبيبها وهي تقترب وتطوقني من كل ناحية، فاحاول ان اهرب منها، ان ارفع قدمّي لتجنبها، لكن ما ان تسقط من مكان حتى تتسلق من مكان آخر، تهجم بضراوة، تريد ان تلتصق بي لتفرغ كل سمها، فاصرخ وانتفض، واستيقظ من النوم.

وينقضي وقت طويل قبل ان استطيع النوم من جديد. وخلال ذلك التفت الى الذين حولي، واكتشف ان ما كان يفزعهم في احلامهم يفوق ما كان يفزعني! اسمع صرخات الرعب القصيرة الحادة، اسمع الاستغاثات، وارى الأيدي وهي تحاول الدفاع: الأكف المفتوحة، القبضات القاسية المتشنجة، وايضاً تلك الانتفاضات العصبية. أما الكلمات التي كانت تتدفق فهي مزيج من الشتائم والشتائم. ولا شيء غيرها. قلت لنفسي وانا ارقب حامد زيدان، وقد مد يديه الاثنتين في محاولة لحماية وجهه: «كيف يجرؤون على ضرب رجل في عمر آبائهم؟ اي نوع من البشر هؤلاء،

وكيف يمكن ان يكونوا مفيدين لأي مخلوق؟ واذا نفذوا اوامر من هذا النوع فهل تصعب عليهم اوامر تطال آباءهم واخواتهم واقرب الناس إليهم في وقت آخر؟»
جررت نفساً عميقاً وحزيناً، انقلبت على الجانب الآخر، لعل النوم يكون اقرب، وقلت، ربما بصوت مسموع: «من يهن يسهل الهوان عليه ـ ما لجرح بميت ايلام . . وهؤلاء الناس مات في داخلهم اهم ما يملكون: الضمير، ولذلك لم يعد هناك امل باستعادتهم.»

ونمت مرة اخرى، لكن لم يكن اهنأ من المرة السابقة. أما في الصباح فقد استيقظت مبكراً على صياح هشام.

كان حامد زيدان يحاول ان يهدأه، كان يضع على جبينه خرقة مبلولة، ويضغط على الكتفين لكي يبقيه نائماً، ويحاول هو، بالمقابل، ان يفلت، ان ينهض، لما بلغت الأمور حداً معيناً صرخ، فاستيقظ واستيقظ رضوان.

تعاونّا جميعاً لتهدئته، لمساعدته على تجاوز الحمى. كان يستجيب لحظة، لكن في اللحظة التالية يهب كالعاصفة، كموجة مجنونة. من اين له هذه القوة؟ وكيف لا نستطيع، نحن الثلاثة، ان نسيطر عليه؟« ماذا لو وقف؟لو تركناه؟» هكذا تساءلت، أما حين صرخ، وبدأت شتائمه تتوالى، فقد قلت بحدة:

ـ اتركوه، يا جماعة، وخلونا نشوف اخرتها معه!

وكأنهما كانا ينتظران امراً من هذا النوع، اذ ابتعدا عنه قليلاً، تاركين له ان يفعل ما يريد.

وقف. نظر الى كل واحد منا بامعان. كان حازماً، اقرب الى العداء. بعد ان استعرضنا، خطا خطوتين او ثلاثاً الى الخلف، مبتعداً عنا، وسأل بمنتهى الجدية:

ـ اريد من كل واحد منكم ان يبرز لي هويته، لاعرف ما هي صفتكم، قبل ان تقبضوا عليّ!

حين ظللنا صامتين تابع بنفس الجدية:

ـ انا اعرف بوجود الأجهزة، لكن هناك من ينتحلون صفات ليست لهم . . .

ولما استمر صمتنا تابع وهو يبتسم:

ـ الآن كشفتكم، فانتم تنتحلون صفة، والمادة ٧١٣ من قانون العقوبات

تعاقب من ينتحل صفة، خاصة اذا كانت تتضمن احتجاز حرية الأفراد والاضرار بالمصالح، بعقوبة تتراوح بين ثلاث وخمس سنوات، وفي حال المعاودة يعاقب. . . .

وضحك بمرح وسأل:

- اتعرفون عقوبة المعاودة؟

لم نجب. كنا ننظر اليه غير مصدقين. اضاف وقد استعاد وجهه الحزم:

- في حالة المعاودة عقوبته الاعدام، فاحذروا!

بدأ يتمشى في المهجع، قال له حامد زيدان برجاء:

- هشام. . يا حبيبي، يا عيني، لازم تستريح.

رد، وهو يضرب الأرض بقدمه:

- اولاً، انا لا اسمح لك ان تناديني بالأسم المجرد، فأنا الاستاذ هشام، واذا تنازلت: السيد هشام، مع ان لقبي الرسمي: هشام بك، أما ان تصبح الأمور شوربة، ويختلط الحابل بالنابل فهذا لا اسمح به ابداً.

- وثانياً، انا لا اعرفك ولا تعرفني والا انا غلطان؟

وتحول الى السخرية:

- اخي: لاعب انا وياك دحل في يوم من الأيام؟ كنا بفريق رياضي سوا؟ معرصين مع بعض؟

رد حامد بحدة:

- كافي. . كافي يا هشام، ولازم تستريح. . .

والتفت الينا:

- الظاهر ان الحمى مؤثرة عليه.

رد هشام وهو يتقدم:

- اسمع ايها الرجل الطاعن في السن: انالا اعرفك ولم ارك من قبل، واي ادعاء مخالف منك يدل على سوء النية، ولا بد ان تكون لك نواياشريرة للايقاع بشخصية مهمة، مثلي. .

وبعد قليل وهو يهز رأسه:

- ويجب ان تعرف: لدي صلاحيات استثنائية، ودون مراجعة النائب العام، في ايقاف اي انسان لمدة اسبوعين، فاحذرا

والتفت الينا، وقال، وقد خفض صوته:

- انتبهوا، هذا الرجل يحاول ان يتظاهر امامكم انه يعرفني، ربما لتمرير مصالح، وقد يكون تقاضى منكم اموالاً، فانا اقول لكما، لأنكما اكثر طيبة وبساطة منه: انني براء من هذا الرجل، لم تره عيني من قبل، ولا يمت لي باية صلة. . .

واقترب منا، انا ورضوان، وقال بصوت هامس:

- واذا تقاضى منكما اموالاً لقاء دعوة موهومة، فيمكن ان تستردوها الآن، وانا موافق!

وحين رآنا صامتين ومدهوشين، فقد تراجع. قال وهو يبتسم، وكانت ابتسامته اقرب الى القهقهة:

- سوف نقبض عليه فوراً. . .

وصرخ، بعد ان اتخذ موقفاً حازماً وعسكرياً:

- اسمع، ايها الرجل المتحل صفة، باسم العدالة والقانون، وبموجب المادة ٦٠٧، اقبض عليك فلا تتحرك ولا تقاوم والا ضاعفت العقوبة. . .

وتوجه الينا، وهو يغمز بعينه:

- فتشوه، شلحوه، العنوا أجداد اجداده، فهذا النكرة، المدعي، المنتحل صفة، والذي يريد ان يبتز الجماهير الفقيرة من خلال ادعائه انه يعرف المسؤولين، ويستطيع ان يمشّي المصالح، لا بد ان ينال عقاباً صارماً، ويجب ان يكون عبرة لكل ذي عقل وضمير ووجدان، واذا لم نفعل ذلك خربت الدنيا وساد الظلم وتعربش الأدعياء والأوباش والسرسريه وابناء الزواني واهل النفاق وكتاب التقارير والدهماء. . .

ضحك بفرح وسأل:

- ما رأيكم، ايها الجمهور، بكلمة دهماء؟ الا ترونها قوية ومؤثرة وذات معنى ودلالة؟

ولف حول نفسه مرة وثانية، وقال:

- احسنت يا ابو الشباب، ان لك عقلاً خصباً مليئاً فعالاً قوياً مشتعلاً، وتعرف كيف تضع الأمور في نصابها. . .

هز رأسه وسألنا وهو يقترب:

- الأمور في نصابها. . . اتعرفون معنى نصابها؟

غمز بعينه وابتسم، ثم قال:

- بس رجاء لا تشكّلوا. . . خلوا الأمور على رسلها!

ابتسم باستغراب وسأل:

- اتعرفون معنى رسلها؟

وبعد قليل، وبطريقة مسكينة تماماً:

اذا اردتم الصراحة انا لا اعرف معنى رسلها، لكنها كلمة مثل آلاف نستعملها، فرجاء لا تؤاخذونا، واهل السماح ملاح، والله يجعلكم طيبين وسالمين!

وفجأة تغير هشام. جلس على الأرض، وضع رأسه بين يديه وغرق في الصمت. تبادلنا النظر وتساءلنا، ولم نستطع ان نقول او ان نفعل شيئاً، لكن حزناً كثيفاً خيم علينا. في لحظة ما قام حامد زيدان نحوه، وخاطبه بطريقة ابوية:

- هشام. . حبيبي هشام، لازم تتمدد وتستريح.

ما كاد يلمسه حتى انتبه وكأن عقرباً قرصة. قال له بحزم:

- ابتعد عني يا ايها الرجل الطاعن في السن، واياك ان تلمسني، فلا بد ان تكون المخابرات المركزية قد زودتك بكميات وفيرة من السموم القاتلة، وقالت لك: عندك مهمة واحدة: التخلص من هشام زينو، لأنه رجل خطر ويهدد مصالحنا في المنطقة. . .

وابتسم قليلاً، وأضاف:

- وربما قالوا لك انني خطر على العالم كله، خاصة المتحضر!

والتفت نحونا:

ـ الجواسيس كالحرباء. . .

تغير قليلاً، بدا محرجاً لكنه تابع :

ـ ارجـو ان تعذراني، فكلمة جواسيس جمع وحرباء مفردة، ولا ادري ايهما اصح ، ان تُجمع على حرباوات ام حرباءات؟

وهز رأسه بحكمة وجاء صوته عميقاً :

ـ حيّرونا اولاد الكلب : مدرسة البصرة ومدرسة الكوفة ؛ اهل المغرب واهل المشرق ؛ الأندلس وجماعة العدوة ؛ هكذا قالت العرب ؛ ويجوز فيها الوجهان ؛ وماذا ايضاً ، يا ايها السادة ، من مواد مخدرة؟

لأول مرة اقتحم هذا الجو المحموم ، قلت بحدة :

ـ كفى يا هشام ، وخلصنا من هذا الدور!

تطلع اليّ بتعجب شديد. هز رأسه عدة مرات ، وسألني :

ـ من اين تعرفني . . . ايها النمس؟

ولم ينتظر جوابي، التفت الى حامد زيدان وسأله :

ـ وهذا ايضاً من جماعتكم؟ يكتب تقارير ويتقاضى راتباً؟

قلت وانا اضحك :

ـ يا هشام : الدنيا بعدها بخير، واكبر خدمة تقدمها لنا ولنفسك ان تستريح .

رد بسخرية :

ـ انا مرتاح، ولكن لا يمكن ان أتخلى عن واجبي : يجب ان اراقب بعنـاية لكشف الجواسيس والعملاء ، ويجب ان اعرف الانتهازيين والمؤلفة قلوبهم ، وكذلك العرجان والبرصان ، والذين يعرفون من اين تؤكل الكتف؟

وضحك بصخب، وبعد ان هدأ سألني :

ـ اسألك سؤالاً محدداً وجوهرياً ، ولا اريد ان اسيء لأحد : هل في الكتف ما يؤكل؟ وهل هوما يسمونه لقمة الصياد؟

ابتسمت وقلت له :

ـ سوف نتحدث حول هذا الموضوع في الأيام التالية. المهم ان تستعيد صحتك، وان تكون قوياً.

رد بحدة:

ـ اسمع... انا من هذه الناحية حديد، اقوى من الحديد، لكني غير متفائل، اشعر اني حزين...

وبعد قليل:

ـ اتعرف معنى ان يكون الانسان حزيناً؟

وحين هززت رأسي انني اعرف قال بسخرية:

ـ ان كنت تدري فتلك مصيبة وان كنت لا تدري فالمصيبة اعظم

واضاف بلهجة مختلفة:

ـ من شكلك، وكلامك تبدو رجل حكمة ومهذباً، فهل اطمح بالتعرف عليك؟

وقبل ان اجيب اضاف:

ـ رجاء: الاسم، المهنة، المؤهلات، العمر، الحالة الاجتماعية، العلامات الفارقة، ولا مانع من ذكر الاسفار والهوايات، وايضاً، وهذا الزامي، قراءاتك. نعم الكتب التي تقرأها، لأن احد الحكماء قال: قل لي ماذاتقرأ اقل لك من انت؛ وانا في اطار العلاقات التي اقيمها مع الآخرين احرص على معرفة ادق التفاصيل، لكي اكون على بيّنة، ولا اترك لأحد فرصة خداعي، رغم ان هذا الاحتمال ضئيل جداً. وهكذا ترى انني رجل حصيف، بعيد النظر، شديد الحرص، وان كنت، بعض الأحيان، قليل التهذيب...

ولم يترك لي فرصة للاجابة، تابع بنفس الحمية:

ـ بعض الناس يستحقون الاحتقار، وآخرين الاحتقار الشديد، وبعضهم يجب ان يضرب بالحذاء، لأنهم مدّعون واغبياء وعديمو الموهبة، ولكنهم، مع ذلك يفرضون انفسهم ويجلسون على رأس المائدة! ربما نتيجة الوراثة او نتيجة خداع الآخرين، او لأنهم قساة لا يعرفون الحلال والحرام، ويمكن ان يفرطوا بأقرب

الأصدقاء، المهم بالنسبة لهم ان يبقوا على رأس المائدة. . .

وضحك، ثم سأل من جديد:

ـ لا اتذكر، هل اجبتني، ايها الرجل،عن الأسئلة التي طرحتها عليك؟

وحين ابتسمت وصمت، سأل من جديد:

ـ لا احب التفاصيل أبداً، اجب بلا او بنعم. .

وبعد قليل وقد تغيرت اللهجة:

ـ هل تحب نفسك كثيراً؟ كم من الوقت تقضي امام المرآة؟ اي الألوان تحب؟ اي الفصول المفضلة بالنسبة لك؟ والمرأة التي تحبها هل تنظر الى عينيها ام الى شيء آخر؟

وحين ابتسمت لغرابة الأسئلة قال بثقة:

ـ لقد كشفتك ايها النمس، انت تحب نفسك اكثر مما تحب الآخرين، لأنك تحب النظر الى سيقان المرأة اكثر مما تحب ان تعرف ما في قلبها، ولذلك ارشحك الى منصب في الخارجية، لأنك لا تصلح لوزارة غير هذه. . .

وضحك بصخب، واضاف:

ـ ولا تحاول ان تلجأ الى الواسطة، مالاً او جاهاً او معارف، فأنا صخر، جلمود، قاس، صدّاع، لا يمكن ان اتراجع عن قراراتي، ولا يمكن لأحد ان يؤثر عليّ. .

تغير تماماً، قال بجدية:

ـ لعلمك: وجهي لا يضحك للرغيف الساخن، وضميري يقظ وقلبي جامد، فلا تحاول!

التفتُ الى رضوان وحامد، وقلت بصوت خفيف:

ـ يجب ان نحاول شيئاً

حين دق حامد زيدان باب المهجع بقوة طالباًمجيء الحرس، كان العطيوي وراء الباب يتنصت، ربما من فترة طويلة، وخلال لحظات كان داخل المهجع ومعه عدد من رجال البادية بعصيهم. ما ان رآهم هشام حتى جلس في الزاوية وقد امتلأ

ذعراً، وبعد قليل اخذ يرتجف وتصطك اسنانه.

بعد ان تملى العطيوي المشهد كله تطلع الينا ليقرأ الآثار. قال له حامد:

ـ الرجل مريض ويحتاج الى علاج.

ـ مريض او متمارض؟

هكذا تساءل، وبعد قليل وبسخرية:

ـ يجوز الخوف هدّ ركبه..

وتوجه الى هشام بلهجة بدوية متكلفة:

ـ ها يا رِجّال، علامك؟ شنهو اللي دهاك، مضبوع ولاّ مسبوع؟

ظل الخوف في عيني هشام ولم يجبه. التفت الينا العطيوي وقال:

ـ هذا قضيته بسيطة. الأهم قضيتكم انتم، فماتقول يا ابن الخالدي؟

ـ اكدت لك ان لا علاقة لي ولا اعرف اي شيء.

ابتسم وهز رأسه بسخرية وقال:

ـ سبحان الله، كلكم تعيدون نفس الجواب مهماكان السؤال، وكأنكم راضعينه من حليب امهاتكم! وانت يا شيبة عندك ما تقوله؟

وانت يا شيبة عندك ما تقوله؟

ـ سلامتك

رد بحقد وسخرية:

ـ الله لا يسلّم فيك عظم، توقعنا الشوبة تجيب اجلك لكنكمثل الصل!

وهز رأسه عدة مرات وهو يتابع:

ـ الظاهر انك بحاجة لحفلة جديدة حتى يرتخي لسانك!

ودار دورة كاملة، وكانت عينا هشام تتابعانه بخوف، وسأل رضوان:

ـ وانت، يا قاطع الصحراء، هل تريد ان تعترف على شركائك والمتعاونين معك ام لا؟

ـ قلت لك اني المخطط والمنفذ والمسؤول الوحيد عن العملية.

ـ عفاريم، يعيش الأبطال الصناديد!

هكذا هتف ابو مهند، واضاف بلهجة تهديد:

ـ بسيطة، راح اعطيكم فرصة اضافية اليوم وبكرة لعّل الله يفتحها عليكم!

استدار يريد ان يغادر المهجع، فسأله حامد زيدان برجاء:

ـ والمريض؟ ما راح تعالجوه؟

رد باستعلاء وثقة:

ـ نحن الذين نقرر، وانت انتهى دورك بأنك ابلغتنا، ولم تعدلك علاقة..

وتغيرت اللهجة، اصبحت ساخرة:

ـ نعالجه.. نتركه يموت.. ينهبل.. ترتفع حرارته، هذا شغلنا، ولا يحق لأحد ان يتدخل بشؤون الادارة؛ والادارة تعالجه اليوم، بعد شهر، بعد سنة، هذا ما هو شغلك ولا علاقة لك به، واي كلمة زايدة او ناقصة، من أي واحد، يصير مثله، تسمعني؟

بعد ساعات من مغادرة العطيوي ظل هشام في ذات المكان، وظلت نظراته المذعورة ذاتها. حين نتقدم نحوه، في محاولة لوضع اليد على جبينه من أجل معرفة حرارته، كان يصاب بالفزع، وكانت عيناه بتوسل حزين، ترجوان ان لا نؤذيه. أما عندما جاءوا بالأكل فقد جاءوا لهشام بثلاث حبات من الاسبرين، وطلبوا، وبتأكيد، حسب توصيات المرض، ان يتناول الأولى بعد الأكل!

في وقت ما نام.

واذا كنا عازفين بالأمس عن اي كلام، وغير قادرين عليه ايضاً، فاننا الآن بمواجهة مشكلة لا يمكن ان تؤجل، ولا نعرف كيف نتصرف. قلت.

ـ انها الحمى، ولا بد ان تزول:

قال ابو مكرم، وكان شديد الحزن:

ـ اتمنى ان تقتصر على الحمى، لكن اخشى ان تكون اخطر من ذلك، لأن هذيان الحمى لا يكون بهذا الوعي المضاد، وبهذا الوضوح والحدة.

قال رضوان

- لو كنت اتصور ان هربي يمكن ان يقود الى هذه النتائج لما هربت . .

وبعد قليل وبحزن:

- ولا بد ان نفعل شيئاً من أجله. يجب ان يُعالج وبأقصى سرعة ممكنة.

تساءلت:

- واذا لم يستجيبوا ولم يفعلوا شيئاً؟

رد رضوان، وكان صوته حاداً:

- انا مستعد للاضراب، وحتى الموت!

ابتسم ابو مكرم ابتسامة خفيفة، لكن لم يرفع رأسه، وقال، دون ان يوجه الكلام لأحد:

- يجب ان نفكر بهدوء، وان نحاول دون استفزاز، فالمهم انقاذ هشام.

في وقت ما، ورغم مراقبتنا له، استيقظ دون ان ننتبه. تنصت الى ما كان يدور بيننا، وفجأة صرخ صرخةقوية مثل تلك التي يطلقها ممثلو السينما وهم يمثلون دور الأبطال، وقف فوق رؤوسنا، وقال:

- بالجرم المشهود قبضت عليكم متلبسين، فارفعوا ايديكم!

نظرنا اليه بتعاطف وحزن، لم يأبه، واصل:

- الجاسوس والمخبر، مهما حاول ان يخفي نفسه فان العين الثاقبة تميزه. ويجب ان تتأكدوا: عيني عين صقر، ومتى اضع العمامة تعرفوني يا خدم الأمبريالية والذين يصطادون في المياه العكرة، ويا من يحبون نساء غيرهم!

قال حامد زيدان برجاء:

- يا هشام لازم ترتاح، لازم تهدا. . .

وتغير صوته، وكأنه يكلم نفسه:

- ابو الحرارة وابو يومها.

وامسك بيد هشام يريد ان يجلسه الى جانبه، لكن هشام سحبها بقوة وشراسة، وقال وهو يتراجع الى الوراء:

ـ واستطيع ان اميز عيون اللصوص الصغار من اللصوص الكبار، والذين يسرقون في الليل عن الذين يسرقون في النهار. ولا بد ان تعرفوا: ان الله يوزع العقول والأرزاق كما يشاء، وذاك الذي رفع يديه وقال: «يا رب هذا حمار وله دابة وانا انسان وليس لي حمار» يجب ان يجلد، لأنه لم يراجع الله الا في وقت متأخر، اي بعد انتهاء الدوام الرسمي، وهذا خطأ، وانتم تدركون.

صرخ في وجهه رضوان لعله يعيده الى رشده:

ـ اقعد هشام احسن لك، والا كسرت رأسك، تسمعني؟

ضحك هشام بشكل هستيري، ولما هدأ:

ـ أرأيتم كيف يتطاولون على الجماهير، على الشعب؟ هل تؤمن بالدستور؟ اتحب الشاي بارداً؟

وحين وجدنا نتطلع اليه بتلك الطريقة فقد صرخ:

ـ اذا كنت لا تعرف الف باء التكنولوجيا فكيف تتوقع ان تقوم الثورة العالمية، وكيف يمكن ان تنتصر الطبقة العاملة؟

لم تنته هذه المناقشات الا حين جاء العشاء. اذ ما كاد يأتي جند البادية حتى لبد هشام، مثل قط، في نفس الزاوية التي جلس فيها حين جاء العطيوي صباحاً. حاولنا ان نقنعه بتناول العشاء معنا، بتناول جزء منه، لكنه رفض. أما حين حمل اليه ابو مكرم الصحن، فقد مدّ يده، لا شعورياً، والتقط بعض حبات الفاصولياء!

ظل كذلك وقتاً ثم قرر ان ينام. قال لنا بكثير من الود: «تصبحون على خير»، وغطى رأسه تماماً وراح في النوم. في وقت لاحق تأكدنا من نومه حين سمعنا تنفسه العميق، وفي بعض الأحيان، سمعنا شخيراً خفيفاً.

لم نتحدث، وان تبادلنا بعض التعليقات، وبصوت خفيض، لئلا يستيقظ، ونمنا!

في وقت ما، ولا يمكن ان احدد هذا الوقت، أيقظتنا صرخة، كانت مفاجئة وقوية: عقرب! عقرب!

حين نهضنا فزعين رأينا هشام وبيده حذاؤه. كان يتطلع الى الأرض بحذر وخوف، يتلفت في كل لحظة، وفي جميع الاتجاهات. تطلعنا، مثله، الى الأرض، الى الزوايا بشكل خاص، الى الجدران لم نر شيئاً. قلّبنا اطراف البطانيات، قلّبنا الأحذية، نفضناها، فعلنا ذلك مرة او اثنتين، وقد عاودنا الخوف فعلاً من وجودها، لم نجد شيئاً . تطلعنا الى هشام، كان يمشي على اطراف اصابعه، رافعاً الحذاء، وبين فترة واخرى يصرخ، وباشكال متعددة عقرب.

بعد ان بحثنا طويلاً، ولم نجد شيئاً، جلسنا، الواحد بعد الآخر، على الفراش. كان لا يزال يدور ويبحث ويحذّر. حين التفت ورآنا جالسين، تطلع الينا باستغراب، والحذاء مرفوع بيده، وقال بتهديد:

- الآن تأكدت انكم جواسيس. . .

وصرخ بشكل مفاجىء وقوي:

- انهضوا ايها النيام، ايها الساهون اللاهون الساقطون المنهارون الأغبياء!

تطلع اليه كل واحد منا بطريقة معينة، لكنها جميعها كانت نظرات اشفاق وحزن، تابع دون ان يهتم لنظراتنا:

- العقارب تسرح وتمرح، تملأ الخراب والعمار، والناس لا يدرون! تباً لكم من قوم تحملون موتكم على اكتافكم بمباهاة الملوك والحواة وبائعي اوراق اليانصيب. . .

نفض رأسه بحزن ويأس واضاف:

- كم نبهت قومي، كم قلت لهم، لكن لا حياة لمن تنادي! تنابل، سرسرية، طرشان، عميان. . وقليلي الحياء. انظروا كيف يعاملون نساءهم، كيف يعاملون الرجال المسنين! لقد اضاعوني واي فتى اضاعوا! قلت لهم البحر وراءكم والعدو امامكم؛ قلت لهم الحياة والموت وجهان لعملة واحدة، او رغيف خبز. قالوا لي الأحذية تبقى بعد البشر، وتبقى الطرابيش والفؤوس. انظروا. . .

وصرخ فجأة:

- انهضوا بسرعة: عقرب

وقفنا فزعين، تقدم بخطوات محاذرة وضرب الأرض عند قدم حامد، وضرب

مرة ثانية بقوة، وبصق ثم تركنا وذهب الى الزاوية. انزل سرواله، اخرج عضوه، وقال بصوت خافت:

- يجب ان تبول في الأمكنة المناسبة!

تطلع الينا وهزه باتجاهنا، وقال يخاطبنا ويخاطبه:

- هؤلاء الأوباش لا يعرفون كيف يقتلون العقارب، فهل تستطيع انت؟ انا اثق بك واعتمد عليك، فماذا تقول؟

وبال حيث كان، على الجدران، على الأرض، ولو استطاع لوصل الينا. قال له ابو مكرم:

- يا هشام يا حبيبنا ونور عيونا، لو تستريح، لو تأخذ لك غفوة!

رد بحدة:

- وهل يمكن ان يطبق لي جفن والثورة العالمية لم تكتمل؟ اتريدني ان اكون خائناً...

وبعد لحظة وهو يقترب، ولا زال سرواله مرخياً:

- لم اتعرف على الأخ من يكون ومن اين اتى. فالرجاء ان تعّرف نفسك!

صرخ رضوان بحدة:

- استحِ يا حيوان، ارفع لباسك، وخليك آدمي، والا...

هجم عليه بقوة وهو يرفع حذاءه ويصرخ:

- الجواسيس والعقارب لا يمكن ان يخفوا انفسهم، الله كم هم مكشوفون، ويحتاجون الى ختم..

وحاول ان يضرب رضوان بحذائه على الجبين. امسك رضوان يده، لواها، وانزله الى الأرض. حين اصبح تحته قال له بغيظ:

- لك نام وخل الناس يناموا، لا تظل حيوان تبعبع، تسمعني؟

قال ابو مكرم بأسى:

- طول بالك يا رضوان، لأن الزلمة خالص!

بصعوبة اعدناه الى فراشه. قلنا لبعضنا: لا بد من ان ينام، وان يبقى واحداً منا حارساً!

ثلاثة ايام وثلاث ليالٍ لا يمكن لاحد ان يعيش مثلها!

في اليوم الرابع وصل الى العفير حمدان فرج، والد رضوان.

ربما نقل اليه احد خبر هرب رضوان، او جاء بزيارة بعد ان منع نفسه فترة طويلة. وربما ايضاً بالاتفاق مع السلطة.

قضى معنا بضع ساعات، من الضحى الى ما بعد الظهر. كان العطيـوي مرافقاً وانيساً وناصحاً. وبعد ان سمع ورأى، وبعد ان اختلى برضوان وقتاً طويلاً، خرج بنتيجة مناسبة: سوف يصطحب معه، في سيارته، وبمرافقة قوة من البادية، هشام، لأن الطبيب الذي كان في زيارة للعفير ايضاً قرر ان المريض يحتاج الى معالجة سريعة . اما رضوان، وكما قال ابوه، وعلى مسمع من السجناء الأخرين، «فانـه يحتاج الى فركة اذن والى تأديب، حتى يعرف اللي يصير واللي ما يصير».

لا استطيع ان استعيد تلك الفترة دون ان اشعر بحزن كاوٍ، بلوعة لا يمكن لاحد ان يتذوق مثلها. كانت اياماً شديدة الكآبة وبالغة الصعوبة، وكان الانسان عاجزاً عن عمل أي شيء!

بدا هشام زينو في حالة من الاستسلام وهو يقاد الى سيارة حمدان فرج. تطلع الى الوجوه والأمكنة، تطلع الينا واحداً واحداً، ولم يقل اية كلمة. أما وهو يتجه نحو السيارة، وقبل ان يصل الأسلاك الشائكة، فقد هجم على شجرة الكينا. انـدفع نحوها كما يندفع عاشق. احتضنها، قبّلها، احتك بها، تماماً كما تفعل الحيوانات. حاول ان يجلس تحتها، لكن الأصوات التي نهرته جعلته يتوقف. امتثل لما يريدون. كانت عيناه الكبيرتان مثل سراجين، وكانت تطفحان بالشوق والرغبة في ان يبقى هنا، ان يبقى معنا!

أما حين دُفع من هناك باتجاه السيارة، فقد تطلع الى كل شيء، ثم فجأة اخذ يدوس الأرض بقوة وهو يصرخ:

- انتبهوا. احذروا. انها العقارب!

وحين دفع الى السيارة، في المقعد الخلفي، فقد جلس الى جانبه، من كل

ناحية، جندي من جنود البادية. وجلس حمدان فرج الى جانب السائق. وتبعت تلك السيارة احدى سيارات الجيب التابعة لقوة البادية.

شعرنا، والسيارة تنطلق، ان هماً قد سقط عن اكتافنا، أما والسيارات تبتعد، والغبار يتطاير، فقد شعرنا اننا فقدنا الكثير. نظرت الى حامد زيدان فرأيته يبكي، اما انا فقد ارتميت على الفراش وصرخت:

- الى متى، نعم الى متى؟

مرت الأيام تبعتها الأسابيع، بدأنا نتعود من جديد على سجن العفير، ونصبح جزءاً منه، واستطعنا بأساليب لا حصر لها، ان نقيم علاقات، لا اقول جيدة، وانما اذاها اقل من السابق، مع جند البادية؛ كنا نرشيهم بالسجائر، بالنقود، بتقديم بعض الخدمات، ولذلك اخذوا يتساهلون في تنفيذ التعليمات، ويغضون النظر عن بعض الواجبات التي كنا نُطالب بها في البداية. وسالم العطيوي، الذي يتظاهر انه لا يعرف ولا يرى، حين يقّدر ان الاسترخاء وصل حداً يجب ان لا يتجاوزه، او حين يُبلّغ بقرب وصول هيئة من هيئات التفتيش، او التحقيق، فانه يعود بسرعة إلى سيرته الأولى، ويبالغ كثيراً في ذلك: عمليات تفتيش وعقوبات جماعية، اضافة الى السخرة، والعمل الذي يحتاج بضعة ايام لكي ينجز يجب انجازه في ساعات واقصى حد خلال يوم واحد. كان يقول، وهو يهز العصا:

- هذا الشغل لازم اليوم ينتهي، اما كيف فدبروا روسكم، واصلوا الليل بالنهار، مددوا اليوم حتى يصير اكثر من اربع وعشرين ساعة، استأجروا فعلة على حسابكم، المهم: الشغل لازم يخلص، وانا غير مستعد لقبول اية حجة، سامعين؟

ونواصل العمل في بناء السور، احدى المرات، مع اضواء الفجر الأولى! ولكي ننتهي من تنظيف الساحة نضطر لمواصلة العمل حتى ساعة متأخرة من الليل. وصدف اكثر من مرة ان استمر العمل فترة تزيد على ثلاثين ساعة، لم نتوقف خلالها الا لتناول الطعام!

ورغم اننا بذلنا جهوداً غير محدودة من أجل تنظيم حياتنا الداخلية، والاستفادة من الوقت، سواء بوضع برامج تعليمية وتدريس اللغات، او الاهتمام

بالحديقة لتأمين بعض المحاصيل، كما بذلنا جهداً لتوفير بعض الكتب، لكن اياً من هذه الخطط لم يدم الا فترات قصيرة، اذ ما نكاد نصل الى ترتيب اولي حتى يقلبه العطيوي فوق رؤوسنا. اكثر من ذلك كان الانفار، في اغلب الأحيان، ولأسباب طارئة او غامضة، يثُارون اذا رأوا احداً منا يقرأ كتاباً، وصدف عدة مرات ان صادروا الكتب، ولم يتردد واحد او اثنان في تمزيق عدد منها.

لا اعرف متى دخل الربيع وكيف انتهى، لأننا انتقلنا فجأة من الشتاء القاسي الى الصيف الأكثر قسوة. وما كنا نهرب منه في الأيام الباردة اصبحنا نحّن اليه في ايام الصيف الملتهبة، والمليئة بالمشقة والغباروالذباب. كنا نحاول ان نسرق الهواء من السماء بكل الوسائل: نبدل ملابسنا لعلها تولد شيئاً من الرطوبة، نجلس في الممر لعّل الهواء يمّر من هناك. أما اذا دخل الليل ودخلنا الى المهاجع واغلقت الأبواب فكنا نصل الى حد الاختناق. كان النوم لا يقترب من اجفاننا الا في اواخر الليل، وبعد ان تنهك قوانا ونسقط في حالة من الخدر تقودنا الى غفوات قصيرة، بالغة القسوة والاضطراب.

بعد ان بلغت الحرارة حداً لا يطاق، ولم نعد نستطيع النوم ما دامت البوابة مغلقة، لم نجد حلاً الا ان نخترع مروحة من المواد التي بين ايدينا، وهكذا ربطنا حبلاً وضعنا في وسطه بطانية، وادخلنا فيها عصا، وربطنا العصى بحبل آخر، واصبحت هذه المروحة لا تتوقف عن الحركة. كنانتناوب على شد الحبل، خاصة في الليل، لننتزع من الطبيعة المعادية حركة او نسمة، لا تزيد عن قبضة من الهواء الذي اخطأ ووصل الينا!

وحتى هذه «الاختراعات» البدائية الفقيرة كنا نحرم منها في بعض الأحيان. لما رأى العطيوي اول مروحة اقمناها نظر اليها بامعان، ونظر الينا، هز رأسه، ابتسم وقال:

ـ الظاهر انكم تعودتم على الرفاه. . .

وبعد قليل وهو يجر المروحة ليختبرها:

ـ وباكر طالبونا بماء بارد، وبعدهيجوز تطالبون بثلاجة وكنديشين.

قال الكلمة الأخيرة على طريقة البدو، ولأنه لمح ابتسامة، او لمزيد من السخرية تساءل:

- ما هو اسمه كذا او اناغلطان؟

وحين صمتنا جر الحبل بقوة فاطاح بالمروحة. وتغير وجهه ونبرته:

- تريدون خلق المشاكل لأنفسكم ولنا، يا اولاد الحرام، ها؟

واضاف بمزيج من القسوة والسخرية:

- حبال.. ها؟

بعد ان سقطت المروحة ظل الحبل في يده، شده ليختبر قوته، لما وجده قوياً قال بلهجة رضية، اقرب الى الجد:

- هالحبل، يا اولاد الكلب، يشنق بعير، يعّلق ثور

وتغيرت اللهجة قليلاً، شابتها السخرية:

- واذا واحد منكم شنق نفسه، او شنق غيره، من هو المسؤول، وشلون راح نخلص؟

وتغيرت اللهجة مرة اخرى:

- ونبلش معكم بكرة: تحقيقات وسؤال وجواب، ومن هو المسؤول؟ وين كنتم؟ وهذي الحبال كيف دخلت الى المهاجع؟ ويقولون، وما عندنا جواب: كنتم نايمين؟ كنتم ساهين؟

وشد الحبل الى اقصى حد، مزق البطانية من خلال استخراج العصا، سأل دون ان ينتظر او يتوقع الجواب:

- بعد اليوم اذا دخل حبل الى مهجع راح اشنق اللي يدخله، تسمعوني؟

وينتهي تموز ويليه آب. واذا كانت الحرارة في تموز قاسية فانها في آب كاوية ولا يمكن لأحد ان يتحملها، ان يتآلف معها. فقد هجم هذا الشهر كما تهجم الوحوش الكاسرة. ونحاول ان نراوغ، ان نحتال على الحرارة، فنقيم مروحة اخرى، يراها الجنود لكنهم يصمتون، يتظاهرون انهم لم يروا شيئاً، لأن العرق الذي يزّخهم وهم تحت بيت الشعر، او في ظل شجرة الكينا، والذي يصاحبهم في الليل، رغم انهم ينامون في العراء، تحت السماء مباشرة، وأغلب الأحيان فوق الأسطح، يجعلهم يقدرون الصعوبات التي نكابدها في الليل وفي النهار، ولذلك يتغاضون،

يتساهلون، ونبدأ نعد أيام آب القاسية كما يعد التلميذ ايام العطلة، او كما يعد العريس الأيام الباقية للعرس، فنقول لانفسنا، في محاولة لتفسير جنون الطبيعة:

العشرة الأولى من آب اللهاب تحرق المسمار في الباب، والعشرة الثانية تنضج التمر والأعناب، والعشرة الأخيرة تفتح على الشتاء باب. وننتظر الأيام العشرة الأخيرة من هذا الشهر الملعون ان تأتي، وقبل ان تصل تذبل الزهور التي حاولنا، بكل الوسائل، ان نبقيها حية كرمز اخير للمقاومة. وبصعوبة وببطء السلحفاة يزحف آب يوماً في اثر يوم، لكنه بكل تأكيد اطول كل الشهور، حتى اذا انتهى ولم ينفتح للشتاء أي باب، اية نسمة، نقول ان شيئاً ما قد تغير، وحين ندور كالحيوانات المربوطة، يقول حامد زيدان بدعابة ليخفف عنا:

- آب لم ينته، يا شباب، لأن آب الفلاحين غير آب الأفندية!

يبتسم ويضيف كعالم:

- ان الفلاحين في بلادنا يصدقون انفسهم اكثر مما يصدقون الكتب، وهم يعتبرون ان حسابهم للشهور ادق من التقاويم، ولذلك اطلب منكم ان تنتظروا اسبوعين، وبعدها نتحدث!

وظل العفير قاسياً ثقيلاً، فلما انتصف ايلول لانت السماء وهدأت الشمس، واصبحت الأماسي اكثر رحمة، كما اخذت تتدفق انسام جديدة من الهواء: زرقاء، وخضراء ومزيج من اللونين، ثم جاءت الرطوبة، خاصة بعد ان تنكسر الشمس وتتوارى، واصبحت الليالي خفيفة وشديدة الخصوبة.

قال حامد زيدان يحذرنا في اواخر شهر ايلول:

- انتبهوا، يا شباب، لبرد آخر الليل، لأن البرد صار يغدر!

ضحك، وكأنه تذكر شيئاً، واضاف بعد قليل:

- في مرة سابقة، في العفير، وكنت بعمركم، وكان آب اللهاب يخيم كحجر الرحى فوق رؤوسنا، اجتهدت: رششت البطانية بالماء، وغطيت نفسي بها. وفي الصباح التالي احسست ان الرطوبة مست عظامي، ورغم ذلك لم امرض في تلك الفترة، لكن مرّ يوم قاس في ايلول ففعلت ذات الشيء، وقبل ان يصبح الصباح شعرت اني وقعت، وان الرطوبة تمكنت من عظامي، ولم يقو جسدي على التحمل،

وقال لي شيخ بدوي حُبس معنا: برد الشتا توقّه وبرد الصيف تلقّه، وحنا في اول الشتاء! وقد اعطاني ذلك الشيخ ادوية استطاعت ان تجعلني معكم الآن.

ابتسم حامد زيدان وقال كأنه يخاطب نفسه:

ـ على الانسان ان يتعامل مع الطقس بطريقة حكيمة!

وجاء الشتاء او لم يجيء، لأن تلك السنة اختلطت حتى على رجال البادية. فبعد ان انتهت التشارين، وبدأ كانون ولم يصل المطر، فقد نظروا الى السماء، وقالوا، لأنفسهم، لكننا سمعنا: «تشرين وتشرين، وهذا كانون، ولا قطرة؟» وحاولوا ان يؤملوا، لكن بعضهم لم يتمالك نفسه، قال واحد منهم:

ـ الله اذا غضب على البشر فمعنى ذلك ان البشر فسقوا!

وبعد قليل وكأنه يكلم نفسه:

ـ طبيعي اذا الظلم بلش يطال الزرع والضرع، لكن اساسه البشر!

ورغم ان الجنود بدأوايتحسبون لانقطاع المطر، فقد اصبح سلوكهم مضطرباً وشديد الغرابة: مزيج من الطيبة والقسوة، او كانت هاتان الصفتان تتناوبان بشكل غير طبيعي وتؤثر على سلوكهم وتصرفاتهم، فمرة يبالغون في التساهل، واخرى يسرفون في القسوة لدرجة التحدي والاستفزاز، الأمر الذي جعلنا نحار في كيفية التعامل معهم، وقد اضطررنا ازاء هذه الحالة ان نعطيهم ارقاماً بدل اسمائهم، وبمجرد ان يميز واحد منا وضع جندي من جنود البادية حتى يهمس: ٨ شعيرة، و ٥ قمحة! ونحاول ان نتصرف بما يلائم ذلك الوضع!

في منتصف كانون الثاني طُلب الينا، بشكل مفاجىء، ان نستعد. وطلبٌ من هذا النوع يحتمل الكثير من التوقعات: تفتيش المهاجع، اعمال سخرة خارج السجن، اضافة الى احتمال تحقيق جديد نتيجة ظهور وقائع لم تكن معروفة قبل القبض على مجموعة جديدة!

جاءنا سالم العطيوي. تطلع الينا بامعان وهز رأسه عدة مرات قبل ان يتكلم:

ـ لازم تعرفوا: الله سبحانه وتعالى نجّاكم هذه المرة، الله وضع الرحمة في قلبي وقال لي: ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء، ولهذا السبب مثل ماستلمناكم

راح نرجعكم، بدون نقص، راس براس . . .

استراح قليلاً وتابع بلهجة حازمة!

ـ لكن لازم يكون ببالكم: اللي يصل منكم، مرة ثانية، للعفير، مـا راح يخلص، ما راح يرجع سالم، اللي ما يروح حريق يروح غريق، والله يستر!

كان ، وهو يخطب، يتطلع الى وجوهنا، وكان يقرأ مدى تأثير كلماته، وفي لحظة اكتشف حامد زيدان، وتذكر انـه زار العفير اكـثر من مرة، فقـال بما يشبـه المداعبة :

ـ وانت الله خلصك يا شيبة الخرا، ولو تذكرتك، او لو ما غبت عن فكري، لكنت اليوم تحت التراب، لكن بسيطة، صرت شايب وايامك معدودة، وان تندفن بمكان ثاني احسن ما توسخ الفلا اللي عايشين فيها، فـاذهب اليوم فـانت عتيق، لكن ابد لا تخليني اشوف وجهك، تسمعني؟

هز حامد زيدان رأسه دلالة الموافقة وابتسم!

ولم يطل الأمر حتى وصلت السيارات، وبدأنا نتحرك تجاهها. كانت السماء ملبدة بالغيوم، والرطوبة تملأ الجو، وما كدنا نُوَزع عليها ونأخذ امكنتنا فيها حتى بدأ المطر، ضربني احد الجنود بعقب بندقيته وقال بحقد:

ـ درب ياخذ ما يرد

وبعد قليل:

ـ خلصنا منكم يا وجوه النحس

وأُخذنا الى سجن «القليعة»!

وصلنا القليعة عند اول المساء!

كان الطريق الى هناك شديد الوعورة، وفي اغلب الأماكن ضيقاً، وجاءت سيول الخريف، ثم اول الشتاء، لتخرب اجزاء عديدة منه، الأمر الذي اضطرهم لانـزالنا بضـع مرات لـدفع السيـارات، لوضـع الحجارة او الـواح الخشب تحت عجلاتها، لتقوى على اجتياز الحفر الكبيرة، او لمنعها من الانزلاق.

لما وصلنا وُفتحت البوابة لدخولنا، وبعد ان القى آمر السجن نظرة، واكتشف كثرتنا، قال ببرود يوازي برودة الجو المحيط بنا:

ـ الاستلام والتسليم صباحاً!

وحرك يده بطريقة قاطعة، ان لا مجال لأية مناقشة. تطلع الينا مرة اخرى وقال بسخرية:

ـ بارك الله وما شاء الله، كأنهم قطيع ماعز!

كانت ثيابنا واجسادنا ملطخة بالوحل، نتيجة العمل الشاق الذي أُجبرنا عليه في الطريق، وكانت وجوهنا متعبة، لا تكاد تبين في الأضواء التي وُزعت في عدة انحاء من الباحة الأمامية، لكن الضباب والرطوبة امتصا جزءاً كبيراً من نورها، فبدت وكأنها تضيء نفسها اكثر مما تضيء للآخرين.

حاول مسؤول الحراسة الذي جاء بنا الى هنا ان ينتهي من هذه المهمة، لكن آمر السجن كان قاطعاً وحازماً في رفضه:

ـ يظلون بعهدتكم الى الصباح، والصباح رباح!

واضاف بعد قليل في صيغة توضيح أخير:

ـ واولها وتاليها انتم نايمين هنا، لأن عودتكم بالليل مستحيلة في مثل هذا الجو.

رد مسؤول الحراسة بطريقة توحي انه يوافق اذا تلقى مقابلاً:

ـ اذا اصريتم على العشا مع كاس عرق فعلى خيرة الله!

ـ حلّت البركة. .

هكذا رد آمر السجن، وبعد قليل، وبلهجة مرحة:

ـ يا شيخ احنا ندّور على واحد يسكر معنا!

وضحك . . . وهو يضيف:

ـ نريد نشوف البشر ونسمع الأخبار، ونتزود بِكَم نكتة مونة لهذا الشتاء الطويل!

وهكذا ، بعد ان تم الاتفاق على بقاء مجموعة الحراسة، استوضح قائد المفرزة عن المكان الذي يمكن ان «تُخزن فيه البضاعة الى الصباح»، هكذا قال، واقترب اكثر من آمر السجن، وهمس في اذنه بضع كلمات، لم نستطع ان نقدرها، لكن تأكدنا منها بعد ان فُتح لنا عنبر في الجهة الشمالية ودفعنا اليه! اذ لا بد ان سأله عن طعام لنا، خاصة واننا لم نتناول شيئاً منذ الصباح، فكان الجواب هزة رأس نافية ونهائية. أما حين اصبحنا داخل العنبر فقد قال احد الجنود الذين رافقونا:

ـ ما لكم هاسّع الا تسوّا مثل الغنم ايام المربعانية، تنفّخون بوجوه بعضكم الى ان تدفوا!

وحين جاءه صوت مّن وسط المجموعة:

ـ والأكل؟ ما راح تعشونا؟

رد وهو يضحك:

ـ الأحسن كلوا هوا وناموا!

واغلقت البوابة باحكام ومضوا.

كان العنبر مليئاً برائحة الدواب والرطوبة، وفيه بقية تبن واعلاف، وكان

مظلماً ايضاً. بصعوبة بالغة، على ضوءاعواد الثقاب، ثم وجدنا شمعة عند طرف افريز، قرب الباب، رتبنا امر منامتنا على ضوئها. بعد ذلك بدأنا نفكر ونواجه العدوين الآخرين: البرد والجوع، وقد كانا متلازمين ويحرض احدهما الأخر، اذ ما كدنا نرتمي على البطانيات التي فردناها، في محاولة للنوم، حتى بدأت امعاؤنا تقرقر، خاصة وقد اخذت تتناهى الى اسماعنا اصوات إعداد الطعام في الباحة الخارجية، ومعها الحركة النشيطة التي دبت في انحاء عديدة، وكانت تصلنا ايضاً اصوات السمر ورائحة اللحم الذي يشوى!

خلال الفترة الأولى حاولنا ان نتغلب على الغيظ باطلاق النكات، بالمزاح، ولم نتردد في اطلاق الشتائم، لكن اياً من هذه الوسائل لم تنسنا الجوع، ولم تخفف من البرد، الى ان بدأ كل واحد منا يواجه هذين الخصمين بطريقته الخاصة، حتى غرقنا بالنوم.

في اليوم التالي، مع اول اضواء النهار، بدأت الأجساد تتململ، وربما حرضها الجوع، الى ان استيقظ الجميع، لكن لم يغادر اي منا فراشه، وان تبادلنا النظرات والابتسامات. أما ونحن نجيل ابصارنا في المكان فقد تأكدنا ان العنبر مربط للدواب، من خلال الحلقات المثبتة بالحائط، ولوجود بعض السروج في احدى الزوايا؛ اضافة الى ان رؤية التبن والاعلاف يزيد رائحتها، ويعطي المكان قوامه الحقيقي والغرض الذي اعدّ له!

تركونا فترة طويلة قبل ان يفتحوا البوابة ويطلبوا منا الاصطفاف في الساحة، تمهيداً لاجراء عملية التسلم. كان البرد شديداً، ويزيده الجوع شدة، فقد مضى اكثر من اربع وعشرين ساعة لم نتناول خلالها شيئاً، وكانت ملابسنا رقيقة لا تتلاءم وهذا الطقس.

أما حين وصل الآمران، ومعهما مجموعة الحراسة وقسم الاستلام في السجن، فكان الوقت تجاوز الضحى، وكان مطر خفيف يتساقط، مما جعلهم يأمرون بنقلنا الى باحة داخلية مسقوفة. ولأن مدحت عثمان، آمر السجن الحالي، وقد استلم بعد عملية الهرب التي جرت من سجن القليعة جاء لكي يضبط الأمور ويفرض نظاماً حديدياً، لذلك رفض استلام السجناء بقائمة واحدة، وبالعدد، واصّر على ان تنظم استمارة استلام لكل واحد على انفراد، مشترطاً ان تتضمن الاستمارة بعض

التفاصيل، كالطول، ولون الشعر والعلامات الفارقة، ان وجدت. وهذا ما اقتضى نقلنا الى المكان المسقوف، لكي يتمكن كاتب السجن، أنور نور الدين، ان يدّون المعلومات اللازمة!

كان مدحت عثمان وهو يستلمنا يشبه تاجر الخيول: ينظر الى كل واحد بتدقيق وامعان، ليتأكد من الأوصاف ثم يمليها على انور نور الدين. وكان يحاول اكتشاف العلامات الفارقة، اذا لم تلتقطها العين مباشرة، اذ يطلب من كل واحد ان يستدير، ان يتمشى، لعله يكتشف او يلتقط فيه ما يميزه عن الآخرين، فان لم يجد يطلب من كاتبه وتخرج الكلمات من بين اسنانه بغيظ ان يدون: «بلا وسم»!

عند الظهر انتهت عملية الاستلام. قال لنا بطريقة خطابية فخمة:

- سجن القليعه لا يُشبّه، ولا يوصف، وان تروا باعينكم خيراً من ان تسمعوا مني...

اطربته هذه البداية، ابتسم وتطلع الى المسؤول الذي سلمنا، وتابع، بعد ان تنحنح:

- الداخل اليه مفقود والخارج منه مولود، فاذا كنتم تريدون ان تخرجوا فالأمر سهل: النظام.

ومن لا يريد الخروج فالأمر سهل: ان يخالف النظام. وكما قلت، واؤكد مرة ثانية: ان تروا خيراً من ان تسمعوا!

لم نكن نحتاج الى خطب، فقد هدّنا البرد والجوع، ثم جاءتعب الوقوف. كنا نريد ان ننتهي بسرعة، وبعدها يمكن ان ندبّر امورنا، لكنه، وكجزء من الديباحة التي تعود عليها، طلب من كاتبه ان ينادي على كل واحد منا، وبعد ان يتقدم الذي يُنادى عليه، بطريقة عسكرية، اذ يترك مكانهويتقدم خطوة الى امام، يسأله ثلاثة اسئلة ولا بد ان يجيبه نفس الاجابات:

١ - اتعرف اين انت؟ فيجيبه: في سجن القليعة، سيدي!

٢ - اتعرف من الذي يخاطبك؟ فيجيب: النقيب مدحت عثمان، آمر سجن القليعة، سيدي!

٣ ـ افهمت ما قلته؟ فيجيب: نعم، سيدي!

كنا، خلال ذلك، نريد فقط الذهاب الى المراحيض، وقد عبّر حامد زيدان بلساننا جميعاً حين قال، وخرج صوته مازحاً:

ـ يا سيادة النقيب، اذا كان عندكم تعليمات اضافية فيمكن تأجيلها، لأنني عايز اطيّر مي!

ابتسم مدحت عثمان لهذا التعبير، لكنه زمّ شفتيه بسرعة لئلا يوحي بالتساهل، وقال:

ـ الظاهر ان الاختيارية ظهرهم محلول، فاركض قبل ما تعملها تحتك!

ابتسم الجنود وشاركناهم، الأمر الذي جعل النقيب يمنحنا فترة تنفس ننقل خلالها الى المهاجع، وانسحب بعد ان اعطى تعليماته الى خليل خيرو بتوزيعنا الى ثلاثة مهاجع حددها له.

بعد ان اصبحنا نزلاء رسميين بدأنا نتعرف على سجن القليعة:

يقع على قمة جبل من اعلى جبال السلسلة الشمالية لعمورية. كان يوماً ما حصناً مطلاً على طريق القوافل، لكن بمرور الوقت، ونتيجة تقلبات ارضية وتغير طرق التجارة هُجر، ثم تهدمت اجزاء عديدة منه، وفي وقت لاحق رمّم اميرمتمرد، انفصل عن الحكومة المركزية واستقل، القسم الشرقي من الحصن واتخذه مقراً، الا ان السلطة لم تدم له طويلاً اذ غدر به احد اقربائه، وقيل انه القى به من الحصن الى الجرف الشرقي الحاد، وما ان وصل الوادي، وكان يسمى وادي الموت، حتى اصبح مجموعة من الأشلاء الممزقة والمعجونة!

وحكم وريثه الحصن الى ان فتك به حرس الأمير السابق، بعد اقل من سنة، والقوا به من نفس المكان والى نفس الوادي! ودب الخلاف بين الذين جاءوا من بعده، وقيل بتحريض من الحكومة المركزية الى ان تمت استعادة الحصن، وقام الجنود المنتصرون بتهديم السورالشمالي وعدد كبير من غرفه، بعد ان حملوا ما يستطيعون حمله.

بعد عدة عقود تحول الحصن الى وكر لعصابة خطيرة كانت تقطع الطريق وتداهم القرىلتتقاضى الاتاوات من الأغنياء.

وظلت تتناوب على الحصن عصابة بعد اخرى، وكانت العصابات الأخيرة

تناوىء السلطة وتحتمي بالحصن اكثر مما كانت تقطع الطرق او تداهم القرى؛ وظل الأمر كذلك الى ان جاء الاستقلال، فاودع في الحصن عدد من الأشقياء الذين تعاونوا مع الأجنبي، ولم يستطيعوا ان يسافروا معه، او فضلوا البقاء في الوطن! وما كادت بضع سنوات تنقضي حتى صدر عفو بيّض السجون كلها، بما فيها سجن القليعة، فهُجر من جديد وامّحى ذكره من الأذهان، ولم يعد يرد اسمه الا على السنة المسنين، حين يذكرون بعض الاشقياء الذين دوّخوا عموريه في سنوات قديمة، ثم غابوا الى الأبد. ويُذكر الحصن ايضاً اذا ذكرت الحصون. واذا ذُكر الغدر يُذكر. أما اذا جرى الحديث عن البرودة فان الكثيرين يقولون ان مياه الشلالات هنا تتجمد طوال شهور الشتاء وبعض شهور الربيع!

هكذا لخص لنا عدد من الذين سبقونا تاريخ الحصن، مع تحويرات واضافات تتفاوت من واحد لآخر. وكان السجناء القدامى يطلبون من الذين يصلون حديثاً ان يرفعوا ايديهم الى السماء، وان يتوجهوا الى الله بالدعاء، لعله يستجيب ويفك اسر الجميع! وفي محاولة لاقناعهم يؤكدون بثقة متناهية، وبقناعة لا تقبل الشك: «هنا اعلى مكان في عمورية كلها، واذا كان الله يحب عمورية ويحب ناسها، فمن هذا المكان يمكن ان يسمع، لأنه اقرب الأماكن الى السماء، ولأن المظلومين هم الذين يتوجهون اليه بالدعاء»!

أما القصص التي تروى عن السجن في سنواته الأخيرة، وقد رواها من شهدها او سمعها ممن لهم صلة بها، فهي كثيرة، ويختلط فيها الخيال بالرغبة، الواقع بما اضيفت اليه من تفاصيل للادهاش والدلالة على الشجاعة والتحمل، ثم ما تبع ذلك من تحدٍ وقسوةوآلام لم ينج منها أحد.

من هذه القصص ما وقع لسامي ايوب!

وقصة سامي ايوب متعددة الجوانب والمراحل، واذ يعرفها الكثيرون في عمورية، فان اغلب ما يُروى منها جانب او مرحلة من المراحل. يرويها نزلاء سجن القليعة بطريقة تختلف عن الناس خارجه، ويرويها الذين لا يعرفون عنه الا القليل بطريقة مغايرة عمن يعرفونه او الذين لهم به صلة. وحتى هؤلاء، خاصة من يعتقل منهم، وتتوفر وقائع عديدة لادانتهم، كانوا ينسبون الكثير من الوقائع والمهمات، وحتى الحاجات، لسامي، باعتباره غائباً، ولا يمكن للسلطة ان تصله او تقبض

عليه، ولذلك كانت اغلب الخيوطوالوقـائع تنتهي عنـده، ولا يمكن للمحقق ان يواصل طريقه بعد ذلك!

لم تمض ايام على وصولنا الى سجن القليعة حتى أُمرنا ان نتجمع في الباحة، او بالأحرى جُمعنا كما تجمع الغنم. وجاء آمر السجن مدحت عثمان، وكان الى جانبه، على مسافة قصيرة منه، انور نور الدين. أما الجنود فكانوا على مسافة ابعد

حدّق بعينين فيهما حمرة واضحة، ربما من السهر والسكر، الى كل واحد منا، والتفت الى كاتبه، وبنظرة، دون كلمات، فتح الكاتب السجل وبدأ يقرأ اسماءنا، ومثلما طُلب منا اول مرة حين نودي علينا، يجب على من يسمع اسمه ان يتقدم خطوة الى الأمام.

كان يتمعن بكل واحد، يقرأه، وبعد ان ينتهي ينقر بعصاه على الطاولة بجانبه طالباً ان يُنادي على الاسم الذي يليه، وبصوت حاد، يقع تماماً بين صوت المرأة والرجل، ينادي انور على الاسم، وهكذا الى ان اصبح طابورنا كله متقدماً خطوة، وحين نقر مدحت عثمان نقرة اضافية جاءه صوت انور الحاد:

ـ التعداد تمام، سيدي!

نقر على الطاولة مرة وثانية، وامسك بالعصا، من طرفيها، بيديه الاثنتين، وقال:

ـ انا رجل عسكري...

بدا له انه لم يقل شيئاً، فقد ظهرت عصبيته من خلال انزاله العصابسرعة وقوة، وكأن هذه البداية لم تسعفه. تابع بطريقة اخرى:

ـ ومثـل مـا قلت لكم: لا احب الكـلام، لأنـه مضيعـة للوقت ووجـع للراس...

ربما وجد المفتاح المناسب، فقد اعاد العصا كما كانت، وتابع براحة اكثر:

ـ درست سجلاتكم وعرفت من انتم...

توقف قليلاً، هز رأسه عدة مرات، وهو يتطلع الى وجوهنا وانفجر:

ـ ديمقراطية وكلام فاضي ما عندي؛ اغلبية ورأي جماعي كلام يقال لغيري؛ لأن الشيء الوحيد اللي افهمه: النظام، نعم النظام، والنظام لا يكون الا بتنفيذ

الأوامر، اتسمعون؟

وحين لم يرد احد منا، اضاف بطريقة جديدة:

ـ اقول لكم هذا الكلام لأن واحداً من جماعتكم، سامي ايوب، وكلكم تتحملون مسؤوليته، هرب من هنا، ولكن لا بد ان تقبض عليه السلطات ذات يوم ولازم يرجع الى القليعة، نعم يجب ان يرجع. فاذا وصل الى هنا فالجواب واضح . . .

ابتسم بعصبية، دق على الطاولة المجاورة، وتوجه الى خليل خيرو، واصدر اوامره:

ـ السور الشرقي!

أُخذنا الى هناك. كان النقيب قدسبقنا،وقف في مكان مناسب، حيث اجزاء من السور مهدّمة، والوادي يبدو طرف منه. حين صفّونا قال بطريقة فخمة:

ـ لازم كل واحد منكم ياخذ له نظرة . . .

ومُرّرنا قرب السور، حتى اذا انتهى الرتل، وعدنا الى مكاننا السابق تقريباً، قال كأنه يشرح لزوار، او كأنه قائد يحذر جنوده:

ـ هذا اسمه وادي الموت، واشار بعصاه الى الوادي، ومن هذا المكان، واشار الى الفتحة المطلة: الله اعلم، كم واحد مشى في الهواء كما مشى بهلول فوق الماء، واذا كان الله نجىّ بهلول وواصل طريقه، فمن مشى من هنا وصل الى العالم الآخر، واذا لم تصدقوا اسألوا ضباع الوادي!

وضرب طرف السور بعصاه، واضاف:

ـ وهذا صاحبكم، سامي ايوب، اذا وصل الى يدي لازم يركب هذا الطريق . . .

وبعد قليل، وهو يهدد:

ـ اريدكم مثل الساعة: تنفيذ الأوامر والطاعة والنظام والا . . .

واشار بعصاه الى الوادي، والى الفتحة بشكل خاص، وقال بسخرية:

ـ واذا كان اي منكم يريد ان يمشي على هذا الطريق، فهذا الطريق مفتوح!

بعد هذه التهديدات والجولة اعدنا الى المهاجع!

واذا كان النقيب قد غاب عنا بعد هذه «الدروس»، اذ لم نعد نـراه الا اذا وقعت احداث استثنائية في السجن، وصدف ان جاءنا مرتين او ثلاث مرات اواخر الليل، بحجة التفتيش وكانت الأحزان، في الحقيقة، هي التي طوّحت به نحونا، بعد ان تعتعه السكر، لكي يندب حظه وغدر الاخوان وقسوة الزمان. . . اذا كان النقيب مدحت قد غاب، فان الآمر الفعلي للسجن هو المساعد خليل خيرو!

كان هذا المساعد ثوراً حقيقياً، من حيث القوة والجسد، وكان فناناً في الشتائم والاستفزاز. يحب مهنته الى درجة العشق، ويفضل ان يمارس اعباءها بنفسه. لقد اختير، في البداية، لصفاته الجسدية والعقلية، ولأنه اثبت جدارة ارتقى في السلم الوظيفي الى ان اصبح مساعداً، ثم ارسل الى القليعة ليؤدب المشاغبين وليـدرب «العناصر». ورغم ان معظم العناصر تعتبر نفسها منفية ومعاقبة في هـذا السجن النائي، فان خليل خيرو لا تخامره مثل هذه المشاعر، اكثر من ذلك يحس انه ملك لا ترد له كلمة!

جنوده المقربون يطلقون عليه وينادونه ابا غائب، والجنود الذين لا يحبونه، لكنهم لا يجرؤون على اظهار ذلك، يطلقون عليه المساعد، أما السجناء فيسمونه فيما بينهم خ خ، وينادونه المساعد خليل.

ما ينغّص حياة المساعد، وينعكس بالتالي على السجن، ان الولد الذكر الذي ينتـظره المساعـد وزوجتاه واصـدقاؤه لم يـأت بعـد، رغـم ان الجميـع، بمن فيهم السجناء، ينتظرونه منذ وقت طويل! لقد انجبت الزوجة الأولى خمس بنات، مما دفعه لأن يتزوج اخرى، لأنه اصبح على قناعة اكيدة «ان السبب منها وليس مني». أما حين انجبت الثانية بنتين فقد بدأ الشك يراوده، ثم تحول الشك الى هم. فلما وصلنا الى سجن القليعة ابلغنا السجناء القدامى «ان زوجة خ خ معشّرة وعلى وشك الولادة، فاذا جاءه غايب راح نضحك بعبنا، واذا جاءت اخت غايب راح ناكل خرا، فادعوا الله ان يبعث له بخنثى، حتى ينشغل بها وينسانا».

ليس ذلك فقط، فالسجناء القدامى اجزلوا العطاء لمنجم نوري، ومنذ بداية الصيف، وطلبوا منه ان يؤكدللمساعد «ان الولد على الطريق، ويجوز بدل الواحد اثنين». وهكذا انقضت شهور الصيف ثم شهور الخريف والمساعد في ابهى حالاته،

عدا فترات قصيرة، مما جعل الكثيرين ينسون شراسة المعاملة وقسوتها بعد الولادة الأخيرة. وهذا ما جعلنا نخطىء ايضاً خلال الأسابيع الأولى لوصولنا الى سجن القليعة، في تقدير طبيعة الرجل. كان يمر علينا، ينظرالينا بعينين قلقتين، ولا يتردد في ان يبتسم بعض الأحيان. كما انه استجاب عدة مرات حين طلبنا مزيداً من الحطب لمواجهة البرد القارس!

لم تكد اسابيع تمر حتى جاءته بنت اخرى!

ومثلما تغضب الطبيعة ثم تُجن، وبعد غياب ثلاثة ايام، عاد خليل خيرو مجنوناً. لم تكن هناك حاجة لسؤاله عن جنس المولود، فقد أجابت تصرفاته قبل ان يُسأل!

واذا كان لا يجرؤ اي انسان على التحرش بالسجناءالعاديين، لأنهم من عتاة المجرمين، وهم بالاضافة الى الأحكام الطويلة التي يفاخرون انهم محكومون بها، فقد أُرسلوا الى هنا بعد حوادث شغب قاموا بها في السجون التي جاءوا منها، ولذلك فانهم الآن في حالة من اليأس والتوتر يمكن ان يقوموا معها بأي شيء، مما حمل الادارة على تجنبهم، وفي حالات اخرى محاولة استرضائهم!

الآن، وقد وصل خليل خيرو، وفي صدره غيظ لا يستطيع ان يتحمله او ان يخفيه، بدأ يفتش عن ضحايا مناسبة. مرّ على مهاجع السجناء العاديين، وكان فقط يريد ان يشعرهم بعودته، لكن استقبلوه بالسؤال الذي لا يجرؤ غيرهم على ان يسأله:

- بشّر... بشّر يا ابو غايب...

وحين ينظر اليهم بحقد ويصمت، يتابعوَن:

- سميت المحروس غايب او اسم ثاني؟

ويشتم بصوت خفيض ويتركهم متوجهاً نحونا. حين وصل المهجع الأول صرخ، وخرج صوته كالرعد:

- والله لالعن اجداد اجدادكم يا اولاد الكلب...

وتغيرت اللهجة:

- قاعدين تسولفون.. هـا؟ مكوعين وهات يا سوالف ويا حكي، ها؟ انا

شغلتي اعلف تنابل وخنازير، ها؟ يا الله قم انت وياه يا اولاد الشرموطة!

للحظات، ربما طويلة، لم نستطع ان نفهم ما حصل، ولم نستطع ان نفسر هذه الثورة المفاجئة، امتثلنا لما طلبه منا، نهضنا، ساد الصمت انتظاراً للخطوة التالية، قال وخرج صوته من بين اسنانه:

- انا ما عندي: اكل ومرعى وقلة صنعة، لا، راح اخلي الواحد منكم يعوّض عن الدنيا والآخرة!

وفرز مهجعاً لجلب الماء من الوادي، والثاني لجلب الحطب، اما الثالث فلاعادة ترميم جزء من السور الشمالي!

لم يكن السجن بحاجة للماء، فالبئر في الباحة الخارجية تكفي، خاصة وان البركة القريبة امتلأت وتكاد تفيض من امطار الشتاء، وسوف تحّول، بعد ترقيدها، الى البئر. أما الحطب، وكان يُسمح للسجناء بكميات قليلة منه، وغالباً لقاء رشوة، فانه يملأ المستودع تحت الباحة المسقوفة، وكان جافاً سريع الاشتعال، واي حطب يجلب من الغابة الآن لن يُستطاع الاستفادة منه الا بعد وقت طويل. حتى البغال التي كانت تنعم بالراحة والدفء فقد تعرضت للاضطهاد ايضاً حين اخرجت من الاسطبل لتبدأ رحلة الشقاء. أما الجنود الذين يجب ان يرافقوا السجناء الى قعر الوادي، وصولاً الى النبع، ثم ارتقاء الجبل من جديد، مرة بعد مرة، واولئك الذين سينتظرون ساعات طويلة وسيراقبون هؤلاء «الحطابين الجهلة والكسالى» فانهم كانوا في حالة من الغليان والانفعال الى درجة لم يخفوا غيظهم، بل وحقدهم ايضاً.

كنت من الذين فرزوا للتحطيب.

أُخذنا الى طرف الغابة، والتي تبعد عن السجن مسافة خمسة كيلومترات. كنا تسعة اشخاص ومعنا اربعة من الجنود المدججين بالسلاح ويمتطون البغال في رحلة الذهاب!

ما كدنا نصل الى اطراف الغابة، وكنا مقيدين، اذ وضعت «الجامعة» بيد واحدة، وتركت الأخرى طليقة، وقدقدرنا لهم في البداية هذا الكرم، لكن ونحن ننحدر الى الوادي ثبت لنا ان هذه الطريقة وحدها يمكن ان تجنّب الجنود والبغال خطر الانزلاق! اذ شدّت الجامعة بسلسلة وربطت السلسلة بالسرج، وهذا ما جعل

سقطاتنا لا تؤثر عليهم، اذ كنا نتلقى الأرض باليد الطليقة لكي لا نتدحرج.

وصلنا طرف الغابة منهوكي القوى الى درجة التلاشي، فبعد هذه الفترة الطويلة من الجلوس، ولأن اياً منا لم يرتق جبلاً او يهبط الى وادٍ منذ سنوات، فقد اصبحنا في حالة من الأعياء الشديد، ومما زاده ايضاً اننا كنا مضطرين الى مسايرة البغال في سيرها، وكثيراً ما لجأت الى السير خبباً لتدفىء نفسها، او لأن الجنود كانوا يلكزونها بمهاميزهم حقداً على هذه المهمة، وربما لمداعبتنا ايضاً!

عندما فُكت ايدينا، ودون اتفاق، تهاوت اجسادنا على الأرض، كما تتدفق المياه المحجوزة، وبقينا هكذا فترة غير قصيرة، ولما تعالت صيحات العريف ادريس، وهو قائد الحملة، فقد سمعناها وكأنها تصلنا من مكان بعيد، أما عندما اقترب واستعمل عصاه في مخاطبتنا، فقد رأيناه، اول الأمر، كشبح، ثم اخذت تتضح صورته شيئاً فشيئاً. واتذكر انه قال، والواحد منا ينهض بعد الآخر:

ـ لا ما شاء الله . . . الواحد منكم زلة وحطاب اباً عن جد!

أما حين اخذت الفاروعة «تهوي» على الشجرة فقد كانت ترتّد بسرعة، مما جعل العريف ادريس يردد بسخرية، ولم يكن يخفي مرحه:

ـ يا حبيبي ياعيني، بسم الله وما شاء الله . . .

وبعد قليل:

ـ مثل ما قالوا: ضرب الحبيب زبيب . . .

وتغيرت اللهجة مرة اخرى، اصبحت غاضبة:

ـ شدّ يا ابن الكلب انت وهو!

وعاد الى اللهجة الساخرة:

ـ قالوا لنا انكم عايزين تغيروا العالم وتقلبوا حكومات، اي بالله يطلع لكم ويطلع منكم، لأن مثل هذا العزم يكفي ويوفي!

لما عدنا قبل المساء بقليل كنا بقايا بشر، وكانت الحصيلة مجموعة من الأعواد التي جمعت اكثر من التي تم احتطابها. نظر المساعد الى الاحمال بسخرية وقال:

ـ والله يا اولاد الشرموطة لاكسرها على جنابكم، بسيطة!

ولم يكن حال المهاجع الأخرى احسن من حالنا؛ وفي تلك الليلة، ثم في ليالٍ اخرى لاحقة، نمنا بعد العشاء مباشرة، وكنا عاجزين عن تبادل حتى التحيات!

بعد التحطيب، والذي استمر حوالى عشرة ايام، وكانت اياماً طويلة، قاسية، شديدة البرودة، نقلنا المساعد خليل الى تكسير الحجارة، ثم الى تنظيف الاسطبل والعناية بالبغال!

السجناء العاديون يرقبون، ينظرون الينا باشفاق، ولا يخفون تعاطفهم، بل ويعلنون استعدادهم للوقوف معنا اذا اقتضى الأمر. اكثر من ذلك اخذوا يتحدون المساعد ويسخرون منه، اذ ما يكاد يمر، او يسمعون صوته، حتى يبدأوا وبنغم واحد:

ـ ديك رومي مات مات ما خلّف الا بنات!

والمساعد الذي لا يستطيع ان يحتك بهؤلاء السجناء، ان يواجه تحديهم، يتحول الينا:

ـ والله لأشعل امواتكم يا اولاد الحرام..

يهز رأسه ويضيف متوعداً:

ـ كله منكم: حافظين كم كلمة وداشرين في الدنيا. لولاكم ما كان الواحد منهم يعرف كيف ينطق اسمه، لكن ظليتم وراهم، تقروا بروسهم: ديمقراطية وشعب واغلبية، حتى طمعتموهم فينا، ها؟

ويتحين الفرص لكي يعاقبنا، لكي يعاقب كل واحد منا. ولأنه كان بعيداً ونحن نحتطب، فها هو الآن يعّوض عن ذاك الغياب. اصبح لا يفارقنا ونحن نكسر الحجارة، ونحن نرفع السور، او اثناء تنظيف الاسطبل! فما ان يرفع الواحد منا

المهدّة الثقيلة، في محاولة لكسر كتلة من الصخر، حتى يخرج المساعد صوتاً، هو بين العفاط والشخير، وتخرج كلماته من انفه:

ـ نواعم ومنزنزين يا اولاد الكلب، لأن اثقل ما شلتوا القلم، لكن ابد ما تنازلتم عن كلمة ثورة وديمقراطية، فخلنا نشوف فعلكم بالحجارة والدبش!

ويهوي بعصاه على الكتف. تبرق العينان، وكأن اسياخاً من النار، اخترقت الجسد كله! وتهوي مرة اخرى، وفي مكان مختلف، غير متوقع، فيشتعل الجسد من جديد وتشيخ الروح، لكن كنا مضطرين لأن نصمت!

كان يفعل ذلك وحوله عدد من العناصر «للتدريب»، ولحمايته من رد فعل السجناء، خاصة بعد ان دفع ثمناً، وثمناً غالياً، عندما اتبع هذه الطريقة مع السجناء العاديين، الأمر الذي جعله يقلع عنها معهم ويقصرها على السجناء السياسيين!

وبمقدار الأذى الذي يلحقه بنا يتحداه السجناء العاديون، يستفزونه، خاصة وانهم يعرفون الكثير من اسراره وقصصه.

ما يكاد يقترب حتى تبدأ القصص:

ـ سمعت آخر نكتة يا ابو فلان؟

ـ لا.. هات، احكِ

ـ قال، كان في واحد لا يخلف الا بنات، وكان فقيراً مهتوكاً، فلما جاءته البنت الثامنة تطلع الى السماء وقال: شكراً يا رب، لأنك لا تنسى احداً من عبيدك، لقد انعمت وافضت وفتحتها على عبدك الذي صبر فظفر!

ـ فتحتها عليه؟ ما شبعت عينه؟ كيف؟

ـ لأنه فتح تياترو، وصار يدق على الدف والبنات يخلعن!

وتدوي ضحكات السجناء، وبعد ان يهدأوا قليلاً يرتفع النغم من جديد:

ـ ديك هندي، ديك رومي، ديك شامي.. مات مات ما خلف الا بنات!

وما تبقى من عقل، من قدرة على الاحتمال لدى المساعد خليل يفقده وهو يسمع الضحكات ثم النغم الذي يليها. وحتى لو كان بعيداً، حين يسمع ضحكات

من هذا النوع، فلا بد ان يقول لنفسه:

«الجماعة نازلين فينا وما لهم الا سيرتنا» وبدل ان يتوجه الى مهاجع السجناء العاديين يتجه نحونا:

- هـذي لسـانـاتكم لازم تنقـطع لأن من وراهــا جـاءت كـل الشـرور والمصايب. . .

وينتظر اللحظة المناسبة، حين يكون الواحد منا رافعاً الحجر ليناوله لمن يبني السور، فيدلق في وجهه الماء، فاذا شهق من البرودة والمفاجأة، يضحك المساعـد خليل، اذ يشعر انه انتقم لكرامته المهدورة، ويعلق:

- شفت العرق يزخ منك فحنيت عليك، وقلت لازم يبورد الأفندي!

ويحرضنا السجناء العاديون، يتجرأون اكثر من قبل على المساعد خليل، لكن المساعد لا يراهم، يسمعهم ولا يجيبهم، فقط ينظر الينا بعيون مليئة بالشر والعدوان. وترتفع في عقولنا وقلوبنا فكرةالاضراب عن الطعام، فقد بلغ التحدي درجة اننا بتنا نفضل الموت على الحياة، اذ بدأت قوانا بالانهيار، واصيب عدد منا بامراض غامضة هي مزيج من الآلام العضوية والشعور بالقهر. كان يفترض ان يكون رضوان مبادراً مثل مرات سابقة، لكنه اصيب بحالة من الحمى جعلته لا يواصل الدعوة بنفس الحماس.

قال حامد زيدان، في محاولة لأن يجعلنا اكثر تعقلاً:

- يا جماعة الخير. . نحن الآن في آخر تلفات الدنيا، ونحن آخـر السجناء الذين وصلوا الى هذاالمكان،وتعرفون ان التموين والبريد يصل مرة في الشهر، فاذا كان الاضراب للاحتجاج، لاسماع صوتنا، لمنع التعديات، فان من سيسمع هذا الصوت سيسمعه بعد موتنا بشهور!

وحين تواجهه النظرات الرافضة وكلمات الاحتجاج، يرد بحزن:

- الاضراب عن الطعام في بلد متحضريعطي نتائجه فوراً، لأن الانسان يعني لهم شيئاً، أما في هذا البلد، وفي هذا المكان بالذات، فان الانسان لا يعني اي شيء، فاحذروا!

وتُعدد الاعتداءات والتجاوزات، خاصة من المساعد خليل، وضرورة وجود

طريقة لمواجهتها والتصدي لها.

يرد حامد زيدان، وقد تخلل الغضب صوته:

- لا اطلب من احد ان يوافق او يغفر، وخيانة انننسى .وما اقـوله لنفسي اقوله لكم الآن: علينا ان نقاوم ، لكن من الجنون ان نموت مجاناً!

قال رضا الدوحي:

- يا عم حامد انت اكبرنا ونعتبرك ضميرنا وحريصاً علينـا، لكننا لم نعـد نحتمل، ولا بد من عمل شيء ما للوقوف في وجوه الجلاوزة. . .

قاطعه رامز فرحان:

- طز على هالحياة وطز علينا كلنا اذا اصبحنا الى هذه الدرجة جبناء!

رد عليه رضا بغضب:

- خلينا نكمل وبلاش مزاودة!

تدخل حامد زيدان قبل ان يتطور الموقف:

- يا جماعة الخير انا لست ضد الاضراب، ولا تفهموني غلط، لكن قبل ما نضرب خلونا نتفق مع السجناء العـاديين، خلونـا نطلب مقـابلة النقيب، خلونا نصطدم مع المساعد، يمكن الدملة تنفقي قبل ما نصل الى الاضراب.

قال السجناء العاديون، وهم ينظرون الينا بدهشة اقرب الى الانكار:

- جوع كلاب اتركونا منه، هذا مثل الضراط على البلاط، فالشرطة يسرقون خبزتنا عينك عينك، لا حس ولا خجل، ويتمنون ان نضرب. . .

وقال محيي الدين الأحدب اعتق سجناء القليعة:

- هذا شغل افندية، شغل طلاب مدارس، ما هـو شغل رجـال عايـزين يدافعوا عن حقوقهم. . .

وضحك ثم اضاف:

- قبل عشر سنين او اكثر، جماعة مثلكم، سياسيين، اضربوا عن الأكـل، تعرفوا شو صار معهم؟

وحين تطلعت اليه العيون متسائلة، ضحك ، هز رأسه كأنه يتذكر، ثم قال:

ـ انتظروا يوم، اسبوع، ولا واحد قال لهم مرحبا. تحملوا، استمروا، وبعدين، وقبل ما يطبّقوا الشهر حلّسوا، صاروا مثل الكلاب يترجوا الصغير والكبير وما احد يسمع لهم، علماً بأنه طلع على لسانّا شعر ونحن نحكي معهم وننصحهم . . .

وبعد قليل، ولكي يحسم الموضوع :

ـ اتركونا من هذا الموّال يا جماعة الخير، لأن ما منه نتيجة، ويكسر العين!

قال صادق الداوودي، وهو الذي حصر المساعد ذات يوم في المهجع وكاد يقتله، لولا ان تدخل السجناء الآخرون لانقاذه، قال بسخرية اقرب الى الاحتقار:

ـ اغرب شيء فيكم، انتم الأفندية، السياسيين، ان كلامكم حلو، يملّي الراس، أما افعالكم، ولا تآخذونا اذا حكينا بصراحة، فانها ما بتسوى، بتحكوا شيء وبتسووا شيء . .

رد عليه محيي الدين الأحدب وهو يضحك .

ـ تذكر المثل المصري ، يا ابو عبد الله؟ المثل يقول: اسمع كلامك يعجبني اشوف افعالك اتعجب، والأفندية حالهم مثل هذا المثل!

قال رضا الدوحي ، بطريقة فلسفية :

ـ نحن، حتى الآن، نتكلم بلشفيك ونطّبق منشفيك!

وضرب الحائط بغيظ ثم غطى وجهه بيديه!

بعد ان فشل الاقتراح الأول لحامد زيدان، بدأت المحاولات للاتصال بالنقيب.

ابلغ المهجع الأول المجند حسن، وابلغ المجند العريف ادريس، وابلغ العريف المساعد خليل، وتوقفت الرسالة عند هذا الحد، لا، لم تتوقف، جاء المساعد مثل الديك:

ـ نحن ما نملي العين؟ ها؟

يستريح قليلاً، ينظر الى الوجوه بامعان ليكتشف من وراء المؤامرة. يتابع

بطريقة لا تقبل الخطأ:

- لعلمكم، يا اولاد الشرموطة، ما في شيء يتم في القليعة دون ما يمر على ابو غايب...

وبعد قليل، وبانفعال اشد:

- ابو غايب في القليعة الكل في الكل، واي واحد يريد يلعب من وراء ظهري ما يلوم الا نفسه، سامعين؟

يرد حامد زيدان بحكمة الشيوخ وسخريتهم:

- انت، يا مساعد خليل، الكل في الكل، لكن رأيين احسن من رأي واحد، فلازم نشوف النقيب ونتشاور معه.

- النقيب مشغول وما هو فاضي للقيل والقال وسفائف الأعمال!

وحين يلمح السخرية على وجوهنا، لأنه يحاول تقليد النقيب في اختيار الألفاظ وطريقة الكلام، يتابع بحدة:

- اذا عندكم شيء احكوا.

- نريد نتطمن على صحة النقيب، يا ابو غائب!

هكذا قال رضا الدوحي بسخرية. للحظة ارتبك المساعد، سأل بقلق:

- اي شرطي ابن شرموطة قال لكم ان النقيب مريض؟

وحين صمتنا ولم يجب احد، اضاف بصوت خفيض كأنه يكلم نفسه:

- اعرفهم، ما في منهم واحد شريف؛ الواحد يرتشي بسيجارة، بكلمة...

وتغيرت اللهجة:

- وانتم، يا اولاد الكلب، تأخذوا سرارهم من زغارهم ها؟ تزحلقوهم وتسألوهم، ها؟ لكن بسيطة!

وبعد قليل:

- الحق ما هو عليكم، الحق على الخروات اللي عندي!

واسترحنا من المساعد لبضعة ايام، لكن، بالمقابل، اصبح كل عنصر بديلاً

عن المساعد. فالكمية القليلة من الحطب المخصصة لكل مهجع حُرمنا منها؛ والأكل السيء الذي كان يقدّم لنا ازداد سوءاً، اذ كانت تضاف اليه في اللحظة الأخيرة كميات كبيرة من الملح تجعل تناوله في منتهى الصعوبة؛ هذا عدا عن الشتائم والمعاملة القاسيةالفظة. كانوا ينظرون الى الوجوه ويسألون، دون كلمات، عمن وشى بهم، وكانوا يرقبون كل حركة ويشكّون بكل انسان.

لما بلغت الأمور حداً لم نعد نطيقه صرخ حامد زيدان باحد العناصر بعد ان رأى معاناة رضوان:

- نادِ لنا النقيب، يا ابني، لأن عندنا مريض راح يموت!

ومن الشرطي الى العريف، ومن العريف الى المساعد، وجاء المساعد خليل:

- سمعنا ان عندكم واحد راح يفطس، فمن هو الذي جاء أجله؟

وبعد قليل وبحقد ساخر:

- اما اذا كنتم عايزين تجرجروا فينا كل ما دق الكوز بالجرة، وتعال يا مساعد، وتعال يا نقيب اذا واحد منكم عطس او وجعه راسه، فوالله لأسلخ جلودكم.

وتقدم الى وسط المهجع:

- من اللي راح نقرا على روحه الفاتحة؟

اشرنا الى رضوان. كانت الحمى قد انهكت جسده، وبدا مصفراً متعباً. سأله المساعد:

- قبل كم يوم كنت مثل الصّل، وكان لسانك شبر، فما عدا مما بدا؟

والتفت الى حامد وسأل:

- هذا ما هو ابن فرج؟

هز حامد زيدان رأسه بالايجاب، فقال المساعد بضيق:

- ما جاء على بال الأفندي يمرض الا في هذا الوقت، كيف راح نجيب الطبيب والدوا في هذا البرد اللي يقصّ المسمار؟ وليش صابكم الخرس وما احد منكم حكى لما كان الطبيب اول امس هنا؟

وبعد قليل بصوت لا يكاد يسمع :

- لو ما كان ابن الفرج . .

جيء بالطبيب في اليوم التالي، وتبين ان الجميع مصابون بسوء التغذية وبانواع من الروماتيزم، نتيجة البرودة والرطوبة معاً، وحين طلب من الطبيب ان يفحص بعض المرضى في المهجع الثالث، قال بنزق لم يستطع ان يخفيه:

- نفس العلة ونفس السبب، والدوا هو نفسه!

واضاف كأنه يخاطب نفسه :

- اذا لم يتم التخلص من السجن والحرب لا يمكن ان يصبح الانسان جديراً بهذه الحياة . . .

التفت ليرى ان كان المساعد يسمعه، لما رآه بعيداً ومشغولاً بقداحة احد السجناء يجربها وينظر اليها باهتمام، اضاف هذه المرة ويريد ان يسمعنا:

- يضربون الواحد حتى يكسّروه وتعال يا طبيب داوي الكسور والجروح، وكأن الأمراض التي تفتك بالبشر لا تكفي!

في الليل جاءنا مدحت عثمان!

كان مزهواً منتعشاً بعد الكؤوس التي تناولها. نظر الى وجوهنا ليقدّر مدى ما نعانيه، قال، وكان لا يقوى على اخفاء سخريته :

- قال لي الطبيب ان بعضكم مرضى، قلت له: يستاهلون، لأن الله خلق لكل انسان عقلاً يفكر، وهؤلاء الناس يحلمون ولا يفكرون. فهل في كلامي اي شيء غلط؟

لم يرد عليه احد، تابع بعد ان جلس على اقرب فراش اليه :

- ويقول الطبيب : الشروط غير صحية، التغذية سيئة، النظافة معدومة . . .

ضحك وهو يهز رأسه، ثم تابع وقد تغير صوته :

- هذا سجن يا حكيم، هذا مكان للتأديب يا افندي، هذا ما هو مصيف ولا فندق خمس نجوم . .

وضحك اكثر من قبل، وبنفس السخرية:

- وقال سيادته ان السجناء يشكون من الاكتئاب والقلق والحنين، تشرفنا! الظاهر ان هؤلاء الأطباء، مثلكم، مجانين، وما هم عارفين الدنيا ولا عارفين روسهم من ارجلهم، والا ما حكوا هذا الحكي!

غير جلسته قليلاً، مدّ رجليه واضاف:

- انتم الأفندية، رأس مالكم الكلام. ويا ليته كلام نافع ويسلي، لا، كله خيال ويكرب النفس، ولو ان الله خالقكم غرباناً او بغالاً لأحسن اليكم وافاد غيركم، لكن لله في خلقه شؤون!

وتغيرت اللهجة:

- والمشكلة انه خلقكم حتى تكونوا هماً ومصيبة لغيركم...

وبعد قليل:

- انا كنت في عمورية في احسن حال واهدأ بال، من الثامنة حتى الثانية، وبعدها لا همّ ولا غمّ. ولولا كم واحد سرسري من امثالكم كان بعدني هناك، لكن الديمقراطية التي تنادون بها، والاشتراكية التي تحلمون بها، والثورة والجماهير، خوّفت الحكومة، والحكومة مثلكم افندية، عقولهم صغيرة، كلمة تأخذهم والثانية تردهم، وهات يا اعتقالات، وشغلوا الناس، هذا هنا وهذا هناك، ولأنكم اتعس خلق الله بعثوا بكم الى القليعة، وبعثوا بمدحت عثمان حتى يسرح بكم مجنون...

وبعد ان استراح قليلاً اضاف بلهجة جديدة:

- بشرفكم، اذا كانت عندكم شرف وناموس، ما هو حرام ان تتعبوا حالكم وتتعبوا غيركم؟

وحين لم يرد عليه احد تابع:

- ولاني زهقت منكم ومن امثالكم، ولا اريد ان اوسخ يدي بتأديبكم، تركتكم للمساعد خليل، فاذا سمعت اية كلمة، اي انتقاد، لا يلوم الواحد الا نفسه!

بعد هذه المحاضرة، وبعد ان غادرنا النقيب، تطلعنا الى حامد زيدان وتطلعنا في وجوه بعض، وامتلأنا غماً وتحسباً للأيام التالية!

لم تمض ايام قليلة حتى بدأ التعـذيبـمن جديـد: تنظيف السجن، بما فيه المراحيض يومياً، رياضة اجبارية من السجن الى قعر الوادي مرتين في اليوم ونحن نحمل الأوساخ في الذهاب والماء في العودة، علماً بأن لا حاجة للماء الذي نحمله، اذ كان يتفنن المساعد في سفحه. هذا اضافة الى العقوبات الجسدية لأقل نظرة او تأخر. أما الطعام فانه يزداد سوءاً يوماً بعد يوم.

ومن جديد بدأت المشاورات مع السجناء العاديين: «لم نعد نطيق او نتحمل، فماذا تشورون علينا؟

- يا جماعة الخير هذول جماعة بجم، كل ما رخيتم شدّوا، وكل ما تساهلتم ركبوا، ولذلك لازم تتحدوهم وتقفوا في وجوههم.

وحين نسألهم عن الطريقة، يرد صادق الداوودي:

- اقرفوا رقبة ابو البنات!

قال محيي الدين الأحدب وهو لا يخفي ابتسامته:

- يا ابو عبد الله، خلينا الآن من قرف الرقاب، لأن هذا الحمـل اكبر من الجماعة، واذا ما عاوناهم ما راح يطلع بايديهم، فمن رأيي خليهم يجربوا زحلقة المساعد.

- اترك هذا الحكي يا ابو راشد، لأن الخرا ابن الخرا ما راح يماسك معنا، ولا يفيد معه الا ان تنكسر عينه. . .

كان يريد ان يتابع لكن ضحكة محيي الدين الأحدب جعلته يتوقف. قال محيي الدين:

- يا رجل، المساعد عقله صغير، وينضحك عليه بكلمتين، ومثل ما سوينا فيه مع البنت الثامنة خلي الشباب يزكزكوه بالتاسعة، وما راح يخسروا شيء!

قال صادق الداوودي، وهو يتراجع خطوة ثم اخرى:

- يا سيدي انا مالي علاقة، لأن الحمار يكون اذكى منه اذا تزحلق!

قال محيي الدين الاحدب لحامد زيدان، بعد ان طلب منه الاقتراب:

- سوِ حالك لا علم ولا خبر، وحتى اذا جاء يترجـى اعتذر اول مرة، ثانية

مرة، لكّنا راحنقنعه، وعن طريق جماعته، انـك اشطر من يقـرأ الكف ويكشف الغيب. . .

وضحك ضحكة خفيفة، واضاف:

ـ وباعتبار انه ينتظر المحروس، وهذا الشي اللي حارق قلبه، فشوف كيف تلعب معه، وكيف تدوخه!

قال لنا حامد زيدان، وهز رأسه، وبدا غير متأكد:

ـ يا جماعة. . .

توقف، وكأنه لا يريد ان يتابع، الى ان قال، وبدا صوته بعيداً:

ـ مثـل ما قـالوا في قصص الجـدات: طلب احد الملوك، مَن يعلّم حمـاره الكلام، فاذا علّمـه له جـائزة كبـرى، اما من يحـاول ويفشل فيقـطع رأسه. فتقـدم له رجل مفلس مبدياً استعداده، وحين لامته زوجته واصدقاؤه رد عليهم انه سيطلب فترة طويلة من اجل القيام بهذه المهمة، وخلال هذه الفترة لا بد ان يموت واحد من ثلاثة: انا او الملك او الحمار، والى ان يأتي ذلك الوقت يفرجها رب كريم. . .

ضحك مثل من وصل ، واضاف:

ـ واللي قاله الأحدب ما هو غلط. . . يا جماعة؟

وبعد قليل وبلهجة ساخرة:

ـ سألبس جبة واحمل مسبحة، بس رايد منكم العون، وما اتصور ان احداً منكم يتخلى عن ابو مكرم. . .

تطلع الى الوجوه وهويبتسم، وكأنه يريد الموافقة، ثم بعدها التأييد، وكان خلال ذلك يفكر ايضاً. لما وجدنا اقرب الى السلبية، واننا نعتقد بعدم جدوى هذه الخطة، خاصة، بعد ان نجّم له النوري في السنة الماضية، قال، وخرج صوته اقرب الى اليأس:

ـ ما راح نخسر لو جربنا هذه الطريقة، واكثر من القرد الله ما مسخ!

ولعب محيي الدين الاحدب اللعبة جيداً مع واحد من المقربين من المساعد. هكذا عرفنا فيها بعد، اذ لم تمض ايام حتى جاء المساعد خليل:

- سمعت الشباب ينادونك ابو مكرم . . . او انا غلطان؟

- لا . . فمكرم عمره الآن عشرين ، عشرين وكم شهرا

- الله يخليه . . .

وتطلع بارتياب الى حامد وسأله :

- وانشاء الله ماله علاقة بالسياسة؟

- علمي علمك يا ابو غايب، فالولد كبر وانا عندكم ، بين سجن وثاني . . .

وابتسم بحزن، ثم اضاف :

- وجيل هذي الأيام غير شكل عن جيلنا، يجوز الآن يسبني ويحكي عليّ لأني اشتغلت بالسياسة ، فلازم نترك لكل جيل حريته لأنه اقدر على معرفة مصلحته!

- انت تورطت، الله عماك، او يجوز اولاد الحرام دهوا براسك، يا ابو مكرم؟

- كل شيء جائز يا ابو غايب . . .

وبعد قليل وبحزن :

- ومثل ما يقولون : اللّهم حسن الختام، واللهم اغفر لنا وسامحنا!

قال المساعد وهو يغادر:

- الله يسامحنا كلنا!

وبدأ شهر العسل بيننا وبين سجن القليعة!

طبيعي لم يبدأ بسرعة او دفعة واحدة، فلو حصل كذلك لا بد ان يلفت النظر، وقد يؤدي الى عكس المطلوب، ولهذا لجأ المساعد الى الغياب فترات تطول يوماً بعد آخر، واخذ يستدعي حامد زيدان الى غرفته ، كما ان اعمال السخرة والتعذيب بدأت تقل الى ان توقفت!

بعد عدة اسابيع ، وعلى اثر زيارة قام بها ابو مكرم لغرفة المساعد، جاءنا وهو لا يقوى على اخفاء فرحه :

- علقت السنارة، يا شباب!

فرك يديه وقال :

ـ بعد ما نشّفت ريقه وانا ارفض قراءة كفه، وافقت اليوم، وقلت له كم خبرية طيّرت عقله، لكنا لم نبشره بعد بالمحروس!

وروى لنا ابو مكرم كيف بدا المساعدكطفل وهو يرجوه ويتوسل اليه لكي يقرأ له المستقبل، وهذا ما يهمه اكثر من الماضي، «لأن الماضي مضى وانقضى» كما قال المساعد، «والذي اتشوق اليه الآن هو ما تحمله الينا الأيام» فطلب منه ابو مكرم مهلة لكي يستخير، وان الاستخارة لا بد ان تكون على طهارة، وهذا يقتضي ان يستحم مرةفي الاسبوع، وان يقص شعره مرة في الشهر، واشترط ايضاً ان يؤتى له ببعض المعاجين والأدوية سماها له. فلم يتردد المساعد في الموافقة على كل ما طلبه!

وفي يوم لاحق قال له انه لا يكفي ان يكون وحده طاهراً، بل يجب ان يكون المكان الذي فيه والبشر الذين حوله كذلك، وهكذا جاء حلاق القرية وقضى بضعة ايام في السجن، ولم يترك احداً الا وحلق له كما اصبحنا نقضي وقتاً اطول في الحمام التركي في جانب من الحصن، دون ان نخشى شيئاً او احداً.

السجناء العاديون ينظرون الينا غير مصدقين، لكنهم يتظاهرون انهم لم يروا، اكثر من ذلك قللّوا تحرشاتهم بالمساعد.

قال محيي الدين الأحدب لحامد بمرح:

ـ دخيلك، اكتب لنا الوصفة، لأن وصفتنا السنة الماضية كانت اضعف من هذي بكثير..

وبعد قليل، وقد زايل وجهه المرح:

ـ خاصة انكم اليوم معنا، وبكرة، من غير شر، راح تتركونا وتمشوا، مثل كل السياسيين اللي جاءوا من قبل!

أما صادق الداوودي الذي لم يخف عجبه واستغرابه، فقد علق:

ـ هذا ما هو فعل كف وفنجان، هذا سحر معلمين...

وتغيرت اللهجة:

ـ شو يا ابو مكرم، كيف دبّرت الزلمة، سفّ شيء؟شم شيء؟

ـ علمي علمك يا ابو عبد الله، وكل ما عملناه: كلمتين فتح فيهم الله علينا!

ـ اطلع من هالباب، انا شايف المساعد يلولح وباصبعك مثل الخاتم، فلا بد

انك سحرته حتى داخ!

قال محيي الدين الأحدب:

- المهم، بالنسبة لنا، يا ابو عبد الله، ان نأخذ الوصفة، لأنه يجوز نحتاجها، والشباب، الله ييسر لهم، اليوم معنا، بكره لا تعرف وين اراضيهم.

قال حامد زيدان بمرح:

- بشرفي، يا جماعة الخير، لا سحر ولا سفوف ولا دفوف، كلها كم نظرة وكم كلمة، وطبيعي معهم صفنة وهزة راس، هذا كل ما سويناه!

قال محيي الدين مخاطباً الداوودي:

- مثل ما قلت لك، يا ابو عبد الله، هذول الشباب كل واحد منهم بالع لسان طير، وحكيهم يطّلع الحية من جحرها، واذا ظلت الأمور عند حدود الحكي لازم الـواحد منـا يضرب لهم تمني، لكن الشهور التسعةورا الباب، يروح يوم ويجي يوم وتخلص، فاذا كانت النتيجة بنت اكلوا خرا، أما اذا الله راد يرأف بهم ويبعث صبي فبيتهم بالقلعة.

ضحك بعربدة صادق الداوودي ورد:

- ليش احنا وين ساكنين، يا منظوم!

- اتركنا من هالحكي يا شيخ، المهم، بالنسبة لي، الوصفة، لأنها تلزم..

وتغيرت اللهجة، اصبحت اكثر جدية:

- يا ابو مكرم حتى لوما كان في دفوف وسفوف، فالكلام اللي حكيته اكتبه لي، لأننا بوجه ال خ .خ لآخر ايام العمر، ويمكن نسحره مثل ما سحرتموه.

قال الداوودي بنوع من الدعابة:

- لازم تاخذ بالك: الكلام ابن وقته، اذا بات او تكرر فقد قيمته، مثل ورقة اليانصيب، قبل السحب لا تبيعها بأقل من جائزتها، أما بعد السحب فما تسوى قيمة الورق!

- يا ابو عبد الله: الكلام اللي تفضلت به على العين والراس، صحيح، لكن

الواحد يتعلم من تجارب غيره، وهذي هي سنّة الحياة، ولن نخسر اذا الشباب كتبوا لنا الوصفة، واذا جاء اوانها نرش عليها فلفل وبهارات حتى تناسب شيخ الشباب خ خ!

- اكتبوا له يا شباب، لكن لعلمك، هذه الورقة مثل من يستعير طقم اسنان غيره!

هكذا كنا نقضي الوقت، اثناء فترة التنفس، وكنا آمنين ان عيني المساعد لن ترانا!

في احدى الليالي جاءنا النقيب:

- شايف انكم والمساعد سمن وعسل، فاما انكم تأدبتم بعد مشاوير العين، او خربتم الزلمة!

رد حامد زيدان:

- تعرف، يا سيادة النقيب، نحن جماعة مسجونين، ضيوف عليكم، ولازم الضيف يكون مؤدب، وانتم المعزبين، والعادة ان الضيف قبل المعزب، لكن ما حصل في البداية انكم تجاوزتم هذه العادة او لم تعترفوا بها!

هز النقيب رأسه، وكان لا يخفي استغرابه وسخريته، وسأل:

- وكمان.. ما عايزين نزوجكم؟

- انتم كرماء ونحن مستاهلين، يا سيادة النقيب!

- طلبات اخرى؟

- ما نتمناه ان تعود ونعود الى عمورية، وان تقفل السجون الى الأبد.

غيّر النقيب جلسته، وقال بمزيج من السخرية والرغبة:

- كيف يمكن للسجون ان تقفل وامثالكم اكثر من الهم على القلب؟

- نحن، يا سيادة النقيب، لا نملك الا كم فكرة وكم كلمة، وليس لدينا اسلحة، ولا نهدد حتى عصفور، واعتقد انه يجب الا نخاف من الكلمة، لأن لا احد يستطيع ان يسجنها أو يمنعها، وانتم الآن لا تسجنون الكلمة تسجنون من يسمعها، من يقولها، وهذا ما يولد الثورة، ويغير كل شيء!

ـ والله محاضرة رائعة . . .

وبعد قليل وبخبث:

ـ اذن عن هذا الطريق زحلقتم المساعد؟

ـ والله ، ياسيادة النقيب ، هذه اول مرة نحكي مثل هذا الكلام!

قام مدحت عثمان وهو يهز رأسه، نظر الينا بامعان، وقال:

ـ هذا الكلام خطير، اقوى من الدبابات والمدافع، لأنه يخرب بيوت ويهدم دول!

وقال واحد من الذين كانوا قرب الباب انه سمعه يردد:

ـ «ان في البيان لسحرا» وهذا الحمار ابو غايب انعبط بكم كلمة وداخ!

كاد شهر العسل ان ينقطع، فالعريف ادريس، وتنفيذاً لتعليمات النقيب، حلّ مكان المساعد، وتعبيراً عن استعادة السيطرة على السجن، وفرض الهيمنة من جديد، كلفنا بتكسير الحطب وعمليات التنظيف. تقبلنا الأمر بصعوبة، لكننا قمنا به، مع ان اصواتاً عديدة ارتفعت تطالب بالرفض والامتناع حتى لو وصل الحال الى اعلان الاضراب.

في اليوم التالي حملنا الأوساخ وهبطنا الى قعر الوادي، وعدنا بالمياه.

في اليوم الثالث ، قبل الغروب، اثناء فترة التنفس، لمحنا في الطرف الثاني من الساحة، المساعد خليل يتمشى، وبقدر ما يمكن ان نميز، بـدا لنا متجهماً ، وكان وحيداً.

في اليوم الذي يليه قال السجناء العاديون، بنوع من التعريض:

ـ راحت السكـرة وجاءت الفكـرة، والظاهـر ان بنزين كـلام السياسيين خلص!

العريف ادريس، رغم صوته القوي وضرباته القاسية، الا ان دافع الواجب ما يملي عليه اكثر من القناعة او الرغبة. حاول بمزيد من القسوة ان يضبط الأمور، لكن الأمور لها مقياس المساعد خليل واساليبه، وايضاً طريقته في التعامل مع العناصر. النقيب مدحت موجود بمقدار وجود المساعد، فاذا غاب او اختلت العلاقة فلا بد من التعامل مع الأمور بشكل مختلف.

قبل ان ينتهي الأسبوع قال المساعد خليل لحامد زيدان، بعد ان استدعاه لغرفته:

ـ تحملوا كم يوم بعد... يا ابو مكرم..

وحين تطلع اليه ابو مكرم، قال له وهو يبتسم:

ـ هذا سجني، وانا كل شيء فيه. النقيب طول النهار والليل سكران، وما عنده الا نظم الاشعاروالصراخ في التلفون: آلو ترانك، اعطني عمورية؛ فلا تخافوا!

وحين مدّ حامد زيدان يديه، لكي يريه ما عليها من اوساخ، نتيجة التنظيف، رد بمرح:

ـ حمام ومعه ليفة وصابون وابوك الله يرحمه!

ويفتل ابو مكرم اليدين متسائلاً الى متى، يجيب المساعد بحدة:

ـ كلها كم يوم، وراح يبوسوا بسطاري حتى ارجع!

في نهاية الاسبوع الثاني استعاد المساعد خليل مواقعه السابقة!

صحيح ان الفترة التي استلم خلالها العريف المسؤولية كانت قصيرة ومرتبكة، لكنها كانت قاسية ايضاً، وكانت شديدة الوطأة، لأننا لا نعرف هل نقاوم ام نستسلم. كان ابو مكرم يقول، ليمتص غضبنا:

ـ يا جماعة... تحملنا الكثير، وشفنا الكثيرين، والمساعد يقول: كلها كم يوم وتنتهي، فخلنا نصغّر عقولنا ونصدقه، وما راح نخسر شي!

ونوافق، او بالأحرى ليس لنا الا ان نوافق!

النقيب الذي تفقدنا اكثر من مرة خلال هذه الفترة، وقد اثنى على العريف ادريس بصوت عالٍ، وكأنه يشعرنا انه يمنح الرضا لهذا الشخص ويسحبه من المساعد خليل، تباعدت، كالعادة، زياراته، الى ان انتهت!

قال حامد زيدان بنوع من المرح:

ـ لازم نكافيء، يا شباب، المساعد، والولد الذي ينتظره لازم يحصل عليه!

قال رضوان بمرح وفجور:

- لو «ساعدناه» يحصل على مبتغاه، أما اذا كنا بعيدين فلازم رب العالمين يتدخل ويساعده!

رد رضا:

- نحن نقامر بالزمن واخطر شيء في هذه الحياة ان يقامر الانسان بالزمن!

قال حامد زيدان، ولم يفارقه مرحه:

- اتركونا من الجد، يا جماعة؛ المهم ان نستفيد من التناقضات بينهم، وان نوسعها، أما ما يحصل بعد ذلك فانه خارج عن اي قانون علمي!

سألت ابا مكرم:

- ماذا تقترح ايها المعلم

- ان نغامر بمنحه الولد الذي يريده، لكن بشرط. . .

تطلعت اليه العيون لمعرفة ما يخبىء من مفاجآت. قال، وهو يتطلع الى البعيد:

- من المناسب ان نمنحه الولد على دفعات. .

وضحك بمرح اكثر، وبعد ان هدأ اضاف:

- الحياة، كما اتصورها، لعبة، وبعض الأحيان، لعبة سمجة، وما دمنا مضطرين لأن نشترك في هذه اللعبة، فلا مانع ان نحاول الأخلال بقواعدها، ان نتدخل في تغيير المسارات وزحزحة الأفلاك، وان نستولد المرأة ما نريد، او ما نعتبره افضل!

وفي هذه الأمسية، وبعد مناقشات كانت على الحدود الفاصلة بين الجد والمزاح، «قررنا» و بالأغلبية ان نمنح المساعد خليل خيرو ولداً ذكراً، شرط ان يكف عن تسميته غائب، وان يسميه يحيى!

وهكذا، في احد الأيام المتأخرة من شهر نيسان، وتنفيذاً للقرار الذي أُتخذ، «مُنح» المساعد خليل خيرو الغلام الذي تمناه وطالما انتظره. فقد قام السجين القديم، الكهل، حامد زيدان، وفي جو احتفالي اقتصر على الأثنين فقط، وفي لحظة

تخيرها السجين المذكور، وهيأ لها جيداً، امسك باليد اليسرى للمساعد، فرد كفه، تطلع اليه طويلاً، تطلع الى عينيه، هز رأسه عدة مرات ، كما يفعل اي منجم مغربي عريق، وقال، وخرج صوته رخياً:

ـ ما تنتظره سيأتي بمشيئة الخالق العظيم. الله الواحد الأحد، لكن، وهذه استخارة الأولياء، وليست مشيئة الخالق، قالوا: انتظر يحيى ليحيى، فاسمع مني، يا ابا غائب، ان تكسب الغائب ليحيى بدل ان تنتظر الغائب الذي لا يجيء!

وهذا ما حصل!

بدأ الجو بالتحسن وبدأ الجميع بالانتظار.

ارتخت قبضة المساعد خليل، ولكن لا يستطيع ان يغض النظر بصورة كاملة، اكثر من ذلك كان يلجأ بعض الأحيان، الى القسوة، ليشعر الجميع بوجوده وقوته. العريف والجنود موجودون وغير موجودين في آن واحد. اما النقيب الذي غرق في السكر والأحزان، فلا احد يعرف، حتى المساعد، متى استعاد نشاطه ووعيه لينظم هذا الكم الهائل من الاشعار! وليس هناك تفسير مقنع او كافٍ ليختارني وحدي مقيّماً لشعره ودوزنته واعطاء الرأي فيه، تمهيداً لقرار صعب يريد ان يتخذه «باشاعة هذا الشعر بين الناس، وعدم ابقائه حبيساً في الصدر او على الورق، حتى لو اضطررت لانتحال اسم مستعار واعتماده كاسم فني!».

هذا مما قاله وهو يمهد للوصول الى هذه النتيجة:

ـ . . . انظم الشعر على السليقة، قلبي يدلني الى ما يجب ان اقوله، اما الموسيقى فاصل اليها، ليلاً، بالدق على الطاولة، مع ايقاع الرجل اليمنى، وترديد كلمات كل بيت. . .

توقف قليلاً ليقرأ في وجهي اثر اكتشافاته، هز رأسه عدة مرات، وهو يبتسم، ثم اضاف:

ـ طبيعي يستغرق هذا وقتاً طويلاً، الأمر الذي كان من السهل عليّ تجاوزه لو تعلمت بحور الشعر، ومثلما تعرف، هذه لا تكلف شيئاً، لكن لا اعتبرها الطريقة المثالية. . .

وتغيرت اللهجة تماماً، اقترب مني اكثر وتساءل بصراحة:

- ثم من من الشعراء الكبار كلف نفسه تعلم الأوزان وتقطيع الأبيات، كما يفعل طلاب المدارس؟ هل فعل ذلك امرؤ القيس ام المتنبي ام ابو تمام؟

وعاد الى لهجته الأولى:

- وهنا، في هذا المكان اللعين، لا نملك سوى الوقت، لذلك لا ضرر اذا انفقناه في انبل مهمة، ولأشرف غاية: للشعر والتعبد في محراب الجمال!

طبيعي قبل ان يكشف ما يفكر فيه او ما يريده مني، اشار الى عراقة عائلتي، وتعاطي عدد من افرادها للكتابة والفن! واشار ايضاً، ولكنه لم يكن متأكداً، ما اذا قرأ لي شيئاً قبل عدة سنوات نشر في احدى المجلات. ولم ينس ان يلومني، لكن دون قسوة، على تورطي في السياسة، مع قناعته ان الأمر نزوة ومؤقت، وسوف يكون لي تجربة مهمة حين اتفرغ في وقت لاحق للأمور الجدية، بما فيها الكتابة، خاصة الشعر!

لم ار مناسباً ان اصحح المعلومات الخاطئة الكثيرة التي وردت عن عراقة العائلة، وربما انصرف ذهنه الى عائلة اخرى تحمل نفس الكنية! هذا عدا عن الكتابة، والتي لم اقرب منها! قلت في محاولة لتخفيف الصدمة، ثم للاعتذار:

- اذا كانت لي ميزة، يا سيادة النقيب، فان هذه الميزة لا تتعدى تذوق الشعر، ولذلك لا تتوقع مني اكثر من ذلك!

- هذا ما اقصده بالسليقة، وهذا جوهر الشعر. . .

هكذا رد بانفعال، وتابع:

- وهذا ما اعتبره مقياس الشعر الحقيقي، أما ما عداه فانه النظم، وتدرك الفرق الهائل بين الشعر والنظم!

وحين وافقت مضطراً على القيام بالمهمة التي انتدبني لها النقيب، وطلبت ان يسلمني القصائد لكي اتمتع بها قبل اي شيء آخر، رد بطريقة لا تخلو من تعريض:

- للشعر طقوس يجب ان يُحافظ عليها بشكل قدسي، تماماً كما يتوجه المؤمن نحو المحراب!

ولما بدا كلامه غير مفهوم اضاف شارحاً:

ـ الجنين يبقى في بطن امه تسعة شهور قبل ان يولد، يبقى وحيداً وفي الظلمة، وكذلك الشعر!

ولم افهم أيضاً، قرأ ذلك في عيني، اضاف شارحاً اكثر:

ـ اريدك ان تبقى قريباً مني، كل يوم ساعتين او ثلاث ساعات، وسوف افرد لك غرفة الى جانب غرفتي، وبعد ان تنتهي من قصيدة، وتستريح يوماً او يومين، تتعامل، او تتمتع بالقصيدة الثانية، وهكذا. أما ان تُجرجر القصيدة الى المهاجع، وترتمي امام الأعين كأنها البضاعة الكاسدة، اوالمعطوبة، فان اي شاعر يحترم نفسه ويحترم الشعر لا يوافق على ذلك!

وهكذا اصبحت، كما اطلق عليّ السجناء الآخرون: «المستشار الشعري للنقيب»! ومن خلال هذا المنصب اكتشفت ان اسهل طريقة للصداقة او للعداوة مع شاعر، حتى لو كان شرطياً، ان لا يكون لك رأي صادق، لأن الصداقة لا تقتصر على امتداح شعره فقط، وانما بهجو الشعراء الآخرين ايضاً، خاصة الأحياء منهم .

واذا كنت لا ازال اتذكر فان شعر النقيب عبارة عن سرقات من اماكن وعصور متباينة الى اقصى الحدود، ومعها اناشيد مدرسية تُعلّم في مدارس الأيتام، وتحضّ على العفة والتضحية وحب الوطن، وتذم الحسد والحقد والتعالي. ولم ينس ايضاً التقاط بعض الأغاني والاهازيج العامية، وتحويلها الى الفصحى، فبدت مثل الفزاعات بعد ان فقدت روحها وظلالها.

قبل ان تنتهي مهمتي كمستشار شعري، وفي جناح النقيب، تعرفت على اسماعيل حمدو. كان مساعداً لطباخ النقيب، ومكلفاً بجلب المؤونة من القرية. واثناء ما كان يحمل اليّ القهوة او يضع علب السجاير الأجنبية على الطاولة القريبة، لم تكف نظراته عن الكلام. افترضت، فيفترة معينة، انه يلومني على القيام بهذه المهمة! وفي فترة اخرى يدرس مدى شجاعتي.

لم افهم الرجل، ولم اعرف كيف اتصرف معه.

سألني ذات يوم، وكنت اقرأ احد اناشيد النقيب بصوت عالٍ، لأقدر مدى ملائمته للتلحين:

ـ لماذا لا تهرب من هذا السجن اللعين؟

تطلعت اليه باستغراب مشوب بالخوف، ولم اجب. قدّرت ان الرجل يريد ان يخلص مني، وربما تضايق من الخدمات التي يقدمها اليّ، علماً بأني لم اطلب شيئاً، وحاولت ان اكون خفيفاً!

ابتسم بطريقة ودودة، وقال مجيباً على ما يدور في رأسي من اسئلة:

ـ لا تظن اني اريد بك السوء، وانا لست منهم!

حاولت ان ارد على ابتسامته، بابتسامة، لكني لم استطع، اقترب مني اكثر، وهمس:

ـ لا تخف مني...

وبعد قليل، وبعد ان تلفت ليتأكد ان لا احد يسمعنا:

ـ انا الذي هرّبت سامي ايوب...

وتغيرت اللهجة:

ـ اذا كان هناك احد يفكر بالهرب فهذه احسن فترة، كما ترى!

«ماذا يريد الرجل مني، وكيف يفاتح سجيناً لا يعرفه بموضوع خطير هكذا، وهل اثق بما يقول ويعرضه ام يريد ان يوقع بي؟» هكذا مرت الأفكار في رأسي وانا انظر اليه، اقرأ في عينيه مدى صدق وجدية الكلمات التي سمعتها منه. عندما رآني خائفاً متردداً من مجرد الاستفسار، قال، وخرج صوته محذراً:

ـ انتظر، ساعود اليك بعد ان اتأكد ان لا احد بالقرب من هنا!

خرج وعاد. لم استطع ان اركز او ان اطلب شيئاً محدداً. قال، وبدا فرحاً:

ـ اعمل هنا لأني لم أجد عملاً في مكان آخر. اكره هذا المكان، واشفق على كل سجين، وارى واسمع كل ما يجري...

وبعد قليل، وقد جلس على كرسي في مواجهتي:

ـ لو يعرفون انني ساعدت سامي ايوب، واني اخفيته حتى توقف البحث عنه، لشنقوني؛ وهذا الذي اقوله لك الآن لا يعرفه احد...

وأمال رأسه قليلاً ليتنصت، لما تأكد ان الصمت لا زال قوياً شاملاً، اضاف:

ـ السجن الآن فلتان، وانت شايف: شعر وسكر في الليل، والنهار يغرق جناح النقيب، والمساعد باله مشغول بجيش البنات في بيته وبولي العهد اللي طال انتظاره، والعناصر بين طلبات النقل والترفيع . . .

وتحركت شفتاه بطريقة هي بين الاستفسار وعدم الاهتمام، لأن رد فعلي على ما قاله كان بطيئاً وغير متناسب مع الموضوع الذي طرحه.

هز رأسه عدة مرات، بما يشبه الندم او الاعتراف بالتسرع، وقال:

ـ على كل حال الموضوع راجع لك، فكّر فيه، واذا اقتنعت انا جاهز. . .

ضحك بنوع من الاضطراب، وقال كأنه يخاطب نفسه:

ـ لو كنت قادراً لهدمت السجن كله، ولهّربت كل السجناء، لكن من لا يعرفك لا يقدّرك!

قلت في محاولة لأن ابقي خيطاً:

ـ اتذكر ان اسمك اسماعيل. . .

ـ اسماعيل حمدو

ـ يا اخ اسماعيل اقدر مشاعرك، لكن لا نية عندي للهرب، وانا اشكرك.

رد وهو يهز كتفيه:

ـ لا احد يهّرب الثاني بالقوة، هذه قضية مستحيلة، لكن مع ذلك فكّر، واذا قررت انا جاهز!

لما ابلغت رفاق المهجع بما عُرض عليّ ابدى الجميع تحفظهم عدا رضوان، قال بحماس:

ـ يا جماعة. . . هذه فرصة، فنحن الآن في عزلة كاملة، فاذا استطعنا ان نوصل اخبارنا الى الخارج يمكن ان نخلق حالة جديدة في كل البلد.

وحين تتالت الاعتراضات على الاقتراح، واحتمال ان يكون فخاً، رد بحدة،

ـ انا مستعد للمغامرة، مهما كانت النتائج!

قال رضا:

- اتركنا، يا رضوان، من التحديات والمزاودة، لأن هذه الطريقة لن تحّل المشكلة.

- يا سيدي انا اتنازل، تفضل انت.

- المسألة ليست من يهرب ومن يبقى، المسألة ان هرب احد السجناء، وانت ادرى، يُلحق الأذى بالجميع، ولذلك ارى ان هذا الاقتراح يضرنا ويجب ان لا نتورط.

- وماذا تقول، وما هو رأيك بهرب سامي ايوب؟

قال حامد زيدان بطريقة ابوية:

- يا جماعة... كل قضية تؤخذ بظروفها. سامي لما هرب كان بمهّمة ونتيجة اتفاق، والظروف خدمته. أما الآن فيمكن ان تتحول عملية الهروب الى مسلخ، ولذلك لازم نصرف النظر عنها!

قال رضوان بسخرية وتحدٍ:

- يا سيدي انا اسحب كلامي. انا باقٍ، لا عايز اهرب ولا عايز اترك هذا المكان، لكن يعجبني فيكم طريقةالتفسير والتبرير. سامي ايوب: عنده مهمة. هربه: مفيد! عادل الخالدي او رضوان فرج اذا اتيحت لأي منهما الفرصة: لا، هذا خطأ، هذا خطر، ويمكن ان يؤذي الجميع..

استراح قليلاً، واضاف بلهجة جديدة:

- يعني حضراتكم الآن مرتاحين؟ لازم نبقى مثل الكلاب نهز ذيلنا ونشكر كل واحد يرمي لنا عظمة؟ سجن القليعة عجبكم اكثر من سجن العفير؟ اكثر من السجن المركزي؟ الى متى نبقى خايفين وساكتين؟

رد رضا ببرود مثير:

- على مهلك يا رضوان، الدنيا ما هي يوم واثنين، وعادل حكى عن اقتراح يمكن يكون فخ، والزلمة عرضه عليه ولم يعرضه على احد غيره، ولذلك اختلافاتنا الآن، وهذا الهبش والتحدي، ما هو بمكانه. لازم نتأكد ان احتمال الهرب احتمال

جدي، ويمكن ان ينجح، وبعد التأكد نقرر، اذا اتفقنا، من يهرب ومن يبقى، أما مناقشاتنا الآن فمثل الذين يختلفون على جلد الدب قبل صيده، ولذلك، لازم نطّول بالنا، ولازم نعد للمئة، قبل ما يلعب بروسنا جماعة السجن.

قال ابو مكرم، وبنوع من اليأس:

ـ والله ما قلته، يا رضا، على العين والراس...

وبعد قليل، وبصوت خفيض..

ـ ويمكن الجماعة غايتهم يختبرونا، يلعبوا بنا، فلازم نظل ثقال، وخلونا نفكر بشيء ثاني!

قال رامز في محاولة لتغيير الجو:

ـ بعدما حسمنا موضوع الهروب، ما رأيك باشعار النقيب؟

ـ لا أجمل ولا اروع..

هكذا اجبت، وكانوا يرقبونني، وبعد قليل وبسخرية:

ـ ماذا تتوقعون؟ تصوروا جلاداً بيده كرباج وباليد الأخرى زهرة صناعية للتدليل على الرقة والعطف! تصوروا الجزار الذي يقدم الماء للخروف قبل ان يذبحه، للحظة يظن الخروف ان هذا الانسان يحسن اليه، يحبه، ولا يعرف انه حين يذبح يصبح اسهل للسلخ!

قال رامز ليستفزني:

ـ هذا كلام عام، لا يصف ولا يحدّد، نريدك ان تقول كلاماً ادق في شعره!

ـ شعر صوفي يعتمر قبعة فولاذية ويحمل رشاشاً، بيده بوصلة مهمتها ان تدله الى اقرب خمارة، وبفمه صفارة انذار ضد الديمقراطية، فهل‌هذا الوصف يكفي ام تريد تحديداً اكثر؟

قال رضوان بحدة:

ـ اتركونا من هذي السوالف، وهل يمكن ان يكون شعر الشرطة الا شرطي اضافي له رائحة كريهة؟

حاول رامز ان يستعيد المبادرة:

ـ انا رجل اتعامل مع الملموس، واي وصف يُعطى لشعر النقيب يبقى حكماً مجرداً اذا لم تقدم امثلة!

وقضينا تلك الليلة في استعادة ما اتذكره من شعر النقيب، مع تعليقات وتحويرات لا تلبث ان تتزايد مع كل بيت جديد، الى ان قال حامد زيدان:

ـ اللهم اجعله ضحك خير. . .

وبعد قليل، وفي محاولة لاقناعنا، بشكل غير مباشر، انه حان وقت النوم:

ـ يا جماعة. . . الاختيارية ما هم مثل الشباب: لازم يناموا بكّير، لأنهم يصحون قبل الضو!

رد رضوان:

ـ يا سيدي لا احد منعك من النوم!

قال رامز:

ـ والله انا نعسان!

قال رضا:

ـ هذا الشعر وحده كافٍ لأن يجعلنا ننام دهوراً. . .

وبعد قليل، وباستغراب:

ـ هل تتصورون ان هناك بشراً، وشعراء على التحديد، يفكرون وينظمون بهذه الطريقة؟ ليس ذلك فقط، في اليوم التالي يتخلون عن كل الكلمات الأنيقة، الناعمة، ويتحولون مرة اخرى الى جلادين: بيد الكرباج، وفي الفم مجموعة من البذاءات والشتائم!

قال حمود، وظل ساكتاً طوال السهرة:

ـ لا يمكن ان يتحرر هذا الشعب قبل ان تتحرر لغته، ان تغادر القواميس الى الحياة، وان تتخلى عن الزخرفة والشعر المستعار والاسنان الصناعية، وان تصبح لغة الناس!

واتذكر انني نمت على اصوات الذين واصلوا النقاش في اللغة، وكنت بين فترة واخرى افزّ على ضجيج بعض الكلمات! واتذكر انني حلمت تلك الليلة باشياء بيضاء وصغيرة وبسيطة وفرحة وكنت افهمها واتتمتعَ بها دون ان اعرف ما هي!

قبل ان ينقضي اسبوع على تلك الليلة افاق السجن على شيء غير عادي: الشرطة في حالة استنفار، التعداد يجري مرة بعد اخرى، صيحات النقيب وهرولة المساعدتدلان على ارتباك وحيرة لا يخفيان، وبدأت بعد ذلك الاشاعات: عدد كبير من السجناء العاديين اختفى، ولا يعرف ما اذا هرب هؤلاء او ضلوا طريقهم في الغابة، فقد استغلوا مد انابيب المياه الى السجن، حيث شارك في العمل معظم السجناء، وهربوا.

عند ظهيرة اليوم التالي تأكد هروب محيي الدين الأحدب!

وفي اليوم الذي يليه استدعاني النقيب لكي اصحّح ، لغوياً، المرافعة التي اعدها وسوف يتلوها على مسامع اللجنة التي يفترض وصولها بين لحظة واخرى. التقيت باسماعيل حمدو، الذي عاد تواً من اجازة بدأت قبل بضعة ايام. كان هادئاً وطبيعياً. لما قدم اليّ فنجان القهوة المرة، بعد ان قدم للنقيب، اهتزت يده للحظة، لكن نظرات عينيه كانت حازمة، جريئة، اقرب الى التحدي، وكأنها تقول: مجرد كلمة او اشارة تجعلك تدفع دمك!

بعد ان اصبح الغياب فراراً من السجن، وليس ضياعاً في الغابة، ولما عادت مفرزة التعقب دون جدوى، ورغم ان الاجراءات المشددة بدأت منذ لحظة اكتشاف غياب محيي الدين الأحدب، الا ان عودة المفرزة خائبة ويائسة حوّل السجن الى جحيم.

قال رضوان، بعد ان هجم الشرطة على مهجعنا واوسعونا ضرباً:

ـ قلت لكم: الهروب ممكن وسهل، والرجل يعني كلماته، لكننا كنا جبناء!

لم يجبه احد، تابع بحدة:

- وباعتبار ان من هرّبه عـاد فلا بـد ان تكون المهمـة قد نجحت، ونجـا الأحدب!

ولم يعلق احد. شعر ان أستفـز. التفت الي وقال:

- كنت تشكك وتعتبر المصايد والأفخاخ تزحم الطريق، الم يكن هذا رأيك؟

- لم يكن هدفنا الهروب، هذا كل شيء، وما دامت الفكرة مرفوضة من حيث المبدأ، فكل مناقشة للتفاصيل زائدة.

- وماذا لو اوصلنا اصواتنا الى الخارج، الى الشعب، هل يعتبر ذلك خطأ؟

قال رامز بحدة:

- اسمع يا رضوان: اذا اقتصرت الأمور عند حد الاهانات وضرب اليوم، ولم تصبح قانوناً في السجن خلال الفترة القادمة فنحن بألف خير!

قال رضا:

- انهم يخافون السجناء العاديين، ولذلك لا بد ان ينتقموا منا، وسوف نواجه خلال الفترة القادمةوضعاً صعباً.

- الحجة دائماً جاهزة، والتبرير موجود قبل التفكير، وهـذه طريقـة الجبناء والذين يخافون من اقتحام المخاطر!

هكذا قال رضوان بحدة، وتابع:

- لا اريد ان اتهم احداً، ولكن هذا ما اشم رائحته في هذا المهجع!

قال ابو مكرم:

- المهم، يا جماعة، ان نبقى متماسكين، وان نبقى بعيدين قدر الامكان، لأن لا عـلاقـة لنا بما جرى ولأن الأمر يعني ادارة السجن.

رد رضوان بسخرية:

- ان ما جرى، يا ابو مكرم، يعني الجميع، وسوف ترى!

ولم نتأخر لكي نرى، ففي اليوم التالي لوصول اللجنة بدأ استدعاء السجناء واحداً فواحداً. بدأوا بالسجناء العاديين، وكان عددهم حوالى العشرين، وقد استغرق استجوابهم يومين وليلتين. وفي اليوم الثالث اخذوا ينادون علينا واحداً بعد آخر.

كان دوري الرابع.

المحققون ثلاثة، يجلسون في صدر غرفة النقيب، وراء طاولة أعدّت لهذا الغرض، وعلى كل من الجانبين طاولة، ناحية اليمين للنقيب، وناحيه اليسار لكاتب الضبط، أما المساعد فقد جلس ومجموعة من الشرطة على مقعد طويل، قرب الباب.

- اذكر كل ما تعرف عن السجين محيي الدين الأحدب

وحين ذكرت ان معرفتي به لا تتعدى التحية، واغلب الأحيان عن بعد، ولا اعرف عنه شيئاً خاصاً او شخصياً، تبادلوا، فيما بينهم، النظرات، ولمحت على وجه احدهم ظل ابتسامة!

- اذكر الأشخاص الذين كان يلتقي بهم السجين المذكور، خاصة من مهاجع السياسين.

- لا اذكر انه كان يلتقي باحد منهم، واذا جرى شيء من هذا ففي الساحة، خلال فترة التنفس، وكان يقتصر الأمر على تبادل التحيات واحاديث عامة.

- من هؤلاء؟

- لا اتذكر.

- لا تتذكر؟

حاولت ان استعيد بعض الصيغ التي قرأها النقيب في المرافعة،وهي عبارة عن كلمات كبيرة، لها رنين. ابتسم المحققون وهم يسمعونني، ونظروا ناحية النقيب. قال النقيب في محاولة للتوضيح:

- السجين الماثل امامكم الآن كان يُعاقب في فترات سابقة بأن يكتب الف سطر يومياً، لأنه الوحيد من آل الخالدي الذي شذ عن سنن العائلة، وانتم تعرفون منزلة هذه العائلة في الآداب الرفيعه وقد اتبعت معه هذا الأسلوب لعله يعود عن غيه ويسلك الطريق القويم!

قال لي المحقق الجالس في الوسط:

ـ اذن اكتسبت الفصاحة من آلاف السطور التي كتبتها؟

وبعدْ قليل وهو يتوجه للنقيب:

ـ وماذا كنت تطلب منه ان يكتب، يا سيادة النقيب؟

فوجيء بالسؤال، رد بارتباك:

ـ كنت اطلبمنه ان يكتب «اقّر واعترف، انا السجين عادل الخالدي، اني حمار مدّبر وكلب نّباح، لا احسن التفكير او التصرف ولهذا انا سجين»

وحين ابتسم المحققون تشجع، واضاف:

ـ وكنت اكلفه بكتابة بعض ابيات من الشعر. . .

ـ أبيات من نفس النوع؟

هكذا سأل أحد المحققين، فرد النقيب:

ـ ما يرد على البال، لأن الهدف: العقوبة

قال رئيس لجنة التحقيق:

ـ من تظن انه سهّل او ساعد السجين محيي الدين الأحدب عـلى الهرب، ولماذا؟

ـ لا اعرف اي شيء عن هذا.

ـ لم اسألك تعرف اولا تعرف، سألتك من تظن انه ساعد او سهّل؟

ـ لا اظن باحد.

ـ ما هي علاقته برضوان فرج وحامد زيدان؟

ـ بحدود علمي ليست له بهما اية علاقة.

ـ ماذا قال له السياسيون؟

ـ لم يقولوا شيئاً.

ـ ولماذا لم يفكر في الهرب قبل وصول السياسيين؟

- لا اعرف، ويمكن ان يوجه له السؤال.

- كيف كانت علاقته بادارة السجن؟

- لا اعرف.

- هل رأيته يشتم او يتعارك مع أحد؟

- لا

- هل عرض عليك احد ان تهرب؟

- لا

قلت الكلمة الأخيرة وقد شعرت بالاضطراب، فلا بد ان تكون لديهم معلومات من نوع او آخر تشير الى مفاتحتي بالأمر، وربما التفتُ في تلك اللحظة لالقي نظرة على العناصر الموجودة الى جانب المساعد، لكي اتأكد ما اذا كان اسماعيل حمدو ضمنهم. سألني المحقق من جديد، بطريقة استفزازية:

- هل انت متأكد ان لا احد عرض عليك الهرب؟

- نعم متأكد.

قال رئيس اللجنة بسخرية:

- من صفاتك الفصاحة، وقد عرفنا انها ارث عائلي وتدريب في السجن، ومن صفاتك ايضاً: الوثوق، وانت الآن تؤكد ان لا احد عرض عليك فكرة الهروب.

سألني المحقق الآخر:

- هل لك علاقة بعملية هرب سابقة؟

- لا

- لماذا حققوا معك في سجن العفير لما هرب رضوان الفرج؟

- لأننا كنا في نفس المهجع، وقد حققوا مع الجميع.

- هل عاقبوك بعد هذا الهروب؟

- عاقبوا الكثيرين، عاقبوا السجن كله!

قال رئيس اللجنة وهو يهز رأسه بتهديد وسخرية معاً:

ـ اذا قدر لك ان تخرج من السجن في يوم من الأيام يجب ان تدرس الحقوق، لأنك الآن ، وقبل الدراسة نصف محامٍ واكثر، لكن سوف نرى!

ـ قال النقيب مدحت عثمان:

ـ ان هذا السجين، يا سيادة المقدم، يبدو ناعماً وديعاً، لكنه شديد الخبث وكذاب اشر!

نظرت الى النقيب وابتسمت ابتسامة صغيرة. قال مهدداً.

ـ اذا اخطأنا في الماضي، ولم نعاقبك العقوبات الرادعة فسوف ترى، كما قال سيادة المقدم!

بعد ان انتهى التحقيق جمعنا النقيب مدحت عثمان في ذات المكان عند السور المطل على وادي الموت. كان محتقناً بادي التجهم والغضب. ومثل المرة السابقة: انور نور الدين الى يمينه، بيده أوراق وقلم ومستعد للكتابة، والى اليسار المساعد خليل وعدد من العناصر. تطلع الى الوادي، الى الجبل، ثم تطلع الينا، وقال:

ـ تأكد لنا ان هروب محيي الدين الأحدب هروب سياسي، وان السياسيين وراءه، اذ لم يسبق ان فكر اي من السجناء العاديين بالهرب، رغم طول المدة؛ هذا اولاً، وثانياً الطريقة التي اتبعت في حالة سامي ايوب هي نفسها في حالة محيي الدين الأحدب، وهذا ما يؤكد ان الجهة التي نظمت الهرب هي نفسها، وربما حمّلته رسالة سياسية.

استراح قليلاً، تطلع الينا وهز رأسه عدة مرات، وكانت اقرب الى التهديد وتابع:

ـ واللجنة فوضتني بالصلاحيات الكاملة من أجل الوصول الى الحقيقة...

وبعد قليل:

ـ وحتى توفروا على انفسكم العذاب فان الاعتراف اسهل الطرق لخلاصكم، فماذا تقولون؟

لم يسمع جواباً، ولم يكن يتوقع اي جواب، تابع:

ـ هذا الوادي شكا اليّ انه لم يتلق اية فريسة منذ مدة طويلة، ولا بد ان

الواويات تزعجكم مطلع كل مساء وهي تصرخ وتنادي طالبة شيئاً تأكله. . .

ضحك بفرح لهذه الصيغة الشعرية التي تـدفقت من فمه، واضـاف بنفس النبرة:

ـ لازم تعرفوا: الوادي يناديني، الحيوانات تستنجدبي،ولا يمكن ان اصمت عن هذه النداءات ، فاختاروا اي الشرين تريدون!

قال حامد زيدان بغضب لم يستطع ان يخفيه:

ـ يا سيادة النقيب: ليس لنا علاقة ولا نعرف اي شيء عما حصل، يجب ان تتأكدوا من ذلك، أما اذا اردتم ان تصفّوا حساباتكم، وان تنتقموا منا فهذا امر آخر.

ـ انت، يا شيبة الابالسة، آخر من يحق له الكلام، لأن سوابقك اكثر من ان تحصى!

ـ اذن هي تصفية حساب!

ـ المهم ان نصل الى الحقيقة، الى نتيجة، ولا شيء يهمنا اكثر من ذلك او غير ذلك، و. .

توقف، صمت، هز رأسه، وقال، وكأنه يخاطب نفسه:

ـ اللوم يقع عليّ، لأني وثقت بالآخرين، ولم اعالج الأمـور بنفسي، لكن ابتداء من هذه اللحظة فلا بد ان اعّرفكم من يكون مدحت عثمان، لقد انتدبته الادارة لهذا السجن بالذات لأنها تدرك اي رجل اختارت، ولأية مهمة كبيرة يعجز غيره عن ادائها.

وفجأة انفعل، وبطريقة غاضبة:

ـ اتريدون ان تدمروا تاريخي؟ ان تجعلوني اضحوكة؟ ان انقل من هنا كعقوبة او نتيجة العجز؟

ولم تطل المناقشة، سألنا النقيب بحدة وبنفاد صبر:

ـ هل لديكم ما تعترفون به، ما تقولونه؟

وحين صمتنا، ولم تُقل اية كلمة، قال للمساعد خليل:

ـ الى المهاجع!

شعرنا ببعض الراحة، ونحن ندخل المهجع، اذ تكفينا واحدة من العقوبتين: الشتائم والتهديدات، او العذاب الجسدي.

قبل ان يبزغ الضوء، وبشكل مفاجىء، هجموا علينا: هجموا كالكلاب الضارية: الضجة والأصوات، اضافة الى كميات كبيرة من المياه الباردة تنصب علينا لا اعرف من اين. عدا عن الرفسات والصفعات والضرب باعقاب البنادق والصيحات والشتائم. ما كدنا نستوعب الحالة حتى انهالت علينا الكرابيج مع العصي تطلب الينا ان نتجمع بسرعة في الساحة. استغرق ذلك بضع دقائق. كان برد الصباح قارصاً، خاصة مع هذه الكمية من المياه الباردة والمفاجئة، وبعد دفء الفراش الذي جهدنا من أجل الوصول اليه.

كان النقيب، هذه المرة، قائد الحملة. ما كدنا نتجمع، حتى طلب الينا ان نصطف في رتل احادي، واصطف خلفنا عدد مماثل او يزيد من الشرطة. طلب الينا ان نرفع ايدينا الى فوق، وان يقف كل منا على رجل واحدة. فعلنا كما طلب منا، لكن العصي التي امطرتنا، الصفعات التي كانت تنهال علينا فجأة، جعلتنا لا نعرف ماذا نفعل. كان النقيب، والى جانبه الكاتب، في مواجهتنا. وكما يفعل القرّاد، كان يصرخ، كان يطلب من الشرطة ان يزيدوا من ضربهم، ان يكسروا اضلاعنا واسناننا!

لا اريد ان اتذكر، فالأمر بسرعته وغرابته يجعل وصفه او تحديده اكبر من الكلمات. كنت انظر الى الذين حولي في الرتل، في محاولة لأن افعل مثلهم، ان اقلدهم، لكن كل محاولة بنظر الذين خلفنا كانت تبدو خاطئة وتستحق بضع ضربات اضافية، عقاباً لهذا الخطأ!

تورمت رقابنا من الصفعات، وكذلك اكتافنامن العصي، وضاعت صرخات النقيب في هذه الرياضة السويدية المجنونه!

في لحظة معينة انطلقت صافرة، كانت صافرة انور نور الدين!

توقف الضرب والجنون بعد الصافرة. قال النقيب:

- هرولة الى العين روحة ورجعة وبدون توقف.

ومثل المجانين، في تلك الممرات الجبلية القاسية، بدأنا تلك الرحلة. كنا

نركض ونتدحرج،لأن الضربات على ظهورنا تلاحقنا، وكنا نجفل ونرتدّ والعصي تبرز من وراء الأشجار لتلطم وجوهنا، وكذلك الأرجل وهي تمتد لتوقعنا!

واذا كان النقيب وحده يصدر الأوامر في السجن، فقد بدا الأفراد اكثر تفنناً وهم يصدرون الأوامر الينا بأنفسهم! لا يمكن ان تُحصى العصي التي تلقيناها في الهبوط الى القعر، واثناء العودة. كان الأفراد كامنين في كل زاوية، في كل منعطف، وكأنهم يريدون ان ينتقموا منا، فضرباتهم تنهال علينا في كل لحظة، ليس لأنّا تباطأنا او تأخرنا، وانما لتشعرنا بمدى حرصهم وحقدهم!

ظللنا ذلك اليوم نهبط ونصعد، وكأننا في سباق تتابع لا نهاية له! اذ ما نكاد نصل الى السجن، وكان النقيب هناك، حتى يأمر بأن نعود مرة اخرى!

وبدأنا نتساقط الواحد بعد الأخر، ولم يُستطع لمّنا واعادتنا الى المهاجع الا بصعوبة. وربما لا يذكر اي منا كيف انقضت تلك الليلة.

في اليوم التالي تركونا، لأنه كان دور السجناء العاديين.

سمعنا الصرخات والشتائم، وفي وقت من الأوقات سمعنا اطلاق نار ثم خيم الهدوء! ماذا حصل؟ هل قتلوا احداً؟ هل اطلقوا النار للتخويف؟ وما هو رد فعل هؤلاء السجناء؟ ونحن، هل علينا ان نفعل شيئاً وهل نقوى على ان نفعل؟

قال الطبيب الذي جيء به لمعالجة بعض المصابين:

ـ لا اتصور ان هنا مخلوقاً يمكن ان يكون بهذه الدرجة من القسوة والأنانية، وايضاً من الجبن، كالجلاد، قاس لأنه يخاف الآخرين، واناني لأنه لا يعرف الشبع ولا يعرف كيف يتمتع بما لديه، وجبان لأن وسيلته الوحيدة للشعور بالقوة: ايذاء الاخرين!

كان الطبيب يحّدث نفسه اكثر مما يحدثنا، وبدا شديد القلق على حامد زيدان وهو يفحصه. تابع بنفس اللهجة؟

ـ ماذا يستطيع الطبيب ان يفعل؟ وما داموا يريدون قتل البشر ما الحاجة لوجود الطبيب او لاستدعائه في آخر لحظة؟

وحين تساءلت العيون، ومعها الكلمات المتلعثمة، حول صحة حامد، رد بغضب:

ـ اذا امكن انقاذه هذه المرة، فهل يتصورون ان الطبيب مثل الله يقول للأشياء كوني فتكون؟

زرقه ابرة، وفتح حقيبته واستخرج علبة دواء، وقال للذين حوله:

- آمل ان يتحسن، والمهم الآن ان يستريح!

وهو ينهض:

- لدي من الهموم ما يكفيني، واعتقد انكم لن تروا وجهي بعد اليوم، ولن ازور هذا السجن اللعين ابداً!

أما ما حدث بين السجناء العاديين والشرطة فقد عرفناه بالتدريج، وبعد بضعة ايام. اذ ما كاد النقيب يطلب منهم الاصطفاف، وفي نفس المكان الذي وقفنا فيه، وحين بدأ يوجه اوامره ولم يستجيبوا،فجأة انهالت عليهم العصي والصفعات فاشتبكوا مع الشرطة، مما ادى الى اطلاق النار وجرح عدد منهم. وقد خشي النقيب النتائج فاوعز الى رجاله بالتوقف، واعيد السجناء بصعوبة الى المهاجع، وبعث يستدعي الطبيب.

في وقت لاحق، وبعد ان غاب النقيب ولم يعد يراه احد، سرت اشاعات قوية انه وقع مريضاً، واصبحت حالته تنذر بالخطر. وقيل ان سبب غيابه غرقه في السكر ليل نهار بحيث لم يعد يصحو ابداً. وهمس احد المجندين ان النقيب قدم استقالته وينتظر الموافقة عليها.

ان شيئاً ما اصاب النقيب، خاصة وان المساعد الذي صدف ان عملية الهروب جرت اثناء اجازته الاسبوعية، اخذ يستعيد، وبسرعة نفوذه وقوته من جديد، وان بدا اضعف من السابق، لأنه يعتبر نفسه مسؤولاً بشكل ما عما حصل، ولذلك اصبح خلال هذه الفترة اكثر قسوة وحدة، وان بدا شديد الحيرة والقلق ايضاً.

ولأنه يحتاج الى حامد زيدان، لكي يؤكد له مرة بعد اخرى ان يحيى في طريقه الى الدنيا، وكان يطرب لمجرد سماعه مثل هذه الكلمة، فقد تعمد ان يستدعيه الى غرفته، او يسأله، بعض الأحيان، في الساحة، حين يكون ابومكرم وحيداً مهموماً يتمشى. وقد صدف ذات يوم، وكاناوحيدين في الساحة، وبعد ان مدّ اليه كفه ليقرأ فيه احداث الأيام التالية، ان وصل العريف وبعض الأفراد. للحظة ارتبك المساعد، لكن فجأة، وكما تغيّر الحرباء لونها، تغيّر. اذ بعد ان كان متوسلاً وديعاً، وهو يمد يده، انقلب الى وحش ضارٍ.

ـ . . . وتمسك ايدي يا ابن الكلب؟ تتصور انك اذا انفردت بي تغدر بي وتقتلني؟

وتطلب عينا المساعد وكلماته العون. يهجم الشرطة على حامد زيدان، يلقون به ارضاً، يضربونه بأرجلهم، بأيديهم، يصرخ، يحاول ان يدافع عن نفسه، لكن قبل ان نصل اليه كان قد شبع ضرباً، وكان المساعد مع كل ضربة يزداد ضراوة وتحدياً!

ونحن نضّمد جراحة ونواسيه، قال، وكان صوته ساخراً:

ـ لن اتورط مرة اخرى. . .

وحين نظرنا اليه مستغربين، تابع، وهو يحاول ان يبتسم:

ـ لن اصبح، بعد اليوم. منجماً او ساحراً!

وضجّ المهجع بالضحك، وبعد قليل:

ـ ابن الحرام مدّ يده مثل الشحاذ: «ابو مكرم: ابوس ايدك، واريدك تشوف كف هالفقير». وبعد ما نويت وامسكت يده هجموا مثل الذئاب، ووين الجنب اللي بوجعك، اولاد الكلب ضربهم ضرب كفار، قلوبهم سودا، وعقولهم ببساطيرهم، لكن بسيطة. . .

ورغم الألم والكدمات فقد ضحك، وآلمه الضحك، لكن بعد ان هدأ اضاف:

ـ بسيطة. . والله ابن الكلب اذا سألني مرة ثانية لأقول له ان ما سيأتيك ليس بنتاً واحدة بل ومعها زوج من السعادين وراح يشوف!

وقبل ان نتحداه بدأ السجناء العاديون:

ـ يا غايبين طولتوا الغيبة. . .

ويرد عليهم آخرون:

ـ تركونا صغار، كبرنا، طرنا، وما راح يشوفونا!

ـ وغائب؟

ـ طار، صار خبر من الأخبار، سامعينا يا اهل الدار!

يسمع المساعد، يضجّ، يمتلىء بالعناد والتحدي، يلوب مثل جرادة، مثل عفريت. يطل على مهجعنا، يتطلع بامعان، ويقول:

- آخ منكم يا اولاد الحرام، من يوم ما شفناكم ما شفنا الا الشقا

رد عليه حامد زيدان:

- يجي يوم ونتقابل، وبغير هذا المكان، يا مساعد خليل، وتشوف!

يتطلع اليه المساعد ويصرخ:

- ابو مكرم . . . والله انا ومياك للوحة، لا تغلط!

- غلطت وخلص، بعد ذاك اليوم!

- غلط غير مقصود، يا ابو مكرم!

- مقصود او غير مقصود، ما يفيد، لأن ضلوعي تكسرت!

- ضلوعك بعيوني، يا ابو مكرم

- طز عليك وعلى عيونك

- لا تغلط يا ابو مكرم

- غيري غلط قبل غلطي، وانا معذور!

- دخيلك يا ابو مكرم

- بلط البحر، لأن المنجم فيّ مات، يا ابو البنات!

- حتى انت يا ابو مكرم؟

- حتى انا، وبعد اليوم، واذا شفت الانس او الجان راح اقول لهم كثّروا لهذا المحروس البنات لأنه لا يستاهل غير هيك!

- هيك يا ابو مكرم

- هيك ونص، يا مساعد خليل!

دخل الصيف. النسمات الدافئة تهب والنهارات تطول، والجو يتغير يوماً بعد يوم، ويفترض ان يتغير الرجال، ان يُخلقوا من جديد، جسداً وروحاً، لأن العادة في مثل هذه الأوقات، وفي مثل هذه الأماكن، ان تصخب الحياة وتتفتح، وقد خلّفت وراءها شتاء طويلاً قاسياً. لكن كمداً اقرب الى الحزن خيم على القلوب، وسيطر على العلاقة بين السجناء والسجانين. انه كمد غير مفهوم ويمتزج بالحيرة، فلا احد يعرف ماذا يفعل او ماذا يقول، عكس فترات سابقة كانت تبدو فيها الحياة اكثر يسراً او حتى اكثر صعوبة، لكنها مفهومة ايضاً، ويمكن للانسان ان يتكيف معها.

قلت لرامز، ذات غروب، وكنا نتمشى في الساحة:

- من اغرب الأمور التي اكتشفتها في الأيام الأخيرة انني اعتبر هذا المكان من اقبح الأمكنة التي رأيتها في حياتي.

وحين بدا له كلامي غير مفهوم وبعيداً، اضفت:

- لو اخذت هذا المكان بشكل مجرد، اي كطبيعة، ربما يعتبر من أجمل الأماكن في عمورية: الخضرة، المياه، المناظر الطبيعية، اضافة الى اعتدال الطقس، خلال الصيف. وربما لو اقيمت في هذه الجبال مصحات واستراحات لفاقت بجمالها اماكن كثيرة في العالم، لكن ان يتلخص المكان الآن بسجن معزول ومليء بالعنف والجنون، فانه يجعله مكاناً كريهاً!

قال رامز بحزن:

- الأماكن، بالدرجة الأولى، البشر.

ـ اوافقك ، يا صاحبي ، ولكي نكون اكثر دقة : العلاقات بين البشر. اية علاقات تجعلك تشعر بالدفء، بالحب، بالارتباط، هذا، في النتيجة، هو الوطن!

زفر، ولم اسمع في حياتي زفرة مثل هذه، وراح يهذي :

ـ قد لا تكون بلادنا اجمل البلاد، لأن هناك بالتأكيد بلداناً أجمل، ولكن في الأماكن الأخرى انت غريب وزائد، أما هنا فان كل ما تفعله ينبع من القلب ويصب في قلوب الآخرين، وهذا الذي يقيم العلاقة بينك وبين كل ما حولك، لأن كل شيء هنا لك، انت، المرآة التي ترى فيها نفسك ويراك فيها غيرك، ثم الجذر الذي انحدرت منه، والامتداد الذي تواصل الحياة من خلاله، وعشرات، مئات، التفاصيل الصغيرة التي تجعل الانسان يحس بالانتماء والارتباط والتواصل.

قاطعته، وبنوع من المشاكسة :

ـ لكن. . .

تطلع اليّ بتساؤل اقرب الى الانكار، فقلت :

ـ كل ما قلته صحيح بشرط واحد. . .

انتظر، لم يسأل ، تابعت :

ـ ان يشعر الانسان انه حر، انه واحد من مجموعة تعرف كيف تضحك وتفرح، وأيضاً كيف يموت دون خوف. . .

هز رأسه وقد بدا عليه الحزن، ومثل ما هذى هذيت :

ـ الخوف لا يقود ابداً الى الحب، وقد لا اكون مخطئاً اذا قلت انه اقصر الطرق الى الكراهية، ثم الحقد، واخيراً الى العنف او اكثر. الخوف قد يخلق الطاعة الظاهرية او الشكلية، وربما يوحي بالاستقرار، لكن لا يؤدي الى الطمأنينة. ثم ما قيمة الحياة اذا كان طرفا العلاقة خائفين، واذا انعدمت الطمأنينة؟

لا اعرف متى اقترب رضوان، وكيف التقطت اذناه جزءاً مما يدور بيننا. ما كدت اكتشفه، واكتشف الابتسامة الرضية التي ملأت وجهه، حتى قال، وكان صوته مخرشاً :

ـ الجماعة معهم حق. .

اشار الى قسم السجناء العاديين، رغم ان كلامه لم يكن واضحاً، واضاف :

- نحن الأفندية نتخيل العالم ولا نعرفه، نتصوره كما نريد اكثر مما هـو على حقيقته، وهذا يقودنا الى مجموعة غير محدودة من الأخطاء والأوهام والأحلام. .

وضحك ثم اضاف:

- وتكسير الأضلاع . . .

وتغيرت اللهجة تماماً، اصبحت صارمة، ولا تخلو من غضب:

- حبيبي، انت وهو، اذا ظلينا نفكر سياسة بهذه الطريقة، طريقة الأفندية، ما راح نصل ابداً. الواحد اذا اراد يشتغل سياسة لازم يفكر بطريقة السياسيين: الحيلة، المكر، التكتم، والتآمر، والا ما في فائدة!

- سأله رامز باستفزاز:

- ما هو المقصود بالفائدة؟

- ان نصل الى الحكم!

هكذا رد رضوان، وهو يتقدم لكي يواجهنا، وبعد قليل:

- أما ان نظل مبشرين ووعاظاً؛ أما الافتراض ان النصائح وحدها يمكن ان تغير الناس، تجعلهم يتراجعون عن اخطائهم، فاننا نكون واهمين، اوكمن يحرث في البحر، كما يقولون!

تدخلتُ في محاولة للتحديد:

- هذا موضوع واسع ومتشعب، وفيه اجتهادات كثيرة ايضاً، لكن المسألة التي اعتبرها اكثر اهمية من غيرها: كيف يمكن الاتفاق على قواعد للعبة. ومثل ما تعرفون، اية لعبة في الدنيا لها قواعد، بما فيهالعبة السياسة، لكنساستنا وانظمتنا مهمتها الأساسية ان تخترق، ان تتجاوز القواعد، وهذا ما يؤدي الى ما نراه الآن، بما فيه: السجون والأضطهاد والخوف، وايضاً انتظار المفاجآت، وبالنسبة للطرفين: الحاكمين والمحكومين.

قال رضوان بحدة:

- بدون فلسفة كثيرة: الجماعة، الحكام، يريدون ان يحكموا،وان يستمروا، ومن اجل هذه الغاية كل شيء بالنسبة لهم مشروع، وممكن، لذلك فـان تحكيم

القواعد او المبادىء في تفسير الواقع والسلوك لن يؤدي الا الى المزيد من الأخطاء، هذا ما اتصوره، وعدا ذلك غباء.. غباء مطلق!

جاء ابو مكرم، كان يبدو مثل كبش، فالسمنة القديمة مع القصر، اضافة الى الخطوات الصغيرة، تجعله يبدو اكثر امتلاء مما هو. تطلع الينا بعينين، التساؤل فيهما اقل من الاشفاق والمحبة. لما اقترب منا تماماً، قال، وكان صوته ابوياً.

ـ انا متأكد ان المناقشة تدور حول جنس الملائكة، ام انا غلطان؟

رد رضوان بسخرية:

ـ المناقشة، يا ابو مكرم، حول الملائكة، لأننا لم نصل بعد الى تحديد جنسها!

قال رامز دون حماس:

ـ نعلك الصوف، يا ابو مكرم، فقط لتمرين الفك!

قال حامد زيدان، وقد شاب صوته الحزن:

ـ مثل هذا السجن الملعون لا يعلّم الانسان الا ان يأكل نفسه. في سجون اخرى، في اوقات غير هذه الأوقات، كنا اكثر سعادة...

ضحك بحزن، واستدرك:

ـ لا اقصد سعادة، ولكن كنا اقل شقاء. كان الواحديتعلم الكثير في السجن: كيف يفكر، كيف يتكلم، كيف يتعامل مع الأمور بعقل عملي. أما هنا، وسط الجنون والمزاج وتهيئة الأمور لولاية العهد، فقد اصبح الواحد منا جزءاً من السيرك....

قهقه، ثم اضاف وهو يخاطب نفسه:

ـ حتى انا لا تنقصني الاّ طاسة ومسبحة طويلة ولفة كبيرة لكي اصبح كاتب حجب لحبل النسوان، وبعد الانجاب اتحول الى مطهر، واذا مات الأجداد اتحول الى مغسل اموات!

قال رضوان بنوع من التعريض:

ـ من جدّ وجد والبداية ليست سيئة.

ـ المهم، يا رضوان، ليس البداية وانما النهايه!

هكذا رد ابو مكرم، وهو يهز رأسه، واضاف:

- اللهم حسن الختام.

قال العريف ادريس، وهو يتطلع الينا بسخرية، فقد صدف ان المساعد في اجازته الاسبوعية:

- والله عال، الواحد وهو يتفرج عليكم يتصور انكم رايحين على مولد او راجعين من عرس: بالكم فاضي وليلكم طويل...

ثم فجأة ويغضب:

- يا الله، يا اولاد الكلب، كأنكم طرشان وعميان، لا سمعتم الجرس، ولا شفتم الناس اللي دخلوا للمهاجع.

رغم الحزن وتشعب المواضيع، كان بودي ان نتابع، لكن ما كدنا ندخل المهجع حتى وجدنا الشباب غارقين في مناقشة من نوع آخر: «هذه الخضرة الهائلة في الطبيعة، والتي تمتدمن الأشجار الى الطحالب، من المياه الى الضفادع، لماذا لم تصل الى الحيوان والانسان؟ لماذا لا نجد كلباً أخضر او فرساً خضراء مثلاً، ولماذا هناك بين البشر الأجناس البيضاء، والسوداء والصفراء والحمراء وليس بينها الجنس الأخضر»؟

هكذا كان يجري الحديث. تطلعت الى رامز وتساءلت:

- هل نواصل حديثنا؟

- لدينا وقت طويل، والجو كما ترى، اكبر من امورنا الصغيرة!

وخلال فترة قصيرة اندمجنا في جو الطبيعة الخضراء. رضوان الذي بدا مثل طفل، وقد فوجىء بهذه الحقيقة التي ظلت غائبة عنه، رغم قربها، وكان في البداية يتساءل، ما لبث ان أخذ، فاصبح يسأل ويجيب في نفس الوقت!

قلت لنفسي «لولا قدرة السجين على التكيف، وان يجد ما يشغل به نفسه ووقته لما استطاع احتمال صعوبة وجحيم العزلة، والآخرين، وان يبقى دائماً غير نفسه!»

واذا كانت العادة الا يقترب الحرس من المهاجع بعد التعداد والعشاء، وان

نُترك وحدنا نذبل الى ان ننام، فان غياب المساعد في اجازته الاسبوعية، وفي محاولة لاثبات الوجود وفرض الهيمنة، فقد مرّ علينا العريف ادريس مرتين تلك الليلة. المرة الأولى نظر، استمع، هز رأسه عدة مرات، ثم مضى. أماقي المرة الثانية، وقبل ان ننام بقليل، فقد استمع للحديث الذي يدور، وما كادت تمر دقيقة او اثنتان حتى هدر صوته، وكان غاضباً وساخراً معاً:

- فعلا ما عندكم غير لساناتكم؛ ولو ما كان لكم اي ذنب، يكفي ان يحبسوكم على لغوكم: فرس خضراء وكلب اخضر...

وبعد قليل ويغضب:

- انقبروا، اخرسوا، واذا جيت مرة ثانية وسمعت اي صوت والله لأخلي الخِضَر يغيّب الشريف فيكم...

وهو يستدير ويمشي:

- يا حيف، رجال مشوربين، الصغير فيهم بعمر ابوي، وحاملين شهادات ولا اعلى، ومع ذلك لاهين حالهم بحكي الأولاد الزغار!

قال رضوان، بعد ان ابتعدت خطوات العريف ادريس:

- اذا قدّر لي ذات يوم فوالله لأسوّي العريف بلون الخّس او الخيار!

علق رامز:

- مثل ما سوّانا قبل فترة بلون البندورة!

قال حامد زيدان وهو لا يقوى على اخفاء ضحكته:

- استرونا يا شباب، لأن العريف اذا خضّرت معه يرجع ويسوينا سلطة!

وانزلقنا الى النوم واحداً بعد آخر. اللون الوحيد الذي يملأ كل شيء هو الأخضر. اتذكر انني رأيت عشرات الألوان الخضراء، كانت كلها خضراء، لكنها مختلفة الخضرة، وتمتد بصفوف لا نهاية لها. كانت رائعة، رطبة، بعضها كثيف والآخر يشبه الدانتيل وهو يهفهف كأنه جناح فراشة او رفة جفن، واتذكر ان القمر ملأ السماء فجأة، كان لونه اخضر زاهياً، تماماً مثل اوراق الأشجار في بداية الربيع، وكان الندى يتحلب منه على شكل رذاذ خفيف، والناس ينظرون اليه بفرح، ثم فجأة اخذ

القمر يسوّد الى ان اختفى، ولم اعد اتذكر شيئاً.

أما في اليوم التالي، واتذكر انه اربعاء، ومن ايام حزيران الأولى، فقد افاق السجن على شيء غير عادي: المساعد خليل العائد من اجازته كأنه الوحش الهارب من قفص. كان يريد ان يتشبث بأول فريسة لكي يمزقها.

دار على المهاجع بسرعة. وتوقف عند مهجعنا:

ـ ها، يا اولاد الشرموطة، شايفكم اليوم معنترين، وعين الواحد منكم كأنها عين قحبة...

وبعد قليل:

ـ يعني اذا غبت عن السجن يوم واحد تتصوروا الأمور فلتت؟ غاب القط العب يا فار!

هز رأسه عدة مرات، وهو يتطلع في الوجوه، وكان معه ثلاثة من العناصر، وتوجه لحامد زيدان:

ـ وانت يا شايب الخرا. تلعب من وراء ظهري، ها؟

رد ابو مكرم بصوت لا يكاد يسمع:

ـ الله يجيبك يا طولة البال!

ـ علي صوتك اذا كنت رجال.

ـ يا محشوم، اكفينا شرك، واعطينا عرض كتافك...

فتح المساعد باب المهجع بسرعة وتحدٍ ودخل. وقف فوق رأس حامد، وقال بصوت رخوٍ:

ـ اعطيك عرض كتافي؟ انت اللي يوجه لي الأوامر.

اهتز رأس حامد زيدان واحتقن وجهه، قال يخاطب نفسه:

ـ لا حول ولا قوة الا بالله!

صرخ المساعد، كأنه يؤذن:

ـ لك انا كسّرت روس كثيرة اكبر من هذا الراس، انا ما ينضحك عليّ، ولا

احد يقدر يلعب من ورا ظهري!

رد حامد زيدان بنفاذ صبر:

- يا مساعد خليل، الله يخليك، اتركنا وحل عنا، احسن لك.

- تهددني؟

- افهمها مثل ما انت عايز!

ونهض حامد زيدان. تكهرب المهجع واحتقن، اصبح كأنه وتر مشدود. اذا تراجع المساعد هُزم، اذا لم يثبت جدارته الآن فقد كل شيء. قال بطريقة استعراضية:

- الظاهر انك ما تتربى الا اذا تكسر راسك.

- اخرس يا كلب، يا ابن الشرموطة.

هكذا صرخ حامد زيدان وهو يهجم عليه.

لم يصدق المساعد، ولم يصدق الذين معه، وخلال دقائق قليلة اشتعل المهجع، تحول الى كتلة من الجمر، وخلال دقائق لاحقة اشتعل السجن، كل السجن. هرب الذين مع المساعد، وتحول المساعد ذاته الى فأر تنهال عليه الصفعات وتدوسه الأرجل، وهو يصرخ، يستغيث، يحاول ان يفلت، لكن الباب الذي اغلق باحكام، وحالة الهيجان التي سادت، جعلت الأمور تأخذ منحى خطراً. وحامد زيدان الذي كان اكثر الناس هيجاناً وغيظاً، وهو يهجم على المساعد، ما لبث ان تنبه لاحتمال ان يموت الرجل بين ايدينا وارجلنا، صرخ بغضب وحدة:

- كفى.. كفى.. يا شباب!

وحين لم يستجب احد لصراخه، وبدا انه يفقد سيطرته، صرخ بصوت اعلى:

- اتركوا هالكلب لأنه راح يموت بين ايدينا...

بصعوبة، وبعد فترة، وقف الضرب.

كان المساعد ملقى على الأرض، وقد تمزقت ثيابه، والكدمات والدماء ظاهرة على وجهه، وكان مغمض العينين ويتنفس بصعوبة.

سُمعت عدة طلقات في الهواء، ووصل النقيب وهو يشهر مسدسه وحوله عدد كبير من الشرطة ومعهم اسلحتهم.

كان النقيب بملابس النوم، شاحباً، زائغ النظرات، وكأنه لم يستوعب، بعد، ما حصل.

بعد الكثير من التهديدات والمناقشات، وقد اتخذنا من المساعد متراساًلنمنعهم من اطلاق النار. ونتيجة مفاوضات طويلة، تدخل في احدى مراحلها بعض السجناء العاديين، وافقنا على ان نفرج عن المساعد شرط الا يتعرض احد منا للعقوبة، وان تنتهي الأمور عند هذا الحد!

أُخرج المساعد كالجثة، سُحب اول الأمر، ثم حُمل، وخيمت على السجن حالة من الترقب المشوبة بالخوف، فقد اصبحنا على يقين ان الغد مليء بالدوي، وتكاد تلتقطه الاذن منذ الآن!

في اليوم التالي، او الذي يليه، سنعرف ان ثورة الجنون التي اصابت المساعد وجعلته يتصرف هكذا، ان الحمل الجديد للزوجة الثانية، وقد راهن عليه، وكان يحسب الأيام، نتيجة تنبؤات حامد زيدان، هذا الحمل سقط قبل اكتمال الشهر الثالث، وقيل انه انثى . . ايضاً!

ابلغنا بالأمر السجناء العاديون، بعد ان «سرقوا» لسان احد الحراس؛ وكانوا لا يخفون شماتتهم بالمساعد وسخريتهم منه. اما حين سُمح لنا بالاختلاط في الساحة، بعد اسبوع من الحادث، فلم يستطع هؤلاء السجناء ان يخفوا اعجابهم بشجاعتنا. اكثر من ذلك حاول الداوودي ان يوضح وان يعتذر، قال، بعد ان اقترب وتطلع الينا والابتسامة تملأ وجهه:

ـ الواحد ما لازم يتسرع يا جماعة الخير، ولا يحكم على المظاهر. . .

وحين تعلقت به العيون لتعرف ما وراء هذه المقدمة، ابتسم اكثر من قبل وهو يضيف:

ـ بلا مؤاخذة منكم يا جماعة: انا واحد من الناس ما كنت قابضكم، ولا متصور انه يطلع شي منكم. لكن، والشهادة لله، بيّضتوا الوجه. وبظني ان المساعد ما راح يبين قبل شهر او شهرين، واذا هذا الدرس ما رباه والله لاشرب دمه واخّلص السجن منه!

قال له سجين آخر ممازحاً:

ـ الحجر اللي ما يعجبك، يا ابو عبد الله، يفجّك

رد الداوودي بمرح :

ـ والله يا عمي معك حق، وكل الناس خير وبركة!

وتوجه نحو حامد زيدان، عانقه طويلاً، وقال بانفعال :

ـ الزكرت يعجبني، على عيني، وانت يا ابـو مكرم، رفعت راس السجن كله . . .

وبعد قليل، وهو يتطلع الى فوق :

ـ وانت يا محيي الدين، يا ابو راشد، الله ييسر لك وين ما كنت، لكن كان نفسي تشوف الخرا ابن الخرا كيف كان مدمي، وكيف مثل الواوي يصيح!

واضاف كأنه يحدث نفسه :

ـ ومع ذلك، وين ما كنت راح تصلك الأخبار!

واذا كان قد تم التكتم على اخبار المساعد في الأيام الأولى، فقد بدأت تُعرف يوماً بعد آخر.

فاحد الحراس نقل ان الطبيب رفض بشكل قاطع زيارة السجن، حتى لو كان المريض النقيب ذاته. وحين اكدوا له ان المساعد، في السجن، اهم من النقيب، رد بعدم اهتمام وسخرية :

ـ الآن حجتكم اخراواخرا . . .

واضاف باختصار لكي ينهي اية مناقشة :

ـ انا طبيب وعندي عنوان، ومن يحتاجني لازم يجي لهذا المكان!

أما اسماعيل حمدو الذي زار القرية، فقد نقل عن الناس فيها ان الكلمات التي قالها الطبيب حُرّفت، اذ قال وهو يرفض :

ـ انا طبيب وعندي شهادة، لا تحسبوني مطهر اولاد او قلاع ضراس! وما اريد، كائن من كان يقول: عـزيمة وحلوان.

ويؤكـد اسماعيـل حمدو ان المسـاعد نقـل على ظهـر بغل في اليـوم التـالي «للمعركة»، لأن سيارة النقيب لم تتحرك رغم المحاولات التي بُذلت لاصلاحها! أما

سيارة السجن فقد كانت في رحلة الى المدينة لجلب الرواتب والتموين.

قال احد السجناء، بعد ان عُرفت هذه الوقائع:

- لازم نعرف البغل اللي شاله، لأنه نذل مثله!

رد عليه آخر:

- لا يحتاج الأمر الى سؤال او فراسة، يعُرف من ريحته!

وتجددت، مرة اخرى، الاهازيج عن المساعد، ورويت القصص، وبدا وكأن السجن تخلص من كابوس. اكثر من ذلك بدأت مهاجعنا الثلاثة تخطط للاستفادة من الوقت وترتيب برنامج للمحاضرات، خاصة وقد اصبح الطقس نموذجياً. وشط الخيال بالبعض لأن يفكروا بتقديم التماس للنقيب لابقاء الأبواب مفتوحة، «مع التعهد بعدم الهرب»! وبالغ غيرهم فطالبوا بزيارة الغابة والنبع في هذا الوقت من السنة، وليس ايام الزمهرير!

قال رضوان فرج في احدى الامسيات:

- لو توفرت المصادر لدرست «الحلقة الخضراء في الطبيعة: كيف بدأت، كيف تطورت، ولماذا لم تواصل مسيرتها؟»

رد ابو مكرم، وبدا اقرب الى الحزن:

- لا تتفاءلوا كثيراً يا جماعة الخير، لان صمت الادارة وراه مقلب، والجماعة ابد ما راح ينسوا

قال رضوان:

- المكاسب التي تحققت للسجناء اندفع عليها دم، وما هو من السهل انتزاعها.

رد حامد، ولم يتطلع الى رضوان:

- ما نعيشه وما نشوفه اليوم غمامة صيف، وابدما لازم ننخدع!

لم تكن هذه مشاعر حامد زيدان وحده، كانت مشاعر الكثيرين ايضاً، لكن السجناء كالمرضى تماماً، انهم يصدقون كل شيء بطيبة مذهلة، او بالأحرى يصدقون رغباتهم واوهامهم، كما انهم سريعو التغير. فالقناعات التي قضوا الأيام والليالي من أجل الوصول اليها، وافترضوا انها صلبة شديدة الرسوخ، لا تلبث ان تنهار في لحظات، اذا طرأ امر لم يكن متوقعاً او محسوباً.

فالنقيب الذي غاب، كعادته، بعد ذلك اليوم، وتأكد عدد من السجناء انه مريض، نتيجة ارتجاف اليد التي كانت تقبض على المسدس، وارتجاف الوجنة اليسرى بشكل عصبي، ثم حالة الشرود، حتى اثناء المفاوضات، جاء من يؤكد انه رفض نقل المساعد بسيارته الى عيادة الطبيب، اكثر من ذلك قيل انه لم يخف سروره بعد ان سمع رواية المساعد، ثم تصحيحات العناصر كيف ضرب، وكيف داسته الأرجل!

ولأن لجنة للتحقيق لم تصل الى السجن تأكدت الاشاعة ان النقيب لم يرفع تقريراً بما حصل، ولذلك اعتبر الأمر قضاء وقدراً ولا يستوجب بالتالي ابلاغ الادارة!

والعريف ادريس الذي تحسّب كثيراً، واصبح يداري خوفه بطول الغياب، وانه لا يرى ولم يسمع، عكس الوضع الذي كان يتخذه اثناء اجازات المساعد لاثبات وجوده، فهو الآن شديد الارتباك، اذ لا يعرف المدى المسموح به للتساهل من اجل استرضاء السجناء، وما هو حجم القسوة التي لا تجعل السجن يثور، وهذا ما دفع السجناء العاديين لوصفه «السويعاتي» بحيث انطبق عليه اللقب اكثر من اسمه الحقيقي، وسوف يُعرف في الأوراق الرسمية خلال فترة لاحقة «الملقب الساعاتي» بعد ان جاء سجين ماكر واقنعه بأن يتكنى بهذه الكنية بعد ان حُرّفت قليلاً!

قال العريف بعد اسبوعين من «المعركة» في محاولة للاتفاق مع السجناء:

ـ يا جماعة الخير. . انتم محكومين ونحن موظفين مأمورين، ولو الادارة ما بعثت بكم لهذا السجن ما شفناكم ولا شفتونا، ونحن، اولها وتاليها، لا بينا ثار ولا دم، فاذا الله هداكم وصرتم عاقلين ما راح تشوفوا منا الا كل خير، فخلونا نقرا الفاتحة!

نظر السجناء الى بعضهم ونظروا اليه: «اهو نفس العريف ادريس الذي نعرفه»؟

سأله الداوودي:

ـ واللي يخون يا عريف؟

ـ ما وصلنا الى حد الخيانة، يا ابو عبد الله!

سأله رضوان:

ـ هذا الكلام من عندك يا عريف ادريس، او موقف الادارة؟

رد وهو يرفع يديه بضيق:

- اتركونا من سين جيم يا اولاد الحلال، وانا اعطيكم كلمة، وبعدها جربوا واحكموا.

قال الداوودي وهو يبتسم:

- الله يذكرك بالخير يا ابو راشد، لأنه دائماً كان يقول: اسمع كلامك يعجبني اشوف افعالك اتعجب!

قال احد السجناء من خارج الحلقة الملتفة حول العريف:

- حط ايدك على شواربك يا عريف وقول بالهشوارب!

وقف غاضباًبعد ان سمع عفطة، وقال بانفعال:

- الظاهر انكم لا مصلين على النبي ولا تعرفوا مصلحتكم.

- خليك يا عريف، لأنك بعد لم تسمع الجواب...

هكذا قال الداوودي، في محاولة لاسترضاء العريف، فرد:

- انا اللي عندي حكيته، وانتم فكروا بالموضوع، فكروا يوم، اثنين، والمسألة ما هي كونترا وشوارب وإيمان، المسألة سلوك ومعاملة!

قال صادق الداوودي قبل لحظات من دخولنا الى المهاجع:

- هذا حكي شرطة، يا جماعة، والعريف كل يوم براي...

وقبل ان يودعنا:

- طلبوا منه يقول كم كلمة حلوة حتى يدوخنا، بس بكرة إذا تدردبوا علينا عند وجه الصبح لا تستغربوا ودائماً الحق علينا!

في الليل، ونحن في المهاجع، قال ابو مكرم، وكنا نستعيد اقوال العريف:

- المسألة فعلاً مثل ما قال: لا كونترا ولا شوارب، مسألة سلوك، ونحن نريد سلتنا بلا عنب، لكن مهمة السجن، خاصة مثل سجن القليعة، ان تكسر السجين، ان تذله، فاذا ظلت الأمور بهذا الشكل فنحن بألف خير!

قال رامز، وكأنه يخاطب نفسه:

ـ لا يدوم سرور!

رد رضوان بانفعال اقرب الى الغضب:

ـ نشّف البحر يا سيدي، وسدّها اكثر مما هي مسدودة!

ـ البحر ملان والعيون جارية، يا رضوان، بس، لعلمك، هذي الهدنة لن تطول والأيام بينا.

قلت في محاولة لانهاء الموضوع:

ـ خلونا يا جماعة «نتمتع» بهذي الهـدنة الى ان يـرجع خ خ او الى انيفيق النقيب، وبعدها لكل حادث حديث!

ولا اعـرف كيف عاد المـوضوع، وبحمـاس ايضاً، الى اللون الأخضـر ، «الخالد»، كما وصفه رضوان، خاصة بعد ملاحظات غنية وطريفة، وبعض الأحيان لا تخطر على بال شاعر، وقد تقدم بها عدد من المتحمسين في المهاجع الأخرى!

في احد الأيام المبكرة من شهر تموز بدأت تتوارد الأخبار ان المساعد سيعود!

نقل واحداً من هذه الأخبار اسماعيل حمدو، فقد همس في اذن احد السجناء من المهجع الثاني: «احتاطوا» وحين لم يفهم ذلك السجين، وبعد ان وضع حمل الحطب عند موقد الطعام في المطبخ، وتطلع اليه، اضاف:

ـ الجماعة ما لهم شغل الا يحّدوا السكاكين، والمساعد راجعٌ* بين يوم والتاني، وحادّ اسنانه، فانتبهوا!

وتظاهر السجين انه لم يفهم، احتد اسماعيل حمدو وقال:

ـ بالعربي الفصيح، الجماعـة ناوين عليكم فـاستعدوا، خلوا عنـدكم كم عصا، كم قضيب!

واستعد السجن.

وقبل ان ينتصف تموز عاد المساعد!

مرّ، نظر، هز رأسه، تحركت شفتاه، واكمل طريقه.

في اليوم التالي فعل الشيء ذاته، ومضى.

قال السجناء العاديون، خلال فترة التنفس:

ـ انتبهوا يا شباب: في السجن ريحة شواط!

وحين صمتنا، لانعرف كيف نجيب، اضافوا:

ـ الشرطة، لا يحللون ولا يحرمون. واللي يقع بين ايديهم الله يستره.

سمعنا ولم نعلق. قال الداوودي، وكان يتحدث لحامد زيدان:

ـ إذا نادوا عليك فانت مريض..

وبعد قليل، ويمرح:

ـ شلونك يا ابو مكرم؟ بعدك مريض؟

واضاف صادق الداوودي ، كأنه يحّدث نفسه:

ـ هذول ما يحبوايجتمع اثنين، حتى لو كان الرّجال ومرته، لأنّ كل اثنين لازم يحكوا عليهم، ورايدين يستفردوا الواحد حتى يمصوه، فاذا انمصّ يسووه طُعم لغيره، شرطة..

قال حامد بطريقة متعاطفة ونبيلة في آن واحد:

ـ يا ابو عبد الله كلنا ضحايا، يجوز الواحد اكثر من الثاني، ويجوز الأسباب مختلفة، لكن الجماعة لا يرتاحون الا اذا ركعنا، وانا، وهذا بينا، يا ابو عبد الله، ما عاد عندي شيء احرص عليه، ومثل ما قالوا: ما عاد في العمر قد ما مضى، ولذلك لا اخاف اي شيء!

رد صادق الداوودي بحدة:

ـ ابو مكرم.. لا تغلط..

وبعد قليل:

ـ عمري عمرك، يجوز تكبرني سنة، او اكبرك سنة، لكن المشكلة انه قبل ما نموت لازم نموتهم، لأن حرام نروح قبل ما يروحوا!

ـ يا ريت، يا رجال، لكن..

- لا يا ريت، ولا كلام فاضي، فانا ناوي عليهم قبل ما ينووا عليّ. . .

ابتسم، وتابع كأنه يستدرك:

- عمي. . انا لا افهمبالسياسة. وما لي علاقة، لكن هذول مجرمين، همهم يذلوا الناس، وانا، والشهادة لله، مستعد اسوي كل شيء حتى اذلّهم، حتى انتقم منهم؛ أما يموّتونا مثل الخرفان، فلا، وهذا يمين عليّ، والله الشاهد.

قال ابو مكرم بحزن:

- المعركة، يا ابو عبد الله، ما هي بسجن القليعة، ولا هي بسجن العفير، المعركة اكبر لأنها تعني كل الناس، واذا الناس ما اشتركوا، ما كانوا موجودين، ما في فائدة.

- يا اخي احسبني لا اعرف اي شيء، لكن مثل ما يقول الاختيارية، اضربهم على الوجع، لأنهم اذا انضربوا بهذا المكان يحسوا، يفيقوا، أما عيني وآغاتي ما راح توصل لأية نتيجة، وهذا يطّمعهم اكثر فينا.

رد ابو مكرم بيأس:

- القليعة آخر نقطة في هذا الوطن، واي شيء يحصل فيها لا يحس به احد، لا من عرف ولا من دري، فلازم الضرب يكون في الخاصرة، والخاصرة عمورية، اذا ضرب الواحد هناك يخافوا، يهتزوا، اما غير هيك فوهم.

رد صادق الداوودي:

- السجين، يا ابو مكرم، مسيّر ما هو مخيّر. الواحد منا لا اختار هذا المكان ولا حبه، لكن هم اللي فرضوه علينا. وما دمنا موجودين لازم نخرمش، لازم نقول لهم: مهما بعدنافنحن موجودين، ويا ريت الناس، هناك، عندهم آذان تسمع وعقل يفكر، لكن اغلب الناس، مع الأسف، كل واحد: يا نفسي!

وإذا كانت المناقشات في اماكن اخرى تنتهي الى نتائج، فانها في السجن لا تحاول ذلك اغلب الأحيان. انها تمارين للذاكرة واللسان، وايضاً لتزجية الوقت. كما ان اي حادث عرضي يثير فضول السجناء واهتمامهم، حتى الكائنات الصغيرة التي لا تثير انتباه احد خارج السجن، تكتسب اهمية غير عادية بين السجناء. فالسلحفاة التي وصلت الساحة بطريقة ما تحولت الى كائن يثير الدهشة والعجب: كم تزن؟ ماذا

تأكل؟ واذا ارادت ان تنام، هل تغيّر وضعها او اعضاءها؟ وعشـرات الأسئلة لا يُعرف كيف تخطر ببالهم!

وانطلاقاً من أي كلمة او فكرة تبدأ مناقشات لا نهاية لها، وينقسم السجناء الى معسكرين، ويقسو كل معسكر على الآخر، ويتخلل ذلك التعريض والتحـديات والنكات، ثم ينتهي كل شيء، كما بدأ.

حتى الـوقت في السجن ليس له حسـاب واحد، فهـو في الشتـاء غيـره في الصيف، في النهار غيره في الليل. ومع ذلـك فان الأمـر، في احيان كثيـرة، يثير الفضول والتساؤل. فان يحرص رامز على الدقة، حين يسأله احد عن الوقت، اذ يجيب ، بعد ان يحدد الساعة، بالدقائق واجزائها، مما يثير رضوان الى اقصى حد. كان يعلق على جواب رامز:

- الساعة، حسب توقيت غرينتش، كذا وكذا من اجزاء الثانية!

وتتغير اللهجة، تصبح ساخرة:

- ستقلع الطائرة في تمام الساعة كذا.

ويلتفت الى السائل ويقول:

- يا اخي نحن نسينا الأيام والشهور وانت تسأل عن الدقائق والثواني!

ويتطلع الى رامز وتصبح كلماته اقرب الى الأمر:

- الله يخليك يا رامز سكّت لنا هذا الضمير الذي لا ينام، لأنه خلق في قلبي علّة، ولا تزعل مني اذا صّبحت في يوم من الأيام ووجدت الساعة بحّ: إمّا ضاعت او انكسرت عقاربها او بطّلت تتكتك!

يجيب رامز بجد لا يخلو من سخرية:

- هذه الساعة ليست لها علاقة بالزمن الحاضر، وانما تحدد الماضي وتشير الى المستقبل!

ونغرق في مناقشة حول الزمن والشعور بالزمن، وكيف تتبدل المقاييس تبعاً لحالة الانسان ومكان وجوده، فمن ينتظر يكون احساسه بالزمن مختلفاً عن الذي يكون مع امرأة يحبها، عن الذي يتلقى الجلد!

قال رضا بنوع من التأفف:

ـ الظاهر ان ليالي الصيف تثير الشهوة للسفر والنساء، وما ساعة رامز الا حجة!

ـ اتريد ان تحرمنا حتى من هذه المتع الصغيرة يا رضا؟

هكذا سأل رضوان، واضاف:

ـ لم اعد اتخيل العالم الخارجي. حتى بيتنا انمسحت صورته من ذاكرتي، فما بالكم بالشوارع والبشر والحياة وراء هذه الجدران؟

قال رضا بسخرية:

ـ اذا كان هذا احساسك، والأرض بعدها تحتك ماحميت، فما هو شعور هذا الجمل؟

وأشار الى حامد زيدان، الذي اطرق قليلاً، وقال دون ان يركّز نظراته على احد:

ـ المسألة لا تتعلق بالمدة، ويجوز بعض الأحيان، ان شعور السجين الجديد بالقهر والظلم اقوى من شعور المحكوم مؤبد.

ـ انت ، يا عم ابو مكرم، وبعد هذه المدة الطويلة في السجن، كيف تتخيل العالم الخارجي، ما هو شعورك نحوه؟

هكذا سأل رضا من جديد. ارتبك ابو مكرم، رد والحيرة تميز كلماته ووجهه:

ـ شعوري مثل شعوركم، ونحن صار لنا مع بعض فترة طويلة، واظن ان لا فرق بيننا!

قال رضوان، كأنه يخاطب نفسه:

ـ لا اتخيل نفسي ابداً ان اقضي نصف هذا العدد من السنوات، دقيقة بعد دقيقة، على توقيت ساعة رامز، ويوم بعد يوم، وبعدها تصير شهوراً وسنين.

رد ابو مكرم بدعابة:

ـ انا يا عمي تمسحت وما عادت فارقة معي!

ـ والله انت، يا ابو مكرم، اكثرنا شعوراً بالحياة، اي بالزمن، ومن يراقب تصرفاتك، وطريقتك في التعامل، يظن انك ستبدأ من جديد اذا اطلقوا سراحك.

قال رامز ذلك بانفعال ومحبة، فرد عليه حامد بدعابة ايضاً:

ـ يا عمي تعودنا، السياسة صارت بدّمنا، وما عندنا شغلة غيرها، ومثل ما قالوا: من شب على شيء شاب عليه!

وآوينا الى النوم في وقت متأخر، وانقضت ليلة اخرى... او كادت

ففي الصباح الباكر، وعلى غير العادة، دوى جرس الانذار. وان يدوي الجرس يعني امراً غير عادي، وعلى السجناء الاستيقاظ والاستعداد، ومن يتخلف او يتأخر توّقع عليه عقوبات شديدة.

بصعوبة نهضنا. كنا ننظر في وجوه بعض بتساؤل، لكن لا احد يجرؤ على تقديم جواب، او ترجيح احتمال على آخر. حتى الأسئلة التي يمكن ان تطرح في حالات مماثلة، لم نجد انفسنا نملك شيئاً منها، واذا تبادرت الى الذهن اسئلة من نوع معين، فقد بقيت في الذهن دون ان تتحول الى كلمات.

ارتدينا ملابسنا وبدأنا ننتظر. الدقائق ثقيلة قاسية. الصمت شامل موجع. السور الذي يواجه المهاجع اكثر صفرة من الأيام العادية، ربما لأن انوار الصباح المبكر، والتي لم تنضج بعد، تنعكس عليه برخاوة. زرقة السماء، التي يبين طرف منها، حادة، وكأنه اعيد طلاؤها من جديد. أما الطيور التي كانت تسمع اصواتها منذ بداية فصل الربيع، فقد صمتت هذا اليوم وبشكل متعمد، وقد يكون الخوف ما أجبرها على الصمت.

ان كل شيء مختلف في هذا اليوم التموزي الذي بدأ مبكراً بصافرة الانذار. لم يقل هذا اي واحد منا، لكننا، كلنا كنا نحسه، كنا نلمح تضاريسه الخشنة، وربما ايضاً صوته الذي يشبه عواء مقلوباً!

وجاءوا!

السجن كله جاء: النقيب، المساعد، العريف، والعناصر. حتى اسماعيل حمدو كان موجوداً، لكن على مسافة غير قصيرة من الآخرين.

وجاءت ايضاً مجموعة جديدة من العناصر، كنا نراها لأول مرة.

حتى انور نور الدين الذي لم يلمحه احد، في البداية، ربما لأنه لم يقف الى جانب النقيب كعادته ،انبثق فجأة، خاصة حين فرد دفتره وبدأ ينادي على الأسماء.

هجسنا، وان لم نكن متأكدين، انه تقرر نقلنا من سجن القليعة، لكن هذا الهاجس ظل احتمالاً خلال الفترة الأولى، لأن العادة ان نبلّغ بذلك لكي نستعد ونجمع حاجاتنا. لم يفعلوا ذلك هذه المرة.

واذا كان هو النقل فهل يحتاج الأمر لصافرة الانـذار وكل هـذا الحشد من الناس؟

والنقيب، والمساعد، هل يمكن انيقرأ الانسان في ملامحهم او تصرفاتهم ما يشي باحتمال اقوى من غيره؟

كان النقيب، رغم الحزم البادي عليه، شـارداً، وكأنـه متعب او لم ينم ما يكفي، وكان يتلفت كثيراً، ذات اليمين وذات اليسار، وكأنه يلتمس العـون من الذين حوله. أما المساعد فان النظر لا يخطىء في تمييز ذله وانكساره، لكن هذا هو الوقت بالذات الذي يمكّنه من فرض نفسه، دون قناعة من اي نوع لاستعادة اعتباره بنظر الذين يعرفونه أما الذين لا يعرفـونه فقـد يؤخذون بحـركاتـه وبطريقتـه في التصرف.

اية ملاحظات لا تكفي. كما ان الوقائع تتلاحق. اذ بعـد ان بدأانـور نور الدين، بصوته الحائر، ولا يعرف ان كان صوت رجل او صوت امرأة، ولا بد ان يخطىء من يسمعه عبر الهاتف او من وراء ستار. وازاء صرخة المساعد، بعد نظرة من النقيب الذي لم يكلف نفسه باعطاء اية تعليمات عملية بأن يتقدم من ينادي عليه خطوة الى الأمام، مع اننا لم نكن نحتاج الى مثل هذه التعليمات، وبعد ان انتهت المناداة على الأسماء، التفتُ فرأيت رضوان وابا مكرم واحمد وماجد، اضافة الى رامز، في بداية الرتل الخلفي لم يناد على اسمائهم.

قال النقيب، ولأول مرة نسمع صوته منذ وقت طويل:

ـ الأسماء التي اعلنت الآن هي وجبة المنقـولين الأولى، وستلتحق الـوجبة الثانية خلال الاسبوع القادم...

هز رأسه عدة مرات، واضاف:

- على الرتل المتقدم ان يهيّيء نفسه خلال نصف ساعة.

التفت الى المساعد، وباشارة متفق عليها، صرخ المساعد:

- الرتل المتقدم: الى اليمين، الى المهاجع، والاستعداد للانطلاق.

ونحن نستدير، ونحن نتحرك، كنا نخّلف اجـزاء اساسية من الحياة، من قلوبنا. كنا نمشي ونتلفت، كنا نمشي بصعوبة، ولا نعرف هل نواصل او ان نتوقف، وهل نترك رفاقنا ونمضي؟

كان المساعد مثل ديك يافع، كان يرقب الذين يسيرون والذين بقـوا، ولا يعرف هل يتابع المتجهين الى المهاجع ليتأكد من وصولهم، أم يبقى مع الذين تأجل «ترحيلهم».

في المهجع، ونحن نجمع الأسمال الممزقة، وبقايا الأشياء، من الخرز ومسابح نوى الزيتون، اضافة الى المزامير والقطع الخشبيـة، كنا نشتم، نحتـج، نتألم. لا اعرف ان بكى احد منا، لكن صدورنا كانت محصورة، ضيقة، جافة، الى درجة لم نعش حالة مثل هذه منذ وقت طويل. تصوروا. . . هذا السجن النائي، المنسي، البعيد الى اقصى حد، ومع ذلك لا يمكن اقتلاعنا منه بهذه السهولة. صحيـح ان الكراهية التي نكنها للمكان لا يماثلها اية كراهية، لكن الانسان لا يمكن ان يترك يده او اي جزء منه هكذا ويمضي، دون أمل، دون عودة! هل نقـوى على تـرك هؤلاء الخمسة؟ وماذا نستطيع الآن؟ كيف يجب ان نتصرف؟

اشياؤنا الصغيرة، التافهة، التي يمكن ان تُجمع خلال لحظات، كما في حالات التفتيش، او التي يمكن ان تداس، او ان ترمى، دون شعور بأي ذنب، في اوقات اخرى، استغرق وقت طويل للّمها، لجمعها، لأن تصبح، مرة اخرى، جزءاً منا.

جاءنا العريف ادريس، وبدا قوياً شامخاً:

- يا رايح كتّر ملايح، ويمكن الأحسن، في الساعة الأخيرة، ان تسمعوا منا كلمة. «في امان الله، الله وياكم»، فلازم تستعجلوا، لأن النقيب ضاقت روحه!

نتطلع اليه باطراف ارواحنا، لأن الأطراف الأخرى مع الذين يبقون. نجمع قطعة هنا وقطعة من هناك. ننظر الى قطع الخشب التي لازمتنا فترة طويلة، ننظر اليها من جديد: «هل تصلح تمثالاً، مزماراً، عصا؟» ونلقي، ونجمع، تماماً كالعميان في

غابة لا نعرف كيف نتصرف. نتذكر دقائق وثواني رامز. تخرج الكلمات والأفكار دون اتفاق:

- يا عريف: تحملتونا ستة او سبعة شهور، فهل ضاقت صدوركم بكم دقيقة؟

- صدورنا تحتمل، لكن صدور غيرنا، النقيب والمساعد والذين ينتظرون!

أما كيف تتحول اللغة الى مجرد شتائم، لأن وحدها الشتائم التي تعبّر عن الحالة، وحدها التي تقول الحقائق، دون خوف، دون مواربة، فلم اكن اتصور ان لغتنا ضيقة، خانقة، فقيرة الى هذه الدرجة.

قال رضا بطريقة تراجيدية:

- اتركونا. دعونا نبكي حياتنا او ما تبقى من هذه الحياة!

وحين تراجع العريف فزعاً، اضاف رضا بحدة اكثر:

- جئنا معاً وكان يجب ان نعود معاً، أما هذه المؤامرة، ان تبقوا عدداً من رفاقنا، فانها الخيانة، ولن نغفرها لكم، ولو بعد الف عام.

قال العريف بطريقة مرتبكة:

- قوائم المنقولين، والسيارات!

صرخ به رضا:

- اخرس. انت واحد من القتلة!

في وقت ما انتهينا. لا اعرف كم استغرق ذلك وفق ساعة رامز، لكن المساعد، في لحظة ما، ظهر. بدا مثل ديك بعد مطر ربيعي منعش، وكأنه يقول لنا: «مهما تأخرتم في جمع بقاياكم فانتم راحلون، اما الذين يبقون فانهم سيدفعون الضريبة كلها» قلنا لأنفسنا، لبعضنا: «لا فائدة من المقاومة الآن، لأنها اضافة الى كونها متأخرة، فهي غير مجدية!

كنا نحمل البقج والأكياس البائسة، ونحن نتجه، مرة اخرى، الى الساحة. دون اتفاق، دون ايعاز من احد، وفي اللحظة ذاتها، القينا تلك «الاحمال» وهجمنا على الذين بقوا. كالعشاق، كالذين يذهبون الى الموت، كالأطفال الذاهبين الى لحظة

الفرح، تعانقنا. بكينا، تبادلنا الوصايا، قلنا اشياء كثيرة دون معنى، وقلنا اشياء ذات معنى وقيّمة.

لا اتذكر، او لااريد ان اتذكر، لكن كلمات حامد زيدان، ابو مكرم، سوف تبقى في قلبي، في عيني، ومحفورة على الأضلاع ايضاً، ولآخر ايام العمر، قال:

- شدوا حيلكم، ولا تخافوا علينا، المهم ان تحافظوا على انفسكم، ان تبقوا اقوياء وشجعاناً!

وبطريقة اقرب الى الفوضى، رغم المحاولات المشدّدة لأن نكون نظاميين، حملنا اشياءنا، وبدأنا نغادر. غادرنا الساحة اولاً، ثم الدهليز المسقوف، ووصلنا الى الساحة المكشوفة، اما حين فتحوا البوابة، وبدأنا بالصعود الى السيارات، فقد شعرت اني تركت قلبي، جزءاً منه، في هذ المكان، الذي كان يبدو لي طوال الشهور الماضية اكثر الأماكن كراهية.

واتذكر ان حامد زيدان، رامز، رضوان، احمد، ماجد، وهم يلوحون لنا، في الساحة الداخلية، كانوا مثل علامات الطرق، مثل فنارات الموانىء، مثل الطيور التي تقول اشياء كثيرة، بصمت!

وغادرنا سجن القليعة!

وماذا اقول لكم ايضاً؟

لا اريد ان اسليكم بأن اروي قصص السجن، فهي كثيرةوموجعة، وستبقى تتوالد وتتراكم ما دام السجن موجوداً وما دام الجلاد؛ وانتم تعرفون ان السجن، كجهنم، لا يشبع، والجلاد لا يعرف التعب، الى ان ينتهي ، الى ان يصبح هو ذاته ضحية، ثم يصبح بعد ذلك قصة تروى!

ولا اريد ان ابتزكم لأستدر عواطف الشفقة عندكم، فانا بمقدار ما اكره السجن اكره الشفقة، لأن هذه العاطفة، ثم الخوف الذي يليها، من الأسباب القوية التي جعلت السجن يستمر حتى الآن. فواحدكم، بعد ان يحزن، وقد يذرف الدموع، يضع رأسه على الوسادة وينام، متوهماً انه ادى واجبه، وانه نجا، وقد يشعر بالسعادة التي تصل درجة الغبطة، لأنه لم يكن الضحية!

واخيراً، لا تخطئوا ابداً ولا تتوهموا انني كنت اريد ان اعذبكم وانا اروي تلك القصص، اذ ليس من هواياتي تعذيب الآخرين بعد ان ذقت طعم العذاب، وعرفت كيف يتحول الانسان الى وحش وهو يدخل الى ذلك النفق المظلم.

ان قلبي الآن متعب ومملوء بالجروح. فبعد ذلك اليوم التموزي، ثم ما تلاه من أيام قاسية مثله او اقسى منه، لا اعرف ماذا حصل لي. اصبحت شديد الحزن، متشائماً، واخذت الوساوس والهموم تلاحقني، كما اصبحتُ سؤالاً دائماً: لماذا وكيف تحول الناس، معظم الناس، الى جلادين وضحايا في آن واحد؟ ليس بنيتي تمويه الأمور او تغييب الحقائق، ولا يخطر ببالي لحظة واحدة ان اجعل الجلاد موازياً او مماثلاً للضحية، ولكن هناك جذراًللأخطاء والتشوهات جعل الناس هكذا.

اقول لنفسي بعض الأحيان: هل بلغ الخراب في روحي الى درجة ان اصبح

كالمتسول اعرض امام الآخرين جروحي وقروحي لادلل على مدى ما عانيناه، ولاقول لهم: هذا ما اصابنا اليوم وغداً سيأتي دوركم؟

وما الفرق بين السجن المركزي والعفير والقليعة وعشرات السجون الأخرى اذا ظلت روحنا هي السجن؟

واذا ذكرت لكم ما حصل بالنسبة لحامد زيدان، ولرضوان، ورامز، بعد ان غادرنا سجن القليعة، فهل هذا سيزيدكم اقتناعاً بصحة هذا الموقف او ذاك، وبضرورة التعاطف مع هذه الضحية او تلك؟ اتريدون مزيداً من الحقائق والوقائع والآهات لتكونوا اكثر وعياً او اكثر نبلاً وتدركوا ما يجري حولكم؟

وغابة الجنون التي وعدتكم او هددتكم بها. . . الم تروها؟ الم تصلوا اليها بعد، ام انكم الآن في وسطها تعيشون؟

تدركون وانا اروي لكم الآن، وربما ذكرت هذا من قبل، انني حر طليق، وانني اقيم في باريس، ولم يعد السجن الا ذكرى، والذكرى ذاتها تبتعد يوماً بعد آخر وقد تنسى. وسوف احاول التكيف مع المحيط الجديد، وقد اعود الى الحياة الطبيعية مرة اخرى. وماذا يمنع ان تكون لدي مشاريع جديدة او طموحات؟ فاذا شعرت بنوع من التردد او التهيب اقول لنفسي، في محاولة للتغلب على آخر الموانع: «اترك الماضي، انسه، وابدأ الحياة من جديد» اعتماداً على نصيحة ذلك المصلح، والمشعوذ الامريكي، الذي تفرغ لكي يقدم للناس النصائح ويتلقى عليها مقابلاً. كان يعلمهم: كيف يكسبون الأصدقاء، كيف يجمعون الثروة، وأيضاً كيف يخلّفون القلق وراء ظهورهم ليبدأوا الحياة من جديد!

هل ذكرت لكم شيئاً مثل هذا من قبل ام انني اتوهم؟

تختلط الصور والأزمان في ذاكرتي الى درجة لم اعد اميز، كما فقدت القدرة على اعادة جمع الشظايا او اعطائها نسقاً يمكن ان يفهم.

قد تستغربون طبعي النزق، وأيضاً المتقلب؛ وربما تبدو الحدة في مواقفي وتصرفاتي تجاه الأشخاص والأشياء غير مفهومة بنظركم، او على الأقل بنظر بعضكم، ولا بد ان تحاروا في تفسير هذا الغضب الذي صار جزءاً من تكويني، وحتى ملامحي!

لا يهم. لاكن أي شيء بنظركم، ويمكن ان تعطوني الأوصاف التي تشاؤون.

لن اعترض عليها ولن اناقشكم، لكن، بالمقابل، اطلب منكم ان تجيبوا انفسكم، ولا اطلب منكم جواباً من أي نوع: هل تستحق الحياة ان تعاش اذا تحول الانسان الى دمية، الى كرة تتقاذفها الأرجل بسخرية واذلال؟

ليس ذلك فقط: كيف يسوّغون لأنفسهم، وكيف يبررون، قتل انسان او تشويه جسده وروحه، علماً بأنهم لم يعرفوه من قبل، لم يروه، ولم يسيء لهم ايضاً؟ اكثر من ذلك، هذا الشخص الذي قتلوه، شوهوا جسده وروحه، قد يكون اقرب لهم من الذين اوعزوا اليهم، وربما لو اتيحت الفرصة لأن يجتمعوا في مكان، عند ضفة نهر او بالقرب من نبع، لاكتشفوا كم من الأشياء تجمعهم، وكم من الهموم توّحد بينهم!

في محاولة لاقناع ضمائرهم، لكي لا يموتوا، يقولون لهم: الاختلاف!

ولكن هذا الذي قتلوه لم يقاتلهم، لم يقاسمهم، ذنبه الوحيد: انه فكّر، نعم فكّر ان صيغة اخرى، ربما، يمكن ان تكون افضل من أجل حياة الناس... في المستقبل!

لكي لا اكون منظّراً او واعظاً اقول لكم بضعة اشياء قبل ان نفترق ويمضي كل الى سبيل:

عدنا الى السجن المركزي، او بالأحرى اعادونا. لا تتصوروا انني ساواصل الحديث من حيث انقطع ولكن لاقول لكم ان الحاج مصطفى كان هناك، وسوف اروي عنه شيئاً الآن، او بالأحرى أعيد ما قاله احد السجناء عن الحاج حين رآه يوم يضع اذنه على الجدار باهتمام ويتنصت، اذ ما كاد يرى الطبيب يمر حتى طلب منه ان يفعل مثله، استجاب الطبيب، وبعد قليل التفت اليه وقال: لم اسمع شيئاً يا حاج، فرد عليه الحاج مصطفى: هذا الصمت ما يحيرني ويحزنني، يا حكيم!

وانا، الآن. هذا ما يحيرني، ويحزنني ايضاً!

كيف تغير الناس، من اين حصلوا على وهم الرضا الذين يعيشون فيه، وكيف لم يدركوا بعد ما ينتظرهم غداً؟

احاول ان اتذكر، لكن لا اصل الى جواب!

واذا تبقى لنا بعض الوقت، وكما يقول الرياضيون، فسوف يلعب الفريقان

بدل الوقت الضائع، فاذا تعادلا ستمدد المباراة، واذا استمرالتعادل فان ضربات الجزاء ستحسم المباراة وتحدد بطل الدوري لهذا العام . . . أما الأعوام الأخرى . . .

جودت يعقوب، آمر السجن المركزي، ترّفع خلال غيابنا، أصبح رائداً! والرائد في قول كريم لا يكذب اهله! ما كاد جودت يرانا، وقد وصلنا عند العصر، حتى نظر الينا بتأمل، وكان يضع يديه خلف ظهره، وكانت ازرار قميصه مفتوحة. استمر يتأملنا وقتاً غير قصير، وكأنه يرى طيوراً نادرة او مخلوقات غريبة. ابتسم، وكانت ابتسامته اقرب الى الفرح، وقال بطريقة مسرحية لا تخلو من اتقان وود:

ـ يا هلا بالشباب، شرفتوا. . .

وبعد قليل، وهو يتقرب منا اكثر، وكأنه يعايننا:

ـ فترةالنقاهة فادتكم: مربربين ووجوهكم مرتاحة. . .

وضحك بمرح وهو يضيف:

ـ طبيعي ان تربربوا ما دمتم شتيتم في العفـير وصيّفتم في القليعة، هـذي لابوي ما صارت!

وكان ابو سمير موجوداً، قال له بطريقة ساخرة:

ـ لازم نزوجهم. . يا أبو سمير!

رد المساعد، وخرج صوته ابحاً ثقيلاً:

ـ يلزم لهم، سيدي: حلق ونتفوعقيدة نسوان، لأن اللي شايفهم صاروا خصيان!

ـ كلهم؟

ـ يجوز فيهم كم واحد بعده معنتر!

ـ تول امرهم يا ابو الأيتام!

صرخ المساعد:

ـ اصطفاف

اصطففنا في رتل واحد. كنا مطيعين وشديدي الانتظام. صرخ مرة اخرى:

ـ تعداد

وبدأنا، الواحد بعد الآخر، العّد. كنا خمساً وعشرين، قال الرائد، بملل لم يستطع ان يخفيه:

ـ الخمسة وكل مضاعفاتها خطوة للأمام...

لأول وهلة لم نفهم. اوضح بعصبية:

ـ متعلمين وسياسيين ولا تعرفون الخمسة ومضاعفاتها، ها؟

وبدأ العد بطريقة بدائية: واحد، اثنين، ثلاثة، اربعة، خمسة. انت. وبعدها العشرة.. الى اخره، فهمتم يا تيوس؟

وبطريقة لا تخلو من الارتباك والخطأ تقدم الذين يعينهم الأمر، وان وقعت بعض الأخطاء، لأن اثنين تقدما ثم اعيدا الى الصف الخلفي. قال الرائد بطريقة حازمة:

ـ كان بودنا ان يُقسم العدد على رقم اصغر، لكن هذه امكانياتنا، وانشاء الله نعوضها في مرات قادمة!

والتفت الى المساعد:

ـ المهجع رقم ٧، والباقي عليك!

انقسمنا الى رتلين: الأول الى المهجع، وأُخذ الثاني الى السرداب!

لم يكن رقمي خمسة او مضاعفاتها، ولذلك كنت من الذين توجهوا الى المهجع.

ما كدنا نجتاز المشنقة ونتقدم الى بوابة اليسار، وما كاد يرانا الحاج مصطفى، حتى صاح بطريقة اقرب الى العواء:

ـ ربي الله، الله امان ربي!

وهجم علينا كما تهجم الخراف الصغيرة المحجوزة على امهاتها بعد ان تعود من المرعى.

لا اتصور ان شوقاً، حباً، رغبة، حنيناً، جنوناً، يشبه تلك اللحظة. كان يعانقنا، يبكي، يصرخ، يحتج، يضرب رأسه بيديه، يدور، يبكي مرة اخرى، يقبّل، يتمسح، يضرب على الأكتاف، ينظر.. كل هذه الأشياء كانت تجري بطريقة

حيوانية ،لكن اقرب واقوى من اي تعبيرات اخرى. في لحظة انفعال، ولا اعرف من قال ذلك:

ـ حاج مصطفى. . . مرحا، مرحا، مرحا.

وقبل ان يستوعب ما قيل رد بانفعال اشد واقوى:

ـ مرحا رجال قوة، رجال شرف!

وبعد قليل، وبطريقة صوفية، وهو يهز رأسه:

ـ الله، ربي، تمام حق!

سنعرف في وقت لاحق ان الحاج مصطفى سفّر خلال غيابنا مرتين. . . واعيد. وسوف نكتشف ان المستشفى رفضت استقباله «لأن الموما اليه تم شفاؤه، ولعدم وجود الشواغر» وان السجن لا يعرف كيف يتصرف معه، فهو ليس سجيناً، والجهات التركية ترفض استقباله «لعدم وجود اوراق ثبوتية نظامية تذكر ان المطلوب تسليمه تركي الجنسية» وهكذا بقي، اغلب الوقت، في النظارة، ولم يكن يُعترض على تجواله في السجن من قسم الى اخر.

بعد ثلاثة ايام سيعاد الى مهجعنا «الخمسات»، كما سماهم الرائد جودت، وقد جاء معهم.

قال بطريقة متحدية:

ـ هنا العاصمة، وهذا سجن العاصمة. الواحد لو راح لآخر الدنيا لازم يرجع لهنا، وانا، والحمد لله ذاكرتي قوية، لا انسى ابداً، واذا الواحد منكم جا على باله يعنتر، يتفلسف، ترى عندنا هنا من الابرة للطيارة، والشغل اربع وعشرين ساعة. . .

ويبدو انه شتّ، اذ لم يعرف كيف يواصل، توقف قليلاً، مسح العرق عن جبينه، وتابع:

ـ السجن هذي الأيام مثل الساعة: انضباط ونظام وطاعة، فخل الواحد منكم يخلّص محكوميته ويفرقنا. أما اذا رجعتم، مثل حليمة، للعادات القديمة: عرائض واضرابات واعتصامات فلا تلوموا الا ارواحكم، والمرة الماضية اذا اكتفينا انزورناكم كم سجن ترى اي مخالفة، مهما كانت صغيرة، راح يندفع عليها هذي المرة كثير كثير، فاهمين؟

ظللنا صامتين. لم يكن لدينا ما نقوله، ولم نكن في وضع نستطيع ان نقدر بدقة ما جرى خلال غيابنا الطويل. حين وجدنا هكذا هز رأسه عدة مرات، ومضى.

ومن جديد اصبح المساعد ابو سمير نافذتنا على الادارة. كانت الأسابيع الأولى مرحلة اختبار حاول كل طرف ان يكتشف حجم التغير عند الطرف الآخر، لكي يضع خطته، خاصة وان اقامتنا هنا ستطول، ولا بد ان نصل، بشكل ما، الى معادلة تمكننا من التعايش والاستمرار!

يضاف الى ذلك انه رغم انتقالنا من سجن القليعة فقد ظلت أرواحنا هناك، وكان حديثنا، اغلب الأحيان، يدور حول الذين بقوا.

سألنا المساعد ذات يوم:

- ما دامت الرسائل الواصلة والمرسلة مراقبة، وتطلعون عليها، فهل مسموح لنا ان نبعث برسالة الى سجن القليعة؟

تطلع الينا باستغراب اقرب الى الذهول، وبعد وقت غير قصير:

- وعندكم طلبات غير هذه؟
- مجرد سؤال حتى نعرف كيف نتصرف!

- حتى تعرفوا كيف تتصرفوا؟ شو معنى هذا الكلام؟

قال نجيب ببراءة:

- تركنا بعض الأخوان مرضى، وفكرنا عندهم، وهدفنا ان نطمئن.

- اسمعوا.. انا خلّعت ضراسي مع ناس من امثالكم، الواحد منكم يتظاهر انه بريء، مسكين، القطة تأكل عشاه، لكن ما يمر يوم والثاني حتى يستنمر! مطالبكم تبدأ بالكبريتة ورغيف الخبز وتنتهي بقلب النظام. وهذه القصة عارفينها وحافظينها...

استراح قليلاً، ثم تابع بلهجة مختلفة:

- شفرات السجن، وحيل السجناء نعرفها كلها: «نحن بخير وسلامنا لكم» اللي يكتبها كل الناس، ولها معنى واحد في كل الدنيا، تصبح في السجن: «اعلنوا الاضراب» «قاوموا وجميع السجون معكم» وقيس على هذا الشي...

وعاد الى اللهجة الأولى:

ـ لذلك ما اريد اسمع طلبات من هذا النوع ابداً!

وطوي الموضوع، على الأقل في الظروف الحالية. لكن ما حصل فيغيابنا ان معظم، وربما جميع، ما تحقق للسجناء من مكتسبات في فترات سابقة تم مصادرتها. انها عادة تتكرر في كل السجون وفي كل الأوقات، ما ان تنتصر الادارة في معركة حتى تعتبر جميع ما تم تحصيله من قبل غنيمة لها.

ويبدأ السجناء من جديد، ببطء وصعوبة، حتى اذا تراكم شيء تم الاستيلاء عليه مرة اخرى مع اول هزيمة تلحق بالسجناء، وهكذا!

ويدأنا ننتظر من جديد، لعلنا نستطيع ان نحقق بعض المكاسب بمرور الزمن.

انتهى الصيف واعقبه الخريف. لا شيء عن سجن القليعة، واخبارالعالم الخارجي ذابلة، بطيئة، وكأن العالم او الحياة في حالة اقرب الى الركود. حتى ما يمكن اعتباره مطلباً في بعض الأوقات كالراديو او الصحف، فانه في اوقات اخرى لا يعني شيئاً، ولا يستوجب معركة.

وبدأ البرد، برد عمورية، وهو في الليل، خادع غدار، اذ فجأة يأتي، ويكون اشد واقسى اذا جاء متسللاً. فبعد ايام متواصلة من الدفء، ولأن الأمطار تأخرت كثيراً، وبدا انها سنة اخرى من سنوات القحط، هجم البرد، هجم فجأة وبشكل ثقيل. واذا كانت الأيام الدافئةتتستر على العلل القديمة والأمراض، فان البرد يفجرها، يدفعها جميعها الى الظهور، ثم الى التفاعل، بحيث يتحول السجن كله تقريباً الى مجموعة من الأمراض. ورغم وجود الأطباء، فان مهمتهم تقتصر على التشخيص، ولا تصل الى حد المعالجة لعدم توفر الأدوية ولأن الادارة تعتبر المرضى، مثل الطلاب الكسالى: متمارضين ومحتالين، فلا تستجيب الا لرأي طبيب الادارة، وكان عادة يزور السجين مرتين في الشهر، وفي بعض الأحوال الطارئة. هذا عدا عن عقوبة المرض، وهي «هبة الله للادارة»، كما قال ذات مرة الرائد جودت، حين توالى عليه الالحاح من أجل معالجة بعض المرضى!

ساعرف هذا النوع من المرض في وقت لاحق، ومدى ما يخلفه في الأجساد المتعبة والمقهورة من آلام لا تطاق. ورغم المطالبة والالحاح، فان بعض اطباء السجن لا يختلفون عن السجانين انفسهم، اذ ينظرون باستخفاف اقرب الى السخرية لما يقوله المرضى، وفي اغلب الأحيان لايسمعون، وزيادة في التحدي والاهانة فانهم

يتكلمون مع الحرس، مع الممرض، والمريض مسترسل في الحديث عن الأوجاع التي يعاني منها!

في هذا الشتاء الذي دخل فجأة، وفي ظل الذبول المخيم على السجن، تقلّصت الحركة، واخذت المساحات تضيق اكثر مما كانت ضيقة. اكثر من ذلك لم نعد نرى المساعد الا نادراً، فقد كان يفضل ان يبقى قرب المدفأة. واذا اضطر الى جولة فكان يغرق نفسه في معطف ثقيل، لا اعرف كيف يقوى على حمله! وكان ايضاً يلف وجهه بحيث لا تبين منه الا العينان. وبسرعة يمر على المهاجع، كواجب ثقيل، ويمضي، فقط ليؤكد وجوده.

كما ان بوابات المهاجع تغلق مبكراً خلال هذا الفصل، ولا تفتح الا في ساعة متأخرة من اليوم التالي. ورغم ان وضعاً مثل هذا يساعدعلى الدفء، الا ان الروائح داخل المهاجع تصبح ثقيلة، وتسبب حالة من الخدر اقرب الى الدوار، خاصة وهي تمتزج بالدخان او بالغازات التي تتولد من ذهاب هذا العدد الكبير الى المراحيض في وقت واحد!

كان الحارس حسن مجلي وهو يفتح باب المهجع يصرخ:

- والله ريحة الفطايس احسن من ريحتكم، يا اولاد الحرام!

يقول هذه الكلمات وهو يحاول ان يبتعد. أما حين تهب النسمات الباردة ويتحرك الهواء كله، ولما ينهض الرجال، فعندئذٍ يحسون اكثر من قبل بالدوار والروائح معاً، وغالباً ما ينظر الواحد الى الآخر وكأنه يتهمه، ولينفي التهمة عن نفسه في ذات الوقت، ومع ذلك يبقى الجميع متهمين وابرياء بنفس المقدار!

ولأن الامزجة شديدة الاختلاف، والعادات التي تعودها كل واحد قبل السجن تختلف عن الآخرين، من حيث طريقة تهوية المهجع، او المدة التي يجب ان يبقى الباب خلالها مفتوحاً، ثمما يشترطه البعض من ضرورة حمل الأغطية الى الخارج، خاصة في الأيام المشمسة، كشرط للنظافة العامة، والتي تعني الجميع، ان هذه الأمزجة والعادات، والتي كثيراً ما يُحاول تمويهها او التستر عليها، غالباً ماتنفجر في مثل هذه الأيام. وكأن الشتاء او هذاالطقس الملعون، سبب في تفجيرها، او ظهورها بهذه الحدة، وبهذه الكثافة، مع ما تؤدي اليه من نتائج!

في هذا الجو الشديد البرودة والجفاف، لم يبق احد، تقريباً، من السجناء، الا ولاحه المرض بمقدار ما، ولذلك فان حالة من التعب والكآبة سيطرت على السجن

كله. كما ان ذكريات سجن القليعة طفت على ما عداها من الذكريات. هل يحصلون على الحطب؟ هل يحتطبون؟ والمساعد خ خ، بعد ان غادرنا، هل انتقم منهم؟ وردود الفعل... هل استطاعت ان تمنع عنهم الأذى؟ هـذه الأسئلة، واخرى غيـرها، ملأت مهجعنا تماماً، بل وخيل للكثيرين، في لحظات معينة، او في الأحلام، اننا عدنا مرة اخرى الى هناك.

في احد الأيام الكثيبة من كانون اول، وكانت قطع الغيوم الهشـة تمر فـوق السجن مسرعة، كأنها مطاردة وتريد ان تهرب، افاق السجن على حركة غير عادية، وابكر من الأيام الأخرى. تطلعنا في وجوه بعضنا بتساؤل، خاصة وان الحـركة، وكانت ترافقها اصوات غليظة، ثقيلة، ولا تُفهم، تتزايد بمرور الوقت.

والسجناء مثل عادتهم دائماً: لـديهم لتفسير اي حـدث او ظاهـرة عشرات التفسيرات، فمن قال: سجناء جدد، وهذا يعني ان الوضع السياسي تدهور، وربما تغير، مما ادى الى اعتقالات جديدة، ولا بد ان نسمـع الأخبار! ومن قـال: حملة تفتيش جديدة، خاصة في مهاجع السجناء القدامى، ولذلك يجب ان يتحسب كل واحد منا، وان يتأكد من عدم وجود الممنوعات. ومن قال: عملية هـروب كبيرة ومنظمة وهذا ما يستدعي التكتم في المرحلة الأولى، واجراء تفتيش دقيق قبل ابلاغ الادارة المركزية، ولذلك فان عمليات التفتيش بدأت ولا بد ان تصلنا في اية لحظة.

وكل احتمال من هذه الاحتمالات يستولد عشرات الأفكار والصور، ويُرّتب نتائج من نوع او آخر، ولا بد ان نستعد. واذا كان الانسان في الحياة العادية، خارج السجن، يعيش نصف حياته في احلام اليقظة، فان السجناء يحلمون بصوت عالٍ اغلب الوقت، كل الوقت. ولذلك كانت الحالة النفسية للجميع تراوح بين حدين متناقضين: بين التغير الذي حصل في الخارج وقرب الافـراج عنا، وبـين عملية تفتيشٍ مباغتة لا بد ان يدفع السجن، كل السجن، ثمنها، حتى لو لم يجدوا شيئاً واحداً ممنوعاً!

واذا كانت العادة ان يفتحوا الأبواب في وقت معين، فقد انقضى ذلك الوقت دون ان تُفتح، لكن الحركة والأصوات لم تهدأ، ولم تتوقف. اكثر من ذلك كانت بعض الحركات الى جانب المهجع تماماً، ولأنها محاذرة، وتحاول ان تتخفى، فقد اخذ التشاؤم يطغى على كل ما عداه!

حتى الذين يجدون متعة في تقديم الاحتمالات وتفسير الظواهر، كفوا، فجأة

عن الحديث، وقد شعروا ان الطرق التي سلكوها وهم يرجحون احتمالاً اكثر من غيره، تؤدي بهم الى الضياع الكامل!

لا احد يستطيع ان يقدر التأخير الى ان فتح الباب، لأن الزمن اختلف تماماً، وصارت له مقاييس من نوع خاص.

حسن مجلي، وهو يفتح الباب، وقد جاء وحده، فعل ذلك دون ان يتفوه بكلمة، بشتيمة، خلافاً لعادته. فتحه ووقف في مواجهتنا، خلافاً لعادته ايضاً. نظر الينا، وكأنه لا يرانا. حين نظرنا اليه، كانت حمرة خفيفة توشي العينين. لم نشأ ان نسأل، او لم نجرؤ على السؤال، فقد خشينا ان تبدأ شتائمه، او ربما ما يفوقها.

في لحظة ما حاول ان يمشي، لكنه يريد احداً ان يسأله، ان يكلمه فقد بدا انه لا يقوى وحده على ان يحتمل السر طويلاً.

قال له نجيب بطريقة لا تخلو من ود:

- ما انت على بعضك، يا ابو مجلي!

هز رأسه بلوعة وموافقه. سأله نجيب من جديد:

- خير يا ابو مجلي؟
- الاختيار، الحاج مصطفى، أعطاكم عمره!
- كيف؟ متى؟ شلون؟
- صبّحنا لقيناه ميت. يمكن البرد ذبحه!

وبعد قليل، وهو يستدير، بعد ان ازاح عن كاهله هذا الحمل الثقيل، قال كأنه يخاطب نفسه ويريدنا ان نسمع:

- الله يرحمه، ويرحمنا.

وقبل ان يغيب، ولأول مرة في هذا الشتاء الأجرد الفاصل بدأت قطرات المطر تتساقط من السماء.

وظللنا ، ذلك اليوم، في مهاجعنا، لم نغادرها، وكانت الريح في الخارج، وبين فترة واخرى تهب، وكأنها تذكرت الحاج مصطفى فأخذت تولول، وكانت السماء وهي تنزل القطرات القليلة، وكأنها تذرف الدموع، وتتذكر ايضاً!

وهكذا ينتهي الوقت الضائع في هذه المباراة

ويبدأ الشوطان القصيران. . . وقد لا نصل الى ضربات الجزاء!

الليلة الاولى لموت الحاج مصطفى كانت شديدة الصعوبة، صحيح أننا لم نتكلم عنه طويلاً، أو بشكل متصل، لكنه ظل كامناً وراء كلماتنا، كان ينظر الينا ويبتسم، وبعض الاحيان يغضب ويشتم، وحين نصمت نسمع قهقهاته او نسمع بكاءه. قلت لنفسي، وأنا أحاول النوم: «قد تكون هذه هي الليلة الاولى التي ينام فيها ذلك الحصان الهرم نوماً عميقاً متصلاً لانه وجد،اخيراً، مكاناً يستقر فيه دون ان يزعجه احد»!

ورغم ثقل الروح والاجساد المجهدة، فقد جفا النوم عيون الكثيرين منا تلك الليلة، كنت اغمض عيني لكي أنام فأجد ان النوم يهجرني، يبتعد عني، وكلما توغل الليل أكثر يبتعد النوم أكثر. قلت لنفسي، وقد اكتشفت هذه المفارقة: «النوم يتخلى عن الانسان في احدى حالتين: الحب او الموت!».

وتذكرت: طيلة سنوات السجن، بايامها ولياليها، ما عدا فترات التعليق والتعذيب والمنع من النوم بشكل متعمد، لم يكن النوم يتخلى عني. كنت اغفو، وفي حالات عديدة انام كالقتيل، كما كانت تقول امي، وهي تحاول ايقاظي لئلا يفوتني موعد المدرسة! هذه الليلة تختلف، فالحاج مصطفى يقف فوق رأسي باصرار عجيب. وحين الوم نفسي وأحاول ان انام لا استطيع. اما اذا استحضرت حماقات الحاج، وتذكرت لقاءنا الاول لما وصلت السجن، لكي اقنع نفسي ان الامر لا يستحق كل هذا العناء،فاجد ان شيئا في داخلي يصرخ: «أهكذا تعاملون الموتى والاصدقاء الراحلين؟» واذا تذكرت مشيته البطيئة، والصفرة التي تجعله اقرب الى الموتى، في محاولة لان اقتنع بموته، ينظر بسخرية، ولا يتردد في ان يمد لسانه ليقول

دون كلمات: «لقد اختلت القيم والمقاييس حتى لم تعودوا قادرين على التمييز بين الموتى والاحياء!».

لما احسست انوار الصباح، قبل ان تلمسها عيناي، قلت لنفسي وأنا استعد للنهوض: «لو ان الموت، او الاحساس بالموت، يكون قريباً وقوياً بالنسبة للبشر، كما هو فعلاً، لاصبح الانسان ارقى، لكن أكثر براعات هذا المخلوق، منذ اقدم العصور وحتى الان: كيف ينسى ان الموت قريب منه هكذا».

نفضت النوم عني وجلست. تصورت اني اول المستيقظين، لكن الحركة حولي أكدت لي أنني لست الوحيد الذي لم ينم، او نهض في هذا الوقت المبكر. ومع ذلك، بدا لي سلوك الذين استيقظوا مشوباً بالخوف، او مبالغاً باحترام الموت، فهم يحاذرون ازعاج غيرهم، وأكثر تهذيباً مما تعودوا، كما انهم لا يريدون ان يسجلوا على انفسهم خطيئة من أي نوع.

نجيب لم يكن بعيداً. قلت له همساً، لكن صوتي كان جافاً:

- الغريب، يا صاحبي، ان الموت يعيد صياغة البشر، ويجعلهم أكثر احساساً بالحياة!

رد بتورية:

- الافضل ان نترك الموتى يستريحون في قبورهم، اما اذا ايقظناهم فانهم ينزعجون ويفسدون حياة الاحياء!

- لماذانهرب من الموت ما دام قوياً وكثيفاً هكذا في حياتنا؟

اقترب مني كثيراً، تجاوز الذي كان بيننا، وقال:

- اسمع يا عادل: الحياة هكذا، ولا يمكن لانسان فرد، مهما كان قوياً وبارعاً، أن يعيد صياغة عقول البشر وعواطفهم لكي يصبحوا مثلما يريد. والانسان، لكي يعيش ويستمر، عليه أن يتكيف، ان يصبح امتداداً لما هو قائم في القناعات المسيطرة.. والا تعب واتعب الآخرين!

وبعد قليل، تغيرت نبرة صوته:

- اعرف ان لديك من الاسئلة أكثر مما لديك من الاجابات، لكن سنجد ما نقوله في وقت آخر!

رددت بحدة:

- انت بطل الحلول الوسطى!

تطلع اليّ بلوم، وعلق:

- يمكن ان تقول اي شيء الآن، لكن يجب ان تعرف: ابطأ شيء في التغير هو العقل، وبالتالي قناعات البشر، فاذا ارتبط الامر بقضايا غامضة، خاصة بالموت، فعندئذ يصبح التغيير اصعب!

لم نكن نناقش، كان كل منا يفكر وحده، وبالطريقة التي تلائمه، وأن بدا اننا نتكلم حول نفس الموضوع!

في الليلة التالية كان الامر اخف وطأة، وكان الاجهاد قد بلغ منا مبلغاً لم يترك لنا خياراً، وهكذا، بعد ان تحدثنا في امور كثيرة، ولم ننس الحاج مصطفى بطبيعة الحال، وأن اخذنا نسميه المرحوم، ولا نذكر اسمه، آوينا الى النوم.

واذا كانت اليقظة تعباً فان النوم تعب أكبر. لم اقل لاحد ما حلمت به في اليوم التالي، ولم اسمع من احد شيئاً حول ذلك. لكن في الايام اللاحقة، ودون اتفاق، بدأ الكثيرون يتحدثون عن احلامهم، وفوجئوا ان الحلم واحد او متقارب. لم ينسَ احد منهم ان يتحدث عن اناس ماتوا، عن آبائهم وامهاتهم، وعن اخوة واخوات صغار رحلوا بشكل غامض. ولم ينسَ احد ان يقول ان الحاج مصطفى كان موجوداً في هذه الاحلام!

لكن والايام تتوالى بدأ يغيب الحاج مصطفى، وبدأنا نحن السياسيين ننشغل بالامور «الكبيرة»، الى ان فوجئنا ان القسم الاخر يغلي ويضج بالهتافات والصراخ.

انه يوم من ايام السجن المشهودة، فالسجناء في ذلك القسم، ونتيجة ترتيب استمر لبضعة ايام، وبالاتفاق مع بعض الحرس، بعثوا لشراء ثلاثة رؤوس من الغنم، لكي تذبح في اربعين الحاج مصطفى. اشتريت الرؤوس الثلاثة فعلاً وجيء بها الى السجن، وكان يمكن ان تعبر الى قسم السجناء العاديين، وان تذبح، كما جرت العادة، في حالات مماثلة، حيث استقبل ذلك القسم اضاحي العيد، واغنام منتصف شعبان، واستقبل مرتين او ثلاث مرات خرافاً ذبحت في ذكرى مرور عشرين عاماً على وجود حمدي ابو جلدة، ونعيم زند الحديد، وصفوان خوفني. لم تعترض الادارة، تماماً، على الاغنام وهي تدخل، والمناسبات التي ذبحت من

أجلها. او اذا اردنا الدقة: تظاهرت الادارة انها لم تر ولم تسمع، خاصة بعد معركة شنبور، حيث تصدى السجناء العاديون لمتعهد التموين، وجرحوا وكيله، وحين تدخلت الشرطة وقعت معركة جرح خلالها خمسة اشخاص: ثلاثة من السجناء، واثنان من الشرطة، عدا اصابات اخرى خافية، تم بنتيجتها السماح هنا للسجناء ان يؤمنوا التموين عن طريق متعهدين يختارونهم بأنفسهم، وهكذا اصبحوا قادرين على طلب ما يحتاجونه.

بعد معركة شنبور او يوم شنبور كما اطلق عليه، اصبح بامكان السجناء ان يدخلوا الى السجن اشياء كثيرة، بما فيها سكاكين الذبح والسواطير، والات اخرى يحتاجونها. ولان زعماء القسم اعطوا كلمة، ووضعوا ايديهم على شواربهم، فقد وثقت الادارة، وقامت تقاليد ليس من السهل تجاوزها.

هذه المرة كان من الممكن، او من السهل، ان تمر الخراف، لكن صدف وجود لجنة الجرد السنوي، وكان ضمنها المسؤول عن الشؤون الصحية، وقد اعترض على دخول الخراف لانه لم يتم فحصها قبل الذبح! وهكذا تفجر الموقف.

بدأت الهتافات عند الضحى، وحين بُحت الاصوات بدأت التهاليل، واخيراً عند الظهر بدأت الأغاني البذيئة، والتي لم توفر فضيحة من فضائح السجن وخارج السجن!

وحين بدأت المفاوضات بين العصر والمغرب، قال ممثلو السجناء، كما ذكر لنا نامق ابو قمحة، جامع القمامة وهو يروي لنا بالتفصيل ما حدث:

«قال حمدي ابو جلدة للرائد جودت:

- اسمع يا ولد، صحيح انا سجين، لكن كرامتي لا ابدلها بالدنيا كلها، واذا ما كنت تعرفني منيح اسأل الاكبر منك، لان ما في احد بالبلد، خاصة اللي عليهم قدر، الا ويعرف ابو عزمي...

ولما حاول الرائد ان يتدخل، ان يعترض، صرخ به ابو جلدة صرخة زلزلته، قال له:

- تسكت حتى أكمل، لا كلمة، ولا نفس، سامع؟

ضحك الرائد في محاولة ليتغلب على غضب ابو جلدة. قال له ابو جلدة:

- حارتنا ضيقة ونعرف بعضنا منيح منيح، ما هيك يا حضرة الرائد؟

وهز الرائد رأسه موافقا، فقال ابو عزمي:

- مطلع كل صبح لكم خوّة علينا مقدارها كذا وكذا، وهذا امين الصندوق موجود ويمكن يحكي. وانا، والحمد لله، لا اعرف بالفلوس ولا اتعاطى بها، بس الشباب، المسؤولين عن الحسابات، على علم بالصغيرة والكبيرة، وانا اسمع منهم: هذا الكوم للرائد، هذا الكوم للنقيب، هذا الكوم للملازمين الثلاثة، وهذا الكوم للمساعد، وجُرّ. ما في احد منكم الا واكل من لحم كتافنا، ونحن، وانت تعرف: ساكتين، صابرين، ونقول لكم ماشي الحال، ونقول في قلوبنا: السم الساري . . .

توقف. نظر الى الرجال، ثم واصل بانفعال:

- تاركين اللي عندهم فلوس ما تاكلها النيران ولاحقينا نحن الفقراء؟ تاركين الناس كلها وحاطين دابكم بدابنا؟ يا سيدي تحملناكم سنة، تنتين، عشرة، وبعدين؟

وضحك بحزن وقال:

- والله حرام؛ والله ما نزلت بكتاب او قبلها عقل: حاميها حراميها. انتم تستلموا رواتب من الحكومة، وعندكم علاوات، وفوق كل هذا: على الداخل والخارج رسم: الزيارة عليها رسم، الرسالة فوق الطابع والدمغة عليها رسم، الحلاقة عليها رسم، الملابس النظيفة والوسخة لازم تترسم، الاكل لازم ينذاق، الباكيت لازم ينفتح . . .

توقف لحظة، ثم صرخ:

- لو كنتم بالوعة كانت طفت، لك وبعدين معكم؟

قال له الرائد وهو يبتسم:

- تعرف، يا ابو عزمي: نحن وانتم مثل السمن والعسل، تفاهم واتفاق على الكبيرة والصغيرة، وما في بينا اي خلاف، لكن هذا السخيف، مأمور الصحة: «هذا يجوز، وهذا لا يجوز». تصور يا ابو عزمي: خايف عليكم، يقول: «اذا الذبيحة ما انذبحت في المسلخ يمكن تكون مريضة. وسنكون مسؤولين عن اية نتائج!» حاولت معه، لكنه رفض، وتعرف، اذا كان مع لجنة الجرد يمكن يخرب

بيتي، وقادر يؤذيني، وانتم، الله يسلمكم، انعبطتوا، لو انتظرتم ساعة او ساعتين، لو تركتم هذا اليوم يمر كانت الامور رجعت مثل ما كانت، لكن انتم زودتـوها، وخلقتوا لانفسكم مشكلة لا احد يعرف كيف تنتهي!

وقال له حمدي ابو جلدة:

- وأربعين هذا المسكين، كيف يمكن يمر لا قحا ولا مرحبا؟ لو كنا طالعين من المحل العمومي حرام ننساه، لو ما في بينا خبز وملح كان قلنا: الله يرحمه وانتهى الامر، لكن المسألة أكبر من هذا كله، يا حضرة الرائد!

قال له الرائد جودت:

- يا ابو عزمي، الميت لا تجوز عليه الا الرحمة، لكن بشرفك، بدينك، هذا البهلول يستحق كل هذا الاختلاف بينا؟

رد عليه ابو عزمي بغضب:

- المسألة، يا حضرة الرائد، مسألة ناموس، ونحن جماعة شرفاء، اللي يمالحنا على راسنا وعينا، ولا يمكن ان ننساه!

رد عليه الرائد:

- يا ابو عزمي، انا ما عندي اي اعتراض، لكن لا فرق بين اليوم وبكرة، والنية اذا كانت موجودة الضحية تصل روح المرحوم.

قال حمدي ابو جلدة:

- اربعين الميت هي اربعين الميت، وانت تعرف، ان روحه، في هذا اليوم، تصعد الى السماء، ولازم اجنحة ترفعها، تساعدها. والرجال، والشهادة لله، ما له غيرنا، فاذا نحن غضينا النظر، وصرنا مثل الحجارة، بكرة لا احـد يسأل عنـا، والواحد منا يمكن يموت موتة كلب، ولذلك نحن ندافع عن ارواحنا، ندافع عن حقنا، وأنتم لا تعترفون الا للاغنياء.

قال له الرائد:

- انا اللي خلاني آخذ على خاطري، يا ابو عزمي: الهتافات والشعارات، والظاهر ان هذه ما هي شغلة القسم اللي انتم فيه، هذا شغل السياسيين، ولا بد

يكون الجماعة حكوا معكم، دهوا بعقولكم، والا انا غلطان؟

رد حمدي ابو جلدة بحدة:

- غلطان ونص، يا حضرة الرائد، لان الجماعة لا حكوا ولا قالوا، ونكون ما عندنا شرف ولا وجدان اذا اتهمناهم. اذا قلنا عليهم كلمة واحدة زايحة!

قال الرائد:

- انا عايز اطمئن يا ابو عزمي، انا مصدقك، لكن حتى يطمئن قلبي!

- خذ مني، يا حضرة الرائد، لا شفنا الجماعة، ولا حكينا معهم اي شيء عن المرحوم، واذا ردتم تصفوا الحسابات فنحن معهم، ولا تغلط، يا حضرة الرائد!
قال الرائد بخوف:

- ما في بينا اية حسابات، يا ابو عزمي، لكن الواحد رايد يتأكد، لان عادتكم: لا هتافات ولا شعارات، هذه المرة غير شكل!

قال ابو جلدة، وقد ضاقت روحه:

- يا حضرة الرائد.. بالمختصر المفيد: اذا كنت تريد تذبحها على قبلة، ونخلص من الموضوع، آخر موعد بالنسبة لنا: غدا فجراً. الخرفان تصلنا، ونذبحها على روحه، ونقول لرب العالمين: تقبلها عن اربعين المرحوم!

اجابه الرائد:
- على خيرة الله، بس هذا بينا، لا من شاف ولا من سمع، موافقني؟

وبعد ان تم الاتفاق قال المساعد ابو سمير:

- تعال وشوف يا حاج مصطفى....

وضحك نامق ابو قمحة، واضاف:

وقال المساعد:

- «الظاهر ان الميت بعد ما يموت تطول كراعينه!».

وانتهى الامر بالاتفاق، شرط ان يحصل السجناء على ترضية معقولة، وكانت الترضية ان توافق الادارة على ان يدعى شخصان او ثلاثة من قسم السياسيين لكي يشاركوا بهذه المناسبة!

لا ازال اتذكر، رغم مرور الزمن، ذلك اليوم من آذار: خلال فترة التنفس الصباحية، وكنا نقف مستندين الى الحائط الغربي نتشمس، لان اللسعة الصباحية الباردة لا تزال تتخلل ذرات الهواء، وكنا غارقين في حالة من التأمل الرخو، لمحنا موكباً من ثلاثة او اربعة اشخاص قادماً نحونا، كان حمدي ابو جلدة ونعيم زند الحديد، ولا اتذكر من ايضاً.

حمدي، بجسده القصير الممتلىء القوي، يتقدم الاخرين بنصف خطوة، ورغم القصص الكثيرة التي تروى عنه، وهي اقرب الى الخيال، فقد كان يتقدم وعيناه الى الارض، تعبيراً عن الثقة والتواضع معاً، ومن يرقب مشيته لا يخطىء في انه يقصدنا. لما وصل، ولم تبق الا خطوة او اثنتان، رفع وجهه، تبادلنا النظرات دون ان نتكلم. بدا الصمت ثقيلاً، وبدا الرجل محرجاً لا يعرف كيف يبدأ، قال واحد من ورائه:

ـ ابو عزمي له معكم كلمة!

نظر الينا من جديد ولم يزايله الحرج. انها واحدة من المرات القليلة، وربما المرة الوحيدة، التي نراه هكذا. لم نكن مرتاحين، او بتعبير ادق كنا متوجسين، فهذا الرجل الذي تسبقه شهرته، والمحكوم مؤبداً، لا بد من خلال هذه الزيارة، ان يسبب لنا متاعب من نوع او آخر، والا لما جاء، او على الاقل لجاء بشكل مختلف.

قال له نجيب، بطريقته الدمثة، والتي غالباً ما تمتص الصدمات، وكنا نطلق عليه: نجيب سفنجة، او نجيب مانعة الصواعق، نظراً لقدرته وبراعته في تنفيس غضب الطرف الاخر؛ قال له نجيب:

ـ اهلاً وسهلاً عمي ابو عزمي، ولو كنا بغير هذا المكان، وبغير هذا الوضع كان شفت كيف نستقبلك. . .

ـ اهلاً بالمهلي.

هكذا رد حمدي ابو جلدة، وقد انفرجت اساريره، وغادره الحرج، وأضاف بصوته الخشن:

ـ بالمختصر المفيد: الاخوان في القسم الثاني ذبحوا على روح المرحوم الحاج مصطفى، وكلفوني بزيارتكم والسؤال عن خاطركم. . .

توقف لحظة، بلع ريقه، وتابع فجاء صوته مختلفاً:

- ويزيدنا شرف ان تختاروا اثنين او ثلاثة حتى يشرفونابهذه المناسبة!

ولقطع الطريق على اي اعتذار اضاف بسرعة:

- نحن اتفقنا مع الادارة، والادارة وافقت.

قال نعيم زند الحديد الذي تقدم خطوة:

- لو ما كنا محابيس، وايدينا قصيرة، لكان سوينا للمرحوم عزيمة كبيرة ومطنطنة، ولكان دعينا لها اللي نعرفه واللي لا نعرفه، وكل من يحضرها يأكل ويقول الله يرحمه!

التفت اليه حمدي ابو جلدة وقال بمرح:

- نذراً عليّ يا ابو زكي، اذا الله كتب وقدر، وطلعت، لاعوض كل هذا القصور!

سوف اتجاوز الان الكثير من التفاصيل، لاني، كما ذكرت من قبل، لا اكتب لكي اسليكم، وليس هدفي التعذيب ايضاً، فقلبي انقبض أكثر من قبل بعد هذه الزيارة. كنا نلتقي مع هؤلاء الناس في الساحة، ونتبادل معهم التحيات وبضع كلمات، ولكن ذاكرتنا مليئة الى اقصى حد بالقصص التي تروى عنهم: الجرائم التي ارتكبوها، الاحكام التي يحملونها على اكتافهم، اضافة الى ما يرويه الشرطة عن قسوتهم ونذالاتهم، وكانت هذه الامور تقيم حاجزاً بيننا وبينهم. اما في ذلك اليوم، ونحن في ضيافتهم، فقد تأكدت ان هؤلاء الناس يفيضون رقة وخجلاً وبؤساً. لا اريد ان اقول انهم افضل من الاخرين، ولكنهم مثل الاخرين تماما، غير ان المجتمع قسا عليهم ودفعهم لان يكونوا قساة، لكي يدافعوا عن انفسهم. وصدف ان قبض عليهم، اما الذين لم يقبض عليهم، ولا زالوا احراراً وأقوياء، فانهم يفوقونهم عدداً اضعافا مضاعفة، ويفوقونهم ايضا دهاء ومكراً!

قد يقول احدكم الان انني وقعت في المطب الذي كنت اهرب منه: الوعظ! ولكي لا اترك لديكم انطباعاً مثل هذا راقبوا ما حصل:

بعد ان تم اختيارنا، اخذنا نحن الثلاثة في موكب، لكي نقابل الرائد جودت، الذي قال لنا بفرح:

ـ الجمال لا يخفى، والشمس لا يمكن تغطيتها بغربال، ونحن طول المدة الماضية نضرب اخماس باسداس: من هم المسؤولون عن المهجع، من هم الشيوخ، والان جئتم على ارجلكم تدرجون درج!

ابتسم وهز رأسه ثم اضاف:

ـ سياسة واكل خرا ما في: حكي عن الادارة ما في: مطالب وعرايض ما في، وشوشة ومؤامرات ما في. سامعين؟

قال نجيب بمرح:

ـ عزيمة وشروط يا سيادة الرائد؟

ـ عزيمة مجانين، الجنازة كبيرة والميت كلب، لان هذا الداشر ما حدا قال له في حياته مرحبا، لكن بعد ما مات صار واحداً من أشراف روما..

ضحك وهز رأسه عدة مرات، وتابع:

ـ كلكم اورطة سرسرية، مهابيل على مجانين، وانا راح تصلني كل كلمة تنقال، وما دام عرفتكم انكم انتم الشيوخ فلمسوا على روسكم، وانتبهوا!

بمقدار الفجور والكلمات النابية التي صدرت عن الرائد، وقد اضاف اليها المساعد الكثير، اثناء مرافقته لنا، فقد وجدنا في المنازل الاخرى شيئاً مغايراً: ربما لم ينم احد من السجناء، اذ انشغلوا بالتنظيف والاعداد، وما كدنا نصل حتى هبوا، وقفوا دفعة واحدة، وبدفء لا يخلو من ارتباك، استقبلونا بالتحيات.

كانوا ينظرون الى هؤلاء السياسيين نظرة هي مزيج من الاحترام والرثاء وعدم الفهم. ظلوا صامتين فترة طويلة، عدا كلمات الترحيب التي تتكرر كمحاولة لقهر الصمت.

حين وجد نعيم زند الحديد ان الصمت طال أكثر مما ينبغي، وأن عبارات الترحيب اصبحت تستفز أكثر مما تعبر عن الود، قال:

ـ يا جماعة الخير...

تطلع الى ابو عزمي وتابع:

ـ بالاذن من ابو عزمي، بالاذن من جميع الاخوان، ولأنّا، نحن محابيس

القسم العام، ما تعودنا، مثلكم، على الكلام، ولان المناسبة اربعين المرحوم اخونا الحاج مصطفى، فراح نحتفل على طريقتنا.

وفجأة بدأ القرآن. اذ قرئت بعض السور الصغيرة، ثم اعقبته التهاليل، ثم بدأ الحديث عن المرحوم.

بدأت الاحاديث بتحفظ، اذ رويت القصص التي تشيد بالمتوفى فقط، لكن احد السجناء قال ولم يستطع ان يخفي ضحكته:

- يا جماعة الخير، الميت الله يرحمه، اخونا وصاحبنا، لكن الحاج مصطفى ما كانت شرطي ولا حفار قبور، واللي يسمع كلامكم يتصوركم انكم تحكوا عن واحد غير اللي نعرفه!

وبدأت القصص والنكات، وبدأت تعلو الضحكات الصاخبة.

وتغير الجو: ظهر الحشيش وظهرت المشروبات، وعبق المهجع كله بالروائح، ومع كل دقيقة تمر، يتغير مزاج البشر. واذا كانت المناسبة اربعين الحاج، فقد تذكروا كلماته وشتائمه، وطريقته في استجداء الحشيش. قال احد السجناء لتبرير كل ما يجري:

- نحن نعرف الحاج مصطفى كانسان، نعرفه واحد منا، والله يرحمه ما كان يحب إلا هذه الحياة!

ولم تكد تمر ساعة حتى بدأ الغناء، واكتشفنا في المهجع عدداً من المغنين. كانت أصوات معظمهم شجية. وقد تناوب على الغناء الكثيرون، كان بعضه يؤديه مغنون منفردون، وبعضه الاخر جوقات، ولم يبق احد الا وشارك بشكل ما، بمقدار ما. أما عندما طلب منا احد السجناء ان «نقدم وصلة» فقد تطلع اليه ابو جلدة بقسوة، وقال، وخرجت الكلمات من بين اسنانه:

- لا تتبارد على الضيوف يا منظوم...

والتفت نحونا معتذراً:

- بعض الناس، بعد الكاس او كم نفس يضّيعوا، فلا تؤاخذنا.

قال نعيم زند الحديد:

ـ بساطنا أحمدي، واللي يحب يغني يتفضل، اما ان نثقل دمنا على احد فالعياذ بالله، ما كنا ولا راح نصير. . .

وبعد قليل:

ـ خاصة مع شرواكم، وأنتم ضيوفنا وعلى العين والراس، واستروا ما شفتم منا!

هذا الصخب لم يستبق احداً، ولذلك كان الذين يقفون في باب المهجع ـ من الشرطة والموظفين أكثر من الذين في الداخل، وقد شاركوا بتعليقاتهم، وطلب عددٌ منهم اغنيات سموها، فرد ابو جلدة، وكان بين الجد والمزاح:

ـ نحن نغني الموال اللي براسنا حتى نطرب، ولا نغني حسب الطلب!

وعاد الحاج مصطفى مرة اخرى قبل الغذاء بدور تمثيلي اداه اثنان من السجناء، وكان متقناً ومسلياً، حتى ان احدا لم يتردد في ان يقول:

ـ سبحان الله، الخالق الناطق، وكأنه الحاج مصطفى ذاته، لا راح ولا جا!

حتى الملابس التي ارتداها من قام بدور الحاج ارتاب الكثيرون ان تكون ملابس الحاج ذاتها او شديدة الشبه بها، وقد صفق الجميع واشادوا بهذا الاداء!

علق احد السجناء بعد التمثيلية:

ـ الشخص الوحيد الناقص، واللي كان لازم يشوف هذا الدور هو الحاج مصطفى نفسه!

وقال آخر:

ـ نم هادئاً وديعاً يا من افرحت الناس في حياتك وفي موتك!

وسأل سجين كان يجلس في نهاية المهجع:

ـ اذا مت يا جماعة الخير يمكن ان تقيموا لي احتفالاً من نفس النوع؟

ـ موت وشوف!

هكذا رد اكثر من واحد، وعلت الضحكات!

حين خيم الهدوء للحظات قال ابو جلدة:

- يا ضيوفنا، يا ضيوف الخير، ترى الاكل جاهز. . بس تأمروا.

خرج أكثر من صوت:

- يا ابو عزمي. . اذا الجماعة مرتاحين فلاحقين على الاكل!

التفت نعيم زند الحديد الى أكثر من جهة وقال:

- بس يأمر الجماعة، ومثل ما قال ابو عزمي!

وارتفع صوت الغناء مرة اخرى، ودارت السجائر والطاسات، وفي لحظة صمت، سمع صوت اذان الظهر، فارتفع معه صوت الاستغفار وطلب الرحمة والعفو، وخيم صمت عميق طوال الفترة التي استغرقها الاذان.

لاول مرة في حياتي ارى على الوجوه هذا المقدار من العذاب والحيرة والتساؤل. انها متجاورة، متعانقة، متداخلة، الى درجة لا يمكن ان يفصل الانسان خانة عن اخرى، حالة عن التي تجاورها. وهذه الوجوه بمقدار ما تعاني وتتعذب، فانها تقول الكثير، لكن بصمت وصبر، مما يدلل على غنى الداخل وتنوعه، وايضاً على التعدد في الانسان، خاصة اذا كان سجيناً ومقهوراً.

قال حمدي ابو جلدة، وخرج صوته مرتجفاً:

- الله، سبحانه وتعالى، شايف وعارف، وهو الادرى بالسرائر، والانسان، مهما اخطأ وعصى، لا بد يجي يوم ويتوب، ولا بد يجي يوم ويموت، سنته سبحانه وتعالى، ونحن العبيد المقهورين. ما لازم تيأس من رحمة الله!

ورفع رأسه الى فوق، وقال بتمتمة:

- اللهم اغفر لنا ذنوبنا ما تقدم منها وما تأخر.

ولكي لا نعود الى جو الخطيئة مرة اخرى، التفت نحونا حمدي ابو جلدة وقال:

- اظن ان هذا الوقت مناسب للغدا، ما هذا رأيكم؟

واذا كان استقبالنا قد جرى بجو من الود المشوب ببعض الارتباك، فان الوداع كان حافلاً. عانقنا السجناء بحرارة، وكأنهم يعرفوننا منذ وقت طويل، وكانت عيونهم تفيض بالشكر والتقدير اننا لبينا الدعوة، وطلبوا، باصرار، ان نغفر لهم اخطاءهم، وان ننسى اساءاتهم، مع انه لم تقع اخطاء او اساءات.

ورافقنا عدد كبير منهم حتى البوابة!

قبل ان ينتهي اسبوع على اربعين الحاج مصطفى، وبخدعة ماكرة، تم استدعاء «شيوخ» القسم العام. وكان على رأسهم حمدي ابو جلدة ونعيم زند الحديد، وصفوان خوّفني، اضافة الى عدد آخر، وسُفّروا في نفس اليوم الى سجن القليعة.

وفي فترة التنفس اغلق الباب بين الساحة والمهاجع، وتمت مصادرة جميع الممنوعات من القسم، خاصة ادوات المطبخ، بما فيها من سكاكين وسواطير وغيرها، ولم يدخل السجناء الى المهاجع الا بعد ان فتشوا جميعاً، وقال المساعد في انذار واضح واخير:

- لازم تعرفوا: هذا السجن المركزي، لا اضرابات ولا احتفالات، واكبر راس راح يتكسر!

وفي اليوم التالي استدعانا الرائد جودت يعقوب:

- انا، ولله الحمد، ذاكرتي قوية، واذا الواحد منكم، او في المهجع كله، راح يعنتر راح ارجعه لبطن امه. ولعلمكم، ترى عندنا من الوسائل والأدوات ما فتح ورزق، والشغل اربع وعشرين ساعة... ليل نهار فقط، سامعين؟

وحين هززنا رؤوسنا اننا سمعنا وفهمنا، قال بسخرية:

- وشفتم شو صار بجيرانكم...

وصرخ:

- يا الله، اعطوني عرض كتافكم، يا اولاد الكلب، والأيام بيننا!

ومرة اخرى يخيم على السجن جو ثقيل.

المساعد ، ابو سمير، الذي سبت طوال فصل الشتاء، اتقاء للبرد، اخذ ينتفض بقدوم النسمات الدافئة. اخذ يمر علينا، والعصا الرسمية معلقة في رسغه، وعيناه كالسنجاب فرحتان وخائفتان في آن واحد، وهذا الخوف لا ينتهي الا اذا تدفقت من فمه الشتائم؛ كانت الشتائم وهي تخرج تؤكد ان انساناً داخله، بصوت غليظ وسخرية لاذعة، هو الذي يطلقها، وفجأة يتغير المساعد، يصبح شخصاً مختلفاً، اذ يبدأ يقفز كالجرادة، يتجول بيننا دون خوف، يغرز عصاه في الصدور ليطمئن على صحتنا، ويواصل الشتائم، في نفس الوقت، وكأنه يتلذذ بها!

ورغم ان امطار هذه السنة كانت شحيحة. الا ان الربيع. مثل كل سنة، جاء وقد احسسنا بذلك من دفء الهواء وطول النهار. وايضاً من تلك الأغاني الشجية التي يرددها سجناء القسم العام. كانت الأغاني حزينة، مليئة بالحنين والشجن، وتقول الأشياء بلوعة، وربما لاحظ هؤلاء السجناء انفعالنا وتأثرنا بغنائهم اثناء تلك الزيارة، ولذلك لم يترددوا، وهم يغنون في هذه الليالي، ان يرفعوا اصواتهم اقصى ما يستطيعون، وكأنهم يبلغوننا رسائل شوق، وربما عتاب، وكانوا ايضاً يرثون اصحابهم الذين ذهبوا بعيداً، الذين أُخذوا الى حيث لا يعرفون. وكانوا في نفس الوقت يندبون حياتهم وحظهم في هذه الحياة!

ولم يكن الشرطة يعترضون على هذا الغناء. اكثر من ذلك في لحظات الصمت نسمع صرخات الاستحسان تتوالى من امكنة عديدة، حتى من وراء الأسوار!

هكذا كان القسم الآخر يواجه الحياة. وهكذا يتعامل معها. في الوقت الذي

كنا نغرق في مناقشات لا اعرف كيف تتفتق عنها عقولنا، وغالباً ليس بهدف زيادة ثقافتنا او اكتشاف آفاق جديدة للمستقبل، وانما بقصد ان نختلف، وكان الماضي يمدنا بذخيرة لا تنتهي في هذا المجال! كنا نقطّب ما بين الحواجب وندخل في تلك المبارزة، برغم اننا نريد الوصول الى الحقيقة وتدقيق وقائع الفترة الماضية، الا اننا اغلب الأحيان كنا نميل الى المكابرة والتبرير، لكي نستطيب، بعد ذلك، الحزن الشفيف الذي يغلف قلوبنا وارواحنا، ولأن نبرر الخصومات التي تقع!

نظرتان للحياة، وطريقتان للتعامل معها!

والمساعد والشرطة الآخرون الذين عجزوا عن ابتزاز القسم الآخر من السجن، واصطدموا بذلك الرفض المغلف بالبساطة، لكنه المستمر والمتين، يعوضون ما لحقهم من «خسارة» هناك ربحاً مضاعفاً هنا. وما عدا نجيب وبضعة اشخاص آخرين، كانوا يمتلكون حساً شعبياً وطريقة في التعامل، فقد كنا، نحن الآخرين، غالباً ما ندفع نيابة عن الجميع!

وهكذا اصبحت الحياة في السجن: بليدة، ثقيلة، مليئة بالمرارة، ونحن ندور كالثيران المعصوبة الأعين لا نعرف الى اين او الى متى. تتسقط اخبار العالم الخارجي فتأتينا بطيئة، مشوشة، وكأن هذا العالم لا يقل ركوداً وبلادةعن السجن ذاته!

في هذا الجو، وفي الأيام الأولى من حزيران، وعلى غير توقع، سرت في السجن شائعة ما لبثت ان تأكدت: «عودة السياسيين من سجن القليعة، لكنهم الآن في زيارة للسرداب!»

ورغم ما يعنيه السرداب من عذاب ومذلة، فقدهزتنا الشائعة وطغت علينا حالة من الفرح انهم عادوا، واذا كانوا يعانون الآن فلا بد ان تنتهي المعاناة بعد بضعة ايام، وسنلتقي من جديد لنستعيد حياة كاملة في العفير ثم في القليعة، وسوف نعرف الكثير عن الفترة اللاحقة، بعد ان غادرنا ذلك السجن اللعين.

وتذكرت مرة اخرى مناقشاتنا حول الزمن في سجن القليعة، وباعتبار اننا ننتظر، فقد تمددت الساعات واتسعت الفواصل بين الأوقات. اخذنا نستعيد الوجوه ونتذكر الكلمات. ابو مكرم بضحكته الخجولة وصوته المنخفض، وكأن رضوان اخذ ما يستحقه وجزءاً مما كان مقرراً لحامد زيدان من صوت وطريقة في التعامل، ولذلك

يبدو الفرق بين الأثنين الآن شاسعاً. اما رامز غرينتش، كما اصبحنا نطلق عليه بعد عودتنا الى السجن المركزي، كطريقة للتحبب. والتذكر معاً، فقد كان يفترض الا ينزع المريول الأبيض، حيث يجب ان يكون في احد مصانع الأدوية يزن ويركب دون تعب! وكذلك احمد وماجد. ان لكل واحد ملامح تشي بما يجب ان يكونه في هذه الحياة، لكن السجن حين سرقهم واستبقاهم بين جدرانه سنة بعد اخرى، فقد حرمهم من الحياة وحرم الحياة منهم، ليس هذا فقط، بعد تلك الرحلة الطويلة من اقاصي الشمال، وبدل الحمام الساخن والطعام الذي تفوح منه رائحة الأمهات، ها هم الآن في الظلمة القاسية ووسط الروائح التي تقتل الجرذان!

في الليلة الأولى، وكمحاولة للاحتفال بوصولهم، واستعداد للقاء بهم، لم نترك قصة او نكتة في سجني العفير والقليعة، حولهم، او لهم بها علاقة، الا وتذكرناها. تماماً كمن ينتظر مسافراً فيحاول ان يتذكر ملامحه وتصرفاته، ويضيف اليها قليلاً من الزمن، لأنه لا يستطيع ان يتعامل مع الزمن الا بحذر يصل في اغلب الأحيان درجة الخوف. يقول لنفسه «لقد مضت سنوات على آخر لقاء لنا، ومعنى ذلك: بضع شعرات شائبة، وحزوز صغيرة، لم تصل الى الخطوط، ولن تبلغ الأخاديد، بدأت توشي الجبهة، لتدّل على السنوات التي مرت... وربما ايضاً، ثنيات لا تكاد تبين تحت العينين وفوق الجفون... هذا كل شيء» ويستغرب حين يجتاز ذلك المسافر العائد قاعة الجمارك، وتلتقي العيون. لأول وهلة لا يرى الواحد من الآخر إلا ما يريد، وبعد العناق والقبل، وبعد الاسئلة التي لا تنتظر اجابات، يبدأ التدقيق ثم الاكتشاف، واخيراً الوصول الى يقين حازم: لقد مرّ الزمن وخلّف الكثير من الخدوش والآثار والجروح!

الآن، ونحن نتذكر ملامحهم وتصرفاتهم، اكتشفنا ان زمناً طويلاً مرّ، ومن خلال احاسيسنا عرفنا ان ايام السجن ليست مثل ايام اخرى خارجه، وليست مثل ما يعدّ الآخرون. يضاف الى ذلك ان خ خ وزبانيته وقد اكدوا لنا، فقط لكي يخلصوا منا بسرعة، انه لن يمر اسبوع الا وسوف يلحقون بنا. بعد ان غادرنا استفردوا بهم، وربما انتقموا منهم.

لقد مرت شهور طويلة منذ ان تركناهم، ولا بد ان اوقعوا بهم من الاصابات والأذى ما جعلهم يستبقونهم طوال هذه المدة ليشفوا جسدياً، وليتركوا في قلوبهم ندوباً لا تزول، خاصة في ظل شتاء مثل الذي مضى، حيث لا مطر، لكن البرودة

والصقيع والجفاف، من شأنها ان تجعل الناس اقرب الى الهياكل العظمية.

هكذا فكرنا وتذكرنا واستعدنا بعض الأحداث والقصص. واذا كانت العادة ان يبتدع السجناء وسائل لا حصر لها للاتصال، عن طريق الرشوة، ويجب الاعتراف ان السجناء العاديين كانوا اكثر قدرة ومهارة منا ـ فلم نفكر، ولم نحاول هذه المرة؛ واتذكر ما قاله نعيم زند الحديد ذات يوم، ونحن نفكر بالذين تركناهم في القليعة، ولم نسمع عنهم شيئاً، اذ قال وهو يضحك:

ـ اذا كنتم رايدين حتى طاقية الملك ممكن نرفعها ونشوف اللي تحتها

هذه المرة لم نفكر ان نصل الى السرداب، لأن الوقت قصير، ومؤامرة من هذا النوع تحتاج الى تدبير محكم ورشاوٍ استثنائية، والأكثر مرارة: انه لم يكن لدينا شيء نقوله لهم وليس هناك شيء نستفسر عنه، خاصة وانهم عادوا!

قال نجيب في محاولة لأن يتغلب على جو الحزن والترقب:

ـ لدي احساس ان الجماعة اللي راحو من هنا، ابو عزمي وجماعته، لا بد يكون جابوا اجله للمساعد خليل، وانتقموا لانفسهم ولنا!

رد صابر بمرح:

ـ اراهن ان ثلاثة على الاقل اعطوكم عمرهم: النقيب مدحت عثمان، المساعد خليل خيرو، والعريف ادريس....

وبعد قليل، وهو يمثل:

ـ ابو عزمي: للنقيب: تعال يا افندينا، قف وارفع رأسك، ما هي طلباتك الأخيرة؟ لا شيء.. عال.. العال مسكه من جوزته وطقها، وبعدما خلص نفض يده، وقال: دورك يا ابو زكي! قال له ابو زكي: ما تركت لي غير هذا الخرندعي، يا ابو عزمي؟ هذا ظهره محلول وعظمه فارغ وحرام الضرب فيه، ونـدفه بقفا يده زند الحديد فوقع على قحف راسه، وابداً ما عطس، وصار خبراً بعد اثر، ولما انتهى التفت ابو عزمي الى صفوان وقال له: دورك، شوف شلون يحب يموت، وما كذب صفوان خوفني خبر، برم شاربه وقال له: تعال يا محروس، تحرك لعنده كالمضبوع، قال له: كافي. ومثل لمح البصر بعّ فيه وضرب رأسه بالحيط، او ضرب الحيط براسه، وهذاك يوم وهذا يوم، وانتهوا!

قال نجيب:

ـ لما يصلوا الشباب بكرة او بعد بكرة، مع بعض الاضافات والرتوش، تصلح هذه مسرحية لاستقبالهم، ما رأيك؟

رد صابر بمرح:

ـ انا يا صاحبي مع المسرح السمفوني، يعني لازم الكل يشارك!

قال رضا بجدية:

ـ تعبير من هذا النوع لا يطلق اصلاً على المسرح، وانا ضد الاستهتار بالمصطلحات، حتى لو من قبيل المزاح.

قلت في محاولة لابقاء الجو مرحاً:

ـ لن اتدخل في المصطلحات، ولكن لدي سؤال: اذا كنت يا صابر تطالب بمشاركة الجميع، الا تحتاج الى جمهور، الى متفرجين؟

ـ الخمسة يكفون، لأنهم وحدهم ضيوف الشرف!

ـ يعني كل متفرج له خمسة ممثلين؟

ـ هذا ما يجب ان يحظى المواطن به في بلد متقدم مثل عمورية، لأن المواطن المرفه، الحر، المثقف، الشجاع، هو الوطن القوي، وما دام مواطننا يحظى الآن بخمسة شعراء، وخمسة مغنين وخمسة مخبرين، فهل تعتبر انه من باب الاسراف اذا حصل على خمسة ممثلين ايضاً؟

ـ لا اعترض على مبدأ الخمسات، خاصة وان الرائد شديد الحرص على هذا المبدأ، واتذكر انك كنت واحداً من الخمسة الذين اختارهم القدر لكي تمثلنا في السرداب حين عدنا من سجن القليعة، هل نسيت؟

ـ انسى؟ كيف انسى؟

قال نجيب:

ـ نقطة نظام، يا شباب...

تطلع الى الوجوه طالباً التأييد، فلما وجد قبولاً تابع:

ـ لقد تشعبت المواضيع وتداخلت، ولـذلك لا بـد من العودة الى جـدول الأعمال. . .

ولما تساءلت العيون اوضح :

ـ انا الذي تقدمت بالاقتـراح ان تكون تمثيليـة صابـر، مع بعض الـدعم والتقوية والمساندة، المسرحية التي نستقبل بها العائدين، واذا كانت هناك اقتراحات اخرى فانني اطرح اقتراحي للتصويت عليه اولاً، والمسألة في البـداية وفي الختـام تعتمد على رأي الأغلبية!

قال بدر :

ـ انا اوافق من حيث المبدأ ولكن أقترح ان يضاف عنصر آخر، وهو احد سجناء القليعة الأصليين،واقترح مثلاً الداوودي لكي يقرف رقبة واحـد اخر من جلاوزة السجن، فماذا تقولون؟

قال نجيب :

ـ الفكرة واردة، لأن الجماعة زكرتية، واقتراح الداوودي بمكانه، لأنه شيخ القليعة بعد هرب الاحدب!

قلت :

ـ اذا وافقنا على اقتراح الاضافة، فمن هو المرشح للقتل؟ اي من هو الجلوز الذي سيخّوض الداوودي بدمه؟

رد بدر وهو يقف ويرفع يديه :

ـ السؤال ليس في مكانه، والأصح ان نسأل: مَن من جـلاوزة القليعة لا يستحق القتل؟ انسيتهم؟

وبعد قليل، وقد شاب صوته شيء من المرارة :

ـ يا اخي حتى بغالهم تستحق ان تُقتل!

قال سميح، وهو في العادة قليل الكلام :

ـ والسياسيون . . اليس لهم دور في هذه المسرحية؟ الا يفترض ان يشاركوا بشكل او آخر؟

سأل رضا بمكر:

ـ لم افهم السؤال بدقة، اتقصد ان يكون لهم دور في المسرحية او في القتل؟

رد صابر بمكر موازٍ:

ـ ما دام القتل سيحصل فيمكن ان نضيف ضحية جديدة لهذه المسرحية، ونشير بغموض الى احتمال ان يكون وراءها هدف سياسي، وايضاً شخصيةسياسية!

ـ ومن سيكون القاتل في هذه الحالة؟

هكذا سأل رضا من جديد وهو يتطلع في الوجوه ليرى ان كان احد يرشح نفسه. رد صابر:

ـ ما دام الغموض سيد الموقف، فان القاتل والأسباب تُسّجل ضد مجهول، ولذلك يمكن ان يكون القاتل اي واحد ويمكن ان يكون لا احد!

قلت في محاولة لتغيير المسار قليلاً:

ـ ما دام السياسي يقدّم المبررات ويخلق المناخ، ولديه الأدوات ايضاً، ولزيادة التعقيد والتركيب في المسرحية، فارى ان يبقى بين الجمهور، وان لا يظهر على المسرح ابداً. اكثر من ذلك ارى ان يتظاهر بالبراءة والعفة، والبعد عن الشبهة، لأن هذه الطريقة وحدها تزيد التشويق وتجعل الأسئلة تدور بعد المسرحية، وهذه اهمية اية مسرحية، كما افترض!

قال نجيب بحزم متكلف:

ـ من الأسباب الأساسية لفشلنا عدم التقيد بالنظام، فانا طرحت نقطة نظام، وطلبت التقيد بجدول الأعمال، والتصويت، لكن حضراتكم تجاوزتم هذه النقطة وغرقتم في التفاصيل، ولذلك لا بد ان اسجل اعتراضي على هذه التجاوزات اولاً، ولا بد من التقيد بالنظام الداخلي في كل خطوة، ثانياً!

تساءل رضا بمكر:

ـ نحن متفقون من حيث المبدأ، لكن يبقى الموضوع الأساسي : ما اسم المسرحية؟

رد صابر:

ـ قتل في السجن، على غرار: قتل في الكاثيدرائية!

قلت:

ـ عنوان غامض وليس له اية ايحاءات اوظلال! من القاتل؟ من المقتول؟ في أي سجن؟ يجب ان تكون هناك اشارات من نوع او آخر تعطي بعض الدلائل.

ـ قتل في سجن القليعة!

ـ كيف قتلوا فلان!

ـ لماذا قتل فلان؟

ـ قتل في النهار؛ او قتل سجين في النهار؛ او السجين القتيل!

ـ هذه كلها عناوين تقليدية لأنها مألـوفة ولا تشي بـالقاتـل. المهم فضح القاتل!

هكذا قال صابر تعقيباً على العناوين التي بدأت تنهال بسرعة، وبدأت عناوين اخرى بعد فترة صمت قصيرة:

ـ الاغتيال

ـ اغتيال سجين

ـ الاغتيال الغامض.

ـ لماذا اغتالوا عبد الله الحمود؟

ـ ومن يكون الافندي عبد الله الحمود، يا حضرة؟

ـ ممكن يكون اي انسان

ـ هذه تعمية مقصودة من أجل تسجيل القتل ضد مجهول!

ـ يا جماعة آخر شيء يتم اختياره، عادة، هو العنوان، ويمكن استنتاجه من السياق، فلذلك لا داعي للاختلاف قبل وضع المسرحية، وما دامت المسرحية ذاتها لم توضع فاننا كمن يختلفون على جلد الدب قبل صيده!

هكذا قال نجيب بنوع من الحدة الظاهرية، وبعد قليل:

ـ ارى ان نرفع الجلسة اليوم على ان نستأنفها في وقت لاحق.

قلت في محاولة لاستمرار المرح:

ـ لا زلنا قادرين على متابعة الاجتماع، ولذلك اعترض على اقتراح نجيب، الا اذا اعتبرنا الفترة اللاحقة هي للتداول والتشاور، لعلنا من خلال الاتصالات الثنائية نصل الى بلورة افكار واقتراحات تلاقي الاستجابة والموافقة من الأغلبية!

علق صابر بمرح

ـ الفقراء وافقوا، لكن ظلت موافقة السلطان وابنته، وهذه دونها خرط القتاد...

وبعد قليل وهو يضحك ويمثل ايضاً:

ـ اذا رفضت التمثيل، اذا اعتذرت، اذا لم اكّون الفريق، فما فائدة هذه المناقشات كلها؟

قال رضا:

ـ لا شك ان لها فائدة مزدوجة: للارشيف وللمؤرخين، خاصة وان هناك عدداً من المؤرخين تغريهم مثل هذه الثرثرات: من يتذكر اول مسرحية جرت في السجن؟ من كتبها، من مثل فيها، ماذا كان موضوعها، كم استمر عرضها... وعشرات الأسئلة التي تملأ عشرات الصفحات، بحيث تصبح كتبهم معتمدة على عنصرين جليلين: الحجم الكبير والتوثيق الدقيق!

بهذه الطريقة قطعنا الليلة الأولى نحن السجناء البائسين بانتظار رفاقنا الذين سيلحقون بنا غداً او بعد غد!

لا اخشى من نظراتكم الساخرة، والتي قد تبلغ الهزء، ونحن نكشف ارواحنا. قد نبدو في مناكداتنا كالأطفال او كالمعتوهين، وقد تستغربون هذه المناقشات، وقد يتواقح بعضكم ويقول: «كان الأجدر بهؤلاء السجناء ان يستفيدوا من وقتهم، وان يتصرفوا حسب اعمارهم»، لا اريد ان اتصدى للدفاع، او ان اشتم، لكن اقول لمن ينتقدوننا: تعالوا الى السجن المركزي لتعرفوا ولتروا كيف يتشوه السجين! أما اذا «حالفكم» الحظ ووصلتم الى العفير او القليعة، للزيارة لا للاقامة، فعندئذٍ يمكن ان نصل الى لغة مشتركة، وقد نتفق!

انقضت الليلة وجاءت الليلة الأخرى.

واذا كانت الليالي في السجن متشابهة، وتتداخل مع ما سبقها وما سيأتي بعدها، فان لليالٍ اخرى تميزها، انفصالها، وقادرة ان تقف، مثل شواهد القبور، لتقول اشياءها الخاصة.

استدعانا الرائد، نحن «شيوخ» السجن:

ـ ان يرى الانسان خير من ان يسمع، وقد رأيتم كيف ان رجالاً كباراً دفعوا ثمن ذلك البهلول الحاج مصطفى، واذا كان القسم العام مجموعة من الحمير، مجموعة قتلة ولصوص ولواطيين ومهربي افيون، فانتم اصحاب فكر ومبادىء، والتفاهم معكم اسهل من غيركم، اذا حطيتوا عقولكم بروسكم، وحطيتوا الرحمان بين عيونكم. وانا، حسب طلبات الادارة وتوجيهاتها، وانقل بالحرف ما قالوه لي: «القسم العام بعين، والسياسين بألف عين» فما اريد اي مشاكل...

وحين لاحظ في وجوهنا التساؤل والاستغراب اضاف، وهو يبتسم:

ـ حتى الآن، نحن واياكم سمن وعسل، هذي قضية لازم نعترف بها...

ويعد قليل وهو يأخذ نفساً عميقاً:

ـ لكن انتم السياسين، رغم انكم متعلمين، لكن فيكم شيء غلط. ونحن، ويمكن لاحظتم، معاملتنا لكم تختلف عن القسم العام. يجوز بعض الشرطة يفلّتوا، تطلع منهم شتائم وكلمات، لكن، والشهادة لله، لكم معاملة خاصة، وهذا لأنكم متعلمين، فهمانين، والانسان لازم يأخذ الواحد على قدر عقله...

صمت فترة غير قصيرة، لأنه لا يعرف كيف يتابع. زفر اكثر من مرة، وهو يتطلع الى وجوهنا، وبعد ان استراح، وهو يرتب اوراقه ومكتبه، اضاف:

ـ لازم يبقى السجن مثل الساعة. نظام وطاعة، واي واحد، كائن من كان، لازم يعرف هذا الشيء، فاذا صارت عربدة او قلة حياء راح يندفع عليها كثير!

سأل نجيب بود ظاهر:

ـ حصل شيء منا يا سيادة الرائد؟

ـ حتى الآن ماشي حالكم... لكن

تطلع بامعان في وجوهنا ليقرأ ما اذا عرفنا بوصول رفاقنا من القليعة، وحين وجدها صماء لا تقول شيئاً، ابتسم ثم اضاف:

- راح ابلغكم بشارة... ومعها تنبيه

استراح قليلاً ليترك كلماته تصلنا على مهل وتستقر في عقولنا وقلوبنا، وبعد قليل:

- جماعتكم وصلوا من القليعة... هذه هي البشارة، ولأنهم غابوا عنا كثير، شهور وسنين، ويجوز انهم نسوا، وجلّ من لا ينسى، قلنا لارواحنا لازم يزوروا السرداب حتى يتذكروا المركزي منيح...

وابتسم بفرح، فرّك يديه ودار حولنا، وجاء صوته هذه المرة من الخلف:

- اما التنبيه، واللبيب من الاشارة يفهم، فهو انه بعودة الشباب يجوز احد منكم يفكر انكم صرتم اقوى، وان القادة والزعماء رجعوا، ولذلك لازم تبدأ المطالب والعرائض والمساخر اللي تعودتم عليها...

توقف عن المتابعة، استدار من جديد ليواجهنا، واضاف:

- اذا ظليتم اوادم ومعقولين نحن الى جانبكم، وسوف نوصي الادارة بتقاريرنا ان يسامحوكم بكم شهر، أما اذا ركبتم رؤوسكم فالله يستركم مني ومن غيري، وقد اعذر من انذر!

دخل ابو سمير في تلك اللحظة، قال له الرائد:

- الجماعة اعطوني كلمة شرف انهم راح يكونوا معنا مثل السمن والعسل، اوادم وعاقلين، فالله يرضى عليك وصي جماعتك ان لا يثقلوا عليهم...

وبعد قليل، وهو يخاطب الجميع:

- راح نصدقكم ونجربكم، ومثل ما قالوا: إلحق العيار لباب الدار، وبعدها نشوف، ولكل حادث حديث...

تنفس وتمطى، وقال كأنه يخاطب نفسه:

- يا الله يا ابو سمير، يا الله يا شباب، على بركة الله، وإن غداً لناظره قريب!

في ذلك اليوم البعيد، والذي لا يشبه غيره من الأيام، استيقظنا مبكرين. لا اريد ان اقول اننا لم ننم، لكن انتظارنا للعائدين، توقعنا لوصولهم في كل لحظة، جعل نومنا قلقاً مختلطاً أقرب ما يكون لنوم الوجل، لأنه يقع عند التخوم، إذ لا يمكن اعتباره نوماً ولا يمكن اعتباره يقظة. كان سهوات متوترة مشحونة بالفرح والشوق والانتظار.

ساعات الصباح طويلة رخوة. ساعات الضحى ثقيلة حادة. قبل الظهر بقليل بدا وكأن شيئاً اخذ بالتكون ولن يلبث ان ينبثق وتراه العيون.

فجأة فتح الباب الخارجي. سمعناه وهو يفتح. اغلق الباب الخارجي سمعناه وهو يغلق. سمعنا الخطوات وهي تقترب. كانت تقترب والضجة تزداد. انها ضجة رجال الشرطة!

انفتح الباب الداخلي. دخل اناس عديدون. كانت الضجة اوضح من قبل ضجة رجال الشرطة. اغلق الباب الداخلي. الساحة تمتلىء بالضجة والناس السائرين. ميّزنا اصوات رجال الشرطة. اقتربت الضجة والأصوات والخطوات من مهجعنا. اصبحت الأصوات اوضح، انها اصوات رجال الشرطة. توقفت الخطوات لكن لم تتوقف الضجة، ضجة رجال الشرطة. قال صوت، وقد عرفنا انه صوت المساعد:

ـ اية فوضى سنعيدكم الى السرداب، سامعين؟

لا جواب، لكن ضجة رجال الشرطة لم تتوقف. للحظة ساد السكون وعمّ. دخل المفتاح في قفل باب المهجع، دار دورة، دار دورة ثانية. انفتح الباب، شُرّع

على اتساعه، ودون كلمة، دون اشارة، دفعوهم الى الداخل. اغلقوا الباب، ومضوا!

في تلك اللحظة، وهم يغلقون الباب، اصبحنا في حالة من اليقين الخطر، وبدل الضحك الذي كان يفترض ان يغرقنا، ان نغرق فيه، بدأنا البكاء.

قبل ان يتكلموا، قبل ان يقول احد، ودون ان نسأل: عرفنا : حامد زيدان لم يكن معهم. امتلأنا بالنذير، هجسنا: لم يتخلف ابو مكرم في مكان ،لكن لن تراه العين بعد الآن، ثم فجأة اصبحنا متأكدين: لقد مضى حامد زيدان ، مات، وربما قتلوه!

لا اعرف كيف تعانقنا، كيف تبادلنا النظرات والكلمات. افسحنا لهم مكاناً في صدر المهجع. ما كادوا يلامسون الأرض، وقبل ان نسألهم، هدر صوت رامز نادباً الحياة والكون والبشر، وكل شيء في هذه الدنيا:

- لقد قتلوا ابا مكرم، نعم، لقد قتلوه!

ما اقسى الحزن وما امضّه حين يبكي الرجال. لقد فعلنا ذلك دون اتفاق، دون قدرة على ان نمنع انفسنا من البكاء. بكينا لكي لا نختنق، لكي لا نتبدد. وحين يبكي الرجال تصبح الدنيا صغيرة، عديمة الجدوى وشديدة القسوة، لأن الدمعة وحدها تصبح السلاح الوحيد، السلاح الأخير!

لا احد يعرف الى متى استمر ذلك البكاء. لا احد احس متى دخل الظلام. لا احد يدري كيف او من نام تلك الليلة.

في الأيام التالية، في الليالي التالية، اصبحنا اقدر على التماسكوالتصرف، وعلى الابتسام ايضاً، لكن شيئاً في داخلنا انكسر، تحطم. لم يحصل ذلك دفعة واحدة او بنفس المقدار، لكننا اخذنانشعر بالمرض، بالعزوف عن الأكل، واصبح الحزن ثقيلاً لا يفارقنا، حتى لو اردنا ان نبعده، ان نتحداه.

سنعرف في وقت متأخر انهم قتلوا حامد زيدان بعدمغادرتنا بثلاثة ايام. لم يقتلوه وحده قتلوا معه صادق الداوودي، الذي حاول ان يخلصه منهم فاشتبك معهم.

أما كيف فعلوا ذلك فانهم بعد ان استعدوا، وفي اللحظة التي كان يتمشى الاثنان في الساحة، قريباً من مطبخ السجن، استدرجهم بعض الشرطة بحجة وجود حريق، وما ان اندفعا للمساعدة حتى اغلق الباب خلفهم، وهناك كان المساعد وعدد من الأفراد، فانهالوا على حامد بالضرب ليقتلوه، ولما تصدى لهم الداوودي دفعوا الاثنين الى وادي الموت، من نفس المكان الذي كانت تلقى منه القمامة!

وغرق سجن القليعة في موجة من التساؤل والتوقع، فمن قائل ان الاثنين حاولا الهرب او هربا فعلاً، ووجد من قال انهما قتلا، ولم يتأخر رجال الادارة في اشاعة نقلهما الى سجن آخر! أما النقيب مدحت عثمان فقد اعد تقريراً اشار في آخر فقراته الى «ان المشادة بين القسمين كانت نتيجة المناقشات العقيمة، والمحظورة اساساً في السجن، ونتيجة الاتهامات التي كان يتبادلها الطرفان، وكان من المحتمل ان تتطور تلك المشادة، وتخلف ضحايا اضافيين، لولا تدخل الادارة السريع، فاقتصر الأمر على وفاة حامد زيدان من القسم السياسي وصادق الداوودي من القسم العام، وصودرت من الطرفين الادوات التي استعملت في المشادة.

«ولا بد من الاشارة ان الضحيتين من اصحاب السوابق، والموصوفين بالشغب، ويشير سجلهما الى عقوبات عديدة وقّعت بحقهما في عدة سجون سابقاً.

«نرجو ان تأخذوا علماً بما حصل، ونرى ان يطوى الموضوع، واعتبار الوفاة قضاء وقدراً، مع الاشارة ان الطبيب في قرية طيبة الوادي رفض القدوم الى السجن، بحجة المرض، لتسجيل الوفيات الأمر الذي منعنا من ارفاق تقرير الطبيب الشرعي، فاستعضنا عنه بافادات الشهود المرفقة».

لقد عُرفت هذه التفاصيل بعد عدة اسابيع عن طريق اسماعيل حمدو، وقيل انه لم يُطلَب حضور الطبيب نهائياً، وما كان الطبيب ليصل السجن حتى لو جاء النقيب وسيارته لحمله! ويؤكد اسماعيل حمدو ان المساعد هو الذي اعدّ التقرير، وقد وقعه النقيب وكان سكراناً، وبعد عدة ايام، وهو يعيدقراءته، استشاط غضباً واعتبر توقيعه مزوراً، لكن بعد ان تأكد، وبمرور الوقت دون ان تترتب اية نتائج، قدم طلباً لنقله من سجن القليعة، وانتظر شهراً ثم آخر دون ان يتلقى جواباً، ولو على شكل اشعار، « «ان الطلب قيد الدرس»!

في وقت متأخر سنعرف عن طريق السجناء في القسم العام انه عثر على النقيب

مدحت عثمان مقتولاً في غرفته! قالوا ذلك بمرح مشوب بالفخر، ولم يضيفوا شيئاً آخر، لكنهم تركوا الآخرين ليقدروا!

رامز البكري النظيف الأنيق، بمقدار ما يسمح السجن، والشديد الدقة في اقواله وتصرفاته، تحول الى شخص اخر: اطلق لحيته، تركها تنمو دون تهذيب ودون تشذيب، حتى اصبحت مثل غابة، كما ضمر جسده وتقلص، وبدأ يتصرف بطريقة متحدية وساخرة.

لا ازال اتذكر ذلك الاحتفال الذي دعانا له ذات مساء:

كان يمسك الساعة بيده، كان يرفعها ويريدنا ان نراها، وبعد ان ادارها في كل الاتجاهات، والابتسامة تملأ وجهه، وتأكد اننا رأيناها، قال، وخرج صوته اجشاً:

ـ هذه ساعة وليست ارنب، موافقين؟

نهز رؤوسنا بالموافقة وننتظر!

ـ الباب اللي يجيك منه الريح سده واستريح، صحيح؟

ونهز رؤوسنا بالموافقة وننتظر:

ـ واللي ما يجي معك تعال معه، موافقين؟

ونهز رؤوسنا بالموافقة وننتظر:

ـ وانا، بعد التفكير والتقدير واستشارة الوجدان والضمير اتخذت قراراً ارجو ان توافقوني عليه...

نتطلع اليه وننتظر:

ـ لقد اصدرت حكمي الذي لن اتراجع عنه، والذي سانفذه هذا اليوم، الآن..

نخاف مما سيفعل وننتظر..

ـ ومثل ما قلنا في البداية: هذه ساعة لا ارنب...

ويعد قليل وهو يتطلع الينا ويبتسم، ويقرأ في وجوهنا الاثر الذي تركته كلماته، لكي يعلن القرار، وحين يطمئن، يضيف:

ـ هذا الشيطان الذي اتعبني طوال السنين السابقة اريد ان اقضي عليه، ان

اصفي حسابي معه، وزيادة على الموافقة التي اريدها منكم، اطمع الى المشاركة!

وبهدوء لا يتقنه الا لص او محتال، بعد ان يكون قد قضى مدة طويلة في المهنة، انتزع زجاج الساعة؛ بعد ان فعل ذلك قربها من اذنه:

- بنت الكلب لا تزال تمشي، تتابع سيرها الملعون، وتُعلّم عليّ. . .

رمى بعيداً الزجاجة، وباظفرين شديدي البراعة انتزع العقرب الكبير:

- هذا عذابه قليل، واذاه يزول رغم حجمه الكبير وحركته السريعة. . .

ورماه فوق رؤوسنا كما ينُثر الماء المقدس، كما يُرمى ملح النذور للبركة وضد الحسد، وبنفس الأظفرين انتزع العقرب الصغير ورماه فوق رؤوسنا ايضاً، لكنه فعل ذلك وكأنه يرمي شيئاً ثقيلاً، تطلع الى الساعة، ادارها لكي نراها، ثم قربها من اذنه:

- لم تتوقف عن التكتكة رغم انها اصبحت عمياء. اللعنة لا تزال داخلها!

وكمن يريد ان يتخلص من حمل ثقيل ارهقه، انزلها. وضعها على الأرض في الفراغ الذي يفصل بيننا، ولا أعرف من أين حصل على ذلك الحجر النهري المصقول، والذي يملأ راحة اليد، واين كان يخفيه. هبط على الأرض، جلس على ركبته، وبطريقة بارعة هوى بالحجر على الساعة فحطمها.

تنفس بعمق ومد يده بالحجر الى اقرب واحد اليه:

- سوف اشعر بالسعادة اذا شاركتموني هذا الاحتفال الهمجي، بالحجر، بالحذاء، بأي شكل، لكي ارتاح من هذا العذاب وابدأ زمناً جديداً!

وبطريقة لا تخلو من مرح شاركنا في هذا الاحتفال، وحين تأكد ان الساعة اصبحت بقايا وشظايا، قال، وخرج صوته عميقاً وودوداً:

- طوال الفترة الماضية تقيدنا بزمن الآخرين فارهقنا السجن، علينا الآن ان نخترع زمننا الخاص لنقوى على الصمود!

رضوان فرج أصبح اثنين: نصحو بعض الأيام على غنائه، وفي ايام اخرى نصحو على بكائه او صخبه واحتجاجه اننا لا نترك له ان ينام.

صوته القوي تراجع، فقد درجة او اثنتين من سلّمه الموسيقي، كما قال مرة

رضا. يسأل. بعض الأحيان، كطفل: «اتعتقدون ان حامد يمكن ان يعود؟» وحين تتوالى الشواهدوالقرائنانهم قتلوه يصرخ:

ـ لا اصدق، لأن حامد زيدان لا يمكن ان يموت.

ونقول له ان كل انسان يمكن ان يموت، لا بد ان يموت، فيصرخ بتحدٍ:

ـ حامد زيدان، ابو مكرم، غير شكل: انسان ضد الموت، لأنه هو الحياة!

ونصمت لكي لا نثيره بكلماتنا. يتطلع الينا بحقد، ويهدر صوته:

ـ المؤامرة كبيرة، كبيرة جداً، وانا اشكّ حتى بالهواء.

ويقف. يتجاهل وجودنا ويتوجه بالكلام الى حامد زيدان:

«ـ يا ابو مكرم: اسجّل عليك يوم غياب آخر، وانت تعرف ان الغياب اذا طال يؤثر على العلاقات، فانتبه!»

يتطلع الينا ويقول:

ـ لدي قناعة اكيدة ان حامد حي، موجود، واذا قدّر لنا ان نخرج من هذا السجن، فلا بد ان نلتقي به. هذه قناعة لا تحتاج الى اثبات، فانا متأكد... وسوف اثبت لكم ذلك!

وحين يرانا صامتين، ولا ننظر اليه، يصرخ:

ـ انتبهوا، اننا نخطىء اذا بقينا بهذا الشكل، لأننا نقتل حامد قبل ان يقتلوه!

لا نتكلم، نسمع ولا نتكلم، يُستفز. يقول بصوت رخو:

ـ اشمّ رائحة الجبن. والجبن مهما حاول ان يتخفى فانه لا يخفى، ولقد رأيت هذاالشيء مرات كثيرة واصبحت قادراً على تمييزه مهما كان الشكل الذي يظهر فيه.

ـ رضوان... يجب ان نؤجل مناقشة بعض الموضوعات، اذ لا فائدة الآن، ثم ان معلوماتنا قليلة، ولذلك يجب ان نعطي انفسنا فسحة من الأمل والانتظار!

هكذا يرد عليه صابر. يوافق رضوان. ومثلما كان حاداً عنيفاً يتراجع، يقول رداً على هذه الكلمات:

ـ سأبقى انتظر!

وفي يوم آخر رضوان آخر، بـدل الغناء: رغبـة غير محـدودة للنوم، وعنـد الضحى حين يسمع اصواتنا، حين يحس بالحركة حوله، يرفع رأسه، يجلس في فراشه، ويبدأ:

ـ ليس لنا في هذا السجن الخرا الا ان نقطّع الوقت، فاذا نمت ساعة اضافية تضيق عيونكم؟ تتصورونها على حسابكم؟

يقلب نظراته في وجوهنا، ويضيف بحزن:

ـ فعلاً لم يعد الانسان يعرف صديقه من عدوه، وهذا من اصعب الأمور!

ورغم الاعتذارات والتنبيه ان النهار تقدم كثيراً، فانه يرد بحدة:

ـ يا جماعة، تكفينا شرطة السجن!

كلما حاولت ان استعيد تلك الفترة اشعر بـالحيرة، ولا اعـرف كيف افسر الأمور، فرضوان بصوته وطريقته في التصرف لم يعد كذلك، وأي اسلوب للتعامل معه يحتمل مقداراً من الخطأ يعادل مقدار الصواب.

ظلت الأمور هكذا بضعة شهور، وكانت فترة ثقيلة ومتعبة. أما عندما جاء قرار نقل رضوان وثلاثة آخرين الى السجن المعلق، ورغم الـود والعلاقـات التي امتدت بيننا لسنوات، فقد شعرنا بالراحة، قال نجيب في الليل، بعد ان رحلّوا.

ـ الليلة استطيع ان انام دون هزّ، وفي الصباح لن افيق على صوت الغناء او صوت البكاء.

وبعد قليل، وكأنه يخاطب نفسه.

ـ كانوا محقين حين قالوا: عدو عاقل ولا صديق جاهل!

وكدنا نستريح، او هكذا بدأنا نرغب ونفكر ونخطط، لكن رغبات السجين وافكاره وخططه آخر ما يؤخذ بعين الاعتبار. فما اناتفقنـا على بـرنامـج لتدريس اللغات، وبعد ان حصلنا على الكتب الضرورية، عن طريق رشوة الحرس، حتى تعرضت مهاجعنا لواحدة من حملات التفتيش، والتي تجري عادة عند الفجر، وحملة من هذا النوع لا تعني مصادرة ما يعتبر ممنوعاً فقط، اذ ترافقهـا عمليات الاهـانة والضرب، وقد تصل الى التحقيق الذي يمتد لعدة ايام، ليس بهدف معرفةمصادر

المواد الممنوعة، وانما لمعرفة الوضع المعنوي للسجناء، وما طرأ عليهم خلال الفترة الماضية، الأمر الذي يقتضي اعادة التوزيع، واللجوء الى التهديد او الاغراء في محاولة لاسقاط عدد من السجناء.

سوف اتجاوز الكثير من التفاصيل والتحقيقات التي جرت معنا في السجن المركزي اثناء حملات التفتيش المتكررة، لاتذكر الأخيرة، قبل المرض:

كعادتهم مثل كل مرة: جاءوا عند الفجر. طلبوا منا ان نغادرالمهجع، قلبوا فراشنا واشياءنا البائسة، نقبوا في الجدران والأرض، جمعوا ما اعتبروه ممنوعاً، وبدأ الرائد جودت:

- يمكن ان تسمّوا انفسكم ابطالاً، ويجوز ان الكثيرين في الخارج يعتبرونكم كذلك. أما انا فاعتبركم حميراً تمسحت جلودكم، وصارالواحد منكم عواطلي لا ينفع لا للدنيا ولا الآخرة..

ويبدو انه شتّ، اذ بمقدار ما تروق له الشتيمة، ويمكن ان ينساق وراء عشرات الصفات والمترادفات التي تتتابع بسرعة ولذة وهو يطلقهاعلى السجين الواقف امامه، الا انه تذكر انه تحدث، اول ما تحدث عن البطولة، تابع من هذه النقطة:

- أي نعم يمكن ان تعتبروا انفسكم أبطالاً، لكن هذه المرة ستصبحون كالصراصير...

تنفس بعمق واضاف:

- كل واحد له شيء في هذا الكوم «يتفضل» ويتناوله!

لم تكن في الكوم سوى مجموعة من الكتب والأوراق اضافة الى مطرقة ومبردان وعدد من التماثيل الصغيرة والحجار.

لم يكدينتهي من اصدار الأمر حتى تقدم: سميح وغازي. سميح جمع الكتب والأوراق، وقال:

- هذه لي.

وقال غازي بسخرية ظاهرة:

- والباقية لي.

ـ مثل ما حزرت، لازم من بينكم فدائي ويقول هذه لي، حتى ينقذ الآخرين، او يدعى كل واحد منكم ان الممنوعات له، والهدف في الحالتين ان تضيع الحقيقة وان يتيه المحقق، لكن بسيطة!

عُزل سميح وغازي، أُخذت الأوراق والكتب والأدوات، قسمونا الى مجموعات صغيرة، ووضعنا في اماكن معزولةومتباعدة.

التحقيق، في المرحلة الأولى، لا يختلف عن تحقيقات اخرى كثيرة، لكنه في المرحلة الأخيرة كان مسلياً ومحزناً في آن، وربما عجّل ايضاً في اصابتي بمجموعة من الأمراض، بدأت بالروح ثم طالت اعضاء عديدة من جسدي، الى ان اخرجوني من السجن لكي لا اموت فيه!

بعد منتصف الليل فتح الحارس الباب ونادى عليّ. لم يكن قد مرّ الا وقت قصير على استغراقي في النوم، اعرف ذلك لأن نومي، في مثل هذه الحالات، يكون صعباً، وبعض الأحيان متعذراً، رغم الجهد الذي ابذله لأنام، ليس ذلك فقط ان اية يقظة، قبل ان اصل ملكوت النوم البعيد والعميق، تكون سريعة ويصعب عليّ بعدها النوم من جديد.

قادني الحارس، وكان معه اثنان آخران، عبر بوابة، ثم بوابة اخرى، فثالثة، وظلوا مستمرين الى درجة توهمت انهم سيفتحون البوابة الرئيسية للسجن، ويدفعونني الى الخارج بالصفعات والركلات مع كلمات ستلاحقني واناااركض: لقد طلعت ريحتك في هذا السجن، فحلّ عنا بعد ان زهقت ارواحنا منك، ولا ترينا وجهك مرةاخرى. ومما اكد لدي مثل هذا الوهم ان الرائحة هنا تختلف عن الداخل، خاصة وقد امتلأ الجو برائحة شجرة الليل والياسمين، وبدا الهواء مشبعاً بالرطوبة اللذيذة، وكان ايضاًيفيض باصوات آخر الساهرين.

بعد ان اجتزنا النظارة انعطفنا الى اليسار بزاوية، مررنا بالقرب من المكاتب، ثم انعطفنا، مرة اخرى، بزاوية حادة، لنصل الى الحديقة، التي لم اتصور وجودها من قبل، وقد افترضت انها لا تتعدى بضع اشجار.

حديقة واسعة نُثرت فيها اضواء ملونة بشكل بدائي وفج؛ عرائش العنب والياسمين تظلل القسم الأوسط، وكانت الأضواء تتركز في هذا القسم؛ تحت

العرائش بركة صغيرة ترتفع وسطها نافورة تتدفق منها المياه. حول البركة، وبقوس صغير، كان جودت يعقوب ومعه ثلاثة من الضيوف، امامهم مائدة صُفّت فوقها انواع متعددة من الأطعمة والمشروبات؛ وراءهم على طاولة راديو ومسجلة تنبعث من احداهما اغانٍ لا استطيع ان اصنّفها ضمن الأغاني التي اعرفها او استمعت اليها خلال فترة السجن؛ على طرف البركة، في الجهة المقابلة، صحن كبير فيه فواكه متعددة، كانت تصله قطرات من النافورة اثناء سقوط الماء.

رائحة المكان مزيج من الهواء الطري وشجرة الليل والياسمين ورطوبة الماء، اضافة الى رائحة المشروبات، خاصة العرق.

ونحن نقبل على هذا المكان الذي يثير مشاعر متعددة ومتباينة، وقبل ان نصل، نهض، لا اعرف من أين، كلب ضخم أشد سواداً من الليل. تمطى بسرعة وتحفز. وساكتشف بعد ساعة من الزمن، وبعد ان الفت المكان، وجود غزالين في الزاوية كانا داخل مساحةمسيّجة باسلاك مشبكة، وكان السياج غير مسقوف من اعلى، ويكاد يصل بارتفاعه الى ثلثي القامة. وساكتشف ايضاً وجود عدة اقفاص لعصافير الكناري الصفراء والبيضاء وايضاً المغبرة اللون، والتي لا تكف عن الحركة والتقافز كلما دخل صوت جديد!

الكلب وهو يتحرك، وكأنه يتوجه نحونا، جمّد خطواتي. فالعداء بيني وبين كلاب الحراسة قديم، ولم استطع ان اصلح هذا الموقف. ضحك الرائد بصوت قوي، وقال يخاطب الكلب ويخاطبني في نفس الوقت:

- الله يخزيكم، سنين وبعدكم ما لقيتم لغة للتفاهم..

وبعد قليل وبسخرية، وكان الكلب يتقدم:

- نفس الزاد ونفس الملح، وبعد الواحد منكم يتلهمظ للثاني؟

حين اقترب الكلب كثيراً، وبدأ يهمر، وتوقعت ان يقفز عليّ في اية لحظة، تراجعت خطوة للخلف في محاولة للاحتماء وراء الحرس، صاح الرائد.

- بس.. ضاري..

توقف الكلب لحظة، لكن لم يتخل عن رغبته بافتراسي، وربما اغرته حركتي الخائفة، صاح الرائد بطريقة آمرة:

ـ ضاري تعال، ضاري مكانك.

واشار باصبعه، وكان الكلب الغضوب يلتفت، ربما ليقدر مدى جدية هذا الأمر، فلما وجد الأصبع ممدودة والرائد يعني الكلمات التي قالها، تراجع ببطء، لكنه التفت نحوي ونحو الرائد اكثر من مرة، لعله يستطيع ان يعاود. لما وصل طرف البركة خفض رأسه اكثر مما ينبغي دلالة الطاعة والذل، وراغباً ان يمنح نفسه نوعاً من التعويض حين اختار مكاناً غير الذي حدده الرائد، فزجره بقوة وكان يشير باصبعه الى المكان:

ـ قلت لك هنا يا حيوان!

ويغضب ذليل زحف الكلب الى حيث اشار الرائد وهمد هناك. بعد ان استقر علق الرائد وهو يوجه اليّ الكلام:

ـ اللي هدفه قلب الحكومات وتغيير الأنظمة لازم يكون فيه عزم وعنده عصب قوي، واشوفك رخو مثل خرقة، يا ابو الشباب!

لم اتكلم، علق أحد الضيوف، وسوف اعرف انه احد أعضاء لجنة التحقيق:

ـ مهمة الشباب، يا سيادة الرائد، التنظير، أما التنفيذ فعلى عاتق العمال والفلاحين، ومثل ما يقول المثل: من يكون لديه خدم فعليه ان لا يوسخ يديه!

وضحكوا بصخب لا يناسب الكلمات التي قالها الضيف، وبعد ان هدأوا قال الرائد بما يشبه الأمر والسخرية معاً:

ـ قّرب، تفضل، حتى تحكي لنا كم كلمة نظيفة...

تقدمت بارتياب وارتباك، اذ لا اعرف كيف عليّ ان اتصرف. اشار الرائد الى كرسي لم اره من قبل، وقال بتبسط:

ـ صحيح ان الدعوة متأخرة، لكن، مثل ما تعرف، اشغالنا كثيرة، والواحد ما هو فاضي يحك رأسه، وانت تقّدر...

وضحك، وكأنه يريد ان يدخل الموضوع بسرعة، لكن عليه، في نفس الوقت، ان يخلق الجو المناسب:

ـ تشاركنا بقدح؟

وحين رفضت بسرعة وبحزم، اضاف وهو يضحك:

ـ ما راح نلّح عليك، فانت من اهل البيت، واذا رفضت ان تشاركنا الكاس، فيمكن ان تمد يدك، انتنقنق معنا!

وبسرعة ايضاً اجبت:

ـ تعشيت، شكراً!

ـ اذن، وبدون مقدمات، ندخل الموضوع. . .

التفت الى ضيوفه وقال:

ـ صحتكم يا جماعة.

رفعوا كؤوسهم، شربوا، واثناء اعادة الكؤوس الى طرف البركة سقط كأس احد الضيوف وانكسر، قال الرائد بفخامة:

ـ «وللأرض من كأس الكريم نصيب»

وبعد قليل:

ـ عمّر لك كأس جديد، يا ابوسوسن، والقصة جاءت وحدها، جاءت على رجليها، كما يقولون!

هز رأسه اكثرمن مرة والتفت اليّ:

ـ عندما اقول: «وللأرض من كأس الكريم نصيب» اوعندما اقول «كأنما هو في حل ومرتحل ـ موكل بفضاء الله يذرعه» او عندما اقول «ونشرب ان وردنا الماء صفواً ويشرب غيرنا كدراً وطيناً» فهذا الشعر يمكن ان يُفهم، ان يصل الى القلب والوجدان؛ وباعتبار انك من معلمي السجن، ونحن من سلك الأمن، وعقلنا على قدر حالنا، فقلنا لأنفسنا ما لنا الا عادل الخالدي ينوّرنا، مثل ما كنت في القليعة!

سمعت ولم اعلق، تابع بلهجة جديدة:

ـ الخرطوش الذي وجدناه في المهجع، ولن ندخل في من يدعي ملكيته، اريدك ان تفسر لي الشعر الذي فيه:

«النهار بطيء في نومه

كأنما جسده مائل الى الحافة

الظلمة تفتح جيوبها الكبيرة حيث

تنام جبهة الأرض كالعذراء»

وحين اصمت لا اجيب، يقول بصوت رخو:

- اذا عجزت عن هذا المقطع فخذ غيره:

«يفتل المكان لهج الأماسي التعبةبهطل نعاس قمري
كنت كاتب الضوء المصفد بشغف يتأوه
ابعث الكلام من رئة في الشفق»

واحاول ان اجيب، لكن اشعر ان اية محاولة في الدخول مع هؤلاء الى الدهليز الذي يريدونني ان ادخل اليه سوف يجعلني امامهم اضحوكة، محاولة غير مفهومة، ولذلك الجأ الى تغيير الموضوع:

- سيادة الرائد انا لا استطيع تفسير الشعر

- ماذا تستطيع ان تفسر؟

- استطيع تفسير القرآن

- آه.. يا ابن الكلب، انت عايز تضحك علينا؟ عايز تستغل هذه اللحظة وتقول اننا سكارى؟

- ارجو الا تفهمني بشكل خاطيء، فانتم لم تتركوا لنا فرصة للاطلاع، فما عدا تفسير الطبري وبعض الكتب المتعلقة بالتفسير، ليس لدينا أية كتب!

- وهذه الكتب التي وجدناها عندكم؟

- تمت مصادرتها قبل ان نقرأها!

- ولك، يا ابن الكلب، مفتّلة قدر ما هي مقروءة!

- لم يأت بعد دوري في قراءتها!

- تقرأون بالدور؟

هكذا سألني احد الضيوف بتورية، فرد الآخر، الذي وقع كأسه، ابوسوسن،

بتورية اكثر دعارة:

ـ مولانا، هذول بالدور وبالتناوب، مرة فوق ومرة تحت، وتشوف عيونك: ايدين ترجف وعيون غايرة والاكيف راح يدبرون امورهم؟

ـ ما فيهم واحد شريف، لكن كلماتهم مثل ما قرأ لك الرائد: كبيرة كأنها جبال، وخطيرة كأنها قنابل، لكن مهما خضيتها تظل ميّ ما يطلع منها شيء.

قال ابو سوسن:

ـ قرأت الديوان كله، مولانا، وما طلعت منه بفكرة، بشيء يبقى في الذاكرة، وصاحبه معطيه عنوان «على جناح غيمة» والاهداء «الى الجماهير المتطلعة الى غد افضل». . . .

ضحك بمرح وجاءت لهجته ساخرة:

ـ انا ما عندي كثير اتناقش فيه معك، لكن بشرفك هذا الكلام الموجه الى الجماهير معقول؟ يمكن ان يصل؟؟

وبعد قليل ولم يفارقه مرحه:

ـ هذا يدّل على انكم اناس بسطاء، تعيشون في الأحلام، ولا اريد ان اقول اكثر من ذلك، فهل يطيب لك ان تبقى في السجن سنة وراء سنة، ومع اناس حالمين ويتوجهون الى الناس بمثل الكلام الذي سمعت بعضه من الرائد؟ هل تعتقد ان بامكانكم بمثل هذا الشعر وبمثل هذه التماثيل ان تقيموا نظاماً أفضل من النظام القائم الآن؟

ـ الشعر والتماثيل لا يمكن ان تقيم نظاماً!

هكذا رددت بانفعال، فسألني الرائد بمرح:

ـ ولكنكم لا تتوقفون لحظة واحدة عن التبشير بنظامٍ على انقاض هذا النظام، وبغدٍ أفضل، وهو نفسه الأهداء على الديوان، فهل مثلٌ هذا الشعر سيوصل الى النظام التي تريدونه؟

قلت بنوع من اليأس:

- سيادة الرائد، ان اي شعر، واية تماثيل اوروايات،لا يمكن ان تغير شيئاً، ان الذي يغيّر هو الانسان!

قال ابو سوسن:

- سيادة الرائد. . . مهما تكلمنا الآن فان كلام الليل يمحوه النهار، ثم ان للنهار عيون، فمن رأيي ان نعلّق التحقيق حتى الصباح، يمكن الله يفتح عليه ونستطيع ان نتفاهم معه.

قال الرائد جودت:

- فعلاً سرقنا الوقت، والساعة الآن قرّبت من الثالثة، والصباح رباح. . .

وبعد قليل:

- لكن يا جماعة ما مددتم ايديكم للفاكهة.

- والله انا شبعت، وميّت من النعس!

وانا كمان!

ونهضوا، ونهض الكلب. اصبحْت في مواجهته تماماً، ولاتفصل بيننا الا خطوتان او ثلاث خطوات، نبح عليّ بطريقة عدائية، وليختبر الجو ايضاً. قال له الرائد:

- بس. . . ضاري

نبح بطريقة عدائية لكن بصوت منخفض، ليدلل على عدم رضاه، قال الرائد مخاطباً الحرس:

- خلوه قريب منا، ولا داعي لاعادته الى المهجع

والتفت اليّ:

- منامتك الليلة عندنا، قريب منا، والحارس ضاري!

لا حاجة لأن اقول انني لم انم تلك الليلة، فقد كان النوم في مثل تلك الليالي ترفاً لا يليق بامثالنا التفكير فيه، كما اننا لن نستطيع الوصول اليه، حتى لو اردنا!

فالمكان الذي اشار اليه الرائد مستودع للحبوب الخاصة بالادارة، وكان مليئاً حتى البوابة، تقريباً. اذ ليس فيه فراغ إلا للوقوف، وحتى هذا الفراغ تكدست فيه اطارات السيارات القديمة، وكانت تستعمل كسلّم لتناول الأكياس العالية. أما البوابة، وهي عبارة عن قضبان متشابكة، فكانت تفتح الى الخارج، ويبدو الانسان من خلالها سجيناً حقيقياً، كما يظهر في الأفلام.

بعد ان دُحشت في ذلك المكان، واغلق الباب، القى واحد من الحراس مجموعة من العظام، وقال لضاري بطريقة آمرة:

ـ ضاري . . . هذا مكانك!

لم يكن ضاري بحاجة الى هذه التوصية، او الى اية توصية، فهو بالاضافة الى انه لم يحبني ابداً كان مكلفاً بحراستي. أما الآن فاصبح غيظه مني يزداد وانا ارقبه يعرق العظام. ورغم اني لم اكن اراه، اذ كان غارقاً في سواده والظلمة، الا انه كان يراني. كان يلتفت اليّ، بين لحظة واخرى، ويهمّر بعدوانية تزيد اضعاف المرات عن مستواها حين استقبلني اول مرة! أما اذا تحركت، مهما كانت الحركة خفية، فكان ينبح بقوة ويشب على الباب يريد ان يمزقني. تمنيت ان اتوارى منه، ان ابتعد، لكن الأكياس وراء ظهري تجعل الحركة مستحيلة.

ظللنا هكذا وجهاً لوجه الى ان بدأت الظلمة تتراجع، واخذ لون النور المضّبب ينتشر في الساحة ثم في الحديقة خلفها. بدا لي الوقت طويلاً خطراً، واذا

عجز ضاري عن الوصول اليّ لانشغاله بالعظام، فان اضواء النهار الأولى جعلتني اری انه طحن العظام كلها، ولا بد ان يلتفت اليّ، خاصة بعد ان بدأت اميز عينيه المعاديتين وأسنانه الحادة. قلت لنفسي : «لا يمكن ان تتخلى روما عن تقاليدها، وساصبح فريسة هذا الحيوان المجنون».

في لحظة ما اخذ ضاري، لكي يسلي نفسه ولئلا ينام، يطارد بين بوابة المستودع وقفص الغزلان. كان يركض وكأنه في سباق. حين يغير عليّ بتلك السرعة، كنت متأكداً انه سيطحن، في لحظة ما، القضبان كما طحن العظام. اما وهو يغير على قفص الغزلان فكنت ارى آذان وقرون تلك الحيوانات البائسة ترتجف وكأنها اوراق اشجار في مهب الرياح! كان يشعر بمتعة لا يستطيع ان يخفيها وهو يخيفنا، وكان يروق له، في بعض اللحظات، ان يتوقف فجأة في منتصف المسافة، ويمد ساقيه الأماميتين ويقرّب رأسه من الأرض ويعوص بنباح مقلوب. كان يفعل ذلك ويطيل، فاتذكر اياماً بعيدة، حين كنا نسمع مثل هذا النباح، فتقول امي: «اللهم اجعله خيراً» فقد كان هذا النباح دلالة الموت، او الشؤوم على اقل تقدير!

بعد ان ارتفعت الشمس ذراعاً، ولأن المغاسل لم تكن بعيدة عن المستودع، فقد بدأ الشرطة بالتوافد. كان الكثيرون منهم بملابس النوم، او بسراويل قصيرة، حاملين المناشف وادوات الحلاقة. بدأت ارقبهم، انهم اناس فقراء، يظهر ذلك من الملابس الداخلية، من المناشف، واكثر من هذه من وجوههم وقد فارقت النوم لتوها. وان يرقب الانسان الآخرين، دون ان يروه، دون ان يحسوا به، تتوالد لديه مشاعر متباينة: يحس انه لا يكرههم، ليس بينه وبينهم اي عداء، اكثر من ذلك يكتشف انهم يشبهونه في امور عديدة، ويستغرب كيف يصبح هؤلاء الناس سيئين دون مبررات كافية. ولقد حصل ما توقعته تماماً، اذ ما كاد احد رجال الشرطة يكتشف وجودي، وضاري هو الذي نبهه، حتى جاء مع آخرين وبدأوا:

- السجن كله ما وسعكم ولاحقينا لهنا؟

- . . .

- ليش جرّوك لهنا؟ . .

- . . .

ـ ليش ما تجاوب يا ابن الكلب؟

ـ . . .

ـ شايف حالك؟ سياسي، ها؟

ويقول واحد لآخر، لكن يريدني ان اسمع:

ـ هذول السياسيين مجانين، وما يفيدوا لا للخل ولا للخردل. المجرم العادي اذا انحبس قضيته مفهومة، لأنه سرق، لأنه نهب، يعني استفاد كم قرش، والحظ وقعّه ووصل للسجن، اما هذول الأفندية فلا دنيا ولا دين، لا مع النصارى ولا مع المسلمين، ولو كانوا كافينّ الناس شرهم كان فيها وما فيها، لكنهم تاعبين ارواحهم وتاعبين الناس معهم . . .

والتفت اليّ من جديد:

ـ احك، ليش جابوك؟

ـ اسأل معلمك.

ـ انا اسألك انت يا جحش، ولازم تجاوب.

ـ ما عندي جواب.

ـ يعني ما تريد تحكي، ها؟

التفت حواليه، وجد قطعة من الخشب، التقطها وبدأ من جديد:

ـ احسن لك ان تحكي، ولا تعكّر صباحنا؟

قال آخر:

ـ هذول السياسيين لا يفهمون الا بالضرب، الله خالقهم بهذا الشكل، مثل الحمير!

وخزني الأول بالعصا، وقال:

ـ راح تنزع صباحنا وتخلينا نوسخ ايدينا بضربك كم عصا، هذا اللي تريده؟

صرخت بنوع من اليأس.

ـ والله يا جماعة الخير لا علم لي ولا خبر. بعد نص الليل قالوا لي: شرّف،

جيت، ومثل ما تشوف عيونكم!

ـ شوف.. شوف، ابن‌الكلب بريء، وكأنه اطهر من ماء السماء، لا يعرف: لا من شاف ولا من سمع!

قال آخر:

ـ هذول، يا جماعة الخير، خنازير. الواحد منهم سر ببير، فسّندوه بكم ضربة وخلونا نمشي، لأن راح يجي دوره.

قال واحد ظل بعيداً:

ـ يا جماعة اتركوا الناس بهمومها، واذا تأخرنا راح علينا الفطور!

ضربوني بالخشبة بضع ضربات وبصق عليّ احدهم وغادروا. وظل ضاري يحوم حولي!

قال لي الرائد، وقد استدعوني قبل الظهر بقليل:

ـ حظك من السماء، لأن دورك امس كان متأخراً، ولو كان الوقت ابكر لصرت مثل الفطبول!

لا اعرف ان قلت شكراً ام لا، لكن تصورت الذين حققوا معهم في وقت مبكر، وكيف تعرضوا للتغطيس في الماء، كيف ضُربوا، وايضاً كيف تركوا ضاري «يداعبهم»!

الوجوه التي اراها امامي الآن لا تشبه التي كانت الليلة البارحة، انها الآن، خلال النهار، تبدو اكثر صرامة وشراسة. قال لي ابو سوسن:

ـ اذا كنت لا تفهم بالشعر ولم تفدنا شيئاً، فنريدك اليوم ان تحدثنا عن الفن، وهذا اختصاصك.

ـ لا ازال مبتدىء في هذا الاختصاص، انا سنة ثانية.

قال الرائد.

ـ نحن جماعة عمليين، لا يهمنا الفن ولا تاريخ الفن، ولكن نريدك ان تشرح لنا هذه الأصنام، ما هو مغزاها، كيف نفهمها، اين هو جمالها؟

حين صمت، بعد ان فشلت جميع المحاولات لأن ندخل في مناقشة من أي

نوع، قال الرائد بيأس وسخرية:

- راح يظل رأسك ايبس من الصوان يا ابن الخالدي، واذا الله ما فتح عليك بكلمة تفيدنا بها فوقف على حيلك وخذ الشاكوش.

وقفت، وبصعوبة امسكت المطرقة، قال يتابع:

- انا متأكد انك وراء هذه السخافات، واريد امنحك شرف تحطيم الألهة التي صنعتها، ولذلك اعد من الواحد الى الثلاثة، وحضرتك تبدأ بالشاكوش، يا قوي، يا واحد احد، تكّسر، لازم تكسرها عن آخرها.

وعدً الرائد جودت يعقوب؛ وعد مرة اخرى، بعد تهديدات اضافية؛ وعدّ بعد ان استدعى عدداً من الأفراد، ورأيت بينهم بعض الذين وقفوا في مواجهتي صباحاً، وقال انني اذا لم اكسرها، وهذا انذار اخير فسوف يكسر رأسي.

مع الرقم الأخير، وهو يعد، سقطت المطرقة من يدي، دلالة انني لن افعل مهما كانت النتائج. واتذكر انه التقط بنفسه المطرقة، وبدأ يهوي على التماثيل الصغيرة، حتى اذا انتهى منها جميعاً، التفت نحوي قلب المطرقة وهوى بيدها على رأسي، ترنحت ثم سقطت، واتذكر ان الأرجل، العصي، الأيدي بدأت تهوي عليّ، وغبت عن الوعي.

أما بعد ان أُعدت الى المهجع، واخذت استعيد الوعي شيئاً فشيئاً، فقد وجدت الى جانبي غازي. كان يبذل اقصى ما يستطيع من أجل مساعدتي، دون ان يعرف علاقته بما حصل. كان حزيناً يريد ان يبكي وهو يرى الجروح والكدمات، وكان فناناً في الشتائم قدر ما هو فنان في تطويع الحجر. بعد ان اصبحت في وضع مناسب، واخذت اروي للآخرين ما حصل في تلك الليلة، ثم في اليوم الذي يليها، فقد كان غازي اكثر الناس تأثراً ثم سخرية ودعابة:

- الله لا يعطيك الا كل عافية لأنك اهم كُرّ شفته في حياتي!

ولأني لا اعرف هل يمتدحني أم يعّرض بي، ويبدو ذلك واضحاً في وجهي، يضيف:

- كان لازم تكسرها، يا ابن الحلال، لأن الأصل اذا ظل موجوداً وقوياً يمكن ان ينحت بدل الواحد الفاً؟

وبعد قليل وكأنه يخاطب نفسه:

ـ عندما سألوني عن تمثال السعادين الثلاثة قلت لهم: لا جواب عندي غير الذي قاله الحطيئة:

كـدحت بـاظفـاري واعملت معـولي	فصادفت جلموداً من الصخـر أملسا
تشـاغـل لمـا جئت في وجـه حــاجتي	واطـرق حتى قلت قد مـات او عسى
واجمـعـت ان انـعــاه حـين رأيتــه	يفــوق مــواق المــوت حتى تنفّـســا
وقلت لــه لا بــأس لست بعــائــدٍ	فــافــرخ تعلوه السمــاديـر ملبســا

ضحكوا، وسألوا عن تمثال العاشقة، فقلت: البلهاء. ضحكوا اكثر من قبل وعلق احدهم: مثلكم، اجبته: اصبت يا سيدي. وهكذا مررنا على جميع التماثيل بمرح، وانتهى الأمر بأن ابلغوني «مصادرة موضوع المخالفة والأدوات الجرمية».

وحين استفسر نجيب عن الأسباب التي دفعتهم لأن يكتفوا بذلك معه، رد بسخرية:

ـ عزيزي ابو ابراهيم، كانوا خايفين من المـطرقة والمبارد، ولما قلت لهم ان عليوي امّنهالي ودفعت له ثمنها مضاعفاً، قال الرائد: عليوي بلغني في نفس اليوم، وكنا عارفين كل شي!

أما مسألة نقلنا من المهجع لبضعة ايام لاحقة لحملة التفتيش، فقـد كانت للتأكد اننا لم نستعمل هذه الأدوات لأغراض اخرى!

وبعد قليل وقد التفت اليّ:

ـ الله يصلحك كان لازم تكسرها ولا يكسروا عظامك، ومع ذلك حقك عليّ، فاذا طلعنا بالخير والسلامة لك عهد عليّ ان اضاعف عملي حتى نعّوض ما خسرناه!

قال رضا:

ـ انا مع عادل: لا اقوى على التعامل مع الأثر الفني بقسوة، وربما لو تعرضت لنفس الموقف لا اتصرف الاّ مثلما تصرف. . .

وبعد قليل مخاطباً غازي:

ـ ثم ان العمل الفني، ايا كان، بعد ان يُنجز،لا يعود ملك صاحبه، يصبح

للآخرين حق فيه كصانعه ومالكه، ولذلك اختلف معك في هذه النقطة يا غازي.

ـ ما دمنا احياء واقوياء فباستطاعتنا ان نجعل الدورة تستمر، وسنكون قادرين على العمل والانتاج، اما ان نعّرض ارواحنا للخطر المجاني فهذا اقرب الى الجنون...

وابتسم وهو يلتفت نحوي موضحاً:

ـ مع الاعتذار من عادل، واعتذر مرة اخرى لما اصابه بسببي، فان علينا الا نكرر بساطة او غباء الثوار الاسبان في الحرب الأهلية. فاذا اصررنا على تكرارها فاني ابّشركم بالهزيمة منذ الآن، لأن الديكتاتور يريد أن يهزمنا باختبائه وراء لوحة أو تمثال، والجلاد يريد أن يبتزنا من خلال طفل. ونحن ذوي النيات الحسنة والعواطف الجياشة نستجيب لما يريدون فننكس اسلحتنا ونستثير كل ما فينا من دموع وضعف ونسّلم انفسنا للذبح، وهكذا نخسر بشكل مضاعف، نخسر الفن والطفولة ونخسر انفسنا في نفس الوقت.

وطال النقاش وتشعب. واتذكر دمعات غازي وهو يودعني عندما خرجت من السجن. اعطاني مسبحة قضى شهرين وهو يصنعها من نويات التمر، وهذه الهدية ما تزال ترافقني، ولا استطيع الآن النوم الا اذا لففتها على معصمي كتميمة. ولا ازال اتذكر كلمات غازي التي قالها في اللحظات الأخيرة وانا اغادر:

ـ كتاب «الفن والثورة» أصبح كاملاً وجاهزاً، وكله هنا!

واشار الى رأسه؛ ثم بعد قليل:

ـ وحالما اخرج، وخلال شهرين، سوف انتهي منه، ويصبح، عندئذٍ، ملكاً للجميع!

وقبل شهر من مغادرتي لمستشفى كارلوف جاءني نبأ وفاة غازي سمعان، وقيل ان وفاته في السجن كانت نتيجة ازمة قلبية!

لم يبق من الوقت الا القليل. . ونمضي، كلٌ الى سبيل.

اعرف اني اثقلت عليكم، لم اشأ ذلك، ولم اتوقع ان مشوارنا هكذا سيطول! بدأت الكتابة لكي اقول لكم بعض ما حصل، لكن ربما تهت ووصلت الى تخوم الفضيحة. لم اقصد ولم اخطط، فاذا اخذنا الأمور بالنوايا قد تغفرون لي، وربما تجدون تفسيراً لما اردته، ولما وصلت اليه، وتدركون، بعد ذلك، الأسباب التي دفعتني لقول ما قلت. اما اذا برز لي واحد من بينكم، وقال: ان طريق جهنم مرصوف بذوي النوايا الطيبة، فلا املك رداً على ما يقول!

سوف اسمع ما يقال لكني ساتابع سيري الى المطبعة، لأني لا استطيع ان اتأخر، فالوقت يدرك، ورب العمل لا ينتظر، ومجلة «لميس» يجب ان تصدر في وقتها، فقد اصبحت منذ شهرين موظفا في تلك المجلة، واصبحت المسؤول عن التصحيح اللغوي والطباعي!

قد يبدو كلامي غير واضح بالمقدار الكافي، اعرف ذلك، وكما هو كل شيء في هذه الحياة، ولكن ماذا سيتغير اذا صدّعت رؤوسكم بهذا المقدار الهائل من الوقائع الصغيرة؟ ثم ماذا تعني تلك الوقائع بعد الخراب الذي حصل وعم اغلب الأشياء؟ الدقة؟ الموضوعية؟ استكمال القصص وفق نسقٍ مسلٍ لمعرفة مصائر البشر والأحداث؟ واذا تكلمت او لم اتكلم ماذا سيتغير في هذا الكون؟ وهل اوهم نفسي ان لا يزال هناك من يقرأ ويمكن ان يفعل شيئاً ذات يوم؟

لا اريد جواباً من أي نوع.

لكنني، في نفس الوقت، لا اصدق ان انسانا في تلك المنطقة الممتدة من الماء

الى الماء، وفي هذه الفترة يملك هذا المقدار الهائل من الأحزان والألم والتعاسة دون ان يشعر بذلك.

ربما تكون نظرتي للأشياء والأشخاص والحياة اكتسبت هذا اللون القاتم، وقد اكون بحاجة الى معالجة نفسية، بعد ان انتهت معالجة الجسد ضمن نفس المقولة التي اكدها لي الدكتور ميلان قبل مغادرتي براغ: «يجب ان تتعايش مع المرض، سوف تتحسن، لكن بمقدار: ويجب ان تعرف: الصحة والمرض يتعلقان بالارادة، بمقدار ما يتعلقان بالجسد». علي ان اصدق،ان امتثل، لكن يجب ان اعترف: اختلطت عليّ الأمور. ما كان ثابتاً، قوياً، واضحاً، اكيداً، لم يعد كذلك الآن. لم ايأس، لكن لم اعد قوياً او متأكداً بالمقدار الكافي. لن اسلّم، لكن اشعر أن وسائلي القديمة لمواجهة الأيام الآتية لم تعد كافية أو مجدية، قد يصعب عليّ أن اتغير، ان اصبح شخصاً جديداً ومختلفاً، ومع ذلك اشعر ان في داخلي شيئاً يتحرك. صحيح ان هـذا يتم ببطء، بسأم، وبعض الأحيان دون بوصلة او نقطة ارتكاز، لكن هكذا هي الحياة!

تحطمت اكثر الأحلام، اعرف ذلك، لم يبق منها الا القليل، لكن معها، وربما قبلها، تحطمت اغلب الأوهام، كلها. لم اعد قادراً على عبادة اي صنم، ولم يعد يرشدني ويقودني سوى الضمير.

اهذي؟ استبدلت احلاماً بغيرها؟ تخليت عن الآلهـة القديمـة ولم أجد آلهـة غيرها؟ فليكن: المهم ان تكون هناك ارادة، وهذه وحدها يمكن ان تعيد تشكيل العالم مرة اخرى. لا اعرف كيف سيكون عالم الغد، لكن لدى البشر الكثير من الجنون ورغبة الحياة، وهذا وحده كفيل بايجاد عالم جديد.

هل قطعت عليكم الطريق! هل خـدعتكم او قصدت الى شيء سيّىء؟ لا اظن، لكن لدي بضع كلمات اخيرة:

خرجت من مستشفى سان باترير بعد فترة كانت قاسية عصبية، ليس بسبب الفحوص والمرض، وانما بسبب «صديقي» ابو مهند!

كيف يمكن ان يجتمع الشك والخوف والود في آن واحد؟ في مكان واحد؟

كان لا يثق إلا بما اقوله؛ وكان خائفاً وخجولاً وحائراً. لديه الكثير ليعترف به، لكن لا يجد الكلمات ولا يجد الطريقة. اقول له بنوع من التحريض:

ـ انس، يا ابو مهند، اننا كنا في العفير، احدنا جلاد والثاني ضحية، الأول آمر للسجن والثاني سجين. . . لقد كان ذلك منذ وقت قديم، وانا نفسي نسيت كل ذلك، وعليك ان تنسى!

يرد بحزن:

ـ لا اعرف كيف اقول. كنت خرا، كنت كلباً، انا لا استحق، وانت احسن مني. . .

ـ اترك هذا الكلام يا رجل. لقد نسيت كل وقائع الفترة الماضية، والحياة ليست يوماً او اثنين والناس للناس!

يصرخ كمجنون!

ـ الله كم كنت حيواناً ورديئاً ونذلاً. . .

يضرب السرير ويصرخ.

ـ لا فائدة مني، اصبحت جثة، ولا اعرف ماذا افعل!

ـ لا حاجة لأن تفعل اي شيء، يا ابو مهند، فقد كنت مجرد موظف. ربما انسجمت اكثر من اللازم لكن عليك ان تبدأ من جديد. . .

يعتبر طريقتي اكثر اهانة، يصرخ:

ـ ابدأ من جديد؟ اكون انساناً آخر؟ أنت مجنون. . .

ويتغيّر صوته، يتابع:

ـ ارجو الا تغضب مني: كنت مجنوناً وستبقى كذلك، وهذه هبة من الله!

ـ جن يا صاحبي، اذا كانت هذه ميزة وهبة من الله!

ـ لم اعد قادراً على اي شيء او نافعاً لأي شيء حتى على الجنون.

يتغير صوته مرة اخرى، وكأنه يحدث نفسه:

ـ اذا الله اعطاني عمراً، وعشت، وحتى لو راحت اكثر من الرجل، فلا بد ان ارجع، وسوف احاول ان اقضي ايامي، حتى اخر يوم، اصلي واستغفر، لعل الله يغفر لي ويسامحني.

يرفع وجهه الى اعلى ويقول بصوت مسكين:

- يا رب اذا اعطيتني العمر لن انساك، سوف اصلي واتوسل اليك ان تطهر روحي، فانا رجل لا يستحق ان تتطلع اليه، ان ترحمه، لكنك غفور رحيم . . . وحتى لو قتلني الناس الذين اسأت اليهم لن احزن ولن الومهم، المهم الآن يا رب راحة الضمير!

وعاد ابو مهند الى عمورية بقايا انسان: برجل واحدة والأخرى مقطوعة، وروحه الممزقة ترفرف فوقه كمظلة قديمة مهترئة. كنت الوحيد الذي ودعته في اورلي وساعدته في انجاز المعاملات الرسمية، علماً بأنه كان على موعد مع ممثل عن السفارة وجرى تأكيد هذا الموعد اكثر من مرة.

في اللحظة الأخيرة وهو يُدفع على الكرسي المتحرك، قال لي، وكان يشد على يدي!

- انتبهوا : رضوان فرج باع نفسه للجهاز، اصبح مسؤولاً عن منظمات الخارج!

وماذا ايضاً ؟

صدقوني . . لا اعرف!

واذا كانت هناك ضرورة لمنطق من اي نوع، فما يمكن ان اقوله: لقد دخلت الى غابة الجنون منذ ذلك الوقت البعيد، ولا ازال في تلك الغابة ادور. يتراءى لي، بعض الأحيان، انني ابصرت نهاية تلك الغابة، بدأت الوصول، لكن الظلمة لا تلبث ان تطبق وتضيع المسالك والدروب، واعاود، بتعب، الدوران من جديد بحثاً عن طريق.

قال لي سامي ايوب قبل ايام ونحن نجوس في غابة بولونيا، ونستعرض ما حصل:

- لا داعي للندم ابداً، لأن الندم يعيدنا الى الماضي، والماضي مضى وانقضى؛ علينا ان نجد طريقنا للمستقبل.

- الا تزال تفكر في المستقبل ايها الصديق؟

- وهل استطيع غير ذلك؟

ـ انت متفائل!

ـ لا يتعلق الأمر بالتفاؤل والتشاؤم، انه يتعلق بقدرتنا على ان نبدأ بشكل صحيح.

ـ وما هو الصحيح في غابة الجنون هذه؟

ـ لا اريد ان اكون نبياً او انوب عن الآخرين، في البحث عن طريق المستقبل، لكن مثلما علّم ديكارت الفرنسيين، ثم اوروبا فالعالم، اشياء اساسية، خاصة في المنهج، فاعتقد ان اعظم واهم ما علمهم كلمة تفوق كل الاشياء، علمهم كلمة: لا!

وغرقنا في صمت حزين. هذه الكلمة الصغيرة، فجرت في داخلي احزاناً لا نهاية لها. وبعد ان خلفنا الغابة وراءنا، وسرنا باتجاه محطة المترو، ظلت هذه الكلمة تدّوي في رأسي، رغم الصمت.

أما حين اصبحنا وسط باريس، واقترح سامي عليّ ان نذهب الى احد مقاهي الحي اللاتيني لنواصل الحديث، فقد اعتذرت. قلت له بمداعبة:

ـ لا تزال امامي عدة ملازم من «لميس» ويجب ان انجز تصحيحها كي تخرج المجلة في موعدها..

وابتسمت وانا اتابع:

ـ ثم ان الأكل الذي تقدمه صفحات المجلة اشهى والذ، بما لا يقاس، من اكل الصعاليك الذي تعودتم عليه في مطاعم الفقراء المنزوية!

ـ يحق لك ان تقول اي شيء!

ـ ليس ذلك فقط، احدى ملازم هذا العدد مخصصة لكيفية التعامل وحفظ انواع معينة من الفراء النادر. وهذا ما يجعلني اغرق في الدفء والعطور والأحلام... واتقاضى اجراً ايضاً!

ـ لدي كلمة كبيرة، لكن لا اجرؤ ان اقولها!

ـ لا حاجة لأن تقولها، اعرفها!

وبعد قليل، وهو يحاول ان يقنعني بالتصعلك، تابعت:

- الم تقل ان اعظم كلمة غيّرت وجه العالم هي كلمة لا ؟ اليس من حقي ان استعملها؟

- طبيعي لا . . . السنا من هناك ولم نتعلم بعد هذه الكلمة؟

وافترقنا ذهب ليترجم، وذهبت الى المطبعة لاصحح الملازم.

في وقت متأخر من الليل، وانا عائد الى غرفتي، كانت الأفكار والأحلام تتصارع في عقلي وقلبي .أما في الغرفة، وبعد ان رتبت ما يمكن اكله، وفردت امامي كتاباً لأقرأ قليلاً قبل ان انام، فقد شردت، وامتلأت حنيناً وبكاء . . . وغضباً ايضاً. وحين انتبهت لنفسي كان قد مر وقت طويل.

في وقت ما انزلقت الى فراشي. ما كدت اضع رأسي على الوسادة حتى بدأت اسمع النواح والأنين الآتي من هناك، وفي لحظة لاحقة سمعت ما يشبه الدوي. أما وانا انزلق الى النوم اكثر فقد احسست ان الأرض تتشقق ويعلو الصهيل. واتذكر انني حلمت احلاماً كثيرة تلك الليلة، وكان بعضها لا يخلو من فرح حزين.

شتاء ١٩٩١

الآن ... هُنا

حين فرغت من رواية عبد الرحمن منيف الجديدة ، أحسست حلقي جافاً ، وغمرني شعور ذاهل بالعار . كيف نعيش حياتنا اليومية ، ونحن نساكن هذا الرعب الذي يتربص بنا هنا . . . والآن ؟ اي صملاخ بليد يحجب عن اسماعنا الصراخ والانين ، كي نواصل نومنا كل ليلة ! اية ذاكرة مثقوبة تلك التي تتيح لنا ان نتناسى الآلاف الذين يهترئون في السجون هنا . . . والآن ! هذا عار يكاد يلامس التواطؤ . من خوفنا ، وغفلتنا ، وصمتنا يغزل الجلاد سياطه . ومن خوفنا ، وغفلتنا ، وصمتنا تغصّ بنا السجون ، وتغدو الحياة هنا والآن كابوساً من الجنون والرعب .

ان رواية عبد الرحمن منيف تمزق الصمت ، وتعلن الفضيحة . هذه الاوطان ـ السجون فضيحة ، وهؤلاء المواطنون ـ المساجين فضيحة ، وهذا التاريخ الشرق اوسطي معتقل يستنقع من الفضيحة . ورغم ان الرواية تلاحق هذه الفضيحة بتنوعاتها القطرية ، وتعدد مستوياتها ، فإنها تتعمد ان تظل قولاً ناقصاً ، قولاً لا يكتمل إلا اذا اضاف القارىء عليه موقفاً او فعلاً .

وبين التعرية والتحريض ، وبين النمنمة الفنية والوعي التاريخي ، يبني عبد الرحمن منيف رواية ـ شهادة ، لن نستطيع الاستغناء عنها اذا اردنا الآن . . . وهنا ، واذا اردنا ان نغيّر الى هنا . . . والآن ايضاً .

سعدالله



المؤسسة العربية للدراسات والنشر
بيروت ، ساقية الجنزير ، بناية برج الكارلتون ، ص.ب : ٥٤٦٠-١١
العنوان البرقي : موكيالي ، هـ ٨٠٧٩٠٠/١
تلكس : LE/DIRKAY ٤٠٠٦٧

صمم الغلاف : نذير نبعه